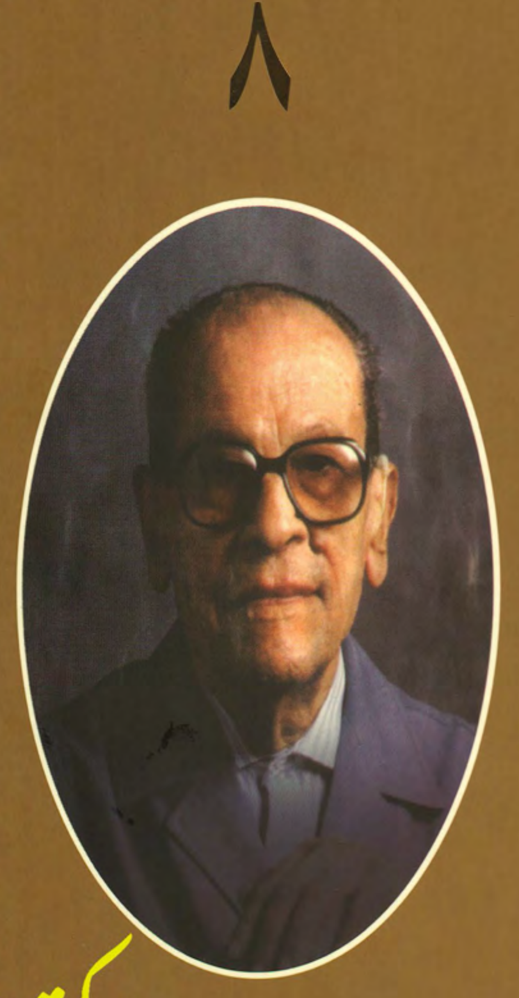
نجيب محفوظ

الأعمال الكاملة

٨



دار الشروق

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

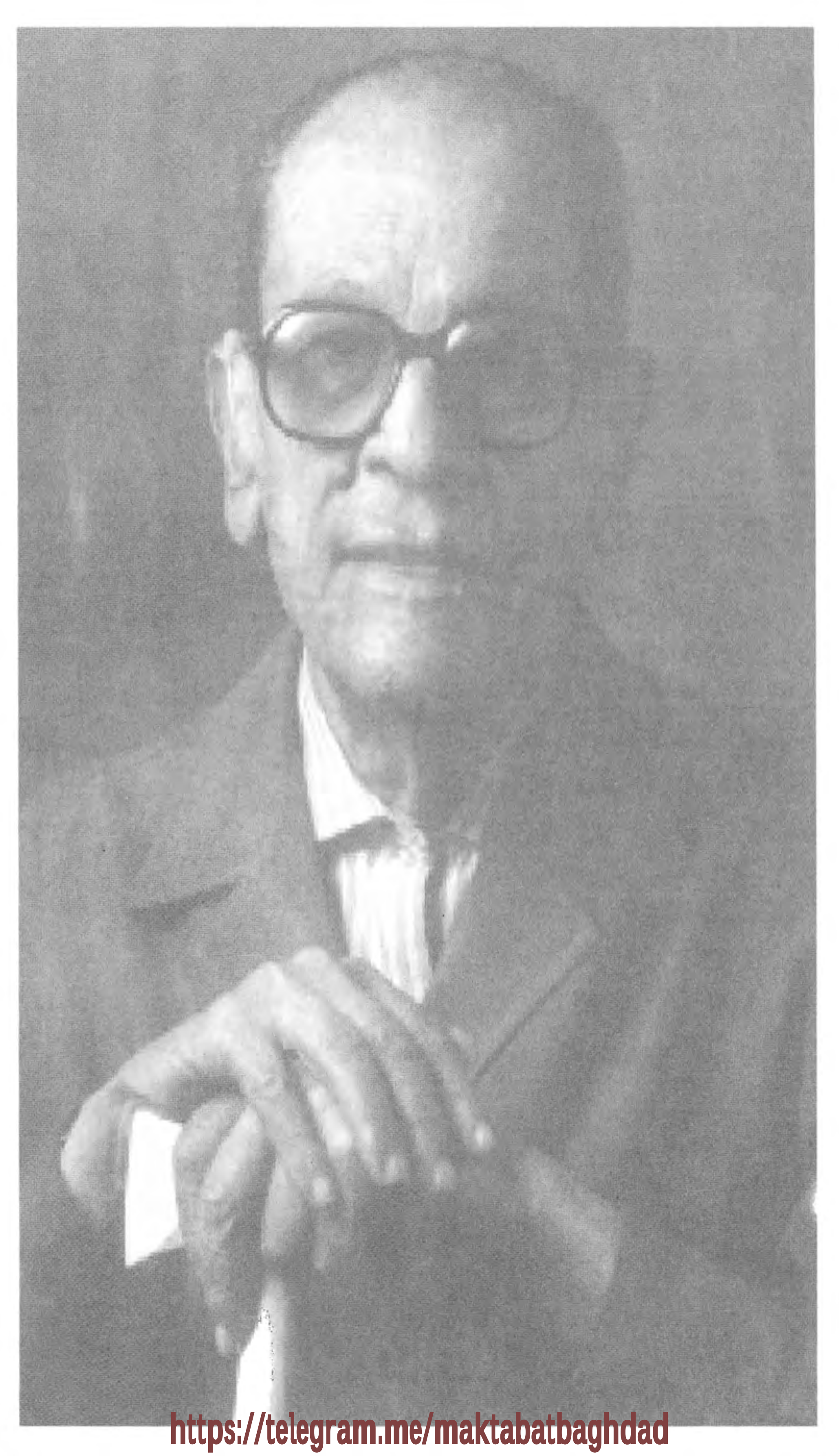
www.shorouk.com

الأعمـــال الكـــامـــلة

نجيب محفوظ

٨

دار الشروق



الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

٨



الحُبّ فوق هضبة الهرم

مجموعة قصصية

المحتويـــات

نـــور القمـــر

١

تجربة جنونية، انتشر نبضها فى زمان الوداع، وانغرست جذورها فى طمى النيل، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا، مهومة فى الحى الرنان ذى الإيحاءات اللانهائية، روض الفرج. اهتدانى إليه مصير حتمى، فهو مصيف من يبهظه الرحيل إلى الإسكندرية أو رأس البر. وهناك وجدت مقلدا لكشكش بيه، وآخر لبربرى مصر الوحيد، ثم قادتنى قدماى - من باب العلم بالشىء - إلى كازينو «الواق الواق» فقضيت سهرة سماع لصوت «نور القمر».

لعله أصغر المسارح، يقع فى نهاية الخط، مرسوم على هيئة سفينة، تطوق جانبيه أشجار الياسمين والحناء واللبلاب، ومقاصير أهل الخلوة، وتشغل وسطه صفوف الكراسى الخيزران. يقدم أول ما يقدم تواشيح عريقة، وتختها المكون من القانون والعود والكمان والرق وأربعة من السنيدة العجائز.

رفعت إلى المطربة عينين فاترتين، شىء أرعشنى كجرس تنبيه، انحصر وعيى كله فى النظر، لم أسمع من الغناء إلا أصداء متلاشية، انسحب منى الماضى وذاب، واتجهت

بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة، منذ تلك اللحظة أمسى «الواق الواق» مقصدى كل ليلة طوال فصل الصيف، لم أهجره ولكنه هجرنى بانتهاء المصيف وإغلاق المسارح والكازينوهات، وتحول روض الفرج إلى مرفأ لسفن الغلال.

٢

من هى «نور القمر»؟

امرأة ناضجة. تتألق بأبهة الأنوثة الكاملة. لعلها فى الثلاثين. تختلف الآراء فى تقدير سنها بحسب الأهواء. لا تجد عند أحد معلومة شافية عنها. قوى مجهولة تعزلها عن الناس فى موسم العمل ثم سرعان ما تختفى بقية العام، جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة جمالها ولكننى - فيما بدا لى - خُصِّصت بالهيام بها لحد الجنون. ماذا؟ إنهم منهكون فى الأكل والشرب والضحك والطرب، وإعجابهم بها عابر، على حين سلبت منى - بشراهة - الروح والجسد. ويقول من يدعون الخبرة:

- صوتها رقيق محبوب..

فأقول:

- ولكنها لا تغنى إلا الأغانى القديمة، وفى اعتقادى أن أى ملحن معاصر يسره أن يلحن لها..

- ولِم تدفن نفسها فى روض الفرج؟

- من يدرى؟

من يدرى حقًّا؟ إنها سر مغلق. علمى بها - كالآخرين - محدود جدًّا، أما هيامى فلا حدود له، على أى حال لم أعرف فى حياتى الانطواء أو السلبية.

٣

ولكن من أنا؟

من ذوى المعاشات، فى الخمسين من العمر، أعزب، ليس بينى وبين المرآة التى تعكس صورتى أى ضيق أو اعتراض. أحب الطعام الجيد، أكول، أحسن طهى ألوان من الطعام كأمهر الطهاة، ضحوك، صافى السريرة. غير أن عزوبتى ركزت اهتمامى فى

ذاتى فعلقت بى أنانية طفولية. كنت ضابطا بالجيش، أدركنى المعاش وأنا صاغ فى الخامسة والأربعين من عمرى، خدمت فى السودان والصعيد والسلوم. وكنت طوال عمرى جامح الأهواء، مغرما بالنساء، وسيىء السمعة، فى صباى وشبابى خيبت أمل والدى، رغم أنى كنت وحيدهما، بذلا جهدا طموحا ليجعلا منى طبيبا أو وكيل نيابة ولكننى لم أظفر بالابتدائية إلا بطلوع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة. لذت بالمدرسة الحربية كآخر معقل للأمل كى تجعل منى شيئا ما. وكنت بدينا مفرطا فى البدانة. . رمقنى ناظر المدرسة الإنجليزى بدهشة، كأنه تساءل عما جاء بى، ولكنى أظهرت من البراعة فى السباحة والعدو ما سره وفتح قلبه لى فقبلنى أو أصر على قبولى وهو الأصح. كان الفشل هو ما يدفعنا إلى المدرسة الحربية، لا الوطنية ولا الروح العسكرية. غير أن الروح تتولد بطريقة ما. أما الوطنية فقد تكفلت بها ثورة ١٩١٩. وقد اشتركت فى مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة وأصابنى جندى إنجليزى بالسونكى فى وركى، ولولا العفو العام لفصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء فى وظيفة محترمة نوعا ما. وتخرجت ملازما ثانيا فى نهاية أربعة أعوام دراسية، منها عام عقوبة لاشتراكى فى المظاهرة. وفى الترام سمعت أحدهم يهمس:

- كل هذا البدن وملازم ثان فقط؟!

فهمس الآخر:

- إنه فى وزن لواء!

وكان اللواءات فى تلك الأيام ذوى كروش وبدانة، تحسبهم قصابين لا عسكريين. ومات والداى، وامتدت خدمتى خمسة وعشرين عاما، ثم أدركنى المعاش فوجدت نفسى ضخما وحيدا ضائعا يعيش فى زنزانة انفرادية فى صورة شقة. رسمت خطة لإنقاص وزنى فصرت مقبولا، وفترت بهجة الطعام والنساء. وكان الشعر يستهوينى فقررت أن أتخذ من حافظ إبراهيم مثالا على نحو ما، وشغلت وقت وحدتى بالقراءة فى شتى المعارف الدنيوية والدينية، وبت من رواد قهوة المالية - قهوة أصحاب المعاشات - ألعب النرد والدومينو وأتكلم فى السياسة، وأعلق على الأحداث، أفلسفها مستعينا بثقافتى المتنامية. ثم أنضم لكثيرين لأداء صلاة الجمعة. ورحم كثيرون وحدتى فاقترحوا على أن أتزوج.

- الخمسون مقبولة، صحتك جيدة، لم تشب شعرة واحدة فى رأسك بعد، والجنس يعيش فى مثل هذه الظروف حتى آخر العمر. .

فكرت فى ذلك باهتمام فاق تصورى، ولكن ثبط همتى أن ظروفى لم ترشحنى إلا لامرأة يائسة وقد أبيت ذلك. الحق أنى اعتدلت فى شهواتى. ربما كرد فعل لما سبق،

وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعى فى القهوة، ونادرا ما وجدت الدافع القوى لمطاردة إحداهن. أصبح لهن فى قلبى أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدنيين، حتى اقتادنى مصيرى المحتوم إلى الواق الواق.

٤

عرفت الحب لأول مرة فى حياتى. إنه كالموت تسمع عنه كل حين خبرا ولكنك لا تعرفه إلا إذا حضر. وهو قوة طاغية، يلتهم فريسته، يسلبه أى قوة دفاع، يطمس عقله وإدراكه، يصبّ الجنون فى جوفه حتى يطفح به، إنه العذاب والسرور واللانهائى. تلاشى شخصى القديم تماما وحل محله آخر بلا تراث ولا مبادئ، ينقض على مصيره بعينين معصوبتين.

وجعلت أتساءل: «كيف الوصول إلى نور القمر؟».

إنها تغنى وصلتين ثم تختفى حتى مساء اليوم التالى. لا تُرى إلا فوق المسرح. لم تذهب إلى مقصورة قط. الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك، ويسعين إليه، أما هى فما إن تفرغ من الغناء حتى تتلاشى فى الكون. وإنى رجل فى الخمسين، محدود الدخل، لا جاه ولا مركز. لا قدرة لى على حيازتها، ولا أدرى إن كانت تقبل علاقة عابرة. أما ابتغاء الرضا والحب فما أبعده عن تصور من كان فى مثل سنى وحالى، وأما الزواج فماذا يعنى لها إن لم يعن الأبهة والرفاهية؟!

أشار علىّ العقل بأن أقتلع فكرتها من نفسى المعذبة، ولكن ليس للعقل صوت يسمع فى ضجة أهازيج الهوى، وصخب أمواجه العاتية، وأزيز أعاصيره الهوج.

وأعجب من ذلك كله أن يتحول خبير الأطعمة المتقنة، زير النساء، إلى مجنون ملهم، يهيم فى دنيا الحب المترعة بالأسرار، يخاطب بأنينه المجهول، ويجد فى البحث عن لا شىء فى كل شىء، فى ضياء الشمس، بهاء القمر، وهج النجوم، ثراء السحب، أريج الأزهار، سلاسة الماء، فقد غطت «نور القمر» على حياتى وحياة الكون من حولى..

٥

وفى بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهر ولو كان فى الأصل غليظا مشبعا بالإثم.
وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فآن لى أن أعرف الشجى، وأترنم بألحان الأسى.

مضيت أنسحب برفق من جو أصحاب المعاش، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت. ملأت «نور القمر» وجدانى واستأثرت بوعيى. أبيت الاستسلام للقهر والهزيمة. جعلت أشجع نفسى وأضرب لها الأمثال من ماضيّ: استهتارى الفائق، ومغامراتى الجريئة واقتحاماتى المذهلة. عبدت دائما ما أهوى وأريد واستهنت دائما بالتقاليد والسمعة والقيل والقال. وموقفى يوم المظاهرة المشهورة هل ينسى؟ لقد أضربنا وذهبنا إلى مدرسة الشرطة، هتفنا بالإضراب، ولما وجدنا ترددا أطلقت رصاصة فى الهواء! وتحديت بدانتى فكنت أعدو بسرعة الريح كأنى برميل بخارى. محال أن أتقاعس يا نور القمر..

٦

وصممت ذات ليلة. سمعت الوصلة الأولى وكانت:

كادنى الهوى وصبحت عليل

ثم غادرت مجلسى ماضيا إلى الباب الخلفى للكازينو واعترضنى البواب فقلت بكبرياء:

- أعرف طريقى!

سرعان ما جاءنى الجرسون حمودة مبتسما متسائلا:

- أى خدمة يا بيه؟

- حمودة، أرغب فى مقابلة نور القمر لأهديها إعجابى.

- الجميع يعلنون الإعجاب بالتصفيق.

- ولكنى أريد أن أقدمه بنفسى.

- ممنـــوع.

فتساءلت بحدة:

- من صاحب هذا الأمر السخيف؟

- أصحاب الشأن فى الكازينو، ما أنا إلا عبد مأمور..

- ولكن لماذا؟

- لا أدرى يا سيدى، جميع الزبائن يعرفون ذلك..

فقلت بعجرفة:

- ولكننى سأدخل..

فقال بتوسل يليق بزبون دائم مثلى :

ـ أرجوك يا بيه . .

ـ على مسئوليتى !

ـ هناك سنجة الترام .

أفقت من غضبى ، سنجة الترام هو فتوة المحل وحاميه ، لا قبل لى به فضلا عن أننى فى الخمسين من العمر . تراجعت متسائلا فى استنكار :

ـ لهذا الحـــد؟

ـ أنت بيه محترم ولا يليق بك الشغب !

تنهدت لأروح عن غيظى ، وقلت له :

ـ إذن فعليك أن تبلغها إعجابى . .

فقال بأسف :

ـ ولا هـــذا !

ـ أمر غريب حقّا !

ـ ما باليد حيلة . .

ـ لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها؟

فقال وهو يحنى رأسه :

ـ الراقصة وجوقتها تحت أمرك !

٧

إن هى إلا جولة خاسرة ولكنها ليست كل شىء . الطريق طويل والزمن طويل . ها هو ذا صوتك الحنون يتسرب إلى أعماقى معطرا بالفتنة وليس بينى وبينك إلا خطوات . لو كان لى أنف كلب لشممت أنفاسك ، لو كان لك قلب لركزت بصرك على عابدك . ولو أعيتنى السبل المادية فى الوصول إليك فثمة قوة الحب ستصنع معجزة فائقة للعقل وفى الوصول إليك هازئة بأعين الحراس .

فى تلك الليلة تعمدت التأخير حتى استقللت الترام الأخير ، واخترت مجلسى إلى جانب الجرسون حمودة ، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعد الرجل للحديث المتوقع . ولما غاص الترام فى الظلام شاقا طريقه بين الحقول تساءلت :

ـ ما معنى هذا يا حمودة؟

ـ تسأل عن نور القمر؟ . . هذا هو الواقع . .

ـ أهى سيدة مصونة حقّا؟

ـ هى كذلك فيما نرى . .

ـ وما السر؟

ـ لا علم لى به .

ـ يوجد سر ولا شك .

ـ علمى علمك .

ـ إنك تعرف السر ولكنك تمكر بى .

ـ صدقنى ، ليس عندى أكثر مما قلت .

ـ هل تؤمن بالخرافات؟

ـ إنها حقيقة لا خرافة .

ـ هل تصدقها؟

ـ فلنسلم بأنها شاذة ، ما الفائدة؟

ـ عندك تفسير لها؟

ـ لا أشغل نفسى بالتفكير فى ذلك .

ـ وراءك أشياء ولا شك؟

ـ أبدا ، صدقنى . .

ـ هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها؟

ـ كما ترى فإنى أذهب قبل ذلك حتى لا يفوتنى الترام الأخير .

ـ بأى وسيلة تذهب هى؟

ـ ربما بالتاكسى ، حنطور المدير موسى القبلى ، فورد صاحب الكازينو حفنى داود ، من يدرى؟

ـ الآن فهمت . .

ـ ماذا فهمت يا سيدى؟

ـ إنها عشيقة أحد الرجلين!

ـ الله وحده يعلم .

ـ ألا يعرف أحد شيئا عن سيرتها الخاصة؟!

ـ نحن نتجنب الفضول حفظا على رزقنا . .

ـ أين تسكن المرأة؟

ـ لا أدرى . .

فتنهدت وقلت بنبرة اعتراف :

ـ حمودة، أنت تدرك ولا شك ما وراء أسئلتى الملحة؟

ـ أجل يا بيه .

ـ والعمل؟

ـ ما باليد حيلة . . النساء كثيرات . . وكلهن فى النهاية طعام واحد . .

أهديت إليه سيجارة، وغمزته ببريزة، ولكنه قال :

ـ إنى لا أخدعك، وليس عندى مقابل!

ـ حمودة!

ـ صدقنى، لقد وقع فى هواها عمدة صعيدى واسع الثراء، ولكن ماذا أفاد؟

فهتفت بغيظ :

ـ إن ملكة مصر أيسر منالا من ذلك . .

ـ هذا هو الواقع . .

وتفكرت مليا ثم سألته :

ـ سنجة الترام رجل قوى، هل يمكن الاستعانة به؟

ـ لا أدرى، جرب إن شئت . .

حقّا إن مجرد الاتصال به مهانة ما بعدها مهانة، ولكن ما الحيلة؟ سألته :

ـ هل تساعدنى فى ذلك؟

ـ إنه صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب . .

ازددت امتعاضا وأنا أسأل :

ـ أيـــن؟

ـ قارب شراعى . .

ـ ممكن تمهد لى السبيل باعتبارى من أصحاب المزاج؟

ـ هذا ممكـــن . .

٨

لم أكن يوما من أصحاب المزاج . إنى من أصحاب الأمزجة الفوارة التى لا تتلاءم مع المخدرات . وقد دخنت مرة البانجو فى السودان وسرعان ما غشينى النوم فتوكد نفورى من المخدرات . وفى مثل الحال التى أنا مقبل عليها بوسعى أن أمثل وأن أتجنب التدخين الحقيقى . ما العمل وجنونى يستفحل؟ لقد ضاعت منى نفسى . جعلت أنظر إليها - كغريب - بعين الرثاء والأسى . وهان علىّ أن أسعى لمصادقة سنجة الترام . وهو ربعة ، متين البنيان ، ضخم الرأس والوجه ، فى جبينه ثلاث ندبات وفى أنفه اعوجاج ، واسع الأشداق كأنه من أكلة الأحجار . وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها - مع الإكرام - تستهلك خمسين قرشا ، وهو قدر لا يستهان به مع الاستمرار الذى يقتضيه توثيق العلاقة .

تسللت إلى القارب فصافحنى على ضوء شعلة عربة ترمس وتمتم :

- أهلا . .

فشددت على اليد الغليظة وأنا أقول :

- مساء الخير يا معلم سنجة . .

وانغرست على جانب وسط تكتل من الأوباش . وانساب القارب فوق الماء الرزين واهبا ذاته المتأرجحة لظلام دامس تشعشعه أضواء النجوم كالهمسات ، لعلهم من تجار الغلال والبصل ، ينكتون ويقهقهون بفظاظة . ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء ، ولاطفتنا نسائم معطرة برائحة النيل . ورغم حذرى ثقل رأسى ، وناء قلبى بالحزن . ومن حسن الحظ أن أحدا لم يهتم بأحد فلم أضطر إلى الخروج من صمتى وأفكارى . وعند الوراق غادرنا البعض ، وانفض السامر عند الفجر .

٩

وثقت المساهرة بينى وبين سنجة الترام . مساء الخير يا معلم سنجة ، مساء الخير يا أنور بيه . دعوته للغداء عند الدهان فدعانى للغداء فى المذبح . وجدتنى أندمج فى أوساط البلطجية وتجار المخدرات . أرهقنى الخزى والحزن ، عجبت لتدهورى ، وكيف

ساقنى إليه أنقى وأصدق عاطفة شدا بها قلبى. أجل طالما تحديت التقاليد والحرص على السمعة الطيبة، ولكن عربدة العشاق شىء ومخالطة الأوباش شىء آخر. ولم أعد أختلف إلى المقهى إلا فى النادر. وخمن الصحاب أن فى الأمر امرأة ولكنهم لم يتصوروا أى امرأة تكون، ولا أى تدهور دفعت إليه بيد حبها الناعمة، وطبعا كتمت سرى حتى لا أكون حديث الجادّ والساخر. كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة، غير أن بعض الشعر الذى سبقت لى معاشرته امتلأ بحياة جديدة وتبدى بحسن جديد وتفجر عن قوى جديدة فأدركت أن جمال الشعر لا يكمن فى ألفاظه وموسيقاه وصوره ولكنه يكمن قبل كل شىء فى القلب البشرى.

وفى تلك الفترة من حياتى زارتنى عمتى نظيمة، أرملة فى الستين، بكريها مهندس مقاول قد الدنيا، وشقيقه موظف دبلوماسى فى سفارتنا بالحبشة. قالت:

ـ انقطعت عنى مدة ولكنى لا أنساك.

فلثمت خدها النحيل ممتنا، وجعلت تتفحصنى باهتمام أثار قلقى، ثم تساءلت:

ـ حتى متى ترضى بهذه الحياة المقفرة؟

أدركت أنها تعود إلى موضوعها المفضل وهو «الزواج» فقلت:

ـ اعتدت يا عمتى العزوبة..

فقالت بحرارة:

ـ عادة سيئة، ضد مشيئة الله.

ـ كل شىء بمشيئة الله يا عمتى..

احتست الشاى وهى تفكر ثم قالت بنبرات جديدة تماما:

ـ أنور. حدثنى حمدى حديثا لا يصدق..

حمدى مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة، وقد اضطرب قلبى وتساءلت:

ـ مـــاذا؟

ـ قال إنك تصاحب قوما ليسوا من أصلك ولا مستواك!

فزعت. هل تتفشى الأسرار بهذه القوة؟ قلت مدافعا:

ـ كلنا أولاد حواء وآدم..

ـ ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل!

وقرأت فى وجهى ولا شك تحرجى وضيقى فقالت برقة:

ـ أردت أن أحذرك فسامحنى..

١٠

تألمت ولكنى لم أبال. عزمت على مزيد من الخطوات المسددة. ها هو ذا سنجة الترام يتردد على شقتى فى المنيرة رافعا الكلفة يتناول الطعام أحيانا، وأحيانا يضطجع نائما، ومرات أودع عندى حشيشه بعيدا عن أى مظنة. أصبح البيت بيته ابن القديمة، وحمت حوله متحينا الفرص. آنس إلىَّ فروى لى قصة حياته منذ نشأته فى سوق الزلط، معاركه، سجنه، بلاءه فى ثورة ١٩١٩، حتى اختير فتوة لكازينو الواق الواق.

- موسى القبلى هو الذى اتفق معى..

- المدير؟

- نعم.

فقلت بمكر:

- يقال إنه قريب لنور القمر.

- كلام فارغ..

- بذلك يفسرون عزلتها الغريبة..

- سكارى وأغبياء..

- أصل عزلتها تثير القيل والقال!

- إنها حرة تفعل ما تشاء..

- تعنى أنها هى التى ترفض المؤانسة؟

- علمى علمك، ما يهمنى أننى مكلف بإبعاد من تحدثه نفسه، بالاقتراب منها..

- بلا علم بسبب ذلك؟

- ليكن ما يكون، هبها امرأة مصونة، أو رجلا متنكرا فى صورة امرأة، أو عشيقة للمدير أو صاحب الكازينو، ماذا يهم؟ من حسن الحظ أننى لا أرغب فيها..

وضحكنا طويلا، ثم سألته:

- ماذا كنت تفعل؟

- كنت أقتحم الحارس والمحروس!

فقلت بدهاء:

- ظننت أن الأسرار لا تغيب عن رجل مثلك؟

ـ الأسرار التى تهمنى فقط .

ـ ألست صديق المدير وصاحب الكازينو؟

ـ لك أن تعتبرنى صديق الجميع ، ولك أن تعتبرنى بلا أصدقاء!

وكنت عرفت من طبعه أنه لا يطيق سماع ثناء على أحد فقلت :

ـ يبدو أن المدير رجل محترم!

فقال ساخرا :

ـ ما هو إلا قواد .

ـ قـواد؟!

ـ صاحب بيت دعارة!

انبهر رأسى بضوء فوسفورى مباغت . هل يستغل نور القمر بطريقة محنكة؟ ياالخيبة الأمل إذا لم تكن المرأة إلا مومسا؟! ولكن حتى هذا الفرض لم يطفئ لمعة الوجد فى قلبى ، بل لعله أرثها بفتح باب يسير للوصول . وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام فى مخايله فسألته :

ـ ما رأيك فى سهرة فى بيت موسى القبلى؟

فقال بازدراء :

ـ أعوذ بالله!

ـ من باب العلم بالشىء!

ـ ولكنك كهل محترم وأب!

فقلت ضاحكا :

ـ لست إلا أعزب!

ـ أعوذ بالله!

ثم مستدركا :

ـ وكيف تعيش بنصف دين؟

فقلت لنفسى بأسى : «حقّا ينقصنى النصف الآخر» . .

١١

قلت للجرسون حمودة وأنا أغمزه ببريزة :

ـ دلنى على بيت موسى القبلى . .

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، غمز بعينيه، قال:

- بريزة أخرى . .

فأثنيت فى سرى على صدق فراستى.

١٢

البيت فى أول شارع مهران السندى المتفرع من شارع دوبريه، شقة أنيقة، صامتة، الأبواب مغلقة، كأنها خالية. قدمنى حمودة إلى موسى القبلى فتلقانى بوجه ودود غير الوجه الذى يدير به الكازينو. وقلت لنفسى: من بلطجى إلى قواد يا قلبى لا تحزن. أما هو فقال بلا حياء:

- جنيهان من فضلك . .

دفعتهما بلا تردد، فقال:

- آخر حجرة فى الدهليز، هل تريد شرابا؟ زجاجة الأوتار بجنيه واحد . .

- اللص! . . إنها فى السوق بثلاثين قرشا. قلت معتذرا:

- ربما فى المرة القادمة.

فقال بشىء من الفتور:

- الهدوء هنا مهم جدّاً!

١٣

كم لعب الأمل بقلبى أن أجدها عقب فتح الباب ولكن المعجزة لا تقع بمثل هذه السهولة. ها هى ذى امرأة أخرى لا رغبة لى فيها. تنضم إلى سلسلة المغامرات العقيمة المتلاشية فى العدم واللامبالاة. وقررت أن أحوز ثقة موسى القبلى ورضاه. كما فعلت مع حمودة وسنجة الترام. وسطاء سوء، ولكن بيد أحدهم مفتاح الكنز. مثل هذا العناء تكابده الشجرة حتى يتمخض ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة.

واقترحت عليه - موسى القبلى - فى المرات التالية أن أشاربه فى حجرته الخاصة قبل الذهاب إلى حجرتى المقسومة. انبسط واعتبر ذلك تحية فريدة. وذات ليلة قال لى:

ـ علمت أنك من زبائن الواق الواق؟
ـ ألم تقع عيناك عليّ طالما رأيتك وأعجبت بإدارتك؟
ـ الأمر مختلف غير أن وجهك بدا لى غير غريب وأنت تطالعنى هنا لأول مرة .
شجعته على الشراب ، وقلت :
ـ إنى أشرب فى اعتدال لأسباب صحية .
ـ لكنها مفيدة للصحة .
فقلت ضاحكا :
ـ الأمر مختلف .
ـ مـوظــف؟
ـ على المعاش .
ـ لكنك مازلت فى طور الرجولة؟
ـ الضابط يحال على المعاش فى أى سن . .
ـ كنت ضابط جيش؟
ـ كنت !
فضحك عاليا وقال :
ـ حلمت فى صغرى بأن أكون ضابط شرطة .
ـ مصيرنا فى الحياة لا تتحكم فيه رغباتنا .
وهو يضحك مرة أخرى :
ـ على أى حال فعملى ذو علاقة وثيقة بالشرطة !
ـ فال الله ولا فالك .
ـ متزوج؟
ـ كــلا .
ـ يندر أن يجىء أحد فى سنك .
فقلت ساخرا :
ـ الحياة دائمة التقدم .
ـ وكيف عرفت بيتى؟
ـ صاحب الحاجة مستكشف . .
ـ حمودة؟

ـ نعـــــم .
ـ رجل غاية فى الفطنة .
فرميت سهمى الأخير قائلا :
ـ وقف مصادفة على سر شغفى بنور القمر . .
رفع حاجبيه الخفيفتين وقال :
ـ أنت من عشاقها؟
فحـنيت رأسى لبـلوغى آخر الأبواب ، وانتظرت الفرج غير أنه قال :
ـ لولا عزلتها ما أثارت شغف أحد . .
ـ ولكن الشغف سبق اكتشاف عزلتها . .
ـ لا تهتم بالممتنع ، عندى من هن خير منها !
يا للداهية ! . . هل خاب المسعى أيضًا؟ ! وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد؟

١٤

وسألنى سنجة الترام :
ـ كيف تطيق هذه الوحدة؟
كان قــد فـرغ من قدح الشاى الرابع فاسترخت جفونه من السطول ، أجبته :
ـ العادة أقوى من الوحدة .
ـ وهل يليق بمثلك التردد على بيت دعارة؟
فلم أحر جوابا ، أما هو فقال :
ـ اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك .
فضحكت وقلت :
ـ إنى الأعزب الأبدى يا معلم سنجة . .
فقال بصراحة مخيفة :
ـ عندى بنت مطلقة .
لطمنى قوله كنذير حريق ، أما هو فواصل :
ـ بنت ممتازة ، هدية ، أوقعها سوء الحظ فى رجل لا قيمة له .

ما توقعت أن أتعرض لغضبه قط . لعنت فى سرى الزمان والمكان . قلت :

ـ يلزمنى تفكير طويل ، فالتخلى عن عادة مزمنة كالعزوبة ليس بالأمر الهين !

١٥

بات الخطر تحتى تماما مثل ظل منتصف النهار ، انسحبْ من التجربة كلها قبل أن يدهمك القضاء ، هكذا حاورنى عقلى . ولكنى كنت أحلم بالنجاة وأن أتدحرج نحو الهاوية ، لم تعد قوة بقادرة على صدى . الحب المستبد الذى لا قاهر له . ذلك الغول الذى تغنيه فريسته عن المطاردة . الحلم الذى يزرى بكافة الأحلام ويحولها إلى نفاية . لم أنقطع عن موسى القبلى جريا وراء المزيد من الأمل والعرفان . ولما ثمل وانبعث من قلبه الخيال قال :

ـ بيتى محترم ، ليس بين زبائنه زبون واحد من الرعاع .

ابتسمت موافقا فتساءل :

ـ ما رأيك فى فتياتنا ؟

فقلت بإصرار :

ـ اعترفت لك بأننى مشغوف بالغناء .

ـ نور القمر ؟

ـ هو الحق .

ـ أنت رجل غريب .

ـ ألم تحبها أنت ؟

ـ كلا . . الحمد لله . .

ـ الحمد لله ؟ !

ـ لو بدرت منى حركة واحدة تنم عن ميل لفقدت عملى فى الحال .

ـ إذن فهو حفنى داود صاحب الكازينو !

ـ ماذا تعنى ؟

ـ هو العاشق الغيور . .

ـ إنه عجوز ذو وجه قرد .

ـ ذلك أدعى للغيرة . .

ـ صدقنى إننى أتجاهل الأمر كله.

ـ ولكن عندك أفكار ولاشك..

ـ ليكن عاشقها أو أباها.. من يدرى؟!

ـ هــل..

ـ هــل؟!

ـ هل يعجز مثلك عن مساعدتى؟

ـ ولم أكدر صفوى ومستقبلى بسببك؟

ـ كصديق..

ولكنه قاطعنى بجفاء:

ـ ما أنت إلا مغرض!

ـ لا تسئ بى الظن..

ـ لا تحاول إقحامى فى هذا الأمر، لا تكن أنانيا، غامر بنفسك إذا شئت وإلا فاصرف النظر.

فقلت بحرارة:

ـ أقدم لك الأسف والاعتذار!

مضيت أشاربه دافنا همى فى الصمت، ومضى يذوب فى النشوة وينفض عن نفسه الكدر، ثم سألنى:

ـ هل أغضبتك؟

ـ الحق لا يغضب، ولكن كيف عرفت حفنى داود؟!

ـ كان ناظر مدرسة أهلية وكنت كاتب حسابات عنده، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف، ومحاسبتها اضطر إلى تصفية المشروع، وبعد حين قدم مشروع الواق الواق وضمنى إليه مديرا.

ـ ومتى عملت نور القمر عنده؟

ـ من أول ليلة، لعله لم يقم المشروع إلا من أجلها.

ـ وهو الذى فرض عليها العزلة؟

ـ على الأقل هو الذى أصدر الأوامر إلينا..

ـ أتصور أنها تجىء معه وتذهب معه؟

ـ فى الفورد..

- لا شك فى أنه أصبح ذا مال؟

- أعتقد ذلك . .

لم أهدر الوقت سدى كما توهمت ، لقد أثريت بمعلومات مفيدة ، وتحدد سبيلى كما لم يتحدد من قبل ، ولن أقطع صلتى بموسى القبلى مداراة لنواياى الحقيقية . .

١٦

واقتحمنى سنجة الترام بزيارة توقعتها وخشيتها . وكنت قد تجنبت الانفراد به لعله يدرك موقفى من اقتراحه ولكنه كان مدمن بلطجة ، معتادا للأخذ دون مقابل ورغم المجاملات ران الفتور على اللقاء ، وبتخلى البشاشة عن قسماته أسفرت عن دمامتها وندرها . تساءل :

- ماذا جرى؟

إنه يتساءل عن سر تباعدى رغم وضوحه فيضطرنى إلى اختلاق المعاذير . قلت :

- ليس المزاج على ما يرام!

فقال بقحة :

- هذه عاقبة التردد على بيت قواد!

فقلت باستياء :

- ليس الأمر كذلك .

فسأل ببرود :

- متى تفى بوعدك؟!

- أى وعد يا معلم؟

- ألم نقرأ الفاتحة؟

حملقت فيه بذهول فقال :

- قرئت بالقلب ، أم وجدتنا دون المقام؟!

- أستغفر الله ، المسألة بالنسبة لى قفزة خطيرة .

فقال وهو ينهض :

- أم وجدتنا دون المقام؟!

غادرنى مضطربا . كلا . لم أعرف الجبن فى حياتى ، ولا كنت ممن تعرقلهم الخشية

على حسن السمعة. لكنى شعرت بأننى مقبل على عاصفة أو أن عاصفة مقبلة علىّ، وحتى هذه اللحظة فالنجاة ممكنة. ممكن أن أسدل بيدى ستارا على روض الفرج وبيت موسى القبلى وقارب سنجة، ثم أرجع إلى روتين حياتى السابق بين معاشرة الكتب وسمر قهوة المالية. هذا ممكن نظريا ولكنه مستحيل فى الواقع. الواقع أننى فريسة جنون طاغ يلفظ قيم الحياة كافة، ويتركز فى هدف واحد. ذلك يدفع بى فى شبكة من العلاقات المذهلة، والأخطار المحدقة، ويفتح لى طريقا واحدا إلى مصير محتوم.

١٧

تبادلنا الأنخاب، أنا وموسى القبلى. قال وهو يتفحصنى:

- لعلك شفيت من حبك؟

فهززت رأسى نفيا، قال:

- إنه أمر مضحك وعجيب..

- هل عندك نصيحة؟

- أأنت غنى؟

- كـلا..

- هذا يعنى ٩٠٪ من الأمل.

- لا مؤهلات من مال وشباب!

فقال بدهاء:

- ثمة وسيلة للشفاء، أن تكثر من زيارتنا!

- يخيل إلىّ أنك لم تعرف الحب يا موسى؟

- هـذا حـق..

ثم مواصلا بقحة:

- الحق أننى لا أحب النساء، لذلك أتعامل معهن بمهارة فائقة.

تفكرت مليا فى معنى قوله، ثم سألته:

- أترى حالى ميئوسا منها؟

- حدثنى أولا عن حبك؟

ـ ماذا أقول؟ . . إنها تفرض ذاتها على وجدانى وخيالى، أقوى وأعز من الحياة نفسها، لا غنى عنها كما أنه لا غنى للحياة عن أشعة الشمس.

فضحك على رغمه وقال:

ـ ما أعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط متقاعد خبير بالناس والحياة!

ـ نحن نعرف معنى الأسر أكثر من غيرنا.

فضحك مرة أخرى وقال وقد ثمل:

ـ منظرك ضخم لا يثير الرثاء أبدا!

فغضبت وقلت له موبخا:

ـ سكرت عليك اللعنة.

وقبل أن يفتح فاه دق جرس الباب الخارجى.

خف مسرعا مغادرا الحجرة. ترامت إلىَّ ضجة مريبة، قمت إلى باب الحجرة وأخرجت رأسى إلى الدهليز. رأيت مجموعة تتدفق من رجال الشرطة والمخبرين!

١٨

لم أشعر ـ من قبل ـ بمثل الذعر الذى اجتاحنى، تجسد لى وجه سنجة الترام وراء الكبسة. انقض على مخبر فقبض على أعلى الجاكتة. صكنى بكوعه فى صدرى وهو يقذفنى بوابل من الشتائم. اجتيحت الحجرات، سيق الرجال والنساء عرايا أو شبه عرايا. من حسن الحظ أننى لم أضبط متلبسا ولكن أى حسن حظ. حاولت أن أهمس بهويتى فى أذن الضابط ولكن المخبر أرجعنى بلكمة فى عنقى. انغمست فى العار حتى القمة. دفعنا إلى السيارة كخراف تشد إلى الذبح.

وصلنا إلى القسم وقد استل منى الإحساس والفكر. وكان تحقيق مهين. حجزت النساء، وموسى القبلى، وحررت المحاضر للرجال ثم أفرج عنهم. غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويتى. غادرت القسم شخصا جديدا عاريا تماما!

١٩

ذكرت الحادثة فى صفحة الحوادث الصباحية. لم تعلن أسماء ـ عدا موسى القبلى ـ وقيل عنى «وضابط جيش متقاعد فى الخمسين من عمره!». خُيِّل إلىَّ أنه إعلان كاف لفضحى فى محيط الأسرة وفى قهوة المالية. انزويت فى شقتى بالمنيرة غارقا فى القرف. طالت لحيتى وأهملت نفسى تماما. على تلك الحال زارتنى عمتى، وأكد لى قلبى بأن صهرها أخبرها بكل شىء. أقنعتنى ـ ما وسعها ذلك ـ بأن زيارتها عادية. سأصبح حديث الأسرة المحترمة. أبناء عمتى وعمى وخالى أناس محترمون حقّا، وطالما تبادلنا الازدراء الصامت. لا يحبنى فى أسرتى أحد إلا عمتى. ها هى ذى تعود إلى حديثها المفضل (الزواج).

ـ لا تكن عنيدا.

حدجتها بارتياب فقالت:

ـ أهملت نفسك أكثر مما يتصور العقل.

فضحكت ضحكة متكلفة وتساءلت:

ـ ماذا عندك من أخبار؟

فضحكت ضحكة عصبية وتمتمت:

ـ تصـور!

ثم اغرورقت عيناها، وقالت:

ـ إنك صورة طبق الأصل من أبيك، لك منزلة فى قلبى لا نظير لها، ليتك تعمل بنصيحتى!

٢٠

لم أفد من الدرس ما يتوقعه العقلاء. قلت إن الجنون حقّا هو الرجوع بعد ما كان. تخففت من البقية الباقية من الحياء فمزقت أثوابى. من الآن وإلى الأبد سأنتمى إلى عالم غير عالم الناس. سأفتح ذراعى للجنون والسفه، وخمر النزق المعتقة. الحياة لا تتكرر والحب أغلى جوهرة فى تاجها. وفى سبيل الجنون المقدس تستحل كل حماقة. اقتلعت

نفسى من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم. خف وزنى تماما وبت قادرا على الطيران والشيطنة، وليأخذ بزمامى نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى. وهدانى الصوت الخفى إلى خاطرة مبتكرة وجريئة. فقلت لحمودة الجرسون:

- سيسجن موسى القبلى فهل يمضى الكازينو بلا مدير؟

فقال وهو يرمقنى بانتباه:

- هذا ما يشغل حفنى بيه فى هذا الوقت..

فقلت بهدوء:

- إنى أرحب بهذا العمل!

- أنت؟!

- نعم أنا، لم لا؟

فتردد متفكرا، فقلت:

- قدم ما يسعك من معاونة وأنت مطمئن!

فقال حمودة بارتياب:

- إنى أخمن الدافع وراء ذلك..

- إنى أعرف الأصول!

- لدى أى خطأ تتورط فيه فسأعتبر بالتبعية متورطا فيه ومسئولا عنه وأخسر رزقى!

- لا تخش شيئًا من هذه الناحية.

- ألا تحاول الاستحواذ على المرأة؟

- كلا..

- إذن لماذا ترغب فى هذا العمل؟

فقلت باسما فى ثقة وإخلاص:

- ربما لأعمل فى رحابها..

٢١

دعانى حمودة ذات ليلة لمقابلة حفنى داود صاحب كازينو الواق الواق. وجدته وراء مكتب صغير وأنيق فى حجرة تطل بنافذة على النيل، واستقبلنى بوجه محايد، وراح يتفحص هيكلى الضخم بلا انفعال. كان عجوزا فى السبعين أو فوقها، ضئيل الجسم، له

سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينيه وبروز ذقنه. شعره الفضى مفروق وممشط بعناية، كذلك شاربه. أشار إلىّ فجلست على أحد مقعدين جلديين متقابلين أمام المكتب. تبادلنا النظر فى صمت مليا ثم سألنى:

- اسمك؟

- أنور عزمى.

- أنت ضابط جيش متقاعد حقّا؟

- أجل..

- وترغب فى العمل مديرا للكازينو؟

- نعـــم..

- ما الذى دفعك إلى ذلك؟

قلت ضابطا مشاعرى تماما:

- الفراغ فتاك. ثم إننى محدود المعاش!

- أتراه عملا مناسبا؟

- لِم لا.. وهناك سبب آخر أن أحتفظ به لموسى القبلى لحين خروجه من السجن!

- صديقه؟

- نعم..

- ولكن العمل يحتاج إلى خبرة خاصة؟

- أكثر مدة خدمتى فى الجيش انقضت فى الفروع الإدارية فأنا ذو خبرة بالإدارة والحسابات.

- العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكرية؟

- لا تنقصنى اللباقة!

وساد الصمت مرة أخرى ثم قال:

- لا بأس من تجربتك، ولكن اعلم أن أهم واجباتك أن تمنع المتطفلين عن نور القمر..

- على الإقناع وعلى سنجة القوة عند اللزوم!

- عظيم..

ونادى سنجة الترام وقد دهش لمرآى، فقال له حفنى داود مشيرا إلىَّ:

- أنور عزمى المدير الجديد، تعاون معه كما تعاونت مع موسى القبلى.

٢٢

لى مجلس خاص بمحاذاة المسرح . وإلى جانب النسبة المئوية التى تشكل مكافأتى على امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء . عملى الأساسى المحافظة على النظام، مراجعة دفتر التذاكر، التصدى لأى خلاف ينشب بين زبون وزبون، زبون وجرسون، زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة، إلى المهمة المقدمة على غيرها وهى صد المتطفلين عن نور القمر .

ولكن ماذا فعلت بنفسى؟

أظن يحسن بى أن أدفن هذا السؤال وأمثاله . عملى أشرف من غشيان غرزة سنجة، أو التردد على بيت موسى القبلى، أو موقفى فى القسم . فلتدر أسئلتى حول الحب نفسه فهو السر الجدير بالبحث والفهم حقّا . على أى حال فأنا لم أقع فى هوى امرأة عادية، جمالها الفائق معترف به من الجميع . وهى تتبدى فى هالة من الغموض المثير للفضول . تحدق بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب والضلال . ولكن هل اقتربت منها حقّا؟ الجواب بالإيجاب بالحساب المادى . فهأنذا أعمل لحساب حارسها الأخير . أقابله يوميا، أتلقى تعليماته . أقدم له الحساب إنى أتحرك على بعد خطوات من استراحتها الخاصة . سألتقى بها ذات مرة، فى حجرة حفنى داود أو فى الممشى وراء الكواليس . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بعد . لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس . كأنى بذلت ما بذلت وضحيت بما ضحيت لأصل فى النهاية إلى القرد العجوز . وإلى هذا كله جعلت أرقب سنجة الترام بحذر، وأخاف جانبه، وقد أعطانى حقى وزيادة . بل سألنى مرة :

- ألم تحن من جديد إلى قاربنا الشراعى؟

فشكرته بقلب يفيض بمقته وقلت :

- ستجمعنا الأيام بإذن الله .

لا شك فى أنه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجدنى - نتيجة لها - مديرا عليه! ولا خطر ببالى أن عملى الجديد سيبعدنى عن نور القمر خطوة بدلا من أن يقربنى منها خطوات . كنت وأنا زبون أراها من مقدمة الصفوف وفى مواجهتها، أتملى طلعتها البهية طيلة الوصلتين، وأسبح فى تيار أنغامها المنسرب . أما الآن فلا أراها إلا من زاوية جانبية، ويشغلنى العمل كثيرا عن التركيز فى عذوبة الصوت، وأسير أحيانا فى الممشى الفاصل بين جانبى الصالة كأنما لأتفقد النظام، وفى الحقيقة لأملأ عينى منها، وبأمل أن

ألفت عينيها إلى عبدها المعذب ولكنها كانت تهيم فى النغمة ولا ترى السامعين. وبات عزائى الوحيد أننى أنتمى إلى العالم الغامض المنور بنور القمر . .

٢٣

ثمة علاقة عجيبة بين حفنى داود ونور القمر، ما هى؟ هو الذى يسيطر على ظهورها واختفائها، ويرسم الحدود التى لا يجوز تخطيها، وهى تجىء وتذهب، تغنى وتسكت، تنزوى وتصمت، بإملائه وتوجيهه، فأى قوة خفية يملكها هذا العجوز القرد؟! وإلى هذا كله فهى تتبدى هادئة سعيدة، لم لا؟ ما دام لا تبدر منها بادرة غضب أو تمرد، وهو ليس أباها فالقرد لا ينجب ملاكا، وليس زوجها وإلا لعرف ذلك على أوسع نطاق، ولا يتصور أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه، فما سر هذه العلاقة العجيبة؟! وهبه ثريا فما قناعته بهذا المسرح الصيفى، لم لَمْ يجعل منها نجمة من نجوم شارع عماد الدين؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها ألا يشكل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هى عليه؟! هذا مؤكد فيما أرى، لا شك فى أنها القوة الحقيقية فى هذه العلاقة الغامضة، وما جنيت حتى الآن من مغامرتى إلا زيادة فى اضطرام عواطفى وهياج أحلامى وحومانى بجنون حول الخطوة التالية. إنى أقبع فى مجلسى، رفيقى قدح من البيرة مكلل بالزبد، أناجى طيلة الوقت أحلاما طائشة. أتصور أنها علمت بالمدير الجديد، عرفت اسمه وهويته، لمحته مرة أو أكثر، راقها منظره، لم لا؟ حدست السر وراء سعيه، وحتما سيصاب حفنى داود مرة بوعكة تمنعه من المجىء، أو سينقضى أجله، أو أجد حيلة للتخلص منه. عند ذاك تتسرب أضواء الأمل فى هذا الليل البهيم، وينفسح المجال أمام الحب ليصنع معجزاته، إنى أتمزّز البيرة، وأحلم، وأتذوق النشوة، أعانى العذاب المقدس. ومن ناحية تلاطفنى بسمة مفعمة بأريج الياسمين. .

٢٤

الظاهر أننى شغلت بال حفنى داود كما شغل بالى، فعقب المحاسبة والتشطيب فى ذات ليلة قال لى:

ـ لا تذهب.

فلبثت فى مقعدى الجلدى لعبة بيد الاحتمالات المتناقضة، ونهض قائلا :

ـ تعــال .

خرج من البـاب الخلفى وأنا ظله، رأيت الفـورد قـابعـة فى الظلام المتـفـشى عـقب التشطيب وإطفاء الأنوار. فتح الباب الخلفى قائلا :

ـ تفضل . .

واتخذ مجلسه فى المقعد الأمامى أمام عجلة القيادة. سرعان ما تبينت وجودها إلى جانبـه فكاد قلبى يثب من صدرى. هكذا جـاءت الخطوة التـالية بلا سعى منى أو تدبر، جاءت كضحكة الشروق مسربلة ببهجة سماوية. واندفعت تلقائيا إلى تحيتها فقلت :

ـ مساء الخير يا هانم .

فغمغمت برد غامض. وخفت عواقب خرقى للتقاليد، ركزت بصرى عليها لائذا بالظلمة. تمليت رسم خلفية رأسها وأعلى منكبيها، ميزت قبعتها العريضة وشملتها المطرزة بالترتر، وثملت بعطرها الفواح. شبران هما ما يفصلان بينى وبينها. انسابت السيارة فى الظلام ممزقة هدوء الحقول بأزيز محركها، انسبت معها فى بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره الشجى. وددت أن أسمع صوتها وهى تحادثه أو أن تمتد الرحلة إلى الأبد.

وجدت السيارة تدخل حى المنيرة، الحى الذى ولدت وما زلت أقيم فيه، ودارت إلى شارع أصلان فوقفت أمام فيللا صغيرة مكونة من حديقة ودور واحد تقع خلف العمارة التى أسكن فيها مباشرة، لم أتمالك أن قلت بدهشة :

ـ إنى أسكن العمارة خلف الفيللا مباشرة!

فأجاب حفنى بصوت محايد أطفأ حماسى :

ـ عظيــم . .

أدخلت إلى حجرة أنيقة مؤثثة على الطراز العربى. جلست على ديوان رانيا إلى القنديل بإعجاب، مناديا إرادتى لجمع شتات فكرى والسيطرة على هوج انفعالاتى. لبثت وحدى عشر دقائق، استقر بقلبى خلالها إحساس مطمئن بالانتماء.

وجاء حفنى داود فى روب صيفى مزركش مثل جدران الحجرة، يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة. رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وألفة. أتقع المعجزة وتهل نور القمر بطلعتها السنية؟!

ذهب إلى الباب فأغلقه ثم اتخذ مجلسه بادئا النشاط المعهود. خاب الأمل. صمتت بلابل السرور. ما الذى دعاه إلى استصحابى معه؟ رغم طعونه فى السن فهو مدخن

شره. جاريته رغم نفورى الطبيعى من المخدر. مهما يكن من عبثية الرحلة فقد اهتديت إلى المقام وأمسيت جليسا لصاحبه. وإذا به يقول:

- لا شك فى أنك تتساءل عن سر الدعوة ولك حق. اعلم أنى رجل صريح واضح، وأنت بدورك رجل عسكرى لا يناسبه اللف والدوران.

فرنوت إليه متسائلا، فقال:

- المسألة تتلخص فى الآتى، سفر إلى السويس، نزول فى فندق الفردوس، يدخل عليك صباحا خادم بالفطور، يترك فى الحجرة لفة معينة، يذهب، تضع اللفة فى حقيبتك، ترجع بالسلامة، توتة توتة فرغت الحدوتة!

إزاء كل عبارة تقهقرت ميلا منغمسا فى مستنقع الخيبة. تمتمت:

- تهـريب!

- سمه ما تشاء من الأسماء، أربع مرات فى الشهر، مائة جنيه مكافأة عن كل مرة!

- لكنه تهريب!

- الشك لا يمكن أن يرتقى إلى شخص محترم مثلك..

- عندك ولا شك من يقوم بذلك خيرا منى..

- أنت خير من يقوم به حتى يخرج صديقك من السجن.

فقلت باستياء:

- لن أكون مهربا!

- ألا يغريك الثراء؟

- بلى، ولكن الوسيلة أن تكون شريفة..

- أنت حر طبعا، ولكن العمل لا مساس فيه للشرف!

- هو كذلك فى نظرى..

- لعله الخوف؟!

فقلت بحدة:

- لست جبانا..

- أنت حر يا أنور بيه.

وخطرت لى فكرة ماكرة فسألته:

- أنت رجل محترم فلِم لا تقوم بالمهمة بنفسك؟

- وقتى لا يسمح بذلكَ!

فقلت بإصرار:
ـ لا أحب الأعمال المخالفة للقانون!
ـ أنا لا أعترف إلا بالقانون الإلهى..
ـ آسف جدًا يا حفنى بيه..
صمت.. رجعنا إلى التدخين المتواصل. تنهد أخيرا وقال:
ـ على أى حال لنفترق أصدقاء..
ظننته يطالبنى بالانصراف فهممت بالقيام ولكنه قال بسرعة:
ـ لا أعنى هذا، أعنى أن أختار مديرا جديدا!
وقفت مادا يدى، صافحنى وهو يقول:
ـ فكر، إنى منتظر جوابك النهائى غدا!

٢٥

نجح فى أن يبقينى صاحيا حتى صباح اليوم التالى. إنى مفقود بحسب التعبير العسكرى، وقلت بصوت مرتفع فى حجرة الجلوس بشقتى:
ـ لا.. لا.. لا..
إن يكن القرب نارا فالبعد موت... ومهما يكن الثمن فلن أرتضى هجر الواق الواق. فيم التردد وقد انتهى أنور عزمى من زمان؟! لقد هجر الأقارب والأصدقاء، تخطى العرف والتقاليد، تمرغ فى السمعة السيئة، حمل فى سيارة الشرطة بين المومسات، يعمل فى وظيفة بينها وبين القوادة نصف خطوة. فيم التردد؟ لم اللغو بمنطق العقلاء وأنت مجنون؟! حقًا إنى أتدهور إلى غير ما حد، ولكن ما أحوجنىَ إلى رحمتك يا إله المعذبين؟!
ومضيت إلى حجرة حفنى داود فرمقنى ببرود وتساءل:
ـ يبدو أنك اتخذت قرارا؟
فحنيت رأسى فى تسليم فسألنى:
ـ ترى كيف تغير رأيك؟
فقلت غاضا بصرى:
ـ الثراء، أليس هو بالإغراء الكافى؟!

ورجعت إلى مجلسى بخاطرة جديدة من الشك. هل فطن الرجل إلى غرامى بنور القمر؟ العاشق تفضحه أحواله. وهناك أيضا حمودة المطلع على سرى، وكان موسى القبلى كذلك قبله. ولعل العجوز لم يقبلنى مديرا إلا لعلمه بحالى واعتزامه استغلالى إلى أقصى حد. لو صحت ظنونى فعلىَّ أن أتوقع البطش بى لدى أول بادرة تهديد من ناحيتى. ولكن لعلها مجرد ظنون ووساوس لا أساس لها. .

٢٦

ذهبت وجئت وقبضت. لأول مرة يمتلئ جيبى ويصير لى حساب فى البنك. من أعماق الظلمات التى أتردى فيها صعد إلى شعور ملىء بالثقة والنشوة، ينتشر مثل الشذا الطيب، أملى على بأننى أسير فى الطريق الصحيح وأننى بالغ شجرة طوبى[1]. شعور داخلى كنشوة الخمر. ذو قوة تتفتت حيالها صخور الواقع المتحدية. ولم يكن مجرد شعور باطنى فحسب. فالمنطق آزره بطريقته الخاصة معتبرا ما ترديت فيه من درجات السقوط مما لا يمكن أن يضيع عبثا ولكنه الثمن الفادح يؤدى مقدما، وأن حسن الختام آت لا ريب فيه. هكذا عللت نفسى بالأمانى لأتزود بالصبر وألطف من نذالة الجو. وحسبى الآن أننى أمكث فى هالتها كل ليلة فى الفورد مقدار نصف ساعة تضاف إلى رصيد الوصلتين بالواق الواق. وحسبى أيضا أنى صرت عضوا خارجيا فى الأسرة وجليسا دائما فى الحجرة العربية ومغامرة يحمل إليها كل أسبوع كنز نعيمها الوفير، ولدى بعد ذلك عزاء الإنسان ـ أحلامه المتهورة ـ التى تحلق به فى الفضاء بلا أجنحة.

وفى إحدى سهرات الليالى الزرقاء بالحجرة العربية سألته:

ـ لم تقنع بفصل نشاط محدود فى ملهى ثانوى بروض الفرج؟!

فأجاب باقتضاب:

ـ فيه ما يكفى. .

ـ ولكن ثمة ملحنين معاصرين متفوقين وألحان جديدة وملاهى عامرة بعماد الدين؟

فثقبنى بنظرة كريهة وسألنى:

ـ ماذا يهمك من ذلك؟

فرجف قلبى غير أننى ضحكت قائلا:

ـ يبدو أننى أصبحت من رجال الأعمال!

فقال ببرود:

ـ كلا. أنت موظف يا جنرال!

تضاعف حنقى عليه، تمنيت تحطيم جمجمته، وتساءلت:

ـ ألا تحب الذيوع والتوسع والشهرة؟

فأجاب بصوت أبرد من الأول:

ـ كـــلا..

المسألة أنك أنانى وجبان. وحريص على حبس العصفور المغرد فى القفص. تخاف عليها من الملحنين ومن الجمهور الحقيقى، ولكن لماذا لا تحكم قبضتك المعروقة المدبوغة فتبقيها فى الفيللا مثل جوارى الحريم؟!

٢٧

الحيـاة تمضـى فى طريقـها لا أجنى منهـا إلا أمر الثـمرات. أحـترق مثل الشـمعـة فيتـرسب ذوبى فى ماء آسن. وأسـرى عن نفسى فأقـول لها إنى خليـفتـه، لا خليـفة له غيرى. ولكن هل أقنع بالصبر كـالعـجائز؟ ألا يجدر بى أنا المغامر بالتـهريب أن أغـامر بالاقتحام؟! ولكن كيف وهو متصد لى مثل كلب الحراسة؟! حقًّا إنى لمجنون. أسير قوى غـامضـة تترامى خيـوطهـا حتى تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقـد فى مركز الأرض. ويؤكد جنونى وأسرى الخفيف والنسمة والخوار والضجة والتغريد والألوان والضوء وكل شىء.

وتتوقف الحياة فجأة عندما تدق الساعة الثامنة مساء فلا يجىء الفورد كعادته كل ليلة.. انتظرت متابعا عقارب الساعة. اقترب ميعاد الغناء فاتصلت بالفيللا بالتليفون. رد على صوتها:

ـ آلـــو.

ـ آلـــو.

ـ أنور عزمى.. ماذا أخركم؟

ـ لن نأتى الليلة..

ـ ولكن الجمهور منتظر..

ـ تصرف.. مع السلامة..

قطعت الخط. وجدتنى فى دوامة من الابتهاج والانفعال والحيرة. إنه أول حوار يدور

بينى وبينها وإن لم تمازجه نبرة طيبة أو كلمة مجاملة. أين حفنى داود؟ لِم لَمْ يبلغنى بالأمر؟ لِم لَمْ يرد بنفسه؟

وكانَ علىَّ أن أواجه الجمهور معتذرا عن غياب نور القمر.

٢٨

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيللا بشارع أصلان. نائمة مغلقة بالظلام ولا بصيص نور فى الداخل. إنها تطرد الزائر بصرامة موحشة. مضيت إلى شقتى فلم يطرق عينى نوم حتى الصباح. ترى هل جاءت المعجزة؟ عم ينكشف الستار الأسود؟

ورجعت إليها حوالى التاسعة صباحا. سألت البواب:

- حفنى بيه موجود؟

أجاب الرجل:

- البيه مريض.

تصرفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات. وجدت فى المدخل ممرضة فقلت لها:

- إنى مدير أعمال حفنى بيه.. كيف حاله؟

- لعله أحسن..

- ماذا به؟

- تعب فى القلب..

- هل أستطيع رؤيته؟

غابت دقيقة ثم رجعت وهى تشير إلىَّ بالدخول. رأيته راقدا لا يبدو من الغطاء إلا وجهه. لمحت مخايل الموت فى نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة وهمومها. الحجرة خالية بخلاف ما توقعت!

- لا بأس عليك، شد حيلك..

أجاب بصوت خافت:

- شـــكرا.

- لن أرهقك بالحديث..

- لا أهمية لذلك.. إنها النهاية!

أشار إلىَّ بالجلوس على مقعد قريب من الفراش وقال:

ـ لم أتوقع حضورك!

فتساءلت فى دهشة:

ـ كيف؟ لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس ولكنى وجدت البيت نائما تماما..

قال باقتضاب:

ـ ذهبت!

جفل قلبى، تساءلت:

ـ من؟

ـ لم تضيع لحظة.. هربت!

ـ نور القمر؟

ـ المتوحشة..

فترت انفعالاتى كلها كشعلة ضئيلة ردمت بكوم تراب! فلم أدر ماذا أقول، أما هو فقد تحطمت مغالبته وتدفق الاعتراف بلا ضابط..

ـ إنها عذراء، إنه الحب، إنه الجنون، أنت تفهم معنى ما أقول!

حدجته بنظرة محرجة وبائسة فقال:

ـ توهمت وقتا أنه أنت..

ـ أنا؟!

ـ إنك برىء، وأحمق مثلى، إنها ابنة المرحومة زوجتى شبت تنادينى بالأبوة، ماتت أمها وهى عروس فى السادسة عشرة. حاولت محاولة يائسة ثم قررت الاحتفاظ بها مهما كلفنى جنونى، بسببها خسرت مشروع مدرسة أهلية كانت تدر علىَّ رزقا لا بأس به...

وعيت كل كلمة ولكن ما الفائدة؟ سألته:

ـ أين تظنها ذهبت؟

تجاهل سؤالى وواصل اعترافه:

ـ حصلت على المال بأى ثمن كما تعلم لأوفر لها أسباب السعادة، أنشأت مشروع روض الفرج لأشبع رغبتها فى الغناء والفن، تجرعت العذاب ليلة بعد أخرى، فعلت المستحيل..

تساءلت بحيرة:

ـ ألم يكن بوسعها أن تتمرد عليك؟

ـ كلا..

ـ لِـــم؟

وهـو يتنهـد:

ـ موهبة إذا شئت!

ـ أى موهبة؟

ـ فى عينى، لا تفسير لذلك..

أيخرف الرجل؟ أيؤمن بالسحر؟ هل يتمتع بقوة تسلطية خاصة؟

ـ بمجرد أن اقتحمنى المرض طارت..

ـ متى؟ لقـد ردت على مكالمة تليفونى فى منتصـف التاسـعة من أمس..

ـ لم تنتظر النهار.. ربما عند منتصف الليل أو عقب ذلك!

كـان من الممكن أن أصـادفـهـا فى مـوقف أمـام الفـيللا! يا للحـسـرة المعـذبة! وعـدت أتساءل:

ـ أين تظنها ذهبت؟

فتمتــم

ـ يا له من سؤال أحمق!

٢٩

مات حفنى داود فى نهاية الأسبوع. أغلق الواق الواق أبوابه ولما ينته الموسم. توارت عن عينى الحياة الجديدة بأضوائها وأناسها فوجدتنى منبوذا خارج الأسوار. أنا وحبى الشهيد. هل خدعنى الشعور الباطنى الملهم كما خدعنى المنطق؟! هل أرضى من الغنيمة بالإياب سالما من قبضة الشرطة؟ الحيـاة قفراء لدرجة الرعب. لا شىء ولا معنى ولا طعم. وهذا الإحساس المتغلغل فى الأعماق بالإحباط والحزن وخيبة الأمل. هل أستطيع أن أواصل الحياة بخواء شامل وقلب معذب؟ وإنى لأتحرى كلما وجدت إلى التحرى سبيلا. أستجوب بواب الفيللا وحمودة وسنجة الترام. أغشى الملاهى ملهى بعد ملهى. أمشى فى الأسواق والشوارع كالمخبرين. فعلت أكثر من ذلك. قصدت قسم المنيرة. أدعى أن لى دينا فى عنق الفتاة المختفية. أعطيت أوصافها وما لدى من معلومات قليلة عنها، طالبت بمعاونتى فى العثور عليها. اندفعت فى كل سبيل بقوة جنونى وألمى.

ولما بلغ بى الألم حده الأعلى قررت أن أقاوم ما دمت أرفض فكرة الانتحار. تجنبت

زنزانتى ما وسعنى ذلك، ولكن قهوة المالية لا تشغل إلا بعض وقتى ولم تجد كثيرا فى تسليتى. خطر لى أن أقامر، فالقمار ينسى الإنسان النوم والطعام فلعله يبرئه من الحب. وجدت فيه مهربا محموما ولكنه لم يستطع أن يستغرقنى وأساء إلى أعصابى إساءة حملتنى على إعادة التفكير. والتمست الشفاء فى الكتب الروحية، ولا أنكر أنها فتحت لى باب أمل ولكنه لا يؤتى ثمرته بلقاء المحبوبة إلا بعد الموت، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار. وخطوت خطوة جديدة تماما فاستشرت طبيبا نفسيا. قصصت عليه قصتى، رأيته يصغى بعناية وحدب. ولما وجدته يرمق هيكلى الضخم قلت له مرددا قولا قديما:

ـ منظرى لا يثير الرثاء!

فقال بجدية:

ـ إنك إنسان معذب..

ثم قال بعد هنيهة:

ـ لا أعتقد أنك مريض إلا إذا اعتبرنا الحب مرضا!

فسألته بتوسل:

ـ ألا يوجد علاج لحالى؟ أعنى عقاقير مفيدة مثلا؟

ـ العقاقير مفيدة ولكنى لا أنصح بها إلا عند اليأس..

ـ أظن أن حالى ميئوس منها تماما.

ـ ليس الأمر كما تتصور.. إنك سجين ذاتك وعلاجك فى أن تخرج منها..

ارتبكت أمام أقواله فصمت مبتهلا، فقال بوضوح:

ـ أنصحك أولا بالزواج، أنصحك ثانيا بالاندماج فى نشاط اجتماعى أو سياسى، إذا لم يُجْد معك فلدينا آخر وسيلة وهى العقاقير..

بقدر ما أعانى من ألم بقدر ما أصمم على المقاومة، أزمتى تكشف لى عن جوانب ظلت خافية فى نفسى بلا استغلال. زرت عمتى نظيمة وعالنتها برغبتى فى الزواج. صادفتنا عراقيل غير يسيرة. السن مثلا والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتى الماضية. ولكن ثمة نساء فضليات يعانين ظروفا سيئة ويرحبن بالزواج بقلب متسامح وعقل متفتح.. وجدت بينهن أرملة فى الحلقة الرابعة، أما لفتاة متزوجة، متوسطة الحال والمنشأ والتعليم تدعى فائزة. جددت شقتى بالترميم والتجديد والطلاء ثم استقبلت بها عروسى. الأمر بالنسبة لى علاج. فى نظر عمتى رغبة فى الاستقرار والإنجاب، ليس زواج حب ولكنه زواج للشفاء من الحب أو تخفيف حدة جنونه، عناصره الأساسية الطيبة والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنة. سرعان ما لمحت مخايل الأبوة، تلقيتها

بقلق وحب استطلاع ونوع من السرور، ولكنَّ أسير الحب ما زال يرزح تحت أغلاله الصلبة. ثمة شعور بالذنب كدرني أني فى الحياة الأخرى سأطلق زوجتى المخلصة لأتزوج من الأخرى! من يدرى؟! فلعل زوجتى ترجع وقتذاك إلى زوجها المتوفى أو إلى من يروق لها من الأرواح الخالدة!

ثم خضت تجربة الانتماء السياسى. تجربة مثيرة للعب عندما يشرع فيها إنسان جاوز الخمسين من عمره بلا انتماء. ألم يتقرر لى ميل محدد منذ اشتركت فى المظاهرة وأطلقت الرصاصة فى فناء مدرسة الشرطة؟ ولكن الوطن يموج بتيارات جديدة أيضا. تيار دينى عنيف، تيار يسارى متطرف، تيار فاشستى حاد. تحيرت طويلا بين المبادئ. فى كل واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض. وبدافع من ميولى القديمة اتجهت نحو الوفد، وبخاصة نحو جناحه اليسارى. فيه يطمئن إيمانى الراسخ بالله وحماسى العقلى الجديد للعدالة الاجتماعية. وهو محطة تأمل حتى أكتسب مزيدا من الخبرة والضوء وأفيد فى الوقت نفسه من نفوذ الحزب الشعبى.. سرعان ما انضممت إلى لجنة الوفد بالمنيرة. انغمست فى الزوجية والسياسة، رغم ذلك ظل الأسير الكامن فىَّ يناضل سلاسله، طالبت بترشيحى فى الانتخابات ولكن مطالبتى رفضت لحداثة عهدى الرسمى بالوفدية. رشحت نفسى على مبادئ الوفد. وجدتنى أنافس مرشح الوفد الرسمى ومرشحا آخر من الإخوان. وعند احتدام المعركة وزعت منشورات غريبة استهدفت نفسى تماما.

فيها كلام عن محضر الشرطة إثر القبض علىَّ فى بيت موسى القبلى، وكلام عن وظيفتى كمدير للواق الواق، وتعليقات ساخرة وجارحة، وخسرت التأمين، ولكنى كعادتى توثبت بكل قوتى لمواصلة المعركة السياسية.. خطبت، حررت فى الصحف، وثقت علاقتى بالزعماء، تبرعت من مدخرات التهريب للجهاد، مضى الأسير على مضى الأعوام يتخفف من آلامه ويتحول ألمه إلى أسى مقدس وهادئ لا يموت ولا يحيا بعنف وعربدة.

* * *

وفى صيف أحد الأعوام سافرت ضمن وفد برلمانى إلى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت. وفى ذات ليلة، فى رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة، وجدتنى أمام نور القمر! كنا وبعض أعضاء الوفد فى جلسة سمر تضم صحفيا لبنانيا عائدا لتوه من باريس. تحدث بحماس عن مغنية من أصل مصرى، تشدو بأغانى «فرانكو أراب» وتحقق نجاحا متواصلا تتنبأ له بالعالمية. تدعى نور القمر!

زلزل قلبى لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة. اندفعت فى مجال التذكر

والاستجواب متحررا من الجاذبية . انقلبت طفلا يلهو باللعب العقيمة والأحلام المتهورة ويناجى مرة أخرى المستحيل .

وعلمت من الصحفى أيضا أن مدير أعمالها يرسم خطة لرحلة فنية لها ، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى ، فبادرت ـ فى الفندق ـ إلى تحرير رسالة لها . قلت :

عزيزتى الفنانة الكبيرة نور القمر :

هل تذكرين أنور عزمى مدير الواق الواق؟ لقد جاءتنى أنباء نجاحك فى مكان لم تخطر لى من قبل زيارته ، وعند رجل لم أتصور أن أعرفه يوما أو أن يمدنى عنك بخبر ، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز القلم عن وصفها ، سعادة موصولة بتراث قديم من الإعجاب والحب لك فى قلبى . أملى أيتها الفنانة الكبيرة أن تضعى مصر فى أعز مكان من رحلتك الفنية المقبلة ، فهى الأصل ، وفيها أول قلب نبض بحبك .

* * *

وفى مصر تلقيت الرد على عنوانى باللجنة . الحق أنه لم يكن ردا بالمعنى المفهوم . كان كارت بوستال تتألق فيه صورتها الخالدة ، وعلى ظهره دون بخط اليد :

تحيـــة شـــكر وتقـــدير

(نور القمر)

جعلت أقرأ المدون بعناية . كلا لم أسعد به السعادة المتوقعة . ليست رسالة شخصية من أى نوع كان . إنه أكلشيه للرد على المعجبين . لعلها أمرت بإرساله دون الاطلاع عليه ولا حتى إمضائه ، إنه يدفعنى إلى عالم الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفى وآلامى المقدسة . ولكن ها هى ذى صورة لنور القمر بين يدى ، بكل بهائها وعذوبتها ، بين يدى رغم انشغالها الواضح بمجدها ورغم حيادها القاسى إزاء المعجبين .

سأحتفظ بالصورة ما حييت . ومن يدرى؟ فربما رجعت صاحبتها ذات يوم إلى مصر للزيارة أو الإقامة . ماذا يعنى هذا بالنسبة لى؟ لا أدرى أيضا ، لا أحب أن أحسم الموضوع بفكرة محددة لن أجنى من ورائها إلا العذاب . وإذا داخلنى شك ذات يوم فى حقيقة مغامراتى العجيبة فما علىَّ إلا أن أستخرج الصورة من حافظتى ، وعند ذلك تنطرح أمامى الحياة بكل ألوانها المتضاربة . وما يند عن مفاتنها من جنون مقدس .

أهـــــــل القمــــــــة

١

قبيلة من النساء. خاطرة تراوده كثيرا وهو ينظر نحوهن. سفرة الغداء معدة. مغرية للجميع. الصحاف والملاعق والشوك والسكاكين، وعاء البلاستيك المملوء بأرباع الأرغفة، الدورق والأكواب. . هرعت زهيرة إلى المطبخ لتحضر الطعام. من باب الشرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني والجانب الأبعد من البستان الذى يتوسطه تحت سماء الخريف المنقوشة بسحائب بيضاء متناثرة. . نزع قبعته وألبسها فازة فوق مستوى المائدة لطوله الفارع.

جاءت زهيرة بأوانى الطعام، بالكوسة والشواء والأرز والمخلل. تحلقت النساء السفرة، سناء زوجته (٣٠ سنة). . وكريماته الثلاث، أمل (١٠ سنوات). . سهير (٨ سنوات). . لمياء (٦ سنوات). . زهيرة شقيقته (٤٠ سنة وتكبره بخمس سنوات). . كريمتها سهام (١٧ سنة).

تناول خيارة مخللة فدمعت عيناه السوداوان الصافيتان. ما أمهر شقيقته زهيرة! طاهية ماهرة: تضفى على الطعام لذة تعوض ما ينقصه من ترف. يتجنب الثناء عليها إشفاقا من إثارة سناء، يتحاشى قوتها أو بالأحرى عصبيتها. إنه قوى فى القسم، أمام الخارجين على القانون، ولكنه يتحلى بالحكمة فى شقته. السخط لا يفارق سناء منذ اضطرت زهيرة وابنتها للإقامة معه. ورغم أنها تقوم بأعباء البيت كلها. رغم أنها تعمل كطاهية وخادمة، فإنها لم تستطع أن تفوز برضا سناء. لسهام كريمة أخته جمال بديع (إنه يحب جمالها. لم تحظ بمثله كريمة من كريماته. رغم أن سناء لا بأس بها وهو أيضا لا بأس به. رغم ندبة فى صدغه الأيسر من مس رصاصة نجا منها فى أثناء مطاردة عصابة فى الدلنجات.

انتظمت السفرة حركة نشيطة فى جو يسوده الصمت حتى خرقته سناء بصوتها الرفيع:

ـ عندنا أخبار.

فتساءل فى توجس:

ـ ماذا عندكم؟

ـ بعد الانتهاء من الطعام .

حدثت مشاحنة من المشاحنات التى لا تنتهى . زهيرة وسهام يمكثان هنا بلا ترحيب . لم لا يعترف بأنه هو نفسه لا يرحب بالزحام وأنه يعانى منه من الناحية الاقتصادية . ولكن الواجب هو الواجب . انقلبت الشقة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم . ألغى كارها حجرة الاستقبال وأحل مكانها السفرة . . وجعل من الصالة الصغيرة حجرة استقبال وجلوس . يومها قالت سناء :

ـ بيتى تهدم!

فتساءل بامتعاض :

ـ لم لَمْ تذهب إلى أحد من أخواتك؟

ـ لَا متسع لها ، وكيف تذهب إلى بيت رجل غريب وأنا موجود؟ !

ـ أنت ضابط . . ابحث لها عن شقة . . ولها معاش الأرملة!

فضحك ساخرًا وقال :

ـ شقة فى هذا الزمان! أما المعاش فهو بضعة جنيهات . . لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة!

ـ وما ذنبى أنا!

ـ لا حيلة لى أو لك . .

من بادئ الأمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر مما شعرت بالترمل ، ومما يزيد الأسى أنها كانت فى زواجها موفقة . . ولكن الموت عاجله . إنه يدرك تماما . يعرف أنها على يقين من أنها غير مرغوب فيها . . لا هى ولا ابنتها الجميلة . وسناء عصبية . لا تحسن إخفاء مشاعرها أو لا يهمها ذلك . ولم يخفف من حدتها إقبال زهيرة على العمل اليومى الشاق . وطالبتها بالمعاش ولكن زهيرة قالت بذل :

ـ إنه تافه ، ولابد من أن تظهر سهام بمظهر لائق فى المدرسة . . وأنا أيضا . . وهو لا يكاد يفى بهذا أو ذاك .

ولاحظ أن شقيقته مستوصية بالصبر والاستسلام . . تسمع وتتجاهل . . تتلقى الأحجار صامتة واجمة . . تحذر كريمتها من الانفعال . وأدرك أن سهام متمردة نوعا ما . وقد نما إلى أذنيه يوما صوت سهام وهى تقول لأمها :

ـ متى أنقذك وأنقذ نفسى؟

فتقول الأم :

ـ زوجة خالك لها عذرها ، ألم تكن لطيفة قبل أن نضطر للإقامة معها؟

ـ لكن خالى . . إنه ممتاز ولكنه ضعيف!

ـ ليس المفروض أن يكون ضابطا فى بيته أيضا . . الغلاء نار يا سهام كان الله فى عونه . .

وأشد ما يزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها . قالت يوما لزهيرة على مسمع منه :

ـ متى ما حصلت سهام على الثانوية العامة فعليها أن تعمل . .

ولم تحر زهيرة جوابا ، أما سهام فقالت :

ـ هذا يعنى ضياع مستقبلى . .

فقالت سناء بحدة :

ـ إنك لا تدركين حقيقة الوضع . .

فقالت زهيرة :

ـ لِم نتعجل الأمور؟

فقَالت سناء بغضب :

ـ نحن نربى ثلاث بنات ، نحن نعانى ، عليك أن تفهمى ذلك .

فقالت زهيرة باستسلام :

ـ لتكن مشيئة الله .

وكان محمد فوزى ـ الضابط ـ يقول لنفسه إن القبيلة ممزقة . . ما منهن واحدة إلا وهى ظالمة مظلومة . . الحياة تبدو أحيانا لعنة طويلة . ويتذكر كم أحب أخواته فيما مضى وخاصة هذه الأخت وهى ليست أسوأ حظا منهن . . كلهن متعبات . . ووراء كل سرب من الذكور والإناث .

وتقول له زوجته سناء متحدية :

ـ عليك منذ الآن أن تستعد لزواج بناتك . .

فيتساءل ضاحكا :

ـ من الآن يا سناء؟

ـ عليك أن تشترى شقة لكل منهن .

فيضحك ضحكة عالية ويهتف :

ـ أتحدى وزير الداخلية أن يفعل ذلك!

ـ ألا تسمع عن الذين يحتفلون بالزواج فى هيلتون وشيراتون؟

ـ كما سمعت عن أغا خان ـ رحمه الله . .

ويداعب أمل كبرى بناته ثم يتساءل :

ـ ماذا ندرى عن الغد؟!

٢

عقب الغداء جلسوا فى الصالة ، وسأل محمد زوجته :

ـ ماذا عندكم من أخبار؟

ساد صمت غامض كأن كل واحدة تدعو الأخرى للكلام .

وقالت زهيرة :

ـ أحدهم يطلب خطبة سهام!

ارتسم الاهتمام فى صفحة وجهه الأسمر . هذا الخبر قد يعنى نكتة سخيفة وقد يعد بفرج غير متوقع :

ـ من هــو؟

ـ من نفس الحى ، طالب بكلية العلوم ، يدعى رفعت حمدى . .

نكتة سخيفة لا فرج كما يوحى بها الجو . تساءل :

ـ ماذا تعرفون عنه أيضا؟

فقالت زهيرة :

ـ أسرة طيبة . .

فقالت سناء :

ـ ولكنها فقيرة .

فقالت زهيرة :

ـ سيكون موظفا بعد ثلاثة أعوام وتكون سهام قد وجدت عملا أيضا .

فقالت سناء :

ـ الجملة ثلاثون جنيها على أكثر تقدير .

فتساءلت زهيرة :

ـ هل نتجاهل سعادتها؟

فقال محمد فوزى متهربا :

ـ أعطونى فرصة للتحرى والإحاطة !

فقالت سناء :

ـ المسألة واضحة ، لن يملك مهرا ، لابد من جهاز ولو حجرة واحدة ، ثم لابد من شقة ، لسنا فى زمن العواطف ، وهذا ما يجب التفكير فيه من الآن .

فقال محمد متحرجا :

ـ أعطونى فرصة . .

وعند ذلك قالت سهام بجفاء :

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيا . .

فرمقها خالها بحنان وسألها :

ـ لا شك فى أنك تعرفين أكثر مما نعرف؟

ـ أبــدا . .

ـ أود أن أسمع رأيك يا سهام؟

ـ لقد أوضحت أبلة سناء الحقيقة .

فقالت سناء :

ـ ربنا يرزقك برجل قادر ، لا فائدة من الشباب ، هذا رأيى . .

فقال محمد مجاملا :

ـ المهم رأيك أنت يا سهام !

فقالت سهام بضيق واضح :

ـ لا رأى عندى يا خالى . .

ـ العواطف وحدها لا تكفى . .

ـ نعـــم . .

ـ إنى على استعداد لفعل ما تشيرين به !

فقالت سناء :

ـ سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصة أطيب !

وسألته زهيرة :

ـ ما رأيك أنت يا أخى؟

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ رأيي أن تصارحه سهام بما سمعت وتسمع رأيه . .

فقالت سناء :

ـ معقول هذا الرأى .

هنا غادرت سهام الصالة إلى حجرتها ، أما زهيرة فاغرورقت عيناها على رغمها .

سألتها سناء :

ـ هل أخطأنا؟

وبادرها محمد :

ـ سأفعل ما تشيرين به .

فقالت زهيرة :

ـ لا خطأ هناك ألبتة ، ولكنى حزينة ، البنت راغبة فى التعليم ولن يتاح لها ذلك ، وراغبة فى الشاب ولن يكون نصيبها ، لاخطأ هناك ولكنى حزينة . .

٣

قرب مقعده من نافذة تطل على ميدان السكاكينى ليسترد أنفاسه . أى حظ هذا؟ إنه غير راض عن نفسه ولا عن أى شىء . وحسن ألا يكون شابا . إنه زمن المودعين . ولكن . . وانقطعت أفكاره فجأة . استقرت عيناه فوق البستان . هذا الوجه يعرفه تماما . كان صاحب الوجه يتربع على الحشائش مسند الظهر إلى جذع نخلة . هو هو دون غيره . زعتر النورى . ماذا جاء به إلى هنا؟ هل يتربص به الأحمق؟ . . لا . . لا . . ثمة سبب آخر . شعره حليق . ما زال حليقا . مفهوم . لن أمهله .

تناول قبعته وغادر الشقة .

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المتربع . وثب الرجل واقفا متهلل الوجه . طويل القامة ولكنه دون محمد بقبضة . وجهه نحيل طويل ، حاد البصر ، نابت شعر اللحية . . يرتدى بلوفر بنى قديم وبنطلونا رماديا رثا وصندلا . . ابتسم عن أنياب قوية ملونة وهتف :

ـ أهلا بحضرة الضابط العظيم . .

فسأله محمد فوزى :

ـ متى خرجت من السجن؟

- خرجت من السجن الذى دخلته بفضلك منذ شهر واحد.
- وماذا جاء بك إلى هنا؟
- جئت لأشم الهواء النقى..
- اسمع يا بن الثعلب، ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال باسما:

- لماذا تكرهنى يا محمد بك؟ لولاك ما كان الجن الأحمر نفسه يستطيع ضبطى متلبسا ويدخلنى السجن، إنك ضابط شريف ولكن ربنا أمر بالرحمة، ولا تنس العلاقة الحميمة التى تجمع بين الضابط والنشال، نحن معروفون لكم من قديم، نحن نتبادل التحية، وفى بعض حوادث النشل الحرجة تطالبنى برد الشىء الثمين فأسترده من صاحبه خدمة لك، عظيم، أين الرحمة إذن؟

فسأله بصرامة متجاهلا مرافعته:

- لماذا تجلس أمام مسكنى؟
- صدقنى فإنى أحب هذه الحديقة..
- زعتر، حذار من المزاح..
- عظيم يا حضرة الضابط العظيم، فلأبحث عن حديقة أخرى.

وتفحصه بدقة مليا، ثم سأله:

- كيف تحصل على رزقك؟
- حتى الساعة لا رزق لى.
- هذا يعنى أنك متشرد؟
- كـــلا..

ثم وهو يضحك:

- لا مؤهل لى والحكومة لا تستخدم إلا ذوى المؤهلات..

فهتف به:

- حذار من المزاح يا زعتر..

قال زعتر بجدية:

- يلزمنى رأسمال يا حضرة الضابط.
- هذا ليس من شأنى، وإذا عثرت عليك مرة أخرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمتشرد!

ـ الله معنا . .

ـ ادع الشيطان فهو إلهك . .

ـ أستغفر الله رب العالمين . .

ـ أجبنى ماذا أنت فاعل؟

فتنهد قائلا :

ـ سأبحث عن عمل .

فقال بهدوء مخيف :

ـ ابعد عن وجهى قبل أن أقرر القبض عليك . .

رفع زعتر يده تحية ومضى فى خطوات سريعة كأنه مشترك فى سباق المشى . وقف محمد فوزى يتبعه بعينيه حتى واراه شارع ابن خلدون .

٤

حظه من النجاح فى قسم الشرطة أضعاف حظه منه فى بيته ، إنه ينتصر عادة على اللصوص والنشالين ولكنه ينهزم فى غشاء الهموم العالمية . وقد أبلغته زهيرة أن الشاب رفعت حمدى يرجو لقاءه فرحب بذلك . واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يمانع ، ولأنه لا يوجد فى الشقة مكان استقبال مناسب فقد تم اللقاء فى حديقة الشاى بحديقة الحيوان . وجده شابا معتدل القامة ، بشوش الوجه ، واضح الرجولة . قال لنفسه ومن واقع خبرته العريقة . . إنه يوحى بالثقة ويمكن التفاهم معه . . قال الشاب :

ـ إنى معجب بشخصية آنسة سهام ، جادة ومحترمة ، وحضرتك رجل ذو سمعة طيبة جدّا . .

فشكره محمد فواصل حديثه :

ـ ما يهم العلاقة المقدسة متوافر لدينا . .

فابتسم محمد قائلا :

ـ للأسف الشديد فإنه تغطى ظروف جانبية على الشروط الجوهرية . .

فقال الشاب بحماس العاشق :

ـ علينا أن نتغلب عليها . .

ـ هات ما عندك . .

ـ أمامى ثلاثة أعوام، عملى مضمون فى التدريس أو المعامل.

ـ لعل التدريس أفضل فيما يقال.

ـ وأمامى فرصة للعمل فى الخارج أيضا..

ـ جميل ذلك، ولكن يجب أن تعلم أننا لا نملك تكاليف الزواج.

ـ أعرف ذلك، المهم أن تكمل سهام تعليمها..

ـ زدنى إيضاحا..

ـ إنها أيضا ترغب فى دراسة العلوم، وستجد فرصة للعمل فى الخارج.

دخلت سناء زوجته فى إطار الجلسة فقال بحزم:

ـ ظروف حتمية توجب علينا توظيفها حال حصولها على الثانوية العامة فى نهاية العام..

ـ ألا يمكـــن..

فقاطعـــه:

ـ غير ممكن. إنى آسف..

فتفكر رفعت مليا مغموما ثم قال:

ـ فلنعلن خطبتنا الآن، ولنؤجل الهموم للمستقبل..

وكان محمد يلحظ سهام من آن لآن ويقرأ موافقتها الصامتة، ولكنه لم ير بدّا من أن يقول:

ـ تصرف غير مقبول.

ـ لمـــاذا؟

ـ إنه يعنى انتظارا طويلا وغير مضمون العواقب..

ـ أرى أنه ما دامت النية الطيبة متوافرة، فالعقبات تذوب عادة..

ـ لا أشاركك الرأى، سهام كريمة شقيقتى، ولا أريد أن أعلق مستقبلها على المجهول.

ـ إنه ليس مجهولا.

ـ ولكن عندى رأى أفضل..

ـ ما هو يا سيدى؟

ـ أن يسير كل منكما فى سبيله دون التزام بعلاقة ما. أنا شخصيا لا أحب الخطبة أن تطول بلا حدود، فإذا وجدت ظروف ملائمة فى المستقبل فلا بأس من الموافقة عند ذاك!

فقال رفعت حمدى بقلق:

ـ قد يتقدم لها فى أثناء ذلك رجل ما .

ـ أصارحك بأننى سأعمل ما أراه فى صالحها و . .

وتوقف متمهلا ثم قال عادلا عما كان فى نيته قوله :

ـ ما آراه فى صالحها . .

فقال رفعت بهدوء :

ـ أظن من الإنصاف احترام رأيها . .

ـ طبعا . . طبعا . .

وساد صمت مثقل بالخيبة . . وكانت سحب الخريف منبسطة فلم يهبط من الشمس شعاع واحد غير أن البرودة كانت وانية محتملة . . وابتسم محمد فوزى وقال :

ـ هناك رجاء لا مفر منه . .

فنظر إليه الشاب مستفهما ، فقال بحزم لا يجد مشقة فى دعوته فى أى وقت :

ـ ألا يقع بينكما فى الهدنة المقترحة لقاء من أى نوع كان !

لحظ الرجل سهام فى طريق العودة مرات . . قال لنفسه : «إنها ستجهش فى البكاء حالما تنفرد بنفسها» . . لعن نفسه . . ولعن أشياء كثيرة . .

٥

كان منفردا بنفسه فى مكتبه عندما استأذن زغلول رأفت فى مقابلته . . نهض باهتمام فاستقبله عند الباب ، شد على يده باحترام ، وأجلسه أمام مكتبه وهو يقول :

ـ شرفت يا أفندم !

الرجل فى الأربعين ، ولكنه يتمتع بحيوية شاب فى العشرين ، بدين مع ميل إلى القصر ، كبير القسمات ، داكن السمرة معروف أنه رجل أعمال ، وأنه ذو صلات ، ويتردد اسمه أحيانا عند التبرع لمشروعات خيرية فى الحى .

قال الرجل بصوت مبحوح قليلا :

ـ كان يجب أن نتعارف من قديم فأنت ضابط ذو سمعة هائلة .

ـ كانت ستكون فرصة سعيدة لمعرفة وجيه من محبى الخير .

ـ شكرا ها هى ذى الفرصة ولكنها ليست سعيدة . .

وضحك . فابتسم محمد فوزى وقال :

ـ حادث سخيف . .

ـ ثمنه عشرة آلاف . .

وقدم سيجارة ، فلما اعتذر لعدم التدخين أشعلها وقال :

ـ نشلت حافظة النقود ، بمائة جنيه غير الفكة ، ولكن توجد بها علاقة مفاتيح ذهبية وذات فص من الألماس . .

فتساءل محمد :

ـ كيف ينشل رجل مثلك؟ لابد أنك كنت فى حفل؟

ـ هو ذلك . . فى جامع القبة الفداوية . .

ـ آه!

ـ أعتقد أنه ليس من الميسور بيعه إذا وزعنا نشرة بأوصافه .

ـ سنفعل ذلك على سبيل الحيطة . ولكن النشال يبيعه بثمن بخس لمن يصادفه . .

فقال الرجل مبتسما :

ـ إنه عزيز لأسباب شخصية ، ما نسبة الأمل فى استرداده؟

فقال محمد فوزى باسما ابتسامة أسيفة :

ـ لا سبيل إلى نشال إلا إن ضبط متلبسا ، نحن نعرفهم ولكن من أين لنا الدليل ، وثمة تنبيهات متلاحقة بوجوب احترام القانون . .

ـ إذن أقول عليه العوض؟

ـ توجد وسيلة مجربة فى الأحوال النادرة . أعطنى فرصة أربعًا وعشرين ساعة . .

ـ وإذا لم تنفع؟

ـ سنسير فى الإجراءات العقيمة .

ـ لكم ولا شك وسائل سحرية أقرأ عن أخبارها أحيانا فى الصحف .

٦

أمر الضابط باستدعاء زعتر النورى . . جميع المخبرين يعرفون مقهى النشالين المعروف بمقهى حنش فى خلاء الحدائق فيما تتصل بالحقول ، وهو الذى أطلق عليه المعلم حنش اسم «مقهى الأمراء» بعد الثورة . . ودخل زعتر حجرة الضابط تبوح عيناه الحادتان بنظرة قلقة متوجسة وهو يقول :

ـ ستجعلنى لعبتك يا حضرة الضابط؟

لم يرفع رأسه عن أوراق بين يديه. تركه وحده فى دوامة التوقعات المزعجة. قال زعتر:

ـ أعطنى فرصة . .

نظر إليه ببرود وسأله:

ـ أعتقد أنك مصمم على تغيير حياتك، قد أصبحت من المصلين!

ـ نعم؟!

ـ رآك البعض وأنت تؤدى فريضة الصلاة.

ـ أنا ما دخلت جامعا قط طيلة حياتى!

ـ جامع القبة الفداوية.

ـ سيدى الضابط أنا لا أفهم شيئا . .

ـ ولا أنا!

ـ أنا تحت أمرك . .

قال بهدوء:

ـ أريد علاقة المفاتيح!

تراجع رأسه قليلا. اختفت نظرة القلق. أدرك أنه مطلوب لمفاوضة. تشجع قائلا:

ـ أى علاقة مفاتيح؟

ـ نحن نفهم بعضنا يا زعتر . .

ـ مذ خرجت من السجن وأنا أعيش عالة على المعلم حنش . .

ـ نشل حافظة الوجيه زغلول رأفت عمل لا يقدم عليه سواك.

فابتسم زعتر وقال:

ـ إنك تطلب مساعدتى . .

ـ حذار من الغرور.

ـ لقد قدمت أكثر من خدمة ولكن صدرى ينقبض فى جو القسم . .

ـ لا تخش شيئا. إنك تعرف ما تعنيه كلمتى!

ـ كلام رجال.

ـ نعم يا بن الثعلب . .

ـ عظيم . . لنبدأ من الأول، ماذا تريد؟

ـ علاقة رأفت زغلول . .

ـ لم أنشـــلها .

ـ لا أصـــدقك .

ـ أقسم لك بشرفى .

فضحك محمد فوزى قائلا :

ـ يا بن الثعلب .

ـ أقسم لك بشرفك أنت!

قال الضابط بحدة :

ـ عليك اللعنة ، أتعرف ما يعنيه هذا القسم؟

ـ أعـــرف . .

ـ فمن نشلها؟

فهزَّ رأسه قائلا :

ـ سؤال غير جدير بذكائك .

ـ عندك علم بالموضوع؟

ـ غير جدير بذكائك أيضا .

فنظر إليه مقطبا وقد اكفهر وجهه .

قال زعتــر :

ـ يلزمنى وقت للعمل .

ـ متى تحضرها لى؟

ـ لا أدرى ، وربما ضاعت إلى الأبد . .

ـ اسمع يا بن الثعلب . .

ـ أعدك بأنى سأبذل جهدى .

ـ فى ظرف يوم!

ـ على الله الجبر .

تمهل الضابط قليلا ثم قال :

ـ ربما نالك خير ، الرجل ثرى لدرجة الخيال . .

قال زعتر بحماس :

ـ لا يهمنى المال ، ما يهمنى حقّا هو خدمتك!

تمتم محمد فوزى باسما :

ـ يا بن الثعلب . .

٧

المفاجأة أن زعتر طرق باب الضابط عصر اليوم التالى . كانت سهام هى التى فتحت الباب وهى التى أبلغت خالها بقدوم زائر يدعى زعتر . انفعل محمد انفعالا شديدا ولعنه ألف لعنة، غير أنه اضطر لاستقباله ومجالسته فى الصالة، بل وقدم له القهوة . بدا زعتر مفعما بالحيوية والسعادة . وقال :

ـ لا تؤاخذنى على حضورى إلى بيتك إذ إننى أكره القسم .

ـ ماذا فعلت؟

دس يده فى جيبه فاستخرج منه العلاقة والمحفظة . تمتم محمد :

ـ والنقود أيضا؟

ـ عن آخر مليم، إذا لم تكن فى الاتفاق فدعها لى . .

فقال محمد مداعبا لأول مرة :

ـ الغنى غنى النفس !

فقال الآخر بتسليم :

ـ أمرك .

ـ من الذى نشلها يا زعتر؟

ـ لماذا تسأل يا حضرة الضابط؟

ـ العلم بالشىء ولا الجهل به .

فابتسم الآخر قائلا :

ـ لم أخن زميلا فى حياتى . .

ـ حقّا؟ ! . . يا لك من رجل عظيم فى الشر !

فضحك زعتر واشتد لمعان عينيه وقال :

ـ وشرف ربنا لولا الحظ السيئ . .

ـ هه . . لكنت من رجال الأمن؟

ـ كلا . . لا يعجبنى عملك . .

ـ حقّـا؟ . . ولـمـه؟

ـ أقـول لك ، إنك تطارد اللصـوص لحسـاب الحكومـة بينمـا الحكومـة أكـبـر لص فى الدولة!

ـ يا بن الثعلب . .

ـ إنكم تكرهون قول الحق يا محمد بك . .

ـ هه . إذن ماذا تفضل من المهن؟

فتفكر قليلا وقال :

ـ أقرب عمل لعملى الراهن أن أكون مدير بنك!

فلم يتمالك محمد فوزى نفسه من الضحك ، فقال زعتر :

ـ أريد رغيفا محشوا باللحم المحمر . .

ـ طلب غير هين ، ولكن سيكون لك ما تريد . .

فقال زعتر وهو يتنهد :

ـ ورغم العيش والملح سترجعنى إلى السجن غدا إذا وقعت فى قبضتك!

ـ طبعا . . لا مفر من ذلك .

ـ الأمر لله . . من صاحب العلاقة؟

ـ زغلول رأفت من رجال الأعمال والبر . .

ـ رجل أعمال؟ طبعا لص ولكن ما تخصصه؟

ـ كل الناس عندك لصوص؟!

ـ اسمع يا محمد بك . . ستندم ذات يوم على تمسكك بالشرف .

ـ على فكرة يجب أن أزف إليه البشرى . .

وأدار قرص التليفون . .

ـ زغلول بك رأفت؟

ـ . . . .

ـ مبارك . . العلاقة والحافظة معى . .

ـ . . . .

ـ وهو أيضا موجود .

ـ . . . .

ـ ولكن . . فكر قليلا . . إنه قادر على أن يخطف الكحل من العين . .

- . . . .

- إلى اللقاء يا إكسلانس . .

والتفت نحو زعتر قائلا :

- إنه مصمم على رؤيتك . .

فقال زعتر باهتمام :

- تحت أمره .

- كن عاقلا . . وكن حكيما أيضا فى الإفادة بما يجود به عليك . .

- طبعا . . ولن أنسى المالك الشرعى للمحفظة . .

- المالك الشرعى؟

- الذى نشلها يا محمد بك . .

فابتسم الضابط وقال :

- احذر أن تجعلنى أندم على الموافقة . الحظ يفتح لك بابا شريفا يا زعتر . . والآن دعنى أعد لك الرغيف . .

ولكن زعتر نهض فى لهفة وقال :

- لا تضيِّع الوقت ، شكرا ، بنا إلى الرجل ، وسوف أشترى اللحم بنقودى الحلال لأول مرة . .

٨

مضت حياة الضابط بهمومها الشخصية وتوفيقها العام . البيت يسوده غالبا التوتر وقد استغرقت سهام فى دراستها ولكن فى تعاسة ملحوظة . من يدرى؟! فقد ينتصر الحب فى النهاية ، سيجد لسهام عملا فى نهاية العام وسينضم مرتبها إلى معاش أمها . وربما حقق رفعت حمدى حلمه ، وهاجرت الأسرة الجديدة - سهام ، رفعت ، زهيرة - إلى الخارج مجبورة الخاطر . عند ذاك يطمئن على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكن أعصاب سناء زوجته . ما أجمل الأحلام الملطفة للآلام!

وحصلت سهام على الثانوية العامة وراح يسعى لإلحاقها بعمل ولكن التوفيق فى ذلك بدا بعيد المنال . وفى ذلك الوقت جاءه المخبرون بنبإ مثير وهو أن مقهى «الأمراء» أو مقهى النشالين قد خلا منهم . وكان قد لاحظ قلة ملموسة فى حوادث النشل ، حتى مضت

أشهر لم يتلق فيها بلاغا واحداً. وأمر بالبحث عن مجمعهم الجديد ولكن لم يعثر لهم على أثر. ولم يجد أحد من المخبرين عند المعلم حنش صاحب المقهى تفسيرا، وفسره هو على هواه فقال: إنهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا من الحى. وسُرَّ المأمور بتلك النتيجة غير المتوقعة وهنأ محمد فوزى عليها.

* * *

وكان يغادر نادى الشرطة ذات يوم عندما رأى شابا وشابة فى غاية الفخامة، يغادران سيارة، ويتجهان نحو برج القاهرة، نال من الشاب نظرة عابرة وهو يمضى فى طريقه، ولكنها لم تتلاش كما توقع. التفت وراءه فرأى الشخصين يصعدان سلم البرج، جعل يتأملهما حتى غابا فى المدخل.

ما معنى هذا؟ هل سبق له أن رأى هذا الشاب؟ لقد التقت عيناهما لحظة خاطفة. لم تكن عينا الآخر محايدتين. أم هكذا خُيِّل إليه؟ لمح فيهما معنى ما، حياة من نوع ما تشى بنوع من المعرفة، وضرب الأرض بقدمه. مستحيل. توقف عن المشى، استدار متجها نحو البرج. تفحص الكافتيريا، ثم صعد إلى الشرفة العليا. رأى الشخصين يطلان على القاهرة ونسمة عليلة من نسمات الصيف تداعبهما. اقترب حتى وقف وراءهما. سمع الشاب يقول للشابة بصوت يسمعه هو كأنما هو المقصود به:

ـ ألم أقل إن له عينين لا تخدعان؟

فهتف محمد فوزى:

ـ زعتر النورى..

فاستدار نحوه باسما عن أسنان بيضاء وهو يقول محتجا:

ـ محمد زغلول من فضلك.

وأشار إلى الفتاة قائلا:

ـ صديقتى بهية..

فتمتم الضابط:

ـ جلجلة؟!

ـ قلت بهية من فضلك..

جعل ينظر إليهما بريب، فضحك زعتر وقال:

ـ بهية اسم اختارته بنفسها، أما أنا فكونت اسمى الجديد من اسمك «محمد» واسم البك زغلول، بصفتكما صاحبى الفضل الأول..

فقطب محمد فوزى متسائلا:

- عن أى شىء تسأل؟
- أنت تفهم، ما أعنيه تماما يا زعتر . .

وضح له عن قرب أن فخامة الملابس وصقل الوجه والأطراف لم تغط تماما على الابتذال فى الحركة والهيئة، وتقدمت بهية (جلجلة) خطوة بجمالها الشعبى الصارخ وتساءلت محتجة :

- ماذا فعلنا لتحقق معنا؟

وسأله زعتر النورى بشىء من العظمة :

- بأى حق تتعرض لنا يا حضرة الضابط؟

فقال الضابط :

- أريد أن أكتشف الجريمة المستترة وراء هذا التغيير .
- إنك تخاطب رجلا من رجال الأعمال. وهذه امرأة من نساء الأعمال . .
- نحن نعمل فى ضوء النهار . .
- لن يخفى سر . .

فضحك زعتر وقال :

- يؤسفنى أن يكون أول لقاء لنا على هذا النحو، لنا ماض مشترك، وفضلك علىَّ عميم، أنت الذى سلمتنى مفتاح السعادة، فماذا يثيرك علىَّ الآن؟ دعنى أدعوك لفنجان شاى . . وليطمئن قلبك . . وهاك بطاقتى الشخصية إذا شئت . .

فقال محمد بذهول :

- إنه عام واحد .
- ما قيمة الزمن؟ صفقة واحدة تحولك من دنيا إلى دنيا، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضا، مازلت أعد من رجاله. ولى أيضا رجالى . .
- تهـريب؟!
- رجعنا نردد ألفاظا لا معنى لها، اسمها الوحيد «تجارة» . . حتى لو أصررت على الألفاظ الميرى فربما كانت تهريبا قبل أشهر لكننا اليوم فى عصر الانفتاح، لا تهريب ولا دياولو . . تفضل بزيارتنا . . وانظر إلى تلميذك بنفسك . .

فقال الضابط ببطء :

- زعتـر . .

فقاطعه بسرعة :

- محمد زغلول من فضلك .

ـ أنت تعرف من هو محمد فوزى؟

ـ طبعا . . أعرف أنك ستتحرك . . أعرف أنك تحلم بإرجاعى إلى السجن . . ولكن الحقيقة ستتكشف . . ستعرف أننى رجل شريف . . آمل أن نكون أصدقاء . . لست دون زغلول رأفت استحقاقا لذلك . .

وقالت بهية بدلال :

ـ وأنا أيضا أريدك أن تكون صديقا لى !

وتساءل زعتر :

ـ البضائع المهربة كانت تملأ الطرقات فلم لَمْ تصادروها؟ لمَ لَمْ تقبضوا على مروجيها؟ كنا نجول فى الميدان يحرسنا رجال الأمن . . ووراء كل واحد منا شخص ذو مقام . . انتهى عصر المغامرة وما نحن اليوم إلا تجار شرفاء . . ثم إنك صاحب الفضل .

ـ أضجرتنى بقولك هذا .

ـ لم يغضبك قول الحق؟ أنا أيضا نشلت ذات يوم ولكنى استرددت مالى بقوتى الذاتية ، لم ألجأ إليك لتسترد بقوتك مال لص كبير من نشال مسكين .

وهتفت بهية :

ـ صديقك زغلول رأفت لص عظيم . .

فانتهرها زعتر قائلا :

ـ اقطعى لسانك . إنه بحكم القانون الجديد تاجر عظيم !

فقالت مخاطبة محمد فوزى :

ـ نحن ندعوك إلى فنجان شاى .

فقطب الضابط متحولا عنهما فقال له زعتر :

ـ يؤسفنى ألا تلبى دعوتنا ، ولكن لا تبدد قوتك فى لا شىء . .

٩

اقترب من الخلاء المشارف للحقول فتبدى له مقهى «الأمراء» فى عزلته ورثاثته . حجرة حجرية يتقدمها فناء ترابى مسور بالصبار . بدا كالخالى بعد أن تخلى زبائنه الأصليّون عنه ، وقف فى الفناء المهجور فلمحه الخنش ـ العجوز الأحدب ـ وسرعان ما هرع إليه مرحبا وقلقا فى آن . جلس محمد وهو يشير للكرسى المقابل داعيا العجوز للجلوس وهو يقول :

ـ لا تقدم شيئا، لى معك حديث يا حنش.

جلس الحنش، لم يزايله القلق. قال:

ـ لم أرك منذ زمن، آخر مرة كنا فى عاشوراء.

ـ أذكر ذلك.. ولكن أين أصحابنا؟

أخذ يطمئن نوعا ما فقال:

ـ ذهبوا ولم يرجعوا.. اختفوا تماما..

رماه بنظرة طويلة وقال:

ـ عرفت ذلك، ولكن أين ذهبوا يا حنش؟

ـ الله وحده يعلم.

ـ ولكنك تدرى أشياء ولا شك..

ـ هل وقعت حوادث نشل؟

ـ كــلا.

ـ ماذا يهمك من أمرهم بعد ذلك؟

ـ هذا شأنى يا حنش.

ـ والله..

فقاطعه بنبرة آمرة:

ـ هات ما عندك..

اطمأن العجوز تماما وشعر بأهميته، قال:

ـ لقد أقلعوا عن النشل، غدا سيختفى اللصوص جميعا..

ـ هات ما عندك..

فضحك العجوز عن فم خال وقال:

ـ أنت السبب يا حضرة الضابط..

ـ ذلك بالنسبة لزعتر النورى. إنى أسأل عن الآخرين..

ـ قيل إن زعتر ذهب للقاء الرجل الذى نشله.

ـ أعرف ذلك طبعا.

ـ وإذا بالحال يتغير تماما، لم يعد عتريس النورى إلينا.. انتظروا، انتظروا طويلا ولكنه لم يعد وكادت جلجلة تجن..

ـ ثــم؟

ـ ظنوا أنه قبض عليه . . أخذوا يتناسونه . . حتى جلجلة بدأت تستجيب لعشاق آخرين . . حتى كان يوم . .

وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق . فقال هذا باستياء :

ـ استمر يا عجوز .

ـ كانوا فى الداخل يقامرون حين دخل فجأة سمسون العفش مضطربا بفرحة طاغية ، لوح لهم بحافظة نقود فاخرة وتساءل : «لمن هذه؟» فأجابه أحدهم متفكها : للسفير الأمريكى ، ولكنه قال بهدوء : إنه عتريس النورى . ملكهم ذهول شامل . أقبلوا نحوه فى مقدمتهم جلجلة . أقسم لهم على صدقه . أين هو؟ لماذا لم يعد؟ وكيف نشلته؟ وراح الرجل يقول : رأيته فى ميدان رمسيس . كان يغادر سيارة . ليس عتريس الزمان الأول . شخص آخر تماما ، أى وجاهة وأبهة ، شككت فيه طويلا حتى عرفت مشيته وسمعت صوته . إنه عتريس النورى . ماذا حصل له؟ كل شىء تغير حتى جلده . تغير لونه أيضا كأنه نقع فى الماء عاما . هل استولى على ثروة الرجل الذى دعاه ليكافئه؟ هل نشل البنك الأهلى ، وهو يقصد دكان غيار؟ إنه محترم ابن الدايخة . فى الحال رسمت خطة لنشله ، نشلته فى الدكان . هذه هى الحكاية . وصاحت جلجلة : الخائن ابن الخائنة . أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكن سمسون العفش لم يكن لديه مزيد . وصاحت جلجلة : الخائن ابن الخائنة . أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكن سمسون العفش لم يكن لديه مزيد . وصاحت جلجلة : لابد من العثور عليه . . وأكثر من صوت صاح : لن يفلت ولو اختبأ فى جبال الواق الواق . وفيما هم يتبادلون الرأى إذ بدا عتريس النورى فى مدخل الحجرة وهو يرمقهم بنظرة ثقيلة محتدمة بالسباب والسخرية .

وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال ، فصبر محمد فوزى حتى استطرد :

ـ دخل منفوخا بالأبهة . تبادلوا النظرات فى صمت هادئ حتى خرقته جلجلة متسائلة :

ـ من سعادة الباشا القادم؟

فقال بهدوء :

ـ الحافظة أولا ثم نتكلم .

فسأله سمسون العفش :

ـ عن أى حافظة تتكلم؟

فثقبه بنظرة من عينيه الحادتين وقال :

- هو أنت يا بن الخائنة! قلبى قال لى . .

فقالت جلجلة :

- قلب المؤمن .

فقال زعتر لسمسون :

- الحافظة واعتذر لعمك .

- أنت خـــائن!

- زعتر خائن!

- أين كنت؟ . . تقطعنا للنقود . . من أين لك هذا؟

- العمل الشريف!

هزت جلجلة وسطها وهتفت :

- ادعوا له . . ادعوا له . .

- العمل الشريف . . عمل الناس الأجلاء . . هات الحافظة .

- أقسم لك بشرفى . .

قاطعه مقهقها :

- احتفظ بشرفك وهات المحفظة .

فقال سمسون بتسليم :

- لى مكافأة!

- دع ذلك للنساء، هات الحافظة لنتكلم فى المفيد!

فرمى بها إليه سمسون وهو يقول :

- نار فى جثة الخائن . .

- الله يسامحك . . كان فى خطتى أن أزوركم فى الوقت المناسب . .

فتساءلت جلجلة :

- وما الوقت المناسب؟

- هو وقت الخير لا يتقدم ولا يتأخر .

- ومتى يجىء؟

- عما قريب جدًا .

- ما هو العمل؟

- تجارة . . بضائع تجىء من أوروبا . .

ـ تهـــريب؟ !

ـ الصبر . . موعدنا بعد شهر واحد . .

وفى الميعاد يا حضـرة الضـابط ذهبـوا جميعـا لم يرجـع منهم أحد .

ترامقا صامتين ، ثم تساءل الضابط :

ـ أين هم الآن؟

فقال العجوز بقلق :

ـ إنهم خارج منطقتك . .

ـ نعم . . هل تعلمنى واجبى؟ أين هم الآن؟

ـ إنهم يعملون فى ضوء النهار وتحت حماية الشرطة . .

ـ ألم أقل لك إنك تعرف أشياء كثيرة؟

فضحك العجوز وتساءل :

ـ ألم تسمع عن سوق ليبيا؟

ـ كـــلا .

ـ إنه فى القلعة يا حضرة الضابط .

١٠

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات . يغمره ضوء الكُلبات الأحمر المدلاة من رءوس أعمدة مغروسة فى الأركان .

أمواج تتلاطم من النساء والرجال مصبوغة الوجوه بالأضواء المركزة . قال الضابط إنهم اختاروا مكانا مناسبا بين القلعة والمساقى القديمة . وتابع بعينيه الأكشاك القائمة فى محيط السوق مكتظة بالصابون والقوارير والعلب والبرطمانات والأدوات الكهربائية والإلكترونات . وراء كل كشك صفت الفريجيديرات والسخانات ومكيفات الهواء والنجف فى سرادقات ، بهر الضابط بألوان البضائع ، بجنون البيع والشراء ، بالمهد الذى يلد أناسا جددا . ها هى ذى وجوه العصابة التى اختص دهرا بمراقبتها . خلقوا من جديد . إنهم يرمقونه بدهشة لا تخلو من قلق ثم ينسونه تماما . الشرطة تحفظ الأمن . والنشالون أصواتهم مرتفعة . سيختفى اللصوص ويستغنى بالتالى عن رجال الأمن ! ما علاقة زغلول رأفت بهذا كله؟ أصبح هؤلاء من الأغنياء ، أما هو وأضرابه فيغوصـون فى

غمـار الفقراء. ها هو ذا زعتر، محمد زغلول أستغفر الله. معه جلجلة فى كشك واحد. وجم الرجل عندما رآه. ها هو ذا يقبل نحوه مرحبا مرحبا.

ـ أهلا محمد بك.. خطوة عزيزة!

ـ أهــلا بك..

ـ انتقلت إلى منطقتنا؟

ـ كــلا.

ـ جئت للشراء؟

ـ للفرجــة.

فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدمتها مبتسمة، قال:

ـ شكرا، لا أحبها.

تناولها زعتر وراح يشرب قائلا:

ـ إنى أعرف ما يحرجك! لعلك سررت بما ترى، تاب الله علينا!

ـ حقّا؟ من النشل إلى التهريب؟

فضحك زعتر قائلا:

ـ عملنا مشروع، انظر إلى الشرطة، نحن تجار، أناس يحتجون إذا الفقراء اغتنوا..

ـ الحال معدن..

ـ سمسون دفع أمس خلو رجل لا يستهان به وأصبح من سكان المنيل!

وقالت جلجلة:

ـ عندنا بضائع تجنن.. شاهد بنفسك..

فقال فى هدوء:

ـ لست فى حاجة إلى شىء..

فسأله زعتر بقلق:

ـ لـم شـرفتنا؟

ـ العِلم بالشىء ولا الجهل به..

ـ اسمع يا حضرة الضابط، ما كان تهريبا أصبح بفضل الانفتاح تجارة مشروعة..

فضحك محمد فوزى ولم ينبس فواصل زعتر:

ـ سيكون أبناؤنا ضباطا ووكلاء نيابة..

ـ ولِم ترجعهم إلى الفقر؟

فتمادى الآخر فى حماسه قائلا :

ـ ماذا كان الأمراء والباشوات قبل أن يصيروا أمراء وباشوات؟ . . كانوا لصوصا ، فنحن أصل الوجود يا محمد بك . . ولكن أناسا يكرهون أن يفعل أبناء الشعب مثل الأمراء والباشوات . .

ـ يا لها من آراء!

ـ دعنا من هذا كله . . ألا يلزمك فريجيدير؟ . . معصرة؟ . . ريكوردر؟ . . مقويات؟ كل شىء تحت أمرك ، ومن غير فلوس . .

ـ إنك لكريم ولكنى لا أريد شيئا . .

فمدت جلجلة عنقها بدلال وإغراء وتساءلت :

ـ ألا يعجبك شىء؟

فتساءل الضابط :

ـ هل تزوجتما؟

فقال زعتـــر :

ـ كلا . . إنها تهددنى بالقتل . .

ـ لـــم؟

ـ رَأيى أنه يجب أن أتزوج من أسرة! . . وعليها هى أن تبحث هى أيضا عن عريس لقطة . .

قال محمد فوزى لنفسه إنها جميلة ، حتى ابتذالها جذاب ، ليس فى بيته من يضارعها فى جمالها إلا سهام .

وقالت بهية (جلجلة) :

ـ إنه وغد ويستحق الإعدام .

فقال الضابط :

ـ إنها لمشكلة . .

فقالت جلجلة :

ـ لا أهمية لذلك ، المهم أن نقدم لك هدية .

ـ شكرا ، لا عودة إلى هذا الحديث .

فقال زعتر :

ـ صدقنى لا يقضى بالفقر على الإنسان إلا عقله .

وقالت له جلجلة :

ـ لو عثرت على رجل قوى مثلك لزهدت فورا فى هذا الوغـد . .

فتجاهل قولها ضاغطا تأثره الباطنى .

فعادت تقول :

ـ إذا لـم تقبـل هـدية مسـتوردة فخـذنى أنا هـدية محـلية . . ما رأيك؟

فقال زعتر :

ـ وتهدينى حلا لمشكلتى معها . .

فسأله محمد فوزى :

ـ هل صادفتك متاعب أيام التهريب؟

ـ لا تكـاد تذكـر ، كل كشـك يكمن وراءه رجل مهم يحميه من بعيد . .

ـ لا تبـالغ .

ـ هى الحقيقة ، أنت نفسك رجعت إلى زغلول رأفت ماله الضـائع . .

ـ رجل لا غبار عليه؟

ـ صدقنى ليس فى ثروته مليم حلال واحد . .

ـ ماذا فعل معك؟

ـ وظفنى عنده فى أعمال تهريب تحتاج إلى جرأة خاصة ، تعلمت أشياء وأشياء ، استعملت بدورى العصابة ، اليوم العمل كله مشروع . .

وسألته جلجلة :

ـ هل لو كنت فى منطقتنا أيام التهريب كنت قبضت علينا؟

ـ طبعـا .

ـ رغم الحماية؟

ـ بـلا تـردد .

فقال زعتر ضاحكا :

ـ يعملها ولو تعرض للنفى ، أنا عارفه .

فقالت جلجلة :

ـ يا لك من حبيب قاس ! وهل كنت تقبض على زغلول رأفت؟

ـ ربمـا قبلكم . .

فثنت رقبتها فى مرح وقالت :

- ستصبح المدينة بلا لصوص، ماذا تريد أكثر من ذلك؟
- أو ستصبح كلها لصوصا . .
- النتيجة واحدة .
وقال زعتر بحرارة :
- بودى أن أغرقك فى السعادة!
فتمتم فى فتور :
- شكرًا . .
تصافحا، هتفت جلجلة مخاطبة زعتر :
- قل له إنى مستعدة أن أوصله بسيارتى إلى أى مكان . . لوح لهما مودعا ومضى .

١١

ما معنى ذلك؟ ها هو ذا العبث يتأبط ذراعه متدثرا بالبسمات الحمراء . لاحظ الضابط أن صوت مرافقه مبحوح مثل صوت الحنش . سأله عن السبب فأجاب بأن صوته بح من كثرة الخطب، ولأنه يؤذن كثيرا داعيا المصلين إلى سوق ليبيا، وأشار إلى الشجرة الضخمة تتوسط الميدان الصغير فى شارع البرج، وقال للضابط :
- أى ضخامة، ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلا، إنها لا تعرف القيود، تحيا حياة مطلقة .
وأشار أيضًا إلى كلبين يتلاعبان وتمتم :
- يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان الضمير ولا يخافان الموت . .
فقال الضابط :
- ولكنه الإنسان، وحده .
- حماقة مقنعة بالجلال!
- الجلال!
- هو السجن .
- لكنه الإنسان، لا يعرف ذلك إلا الإنسان . ألا يعنى ذلك شيئًا؟
- لا يعنى شيئا .
- هو وحده .

ـ الإنسان الحقيقى مثل الشجرة، مثل الكلبين . .

ـ إنه وحده، هنا يكمن سره .

ـ هبك مشرفا على الغرق ولا نجاة لك إلا بالتضحية بآخر، ماذا تفعل؟

ـ ساعة الغرق يسيطر الحيوان .

ـ هذه هى الحياة . .

ـ كلا، إنها جريمة يجب التكفير عنها .

ـ هل تعرف الجريمة بالفطرة؟

ـ كفى، على أحدنا أن يتلاشى .

* * *

تهبط النقود بلا حساب فى ميدان ليبيا، السماء تمطر هدايا . بالوقاحة تصان الهيبة .

طيب، ها قد تغير كل شىء، ستسيطر على الحياة بدل أن تسيطر هى عليك . تتحسن علاقات الكائنات . تستقل سناء ببيتها ثم تنتقل إلى بيت أفضل، يتورد مستقبل أمل وسهير ولمياء . تغدق البركة على سهام وزهيرة . تنطلق سيارة بالأسرة يوم العطلة . الفضلاء يعملون بالرذيلة، الأرذال يحلمون بالفضيلة .

* * *

كان بالنادى عندما رأى زغلول رأفت قادما نحوه . انتحى به جانبا فجلسا فى جانب من الحديقة .

ـ فقدت شيئا ثمينا؟

فقال زغلول باهتمام :

ـ كلا، الأمر أجل . .

ـ ماذا فعلت بزعتر؟

ـ كافأته بعمل شريف مربح . . ولكنه طماع .

فضحك محمد فوزى وسأله :

ـ ما عدد الأعمال الشريفة فى نظرك؟

فقال باهتمام متزايد :

ـ محمد بك . . إنى هنا لغرض مهم . . إنك رجل شريف . . صاحب جميل . . حسن . . علىَّ أن أرد الجميل . .

ـ خيـــر؟

ـ الأمر يتعلق بزعتر .

ـ سـرقك؟

ـ كلا . . لكنه شرع فى سرقتك أنت .

ـ مـاذا تعنى؟

ـ الأمر يتعلق بكريمة أختك . .

فقطب محمد فى حيرة شديدة :

ـ كريمـة أختى؟

ـ إنه يحـوم حـولها . . يحـوم حولهـا باعتبـاره الوجيـه محمـد زغلول . .

تغير وجهه تماما . ارتفق الخوان بساعديه متسائلا :

ـ مـاذا؟

ـ إنى على يقين مما أقول . .

ـ كريمة شقيقتى آية فى العقل والأخلاق . .

ـ لم أقل خلاف ذلك .

ـ لو تعرض لها بإساءة لشكته إلى . .

ـ لا يتعرض لها بما يسوء . . إنه يحوم حولها كرجل شريف .

ـ الوغـد .

ـ خفت أن تخدع الفتاة به ونحن لا نملك قلوبنا .

ـ شكراً لك تحذيرى .

١٢

بدا محمد فوزى كئيبا متجهما . من أول نظرة لاحظت ذلك سناء وزهيرة وسهام . أما الصغيرات فيئسن من ملاعبته . . ونطق بنبرة مفعمة بالغضب :

ـ سـهام .

نظرت إليه الفتاة بذهول فقال :

ـ ما هذا الذى يقال عنك؟

وسكت من شدة الانفعال ، ثم قال بازدراء :

ـ عن رجل له مظهر الوجهاء يدعى أن اسمه محمد زغلول . .

فقالت زهيرة :

ـ لا شيء يستحق الغضب يا أخى .

وتمتمت سناء زوجته :

ـ فعـــلا .

فتساءل بحدة :

ـ آخر من يعلم؟

فقالت ســـناء :

ـ إنه رجل غنى . غرضه شريف ، لم تخف سهام عنا شيئا .

قالت زهيرة :

ـ لم أرد أن أزعجك قبل أن أتحقق بنفسى ، وافقتنى سناء على رأيى ، قالت لى سهام إنه رجاها أن يحدثها ، ذهبت إليه بنفسى لأقول له إن الطريق الوحيد أن يحدثك أنت .

ـ ماذا قال؟

ـ قال إن ثمة سوء تفاهم بينكما قد يخيب رجاءه .

ـ أكان فى نيتك أن تزوجيها من وراء ظهرى؟

فقالت سناء :

ـ اتفقنا أن أحدثك ولكنك سبقت!

فنظر إلى سهام متسائلا :

ـ هل أعجبك؟

فقالت زهيرة :

ـ إنى أبحث عن حل يرضى الجميع .

أدرك أبعاد الموقف . أدرك أيضا دور زوجته التى تحلم بالتخلص من زهيرة وسهام . ضحك بمرارة وقال :

ـ ما هو إلا نشال قضى فى السجن عامين!

فوجمن فى ذهول . تذكر هو يوم رآه رابضا فى البستان تحت البيت . قال بأسى :

ـ لقد رويت لكم حكاية سوق ليبيا ، وحكاية زعتر النورى ، محمد زغلول هو زعتر النورى!

قرأ وجوههن بنظره الثاقب. سهام يغمرها شعور بالنجاة. زهيرة مطبوعة بالخيبة. سناء مغيظة محنقة ولكن قضى عليها بالهزيمة. تمتمت زهيرة:

- ما تصورت ذلك قط!

فقال بسخرية:

- هو هو لم يتغير إلا مظهره، كان لصا غير قانونى فأصبح لصا قانونيا.

١٣

التقت عيناه بعينيه رغم الضجيج والزحام. رسالة خفية سرت منه إلى الآخر. غادر موقفه أمام الكشك نحوه. بدا أنه استشعر الجو كله. قال بتسليم:

- قلب المؤمن دليله.

سار محمد فوزى خارجا من نطاق السوق والآخر يتبعه حتى وقفا تحت جدار القلعة الشاهق، وعند ذلك هتف به الضابط:

- إنك وغد كالعهد بك..

فتمتم وهو يواجهه بثبات:

- الحلم سيد الأخلاق.

- كيف تسول لك نفسك التعرض لبنت أختى؟

- بالشرف تعرضت لها..

- لا تنطق بهذه الكلمة يا زعتر.

- محمد زغلول.

- كذاب.

- هذا كل شىء.

- سأعتبر الموضوع منتهيا وحذار.

- محمد بك.. ربنا قبل التوبة.

- أنت لص لا أكثر ولا أقل.

- إنى رجل شريف وغنى ومن حقى أن أفتح بيتا شريفا.

- اللعنة على شرفك المزعوم.

- لا داعى للغضب.

ـ فلينته كل شىء، إنى أكره الاستمرار فى هذا الحديث .
وتركه دون تحية .

١٤

أول ما صنعه أن كلف مخبرا بمراقبة زعتر . وانهمك فى العمل أكثر وأكثر لينسى هموم المطاردة . وقال لنفسه : «سأبقى شريفا ولو لم يبق فى الحكومة سواى» . ولم يترك طويلا للنسيان فقد زاره فى النادى من جديد زغلول رأفت . فى ذلك المساء رجع إلى بيته بالسكاكينى متفكرا ولكن يصاحبه أمل جديد . وبدا وسط قبيلة النساء مرحا . وقال :

ـ عريس له وزنه يطلب يد سهام .

فتطلعت إليه الأبصار، وقالت سناء بنغمة أمل واضح :

ـ ما أكثر العرسان!

فقال بهدوء :

ـ هذه المرة زغلول رأفت . .

فبادرته سهام :

ـ قلت إنه لص أيضا يا خالى .

ـ لا أنكر، رددت ما سمعته من لص محترف، ولكن لا دليل على ذلك .

ـ لن يغير ذلك من الواقع .

فقالت سناء :

ـ فرق بين النهار والليل، إنه رجل شريف برأى الجميع . .

وقال محمد فوزى :

ـ عرفته ثريا ومن رجال البر . .

فقالت سناء :

ـ رجل له وزنه حقّا، وهو الحلم المطلوب . .

فقال محمد :

ـ إنه فى الأربعين، أرمل، ولا أولاد له .

ـ عز الطلب! لا خير فى الشباب .

ونظر محمد فوزى إلى سهام وسألها :

ـ ما رأيك؟

ونظرت إليها أيضا زهيرة كأنها تستوهبها الموافقة، ولكنها لاذت بالصمت حتى ضاقت سناء بصمتها فقالت:

ـ من واجبك أن تكونى سعيدة!

فقالت سهام بنبرة متوترة:

ـ صبركم حتى أجد عملا، عند ذاك سأذهب أنا وماما!

فقال محمد مقطبا:

ـ قول غير لائق..

واجتاح الغضب سناء فهتفت:

ـ جئناك بالسعادة حتى موطئ قدميك ولكنك مازلت تحلمين بالمستحيل. إنها فرصة لا تتكرر، وأنا بصراحة لم يعد بى صبر!

وقال لها محمد معاتبا:

ـ سـناء!

فصاحت بصوت يهدر بالغضب:

ـ دعنى أنفس عما فى صدرى.

فقالت زهيرة:

ـ أعطونا فرصة، سهام ذكية وتفهم كل شىء، ستسير الأمور كما نود.

١٥

أبلغ الضابط زغلول رأفت بموافقة الأسرة. كان التفاهم بين الرجلين كاملا. لم يترك صغيرة ولا كبيرة. اطمأنت سناء تماما إلى أن زوجها لن يغرم مليما واحدا وأن حلمها يتحقق بكل أبعاده. وتصدى محمد فوزى لموجة امتعاض زاحفة فى أعماقه بأن جعل يؤكد لنفسه شرف العريس، ويقول لضميره القلق: «إن أحدا لم يتهمه فى شرفه إلا الوغد زعتر». أجل. لقد تصرف مع سهام بطريقة قاسية. فما من شك فى أن الموافقة انتزعت منها على رغمها. غير أنها ستحظى بالسعادة والجاه. إنه قرار حكيم وستثبت الأيام صدقه وإخلاصه.

وسارت الأمور فى سبيلها المرسوم حتى خرجت سهام ذات يوم إلى زيارة قريبة

ولكنها لم تعد! . . طال الوقت وغرق الانتظار فى مستنقع الشك القاتل. تحرى عنها فى جميع مظانها ولكن لم يسمع لها عن خبر. . تجسد واقع لم يخطر لأحد على بال. تقوض البنيان كله وتلاشت الآمال مخلفة الرعب والأسى. جنت سناء كما جنت زهيرة، أما محمد فقد ثار ثورة هائلة. قصد من توه رفعت حمدى ولكنه وجده على حال يرثى لها، صاح به غاضبا:

- إنك مسئول عما حدث. أنت. . أنت المسئول الأول!

وفى الحال استغل الضابط خبرته فى الخدمة وإمكاناته الغزيرة فى البحث عن المختفية، ولكن مرت الأيام تباعا دون نتيجة.

ورن التليفون فى بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة فتناول محمد السماعة:

- آلــو . .

- أنا سهام يا خالى . .

- سهام. أين أنت؟

- أكلمك من الإسكندرية.

- ماذا تفعلين هناك؟

- إنى أعمل . . وبخير . . اطمئنوا أريد ماما أن تلحق بى.

- أعطنى عنوانك أريد أن أقابلك.

- ممكن أحضر بنفسى.

- وماذا يؤخرك؟

- عدنى أن تلقانى بهدوء واحترام.

- لك هذا يا سهام.

- سأحضر غدا.

- احضرى الليلة أرجوك.

- ليكن. . إلى اللقاء.

* * *

أقبلت عليهم فى ثبات كأنما قد نضجت فى أيام غيابها أعواما. تلقتها أمها باكية. تساءلت سناء:

- ماذا فعلت بنا يا سهام؟

وقال محمد بهدوء:

- آخر ما كان يتوقع منك.

فقالت باسمة:

- الدفاع عن النفس حق مشروع.
- ليس بهذه الوسيلة.
- الأفضل أن تسمعوا حكايتى..

صمتت مليا لتجمع شتات أفكارها ثم راحت تقول:

- بلغ منى اليأس مداه، صممت على التحدى والانتقام. قلت إنهم يريدون أن يزوجونى من لص مغطى آخر. سأتزوج من اللص المكشوف. وذهبت إلى محمد زغلول أو محمد النورى.

صاح محمد فى جنون:

- كـــلا.
- هو ما حصل، كنت يائسة عمياء، رأيت فى كشكه امرأة جميلة فلوحت له من بعيد فجاءنى وهو لا يصدق عينيه، فقلت له أريد أن أحدثك حديثا مهما. أخذنى فى سيارته إلى مدينة المقطم. فى مكان شبه خال يطل على القاهرة. كان من العسير جداً أن أبدأ ولكن كان لابد أن أبدأ، سألته: ألا زلت تريدنى؟ أجاب ذاهلا بالإيجاب. فقلت له: إنى موافقة. سألنى: هل أفضيت برغبتك إلى محمد بك أو والدتك؟ أجبت بالنفى. سألنى ماذا دفعك إلى المجىء إلىّ؟.. فقلت له إنى لا أريد استجوابا، وإنى مستعدة وكفى. قال: إنى رجل لا يهمنى شىء، لا يهمنى خالك نفسه.. أستطيع أن أفعل ما يحلو لى.. ولكن لابد أن أعرف ما حملك على المجىء.. قلت لا جواب عندى.. واتركنى إذا شئت. قال: إنى أعرف أن الوغد زغلول خطبك.. هذه هى المسألة.. ما قولك؟.. قلت إنى أرفض الاستجواب. قال: يبدو أنك لا توافقين عليه.. ربما لسنه وسوء سمعته.. إن ما جاء بك إلىّ هو الرغبة فى الانتقام أو الرغبة فى الانتحار. فلم أحر جوابا ولمعت عيناى، قال إنك عنيدة مثل جلجلة.. إنى أحب هذا.. ولكنى لا أعرف العبودية فى الحب. قلت إذن فلنرجع. قال: أرفض أن أجعل من نفسى أداة انتقام فى يدك. قلت: إذن فلنرجع. قال إن هذا يعنى أن أسلمك للوغد زغلول رأفت.. كلا.. قد وقعت فى شبكة من المنافقين واللصوص، ومن الشهامة إنقاذك. قلت: ولكن كيف؟ قال: خالك يحسبنى شيئا قذرا.. كلا أنا لم أخن زميلا فى حياتى.. حتى جلجلة فإنى مرتبط بها رغم شبعى منها.. وقد جعلت عصابة من النشالين عصبة من الأعيان.. معجزة تحتاج لثورة كاملة.. وإنى أرفض أن يستعملنى أحد أداة انتقام.. ولكننى سأنقذك.. خالك رجل فقير لأنه شريف. لذلك يهمه أن يتخلص منك على

خير . . لذلك وافق على تسليمك للص قانونى . . اسمعينى جيدا . . أنت متعلمة . . سألحقك بعمل يحفظك من المنافقين واللصوص .

ساد صمت تجلى فيه صوت الأنفاس المترددة . . ثم تساءلت أمها :

ـ أى عمل؟

ـ موظفة فى كشك يملكه فى الإسكندرية بأجر بسيط ونسبة فى الأرباح .

ـ أهو يكفيك يا بنتى؟

ـ فوق الكفاية يا ماما . . لابد أن تأتى معى . . ستجدين حياة معقولة جدّاً .

وقالت سناء :

ـ إنه رجل مذهل .

استمر الحديث بعد ذلك ولكنه ـ محمد ـ لم يتابعه . غرق فى أفكاره بعمق وحزن وذهول . أى هزيمة منى بها؟ . . إنه يتلاشى من الوجود ويحسن به أن يتوارى عن الأعين . وغادر الشقة صامتا . ولما اقترب من ضجيج السوق أثارت الأصوات فى صدره شجنا ثقيلا . ولمحه زعتر فهرع إليه متهللا . تصافحا . وقفا يترامقان فى صمت طال حتى ضاق به محمد فتمتم :

ـ شكراً لك يا زعتر .

فقال الرجل ضاحكًا :

ـ محمد زغلول من فضلك .

فقال محمد فوزى بهدوء ويقين :

ـ زعتر النورى ، اسم طيب لرجل طيب ! . . ماذا يخجلك منه؟!

السماء السابعة

١

سحابة معتمة تقتحم الوجود وتنغمس فى الفضاء . كل شىء يموج بحضور كونى غريب ، لا شبيه له من قبل ، يحلل الكائنات إلى عناصرها الأولى ، ينذر بالعدم أو بخلق جديد . رغم ذلك مازال يملك وعيا بما يحدث ، أو أنه يعيش اللحظات الأخيرة من الوعى . سيطر عليه شعور فائق الإلهام إنه يشهد ما لم يشهد من قبل ولكنه مازال رءوف

عبد ربه. رءوف عبد ربه بلا خوف ولا وساوس ولا مبالاة. يقف خارج أسوار البوابة التاريخية، فى الخلاء، فى الظلام، بلا وزن ألبتة. هو والصديق عانوس قدرى راجعان من سهرة الليل، أين أنت يا عانوس؟.. لا يسمع صوتا، لا يحس بمس الأرض، وثمة شعور عجيب بانعدام الوزن، والغوص فى السحابة المعتمة المقتحمة. وعندما ينادى صديقه لا يند عنه صوت، إنه موجود وغير موجود. وهو حائر ولكنه غير خائف. وقلبه يتوقع إجابة قريبة وصريحة. وترق السحابة وتمضى فى التلاشى. ويقف التموج ويختفى. عند ذاك تتضح ظلمة الليل المشعشعة بإشعاعات النجوم. أخيراً تتراءى يا عانوس. ولكن ماذا تفعل؟ ثمة أناس يحفرون فى الأرض حفرة بهمة ونشاط. وثمة شاب مطروح على ظهره ينزف الدم من رأسه. إنه يرى ذلك بشىء من الوضوح أكثر مما تسمح أضواء النجوم. يا للعجب! ما الشاب المطروح إلاه، رءوف عبد ربه نفسه. إنه أنا دون غيرى وهو منفصل عنه تماما، يراه من بعد قريب. ليس شبيها به ولا توءم له، إنه جسمه، وهذه بدلته، وهذا حذاؤه. عانوس يحثهم على العمل، لا يراه ألبتة، فيما يبدو، يظن أن الجسم المطروح يحوى بالكامل صديقه رءوف لا يفطن إلى الكائن الذى يراقبه بلا انفعال. أدرك أنه غير مرئى مثل جسده المطروح. هل انقسم إلى اثنين؟ هل غادر الحياة؟ هل قتل وعانى الموت؟ قتلتنى يا عانوس؟ ألم نقض معا سهرة ممتعة؟ متى شرعت فى قتلى؟ كيف هانت صداقتى عليك لتستأثر برشيدة؟ ألم تقل لى بأنك ستعتبرها شقيقة لك من الآن فصاعدا؟! ها هم أولاء الرجال يحملون جثتى ويرمون بها فى الحفرة. ها هم أولاء يهيلون عليها التراب ويسوون سطح الأرض. عاد وجه الأرض إلى صورته المألوفة وغاب رءوف عبد ربه كأنه لم يكن. ولكننى موجود يا عانوس. أحسنت صنعا بدفن أداة الجريمة الصلبة. زال كل أثر. لماذا أنت متجهم هكذا؟ أين نظرة عينيك الساحرة؟ أعترف لك - ولو أنك لا تسمعنى - أننى طالما أحببتها. أتظن أن علاقتنا انقطعت وانتهت؟ الصداقة أقوى مما تظن. حتى الموت يعجز عن محقها. كذلك الحب. رشيدة لى أنا وليست لك ولكنك متهور وسيىء التربية. نشأت فى محيط أبيك المعلم قدرى الجزار. محتكر اللحوم، ناهب الفقراء والمساكين، راشى الرجال وشارى الذمم، فلقنك أن تطمع فيما ليس لك وأن تناله بقوة الجريمة.. ماذا أنت فاعل الآن؟ لم يكن يطيب لك الجلوس فى المقهى بدونى، ولا المذاكرة، ولا الذهاب والإياب من الجامعة، أكبر صديقين فى الحارة رغم الفارق اللانهائى فى المال والجاه والسطوة. فإن نسيتنى أنت فما أنا بناسيك. واعلم بأننى لا أحمل نحوك رغبة فى الانتقام أو حتى الإيذاء، لقد دفنت جميع هذه العواطف والانفعالات فى الحفرة مع جثتى، حتى العذاب الذى تعانيه حارتنا من ظلم أبيك وأمثاله لا ينعكس الآن فى صدرى غضبا وحنقا وحقدا وثورة، ولكنه صورة شائعة مرفوضة بقوة الحب، ويشكل رغبة سامية مبرأة من الأوشاب

لتغييرها تغييرا كليا. إنى أرثى لك يا عانوس. لم أرك فى هذه الصورة القبيحة من قبل. إنك هيكل عظمى تسكنه الخفافيش. الدم المسفوك يلطخ وجهك وجبينك. عيناك تقدحان شررا وتتدلى من أذنيك حيَّتان. رجال أبيك يسيرون خلفك على حوافر حمير وبرءوس غربان يرسفون فى أغلال مغروسة بالشوك. إنه ليحزننى أن أكون السبب المباشر لتشويه صفحتكم لذلك يغشانى الأسى وتفتر فى أشواق البهجة!

٢

من خلال تنهدة وجد نفسه فى مدينة جديدة. تضىء بلا شمس مشرقة. مسقوفة بالسحب البيضاء. أرضها تنضح بالخضرة على هيئة أزهار وفواكه، تتخللها على مدى لا نهائى أكواخ بيضاء كالورد، وثمة جموع تتلاقى وتفترق فى خفة الطير. وجد نفسه فى بقعة خالية. عانى غربة الوافد الجديد. وعلى حين فجأة تجلى أمامه رجل يتدثر بسحابة بيضاء. ابتسم إليه وقال:

ـ أهلا بك يا رءوف فى السماء الأولى!

فهتف رءوف بفرحة متألقة:

ـ هى الفردوس؟

ـ قلت السماء الأولى لا الفردوس..

ـ إذن فأين الفردوس؟

ـ بينك وبينها طريق طويل يقطعه سعيد الحظ فى مئات الألوف من السنين الضوئية!

فند عن رءوف صوت كالأنين فقال الرجل:

ـ دعنى أقدم لك نفسى أولا، محدثك آبو الذى كان يوما كاهن طيبة ذات المائة باب.

ـ تشرفنا يا سيدى، من حسن الحظ أنى مصرى مثلك.

ـ لا أهمية لذلك، لقد فقدت هذه الجنسية منذ آلاف السنين، وإنى الآن موفد كمحام للدفاع عن القادمين الجدد.

ـ ليس ورائى تهمة ولكننى شهيد.

ـ صبرا، دعنى أحدثك عن موطنك الجديد، هذه السماء تستقبل الوافدين الجدد، فيها يحاكمون وأتولى أنا الدفاع عنهم. الأحكام تتراوح بين البراءة والإعدام. فى حال البراءة يقضى البرىء عاما واحدا هنا يتأهل فيه روحيا للصعود إلى السماء الثانية...

فقاطعه رءوف متسائلا :

ـ لكن ما معنى الإعدام؟

ـ معناه أن يقضى عليه بأن يولد من جديد فى الأرض ليمارس الحياة مرة أخرى لعله يلقى قدرا أكثر من النجاح ، أما ما بين البراءة والإعدام فيقضى على المتهم عادة بأن يعمل مرشدا روحيا لشخص أو أكثر فى الأرض ، ويكون صعوده إلى السماء الثانية رهنا بتوفيقه أو تمد مدة تجربته وهكذا . .

قال رءوف باطمئنان :

ـ على أى حال فإنى واثق بالبراءة فقد عشت طيبا ومت شهيدا . .

فابتسم آبو وقال :

ـ لا تتعجل ، ولنبدأ الحديث فى قضيتك . . أخبرنى بهويتك؟

ـ رءوف عبد ربه ، السن ثمانية عشر عاما ، طالب تاريخ بالجامعة ، يتيم الأب ، أمى أرملة تعيش على منحة خيرية من الأوقاف .

ـ لماذا أنت راض عن نفسك هكذا يا رءوف؟

ـ رغم فقرى الشديد فإنى طالب مجتهد يحب العلم ولا يكف عن النهل منه .

ـ جميل هذا من ناحية المبدإ ، ولكنك كنت تتلقى كثيرا وتفكر قليلا .

ـ التفكير يكتسب بالعمر والمران ، وعلى أى حال لا يعد ذلك تهمة؟

ـ هنا يحاسب الإنسان على كل شىء ، ألاحظ مثلا أنك كنت تبهر بالأفكار الجديدة .

ـ للجديد سحره يا سيد آبو .

ـ أولا لا تقل سيدى ، ثانيا نحن لا نحاسب على التفكير ولو كان خاطئا ، ولكننا ندين التسليم بأى فكرة ولو كانت صحيحة .

ـ إنها محاكمة قاسية ، العدل فى الأرض أرحم!

ـ ننتقل إلى العدل ، كيف وجدت حارتك؟

ـ بشعة . . أكثرها فقراء متسولون . . يسيطر عليها فتوة يحتكر الغذاء . . اشترى شيخ الحارة . . يسرق ويقتل ويعيش مطمئنا فوق القانون .

ـ إنه وصف دقيق ، ماذا كان موقفك؟

ـ الرفض والتمرد والرغبة الصادقة فى تغيير كل شىء .

ـ تشكر . ماذا فعلت لتحقيق ذلك؟

ـ لم يكن بوسعى أن أفعل شيئًا!

ـ وتريد أن تصعد إلى السماء الثانية؟

ـ لم لا؟ كان عقلى وقلبى رافضين لما يجرى .
ـ ولسانك؟
ـ لو نطق بحرف متمرد لكان جزاؤه القطع .
ـ ولكن حتى الكلام وحده لا يرضى محكمتنا المقدسة!
ـ يا لها من محكمة! وهل كنت إلا فردا وحيدا؟!
ـ حارتنا مكتظة بالتعساء .
ـ واجبى الأول كان تحصيل العلم .
ـ الأمانة لا تتجزأ ولا عذر عن التخلى عنها .
ـ ألم يكن من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى العنف؟
ـ لا تهمنا الصفات، ما يهمنا هو الحق!
ـ ألا يشفع لى أنى قتلت فى سبيل الحب؟
ـ حتى هذا لا يخلو من عنصر فى غير صالحك .
فتساءل رءوف بدهشة :
ـ أى عنصر هذا؟
ـ إنك منحت عانوس ثقتك وهو صورة من أبيه الطاغية!
ـ لم أتصور أننى مذنب لهذا الحد؟
ـ ثمة ظروف مخففة ولكن مهمتى فى الدفاع عنك ليست يسيرة .
ـ هيهات أن يظفر أحد بالبراءة فى ساحة هذه المحكمة .
ـ صدقت، قلة نادرة أدت واجبها الكامل نحو الأرض .
ـ أعطنى مثالا أو مثالين .
ـ خالد بن الوليد وغاندى .
ـ إنهما نقيضان!
ـ للمحكمة تصور آخر، والعبرة بالواجب نفسه .
ـ الآن لم يعد لى أمل . .
ـ لا تيأس، ولا تستهن بخبرتى الطويلة، سأفعل المستحيل لإنقاذك من الإعدام!
ـ ماذا يمكن أن يقال؟
ـ أقول إنك بدأت بداية لا بأس بها فى ظروف بالغة المشقة، وإنه كان يرجى منك خير لو امتد بك العمر، وإنك كنت محبا صادقا وبارا بوالدتك .

ـ إذن فغاية ما أطمع إليه أن يقضى عليّ بأن أكون مرشدا روحيا؟

ـ وهى فرصة لاستدراك ما فاتك، فى عالمنا هذا لا يصعد الإنسان إلا بفضل توفيقه فى الأرض.

ـ أيها المحامى الجليل لِم لا ترسلون مرشدا للمعلم قدرى الجزار؟

ـ ما من أحد إلا وله مرشده.

فهتف رءوف بذهول:

ـ وكيف يستمر الشر إذن؟

ـ لا تنس أن الإنسان حر، كل شىء يتوقف فى النهاية على قوة تأثير المرشد وحرية الفرد.

ـ ألم يكن من الخير أن تلغى هذه الحرية؟

ـ قضت المشيئة بألا يقبل فى السموات إلا الأحرار.

ـ كيف لا يقبل فى السماء ولى حارتنا الطاهر الشيخ عاشور؟ إنه لا يمارس الحرية فكل ما يقول أو يفعل من إملاء إلهامه الصادق؟

فابتسم آبو وقال:

ـ ما هو إلا صنيعة لقدرى الجزار، يؤول الأحلام لمصلحته وينقل إليه همسات الضمائر من البيوت التى ترحب ببركته!

فصمت رءوف مغلوبا على أمره. غاب قليلا فى الخضرة اليانعة المزركشة بأكواخ الورود، استسلم للملاحة وعذوبة الجو ثم تنهد قائلا:

ـ ما أتعس أن يجبر الإنسان على هجر هذه الجنة!

فهتف به آبو:

ـ حذار من الرغبة الآثمة فى الهروب من الواجب.

فتساءل رءوف:

ـ متى أمثل فى ساحة المحاكمة؟

فأجاب آبو:

ـ لقد تمت المحاكمة!

فرنا إليه رءوف بدهشة فقال:

ـ تم الاستجواب ومرافعة الدفاع فيما جرى بينى وبينك، وصدر الحكم وهو يقضى بندبك مرشدا روحيا، تهانىّ!

٣

تقرر استبقاء رءوف عبد ربه فى السماء الأولى فترة قصيرة ليتطهر من أى شائبة، وليؤهل لمهمته. وبغية تدريبه وتثقيفه أبقاه آبو إلى جانبه فى الوقت الذى يستقبل فيه المرشدين عادة.

وقال له رءوف:

- أود أن أرى أدولف هتلر، هل يجىء الآن؟

- لقد قضى عليه بالإعدام فولد فى حارتكم من جديد وطالما رأيته:

- هتــلر؟

- هو المعلم قدرى الجزار.

فصمت رءوف مليا من الدهشة ثم تساءل:

- إذن فمن يكون شيخ الحارة شاكر الدرزى؟

- لورد بلفور!

- والشيخ عاشور الولى الكذاب؟

- إنه خنفس خائن الثورة العرابية.

- أراهم لا يتغيرون ولم يستفيدوا من إعادة التجربة.

- ليس الحال كذلك دائمًا. أتدرى من تكون أمك؟

- إنها ملاك يا آبو.

- ما هى إلا ريا السفاحة المشهورة، فانظر كم تقدمت!

فذهل رءوف وصمت على حين استقبل آبو أول الوافدين.

قال الوافد:

- إنى أبذل أقصى ما أستطيع.

فقال آبو:

- أعلم ذلك ولكن يلزمك مضاعفة الجهد فقد آن لك أن تصعد!

ولما اختفى الوافد قال رءوف:

- إنى أعرفه جيدًا أليس هو إخناتون؟

ـ هو عينه، إنه سيئ الحظ فطال مقامه آلاف السنين.

ـ ولكنه أول من بشر بالله الأحد!

ـ هذا حق ولكنه فرض إلهه على الناس بالقوة لا بالهداية والإقناع فتيسر لأعدائه من بعده أن ينتزعوه من القلوب بالقوة، ولولا صفاء سريرته لقضى عليه بالإعدام.

ـ ولم طال به المقام هذا الدهر؟

ـ لم يوفق مع أحد ممن ندب لإرشادهم مثل فرعون موسى والحاكم بأمر الله وعباس الأول.

ـ ومن رجله اليوم؟

ـ كميل شمعون!

وجاء الوافد الثانى، قدم تقريرًا، تلقى كلمات مشجعة ثم اختفى. عند ذاك قال رءوف:

ـ إنه الرئيس ويلسون!

ـ أجل.

ـ حسبته من القلة السعيدة التى صعدت إلى السماء الثانية.

ـ أنت تشير بلا شك إلى مبادئه السامية ولكنك نسيت أنه لم يستغل قوة أمريكا فى تنفيذها، بل إنه اعترف بالحماية على مصر.

ـ ومن رجله؟

ـ الأستاذ توفيق الحكيم!

ولما اختفى الوافد الثالث قال رءوف:

ـ إنه لينين بلا شك..

ـ نعــــم.

ـ حسبت أن الإعدام كان نصيبه لإلحاده، ماذا قلت دفاعا عنه؟

ـ قلت إنه من خلال ثرثرة فكرية غير الأسماء ولم يغيِّر الجوهر، سمى إلهه المادة الأزلية وأضفى عليها من صفات الله القدم والخلق والسيطرة على مصير الكون. وسمى الرسل بالعلماء، والملائكة بالعمال والشياطين بالبرجوازيين، ووعد أيضا بالجنة فى تحديد أكثر لزمانها ومكانها. ونوهت بقوة إيمانه وبلائه فى خدمة الكادحين وروح تضحيته وتقشفه، وقلت أيضا إن ما يهم الله سبحانه هو ما يصيب الناس من خير أو شر. أما هو ـ جل جلاله ـ فمستغن عن البشر، لن يزيده إيمانهم ولن ينقص من شأنه كفرهم به. هكذا خفف الحكم وعين مرشدا روحيا!

فتساءل رءوف مبهورا :

ـ ومن رجله؟

ـ الأستاذ مصطفى محمود .

ـ وهل ندب ستالين مرشدا أيضا؟

ـ كلا ، ستالين أعدم لقتله الملايين من الكادحين بدلا من أن يعلمهم ويدربهم .

ـ لعله يعيش اليوم فى حارتنا؟

ـ كلا ، إنه يعمل فى أحد مناجم الهند .

بانتهاء استقبال لينين فرغ آبو من مقابلات الساعة ، استصحب رءوف لنزهة فى السماء الأولى . لدى تفكيرهما فى النزهة انطلقا مباشرة ، استجابة للرغبة الداخلية ، بلا حاجة إلى استعمال القدمين ، كطائرين ، ثملين بنشوة باطنية انعكاسا لمفاتن الحركة المنسابة فى يسر وعذوبة . غاصا فى جو فضى ذى أرضية خضراء مزركشة وسماء مضيئة بألق السحائب البيضاء . مرا بوجوه كثيرة تمثل شتى الأجناس والألوان . منهمكين فى الظهور والاختفاء ما بين السماء الأولى والأرض . كل مستغرق فى مهمته الرفيعة . يستهدفون للأرض وأهلها رقيا ونصرا ، يأملون من ورائها تكفيرا وتطهيرا لأنفسهم ليواصلوا صعودهم فى مراقى الروح والإبداع والقرب من الحقيقة العظمى . يعملون بإصرار ، تدفعهم الأشواق الحارة اللانهائية إلى الكمال والحق والخلود . قال رءوف :

ـ يُخيّل إلىَّ أن العناء هنا لا يقل عن نظيره فوق الأرض؟

فأجاب آبو باسما :

ـ هما عناء واحد متصل ، غير أن الإنسان يمارسه ها هنا بقلب أنقى وعقل أذكى وهدف أوضح .

ـ زدنى وضوحا يا آبو .

ـ أنتم تحلمون فى الأرض باليوم الذى تتحقق فيه المدينة الفاضلة المؤسسة على حرية الفرد وعدالة المجتمع والتقدم العلمى والسيطرة الظافرة على قوى الطبيعة ، وفى سبيل ذلك تحاربون وتسالمون وتتحدون القوى المضادة المسماة فى اصطلاحاتكم بالرجعية ، هذا جميل طيب ولكنه ليس الهدف كما تتصورون ، إن هو إلا الخطوة الأولى السديدة فى طريق طويل من الرقى الروحى يبدو حتى للذين يقيمون فى سمائنا الأولى بلا نهاية . .

فاستغرق رءوف فى التأمل حتى سأله آبو :

ـ فيم تفكر يا رءوف؟

فقال بأسى :

ـ أفكر فى مدى بشاعة الجريمة اليومية التى تواصل اقترافها القوة المضادة!

ـ وهى جريمة يشارك فيها الطيبون بالسلبية والقعود عن الجهاد خوفا من الموت وما الموت إلا ما ترى.

ـ أى حيـــاة؟

ـ إنها معركة بلا زيادة ولا نقصان!

وتفكر رءوف طويلا حتى أرهقه التفكير فعاد إلى تشوقه السابق لمعرفة مصائر الشخوص الذين يهتم بهم، فسأل آبو:

ـ أود أن أعرف مصائر زعماء وطنى؟

ـ انتظر حتى تراهم أو سل ما بدا لك.

ـ ماذا عن السيد عمر مكرم؟

ـ إنه مرشد أنيس منصور.

ـ وأحمد عرابى؟

ـ إنه مرشد لويس عوض.

ـ ومصطفى كامل؟

ـ مرشد فتحى رضوان.

ـ ومحمد فريد؟

ـ مرشد عثمان أحمد عثمان.

ـ وسعد زغلول؟

ـ هو وحده الذى صعد إلى السماء الثانية!

ـ بسبب تضحياته؟

فابتسم آبو قائلا:

ـ بسبب انتصاره على ضعفه البشرى!

ـ زدنى إيضاحا يا آبو.

ـ لعلك تعلم بأنه عانى هفوات الطموح قبل الثورة ثم سما عقب الثورة إلى رؤية رفيعة من الشجاعة والفداء فاستحق البراءة.

ـ ومصطفى النحاس؟

ـ كان مرشد أنور السادات، وعقب ٦ أكتوبر وعودة الحرية صعد إلى السماء الثانية..

ـ وجمال عبد الناصر؟

ـ إنه اليوم مرشد القذافى . .

* * *

وفى نهاية التدريب القصير قال آبو لرءوف :

ـ كن مرشدا روحيا لقاتلك عانوس قدرى الجزار .

فامتثل رءوف الأمر بحماس وعزيمة فقال آبو :

ـ اعتمد فى الإيحاء على فكرك وإنه لقوة عظيمة إذا أحسنت استخدامها ، واستعن عند الضرورة بالأحلام ، والله معك .

٤

هبط رءوف عبد ربه إلى الحارة يرى ويسمع على السرائر على حين لا يرى له طيف ولا يسمع له صوت . ينتقل من مكان إلى مكان كالنسمة المنسابة ، فى حارته المحبوبة بصورتها المتكاملة الثابتة ، وأناسها المنهمكين فى شئون الحياة ، إنه يملك ذكرياته كافة ، وضمنها آماله وآلامه السابقة ، ويتمتع بصفاء ذهن مثل الضياء الساطع . عشرات وعشرات من الكادحين والكادحات يعملون بأعين خابية وسواعد مفتولة . الضحكات تطفو فوق الشتائم كالزبد المتألق الممزوج بالحموضة . ها هو ذا المعلم قدرى الجزار فى وكالته ، لا شبه بينه وبين هتلر فى ملامحه ، لكن جسمه ترهل من مص دماء البشر . ها هو ذا لورد بلفور ، أو شاكر الدرزى شيخ الحارة ، الذى أهدر القانون تحت قدمى الجزار ، وها هو ذا الولى الماكر عاشور الذى يستلهم الغيب لتأييد سيده ومولاه . لك الله يا حارتنا . كيف ومتى تمرقين من هذه الأغلال المحكمة؟ ويبدو أن اختفاءه ـ رءوف ـ قد حرك ألسنة الحارة وقلوبها . النسوة يحطن بأمه الباكية :

ـ هذا ثالث يوم يمر على اختفائه . .

ـ بلغى القسم يا أم رءوف . .

ـ بلغت عم شاكر الدرزى شيخ الحارة .

ويجىء صوت شيخ الحارة متهكما :

ـ ألاعيب شباب هذه الأيام!

فهتفت الأم الباكية :

ـ ابنى لم يغب ليلة واحدة بعيدا عن بيته .

وها هى ذى رشيدة راجعة من معهدها. جمال وجهها الأسمر مكتس بالكآبة. أمها تقول لها:

- اعتنى بنفسك فالصحة لا تعوض!

فتقول وهى تختنق بالبكاء:

- إنى أعرف، قلبى لا يكذبنى.

رنا إليها رءوف بإشفاق. صدقت يا رشيدة. قلب المحب جهاز استقبال دقيق. ولكننا سنلتقى ذات يوم. الحب خالد يا رشيدة وليس كما يتوهم البعض. وها هو ذا القاتل يخطر راجعا من الجامعة. تمسك بيد كتابا وتقتل بالأخرى!.. إنى لا أغيب عن ذهنك ولكنك لا تدرى بأننى انتدبت مرشدا لك. هل تطيعنى اليوم أو تمضى فى غيك؟.. كل شىء يدعو للطمأنينة يا عانوس. أبوك يلقى ظله على الجميع. الحكومة والولاية ملك يمينه. تحت أمرك أى شهادة زور تحتاج إليها، ولكن صورتى لا تبرح مخيلتك. فلم لا؟ ألسنا صديقين ضرب بمودتهما المثل؟! ثم إنك مازلت شاديا فى الإجرام. لم تتمرس به كوالدك، ومن خلال ثقافتك تعلمت أو على الأقل سمعت عن أشياء جميلة. أتحلم بأنك ستظفر بقلب رشيدة نتيجة لتلك الجريمة؟ ما هذا الذى قتلته ودفنته فى الخلاء؟ لا يعنينى أمره بأكثر مما يعنيك. إنى رفيقك الأبدى كما سترى. اعترف يا عانوس، اعترف بجريمتك، اعترف والحق بى فسيكون لك دور أفضل. ها هى ذى أمى التعيسة تعترض سبيلك:

- يا سى عانوس.. أليس عندك خبر عن صديقك؟

- أبدا والله..

- قال وهو يودعنى إنه ذاهب إليك..

- تقابلنا دقائق ثم أخبرنى أنه ذاهب إلى مشوار مهم وأننا سنلتقى مساء اليوم فى القهوة.

- ولكنه لم يرجع..

- ألم أزرك سائلا عنه؟

- حصل يا بنى ولكنى أكاد أجن..

- وإنى مثلك فى القلق.

صدقت يا عانوس. إنى أرى القلق فى روحك مثل النمش فى الوجه. ولكنك قاس وخبيث، إنك من القوى المضادة يا عانوس ألا تدرك خطورة ذلك؟ إننا نشكو طول الطريق الأبيض فما بالك وأنت تنحدر فى الطريق الأسود؟!.. إنى ملازمك. إذا لم تتذوق هذه الدجاجة المحمرة فالذنب ذنبك، إذا لم تستطع أن تركز ذهنك فى كتابك

فالذنب أيضا ذنبك. لن أتخلى عنك فلا تبدد تعبى هباء، واسهد طويلا فلن يدركك النوم قبل الفجر.

ولما صعد رءوف إلى السماء الأولى وجد آبو منهمكًا فى الحديث مع إخناتون، وكان إخناتون يقول:

ـ كلما قلت له يمينك أخذ يساره!

فقال له آبو:

ـ استعمل قواك كما يجب.

ـ ينقصنا استغلال القوة المادية.

فهتف آبو:

ـ ألا ترغب فى الصعود؟ المسألة أنك لم تعتد المناقشة والإقناع ولكنك ألفت إصدار الأوامر.

والتفت آبو إلى رءوف وتساءل:

ـ كيف الحال عندك؟

ـ بداية حسنة.

ـ عظيـــم!

ـ ولكنى أتساءل أليس لكل فرد من العامة مرشده؟

ـ طبعـــا.

ـ إذن لماذا هم مستسلمون؟!

ـ يا لك من مخطئ، إنك أحد أبناء عصر الثورات!

فى تلك اللحظة، هبط عصفور أخضر فى حجم تفاحة حتى حط على منكب آبو. قرب منقاره الوردى من أذن آبو فبدا هذا منصتا ثم طار مدوما فى الفضاء حتى توارى خلف السحائب البيض.

ورأى آبو نظرة التشوف فى عينى رءوف فقال:

ـ إنه رسول السماء الثانية جاءنى ببراءة الصعود للمدعو شعبان المنوفى.

ـ ومن شعبان المنوفى؟

ـ جندى مصرى استشهد فى المروة على عهد محمد على، وهو مرشد لمهرب نقود يدعى مروان الأحمدى فنجح أخيرا فى حمله على الانتحار.

وجاء شعبان المنوفى مشمولا بثوبه السحابى، فقال له آبو:

ـ ستصعد مجللا بالبركات إلى السماء الثانية!

وهرع إلينا جميع المرشدين كالحمام الأبيض حتى ازدحم بهم المكان الأخضر. وقف شعبان بينهم متهلل الوجه. وعزفت موسيقى بلحن سماوى، وقال آبو:

ـ اصعد يا وردة المدينة الخضراء وواصل جهادك القدسى.

فقال شعبان المنوفى بصوت عذب:

ـ طوبى لمن يقدم خدمة لأرض العناء.

ومضى يصعد بخفة الشذا الرشيق والموسيقى تعزف لحن الوداع البهيج.

٥

ها هو ذا عانوس قدرى الجزار يقف أمام ضابط المباحث. الضابط يسأله:

ـ متى رأيت رءوف عبد ربه آخر مرة؟

ـ عصر اليوم الذى اختفى فيه، زارنى فى البيت، سرعان ما غادرنى لمشوار مهم واعدا بمقابلتى مساء فى القهوة.

ـ هل أخبر شيئًا عن مشواره؟

ـ كــلا..

ـ ألم تسأله عنه؟

ـ كلا.. حسبته أمرا يتعلق بالأسرة.

ـ رآكما البعض وأنتما تسيران معا فى الحارة عقب الزيارة.

لا تضطرب، الأفضل أن تعترف. فرصتك الذهبية لو تعلم!

* * *

ـ أوصلته حتى خارج البوابة.

ـ إذن ذهب إلى الخلاء؟

* * *

هذه فلتة لسان يا عانوس. ما أكثر الفلتات! لن ينجيك إلا الصدق.

* * *

ـ نعــم.

ـ ماذا فعلت بعد ذلك؟

- قصدت القهوة لأنتظره.

- حتى متى بقيت فيها؟

- حتى منتصف الليل، ثم رجعت إلى بيتى.

- تستطيع أن تثبت ذلك؟

- كان يجلس بالقرب منى طوال الوقت عم شاكر الدرزى شيخ الحارة.. وفى الصباح الباكر ذهبت إلى مسكنه وسألت والدته عنه فأخبرتنى بأنه لم يعد!

- ماذا فعلت؟

- سألت عنه جميع الأصدقاء والمعارف فى الحارة.

- ألك تصور خاص عن اختفائه الطويل؟

- كلا، إنه شىء محير حقّا.

* * *

ها أنت ذا تنصرف من القسم يا عانوس. إنك تستعيد كل كلمة قيلت. تندم على ذكر البوابة. تتساءل عمن شهد مسيركما معا. كأنك تفكر فى مزيد من الشر. وتعيد على مسامع أبيك ما جرى من حوار. إنه مطمئن جدّا. فى جيبه تستقر النقود والقانون والشهود. جرم محترف. أنصحك للمرة الثانية أن تواجه جريمتك بشجاعة وتصفى حسابك. ثم ما هذا؟ ألا تزال صورة رشيدة ترتسم فى مخيلتك؟ هذا هو الجنون عينه. ثم إنك تدرك أن التحريات ستجرى عنك مثل الطوفان. شيخ الحارة يقرر ذلك أيضا. الغيب ينذر بمفاجآت مجهولة. إنك تفكر فى ذلك كله وتفكر أيضا فى رشيدة يا أحمق!.. لذلك قال رءوف لآبو:

- الخوف من الموت أكبر لعنة سلطت على البشر.

فتساءل آبو باسما:

- ألم يكن ذلك خليقا بأن يمنعه من ارتكاب جريمته؟

ولزم رءوف الصمت، فقال آبو:

- لقد انتدبت مرشدا لا فيلسوفا، فتذكر ذلك.

٦

إنك تتساءل يا عانوس لم يستدعيك الضابط ثانية، حسن، الأمور لا تنتهى بالبساطة التى يتصورها أبوك. ها هو ذا الضابط يسأل:

ـ ماذا تعرف عن حياة رءوف الشخصية؟

ـ لا شيء فيها يستحق الذكر.

ـ حقّا؟.. وماذا عن حبه لرشيدة الطالبة بمعهد الفنون الطرزية؟

ـ كل شاب لا يخلو من علاقة كهذه!

ـ ألك أنت مثلا علاقة مثلها؟

ـ هذه شئون خاصة ولا شأن لها بالتحقيق.

ـ أتظن ذلك؟.. حتى إذا كنت تحب الفتاة نفسها؟

ـ المسألة تحتاج لإيضاح.

ـ طيب!.. ما هو؟

ـ كاشفته مرة بأنى أرغب فى خطبة رشيدة فصارحنى بأنهما متحابان، وفى الحال اعتذرت واعتبرت الأمر منتهيا!

ـ ولكن الحب لا ينتهى بكلمة.

ـ كانت مجرد عاطفة عابرة.. لا أدرى ماذا تقصد؟

ـ إنى أجمع معلومات، وأتساءل ترى ألم تتغير عواطفك نحو صديقك ولو قليلا؟

ـ كلا.. عاطفتى لرشيدة كانت عادة، أما صداقتنا فكانت صداقة العمر!

ـ تقول كانت؟ هل انتهت؟

فقال عانوس بضيق:

ـ أقصد إنها صداقة العمر.

تتساءل ترى هل جرى تحقيق مع رشيدة؟ وبم اعترفت؟ حسن. إنى أقول لك إن التحقيق جرى، وإنها اعترفت بمحاولاتك فى انتزاعها من قلب صديقك، كما اعترفت بسطوة أبيك وخوفها على نفسها وعلى أمها. أؤكد لك أن الأمور تمضى فى غير صالحك.

* * *

فضحك الضابط وقال:

ـ تتكلم كما لو كنت يئست من رجوع صديقك!

ـ إنى واثق برجوعه، بهذا يحدثنى قلبى.

ـ قلب المؤمن دليله، وإنى لأرجو ذلك أيضا!

* * *

تخرج هذه المرة من القسم وأنت أشد اضطرابا من المرة الأولى. أظنك شعرت تماما بأن الضابط الماكر يشك فيك يا عانوس. لا تتصور أن أباك قادر على كل شىء. هتلر نفسه ألم ينهزم وينتحر؟!

٧

الضابط يستدعيك للمرة الثالثة يا عانوس. أعصابك بدأت تتمزق. أبوك يرمق شاكر الدرزى بغضب، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟! قف أمام معذبك الضابط واسمع:

- يا عانوس، تلقينا رسالة من مجهول يتهمك بقتل صديقك رءوف!

وهتف بغضب مفتعل:

- تهمة حقيرة.. ليكشف عن وجهه.

- صبرك، نحن نقدر الأمور بميزان دقيق، أنت وصاحبك ألم تكونا تذهبان كثيرا خارج البوابة للسهر؟

- بلى..

- أين كنتما تقضيان الوقت فى ذلك الخلاء؟

- فى مقهى الشرفا فوق الهضبة.

- هذا ما قدرته، وقد قررت أن أجرى مواجهة بينك وبين رجال المقهى!

* * *

انتظر ولا تضطرب. إنك عنيد، هذه هى الحقيقة. لا تريد أن تستجيب لمناجاتى. ثق بأننى أعمل لصالحك يا تعيس.

* * *

وتمت المواجهة فشهد صاحب المقهى وصبيه أنهما لم يريا عانوس منذ أكثر من شهر. لم يتجل الاقتناع الكامل على وجه الضابط. ورمق عانوس بنظرة صارمة وتمتم:

- تفضل بالانصراف!

* * *

تغادر القسم وعلى شفتك ابتسامة النصر. لك الحق فى ذلك. أبوك أحكم خطوط الدفاع من حولك ولكن هل ينتهى الأمر عند هذا الحد؟ قلبك ينقبض وأنت تمر أمام مسكن ضحيتك. تساورك الهواجس مرة أخرى. من المجهول الذى أرسل الخطاب؟ وهل يكون آخر خطاب من نوعه؟ إنك قاتل يا عانوس وضميرك لا يريد أن يستيقظ.

لأزورنك الليلة فى المنام. مادمت لا تستجيب إلى ندائى الخفى، فستجد جثتى مطروحة إلى جانبك فوق الفراش. ها هو ذا شخيرك يعلو تحت وطأة الكابوس. وتستيقظ فزعا بقلب ثقيل. وتنزلق من الفراش لتبل ريقك بجرعة ماء. ولكنك ستجد الجثة حال استغراقك فى النوم، ويتكرر الحلم ليلة بعد أخرى. تدعو أمك الشيخ عاشور لفحص حالك فيهبك حجابا لتضعه فوق قلبك، ولكن الجثة لا تبرح منامك. وتسوء حالك فتذهب سرا إلى الطبيب النفسى. تتردد عليه أسبوعا بعد أسبوع. يقول لك قولا عجبا. إنك تتصور أن صديقك قد قتل وأن جثته هى جثتك أنت للارتباط العاطفى بينكما، عاطفة واحدة ربطت بينكما فجثته هى البديل عن جثتك، ولكن لماذا تتصور أنك أنت القتيل؟ جثتك بدورها بديل عن جثة أخرى أو بديل عن شخص آخر تود أنت قتله فى أعماقك وهو أبوك، وعليه فالحلم كله انعكاس لعقدة أوديب! إنك لا تعشق أمك ولا تود قتل أبيك ولكنك تعشق رشيدة وقتلتنى أنا لتزيحنى من طريقك.

وشكا رءوف أمره إلى آبو، فقال آبو:

ـ الشكوى من التشخيص العلمى الناقص كثيرة، حساسية من الإحباط تشخص كمرض ناشئ عن تناول الشوكولاتة، كآبة من فقدان الإيمان يعالج بسببها العصب السمبتاوى، إمساك شديد بسبب الوضع السياسى توصف له الملينات، وهلم جرا!

ـ والعمل يا آبو؟

ـ هل أدركك اليأس؟

فبادره رءوف:

ـ كـلا..

ـ استثمر ما لديك من قوة!

٨

حفظت قضية رءوف عبد ربه لعدم الاهتداء إلى أسباب اختفائه. تلاشى الحادث رويدا رويدا من الأذهان، لم تعد تذكره إلا أمه ورشيدة. ومضى عانوس يمارس حياته اليومية مستغرقا فى العمل واللهو. كان الماضى يطارده من حين إلى حين سواء فى اليقظة أو فى المنام، ولكنه ألف مناوشاته وغالبها بالإرادة والمخدر والمنوم. وأمن جانب القانون تماما فراح يفكر من جديد فى رشيدة وإلا فما معنى إقدامه على أفظع فعل فى حياته؟! كان يتعمد رؤيتها وأن يريها نفسه كل صباح وهما ذاهبان إلى معهديهما. مازال وجهها مكتسيا بكآبة الذكرى فهل لم تفقد الأمل بعد؟ وألا تفكر يوما فى مستقبلها كفتاة تنشد

الحياة والسعادة والإنجاب؟! وهل تطمح إلى من هو أصلح لها منه فى الحارة كلها؟! لقد ضاعفت مغامرته الجنونية من تعلقه بها ورغبته الثابتة فى الاستحواذ عليها. ومرة تصادف مجلسه لصقها فى الترام، فحيّاها ولكنها تجاهلته فقال:

ـ كان يجب أن نتبادل المساعدة.

فقطبت نافرة ولكنه واصل حديثه:

ـ فكلانا يعانى فقد عزيز مشترك!

عند ذلك خرجت من صمتها قائلة:

ـ لم يفقد ولكنه قُتل!

ـ مـــاذا؟!

ـ كثيرون يؤمنون بذلك؟!

ـ ولكنه لم يكن له عدو واحد؟!

فرمته بنظرة ازدراء ولاذت بالصمت.

* * *

إنها تتهمك يا عانوس بقتله. أكنت فى شك من ذلك؟ تستطيع أن تمحو الجريمة من صفحتك ببعث نفسك والوقوف فى وجه أبيك. لقد فات أوان الحب.

* * *

غادرت الترام قبله فأتبعها نظرة مليئة بالحقد والرغبة. ودهمت مخيلته أحلام طائشة مفعمة بالعنف والشهوة.

٩

وقالت أم رشيدة لأم رءوف:

ـ الجميع يتكلمون عن ذلك الرجل العجيب الذى يحضر الأرواح، فلم لا تجربينه علما بأنه لن يكلفك مليما واحدا؟

فرنت إليها الثكلى حائرة ثم تمتمت:

ـ وتذهبين معى!

ـ لِم لا؟ . . سأتصل بالمرحوم أبى رشيدة!

وقالت رشيدة وهى تتابع الحديث باهتمام:

ـ أناس محترمون كثيرون يؤمنون بتحضير الأرواح .

وتواعدن على يوم فى تكتم شديد . وقال رءوف لآبو متهللا :

ـ هى فرصتى لكشف الستار عن المجرم .

فقــال آبــو :

ـ أنت منتدب مرشدا له لا عليه!

ـ أنترك هذه الفرصة تفلت من أيدينا؟

ـ لست مـرشـد شـرطة يا رءوف ، إنك مـرشـد روحى وهـدفك أن تنقـذ عـانوس لا أن تسلمه للجلاد .

ـ ولكنه مثل الصخر لا تؤثر فيه نسائم الحكمة .

ـ إنه اعتراف بالعجز .

فهتف رءوف :

ـ كلا . . لم أقنط بعد . . ولكن ماذا علىَّ أن أفعل إذا استدعيت روحى؟

ـ أنت حر فلا تقيد حريتك بالإلحاح فى الاسترشاد .

وانعقدت جلسة التحضير وشهدتها أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة . واستدعت روح رءوف فحلَّ فى ظلمة الحجرة وقال لأمه بصوت سمعه جميع الحاضرين :

ـ رءوف يحييك يا أمى . .

فشهقت المرأة لتوكدها من موت ابنها وتساءلت :

ـ ماذا حدث لك يا رءوف؟

فقال رءوف بلا تردد :

ـ لا تحزنى ، أنا سعيد ، لا يزعجنى إلا حزنك ، تحياتى إلى رشيدة .

وسرعان ما غادر الحجرة . . .

١٠

ورجعت أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة وهن يتساءلن :

ـ لِم لَمْ يبح بسر مقتله؟

فقالت أم رءوف وهى تجفف دمعها :

ـ ولكنه انعدم فى عز شبابه .

فقالت رشيدة :

ـ لا تزعجيه بالحزن . .

وقالت أم رشيدة :

ـ من يدرى لعله مات فى حادث .

ـ ولِم لَمْ يخبرنا بحقيقة موته؟

ـ إنه سره على أى حال!

وأصبح شهود الجلسات هواية أم رءوف، وسلواها الوحيدة فى الدنيا. وكانت تصحب أم رشيدة ورشيدة معها، وعندما جاءت الأيام الأخيرة السابقة لامتحان رشيدة تخلفت عن الذهاب معهما .

وفى ليلة من تلك الليالى وكانت بمفردها بالشقة وهى تذاكر إذ اقتحم الحجرة عليها عانوس قدرى الجزار. تسلل من المنور ثم اقتحم الحجرة. وهتف به رءوف أن ارجع ولا تتقدم خطوة واحدة، ولكنه هجم على رشيدة وكتم الصوت فى فيها براحته وهو يقول :

ـ ستجرين بعد ذلك ورائى يا عنيدة .

وشرع بوحشية فى اغتصابها وهى تقاوم بعنف يائس وصرخ :

ـ سأغتصبك حية أو ميتة . .

وتسللت يدها إلى المقص فوق الخوان وبقوة جنونية وهى مهتصرة تحت ثقله رشقته فى جانب رقبته. شد عليها بقسوة ووحشية ثم تراخت قوته فانطرح فوقها جسده بلا حراك وتدفق الدم الحار على وجهها وصدرها الممزق . .

دفعته عنها فاستلقى فوق الكليم المتهرئ وجرت مترنحة نحو النافذة وهى تصرخ بأعلى صوت . .

١١

هرع الناس إلى الشقة فوجدوها كالمجنونة مخضبة بالدماء. رأوا جثة عانوس فارتفع الصراخ. صاحت وهى تتكور على نفسها :

ـ أراد أن يغتصبنى . .

ولولا وصول الضابط وشيخ الحارة قبل أن يتناهى الخبر إلى المعلم قدرى الجزار لفتك بها. كان يزأر.

ـ ابنى . . وحيدى . . سأحرق الدنيا . .

أحاطت القوة برشيدة وصاح الضابط :

ـ الجميع يخرجون فى الحال . .

وصاح قدرى موجها عاصفته إلى رشيدة :

ـ سأشرب من دمك . .

وانتشرت نيران الخبر الدامى فى الحارة . .

١٢

وقف عانوس يرنو إلى جثته وهو فى حيرة غاشية . تقدم رءوف منه باسما فنظر إليه الآخر وتمتم :

ـ رءوف ! . . ماذا جاء بك؟

فأجابه برقة :

ـ جاء بى الذى جاء بك ، هلم معى بعيدا عن هذه الحجرة . . فأشار إلى جثته وقال :

ـ وأترك هذه؟

ـ هى ثوبك القديم ولم يصلح للاستعمال !

ـ هل . . هل . . ؟

ـ أجل . . لقد غادرت الدنيا يا عانوس . .

وصمت مليا ثم قال مشيرا إلى رشيدة :

ـ ولكنها بريئة .

ـ أعرف ذلك ، ولكنك لن تستطيع إسعافها . . هلم معى . .

فقال عانوس بعد تردد :

ـ آسف على ما اقترفته فيك !

ـ لا أهمية للأسف . .

ـ إنى سعيد بلقائك . .

ـ وإنى سعيد بلقائك . .

١٣

وسرعان ما أعطاه فكرة سريعة عن دنياه الجديدة. ولما جاء آبو قال رءوف:

- آبو، محاميك يا عانوس..

فقال آبو مخاطبا عانوس:

- أهلا بك يا عانوس فى السماء الأولى..

فتساءل عانوس بذهول:

- كتبت لى الجنة؟!

فابتسم آبو وقال:

- صبرك، الطريق أطول مما تتصور..

ومضى آبو يزوده بالمعلومات الضرورية عن عالمه الجديد، والمحاكمة، ونوعية الأحكام المتوقعة. وتمثلت لعانوس أفعاله أشباحا قبيحة مفزعة فتجهم وجهه وتجرع القنوط حتى الثمالة، غير أن آبو قال:

- على أى حال فإن مهمتى هى الدفاع عنك..

- وهل لديك فرصة لذلك؟.. هل يخفف من آثامى حرمانى من الحياة وأنا فى عز الشباب؟

- لقد خسرتها بيد فتاة وهى تدفع عن شرفها اغتصابك، ثم تركتها متهمة بقتلك..

- هذا صحيح، كم أتمنى أن أندب مرشدا روحيا لها!

- كانت ناجحة كما كان مرشدها ناجحا فليست فى حاجة إليك..

- أيعنى هذا أننى هلكت؟

- أبوك ولا شك يربض وراء فسادك، هو الذى دللك، هو الذى ملأك بالأنانية، هو الذى جرأك على كرامات العباد، هو الذى يسر لك ارتكاب الجرائم كأنك تملك الدنيا بلا شريك..

فقال عانوس منتعشا:

- نطقت بالحق!

- ولكنك تحاكم باعتبارك ذا عقل وقلب وإرادة حرة!

- قوة أبى خدرت قواى جميعا!

ـ السماء تعدك مسئولا عن نفسك وعن العالم أجمع . .
ـ أليست مسئولية فوق طاقة البشر؟
ـ ولكنك تحملتها مقابل ظفرك بالحياة .
ـ لقد ولدت بغير إرادة منى .
ـ بل أخذ عليك العهد وأنت فى الرحم . .
ـ بالصدق والصراحة لا أذكر ذلك . .
ـ كان عليك أن تتذكره .
ـ إنها محاكمة لا دفاع . .
ـ علينا أن نكشف عن الحقيقة !
ـ لم أخل من خير فقد طلبت العلم كما أننى أحببت حبا صادقا .
ـ سعيت إلى العلم كوسيلة إلى مركز مرموق، وكان حبك مجرد رغبة متعجرفة فى امتلاك فتاة صديقك الفقير . .
ـ لم تكن تفارق خيالى لحظة واحدة . .
ـ لم تكن إلا كبرياء وشهوة . .
فقال عانوس متعلقا بأى خيط وهو يشير نحو رءوف :
ـ مارست الصداقة الصافية . .
ـ ألم تقتلها بعد ذلك بوحشية؟
ـ كان حزنى قاسيا . .
ـ لا غبار على ذلك . .
ـ وحبى للقطط وحنوى عليها؟
ـ هذا جميل أيضا .
وبعد صمت قليل عاد آبو يتساءل :
ـ وماذا عن موقفك من جبروت أبيك؟
ـ كنت ابنا بارا !
ـ البر لم يكن مطلوبا فى حالك . .
ـ طالما استفظعت بعض فعاله . .
ـ وطالما أعجبت بأفعال أخرى لا تقل عن الأولى فى بشاعتها . .
ـ لو مد فى عمرى لتغير الأمر . .

ـ إنك تحاكم على ما كان . .

ـ أو أن أعطى فرصة أخرى .

فقال آبو بغموض :

ـ ربما تهيأ لك ذلك . .

ـ متى أمثل أمام المحكمة؟

ـ لقد تمت المحاكمة يا عانوس ويؤسفنى أن أبلغك بأنه قضى عليك بالإعدام . .

فى الحال تلاشى عانوس كنفخة الشابورة . تحت ضوء الشمس . ونظر رءوف إلى آبو متسائلا :

ـ هل أستمر مرشدا له؟

ـ إنه لن يولد من جديد فوق الأرض قبل عام على الأقل وقد ينتظر أكثر من ذلك . .

ـ وما عسى أن يكون عملى الجديد ؟

فقال آبو بأسى :

ـ ستتقدم إلى المحكمة من جديد!

فهتف رءوف :

ـ ألم أبذل أقصى ما لدى من جهد؟

ـ بلى ، ولكنك فشلت وقد أعدم رجلك كما رأيت . .

ـ العبرة بالعمل لا بالنتيجة .

ـ العِبرة بالعمل والنتيجة معا ، ثم إنك أخطأت خطأ فاحشا . .

ـ ما هـو يا آبـو؟

ـ لم يكن لك إلا أن تحمله على الاعتراف بجريمة قتلك كأنها الجريمة الوحيدة فى الحارة أو كأنها أكبر الجرائم .

ـ ألم تكن مشكلته الأولى؟

ـ كـلا .

ـ فماذا كانت مشكلته؟

ـ أبوه كان المشكلة ، لو حرضته على أبيه لأصبت أكبر الأهداف!

فلاذ رءوف بالصمت محزونا فواصل الآخر حديثه :

ـ لم تحسن اختيار الهدف ، غلبتك الأنانية وأنت لا تدرى ، الأيسر أن يتمرد على وحشية أبيه ، ولو نجح فى مهمته لانفضح ولم يكن يسيرا أن يعترف شاب أحمق مدلل ليضحى بحياته ، كان أمر جرائم أبيه متضمنة جريمة قتلك . .

فقال رءوف مسلما :

ـ أعلنى الحكم . .

فقال آبـــو :

ـ يؤسفنى يا رءوف أن أبلغك بأنه قُضى عليك بالإعدام . . وسرعان ما تلاشى رءوف عبد ربه .

١٤

جرى تحقيق طويل مع رشيدة سليمان ، قدمت للمحاكمة ، اقتنعت المحكمة بأنها ارتكبت جريمتها دفاعا عن النفس فأصدرت حكمها بالبراءة . وجدت أمها أن من الخطر غير المأمون العواقب البقاء فى الحارة تحت رحمة المعلم قدرى الجزار فهربت مع ابنتها بليل ولم يستدل لهما على مكان .

ولما كان تيار الحياة المتدفق أبدا يجرف زبد الأحزان فقد تزوجت أم رءوف الوحيدة الفقيرة من شاكر الدرزى شيخ الحارة عقب وفاة زوجته بنصف عام ، وأنجبت له طفلا ذكرا أسمته رءوف تخليدا لذكرى فقيدها . ولم يكن رءوف الجديد إلا روح عانوس ابن قدرى الجزار قد لبست جسما جديدا . كذلك أنجبت إحدى زوجات قدرى الجزار طفلا ذكرا أسماه الرجل عانوس تحية لذكرى فقيده ولم يكن سوى روح رءوف تقمصت جسدا جديدا .

١٥

نشأ رءوف (عانوس) فى بيت شاكر الدرزى الحافل بالإخوة والأخوات ، فى حياة ميسورة بفضل النقود التى يرشوه بها قدرى الجزار . ولكن شيخ الحارة لم يكن يعنى بتربية أولاده ، زوج البنات ، أما الصبيان فلم يجاوز أحدهم مرحلة الكُتّاب فى تعليمه . فعملوا فى شتى الحرف سواء فى الحارة أو خارجها ، ولم يكن حظ رءوف أسعد من إخوته . فى البدء أصرت أمه على أن ينجح فى التعليم ، وأن يعيد سيرة أخيه الفقيد ، وبسبب من إصرارها تعرضت لزجر شديد من زوجها . وسرعان ما ألحق ابنه عاملا صغيرا فى الطابونة ، وفرح رءوف بذلك إذ لم يجد فى نفسه الميل الصادق أو العزيمة المتوثبة لطلب

العلم. وبتقدمه فى العمر مضى يدرك الوضع فى حارته، سطوة المعلم قدرى الجزار، والدور الخسيس الذى لعبه أبوه، والحياة الفقيرة التى قضى عليه بها فى خدمة المعلم رشاد الدبش صاحب الطابونة. وقد زامل عانوس رءوف فى الكُتَّاب، ومال كل منهما إلى صاحبه، فاشتركا فى اللعب دهرا، وتوطدت بينهما ألفة قوية، غير أن الحياة فرقت بينهما رغم تجاورهما فى حارة واحدة. ألحق عانوس بالابتدائية، ثم الثانوية، ثم دخل كلية الشرطة. ربما تلاقيا فى الطريق، أو تقابلا فى بيت قدرى الجزار ورءوف يتلقى العجين أو يرجع بالأرغفة، عند ذاك يتبادلان ابتسامة عابرة، أو تحية ـ من ناحية عانوس ـ فاترة. أدرك رءوف أن صداقة الطفولة ذابت وتبخرت، وأن عالميهما متباعدان. وازداد شعوره حدة بتناقضات الحياة وتعاستها، فحنق على عانوس ولكنه كره قدرى الجزار ورشاد الدبش، واحتقر أباه. الحق لفحته نار الحياة، ولكن ضرّمها ما يترامى إلى أذنيه فى القهوة من مناقشات الشباب. حتى عانوس يجالس أولئك الشبان ويدلى برأيه فى حماس. وعند ذلك يبدو شابا غريبا، متنافرا مع جو البيت الذى يعيش فيه، ومتمردا على أبيه الجبار.

وجعل المعلم قدرى الجزار يراقب نمو ابنه بقلق. إنه نبت جديد شرس، غريب مثير للمخاوف، أو كما قال عنه مرة «ابن حرام».

ومرة سأله:

ـ ماذا تقول فى القهوة للأوباش وماذا يقولون لك؟

فأجاب عانوس بأدب:

ـ نتبادل الهموم يا أبى..

ـ إنهم أعداؤك..

فقال باسما:

ـ إنهم أصدقائى..

فهتف الأب بغضب:

ـ إذا جاوزت حدك فستجدنى شخصا آخر لا يعرف الرحمة..

قال قدرى الجزار لنفسه إن ابنه سيصير عما قريب ضابطا، سيعقل ويعرف موضع قدمه، ثم يتزوج وتنتهى مشكلاته.

وتخرج عانوس ضابطا، وعين فى قسم الحى بفضل أبيه وسعيه عند الكبراء.

١٦

إنه الزمن الذى جعل من رءوف وعانوس شخصين غير متوقعين. اكتسح الحارة تيار، بل تيارات جديدة، متمردة وأحيانا ثائرة. لذلك مرقا من جو البيت الخانق واستعار كل منهما لنفسه شخصية جديدة. ولم يشعر أحد بخطورة عانوس قبل أن يصير ضابطا. أجل وقعت مشاغبات متباعدة بينه وبين أبيه ولكن الأب توقع أن يتغير كل شىء لصالحه حال اندماج ابنه فى حياته الرسمية، أما رءوف فسرعان ما غضب عليه معلمه رشاد الدبش، فلطمه على وجهه وصاح به:

ـ احرص على رزقك ولا تحرض أقرانك على الفساد.

ولولا منزلة أبيه ـ شاكر الدرزى ـ كشيخ حارة لفصله من عمله ولكنه شكاه إليه فدهش الرجل لهذا العصيان الجديد فى نوعه وأدبه بعلقة ساخنة. ولما آنس منه عنادا استعان بحضرة الضابط عليه وقال له:

ـ يا فندم هدده بالقانون فهذا خير من أن نضطر إلى القبض عليه غدا..

هكذا مثل رءوف أمام صديقه القديم عانوس. تبادلا النظر طويلا. ثمة ذكريات مشتركة أفعمت «جوهما» بالدفء، ابتسم عانوس وسأله:

ـ كيف حالك يا رءوف؟

فأجاب رءوف:

ـ قطران، بعيد عنك..

ـ كان عليك أن تستمر فى تعليمك..

ـ إنه أبى وما مضى قد مضى..!

فشحن صوته بجدية وهو يقول:

ـ احرص على رزقك فالقانون لا يرحم..

فقال رءوف بنبرة ذات معنى:

ـ معلمى شره ولا رحمة فى قلبه..

قال عانوس بصوت منخفض:

ـ احرص على رزقك..

وعقب ذلك سعى عانوس لاتخاذ إجراء هزَّ وجدان الحارة وزلزل أباه فقد نقل شاكر

الدرزى إلى حارة أخرى وأحل محله شيخ حارة جديد أهلا للثقة يدعى بدران خليفة. ثار الأب قدرى الجزار ثورة عنيفة فقد خسر اليد التى تحميه من القانون، وسأل ابنه:

- كيف يحصل هذا وأنت ضابط فى القسم؟

فقال له عانوس:

- فى ذلك حماية لك وللناس!

- إنك ابنى وعدوى يا عانوس..

- اعلم يا أبى بأنى ابنك البار..

كان لكل لغته الخاصة به، واستحال التفاهم بينهما، واغبر وجه البيت بالتراب الأسود..

١٧

وجاءت امرأة لمقابلة عانوس فى القسم. عندما وقعت عيناه على صورة وجهها جاش صدره بنغمة جديدة وعذبة، بديعة هذه السمرة الرائقة وهاتان العينان اللوزيتان السوداوان. كأن الصورة قد رسمت على هواه من أجل هواه. لعلها فى الخامسة والثلاثين أو تزيد، فهى أكبر منه بحوالى عشرين عاما. فى عينيها رصانة تقارب الكآبة. قالت:

- إنى أطلب حمايتك!

سألها عن هويتها فقالت:

- اسمى رشيدة سليمان، مدرسة، نقلت حديثا إلى مدرسة العهد الجديد بالحى..

هذا الاسم، هل مر ذات يوم بشبكة ذاكرته.. سألها وعيناه تحدقان فى وجهها بشغف:

- مم تخافين؟

- إنه تاريخ قديم، قد أتعرض بسببه لاعتداء على حياتى..

- حقًا؟ ما التاريخ؟ ومن المعتدى؟

قالت بعد تردد:

- قضية قديمة برئت منها، كنت فى حال دفاع عن النفس، ولكن والد القتيل رجل مخيف وله أعوان مجرمون..

اقتحمته الذكرى القديمة التى سمعها تتردد فى صباه كعاصفة، شد على أعصابه ليملك نفسه المشتتة . إنه أمام قاتلة أخيه عانوس الأول . هاهى ذى تفتنه كما فتنت أخاه من قبل وواصلت رشيدة حديثها :

ـ هربنا إلى إمبابة، عملت مدرسة فى الأقاليم، وإذا بى أنقل فجأة إلى الحى القديم . .

صمت مطحونا بدوامة انفعالاته، لم يسألها عن اسم الرجل المخيف، ولكنها قالت :

ـ أما الرجل فمعروف عندكم، إنه المعلم قدرى الجزار . .

استرد نفسه بجهد شديد متسائلا :

ـ حضرتك متزوجة؟

ـ لم أتزوج قط . .

ـ لم لَمْ تشرحى ظروفك للمنطقة التعليمية؟

ـ لَم يهتم بى أحد .

ـ أين تسكنين؟

ـ ١٥ شارع الدرى، إمبابة . .

فقال بهدوء :

ـ اطمئنى، سأخاطب المنطقة بنفسى، وإذا تباطأت فسأعمل على حمايتك . .

تمتمت بحرارة :

ـ شكرا . لا تنسنى من فضلك!

ـ كلا . ليس من المستطاع نسيانك!

١٨

لم يجد عانوس صعوبة فى إلغاء النقل . وبنفسه ذهب إلى البيت رقم ١٥ بالدرى بإمبابة . الوقت أصيل، والنيل شبه ساكن، ومن فوق سطحه تتهادى لفحات باردة . استقبلته رشيدة بدهشة ممزوجة بسرور وأمل، ثم قادته إلى حجرة استقبال صغيرة وبسيطة ومهندمة . قال :

ـ معذرة عن الزيارة، ولكنى أردت أن أسارع بطمأنينتك بإلغاء النقل!

ـ ألف شكر يا فندم . .

أمرت له بقهوة فتهيأ له البقاء فترة كما أمل .

ـ تعيشين مع والدتك . . !

ـ أمى ماتت منذ عشرة أعوام، معى شغالة عجوز طيبة . .

يا للخسارة إنها عانس ولكنها محتفظة بروائها!

ـ هل يزعجك أن تعرفى أننى عانوس قدرى الجزار ابن الرجل المخيف؟!

ذهلت . تلون وجهها الأسمر فاكتسى بعمق . لم تنبس بكلمة . .

ـ إنى ألمس انزعاجك . .

فقالت بنبرة متهدجة :

ـ مجـرد دهشــة . .

ـ أرجو ألا تكرهينى . .

فقالت بحياء :

ـ إنك إنسان . .

ومضى يحتسى القهوة وهو يختلس منها النظرات، ثم قال ضاحكا :

ـ لست مخيفا كوالدى!

ـ إنى واثقة بذلك . .

ـ حقّــا؟!

ـ الأمر واضح جدّا، والحق أنى بريئة!

فقال بهــدوء :

ـ إنى واثق بذلك . .

ومواصلا بعد صمت :

ـ ولكنه ثمة شىء يحيرنى؟

فرمقته بنظرة متسائلة فقال :

ـ لِم لَمْ تتزوجى؟!

فنظرت بعيدا مليا ثم قالت :

ـ رفضته أكثر من مرة . .

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا أدرى . .

ـ بسبب حب الآخر؟!

ـ ولكنه نسى ككل شىء!

ـ لابد من سبب!

ـ ليس الدم بالتجربة الهينة، لعلى يئست من القدرة على إسعاد أحد . .

ـ أمر مؤسف . .

ـ لعل الخير فيما كان . .

فقال متعمدا :

ـ مازلت شابة وجميلة .

فى طريق عودته سبح فى أجواء خيالية، كره الضرورة التى تبعده عن البيت ١٥ وعن إمبابة، وقال لنفسه : «إنى أحب رشيدة» .

١٩

وقف الجفاء سدا منيعا بينه وبين أبيه . حزنت أمه حتى الموت . أصبح البيت كئيبا مثل جحر الفئران . هل سعى إلى النقل إلى إقليم؟ وإمبابة؟! ماذا يحدث لو عرف أبوه العاطفة المتأججة فى صدره؟ تراءت له فكرة طارئة وهى أنه خلق عقابا لأبيه . وإلا فما معنى أن يعلن عليه حربا سرية مذ وعى ما حوله؟! يا له من أب خليق بالرفض المطلق! إنه لموقف مؤسف ومحزن . خاصة وأن الرجل أحبه كل الحب . بقدر ما هو وحش فظ فى الخارج فهو أليف مستأنس بين جدران بيته . وهو لا يتصور شذوذ نفسه . يؤمن بأنه يمارس حقوقه الطبيعية، حقوق الذكى القوى . نهمه للمال والسطوة غير محدود . اعتاد الإجرام كأنه تحية الصباح . حدوب على أعوانه وكريم حتى السفه . أما الكادحون ممن يبتز نقودهم ويحتكر أقواتهم فيحتقرهم وهو لا يرحم من يحتقر . وسيمقته يوما فيمحق أبوته . الأدهى من ذلك أنه دمغ أمه بطابعه فهى تعبد قوته . وكلما ارتكب إثما استغرقتها العبادات ولكنها تعبده . إنه ـ عانوس ـ يقيم فى عرين، فى معبد للقوة والخطايا .

وتعقدت الأمور، وقذفت من جوفها مواقف متحدية، فقد ضُبط أعوان لأبيه وهم يبتزون نقودا من عمال الطابونة . سرعان ما ألقى القبض عليهم لأول مرة فى تاريخ الحارة . انفجر ينبوع فرحة ضاحكة فى الحارة وثار بركان فى بيت قدرى الجزار . لم يعد البقاء لعانوس محتملا . قرر الذهاب . اهتز جذع أمه وهى تبكى وتقول :

ـ إنه الشيطان . .

فلثم جبينها وذهب . واستأجر شقة صغيرة فى إمبابة! وقال لنفسه : «إن القضاء على أعوان أبيه هو قضاء على طاقته الشريرة» . سيعجز عن الإيذاء وتفلت الحارة من قبضته

الجهنمية. وكان يدعو الله ألا يضبطه - أباه - متلبسا بجريمة مباشرة. والظاهر أن الرجل صمم على مقابلة التحدى بتحد مثله قبل أن ينهار جداره. ففى نفس الليلة نشبت معركة بين الأعوان وبين عمال الطابونة، وأصيب رءوف إصابة بالغة، غير أنه اغتال المعلم قدرى الجزار قبل أن يلفظ أنفاسه.

أحداث متتابعة متفجرة، زلزلت بها الحارة زلزالا، فانغمست فى الدم، ولكن تبددت الظلمات.

٢٠

وجد قدرى الجزار نفسه أمام آبو، وسمعه يقول له:

- أهلا بك يا قدرى فى السماء الأولى.

ومضى يعرفه بنفسه وبالمكان. لاحظ أن قدرى شارد اللب، ثقيل النظرة فقال له:

- كأنك لم تقطع أسبابك بالأرض بعد؟

- شىء يثقل على صدرى.

- انتبه.. إنك تعرف الآن مصيرك.

- أجل، ولكنى ما تصورت أن يقتلنى ولد مثل رءوف!

- ذاكرتك الجديدة لم تنبعث فيها اليقظة بعد.

تبدت الحيرة فى أسارير قدرى الجزار، ومضى يفيق رويدا رويدا حتى ندت عنه آهة عميقة وابتسم آبو وتساءل:

- أعرفت من هو الولد رءوف؟

فقال قدرى بأسى:

- قتلنى ابنى عانوس!

- أجل، وماذا كنت قبل ذلك؟

- أدولف هتلر!

- وقبل ذلك؟

- بردونى قطاع الطرق بأفغانستان!

- سجل أسود طويل، لماذا تستعصى على الترقى وتهدر الفرص المتاحة؟.. ابنك أفضل منك، كثيرون أفضل منك.

فقال بانكسار :

ـ لن يذهب هذا الدرس سدى!

ـ ولكنك حتى مثولك بين يدى لم تكن قطعت أسبابك بغرائز الأرض!

ـ لم أكن قد أفقت بعد .

ـ عذر أقبح من الذنب ، فيم تأمل؟

ـ آمل أن أندب مرشدا!

ـ هل لديك دفاع عن سلوكك فى الأرض؟

ـ نعم ، لقد بدأت تاجرا صالحا ، وما أطمعنى فى الناس إلا ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم ، فاستعذبت القوة والطغيان ولم أجد رادعا .

ـ إنهم سيعاقبون على ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم كما ستعاقب على استغلالك لحالهم .

ـ وقتلى بيد ابنى الحقيقى ألا يكفر عنى سيئاتى؟

ـ لا قيمة لهذه العلاقات هنا ، وكم قتلت من أبناء وإخوة وأنت لا تدرى!

ـ على أى حال فأنا لم أخلق طبعى ولا غرائزى .

ـ إنك مالكها الحر ولم تحدّ حريتك فيها حدود .

فقال بتوسل :

ـ أحسن دفاعك عنى ولك ما تشاء!

فضحك آبو وقال :

ـ مازلت لاصقا بالأرض ، وهو الإثم الذى لا يغتفر!

ـ ماذا تقول عن المحاكمة؟

ـ لقد انتهت المحاكمة يا قدرى ، وقضى عليك بالإعدام .

وسرعان ما تلاشى قدرى الجزار!

٢١

وتلقى آبو رءوف وهو متلفع بسحابته البيضاء ، وجرى تعارف قصير فتجلى التساؤل فى عينى رءوف . وقال له آبو :

ـ أهلا بك فى السماء الأولى .

ومضى يزوده بالمعلومات الضرورية، ثم سأله:

- كيف جئت إلى هنا؟

- قتلت فى معركة.

- ولكنك قتلت قاتلك أيضا.

- هاجمته وأنا مطعون، لا أدرى شيئا بعد ذلك.

- للمرة الثانية تجىء قاتلا ومقتولا.

- حقّـــا؟

- إنى أعلم ما أقول.

- ماذا كان جزائى فى المرة السابقة؟

- الإعــــدام..

فتساءل رءوف بقلق:

- هل يتكرر ذلك؟

- ماذا تريد أنت؟

- كنت أخوض معركة عادلة وقتلت شيطان حارتنا.

- هذا حــق..

فتهلل وجه رءوف وتساءل:

- هل آمل فى البراءة؟

- مما يؤخذ عليك كسلك عن طلب العلم!

- ما أقسى الظروف التى عانيتها!

- هذا حق ولكننا نقيم الفرد من خلال صراعه مع ظروفه.

فتجلى الأسى فى وجه رءوف، فقال آبو:

- إنك ولد طيب ولكن الصعود إلى السماء الثانية مطلب عزيز.

- ألا يشفع لى ما فعلت؟

- لقد سمع كل شىء، وصدر الحكم بندبك مرشدا.

فسلم رءوف بالحكم راضيا فقال آبو:

- بشرى أخرى، ستندب لإرشاد عانوس.

- ضابـط الشـرطة؟

- أجل، وسلوكه يبشر بالخير مما يضمن لك عاقبة سعيدة.

ـ هى السماء الثانية فيما أعتقد؟

ـ أجـــل .

ـ أهى الجنة الموعودة؟

فابتسم آبو وقال :

ـ توجد سبع سماوات منذورة لخدمة أهل الأرض فلم يئن الأوان للتفكير فى الجنة!

ـ وكيف يتم الصعود من سماء إلى سماء؟

ـ من خلال المحاكمات المتتابعة . .

فتساءل رءوف فى ذهول :

ـ وهل نعفى من الكفاح بعد السماء السابعة؟

فابتسم آبو وقال :

ـ هذا ما يقال عادة على سبيل التشجيع والعزاء، ولكن لا يوجد عليه دليل واحد!

ومضى به فى انسياب عذب غنائى، يغوصان فى أمواج مقطرة بيضاء، فوق خضرة متألقة لا حدود لها .

الحب فوق هضبة الهرم

١

أريد امرأة . أى امرأة .

إنها صرخة مدوية، انبعثت أول ما انبعثت من جوانحى على هيئة همسات من الذهول . همسات من الأنين . همسات من الغضب . ثم انفجرت صرخة مدوية . ما هى بالأنانية . ما هى بالبهيمية . ما هى باللامبالاة . إنى أزعم بأنى مواطن بدرجة مقبولة، بل إنى أيضا إنسان بدرجة لا بأس لها . رأسى شهد حوارا طويلا عن الفقر والتخلف والسلام والديمقراطية والتموين والمواصلات والطرق . به مضغ أيضا لهموم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب، تلوث البيئة، نضوب المواد الأولية، العلاقة بين العالم المتطور والعالم الثالث، احتمالات الحرب النووية . إذن فالوعى آخى بينى وبين المواطن والإنسان . غير أننى لم أعد أفكر بشىء من ذلك . أو أن تفكيرى به فتر وتقهقر وذاب فى اللامبالاة . أنجم ذلك عن خمود فى العاطفة أو الفكر أو التعلق بالحياة؟ كلا

وأقسم على ذلك. المسألة أننى ما إن ختمت حياتى المدرسية حتى التحقت بالوظيفة ومن ثم خبرت الفراغ والبطالة. عند ذاك تضخمت همومى الشخصية استأثرت بوعيى كله، ركبتنى، اجتاحتنى، استعبدتنى، أصابتنى بالهوس. باتت أى مشكلة سواها ترفا، لهوا، سخفا. الجنس أصبح محور حياتى وهدفها. انقلب وحشا ذا مخالب وأنياب. قوة مطاردة مهددة. يطالب بالممكن ويطمح إلى المستحيل. خلق منى كائنا جنسيا خالصا. ذا حواس جنسية، وأخيلة جنسية، وآمال جنسية، وأحلام جنسية. على ذلك فإننى أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجون، رافض للإباحية وفلسفاتها. أروم الحياة الشرعية المستقرة. ألتمس إليها الوسيلة بلا شروط متهورة أو طموح كاذب أو طمع قبيح. أنشد حقّا حيويا أوليا لا أدرى كيف أهتدى إليه.

ولكن من أنا؟

٢

على عبد الستار، فى السادسة والعشرين من عمرى، ليسانس حقوق، موظف بالشركة أ. د. س. ولدت مع الثورة، ناهزت الحلم عام ١٩٦٧ المشئوم، نلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤، كنت من حملة الثانوية علمى. . حملنى تيار التنسيق إلى كلية الحقوق بشهادتى العلمية. ما خطر لى قط أن أدرس القانون، ولكننى نجحت بقوة الإرادة؛ إكراما لعناء أسرتى المكافحة، خوفا من التشرد والجوع، ولما ألحقت بشركة أ. د. س. عينت بإدارة العلاقات العامة، غنى عن البيان أننى كنت زائدا عن الحاجة. خُيّل إلىّ أن الزائدين أكثر من العاملين. وقال لى وكيل الإدارة:

- احجز كرسيا.

ثم قال بنبرة ساخرة:

- قد يتعذر ذلك غدا. منظرك مقبول، تصلح للعلاقات العامة، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

فقلت بهدوء:

- عندى فكرة عن كل شىء.

- عظيم. ستبقى أيضا بلا مكتب حتى نراجع المخازن، أصبحنا فى حاجة إلى حجرة إضافية، لماذا لا يسمحون للموظفين الجدد بالبقاء فى بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم فى العلاوات والترقيات؟

فقلت بغيظ مكتوم :

- اقتراح وجيه جداً!

- ولكن لابد من التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف .

هكذا التحقت بالخدمة وهكذا استقبلت عهدا من الفراغ المطلق لا خبرة لى به من قبل . فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويتى ، ولم تخل العطلات من الاطلاع وأنشطة الشباب . إلى ذلك فقد انتفعت بنشأة أسرية دافئة تعبق بعطر الدين والقيم . ولما انبثق الجنس استطعت أن أروضه بالخلق والعمل والأمل . أما فى عصر الفراغ فقد انفرد بى ، كما انفرد بى الزمن فى جريانه ، وتساءلت متى؟ وكيف؟ جلست على الكرسى كمن ينتظر دوره فى تحقيق . أراقب أقرانى العاطلين ، وآخرين يذهبون بالأوراق ويجيئون ، وامرأتين كهلتين متزوجتين ، بين نوافذ مغلقة لصد تيار الخريف البارد ، فى جو فاسد بأنفاس البشر والسجائر ، ومن زجاج النوافذ أتطلع إلى شرفات العمارة المقابلة مترقبا ظهور أنثى . وطيلة الوقت أتخيل مناظر جنسية ومواقف ، وأخوض مغامرات غاية فى البراعة والعذاب . وسمعت حوارا بين الوكيل وزميل له من معارفه :

- كيف وجدت الفراغ؟

- لا يطاق .

- على أيامنا كانت الوظيفة حلما عزيز المنال ، فاذكروا نعمة الله عليكم .

- وما قيمة النقود؟

- هى خير من الشارع!

تبادلت مع الزميل ، عقب ذهاب الوكيل ، نظرة شاحبة مثل جو الحجرة وقلت له :

- هنيئا لنا فنحن محسودون . .

وتعلمت أن أتسلل إلى شارع قصر النيل مع الضحى . تعلمت الصعلكة . إنها مسلية ومفيدة ومنشطة فى الجو الآخذ فى البرودة . وهى مضحكة أيضا وهى تخوض فى بحر متلاطم الأمواج من البشر والسيارات والأصوات المزعجة . طابعه - الشارع - الضيق والعصبية والكبت . كل شىء يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يستوى فى ذلك الإنسان والسيارة . الكبت والقهر والتذمر . الطريق يعانى من أزمة جنسية مثل أزمتى . إنه يفتقد الشرعية والحرية والإشباع . ومع ذلك فهو مغطى بالتراب كأنه يتهادى فى مدينة خيالية . ولكنى لم أعن إلا برصد النساء . هن همى وشغلى وحياتى ومماتى . وجعلت أبل ريقى الجاف بمضغ اللبان . وتنتقل نظراتى المحمومة من السيقان إلى الصدر إلى الأعين .

وكدت أفقد حياتى ذات مرة . كنت أهم بعبور الطريق حين اقتحمنى صدر ناهد

فسحرنى واستولى على . . قذف بى فى أعماق الهو . اندفعت إلى العبور دون أن ألتفت يمنة كما ينبغى لى . وإذا بسيارة تنقض علىَّ كالقذيفة . نظرت نحوها فأيقنت بالنهاية . لا وقت للرجوع ولا للتقدم . استسلمت استسلاما نهائيا وتقوس ظهرى لتلقى الضربة القاضية . تجلت لى حقيقة الموت لا كفكرة مجردة مسلم بها ولكن كشعور يملأ الوجدان بثقله وقوته وإقناعه . صرخ بى أن هكذا أجىء عندما تقرر ذلك وهكذا تنتهى الحياة فى غمضة عين . خُيّل إلىَّ أنى رأيت وجهه مجسدا فى اللحظة الخاطفة التى لا يكشف عن وجهه إلا فيها . وحيال نظرته الواثقة مر بسرعة البرق شريط حياتى من المهد إلى اللحد . لا وجهه أدرى كيف أصفه ولا حياتى أدرى كيف رأيتها مجتمعة فى أقل من ثانية . وبلغ الخوف الدرجة التى يفقد فيها الشعور بذاته . لكنه اختفى بمعجزة . انحرف السائق بالسيارة ببديهة مذهلة فصعد الطوار مهددا حيوات وأوشك أن يصطدم بالجدران . ماذا حدث لى؟ وماذا حدث للآخرين؟ سبحت فى ذهول وأعفانى من متاعب جسيمة . مرت دقيقة على الأقل قبل أن أدرك أن الطريق كله يلهبنى بنظرات السخط والغضب . ثمة صياح وتعليقات شتى . . السائق لصق السيارة ويقذف بالسباب كالمطر . مضيت مترنحا أفر بنفسى فرارا . كنت أعانى آلام الحياة من جديد . وأعانى من مرورى الخاطف فوق ثلاثة معابر متناقضة هى : شهوة الجنس ، ومقابلة الموت ، ومفاجأة النجاة . وأحدثت برودة النجاة الملقاة على نيران الفزع أثرا عنيفا تعانق فيه السرور المتألق والحزن العميق .

مضيت أسير حتى وقفت لأسترد أنفاسى بعيدا عن موقع الحادثة . حتى فى ذلك المكان لم أفلت من عينى عامل من عمال الطرق فقال لى بسخط واضح :

ـ مسطول؟ . . بسبب أمثالك يتعرض السواقون المساكين إلى متاعب المحققين ، لا تنس أنك مدين بحياتك للسائق . .

تضاعف ضيقى وقلت كالمعتذر اتقاء لسخطه :

ـ إنها الهموم .

فصاح محتجا :

ـ الهموم؟! . . ماذا تعرفون عن الهموم؟!

ذهبت مبتعدا وقد نسيت أزمتى الجنسية وقتا غير قصير . ولكنه غير طويل أيضا . حذرت نفسى من سحر المناظر . وقلت لنفسى إنها التعاسة حقّا أن يفقد الإنسان حياته لسبب كهذا . إنها محنة . ولكن ما العمل؟ لا يغيب عنى ما يقال عن الزواج وتكاليفه . المهر والشقة وخلو الرجل . يلزمنى قرن من الزمان لأقتصد نفقات زيجة عادية . إنه طريق مسدود تماما . أجل ، إن الأيام تمضى والصبر يفقد ولذلك هان علىّ ـ رغم تقاليد تربيتى الراسخة ـ أن أفكر فى «الحرام» كضرورة لا مفر منها دفاعا عن صحتى الجسدية والنفسية . شاورت فى ذلك صديقا قديما من أهل الخبرة فقال لى :

- الفرص أكثر من أن تحصى .
ولما آنس منى إقبالا شديدا سألنى :
- هل عندك فكرة عن الأسعار؟
ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار حتى قلت فى ذهول :
- غير معقول!
فقال باسما :
- العرب والتضخم والانفتاح! هل أدلك على أرخص سبيل؟ فسألته بلهفة فقال :
- لعله الزواج!
وقلت لنفسى : «إنه الحزن ولا شىء إلا الجنون» .

٣

أسرتى أيضا مصدر هم لى لا ينقضى . فى متاعبها الظاهرة ما يكفى فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفية . أبى يقترب من سن المعاش فنحن فى سباق مع الزمن . أمى كيميائية ، لأنها درست الكيمياء فحظها من التعليم وقف بها عند الابتدائية ، ولكن للأعاجيب التى تصنعها لتوفر لنا الطعام اليومى . وهى تقلب الملابس وتصبغها وترفوها وتجددها وتجعل بعضها ملكية مشاعة ، والبعض الآخر ملكية متوارثة وتصنع من البطاطين القديمة أروابا للأيام الباردة . والمساعدة التى جاءت نتيجة لالتحاقى بالعمل التهمها الغلاء المتصاعد . . وإنى أنظر إلى شقيقتىَّ مها (الآداب) ونهى (الثانوية العامة) برثاء ، ويحزننى منظرهما البسيط المتقشف ، إنهما محرومتان من أشياء تعتبر فى سنهما ضرورية لا كمالية ، وممنوعتان أيضا من الشكوى ، التى تضيق بها أمى فيرتفع صوتها الحاد :
- حالنا أفضل من غيرنا ألف مرة .
وعلى ذلك فإيجار شقتنا قديم دون الأربعة الجنيهات بقروش ، ومهما قيل فى شارع شمردل بروض الفرج فهو مسقط رءوسنا جميعا . لذلك لا يكاد أبى ينعم بضحكة صافية . ودأب على تذكيرنا بمصيره فيقول :
- لم يبق إلا عامان ثم المعاش!
وينظر إلى شقيقتى ويقول :
- النجاح . . النجاح . .
لقد نحل الرجل كأنما يجف رويدا رويدا ، وزاد من ضآلته قصر قامته ، ولم يكن يبقى

أثر من وسامته الأصلية. الوسامة خاصية لأسرتنا مثل الفقر. وهو لا يدخن، كما انقطع عن المقهى منذ أعوام. وكما يقال، فهو من البيت إلى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات إلى البيت. وتسليته الوحيدة يجدها فى تبادل الزيارة مع جار قديم ـ مدرس قديم ـ مدرس لغة عربية على المعاش ـ يسامره ويستفتيه أحيانا فى بعض الشئون الدينية. وكان يقول:

ـ منذ أعوام كان رجل مثلى ذو مرتب يجاوز الستين جنيها شهريا يعد من الموظفين المنعمين، ولكن الدنيا جنت. .

وكان مما يحز فى نفسه أنه ضيع فرصة زواج لا بأس بها على مها. يومها قال بأسى:

ـ ما باليد حيلة، لكن المهم هو العلم والعمل، بعد ذلك تتحسن الظروف والأحوال. نحن لا نملك بالكاد إلا قوت يومنا.

فقلت له:

ـ الأسعار ترتفع ونحن ننخفض.

فقال باسما ابتسامة لا معنى لها:

ـ كنا طبقة وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا. .

فقلت بحدة:

ـ نحن الفقراء الجدد فى مقابل الأغنياء الجدد.

فحدجنى بنظرة تصدنى عن الاسترسال وقال:

ـ لا تستسلم للسخط فهذا ما يزيد الحياة تعاسة وحذار أن تردد ذلك أمام مها ونهى!

فقلت مصرّا:

ـ الزواج حق مشروع، ترى كيف يفكران يا أبى؟

فتجهم وجهه وقال:

ـ لقد أحسنت تربيتهما، أمك صاحبة فضل أيضا، نحن أسرة شريفة والحمد لله، وغدا يتوظفان ويبتسم الحظ!

ـ لقد شاهدت برنامجا فى تلفزيون المقهى يقطع بأن المتسولين أحسن حالا منا. .

ـ ولكنهم متسولون ونحن نخدم الدولة!

لم تستطع الأحوال أن تقتلع بقية العزة من نفسه، كما أن أمى تعْبر أحيانا عناد الحاضر متطلعة إلى آمال غامضة وراء الأفق. وقلت مواصلا حديثى:

ـ إنى أتابع أنباء الأفراح فى الفنادق بذهول.

فتساءل بحدة:

ـ وأى فائدة تجنيها من وراء ذلك؟ يوجد أغنياء منحرفون كما يوجد شرفاء، ولا شيء يدوم فى هذه الدنيا.

ثم بنبرة أرق:

ـ أتدرى ما هو حلمى؟

ثم أجاب قبل أن أنبس:

ـ أن تعملوا ذات يوم فى الخارج، إنه حلم وما هو بالحلم..

٤

الهجرة! إنهم يدعون أهل المهن والحرف وأنا لا من هؤلاء ولا من أولئك. وما فرصة الحقوق؟ إنها نادرة جداً. فضلا عن ذلك فإنى أمقت القانون، وها أنا ذا أنساه فى بطالتى الرسمية دون أسف. وكنت أتسكع فى وسط البلد لا أدرى أين بلغت فى تسكعى عندما لمحت ـ فى مقهى الحرية ـ الصحفى القديم عاطف هلال. كان منفردا بنفسه للراحة أو التفكير، فمضيت نحوه بقرار مرتجل وبجرأة لا تعوزنى. وقفت أمامه حتى انتبه إلىَّ فراح ينظر نحوى بعينين مستطلعتين وقد تجلى الكبر فى صفحة وجهه أكثر مما يبدو فى الصور التى تنشرها الصحف له. قلت:

ـ معذرة عن تطفلى. أنا أحد قرائك..

فتمتم بصوت محايد:

ـ أهــلا.

ـ تسمح لى بدقيقتين من وقتك الغالى؟

ـ تفضــل.

جلست ثم قلت:

ـ حرصا على وقتك سأدخل فى الموضوع رأسا. المسألة أنى واقع فى أزمة شديدة..

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور فخشيت أن الذى تبادر إلى ذهنه أنها أزمة مالية وأننى سأطالبه بمعونة، فقلت بصراحة:

ـ إنها أزمة جنسية!

توارت الغشاوة وراء يقظة طارئة وتساءل:

ـ جنســية؟!

ـ جنسية بكل معنى الكلمة .

فما تمالك أن ابتسم قائلا :

ـ لعلك أخطأت الرجل المناسب!

فقلت جـادا :

ـ الرجل المناسب لم يعد مناسبا لأمثالى، لذلك قصدت الرجل المفكر!

فثبت نظارته ليدارى انفعاله وقال :

ـ يبدو لى أنك فريسة تجربة عاطفية مريرة . .

ـ إنى أتسول تجربة فلا أجدها .

ـ شىء جديد تماما .

ـ المسألة بكل بساطة أن الزواج مستحيل وسيادتك سيد العارفين . والانحراف أصبح خيالى التكاليف بفضل إخواننا العرب .

فتجلى الاهتمام فى عينيه فتساءلت :

ـ هل تصدق أننى بلغت السادسة والعشرين من عمرى ولما أمارس الجنس ولو مرة واحدة؟!

ـ أصدقك ولو أن شكلك مقبول جدّا .

ـ ولكنى مرفوض موضوعا .

قبض على ذقنه فى حيرة وصمت فسألته :

ـ ما الحل يا أستاذ؟

فتمتم جادا :

ـ إنها مأساة ولست ضحيتها الوحيد . .

ـ وما العمـــل؟

ـ يا له من سؤال!

ثم مواصلا حديثه :

ـ لا يوجد جواب جاهز، يمكن أن ننتقد تقاليد الزواج السخيفة وندعو إلى الهجوم عليها، يمكن أن نتحدث عن واجب وزارة الإسكان، يمكن أن نتحدث عن مشكلة الإناث . .

ـ وهل أنتظر أنا حتى يتم هذا الإصلاح؟

ـ ماذا أقول؟ كم من أجيال أجهضت فى تاريخ البشرية!

. . وكما أن ملايين من الشباب سعدوا بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلكت ملايين أخر فى خضم الحروب الطاحنة!

ـ يعنى أنه ليس أمامى إلا تجرع التعاسة فى صبر طويل.

ـ قد يتغير الحظ بإرادة الإنسان، إنك مطالب بالتفكير والعمل، إنك واقع فى شبكة من الظروف المعقدة، وعليك أن تسأل نفسك: «ما أفضل سبيل للتصرف فى مثل هذه الظروف؟». وعليك أن تجيب بنفسك. .

فسألته بحنق خفى:

ـ ألا يوجد رأى عند جيل الأساتذة؟

فابتسم قائلا:

ـ دعك من هذا. إنكم لا تؤمنون بأى جيل سابق. ألم تجد ولو مثلا واحدا صالحا لأن تقتدى به؟

ـ تعنـى. .

فقاطعته مواصلا حديثى:

ـ أعرف أسرة حلت مشكلتها بالدعارة!

ـ ويقتنون الشقق والسيارات ولكنه حل مرفوض كما قلت.

ـ عرفت زميلا احترف السطو على الشقق فى أثناء الصيف.

ـ وهو مرفوض أيضا وعاقبته معروفة.

ـ سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثم قتلها إخفاء لجريمته. .

ـ لعلك تقصد الشاب الذى طالب شيخ الأزهر بشنقه علانية؟

ـ لا أدرى، ولكن أما كان الأجدر بالشيخ الأكبر أن يقترح حلا إسلاميا للعاجزين عن الزواج؟!

ـ التشدد فى العقوبة أسهل من إيجاد الحلول.

ـ فما الحل إذن؟

ـ ألم تفكر فى الهجرة؟

ـ لست من أصحاب المهن المطلوبة ولا من أهل الحرف.

صمت الأستاذ قليلا ثم قال:

ـ ثمة رأى أفضله، إذ إننى مازلت أحتقر الحلول الفردية. . فى فترة قديمة دأب على ترديد هذا الرأى، وكان وقتها يكتب بقلم يسارى صريح، وها هو ذا يعود إليه فيما يشبه الهمس والاستحياء. وقلت له بهدوء لأخفى انفعالى:

ـ جئتك عارضا أزمة ملحة تتطلب حلا عاجلا، وها أنت ذا تنصحنى بالانخراط فى عمل سياسى من أجل تغيير المجتمع، وعلى ذلك فعلىَّ أن أنتظر حلا لمشكلتى يجىء مع القرن القادم . .

وغادرت مقهى الحرية بلا ذرة من عزاء. ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة؟! لقد انتزعت الثقة ثم ماتت ثم دفنت. إنهم كذابون . . كذابون . . كذابون . . ويعلمون أنهم كذابون. ويعلمون أننا نعلم أنهم كذابون . . ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت، ويتصدرون القافلة . .

٥

ما هذه البهجة المنعشة؟

نظرت وحلمت وثملت. اشتعلت النيران وأرهفت الحواس، لبثت فوق مقعدى مؤجلا الانطلاق إلى رحلة التسكع اليومية.

ـ ضيفـــة؟

موظفة جديدة، ليسانس آداب، اسمها رجاء محمد. سمرتها صافية، ما أندر السمرة الصافية! لا بالنحيلة ولا بالسمينة، فى العينين العسليتين جاذبية محسوسة، عند الابتسام ترتسم غمازتان فى وجنتيها، بينى وبين أن أرفعها بين يدى وأمضى مشكلات تعيى العديد من وزارات الدولة. انفعلت بها كما أنفعل بأى أنثى يستوى فى ذلك المراهقات والكهلات، البلديات والمتفرنجات، المحتشمات والمبتذلات. انغمس خيالى فى مصادر الإثارة. حتى تذكرى شقيقتى لم يهذب من طغيان الرغبة. غبت عن الإدارة ساعة واحدة فصاحبتنى نشوتها الزكية فى الذهاب والإياب. وفى آخر النهار تم تعارفنا فى رزانة رسمية. ورجعت إلى مسكنى بروض الفرج وأنا أقرب ما يكون إلى التعاسة والألم وهما ما يترسبان عادة فى صدرى عقب الرؤية المؤثرة. فى ذلك اليوم اختلست أكثر من نظرة من مها ونهى. جميلتان بلا ريب ولكنه جمال ملقى فى سلة المهملات. بدتا لى متقشفتين صابرتين. تموت الشكوى وراء شفتيهما الممتلئتين. وسألت مها:

ـ هل تعرفين فتاة من كليتك اسمها رجاء محمد؟

فتساءلت ساخرة:

ـ كيف أعرف ونحن أكثر من الجيش عددا!

ـ التحقت بإدارتنا اليوم.

فتساءلت نهى بمكر :

ـ لم تسأل؟

فقلت بتحد ساخر :

ـ كيف لا وقد توافر لدى المهر وخلو الرجل؟

فقالت مها :

ـ ادع الله أن يكون أبوها من شارع الشواربى فلا يطالبك بمليم!

فقلت ضاحكا :

ـ الشواربيات للشواربيين!

قرأت فى دعابتها أحلاما خفية ، ونحن عادة نتحادث بحذر متأثرين بجو بيتنا المتشدد. أبى ، وأمى أشد منه . وأمى متفائلة جدّا رغم عنائها الدائم . وهى سعيدة بأنها حصنتنا ضد استهتار الزمن . وفى تقديرى أنه سيسعى إليهما ذات يوم ـ خاصة بعد التحاقهما بالعمل ـ زوجان محترمان متقدمان فى السن والقدرة المالية فيهيئان لهما الحل الممكن . إنه زمن الكهول والأوغاد .

٦

ما هذه البهجة المنعشة؟

لقد وهبتنى ابتسامة . مضيئة وبريئة كالوردة اليانعة . تبادلنا الكلمات عند كل مناسبة ثم جادت بالابتسامة . خلقت الابتسامة حياة جديدة . غلفت الانفعال البهيمى بعذوبة صادقة . نمت الشجرة وتفرعت وتعذر أن تنعت بصفة واحدة . وتساءلت : أهكذا تتحول الغريزة إلى عاطفة؟ وكنت أخلق المجال تلو المجال للحديث؟ قلت لها :

ـ حذار من البطالة!

فقالت بحيرة :

ـ إنهم لا يعهدون إلينا بعمل .

ـ ستنسين ما تعلمته .

ـ العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلمته .

ـ ماذا كان تخصصك؟

ـ التاريخ .

ـ لولا ضوضاء المكان لاقترحت عليك القراءة .

ـ لا أحب القراءة إلا نادرا .

ـ جيل التليفزيون؟

فضحكت بصوت غير مسموع وقالت :

ـ ليس تماما .

ـ وحذار من الملل .

ـ اليوم طويل حقّا ، ماذا تفعل أنت؟

ـ أتسكع وسط المدينة . .

ـ لا يناسبنى ذلك .

ـ لا مفر من أن تجديه مناسبا ذات يوم .

ـ المهم ألا نعتاد الكسل !

فقلت بأسف صادق :

ـ كنت طالبا مجتهدا ، حتى العطلة السنوية لم تخل من نشاط واطلاع . أما اليوم فقد أصبح التسكع مذهبى . . كيف تمضين وقتك؟

ـ لى أخوات وصديقات ، هناك التليفزيون دائما ، وأحيانا السينما أو المسرح .

لم يعد فى الدنيا ما يستأثر بوعيى أكثر منها . لها الغريزة والعقل أيضا . ومن عجب أن مظهرها انتبهت إليه أخيرا نسبيا . تعاملت مع المضمون قبل الشكل . وعندما حدثتنى عن السينما والمسرح أدركت أنها تطل على مستوى أرفع ، عند ذلك ركزت على البنطلون الرمادى والحذاء ذى الرقبة والبلوزة المزركشة والجاكتة الجلدية . أنيقة وثمينة . ترى ما وراء ذلك؟ الزمن يطرح احتمالات شتى . وإنى أحلم بالزواج ولكنى أرحب بالفرص . عاطف هلال ذو مال وبنين فهو يحتقر الحلول الفردية ! وهو لم يصل إلى مركزه المرموق إلا بحل فردى انتهازى . ووجدتنى أتذكر عهد الدراسة . أتذكر التيارات التى انتظمت الطلبة . أبناء الأغنياء الذين ينعمون بالاستقرار ولا يهتمون كثيرا بالدراسة . فقراء يحلمون بالشهادة من أجل الوظيفة . متمردون يضطربون فى عوالم الأحلام ويرفضون كل شىء . كنت فى مكان وسط بين الصنف الثانى والثالث . أحلم بالوظيفة إكراما لعناد أسرتى ولكن للمتمردين الإعجاب والتأييد . كثيرا ما يتعرضون للتحقيق والمطاردة ، ومنهم من انتهى إلى السجن . ترى إلى أى فريق تنتمى رجاء؟ على أن الاحتمالات أوسع من ذلك . وإنى أريدها من أى سبيل ممكن وإن ظل الزواج حلمى المنشود . لذلك لم أدع فرصة تفلت لتوثيق مودتنا حتى نطق لسان حالى بما أحلم به . وتشجعت ذات مرة فدعوتها إلى لقاء ضمن رحلة للتسكع . .

٧

ما هذه البهجة المنعشة؟!

فاضت نفسى بهذا المعنى وأنا أراها مقبلة نحو موقفى أمام الأمريكين. فى تلك اللحظة شعرت بأننى بت من كبار العاشقين، فعاهدت الله ألا أسىء إليها ما حييت قط. غصنا فوق أريكتين جلديتين يفصل بيننا خوان معدنى. وضعت حقيبتها السوداء على طرف الخوان وراحت تمشط بعض خصلاتها كما رحنا نتبادل النظر فى هدوء وحب استطلاع. طلبنا الشاى ليدفئنا فى الجو البارد وشملنا من بادئ الأمر تفاهم حميم. لا ظل من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبى والتلبية من ناحيتها. كلانا ناضج ويعرف ما يريد. وإن تكن صداقة فهى واضحة الهدف. قد تعنى من جانبى ميلا وربما حبا، وبحسبها أن تعنى من جانبها أننى موضوع صالح للتجربة. ألا يعنى ذلك القبول من ناحية المبدإ؟! سألتنى:

- هذا مكان تسكعك؟

فقلت وأنا أقدم لها وعاء السكر:

- التسكع فى الشوارع ولكنه لا يصلح للقاء.

- وكيف تطيق الزحام؟

- إنها القيامة ولكنها خير من القعود ست ساعات فوق مقعد خشبى..

فابتسمت قائلة:

- إنه نوع من العقاب ولكن الزحام لمثلى غير مأمون!

- ماذا تركبين فى الذهاب والإياب؟

- نحن نقيم فى شارع الشهيد عبد الملك فيما وراء دار القضاء العالى فلا حاجة بى إلى الباص..

ثم مواصلة حديثها بسرعة:

- لولا ذلك ما قبلت الوظيفة!

فقلت بقلق:

- إذن فأنت غنية!

- أبدا، أبى موظف، موظف كبير إذا شئت، ولكن ذلك لم يعد يعنى شيئا.

وجدت فى قولها متنفسا للراحة وقلت :

ـ الحال من بعضه حتى وإن لم يكن متطابقا .

وانتهزت الفرصة فقدمت لها صورة أمينة لأسرتى متوخيا الصدق فى الأمور الجوهرية ودون تطرق إلى التفاصيل الحرجة ، ثم سألتها :

ـ لـك إخـوة؟

ـ ثلاث بنات كبراهن فى كلية الطب .

ـ الحق أن الحياة عبء ثقيل .

فأحنت رأسها الرشيق مؤمنة على قولى ، فقلت :

ـ خاصة للشرفاء .

ـ كان أبى «محمد جاد» محاميا مرموقا ، ثم تغير الحال عقب التأميمات فقبل وظيفة مدير الإدارة القانونية بشركة أ . م . د .

قلت لنفسى : «إن مثله جدير بأن يملك مدخرات لا بأس بها فهو خير من الموظف العادى . ليس بالغنى ولكنه ليس بالفقير أيضا ثمة أمل ولكنه ضعيف» . وقلت ملقيا مزيدا من الضوء على موقفى :

ـ أسرتى لن تعرف الراحة قبل أن توظف أختاى ، وأمل أبى متعلق بهجرة ثلاثتنا إلى بلاد العرب .

ـ على أختيك أن يختارا مهنة مطلوبة كالتعليم .

ـ أنت لا تفكرين فى ذلك؟

ـ إنى أمقت هذه الفكرة وأرجو ألا أحتاج إليها أبدا . .

انقبض صدرى بعض الشىء ولكن ذلك دفعنى إلى مزيد من الجرأة فسألتها :

ـ كيف تتصورين المستقبل؟

فتساءلت متغابية :

ـ ماذا تقصـد؟

ـ لا يمكن أن تعيشى بلا حلم ما؟

فضحكت قائلة :

ـ أنا لا أحلم .

ـ كل إنسان له حلمه .

ـ حقّا؟ فما حلمك أنت؟

فقلت متماديا فى جرأتى :

ـ الحق أنى أحلم بشريكة حياتى . .

فرمشت كالمرتبكة ولاذت بالصمت ، فقلت :

ـ هذا هو حلمى .

فتساءلت شاردة :

ـ ماذا يمنعك من تحقيقه؟

فلم أدر ماذا أقول اعتقادا منى بأننى قلت كل شىء ، فسألتنى :

ـ لم لا تتكلم؟

ـ قلت ما فيه الكفاية . آن لك أن تتكلمى أنت . .

وإذا بها تقول بجدية تامة :

ـ لقد تعرضت لتجربة غير سارة . .

فحدجتها بنظرة مستطلعة فقالت :

ـ تقدم لى موظف من مرءوسى والدى وفشلت التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلب عليها . .

فتساءلت بأسى لم أستطع إخفاءه :

ـ ما هى؟

ـ المهر . . والمسكن . .

فقلت متعلقا بآخر خيط :

ـ ليس التغلب عليها بالمستحيل .

ـ حقّـــا؟

ـ إن يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر ، أو يكون من الممكن إخلاء حجرة فى البيت للعروسين!

فهزت رأسها بأسف مما يعنى النفى . فى الصمت الذى تلا اعترفت بالإخفاق . جاءت مدفوعة بحب الاستطلاع والأمل فتلاشى كل فى هيكل الحقيقة العارية . لعلها تتأسف الآن على ضياع الوقت سدى . ولعلها تفكر فى انتحال سبب لإنهاء اللقاء . وقلت بلا روح :

ـ حسبنا صداقتنا الحميمة .

غمغمت شاكرة . ولم يبق إلا أن نغادر المكان ليرجع كل منا إلى الشركة من طريق .

٨

قلت لنفسى إنه لا مفر من النسيان. لا مفر من الوأد. الأمل والغريزة متعلقان بها، يتسلطان علىّ بكل قوة، يستأثران بأحلام اليقظة، يعذباننى ليل نهار ولكن لا مفر. مازلت فى أول الطريق وهى لا تبادلنى إحساسا أو عاطفة. ما هى إلا فتاة عاقلة تبحث عن زوج مناسب. إنه حق مشروع ورغبة نبيلة. ويبدو أنه لا يحركها طمع ولا آمال جامحة، إنها عاقلة تماما. لم تجرب الحب أيضا أو هذا ما أظن. داخلنى شعور قوى مؤثر بأننى لن أجد فرصتى فى «العقل» ما فائدة العقل فى عالم لا معقول؟ لا مفر. وعليه فلأتجنب مبادلتها الصداقة ما أمكن ذلك، ولأهجر الإدارة مبكرا عن العادة. رجعت إلى الفراغ. الفراغ المحتدم بالعذاب والملل. إنه يتجسد لعينى كما تجسد الموت فى مقدمة السيارة، كائن محسوس، غير محسوس، يقطر كآبة ورفضا للحياة. قبضته الخانقة تفشى لى سر المدمنين. مدمنى الخمر والمخدرات والقمار. لكننى محصن بمثالية باهتة وبالفقر. لعل الأوفق لى أن أملأ الفراغ بالسياسة. مازلت على صلة تعارف بالزملاء القدامى. يمكن أن أطوف بهم للمناقشة والاختيار. شعار عاطف هلال صالح للتطبيق. إنه يدعو كثيرين من ذوى الإرادة ويصلح أيضا لليائسين. إنها مجرد خواطر تعبر رأسى سادرة ولكن أخطر القرارات قد تبدأ من خواطر سادرة. يتسلل إلى النفس كالمزاح ثم ينقلب جدّا كل الجد. لكننى أقنع بمداعبة الأفكار. ومداراة الغريزة الطاغية. سيحدث شىء ما فى وقت ما. شىء قريب. أو بعيد. لن تضىء الحياة فى فراغ إلى الأبد. الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال. الأيام تمضى. الحركة بطيئة فى الشارع ولكن الأيام تسرع. رجاء تحرك أحلام اليقظة. ملكتها فى الخيال بقدر ما فقدتها فى الواقع.

٩

تعرض بيتنا بشارع الشمندل لغزوة قوية. تقدم سباك فى الثلاثين من عمره يدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهى. قال أبى ونحن مجتمعون فى الصالة:

- ما على الرسول إلا البلاغ، أبوه عامل بالحديد والصلب، يحمل شهادة صناعية متوسطة، عمل فى السعودية أعواما خمسة، يملك شقة فى المعادى وسيارة نصر..

ـ شملتنا حيرة . وقالت أمى مقطبة :
ـ ليس من مقامنا !
فقال أبى بمرارة :
ـ عم تتحدثين؟ انتهى مقامنا من زمان . .
فقالت أمى :
ـ إنها لم تتم تعليمها بعد ولابد أن تتمه . .
فقال أبى :
ـ إنه يريدها ست بيت .
فقالت أمى :
ـ لم نعدها لذلك . .
فقال أبى :
ـ إنه أسهل من تعلم الطبيعة والكيمياء .
فقلت :
ـ العمل ضرورى لها حتى لا نتركها تحت رحمة المجهول . وتحولت نحو مها متسائلا :
ـ ما رأيك يا مها؟
فقالت بوضوح :
ـ لم نسمع صوت صاحبة الشأن . .
فقال أبى :
ـ الكلمة الفاصلة لها طبعا .
وتلاقت النظرات فوق وجهها حتى عطفت مها عليها فقالت :
ـ أمهلوها لتفكر . .
وقلت أنا :
ـ ثم إنها لم تره .
فتساءل أبى :
ـ يهمنى أن أعرف هل تقبله من حيث المبدإ؟
فقلت بإصرار :
ـ بل هو مقبول من ناحية المبدإ، إنه ينتمى اليوم إلى طبقة أعلى . .
فهتفت أمى :

ـ إنك تخلط الجد بالهزل .

وحدثت الزيارة التقليدية فوجدته مقبول الصورة ولا عيب فى مظهره إلا مبالغة فى التأنق وحساسية بالذات ملفتة للنظر . ووضحت مواقفنا بين رفض من ناحية أمى وحياء شمل ثلاثتنا ـ أبى ومها وأنا . وما أدرى إلا ومها تقول لى ونحن ننتظر الباص صباحا :

ـ نهى موافقة !

ـ من ناحية شكله لا بأس به .

ـ ومن ناحية الموضوع أيضا .

فسألتها بقلق :

ـ أهو قرار أملاه اليأس؟

فقالت بضيق :

ـ فسره كما تشاء . .

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعا ، غير أن أمى قالت بغضب مخاطبة أبى :

ـ المسألة أنك وجدت زوجا لن يكلفك مليما واحدا .

فسألها بمرارة :

ـ هل لديك مال تخفينه عنا؟

ودعوت لها من قلبى بالتوفيق . .

١٠

ما هذه البهجة المنعشة؟ !

وأنا أغادر الشركة مبكرا للتسكع ، وجدت رجاء كالمنتظرة عند الباب . أقبلت نحوى هامسة فى عتاب حاد :

ـ أين أنت؟ كأنك هاجرت من البلد !

غزتنى فرحة راقصة سمت بى إلى سماوات السعادة . طالما ظننت أنها نسيتنى تماما ، وأن عقلها الحكيم قد حذفنى من جدول الاحتمالات . عتابها اقتحمنى كنغمة عذبة مفعمة بالنداء . فيه العتاب والشكوى والرغبة والاعتراف . فيه ما يغير مذاق الدنيا فى ثوان مثلما تغيرها الفصول فى أشهر . فهل يفرّق بين اليأس والأمل إلا خيط الفجر؟ !

حوالى العاشرة كنا نجلس بمجلسنا فى الأمريكين . قلت معبرا عن امتنانى :

ـ جزاك الله كل خير فقد أعدت خلقى من جديد . .

وتخففت من ارتباكها ناقرة على سطح الخوان بظفر أحمر على هيئة لوزة مصغرة . قلت :

ـ توهمت أن لقاءنا الأول هو الأخير ، عزمت على النسيان بأى ثمن ، ولكن الحب أقوى من كل شىء .

فهمست باسمة :

ـ ولكنك لا تكاد تعرفنى . .

ـ عرفت ما يكفى لخلق الحب فى أقوى أحواله . .

ـ خُيِّل إلىَّ أنك نسيتنى تماما . .

ـ تمنيت ذلك ، وتبدد هباء ما تمنيت . .

فقالت باسمة :

ـ وها نحن أولاء نلتقى لنتقاسم العذاب!

فقلت بحماس خلقته نشوة الظفر :

ـ مع الحب الحقيقى لا توجد مشكلات . .

ـ حماسك جميل ولكنه عاطفة وليس معجزة .

ـ هل هو فى الأصل معجزة؟ علينا أن نعتبره كذلك ، فى أى شرع يجوز أن يفرق بين قلبين أشياء مثل : شقة وأثاث ومهر ؟

فابتسمت فى أسى وتمتمت :

ـ إنك تحلم بحياة كالطيور .

فقلت بإصرار :

ـ لدينا الحب والإرادة والحياة التى لا ترحم الأغبياء فلنتعاهد على ألا يفرقنا شىء فى الوجود . .

فتورد وجهها حيرة وسعادة فقلت والنشوة ترقى بى مدارج السكر :

ـ فلنتعاهد!

فهمست :

ـ كما تشاء . . ولكن أما آن لنا أن نفكر ؟

فخفت أن أفيق من نشوتى فقلت :

ـ علينا أن نعلن خطبتنا فى الحال!

- مـــاذا؟!

- أن نعلن خطبتنا فى الحال . .

- لو اقتصر الأمر علينا لهان .

- علينا أن نقنع الأهل . .

- مهلا . . ماذا نقول لهم؟

- إننا سنعلن خطبتنا ونحل مشاكلنا بنفسنا!

- ولكـــن . .

فقاطعتها :

- لكل منا عمله واستقلاله .

- ألا نفكر قبل أن نقدم؟

- بل نقدم أولا . .

- أخاف أن نجعل من أنفسنا . .

قاطعتها :

- فلنعلن خطبتنا ، يجب أن نحقق نصرا ما . ولك علىَّ بعد ذلك أن أسطو على البنك الأهلى عند الضرورة!

غادرنا المكان وأنا أردد فى باطنى : «ما هذه البهجة المنعشة؟!» .

١١

يبدو أن رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشة غنائية فأصرت على لقاء ثالث لنناقش قرارنا بهدوء . قلت لها :

- رجاء ، إذا استرشدنا بالعقل ، فعلينا أن نسلم بالفراق الأبدى .

كانت تقدم رجلا وتؤخر رجلا . كانت تشاركنى الرغبة ولكنها تخاف العواقب .

قلت :

- إنى مخلص ، يلزمنى عمر طويل لكى أقتصد المهر ، وثلاثة أعمار لأجمع خلو الرجل ، فإذا لم يكن من التعقل بد فلنفترق .

فقالت بقلق :

- سيرون فى سلوكنا ما يقطع بجنوننا!

ـ يلزمنا قدر من الجنون نلقى به عالمنا المجنون . .
ـ يحزننى أننى سأغضب أعز الناس على . .
ـ إما أن نغضبهم وإما أن ننتحر . .
فتفكرت مليا ثم تساءلت :
ـ هبنا فرضنا إرادتنا ، فماذا بعد ذلك؟
ـ لو أن لدى خطة جاهزة ما كتمتها عنك ، ولكن تحملنا للمسئولية سيدفعنا إلى التفكير إلى قهر المستحيل . .
ـ ولو وجدنا الطريق مسدودا؟
ـ الطريق المسدود شعار العاجزين ، ثم ألا يستحق حبنا المغامرة والتجربة؟
وكانت فى صميمها عازمة على المغامرة . .

١٢

خاض كلانا معركة عائلية على تفاوت فى العنف والحرج .
دهش أبى وتساءل :
ـ تخطب؟ ! !
لكن مرارة الحياة روضته على الاستهانة بما يعده من الأمور الثانوية . وتساءل مرة أخرى :
ـ أأنت على استعداد؟
فقلت ببساطة :
ـ لا استعداد ولا خلافه .
فقالت أمى :
ـ أنت تعلم أنه ليس لدينا . .
فقاطعتها :
ـ إنى أعرف كل شىء . .
فتساءلت برجاء :
ـ لعل أهلها أغنياء؟
ـ كــلا . .

فتمتم أبى :

ـ قرار خاطئ ولا شك . .

فقلت بإصرار :

ـ لن أعدل عنه .

فرفع الرجل منكبيه قائلا :

ـ أنت حر ، وأتمنى لك التوفيق .

أما رجاء فقد خاضت معركة حقيقية . انهالت عليها الأسئلة وجاءت الإجابات كلها بالنفى . ثار الغضب كما ثار الكبرياء . رميت بالجنون . تدخل أقرباء وقريبات . أصرت رجاء على طلبها بل هددت بإعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة .

* * *

كانت تجربة عسيرة أن أمضى إلى عمارة الشهيد عبد الملك وأنا على علم كامل بمشاعرهم نحوى ، وبأنهم يعتبروننى وباء أفلت من المراقبة الصحية . الحق أن مها صدقت عندما قالت :

ـ إن جرأتك تستحق الإعجاب . .

وقد أرهقنى ابتياع الدبلتين ، أما الشبكة فقد اشترتها رجاء ودستها إلىَّ لأهديها إليها فى الحفل الكئيب . ولم تعلق خارج المسكن أو داخله علامة من علامات الأفراح . وندّت الوجوه عن بسمات متكلفة أخف منها العبوس .

وقال لى الأستاذ محمد جاد :

ـ طبيعى أن أتمنى لكما التوفيق ، لا تسئ الظن بنا ، ستكون يوما ما أبا وتعرف . .

أما حرمه ـ أم رجاء ـ فقالت لى :

ـ نحن دائما متهمون ، لماذا؟ أيوجد أثاث بلا مهر؟ هل يعيش ابن آدم بلا مأوى؟ أيوجد أب أو أم بلا قلب؟!

إنه صوت العقل . هو ما يعترضنى دائما بجدار صخرى . لم يبق إلا أن نجرب الجنون . إذا صدك العقل عن السعادة فجرب الجنون ، أليس ذلك من العقل أيضا؟! ما يستحق اللعنة حقّا هو الاستسلام . ونحن نلقى الإهمال والضياع على حين تتغنى الخناجر بالوعود المعسولة . وتحديث الظلام .

١٣

حققنا الرغبة واستقرت الدبلة فى البنصر. وأثملنا إحساس حميم بأننا بلغنا غاية ما وراءها غاية. وسرعان ما أدركت أننى لم أقطع إلا الخطوة الأولى. أجلنا مناقشة المشكلة استبقاء للصفاء ولكنها استوت على الأفق مثل نذير النشرة الجوية. ولم يحرجنى أحد من أسرتى فيسألنى مثلا: «وماذا بعد ذلك؟». مها وهى أقربهم إلىّ همست لى يوما:

ـ لعله عليك الآن أن تخصص لى جنيها من مرتبك شهريا؟

فضحكت ضحكة عصبية وقلت:

ـ أتظنين أن توفير نقطة ماء يجدى لملء بحيرة؟

فقالت باهتمام:

ـ أظن أنه فى وسع والدها أن يحل المشكلة.

فقلت بامتعاض:

ـ إنه حقًّا موظف كبير ولكنهم أصبحوا جميعا يتبعون كادر الشحاذين، ومدخراته تفى بالكاد بأعبائه، ولعله يستطيع أن يقوم بالواجب إذا قدم الطرف الآخر الشقة والمهر.

ـ إذن فما هى خطتك للمستقبل؟

فقلت ضاحكا:

ـ لا أملك إلا إرادتى!

وغامت نظرتها بالتفكير، ربما فى حالها أيضا، حتى سألتها:

ـ فيم تفكرين؟

فقالت وهى تتنهد:

ـ تمتعوا بشبابهم فى أيام يسر ورخاء ولم يخلفوا لنا إلا الأطلال!

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبد الملك من حين لآخر. أملت أن أظفر بعلاقة صادقة مع المسئولين، ولكن أم حبيبتى تصدت لى هناك كالصخر، وضنت على حتى بالابتسامة العابرة، وما من زيارة إلا وذكرتنى بالواجبات المقدسة، الشقة والمهر. وفى مجلس الأمريكين قلت لرجاء:

ـ الهجرة.. الأمل فى الهجرة..

فسألتنى والحق أنها لم تطرق الموضوع حتى فتحته لها:

ـ ما هى فرصتك؟

ـ عمل قانونى فى شركة ما، إنى أتابع الإعلانات فى الصحف، إنها فرصة نادرة . .

ـ لكنها محترمة .

ـ الحق أنى ما أحببت القانون قط، لقد اقتحمنى مثل حوادث الطريق . .

* * *

إنى أنتظر معجزة . أنتظر عونا من الخارج . خارج ذواتنا، لم أتعلم شيئا ينفعنى . أحمد عبد المقصود يعيش عصره أكثر منى ألف مرة . إنى أتحدى وأحلم ولكنى لا أفعل شيئا . وضاعف من حدة مسئوليتى أن عرف الزملاء فى الإدارة بخطبتنا . انهالت علينا التهانى والأسئلة . هذا السؤال اللعين :

ـ وجدتم الشقة؟

ـ دفعت الخلو؟

ما هو إلا مزيج من الإحراج . تضخمت المسئولية التى أحملها . الأيام تمر . الأسابيع والأشهر . ينظرون إلىَّ كطفيلى يقف عثرة فى سبيل شابة ممتازة . ولم تسكت عنى الأسئلة حتى فقدت أعصابى واختنقت بمشكلتى المستعصية .

* * *

وسألتنى أم رجاء مرة :

ـ حتى متى ننتظر؟

وأفصحت عن مشروع لأول مرة ـ بعد موافقة رجاء سرا فقلت :

ـ هنالك حل ممكن، جهزونا، واعتبروا نصيبى دينا يرد عند الميسرة .

فهتفت الأم محتدة :

ـ يا له من اقتراح لا أحب أن أصفه! حسبى أن أخبرك أنه مستحيل التنفيذ .

ـ لمـــاذا؟

فصاحت :

ـ إنه غير لائق!

همست رجاء برجاء :

ـ مـــامـــا!

وقلت أنا منفعلا أشد الانفعال :

ـ لا حيلة لى ولكن لا داعى للإهانة . .

فقالت الأم بحدة :

ـ افسخ الخطبة . .

فقلت بالحدة نفسها :

ـ لا أقبل أمرا إلا من رجاء .

فصاحت الأم :

ـ إن كنت تحبها فابعد عن طريقها !

ولم تكف إلا حين أفحمت رجاء فى البكاء .

١٤

رجعت الكآبة بسمائها الشاحبة وهوائها اللافح المشبع بالتراب . زادها الصيف احتداما ففتر نشاطى الروحى وغطاه الرماد . رغم جرأتى عانيت حساسية شديدة . تمخض الموقف الباهر لعينى عن أنانية تتجسد كالبلطجة . وقلت لبقايا الحلم الوردى : «لا» . لعلها لاحظت كآبتى فى اليوم التالى فى الأمريكين فقالت لى :

ـ إنى معك حتى النهاية .

ومع أننى تلقيت قولها مثل شربة مثلجة فى يوم قائظ إلا أننى قلت :

ـ ليبعد الله عنك شر هذه النهاية .

فتساءلت بقلق :

ـ ماذا حلَّ بروحك ؟

فقلت بوضوح :

ـ ليس الحب أن أضحى بك على مذبح جنونى .

ـ ما زلنا فى أول الطريق وسوف نجد حلا ما .

ـ أين الحل ؟ المسألة أفظع مما تصورنا وأنت الخاسرة !

فقالت بعتاب :

ـ أحسبتنى قاصرة ؟ لا تعتبرنى ضحية من فضلك .

ـ هذا هو سر جنونى الباهر ، ولكنه هو أيضا ما يملى على ما ينبغى عمله . .

ـ ما ينبغى عمله ؟

- لا يجوز أن تبقى خطبتنا أكثر من ذلك بلا حل واضح . .

فقالت بانفعال :

- شخص آخر يتحدث ، أنسيت . .

فقاطعتها :

- لم أنس ، كنت مجنونا ، لقد أسأت إليك إساءة بالغة ، الجميع يدركون ذلك لا والدتك فقط ، الجميع حتى الزملاء ، لا شك فى أنك تسمعين وتفهمين .

- لا أهمية لذلك . .

- نبل وشجاعة ولكنك تسيئين إلى نفسك بلا أمل ، رجولتى تأبى علىَّ ذلك ، حبى يؤنبنى ويتهمنى ، لا . . لا . .

فقالت بحدة :

- إنى صاحبة الحق فى القول الأخير .

- لى حق أيضا ، بل هو واجب ، على المجنون ألا يجر الآخرين إلى جنونه . .

- كنت فى جنونك أفضل منك الآن ألف مرة . .

فقلت بتصميم :

- إنى آسف ، ولست فى حاجة إلى أن أؤكد لك حبى . .

فهزنى اليأس ، وكنت مصرا بقدر ما كنت يائسا . .

١٥

ما فعلته بنفسى لا يصدق . استيقظت عقب ليلة مسهدة لأرى حقيقة بشعة ترصدنى لتقول لى بصوت فظ : «اختفت رجاء من حياتك» . ترامت إلى أصوات الطريق كأنما هى نعى للوجود ، نعى لأى معنى . لم أحيا؟ ! كيف أعاشر هزيمتى إلى الأبد؟ ! بودى أن أبصق على كل فكرة خطرت وكل فعل نفذ .

قال أبى لى بأسى :

- إنى حزين يا على ، وددت لو كان بوسعى مساعدتك . .

واغتمت أمى حتى دمعت عيناها .

الحزن يتغلغل فى أعماقى كلها ولكنى لم أجد بدّا من حمل حياتى والمضى بها . واستسلمت لرد فعل غضبى فقابلت وكيل الإدارة وسألته أن أنقل إلى إدارة أخرى مقدما

أسباب ذلك. ونقلت إلى إدارة المستخدمين عاطلا كما كنت. وصارعت أشواقى والأيام تمر مثقلة بأنفاس الصيف. رجوت أن يتلاشى الحب مع الزمن، رجوت أن تحرر هى من القيود كافة لتسترد رونقها البهيج. فى تلك الأيام تابعت بإعجاب مغامرات الإرهابيين فى الصحف. إنهم ينفجرون فى أركان البلد معلنين عن نبض جنين ينمو فى رحم الغيب. انبعثت من قلبى المحطم أخيلة مطلقة مرقت فى الفضاء وغاصت فى أعماق المحيطات. وجعلت أتآمر مع خلايا الأحياء وذرات الجمادات. ولم يخمد الحب ولم يبرد الشوق وتمادت الغريزة اشتعالا.

وقادتنى قدماى إلى مقهى الحرية، فلمحت الأستاذ عاطف هلال فى مجلسه. أقبلت نحوه بتلقائية وتوتر مشحونا بالاحتقار. حييته قائلا:

ـ لعلك تذكرنى..

فرمقنى بنظرة طويلة وشت بعجزه عن تذكرى فقلت:

ـ أنا صاحب المشكلة الجنسية..

فالتمعت عيناه وقال ضاحكا:

ـ آه! لا مؤاخذة.. السن والشواغل.. اجلس..

جلست فراح يقول متسائلا:

ـ لعلك وجدت الحل؟

فدفعنى العبث لأن أقول:

ـ الحل الكامل..

ثم مستسلما أكثر للعبث:

ـ سأنضم قريبا إلى أصحاب الملايين!

ـ حقّــــا؟

فقلت بثقة لا حد لها:

ـ بكل تأكيد.

ـ كيــف؟

ـ الأسرار لا تباح!

فهزَّ رأسه هزة الخبرة وقال:

ـ إنها مسجلة فى جدول محفوظ..

فابتسمت فيما يشبه الطمأنينة فسألنى:

ـ أأنت سعيد؟

ـ طبعـــا .

ـ لأنك مازلت فى أول الطريق .

ـ هــذا حـــق .

ـ أما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفسهم؟

فقلت كاتما سخريتى :

ـ كيف لا وأنا أحدهم؟!

فقال بنبرة مأساوية :

ـ خسارة النفس لا تعوض .

فقلت منفعلا :

ـ كـــــذب .

استاء ولا شك من لهجتى فصمت مقطبا ، فقلت بسخرية :

ـ تحرر من الأكلشيهات لتعرف الدنيا على حقيقتها .

فقال متضايقا :

ـ إنى أعرفها خيرا منك .

فاندفعت أقول محتدا :

ـ ماذا كنت؟ وماذا أصبحت؟ وثبت فى الوقت المناسب من السفينة وهى تغرق . .

تساءل فى انزعاج :

ـ ما هــذا؟

فقلت مستزيدا فى التمادى :

ـ أنت أيضا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا أنفسهم . .

فهتف غاضبا :

ـ لقد جئت بقصد إهانتى ولن أسمح لك بالبقاء بعد ذلك .

قمت . غادرته دون سلام . وتحت الشمس المحرقة فى الخارج شعرت بانشراح فضحكت . ماذا قلت؟ كيف تأتى لى قوله؟ الحوار من جانبى مرتجل من ألفه إلى يائه . المقابلة تمت بغير خطة سابقة . انتشيت بمرح عارض وأنا أمضى فوق قاعدة راسخة من الألم . وفى صباح اليوم التالى بدأت بعموده اليومى فى الصحيفة فوجدته يتحدث عن الطوفان الجديد ، وإنه لن ينجو من الغرق إلا من يلوذ بسفينة المبادئ . الحق أنه ليس أسوأ من غيره ، ومقالته تفهم على وجهها الصحيح إذا اعتبرت نوعا من النقد الذاتى الخفى ، وإعرابا عن الاغتراب الذى تطوعوا لاعتناقه .

وفى مرحلة متأخرة من رحلة الآلام ـ وأنا أتسكع على غير هدى ـ اقتحمنى إلهام منعش. مجهول الأسباب مقطوع الصلة بالواقع، على مقربة من الأمريكين تألق الإلهام وتوهج، دفعنى إلى دخول المكان بقوة واعدة بالمعجزة. .

١٦

رأيت رجاء فى مجلسنا كأنها تنتظر. تسمرت أمامها. تلاطمنى أمواج انفعالات متضاربة. مضيت أخرج من ليلى الحالك إلى نهار مشرق. انهمرت فوقى أعذب ألحان الوجود ونشواته. مؤيدة بقوة تستطيع أن تفعل ما تشاء. ارتميت إلى جانبها صامتا. تنفست بعمق لأسترد شيئا من الهدوء. تساءلت بصوت هامس:

ـ ماذا جاء بك؟

فسألتها بدورى:

ـ ماذا جاء بك؟

فقالت بعتاب:

ـ إنك ماهر فى الاختفاء، فلم أر بدّا من الجرى وراءك. .

تذكرت آلامى بندم وأسف فواصلت حديثها:

ـ كأنك كنت تهرب من هذا المكان أيضا. .

ـ هل ترددت عليه قبل هذه المرة؟

فحنت رأسها بالإيجاب، فقلت:

ـ آسف جدّا.

ـ ما فائدة الأسف؟

ـ سعادتك هى ما كانت تهمنى. .

ـ وفرت لى من الشقاء ما يشفق منه العدو.

ـ أما آلامى فلن أحدثك عنها. .

فقالت بحرارة:

ـ أرجو ألا تتصرف بغباء بعد الآن. .

فقلت بقوة وإيمان:

ـ لن نفترق أبدا.

فابتسمت بعذوبة، فقلت :

ـ لن نتراجع حيال عقبة .

ـ لم أكف عن التفكير لحظة واحدة .

فهتفت :

ـ هذا هو الخطأ!

ـ مـــاذا؟

ـ التفكير فى مثل حالنا هو خصمنا . .

فابتسمت قائلة :

ـ لقد جربنا الارتجال؟!

ـ ونجحنا، ولم نفشل إلا بالإذعان للتفكير .

قالت بقلق :

ـ أخشى أن نجعل من أنفسنا أضحوكة للدنيا . .

فقلت بتصميم وهدوء :

ـ لنتزوج فى الحال!

فرمقتنى بذهول فكررت :

ـ فى الحال .

ـ أتعنى ما تقول؟

ـ بكل جدية، ودون الرجوع إلى أحد .

فتساءلت بحيرة :

ـ ثـم مـاذا؟

ـ أجلى هذا السؤال إلى ما بعد الزواج وسوف يتبدى لنا فى صورة جديدة تماما . .

ـ ربما وجدت فى الزواج ما وجدت فى الخطبة من قبل .

ـ إنى أعرف الآن معنى الفراق كما أعرف قيمة الجنون .

فتفكرت فى قلق واضح ثم تمتمت :

ـ الناس . . الناس . . التعليقات . . أف . .

فقلت مترفقا بها :

ـ لنبدأ فى سرية مؤقتة . . أيريحك هذا؟

فتساءلت فى حيرة :

ـ لم تكره التفكير؟

فقلت بسخرية:

ـ أى تفكير؟.. ما هو إلا ترديد لأصداء ماض علينا أن نحطمه..

١٧

سرنا معا متلاصقين بعد أن تقرر مصيرنا بأجرإ خطوة أقدمنا عليها فى حياتنا. كنا نشعر بدفء داخلى رغم برودة الخريف المودع كما شعرنا بطمأنينة ونحن نخوض دنيا لم تعترف بعد بنا. بيد كل منا وثيقة ملكية تشمل الروح والجسد. وبقلبى شعلة استأثرت بجوارحى فتناسيت الأمور المعلقة.

سألتنى فى مرح:

ـ كيف تشعر؟

فقلت دون تردد:

ـ بأننى انتزعت المسئولية من أيدى المغتصبين..

ـ أظن أن التفكير الآن لا يعتبر جريمة..

ـ يوجد الآن ما هو أهم..

التفتت نحوى متسائلة:

ـ ما هـــو؟

ـ أن نجد مكانا نرتاح فيه ولو ساعة من زمان..

فقالت وهى تدارى ابتسامة:

ـ المسألة أكبر من ذلك.

ـ أجل، ولكنى أسير هذه اللحظة، الأخيلة المرحة تطاردنى.

فقالت بعتاب:

ـ إنى أسيرة أفكارى أيضا..

ربَّتُّ يدها وقلت بعجلة:

ـ لا مستحيل بعد اليوم، ممكن أن تقنعى نفسك بالتعليم وأقنع نفسى بالقانون ثم نهاجر..

ـ طالما كرهت ذلك..

ـ أنا مثلك، فلنعمل ما نكره لنعيش ما نحب. . لكن يلزمنا مكان!

ـ مكان. . مكان. . أنت تضحكنى. .

فقلت وأنا أتصفح وجوه العمارات:

ـ فندق. . بنسيون. .

فهتفت:

ـ ماذا؟. . لا حقيبة معنا!

وقلت بجدية محمومة:

ـ معنا تحقيق الشخصية والوثيقة الشرعية. .

ـ سلوك غريب. .

ـ لا تتعلقى بالأوهام الفارغة، سترجعين إلى بيتك فى الوقت المناسب!

فقالت وهى تدارى ابتسامة:

ـ إنك تفكر مثل مراهق!

فقلت مدافعا عن نفسى ومتذكرا فى الوقت نفسه لتاريخى الأليم:

ـ ولكنى أتصرف كرجل. .

١٨

لقاءات نهارية، قصيرة العمر، متباعدة على قدر ما تسمح به الميزانية. لأول مرة أشعر بأننى أنضج كإنسان وكعاشق. لم تشاركنى رجاء أفراحى بنفس القوة. حثنى ذلك على مواجهة الحقائق. قلت لها:

ـ الهجرة هى طريقنا الواضح.

فقالت بعصبية:

ـ لا أدرى كيف سأتحمل العمل الجديد.

فقلت رغم مشاركتى إياها فى موقفها:

ـ هو خير من البطالة. ثم إنه سيهيىء لنا عش الزوجية.

ـ العمل بلا حب نوع من السخرة.

فقلت برجاء:

ـ ثم يجىء الحب مع النجاح وهناء القلب. .

فتساءلت بقلق :
ـ ثم من أدرانا أن ذلك الهدف الثقيل ميسور فى النهاية؟
فقلت بقوة أغطى بها قلقى :
ـ أعتقد أنه غير مستحيل، ثم إنه توجد تجارب أخرى . .
أدركت عند ذلك أنى أسير بها نحو الفندق فشدتنى إلى شارع ماسبيرو وهى تقول :
ـ كرهت التردد على الفندق . .
فرمقتها بعتاب فقالت كالمعتذرة :
ـ الجميع يدركون لماذا نجىء، ما أفظع نظرات الموظفين والخدم!
ـ ألا تستطيعين أن تقلدينى فى عدم المبالاة بالآخرين؟
ـ فعلت الكثير ولكننى أعجز عن مجاراتك!
انزعجت حقّا وقلت وكأنما أحادث نفسى :
ـ لا أطيق العودة إلى العذاب!
ـ وحتام تسدل على شرعيتنا ستار السرية؟!
ـ ما اخترتها إلا تشجيعا لك وإنى مستعد لإعلانها اليوم قبل الغد، أعلنيها وقتما تشائين ودون الرجوع إلى . .
وخشيت ألا تمضى الأمور بالعذوبة التى مضت بها .

١٩

دعيت إلى مقابلة مدير عام العلاقات العامة . أول دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة . ولماذا يدعونى وأنا رجل عاطل؟ طالعنى بوجه متجهم أثار أعصابى وبخاصة أنه من الجيل الذى أناصبه العداء .
ـ حضرتك على عبد الستار؟
ـ نعـم .
ـ ما عملك؟
ـ لا عمل لى .
ـ ألا يكفى أن تستبقيك الشركة رغم أنك زائد عن الحاجة حتى تكافئها بارتكاب الجرائم فى رابعة النهار؟

فقلت بغضب وذهول معا :

ـ إنى معين بحكم قانون عام فلا فضل لأحد علىَّ، ثم إننى لست مجرما فلعلك أخطأت الشخص المطلوب .

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته :

ـ من إذن الذى يصحب الزميلة رجاء محمد إلى فندق «العش الجميل»؟

انشق قلبى تحت ضربة ذهول داهم فتساءل ساخرا :

ـ أرأيت؟ !

تمالكت نفسى بسرعة وقلت بتحد :

ـ سيادتك مخطئ، ومبلغك مخطئ أيضا ، رجاء زوجتى الشرعية!

ـ مـاذا؟ !

ـ إليك الدليل .

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ، ثم تفحصنى باهتمام وقد لانت ملامحه وتمتم :

ـ مدهش ، ألا يعلم زملاؤك بذلك؟

ـ كلا ، ثمة ظروف جعلتنا نفرض سرية مؤقتة على علاقتنا!

ـ ولماذا تترددان على الفندق بتلك الحال المريبة؟

ـ المسألة بكل بساطة أننا لا نجد مكانا!

دارى الرجل ابتسامة خفيفة وقال :

ـ أنا مضطر إلى إعلان زواجكما كتفسير ضرورى لعدم إحالتكما إلى إدارة التحقيقات!

فسألته بسخرية خفية :

ـ هل يمكن أن تدلنى مشكورا على شقة؟

فأجابنى ببرود :

ـ لست سمسارا يا حضرة!

٢٠

أعلن الزواج، لا مفر . فى بيتنا أحدث دهشة ولا شىء سواها . هتفت أمى :

ـ غير معقول أن تفعل ذلك من وراء ظهورنا .

أغرقت مها ونهى فى الضحك، أما أبى فقال:

- أنتم جيل مجنون، قدم لى سببا واحدا يبرر تصرفك المضحك.

فقلت معتذرا:

- كانت السرية إكراما لها!

- أنت أحمق، وهى أيضا حمقاء. لولا ضيق شقتنا لدعوتك للإقامة معنا.

- إنى مدرك لذلك كله.

فتساءل ساخرا:

- ماذا يغريكم بالزواج؟ ألا تتعظون بما حصل لنا؟

فقلت عابثا:

- سعادة بيتنا هى التى أغرتنى بما فعلت.

أما بيت زوجتى فقد اجتاحته حريق. استنتجت ذلك من كلمات رجاء الموجزة ومن امتعاضها الدائم. تخيلت الطعنة وأثرها الدامى فى قلبى الوالدين. قالت لى:

- إنى أعيش فى بيت يرفضنى تماما. فدفعنى قولها إلى الارتطام بمسئوليتى فقلت:

- تعالى إلى بيتنا مؤقتا!

ولكنها لم تنبس فقلت:

- سأجد الإعلان الذى أبحث عنه فى الصحف، لابد أن أعثر عليه ذات يوم.

فقالت بضيق:

- ومن ناحيتى فالتعليم أحب إلىَّ من هذه الدنيا.

فقلت بإصرار:

- لو اقتضى الأمر أن أتعلم حرفة فسأتعلم حرفة.

***

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعنى إلى حيرة العذاب. ورغم أن الأمل فى الرسو على بر - بعد تقبلنا للهجرة - بات ممكنا إلا أن عذابى لم يبرد. ومضيت بها ذات مساء لا يخلو من دفء إلى هضبة الهرم. لم يبق الهلال الوليد فى السماء إلا قليلا، ثم انتشر ظلام مريح. عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح إلى الخلاء وذابت فى الظلمة. طوقتها بذراعى بحنان وشوق ونحن نتعثر على مهل حتى توقفنا تماما. ملت نحو أذنها لأهمس لها بخواطرى المضطرمة ولكنها لكزتنى بكوعها قائلة فى تحذير:

- انظر.

رأيت شبحا قادما تبينته شرطيا عندما وقف أمامنا. اضطربت واتجه وعيى نحو الوثيقة فى جيبى. قال الشرطى:

- سلام عليكم.

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه:

- وعليكم السلام.

وصمت فانتظرت الخطوة التالية ولكنه لم ينبس ولم يتحرك فقلت:

- نحن نشم الهواء، أنا وزوجتى.

فقال بنبرة واضحة:

- متزوج أو غير متزوج، لا يهم.

فقلت بتحد:

- لسنا وحدنا، الخلاء ملىء بأمثالنا.

فقال ضاحكا:

- افعل مثلهم.

زايلنى الارتباك ففطنت إلى مقصده. دسست يدى فى جيبى مستخرجا ورقة من ذات الخمسة والعشرين قرشا ومددتها إليه.

تناولها ثم قرأها على ضوء بطارية ثم رددها قائلا:

- مقامك جنيه على الأقل!

ولما ذهب قلت ضاحكا:

- أرخص من الفندق بما لا يقاس.

فهتفت:

- يا للعار!

فضممتها إلىَّ بحرارة وأنا أقول معتذرا:

- إنها ظروف استثنائية لعينة، ولسوف نضحك عليها فى القريب.

وأطلت علينا القرون من فوق الهرم وهى تضرب كفا بكف.

سمارة الأمير

١

تبدو ضئيلة جداً، لا لضآلة تكوينها فهى بشهادة الجميع أنضج من سنها، ولكنها لا تكاد ترى فى الحجرات الواسعة والأبهاء المترامية، أما فى الحديقة الفواحة الشامخة فتلوح مثل عصفورة حائرة فى وثباتها المتتابعة فوق ممشى الفسيفساء. فى أوقات الفراغ، العصارى المزخرفة بالظلال، تقف مستندة إلى ضلفة الباب الكبير ترنو بعين إلى أشجار البلح المظلة لشارع سبينالى، وتلحظ بعين الأريكة يجلس عليها البواب وسواق السيارة «على جلال» يعجبها منظر على جلال ببدلته الرسمية، وقامته الطويلة مثل جذع النخلة ولونه الغامق ونظرته الحادة. إنه يلى فى التأثير الباشا الذى لا يضارعه شيء، وهى يروعها كل شيء فى السراى وما حولها، قلبها الغض يجود بالإعجاب لكل شيء، وهى تحب كل شيء، ولم تعد تذكر من الكوخ الذى أواها فى طفولتها برشيد إلا طيفا ذائبا فى ماض مضى وانقضى. حتى والداها سرعان ما نسيتهما ولم يبق من صورتيهما إلا النمط الشائع.

جاء أبوها بها إلى سراى عصمت باشا خورشيد وهى ابنة ثمانية منذ سبعة أعوام وعقب عامين جاءت أمها حاملة نبأ وفاته، ثم أبلغت بعد عامين آخرين نبأ وفاة أمها، فلم يبق من الشجرة إلا أقارب مجهولون لا يحفلون بها ولا تذكرهم. وعند كل نبإ أسود كانت تجهش فى البكاء، وتحاط بعطف ما، ثم يطيب الخادمات الثلاث اللاتى يشاركنها حجرة البدروم خاطرها، ويحذرنها من الاسترسال فى الحزن. التصقت بالسرايا باعتبارها دنياها الوحيدة. إنها قلعة شاهقة ذات أبراج الزينة وحديقة مترامية، تتوسط شارع سبينالى بلوران بالإسكندرية، وربة الدار الهانم تأنس إليها لإشراق وجهها وطيبة قلبها فتخصها بالقرب وتختارها دون غيرها لتدليك قدميها وساقيها. تعطف عليها لطيبة قلبها وسذاجتها، ونقائها من المكر فكانت الوحيدة فى السراى التى يتهيأ لها فرصة الوجود أحيانا فى اجتماع الباشا بحرمه. وتسمع أحيانا ما يدور بينهما من حديث، بل وما يتبادلان أحيانا من نقار أو شجار، ويسألنها ـ الخادمات الثلاث ـ عما تسمع فتشعر بأهميتها وتمضى فى حكى الحكايات.

وكان الباشا وحرمه عجوزين وحيدين. فكريمتهما متزوجة من قنصل يعمل فى الخارج، وابنهما يعمل كذلك فى سفارة، ولكن الرجل كان رائعا وقورا، يمضى فى شيخوخته وأناقته كتمثال أو يجلس فى روبه آية فى الجاذبية، وكانت حرمه جميلة رغم طعونها فى السن. وكم أعجبت شلبية بلون بشرتها الأبيض وزرقة عينيها، ويقول الباشا لحرمه فى غضبه: «أنت ظالمة.. أنت عمياء». فتقول له: «ما أنت إلا ثور، ألا تقرأ ما يكتب عنك؟!». عندما تثور عاصفة تنكمش فى ذاتها، تود أن تختفى، تنكس رأسها، وقد تدمع عيناها. ومرة سألته الهانم بحدة: «لماذا أفلتت منك الوزارة هذه المرة؟». فيقول لها: «حتى السراى لا تخلو من عدو لى». فتقول له: «بل أفعالك الشائنة هى عدوك الأول». فيتساءل: «أفعالى الشائنة؟!». فتصرخ: «نعم.. مازلت تحلم بمباذل الشباب يا عجوز؟!» «متى منعت الأفعال الشائنة من الوزارة، إنى أفكر فى الإقامة مع ابنى فى الخارج».

ولا يحول ذلك دون خروجهما فى المساء نفسه لقضاء سهرة معا كزوجين سعيدين.

ألفت شلبية هذه الحياة الأنيقة، كادت تخص بخدمة الهانم ولكنها كانت تخدم عن طيب خاطر النسوة الثلاث اللاتى يشاركنها فى البدروم، تنظف الحجرة، تغسل الملابس، تبتاع لهن الدخان وأوراق البفرة، وتتطوع بدافع خاص للف السجائر. وعن لسان الهانم أدركت أنها أنضج من سنها، وأنها «شيخة» لطيبتها وسذاجتها. أما فى الطريق وعند البدال فمضت تدرك أنها جميلة فتسعد بهذا الامتياز وتتعامل فى تحفظ وبدلال مع المعجبين. وكانت أخلاقها فطرية لا تكاد تتجاوز الحياء. حدثتها أمها عن الجنة والنار، وحذرتها الخادمات من الهفوات اللاتى تقضى على مستقبل البنت. إذن فحياة السراى غير دائمة، ما هى إلا دار انتقال. المستقبل الحقيقى يقع فى الخارج. ربما فى كوخ كالذى جاءت منه، لكن ما كان يكفى هذا لتوفير تربية أخلاقية حقيقية. كانت طيبة، سمحة القلب والعاطفة، وهابة للإعجاب والحب. ذات قشرة رقيقة من الدين والخلق. ألفت الحياة الأنيقة، ومعاشرة علاقة زوجية حافلة بأسباب الهناء والصراع، كما ألفت جو الإسكندرية المتقلب بإشراقه وعذوبته ونواته الضارية. وتجمعت أنفاس المراهقة فى برعم قلبها فامتلأ بريق الحياة الساخن..

٢

من عالم الرجال، العذب المخيف الغامض، يطل وجه «على جلال» مثل المنارة. ليست بدلته الكحلية هى المثيرة وحدها، ولكن قامته أيضا، وبصفة خاصة نظرة عينيه

الوهاجة، فى العواصف التى تسجد لها الأشجار الشامخة يقف مستهترا، مقطبا وباسما فى آن واحد، ولا يتراجع إلى حجرة البواب حتى ينهمر المطر ويشرق أديم الأرض السنجابى. له نظرة يودعها أحيانا النسمة الباردة المضمخة بشذا البحر، مثل قرصة ملاطفة لخد مورد، حادة وناعمة، لغتها غامضة متحرشة، تهيج الشعور بالأهمية، تداعب السرور الخفى. تغطى القلق بغلالة من إيحاء وردى.

وذات أصيل كانت تطارد ضفدعا فى جدول محفوف بالشوك. كان الوقت خريفا والرذاذ يجىء قليلا ويغيب قليلا. شعرت بنداء يدعوها للنظر إلى الوراء. رأت «على جلال» يقف تحت شجرة ليمون رانيا إليها بنظرة ثملة، بسمت بارتباك ووثبت فوق الجدول. فى الجو سر خفى وكأن أوراق الآكاسيا تتهامس به. عكست عيناها السوداوان بهجة وحذرا. ترنحت فوق حافة مغامرة مجهولة بلا مقاومة تذكر. دنا منها صامتا مربد الوجه تناول يدها ومضى بها إلى الجراج فى نهاية ممشى مسفلت. لم تقاوم ولكنها تساءلت:

- ماذا تريد؟

ضمها إلى صدره وغمرها بقبلات شرهة. وقفت مستسلمة لا تشارك ولا تقاوم. تمنت ألا يجاوز ذلك الحد ولكنه لم يجترح خطوة إلا كتمهيد لأخرى جديدة. وسألته:

- ألا تخاف النار؟

ثم تساءلت ووجهها يتقلص بالألم:

- ما هذا؟!

٣

الواقع دون الحلم ولكن شخصه أهم من فعله، باتا شريكين فى حدث خطير، وكاتمين لسر مهم. استولى على قلبها وخيالها، أحبته أكثر مما تصور، تصورت العلاقة أقوى من صلب البوابة وأنقى من ماء المطر. هو فارس قلبها وقلبها مطيته الأمينة. ليست السراى بالمكان المأمون لهذه الأفعال ولكن حتام يبقى السر سرا؟ ضايقها أن يتجاهلها بحكم الحذر، طمحت إلى معاملة أرق وأطيب صراحة. وقال لها مرة:

- تجنبى النظر نحوى، أنت مجنونة؟

فسألته بحنق:

- لماذا تخاف؟

ـ أنت مجنونة؟

ـ أنت المجنون، أنسيت فعلك؟

ـ من الخير أن تتركى السراى . .

ـ حقّا؟ . . إلى أين . . ؟

ـ أنت مستعدة؟

ـ نعـــم .

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ انتظرى مساء عند نافورة الميدان واحذرى أن ينتبه إليك أحد . .

٤

انتهى عهد السراى كما انتهى هذا الكوخ من قبل . فى حجرة على جلال الوحيدة بفراشها السفرى وصوانها القديم المقشر وحصيرتها المتهرئة، شعرت بأنها فى بيتها . لأول مرة تشعر بأنها تنتمى إلى وطن، وأنها ست بيت مثل حرم عصمت باشا خورشيد، ومضت تعرف نفسها وتخبر الحياة والرجل والحب . وكان للعلاقة شهر عسل أيضا ولكنه فى الواقع أقل من شهر . تجلى على جلال عاشقا نحو أسبوع ثم خرج من جلده رجل جديد، اختفى المجامل الباسم العطوف وحل محله رجل فظ، ضيق الصدر، متوثب دائما للزجر والردع، عجبت لتغيره، فزعت من معاملته، وكانت تزداد به تعلقا وارتباطا . إنها لا تطالبه بشىء، تخدمه بولاء . تهبه ما تملك بلا مقابل . لم تكن تذوق اللحم إلا مرة واحدة فى الأسبوع بلا تذمر . أيست من فكرة الزواج فتجنبتها وقنعت بحالها، ورغم حزنها شعرت بأنه ملكها وبأنه لا غنى له عنها . ومرة سألته :

ـ لماذا تعاملنى بخشونة؟ هل بدر منى ما يسيئك؟

فقــال :

ـ إنك تتوهمين ذلك لأنك دلوعة!

فقالت برجاء :

ـ أحسن معاملتى، ألا ترى أنى يتيمة وحيدة مقطوعة من شجرة ولا أحد لى فى هذه الدنيا سواك؟!

فقال بسخرية :

ـ إنى مثلك تماما، وكنت مثلك، دائما، لم أعرف لى شجرة. وعلى حين نشأت أنت فى سراى باشا نشأت أنا فى إصلاحية، ورغم ذلك اعتبرت الشكوى خنوثة!

ـ ولكنى أتألم . .

ـ الحياة خشنة وتطالبنا بالخشونة . .

ـ ألا تزال تحبنى؟

ـ أظن هذا واضح . .

فقالت بعذوبة وبراءة:

ـ إنى لا أشكو إلا معاملتك!

ـ هكذا خلقت! ماذا ينقصك؟!

أحقّا لا يدرك كم تتحمل من شظف العيش وحرصا عليه؟! وتنهدت قائلة:

ـ ربنا موجود . .

فسألها بحدة:

ـ ماذا تعرفين عنه؟

فقالت باستسلام:

ـ إنه موجود، ألا يكفى هذا؟!

ولكنها كانت تغوص فى صميم الحياة، وتزدهر رغم حرمانها من طيبات الحياة التى ألفتها فى السراى، ويتألق جمالها وشبابها فى الجلباب الشعبى، وتنعم بالحب . .

٥

وكان يقول لها أحيانا وهو يدخن ويحلم:

ـ لا دوام لحال . .

فترمقه بسؤال حائر فى عينيها الجميلتين فيقول:

ـ ولما كنت فى الحضيض فسيصير الحال إلى الأحسن!

ـ حقّا؟! . . ولكنى لا أصلح لشىء . .

ويبتسم، ويبرم طرفى شاربه، ويصمت فتقول:

ـ بوسعى أن أخدم فى أى بيت ولكنى سأنقطع عن بيتى!

فيضحك ويقول :

ـ هروبك أثار فى السراى زوبعة . .

فقطبت ولم تجد ما تقوله . . فيواصل :

ـ ظنوا فى بادئ الأمر أنك سرقت شيئًا ثمينا ، ولما وجدوا كل شىء فى محله أدركوا الحقيقة !

ـ الحقيقة ؟ !

ـ قالوا إنها هربت مع رجل غواها ، أليست هذه هى الحقيقة ؟

ـ ولكنهم لم يعرفوا الرجل ؟

ـ طبعا . .

ثم يقول بثقة :

ـ لا دوام لحال .

٦

وذات مساء جاء معه برجل قصير بدين قمحى اللون صامت الملامح . جلس إلى جانب علىّ على الكنبة على حين وقفت هى مستندة إلى السرير غائصة فى ارتباكها . ولما طال الصمت والنظر قالت متهربة :

ـ أصنع لكما الشاى .

فقال الغريب بصوت غليظ :

ـ شكرا . . لا أريد شيئا . .

وقال على جلال :

ـ إنها لائقة وإلا فإننى لا أعرف شيئا . .

فابتسم الرجل ولم يعلق وواصل النظر فقال على :

ـ إنها لائقة . .

فسأله الرجل ببرود :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ من ناحية الشكل . .

فتساءلت بحدة :

ـ عم تتكلمان؟

فأشار لها على إشارة آمرة بالصمت على حين قال الرجل :

ـ وما أهمية الشكل؟

ـ إنه الأساس . .

ـ أعندك فكرة عما تحتاجه من تعليم؟

ـ إنه اليسير إذا توافر الشكل .

ـ وما اسمها؟

فقال على مستقبلا وثبة من الأمل :

ـ شلبية الأمير . .

فابتسم الرجل متمتما :

ـ الأمير مرة واحدة! . . ولكن أعوذ بالله من شلبية!

فهتف على بتحد :

ـ إنك موافق ولا داعى للمناورة . .

قام الرجل، حنى رأسه تحية لشلبية، وذهب وعلى فى إثره يودعه .

٧

رجع على بعد دقائق ممتلئا حيوية واستبشارا . سألته :

ـ من الرجل؟

ـ مأمون الفرمانى صاحب ملهى الفلير دامور بالشاطبى .

ـ لماذا جئت به؟ وما معنى حديثكما؟

ـ الصبر مفتاح الفرج . .

وقف ينظر إليها باهتمام ثم قال :

ـ غنى . . غنى أى أغنية . .

فذهلت ولاذت بالصمت فعاد يتساءل :

ـ ألم تغنى من قبل؟ فى الحقل؟ فى الحمام؟

ـ أبدا لم يشجعنى صوتى قط . .

ـ يا للأسف! ولكن جسمك صالح للرقص . .

فهتفــت :

ـ الرقـص!

ـ ليس عندك إلا الشكوى والصراخ، إنى أعرض عليك خاتم سليمان .

ـ أنا أرقص؟!

ـ بعد تهذيب وتعليم ثم تتفتح لك أبواب الرزق .

ـ أمام الناس؟!

ـ طبعــا . .

ـ اخص . . يا للعيب!

فابتسم برقة مصطنعة وقال :

ـ إنه مهنة شريفة، شرفك من شرفى . افهمينى جيدا، لست أنا الذى أدفع بك إلى السقوط!

ـ أنا مستعدة أعمل أى شىء آخر .

ـ ألا تريدين غذاء أوفر وكساء أجمل وحياة أفضل؟ . . سنغير حياتنا بالعمل الشريف . . جربى ولا تخافى، سيربط الرقص بيننا برباط متين . أما الحياة كما هى الآن فلن تحسَّن أكثر من ذلك!

انقبض قلبها، رمقته بتوسل، اغرورقت عيناها .

٨

كان صباح داكن، تجيش سماؤه بسحب ملبدة، والريح تزأر مطلقة الأمواج المزبدة إلى أديم الكورنيش . جلست إلى جانبه فى شيفروليه عصمت باشا واندفع بها نحو الشاطبى وهو يقول :

ـ من يدرى؟ قد تمتلكين يوما سيارة كهذه .

استقبلهما مأمون الفرمانى فى شقته فوق الملهى مباشرة بعمارة مكونة من عشرة أدوار مطلة على البحر الثائر، تجاهل احمرار عينيها من أثر البكاء وقال :

ـ أهلا بالتلميذة . . ستضحكين غدا . .

وقدم لها الشاى والكعك، ومضى يقول :

ـ انسى شلبية، اخترت لك اسم «سمارة»، سمارة الأمير. تركت لك الأمير فهو مناسب جداً، هل نتوقع إزعاجا من أهلك؟ فأجاب على عنها قائلا:

ـ كــلا.

ـ عظيم، نحن فى أوائل الشتاء، الشتاء فصل ميت، ولكن يجب أن تعدى كما يجب قبل الصيف، مم تخافين؟

ـ إنها بنت شريفة كما تعلم.

ـ ونحن أيضًا شرفاء، لن يضطرك أحد إلى شىء تأبينه، ولا تصدقى غير ذلك.

ثم بعد فترة صمت وتأمل:

ـ ولكن التعلم لا مزاح فيه، ستتعهدك امرأة خبيرة، ولكن كل شىء يتوقف على إرادتك.

٩

وسرعان ما بدأ التدريب، ووفر لها الرجل أيضًا كساء مناسبا وغذاء صحيا. وكان التدريب يشمل آداب المائدة واللبس والزينة. وكلما وجد مأمون الفرمانى إهمالا أو تكاسلا استعان بعلى جلال حتى اضطر الرجل مرة إلى توجيه لطمة إليها. يومها رجعا إلى حجرتهما وهى صامتة غارقة فى حزن أبدى. وغير هناك من لهجته المألوفة لها بنبرة المعتذر:

ـ ما من رجل إلا وضرب محبوبته عند الضرورة.

أصرت على الصمت والعبوس فداعب بإبهامه خدها وقال:

ـ العمل عمل، لا مزاح فيه، وهو لمصلحتك.

فقالت بحنق:

ـ بل لمصلحتك أنت!

ـ لمصلحتنا المشتركة إذا شئت، ما نحن إلا شخص واحد.

فصاحت به:

ـ لقد سلمتنى إلى رجل غريب!

ـ إنه رجل أعمال وليس له فى النسوان.

ـ لو كنت تحبنى حقًا ما فعلت ذلك.

- ما فعلت ذلك إلا لأنى أحبك.

فقالت بتحد:

- أنت؟! لم أسمع منك كلمة حب واحدة!

- ولكنى أفعل ذلك!

- أريد حياة معقولة، هل فى ذلك من بأس؟!

وساد صمت ثقيل حتى قطعه قائلا:

- كنت ذات يوم تلميذا، انقطعت عن التعليم بسبب الفقر واليتم، تركت شبه أمى وانطحنت فى الإصلاحية.. ها أنا ذا أهيئ لك سبيلا أجمل. ماذا فى ذلك من عيب؟! انظرى إلى الراقصات وحظهن فى الحياة.

لقد احتملت الحياة حرصا عليه، ولأنها شعرت فى أعماقها الحية الملهمة أنه يحبها.

١٠

الفلير دامور ملهى صغير وأنيق. لا تفتح نوافذه الأمامية شتاء، تسفعه العواصف وهو صامد بجدرانه الأرجوانية، مربع الشكل، مسرحه صغير يعلو على الأرض بمتر واحد، فى جوانبه مقاصير من خشب الزان، وصفوفه موائد، يغالب نعاسه طيلة الشتاء والخريف، قلة تختلف إليه كحانة نظيفة تمتاز بمزتها الغنية، وفرقة موسيقية تعزف ألحانا شرقية وغربية، ومغنى درجة ثالثة يترنم بأغان كلاسيكية. به أيضًا مهرج يقدم نمرا فردية هزلية وساحر، وبطانة مطرب مكونة من فتيات أربع يُدعون أحيانا لمشاربة الزبائن ملتزمات بأدب يناسب رواده الممتازين من المصريين والأجانب.

دفعت سمارة للرقص فوق مسرحه فى أول الربيع، كانت فرصة فريدة للممارسة والتدريب العملى أمام رواد معدودين غير مبالين. كانت كمن يلقى بنفسه فى الماء وهو جاهز لفن السباحة، رقصت على أى حال ونالت تصفيقا من أيد محدودة، عطفا من ناحية وانجذابا إلى جمالها من ناحية أخرى. الرقص يقدم لأول مرة فى الفلير دامور، وسمارة وجه ممتاز وجسد ممتاز أيضًا.

فى الحجرة الخلفية وجدت مأمون الفرمانى وعلى جلال فى انتظارها. قال الفرمانى:

- التصفيق للمرأة لا للراقصة.

فقال على جلال:

ـ فى المرة القادمة سيكون للراقصة والمرأة معا .

فقالت بحرارة :

ـ إذا كنت لا أصلح فلأنصرف بسلام .

فتساءل الفرماوى ببرود :

ـ عندك فكرة عما كلفنى تدريبك وكساؤك وتغذيتك؟

فعبست وصمتت . وكان المتفق عليه أن تعمل حتى نهاية الصيف بلا مقابل نظير التكاليف ، على أن تكافأ فى الصيف بعد ذلك بجنيه فى الليلة ، وثلاثين قرشا بقية العام .

وتساءل على جلال بمكر :

ـ ألا تعطى شيئا على الحساب؟

فقال الرجل بحزم :

ـ لم أعتد أن أغير حرفا من الاتفاق .

ثم مستدركا :

ـ لا تنس تحيات الزبائن !

١١

سألت على جلال وهما عائدان مشيا على الأقدام إلى الإبراهيمية :

ـ ماذا يعنى بتحيات الزبائن؟

ـ سيدعوك بعض الأكابر حتما للمجالسة والمشاربة ، فى تلك الحال يحسب الكأس بضعف ثمنه تأخذين نسبة محترمة .

فهالها الأمر ، وقالت بحدة :

ـ ليس هذا ما تم الاتفاق عليه بيننا .

ـ لا خوف من ذلك وهو رزق شريف .

ـ لكننى لا أشرب .

ـ يملأ كأسك عادة بالشاى ، هذا تقليد معترف به .

فقالت بأسى محدثة نفسها :

ـ أجالس رجالا؟ !

ـ قد يدعوك بعضهم للذهاب معه ولك أن ترفضى .

ـ يا له من موقف!

ـ بسيط لا تعقدى الأمور.

ـ ربما تدخل مأمون الفرمانى؟!

ـ إنه يعرف سلفا أنى أدق عنقه لو فعل.

شدت على ذراعه بامتنان وهما يخوضان النسائم العذبة تحت بصيص النجوم، فقال:

ـ لا أريد لك الابتذال الرخيص.

١٢

اعتادت الرقص ومضت خطوات فى طريق إتقانه، اعتادت كذلك المجالسة والمشاربة والاعتذار عند اللزوم. اكتسبت مكانة سامية بفضل أنوثتها، وانقضى الربيع والصيف وهى تتألق كنجمة فى الملهى الصغير. لم تأنس إلى أحد كما أنست إلى سعداوى بياع الفستق، فهو فلاح مثلها صبوح الوجه، يرمقها باحترام وعطف. يرمقها بأكثر من ذلك حتى قالت لنفسها: «إنها لو كانت حرة بلا رجل لما تردد فى طلب يدها». وقد مالت إليه ميلا صافيا؛ لأنها كانت سلبية القلب، مكبلة بحب على جلال.

وذات ليلة، عقب انتهاء الموسم، وحلول الخريف، جاءها سعداوى وقال لها:

ـ المقصورة رقم واحد.

مضت إلى المقصورة فوجدت فى استقبالها شابا أنيقا وجيها ذا جاذبية واضحة، صافحته باسمة كالعادة، فقال بصوت أضخم كثيرا من عوده النحيل:

ـ أهلا.. مروان أمين المعجب بفنك وجمالك.

فتمتمت وهى تجلس قبالته تحت أغصان الياسمين المعشق فى أعواد الزان:

ـ تشـــرفنا.

وجاء الجرسون كظلها فقال مروان أمين بنبرة مترفعة:

ـ اثنين ويسكى.

عيناه نجلاوان، وسيم القسمات، مبروم الشارب، عذب الابتسامة. تأملها بإعجاب وقال:

ـ يُخيّل إلىَّ أنك ولدت لتكونى راقصة، ومجيئك إلى الفلير دامور أضفى عليه حيوية لم ينعم بها من قبل.

ـ أشكرك جدًا .

وشرب نخبها ثم قال :

ـ اطلبى ما تشائين . لا تتقيدى بى فإنى لا أشرب عادة أكثر من كأسين . .

فحنت رأسها ممتنة وسألته :

ـ حضرتك من الإسكندرية؟

ـ نعم ، أنا وأجدادى ، إنها مدينة عالمية كما ترين .

ـ نصف زبائننا من الخواجات .

لزم أدبه طيلة الوقت . لم تبدر منه كلمة نابية ، ولا ملاحظة ماكرة ، ولا حركة مستهجنة . واتسم بوقار لا يناسب سنه حتى تساءلت فى نفسها عما جاء به ، وجعل يحثها على الشرب حتى شربت ست كاسات من الشاى المثلج .

وعند منتصف الليل نهض وهو يقول :

ـ ليلة سعيدة أرجو أن تتكرر كثيرا .

١٣

رجعت تلك الليلة بصحبة على جلال وفى جيبها مائة وخمسون قرشا ، ولما دستها فى يده تهلل وجهه الندى بنسائم الخريف المشعشعة بأضواء النجوم وقال :

ـ الحظ يبتسم ، ما رأيك فى مروان أمين؟

فقالت بحماس برىء :

ـ مهذب للغاية ، فوق ما تتصور .

ـ الفلير دامور مكان محترم!

ـ هل سمعت عنه؟ . . مروان أمين؟

ـ يقول عنه مأمون الفرماوى إنه صاحب جريدة «الصوت» ، أذكر أنه جالس مرة عصمت باشا خورشيد فى بدرو .

ولكنه أقلقها بحماسه الزائد وهو يتساءل :

ـ متى يتاح لنا أن نؤجر شقة صغيرة وجميلة؟!

١٤

واظب مروان أمين على الذهاب إلى الفلير دامور مساء كل أحد. وجعل يطلبها إلى مجلسه فى كل زيارة. نشأت بينهما مودة حميمة وألفته بأريحية وعذوبة. ومرة قال لها:

- جمالك فريد، وهو مصرى صميم.

- ولكنك لست مصريا صميما!

فرفع حاجبيه الكثيفين وهتف:

- كيـف؟!

- عيناك!

- هذه الزرقة؟.. أوه! كانت جدتى جركسية ولكننى مصرى مائة فى المائة.. المصرى من يحب مصر.

- ولكن مستر فاولز يؤكد حبه لمصر!

فضحك ضحكة عالية وقال:

- رجل البورصة الإنجليزى؟! ذاك حب مغرض، الحب أنواع كما ترين.

فتساءلت باهتمام:

- حـب مغرض؟

- كما نحب البقرة لنستغلها.

فوجمت، وكان وجهها مرآة صافية صادقة فسألها:

- مـالك؟

- لا شـىء.

- لا يجوز أن تتكدرى هذه الليلة بالذات.

- لماذا هذه الليلة بالذات؟

- نويت أن أدعوك للعشاء فى بيتى!

وبلا تردد أعادت الأسطوانة المعتادة أمام هذا النوع من الدعوات.

- معذرة.. أنا لا أفعل ذلك.

فدهش، صمت قليلا، ثم قال مرتبكا لأول مرة:

- إنه لأمر مؤسف لى جدّا، ولكنك رائعة!

وجاء مأمون الفرمانى عند انتهاء السهرة ليودعه، فقال الشاب:
- كل شيء طيب حقّا ولكن..
وضحك ضحكة عالية يدارى بها ارتباكه ثم واصل:
- ولكن من المؤسف أن سمارة الحلوة لا تلبى طلبات المنازل!

١٥

سار على جلال طوال الطريق صامتا فتوقعت شرا. وفى الحجرة نفخ وهو يخلع بدلته وقال:
- غير معقول أن ترفضى النعمة.
فهتفت بحدة:
- نعمـــة؟!
- طبعـــا..
- إنه الابتذال الرخيص كما سميته..
- بل هو ثمين وغال!
- أنت تدفعنى إلى ذلك يا على؟
- لصالحك، لصالحنا.
- أأنت تحبنى حقّا؟
- طبعـــا.
- إنه حب مغرض!
فدهش على وقال:
- يا لها من كلمة!
- كما نحب البقرة لنستغلها.
فما تمالك أن ضحك، ثم قال:
- حديث السكارى! عليك أن تفهمى الحياة خيرا من ذلك، الحب فى القلب، لا أهمية للجسد، الأغنياء يرون فى الحب أنواعا، أما الفقراء فلا وقت لديهم لذلك، إنهم يحاربون العناء بكل وسيلة.
فقالت وعيناها تغرورقان:

- إنى أرفض .

فقال بإصرار :

- كلا يا سمارة . شلبية ترفض نعم . وتحفظ قلبها لى ، أما سمارة فتخوض إلى جانبى معركة واحدة .

١٦

انسابت بهما الفورد فى الطريق المحفوف بالمزارع ، فى السماء غيم كثير والريح تنقض بعنف ولكن الطقس معتدل لطيف . دخلا بيتا خلويا صغيرا فى «أبو قير» . بدا مروان أمين طيلة الوقت نشيطا سعيدا . مضى بها إلى فراندا وهو يقول :

- لو كانت ليلة مقمرة لسبحنا معا .

- الحمد لله على أنها غير مقمرة .

- تخافين البحر؟ . . ألست سكندرية؟

- كلا من رشيد .

- بلدة ذات تاريخ مجيد . إنى سعيد بوجودك .

- وأنا سعيدة .

فرمقها بشىء من الريب ثم تساءل :

- لكن الظاهر أننى لم أحظ بإعجابك؟

- أبدا ، المسألة أننى أفعل ذلك لأول مرة . .

فقال بصدق :

- إنى أصدقك ، البراءة لا تكذب ، ولكن هل ساءك ذلك؟

فقالت وهى تغض بصرها :

- إنى سعيدة . .

١٧

فى رحاب مروان أمين ظفرت بحنان واحترام ومعاملة رفيعة ونقود وفيرة. إنه أفضل من على جلال بما لا يقاس، فلماذا يتعلق قلبها بعلى وحده؟ لا سبب معقولا واحدا يدعوها إلى حبه ولكنها أسيرة هواه. وفى سبيله تضحى بكل غال. وهو أيضا يحبها ما فى ذلك من شك، على طريقته أى نعم، ويشاركها الوحدة والعناء. ولن تنسى قوله ساعة رجوعها من عند مروان أمين أول مرة: «أنا لا أستغلك ولكن كلينا يسلم للاستغلال». وهو أيضًا الوحيد الذى يناديها باسمها «شلبية» فتشعر بين يديه بأنها هى هى وليست شخصا آخر. أما مروان أمين فقد احتل من نفسها مكانة سامية واحتراما ومودة، وهو لا شك فى أنه يعشق جمالها ويهيم بمفاتنها، ويغدق عليها بسخاء، ويحترمها بطريقة جعلتها تشعر بإنسانيتها لأول مرة، وقال لها مرة:

ـ إنك طيبة أكثر من اللازم يا سمارة.

فقالت ببساطة:

ـ الله مع الطيبين..

فجفل قليلا وتمتم:

ـ الدنيا متوحشة وقد خلقنا لنقاتل!

فقالت بدهشة:

ـ كيف أقاتل، وأنا امرأة ولا أهل لى؟

فتجهم وجهه، وفتر حماسه، ثم سألها:

ـ ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

فأعادت أسطوانة حفظتها عن ظهر قلب:

ـ سرت من يتم إلى زواج فاشل إلى طلاق، ثم دعانى الفرمانى.

فقال لها وهو يتنهد:

ـ ادخرى كل مليم، فلا سبيل إلى النجاة فى هذه الغابة إلا بالنقود! أما الإيمان فلا ينقصك.

١٨

وتوثب على جلال للتجديد بلا توان ، اشترى شقة صغيرة فى كامب شيزار بعمارة جديدة ، وتبدى فى مظهر أنيق فلم يبق من ابتذاله القديم إلا نظرة عينيه البراقة المتحدية . وقال لها :

ـ تركت خدمة الباشا ! فسألته باهتمام :

ـ ألم تتسرع ؟

ـ كلا ، إنى أفكر فى مشاركة الفرمانى .

ـ دفعة واحدة ؟

ـ كل شيء يتوقف على اجتهادك !

فسألته بأسى :

ـ وتستمر الحياة هكذا ؟

ـ سنبدأ يوما حياة جديدة .

ـ متى ؟

ـ عندما نطمئن على مستقبلنا .

وابتسم إليها واستطرد :

ـ ثم نتزوج !

وثبت متهللة فتعلقت بعنقه وهتفت :

ـ آه . . متى يحدث ذلك ؟ !

١٩

منذ حديثها الأخير مع مروان أمين لم يواصل الشاب ممارسة غرامه معها . قنع بالمجالسة والمؤانسة وتبادل الاحترام والعواطف الرقيقة ، ولكنه لم يضن عليها بجوده وهداياه . ورغم كل شيء لاحظت عليه تغيرا غير يسير وفتورا حتى قالت له :

ـ لست كسابق عهدك .

فقال وهو يبتسم :

- إنى مريض . .

- كفى الله الشر .

- أحتاج إلى جراحة ، سأجريها فى الخارج .

- يا لسوء الحظ !

- إننى لم أعرف الراحة فى حياتى .

- ولكنك غنى والحمد لله . .

- ليست مشكلة المال .

- عملك شاق؟

- جـــدّا . .

- سأدعو لك دائمًا بالسلامة . .

- دعاء مبارك من قلب طاهر .

ثم أخـرج من علبة سوارا ذهبيا مطعما بفصوص ألماسية ، أهداه إليها قائلا :

- هدية لك لمناسبة السفر .

فقالت بتأثر شديد :

- أنت شـــاب نبيـــل ، لو كان النـــاس مثـلك ما عرف أحد الشقاء قــط !

٢٠

وقال لها على جلال وهو يتفحص السوار باهتمام :

- لقد أنهى العلاقة بينكما بلباقة وبلا كسر خاطر !

فقالت معترضة :

- لا تسئ الظن فإنه لا يكذب . .

فقال على بازدراء :

- الصدق محرج ومهلك .

أما سمارة فقد حزنت لفراقه ، وتمنت لو دام لها ليجنبها على الأقل التورط فى علاقة جديدة مجهولة . أدركت أن على - وقد جنى من العلاقة ما جنى - سيلقى بها بلا رحمة بين يدى ذراعين واعدتين . ومضت تكون لها شخصية فنية مؤثرة وتتوكد شهرتها وسحرها .

وهلَّ الصيف برطوبته ورواده وضجيجه. وازدحم الفلير دامور بالزبائن الجدد. وتكررت المجالسات كل ليلة. والاعتذارات عما عدا ذلك. وطبعا كان على يوافق على ذلك مترفعا عن العشاق «المفلسين» عشاق الليلة الواحدة! واقترح على أن يدخل شريكا فى الملهى ولكن الفرمانى رفض. وفى الوقت نفسه استرضاه فعينه مديرا للملهى بجنيه يومية فى الصيف، ونصف جنيه فى سائر العام. وفى أواخر الصيف الثرى جاءت أنباء حزينة من وراء البحار تنعى الصحفى الشاب مروان أمين. واهتزَّ قلب سمارة، وغشيها حزن صادق، فتوارت فى حجرتها وبكت طويلا. وفى أوائل الخريف رجع مستر فاولز إلى الفلير دامور، وإذا به يدعو سمارة للعشاء فى بيته! وكالعادة اعتذرت. وسعد بذلك سعداوى بياع الفستق وهمس فى أذنها:

- إنهم أنجاس!

غير أن مأمون الفرمانى احتد بشدة وقال:

- كيف ترفضين إنجليزيا؟!

وسأله على:

- أظنه مقتصدا كسائر تجار البورصة!

- إنه يقدم هدايا أثمن من النقود.

فقال على مخاطبا سمارة:

- إنه على أى حال عجوز ولن يضايقك!

٢١

مستر فاولز يقترب من الستين، ربعة، ضخم الرأس والوجه، غليظ اليدين، متين البنيان، يشرب كثيرا ونادرا ما يسكر، يعرف كلمات معدودات من العربية يستعين بها على توضيح إشاراته وقت السمر أو يمضى الوقت صامتا. كانت تؤانسه ليالى كثيرة فى الفلير دامور ولكنه لا يدعوها إلى بيته إلا مرة أو مرتين فى الشهر. وكان يقيم فى الدور الأول من بيت أنيق يقوم على هضبة فيكتوريا. أرمل وحيد، أولاده فى أستراليا، يخدمه نوبى ومساعده، وقد ولع بسمارة، ولانقطاع التفاهم بينهما ظل حيالها رمزا مجهولا. وجدت معاملة لطيفة وأهداها قرطا ثمينا ولكنها شعرت نحوه بشبه نفور وخوف، ولم تأنس من وجهه الضخم الحاد شعاع جاذبية واحدا. أعجبت فقط بعمق زرقة عينيه، وتذكرت بلونهما مروان أمين وأيامه الحلوة.

فى الصباح ترى البقعة خالية ومترامية، رقعة منها صحراوية، ورقعة يتناثر فيها النخيل وتغطيها الحشائش، ويقوم البيت الأنيق وحيدا فوق الهضبة يصعد إليه بدرجات منحوتة فى الصخر. وهو مكون من دورين. يقيم فاولز فى الأرضى المغروس وسط حديقة، أما الثانى فلا يجيء منه صوت، ومرة رأت فى شرفته عجوزا مهيبا فأسرعت فى مشيتها كأنما تفر. البيت جميل تحت هامات السحب ولكن كأنه ملجأ للعجائز، أما النخيل الفارع المثقل بالبلح الأحمر فذكرها برشيد فنسمت على قلبها ذكرى مبهمة مبتلة بالدمع.

٢٢

وذات ليلة وجدت فى مقصورة مستر فاولز آخر يجالسه، قدمه لها بنبرته الإنجليزية قائلا:

- جارى مهدى باشا جلال!

آه! إنه العجوز الذى لمحته فى الشرفة، حيّاها بابتسامة جذابة، إنه طويل، ضخم الهيكل رغم رقة لحمه، فضى الشعر والشارب، مشع العينين، ذو أنف غليظ، وله وقار نفاذ. من أول نظرة أنست إليه وشغفت بأبوته الكامنة. يبدو أكبر من فاولز ولكنه ممتلئ حيوية وابتساما. شرب بكثرة مثل فاولز وتابعت ضحكاته، حادث فاولز بلسانه، وحادثها - طبعا - بلسانها. صوته عذب أيضًا. قال لها:

- رقصك جميل مثل وجهك..

وفى آخر السهرة، تقدمها بسيارته حتى البيت الوحيد، ثم مضى إلى شقته العليا، فتمنت أن يجيء كل ليلة.

٢٣

قالت لعلى جلال وهى تحدثه عن الباشا:

- لقبه جلال مثلك!

فقال باسما:

- إنه أكبر محام فى الإسكندرية، محترم بين أولاد العرب والخواجات، على علاقة

وثيقة بعصمت باشا خورشيد، كما كان صديقا للمرحوم مروان أمين رغم فارق السن، غنى لدرجة كبيرة، أرمل بلا ذرية . .

- إنه جار مستر فاولز ويعيش وحيدا مثله .

وصمتت قليلا ثم قالت بدعابة :

- لقد وقعت فى هواه!

فقال لها باهتمام :

- المهم أن يقع هو فى هواك .

٢٤

فى الليلة التالية مباشرة شرف مهدى باشا جلال ولم تكن من الليالى التى يسهر فيها فاولز . ودعا سمارة إلى مقصورته فجاءت ممتنة وسعيدة . رشف من كأسه ولما رفعت كأسها، أوقف يدها برقة وهو يقول مازحا :

- الشاى منهك للأعصاب!

فضحكت، وأدركت من توها أنه دائر وابن سوق، فقال :

- اطلبى ما تشائين ولكن لا تشربى إلا القدر المناسب . .

فقالت بصراحة وبراءة :

- إنى سعيدة بالجلوس معك .

- مثلك وأكثر، ولكن ما رأيك فى فاولز؟

- شخص غريب .

- شيطان .

- حسبته صديقك؟

- صديق عمل ليس إلا . . ماذا لو علم بأنك سعيدة بالجلوس معى؟

- لا أدرى .

- على أى حال فأنت حرة، أليس كذلك؟

فقالت ضاحكة :

- لم يشترنى بعد .

- عظيم، ما جوابك لو دعوتك إلى بيتى؟

ـ إنه نفس البيت .
ـ لم لا؟
وبسرور ، وقبل مشاورة على هذه المرة ، قالت بجرأة جديدة :
ـ إنى أقبل . .

٢٥

أحبت المسكن ، وأدهشتها فخامته . قهقه الباشا وهو يقول مشيرا إلى أسفل :
ـ لا يتصور الحيوان أنك هنا . .
وشرب كعادته ، ونشطت شهيتها فأكلت بلذة . ولما ثمل سألها :
ـ هـــل تغـــنين؟
ـ كلا للأسف . .
فوضع فى الحاكى أسطوانة وهو يقول :
ـ إذن نسمع «يوم الهنا» . .
وراح يفرقع بأصابعه مزيحا وقاره جانبا ويقول :
ـ كل ما يخفق القلب له عبادة!
ـ هل تغنى أنت؟
ـ أحيـــانا .
ـ إذن فأسمعنى صوتك .
ـ كلا . . أود أن أعطيك خير ما عندى .
فضحكت وقالت :
ـ أنت رجل ظريف .
ـ أنت ساحرة يا سمارة .
فتساءلت وقلبها يمتلئ بحب برىء صاف :
ـ متى ماتت زوجتك؟
ـ إنك تتحرين عنى ، حسن ، حسن ، منذ عشرين عاما . .
ـ ولِم لَمْ تتزوج ؟
ـ حزنا عليها ، وعلى نفسى لأن الله لم يكتب لى الإنجاب!

ـ كنت تود أن يكون لك ولد؟

ـ إنى أسلم بمشيئة الله .

فبعد تردد قالت :

ـ تتحدث عن الله وأنت . . .

فضحك عاليا ، وسلط عليها شعاع عينيه مليا ، ثم قال :

ـ أرجو أن تجىء هدايتى على يديك .

فوضعت راحتها على يده وقالت :

ـ أنا أغضبتك !

ـ محال يا سمارة ، ألا ترين أنى أحبك ؟ !

٢٦

كان سخيا فوق الوصف ، وأعلن حبه بطريقة صارخة ودون مبالاة فكان يأخذها فى سيارته إلى بدرو وأثنيوس وحديقة أنطونيادس . وإذا بمستر فاولز يقتحم عليهما الشقة ذات ليلة . أما هى فركبها الخوف ، وأما مهدى باشا فقد ضحك وهتف به :

ـ هاللو فاولز !

ولكن الآخر وقف متجهم الوجه غيورا حانقا . رطنا بما لا تفهمه ولكنها توقعت شرا . بدأ الحوار بدرجة منخفضة ومضى يعلو ويشتد . تصلبا متواجهين فى تحد . عجوزان يتطاحنان على امرأة . وإذا بفاولز يوجه لطمة إلى صدغ الباشا ، وإذا الباشا ينهال عليه باللطمات . وصرخت سمارة . وتراجع فاولز فثبت الباشا فى موضعه . ذهب الرجل وجعل مهدى جلال يلهث فأخذته سمارة من ذراعه إلى ديوان وأجهشت فى البكاء . .

٢٧

صارت له وحده فى حياتها الأخرى . تمنت أن يبقى إلى جانبها حتى آخر العمر . ذلك الأب الذى جادت به عليها السماء ، وسألها مرة ـ كما فعل مروان أمين من قبل :

ـ ماذا جاء بك إلى الفلير دامور ؟

فقصت عليه القصة المحفوظة فقال بحنان :

- لا داعى للخيال!
- ألا تصدقنى؟
- لعن الله من لقنك الكذب.
- عرفت حكاية سراى عصمت خورشيد، وعلى جلال!
ازدادت صمتا وحياء فاستطرد:
- إنه يستغلك بدناءة!
- كلا.. إنه يحبنى..
- وأنت، أتحبينه؟
فلاذت بالصمت فقال:
- إنه لا يستحق حبك.
- الحب وحده لا يكفى.
- أنت مشكلة يا شلبية.
- إنك تعرف كل شىء.
- إنى محام عجوز..
- إنى أحبك أيضًا!
- وكانت أمى اسمها شلبية!
- أنت فلاح؟
- طبعا. ليس كل باشا بعصمت خورشيد..
- إنى وحيدة.
- أنت؟! لا، إنك أقوى منى، وأقوى من فاولز، أقوى من أى عاشق، العاشق ضعيف أما المعشوق فقوى، ولكن ما جدوى الحب إذا لم أرد إليك كرامتك يا زينة النساء؟!

٢٨

وذات ليلة وهو ثمل لثم عنقها وتساءل:
- هل توافقين على الزواج منى؟

ذهلت . سحرتها الكلمة المقدسة . طرب قلبها حتى السحر . ثم سرعان ما ورث الأسى كافة مشاعرها .

راقبها صامتا ، ثم تساءل :

ـ على جلال؟!

فلم تنبس ، فرنا إليها واجما ، حتى تمتمت :

ـ إنك أجمل ما فى حياتى .

ـ إنى شيخ فان وهو رجل شاب ، ولكن لا تسلمى باستغلاله لك كأنه قضاء وقدر .

ـ إنى أتمنى السعادة ، ولا يهمنى المال!

ـ لا أدرى كيف أكافئك على ما وهبتنى من سعادة ، والحق أننى ما أردت الزواج منك إلا لترثى تركتى التى لا وريث لها .

فقالت بإخلاص :

ـ حياتك عندى أغلى من التركة .

فقال بأسى :

ـ إنى أحترم الحب وأقدس الإخلاص فلا بأس عليك ولعلى أجد طريقة أخرى لمكافأتك يا شلبية .

٢٩

أسعد أيام حياتها . تمتعت بالاحترام والحب ما شاء لها التمتع ، وضاعفت العلاقة ـ مقرونة بما نشب حولها من عراك بين الباشا وفاولز ـ من شهرتها الفنية وأضفت عليها احتراما لم تعرفه من قبل . وكان على جلال يستحثها دوما على انتهاز الفرصة والإفادة من العلاقة ما وسعتها الحيلة ولكنها كانت تأبى ذلك ، وفى الوقت نفسه لم يقصِّر الرجل فى إغداقه . وكثيرا ما قال لها على :

ـ ألا تدركين أنه يترنح على حافة القبر؟

فكانت تغضب وتحتد وتدعو له بطول العمر ، وتقول :

ـ ما عرفت أبا قبله!

ولكن الحب مهما بلغ من قوته وصفائه لا يستطيع أن يدفع الحتم . فقد مضت صحة الباشا فى التدهور حتى اضطر إلى اتخاذ قرار نهائى بتصفية عمله والإقامة فى الريف .

وكــان وداعًـا مـؤثرًا أهداها هـدية ثمـينة عـقـدا من الـذهب ذا فـصـوص ألماسـيـة، وقـال بتسليم:

ـ اليــوم أو غدا، لا مفر من النهاية، وسيكون لك فى وصيتى ما أستطيع أن أوصى به، وعليك أن تحتفظى بهـا لنفسك حتى تملكى استقـلالك، وتضمنى حيـاة حرة كريمة.

ودعته وهى لا تراه من فيض الدمع الصادق.

٣٠

وأصر على جلال على مشاركة مأمون الفرمانى، وخشى الرجل أن ينفذ علىّ تهديده بفسخ عقد سمارة فقبله شريك بثمن العقد، وفى الحال تجدد الملهى، فدعم بمطبخ شرقى وغربى وكافتيريا، وطلى من جديد، كما تجدد أثاثه. سجل عقد المشاركة باسم على جلال، وظلت هى لا تملك شيئًا إلا الحب، أو لا تملك إلا ما أتقنته من هزّ البطن والصدر والرقبة.

وسألت على جلال:

ـ أما آن لنا أن نتزوج؟

فداعب خدها برشاقة وقال:

ـ مازلنا فى أول الطريق، الملهى لا يعمل بكامل قوته إلا ثلاثة أشهر، أما بقية العام فـهـو مثل سـفـينة فى مـهب العـواصف والأمطار لا يأوى إليـهـا إلا طلاب الدفء والستر.

ـ وما ضرر الزواج؟

ـ إنك ساذجة، لو حازك وجيه وأنت على ذمتى لأمكن أن أتعرض لتهمة خطيرة تزج بى إلى السجن..

ـ لم تعد فى حاجة إلى هذه العلاقة.

ـ مازلنا فى أول الطريق، هل شيدت عمارة مثل أمينة الفنجرى؟!

ـ يا خبر!.. إنه طريق بلا نهاية.

ـ بل له نهاية، وهى قريبة، ولكنها تطالبنا بالصبر والعمل.

٣١

وتجلت فى سماء الفلير دامور سحابة سوداء. فذات يوم غزا الملهى عمرو عبد القوى مفتش الضرائب. شاب فى الثلاثين، جاد المظهر، قوى الجسم، يهز منظره المتهربين من أعماقهم. راح يفحص المستندات ويقيد ملاحظاته ثم ذهب. غاص قلب على جلال فى صدره ولكن مأمون الفرمانى قال له:

ـ لا تخف، كل إنسان وله ثمن!

وتحرى عن المفتش الجديد عند بعض رجال الأعمال فى الحى، رجع عصرا وهو يقول:

ـ الولد نزيه، سنلقى متاعب لاشك فيها. . .

فقال على جلال:

ـ لاحظت أنه نظر إلى سمارة بإعجاب!

فقال الفرمانى:

ـ هذا هو الأمل الأخير!

٣٢

وجاء عمرو عبد القوى ليتلقى الإقرار. جلس فى المقصورة ليطالعه. وبإشارة من على جلال جلست سمارة على مقربة من المسرح بحيث يراها المفتش. ولما كرر النظر نحوها ابتسمت فى حياء، ثم مضت إليه وهى تقول:

ـ أتريد شيئًا فى أثناء عملك؟

فابتسم عن فم عريض متمتعا:

ـ خطوة عزيزة. .

فجلست قائلة:

ـ نحن أصحاب المكان وعلينا إكرام الضيوف.

ـ مفتش الضرائب ليس بضيف!

ـ نحن نحب الناس كما ترى. .

ـ ولو كانوا من رجال الضرائب؟!

ـ ولو كانوا!

ـ فواصل مطالعته وهو يتمتم:

ـ عذرت الآن فقط مهدى باشا جلال!

فقالت محتجة ولكن بعذوبة:

ـ عفا الله عن الناس، كان لى أبا ولكن الناس لا يرحمون..

فارتسمت فى عينيه اللوزتين ابتسامة ماكرة وتساءل:

ـ أب؟!

ـ صدقنى!

ـ لقد عرف كيف يختار ابنة فريدة!

فقالت بتواضع:

ـ لست إلا فلاحة من رشيد!

فتجلى الاهتمام فى عينيه وهتف:

ـ رشيد؟! أنا أيضًا من رشيد! أسرة من؟

ـ لا.. لا.. على باب الله..

فقال مقهقها:

ـ أنا من نفس الأسرة..

ثم انهمك فى عمله، واستدعى مأمون الفرمانى وقال:

ـ المغالطات كثيرة ولكن لا مفر.

عند ذلك قالت سمارة:

ـ أى معاملة بين أفراد الأسرة الواحدة؟!

فحدجها بنظرة قوية وقال:

ـ العمل مقدس مثل الصلاة!

٣٢

تمت المحاسبة فى جو شديد التوتر، عمل الفرمانى المستحيل ليتملص من قبضته ولكنه لم يفلح. قال له عمرو بحزم:

ـ عندك محكمة الضرائب إذا شئت .

ومنى الملهى بخسارة فادحة على حد قول على جلال . وبكل جرأة جاء عمرو ليسهر سهرة شتوية هادئة . كانت ليلة معتدلة صافية جاءت فى أعقاب نوة عاصفة أغرقت المدينة وأغلقت البوغاز . وكلما آنس من الوجوه تجهما مرح ودندن واندمج فى المشاهدة . ثم بلغ القمة عندما طلب سمارة للمجالسة . وقال لها سعداوى المحب الأبدى :

ـ اذهبى ، إنه واجبك .

وذهبت متحدية ، جلست وهى تقول :

ـ تقتل القتيل وتمشى فى جنازته .

فقال بسرور :

ـ إنى معجب بك يا رشيدية !

ـ إنك مرعب .

ـ على المتهربين .

ـ تأخذون أموال الناس ! . . بأى حق ؟ !

فتجاهل نقاشها وقال بحرارة :

ـ لا أحب الطرق الملتوية ، فلنقصد الهدف رأسا ، إنى أدعوك للعشاء فى شقتى المتواضعة بكامب شيزار .

ـ أنت فى كامب شيزار أيضًا ؟ !

ـ مسكنك هناك ؟ ! عظيم ، من رشيد إلى كامب شيزار . . أصبحت الموافقة حتمية !

ـ ولكنى لا أقبل الدعوات الخاصة ، ألم تسمع عنى ؟

ـ سمعت عن مروان أمين وفاولز وجلال مهدى !

ـ أنت مخبر ؟ !

ـ إنك ترفضين الموظفين الصغار وبخاصة إن كانوا نزيهين .

ثم برجاء :

ـ لك جانب دمث وآخر خشن ، وقد جئت لمجالسة الدمث !

٣٤

وتفكر على جلال وقال :

ـ إنه لا يساوى شيئًا ، إنى أعرف مدعى الشرف أكثر مما يعرفون أنفسهم !

وجاء عمرو فى نهاية الأسبوع. كانت الليلة صامتة ولكنها شديدة البرودة، ارتاحت لمجيئه ارتياحا أدفأ أعماقها. أدركت أنها تهبه شعورا جديدا. لم تشعر به نحو مروان أمين النبيل المتباعد المترفع، ولا نحو مهدى جلال لطعونه فى السن. إنه شعور جديد، وهو أول منافس حقيقى لعلى جلال. عجبت لذلك فماج قلبها خوفا مبطنا بسرور خفى. عمرو قريب جدّا وأليف جدّا، ينبض فى جذورها الرشيدية. وهو يصر على المجىء، متحديا الجفاء المحيط، من أجلها هى، وهو مثير للإعجاب بقوته وتحديه. وهمس على جلال فى أذنها:

ـ لا تلبى إذا طلب.

هل استشعر باطنه خوفا؟! ماذا عليها أن تفعل هى التى لم تخالف له أمرا؟! إنها تضمر العصيان لأول مرة فى حياتها. وتذكرت كلمات مهدى باشا عن الاستقلال والكرامة. ماذا يريد على منها أكثر مما أخذ؟ ها هى ذى لأول مرة أيضًا تحاسبه. وحلت اللحظة الحرجة فجاء الجرسون يبلغها الدعوة، لاحظت أن سعداوى يراقبها بقلق، ذلك المحب القديم الصامت. دنا منها وهمس:

ـ لا تذهبى!

فتساءلت:

ـ لماذا؟ ألم تقل إنه واجبى؟

ـ ولكن سيقع شر لا مفر منه.

وذهبت بلا تردد. وجلست وهى تشعر بأنها تستقبل حياة جديدة. وإذا بعلى جلال يقتحم المقصورة ويأمرها قائلا بفظاظة:

ـ اذهبى!

حدجه عمرو بنظرة قاسية وقال:

ـ عليك أنت أن تذهب..

فلم يباله وكرر أمره لسمارة:

ـ اذهبى.

ولما لم تتحرك هوى بكفه على وجهها.

وثب عمرو فوجه إليه لكمة صادقة، سرعان ما اشتبكا فى صراع مخيف كنمرين. وجاء مأمون الفرمانى وسعداوى والجرسونات. لم يفلح أحد فى الفصل بين المتعاركين. حتى تهاوى على جلال على الأرض فعند ذلك رفع سعداوى كرسيا ليضرب به الشاب غير أن سمارة صاحت به:

ـ ارم الكرسى من يدك يا سعداوى . .

وقف سعداوى ينظر إلى عمرو ولا يقول شيئًا وقد اصفرّ وجهه من شدة الغضب .

وقبض عمرو على يدها وهو يلهث ثم قال :

ـ لا يجوز أن تبقى هنا بعد الآن .

٣٥

كانت غاضبة وحزينة فمضت معه . كأنها فى حلم . . تترك الفلير دامور وتهجر الرقص؟! هل يمكن أن تتغير الحياة فى غمضة عين؟ لم تحب حياتها الماضية ولكنها لم تبغضها أيضًا لما أمّلتها فى تحقيق الحياة المستقرة التى تهيم بها . خرجت منها كما دخلتها فقيرة لا تملك مليما . استقرت فى شقة صغيرة متواضعة على مبعدة دقائق من شقتها الأولى . ولأول مرة تحكى قصتها بلا أكاذيب . وقال عمرو أول ما قال :

ـ لم تخسرى بمجيئك شيئًا ، فقد كنت طيلة الوقت منهوبة .

فقالت بصدق :

ـ ما اهتممت قط بالنقود ، وما تطلعت إلا للحب والاحترام .

فقال ضاحكا :

ـ عندى منهما الكثير ولكن لا مال لى إلا مرتبى المحدود .

ـ لا أهمية لذلك عندى .

فقال بحرارة :

ـ بالصدق والأمانة أصارحك بأنى أحبك .

ومضت الحياة عذبة ، غير أن على جلال قابل رئيس المصلحة وادعى أن عمرو طالب برشوة ، ولما رفض سعيه افتعل مشاجرة ثم خطف راقصة الملهى .

٣٦

لم يسفر التحقيق عن شىء ولكنه أساء إلى سمعة عمرو عبد القوى حتى اضطر إلى أن يعلن رئيسه بأنه أخذ الراقصة حقّا ولكن ليتزوج منها . وبالفعل عرض الاقتراح

على سمارة وتم عقد القران. ورغم ذلك صدر قرار بنقله إلى الصعيد فثار عناده وقدم استقالته. إنها لخطوة جنونية ولكنه وجد عملا فى مكتب محاسبة حتى يمكنه الاستقلال بالعمل. سمارة كانت السعيدة الفائزة. لقد تحقق حلمها الأبدى بالزواج. وسعدت سعادة لا مثيل لها، غير أنها سألته:

ـ هل تورطت يا عمرو فى الزواج منى؟

فقال بقوة:

ـ أبدا.. الظروف سبقت، هذا كل ما هنالك، ولكن نيتى كانت صادقة.

وازدهرت سمارة كالوردة المتفتحة.

٣٧

وتتابعت الأيام متألقة بالبهجة، ومع أنه كان شتاء قاسيا كثير العواصف والمطر، فإنها سعدت به وهى تشاهده لأول مرة من وراء الزجاج دون اضطرار إلى الخروج اليومى والسهر. أصبحت بمأمن من عواصف الحياة وأمطارها. واستوت العاصفة والأمطار فى وعيها رمزا للجود والبهاء. وفى ذلك الشتاء انتقل مهدى باشا جلال إلى جوار ربه، وقد أوصى لها بمبلغ عشرة آلاف من الجنيهات. هبطت الثروة من السماء وقد بكت الراحل طويلا ولكنها تمالكت نفسها لدى عودة عمرو، وقالت له:

ـ صرنا أغنياء يا عمرو!

ولكنه عبس وقال:

ـ كيف فعل ذلك لامرأة متزوجة؟!

ـ من أين له أن يعلم بزواجى؟

فقال بازدراء:

ـ ولو!

قالت بصدق وحرارة:

ـ كان أبى يا عمرو، صدقنى.

ـ كانت سمعته الخاصة سيئة!

ـ رعانى وهو فى السبعين.

ـ ولو.. كان رجلا سيئ السمعة!

فاغرورقت عيناها وقالت :

ـ لو عرفته بنفسك لكان لك فيه رأى آخر .

فقال بحـدة :

ـ إنى أكره هذه الدموع .

ـ أتريد أن أرفض النعمة؟! إنك فقير ، وفى بطنى جنين!

فغادر الحجرة وهو يدمدم . ولكنه لم يدل برأى حاسم . لو أراد الرفض لجهر بذلك وهو لا ينقصه الصراحة . هكذا احتفظت بالمال الموهوب .

٣٨

سعدت سمارة بزوج يحبها حقّا . زوج مفعم بالرجولة والفحولة والشهامة والعطف . ولم يكدر صفوها شىء من العادات البالية إذ كان بلا أهل مثلها . لا شك فى أنه كان نشيطا فى عمله ، فما لبث أن فاق دخله مرتبه السابق . غير أن الأيام كشفت لها عن عيب أو عيبين جوهريين فيه . إنه شديد الغضب ، وغير متسامح ، إذا غضب أفصح عن غضبته بالكلمة والفعل . فى مرة ، عند خروجهما من سينما رويال لمح شابا يغازل فتاة بقحة ، فما كان منه إلا أن لطمه ، ثم فعل به ما سبق أن فعل بعلى جلال . ارتعبت وقتها وقالت له :

ـ بالغت فى العنف وكان القليل يكفى .

فقال لها بانفعال :

ـ إنها اللغة الوحيدة المجدية!

ـ لقد كنت على حق ورغم ذلك فقدت عطف الناس .

ـ لا يهمنى الناس!

ولكن ثمة عيب آخر بدا خطيرا فتاكا ، ذلك ولعه بالقمار . ما أن انقضى شهر العسل حتى كشف سره . كان يقامر فى شقة بالإبراهيمية ، يسهر حتى منتصف الليل ، ويمتد السهر أحيانا للفجر . قالت له برجاء :

ـ صحتك ومالك!

فقال بأسى :

ـ لكل إنسان عيبه .

ـ ولكن هذا العيب قد يخرب بيتنا .

فقبلها وهو يقول :

ـ لا تبالغى ، ثم إنى محظوظ .

ولكنه كان يخسر أيضا ، ومرة رجع مدينا بمبلغ جسيم أخل بميزانه ، فقالت له :

ـ عليك أن تسدد الدين مهما كلفنا ذلك .

وأعطته من هبة مهدى باشا جلال فتقبلها بوجه واجم ونفس منكسرة حتى أثار عطفها .

وواصل اللعب ، وانقلب عليه الحظ حتى أتى على التركة كلها .

واسودَّ وجه الحياة .

وولد أحمد فى ذلك الجو المتجهم .

٣٩

وقال لها عقب عودته من الإبراهيمية :

ـ مصادفة سيئة جداً .

ـ ليحفظنا الله . .

ـ انضم إلى مائدتنا على جلال !

فانقبض قلبها وتساءلت بقلق :

ـ مصادفة ؟ !

ـ طبعـا . . .

ـ وهل يذهب إلى هناك كل ليلة ؟

ـ يبدو ذلك .

ـ قلبى غير مطمئن .

ـ المائدة تجمع بين خير الناس وأسافلهم .

ـ إنه سبب كاف لكى تقلع عن هذا الداء الوبيل .

لاذت بالصمت . وتوكد لديها أن ما تتمناه حلم بعيد المنال ، فتنهدت قائلة :

ـ طالما حسبت نفسى أسعد امرأة فى الوجود .

فقهقه قائلا :

- وإنك لكذلك يا جاحدة!

فقالت بنبرة باكية:

- إنى تعيسة يا عمرو!

٤٠

ومضت الأيام فى قلق وتوتر حتى صدقت مخاوف قلبها. بل جاءت الأحداث أسرع مما قدرت. ففى ليلة احتدم التناحر ما بين عمرو وعلى فانتهى إلى غايته المحتومة وهى الشجار. وتراجع على جلال أمام ضربات لا قبل له بها فاستل مطواة طعن بها قلب خصمه فتهاوى فاقد الحياة!

هكذا اختفى الرجلان اللذان أحبتهما فى ليلة واحدة، ذهب أحدهما إلى القبر والآخر إلى الليمان.

وجنت المرأة من الحزن. وجدت نفسها وابنها فى دنيا خالية. فقدت الحب والأمان. ناءت تحت عبء مسئوليتها الكاملة عن وليدها ونفسها. وبخاصة وليدها، ابن الرجل الذى أحبته، الذى قرصته حشرة فقوضت بنيانه.

٤١

وانشقت الظلمات - ذات يوم عن وجه سعداوى بياع الفستق. أثار فى قلبها مكامن ذكريات جميلة وأخرى محزنة، ولكنها وجدت نحوه امتنانا لا شك فيه. وتلقت مواساته الصادقة بمودة وأسى. ثم وضح أنه جاء من أجل هدف أدل على صدق عواطفه من المواساة وحدها. قال:

- مأمون الفرمانى على أتم استعداد لاستقبالك.

ولكنها قالت بوضوح:

- لن أرجع إلى تلك الحياة يا سعداوى.

فقال الرجل بحماس:

- وعد عليه حق، ألا يطالبك بما لا ترتضينه!

فقالت بإصرار :

ـ أصبحت اليوم أما ، وعلىّ أن أصون سمعة ابنى من الآن فصاعدا ، ومن حسن الحظ أننى أخفيت هدية ثمينة أهدانيها المرحوم مهدى باشا جلال ، وبها يمكن أن أبدأ بداية جديدة تمكننى من تربية ابنى كما أريد .

ارتسم الترحيب فى وجه سعداوى وتمتم :

ـ ليكن . إنه أفضل على أى حال ، وستجديننى فى خدمتك على الدوام .

جلس الرجل يرنو إليها ولا يزيد ، ولكن نظرة عينيه باحت بأكثر مما قال . كأنما تبتهل إليها أن تؤمن بأنها ستجد دائمًا من يتذكرها عند الشدة ، ومن يحبها حبا صادقا .

صاحب الصورة

اختفى شيخون محرم .

كان اختفاؤه حدثا هزّ المجتمع هزة عنيفة . كان رجلا مرموقا ، ذا نشاط مالى عريض ، وله فى السياسة وجود راسخ وأثر ، وفى دنيا الإحسان والخير أياد بيضاء ، إلى سمعة طيبة ذات رائحة زكية .

غادر سرايه فى أصيل يوم قاصدا النادى ، ثم اكتشفت أسرته ـ المكونة من حرمه سريرة هانم ووحيده عيسى ـ أنه لم يعد . انزعجت الأسرة أيما انزعاج ، إذ لم يسبق أن شذ الرجل عن جدول مواعيده بلا إخطار . اتصلت الهانم برفقائه فى النادى فأجمعوا على أنه لبث بينهم ساعة واحدة ، ثم انصرف ليزور ـ على حد قوله ـ شقيقه محمود محرم فى سرايه بالزمالك . وفى الحال اتصلت الهانم بمحمود محرم ، ولكن زوجته أجابتها بأن زوجها فى رحلة فى البحر الأحمر يرجع منها مساء اليوم وأن شيخون لم يزرهم منذ أكثر من أسبوع . وشهد سائق السيارة بأن الرجل غادر النادى ، أمره بالانتظار فى موقفه ، ثم مضى مشيا على الأقدام ، وأنه لزم موقفه حتى شقشق الصبح .

وبدأ بحث شاق ملهوف على شيخون فى جميع مظانه . عند جميع الأصدقاء والزملاء ، فى الإسكندرية وفى العزبة ، فارتطم دائمًا بخيبة مرة ، فاشتعلت الأفئدة بالقلق والوجل ، وتجمعت سحب الظنون .

ووفد على سرايه الأهل وفى مقدمتهم شقيقه محمود محرم ، والأصدقاء والمعارف ، وتداولوا الأفكار والحلول ، وقالت سريرة هانم :

ـ لو كان بخير لاتصل بنا !

واستقر الرأى على إبلاغ الجهات الرسمية . عند ذاك اتخذ البحث مجرى جديدا فشمل الأقسام والمستشفيات ، وازداد اللغز انبهاما ، والتشاؤم استفحالا ، وكأن الرجل رائحة وتلاشت فى الكون .

وتلاحقت الأيام . . فتجسد الاختفاء صخرة سوداء لا تتزحزح ، يتحطم عليها الأمل . لقد اختفى شيخون محرم كأنه لم يكن .

وجاء دور التحقيق والتحريات ، ولكنه لم يسفر عن جديد أيضًا ، فلا عداوة ولا سرقة ولا شبهة سبب مما قد يفضى إلى جريمة .

وخلت سريرة هانم إلى ابنها عيسى وهى فى غاية من اليأس ، وقالت له :

ـ لم أدل بكل ما عندى فى التحقيق !

فرنا إليها الشاب ذاهلا وتساءل :

ـ أعندك مزيد؟

ـ قلت إنى لا أعرف لأبيك عدوا .

ـ هذا حقيقى . .

ـ كــلا . .

ثم مواصلة حديثها بعناد :

ـ عمــك .

ـ لا . . لا . . المسألة أنك دائمًا تسيئين به الظن . . ليس لديك دليل واحد .

ـ لدى قلبى !

ـ لا يكفى . إنك تكرهينه .

ـ لا لشىء إلا لأنه كره أباك .

ـ لا أوافق على ذلك ، كانت العلاقة بينهما دائما مثالية .

ـ فى الظاهر فقط ، وعمك مجرم ، ألم تسمع بما يقال عن ضحاياه فى الريف؟

ـ ذاك أمر آخر . .

ـ إنه مطبوع على الإجرام .

ـ كان يحب أبى وأبى يحبه .

ـ قلبى لا يكذبنى . كنت أقرأ فى عينيه أحيانا ما يخيفنى إنه ينفس على أبيك نجاحه وثراءه .

ـ عمى ليس بالفقير .

ـ هنالك سر لا تعرفه، لقد واجهت عمك خسارة أوشك أن يبيع بسببها أرضه لولا أن أسعفه أبوك. أسعفه بلا عقد، أنت تعرف شهامة أبيك، ولكن الدين ثقيل ولا حجة عليه.

فتأفف الشاب وقال:

ـ المسألة أنك سيئة الظن بعمى.

ـ المسألة أنك مصر على حسن الظن به.

ـ هذا هو الأصل.

ـ آخر ما سمعنا عن أبيك أنه ذاهب للقاء عمك!

ـ ثم ثبت أن عمى كان فى رحلة مع صحبه.

ـ طالما قتل عمك الأبرياء وهو بعيد عن موقع الجريمة.

ـ أساطير لا دليل عليها.. لماذا تكرهينه؟

ـ قلبى، ألا تؤمن بحديث القلب؟

ـ كلا، لا أؤمن إلا بالمحسوس.

ـ هذا يعنى أنك لا تؤمن بشىء!

ـ هل فاتحت أبى بظنونك؟

ـ لم يصدق لصفاء سريرته.

ـ أرأيت؟

ـ ولكنه اعترف لى بخلاف نشب بينهما قديما!

ـ هذا حال الناس جميعا.

كانت الأم أصلب مما تصور ابنها، فأفضت بظنونها إلى المحقق. وكان خطب وفضيحة. وجرى تحقيق دقيق مع محمود محرم، ولكنه لم يسفر عن شىء. تزعزع الأساس الذى يستند إليه فرعا الأسرة الواحدة. وطالبت سريرة بالقرض الذى اقترضه من زوجها، فكان جواب العم أنه سدده، وأنه لم يكن بينه وبين شقيقه تعامل رسمى! وزاد ذلك من سوء ظن المرأة. ولكن العجيب أن محمود محرم بقى على ولائه لذكرى شقيقه، بل إنه استدعى عيسى إلى مقابلة خاصة فى النادى وقال له:

ـ أسباب الغضب متوافرة لدى، ولكنى مصر على الإبقاء على أواصر القربى، فتذكر دائما أننى عمك، كما أتذكر دائما أنك ابن أخى.

وتواصلت الأيام، ولحقت بها الأشهر، ثم الأعوام، انتهى شيخون محرم!.. غير أنه عاش ذكرى حية فى ضمير سريرة هانم، ذكرى حية لا تموت. لم تتعز قط، ولم يفتر حبها له. لم تيأس من أن يستقيم عود العدالة المعوج ذات ليلة. وكثيرا ما كانت تقول لابنها:

ـ أبوك يطالبنا بالعدل ونحن عنه لاهون .

وكان عيسى قد حل محل أبيه فى الإدارة ، فشغله العمل عن كل شىء ، وشغلته الحياة أيضا بمسراتها اليومية ، فكان يتجنب مناقشاتها ما وسعه ذلك . ويثيرها بروده فتهتف :

ـ ألا ترى أنى لم أذرف حتى الآن دمعة واحدة؟!

فيقول برقة ما أمكنه ذلك :

ـ ما هكذا يلقى العقلاء النوائب .

ـ أترانى مجنونة؟

ـ أمى!

فتقول بأسى :

ـ لم ترث إلا أملاكه!

وحلت الكارثة الكبرى عندما قال لها يوما :

ـ أمى افتحى صدرك .

فرمقته متوجسة ، فقال :

ـ قررت أن أتزوج من سميحة!

بهتت المرأة . اصفرَّ وجهها . ارتعشت أطرافها . قال بضيق شديد :

ـ الأمر بسيط جدّا لولا ظنون لا أساس لها .

فقالت بفزع :

ـ طالما توقعت ذلك ، طالما توقعته كأنه الموت المحتوم . . فابتسم فى امتعاض شديد دون أن ينبس ، فتمتمت بمرارة :

ـ ابنة قاتل أبيك؟!

فقال برقة :

ـ ابنة عمى . .

تقوست المرأة فى جلستها من شدة الألم ، ثم قالت بحدة صارمة :

ـ إنه الفراق الأبدى بينى وبينك!

وهاجرت من المدينة إلى القرية ، وعاشت فى السراى الصغيرة فى وحدة عميقة . وتركزت طيلة الوقت فى هواجسها .

وكان صوتها يسمع وهى تحاور نفسها بلا انقطاع . غرقت فى الضياع الذى ذاب فيه زوجها المحبوب .

وتزوج عيسى من سميحة. أصر عمه على أن يذهبوا جميعا إلى القرية ليقدموا فروض الود، ويتوهبوا الرضا، ولكنها أبت أن تلقى أحدا منهم، ومضت تردد:

ـ ها هو ذا القاتل يحقق هدفه ويصب ثروة ضحيته فى ذريته! واستفحل العذاب بالأم حتى مزق وحدتها. وفى محنتها الطاغية أخذت ترى المأساة خلال أبعاد جديدة وافدة من المجهول. تألق فى باطنها إلهام متوثب بأن الأشياء تخلق من جديد. وطرق أذنيها همس مضىء دعاها إلى تلبية نداء خفى. تلاشى إيمانها بالجريمة فتبخر اليأس وزال. وإذا بها تخرج من عذابها إلى الناس. تمضى فى وقار ظاهرى وبيدها صورة شيخون. . وكلما صادفها شخص عرضتها عليه متسائلة وهى تنتظر أن يجيبها الجواب الشافى فى يوم من الأيام. لم تسأم من تكرار السؤال، ولم يثبط همتها النفى، وترامت أخبارها إلى عيسى ففكر فى اتخاذ إجراء حاسم، ولكنه اكتفى بعد تدبر ومراجعة بتكليف أحد أتباعه فى القرية بحراستها من بعيد. وتتابعت خطوات الزمان وهى مصرة على بحثها العقيم، وتقدم بها العمر فلم تهمد ولم تخمد.

* * *

بعد دهر فريد.

كان عيسى يجلس فى السلاملك ذات أصيل عندما رأى عجوزا يتسلل إلى السراى متوكئا على عصاه، رنا إليه مقطبا بادئ الأمر، ثم اجتاحه الارتياع والذهول فوثب نحوه وهو يهتف:

ـ أبى!

حمل ما بقى منه بين يديه ومضى به إلى فراش، وسرعان ما استدعى الطبيب، لم يكن به مرض ولكن نهكته الشيخوخة والضعف. وما استلقى على الفراش حتى تخلت عنه قوى المقاومة فتبدل شخصا آخر، ولما استيقظ من نوم عميق ظن عيسى أنه استرد عافيته فسأله بشغف:

ـ أين كنت يا أبى؟ ماذا غيبك ذلك الدهر الطويل؟

ولكنه لم يجب. بل كأنه لم يسمع، وهوم فى آفاق بعيدة، ورجع عيسى يسأل من جديد، ولكن الأب لم يباله، وتمتم كأنما يخاطب نفسه:

ـ الجبال الخضراء.

فسأله باهتمام:

ـ أكنت فى الخارج؟

فمضى العجوز فى حديثه الباطنى:

ـ والبحيرات الزرقاء . .

ـ أين يا أبى؟

فهمس متنهدا :

ـ وعش الحب والعناء؟

فهتف عيسى فى أسى :

فعاود الهمس متمتما :

ـ عش الحب والعناء!

* * *

ويئس عيسى من الاتصال به، ولكنه قرر أن يجمع بين أبيه وأمه، وأمل من وراء ذلك فى الشفاء.

وجىء بالأم رغم إرادتها حتى بكت، ولما أجلسوها أمام الراقد فوق الفراش كفت عن البكاء. خفق عيسى بالترقب. . ولكن لم يحدث شىء ذو بال. لم يتبادل الزوجان نظرة عتاب أو فرح أو حزن. . ترامقا كأنهما ينظران فى فراغ. غاص كل منهما فى دنيا لا علاقة لها بدنيا الآخر. كأنه لم يعرفها وكأنها لم تعرفه. تفشى فى الجو توجس وأسى عميق. شعر عيسى بأنه مجهول الأبوين.

وقامت الأم كأنما ضاقت بالجلوس. اقتربت من الفراش حتى لامسته، ثم بسطت الصورة أمام عينى العجوز، وطرحت سؤالها الخالد :

ـ هل تستطيع أن تدلنى على صاحب هذه الصورة؟!

الرجُل والآخر

من دكان الفاكهة خرج الرجل حاملا قرطاسا مثل قمع السكر. ابتلعه تيار بطىء متلاطم فى سوق الخضار. ولقامته الطويلة برز وجهه الباسم المتورد فلمحه الآخر من موقفه عند كشك السجائر وقال لنفسه : «أخيرا. . لن يفلت منى». وجعل يتابعه بانتباه حتى تملص من الزحام فمرق إلى الميدان. من المهم جدّا ألا يثير ريبته حتى تحين الفرصة المواتية. الرجل يجيل بصره فى الميدان حتى يستقر على محل الحلوى فى الجهة المقابلة ويمضى إليه فوق نصف دائرة الميدان الأيمن فيمضى الآخر نحو الهدف فوق نصف دائرة الميدان الأيسر. دخل الرجل المحل فوقف الآخر تحت عمود النور العالى. جو الخريف

عذب . . ضوء الأصيل هادئ يهبط من السماء بعد أن توارى قرص الشمس وراء العمارة العالية. الرجل ينتظر أن يفرغ البائع له. عيناه تثبان بنهم بين صفوف الحلوى الشرقية والغربية. الآخر يراقبه بصبر. ثمة امرأة تنتظر أيضا. مليحة ومتبرجة ومرحبة بالمجهول. الرجل يرمقها بنظرة مستطلعة، تعرض عنه ولكن شبه باسمة. يتزحزح خطوة فيقتحم مجالها الحيوى. ها هو ذا يهمس بجرأة. ها هما ذان يتهامسان، قال الآخر إن ذلك ينذر بتعقيد الأمور. إضافة جديدة لمتاعبه وتحد غير متوقع لخطته. ويجىء دورها لابتياع ما تريد ثم يجىء دوره. يخرجان ووجهه يتهلل ويطفح بالرغبة والظفر، يتبادلان كلمات ضاحكة مثل فقاعات الشهد. ثم تمضى هى إلى شارع الملاهى، يتابعها بعينيه لحظة ثم يسير على مهل حاملا القرطاس واللفة. لا شك فى أنهما تواعدا على اللقاء، والآخر يأمل ألا يؤجل ذلك تنفيذ خطته، يرجو ألا يهدر تعبه الطويل وتدبيره الحاذق. قد يكون اللقاء قريبا فتتعقد الأمور، وقد يكون لغد لن يجىء أبدا. الرجل يسير. لا يرهقه المشى. ولا يدرى أحد متى يفتر نهمه وأشواقه. تجذبه معارض المحال التجارية كأنه ربة بيت. الساعات والنظارات والأدوات المنزلية والملابس وآلات الغيار والأجهزة الإليكترونية، حتى اللوازم الطبية وواجهات الصيدليات تجذبه. يتشمم رائحة الكباب والطعمية. يقرأ عناوين الكتب والمكتبات. وكلما جمعه موقف مع امرأة أو فتاة دخل مجالها الحيوى، ولكن لم يحصل تلاحم جديد. ولون المغيب يتشرب بالسمرة وتنفث النسائم برودة منعشة. دخل محل أقمشة، وخرج بكيس نايلون مشحون ودس لفة الحلوى فى الكيس مع القماش المشترى، ابتاع أيضا كتابا . . ترى أى كتاب؟ متى يعتقد أنه سيقرؤه؟ ود لو يعرف اهتماماته الدفينة. إنه لا يكاد يعرف عنه شيئا ذا بال سوى الاسم والهوية والتاريخ البغيض الغامض. وعطف الرجل إلى دكان مسح أحذية. اتخذ مجلسه فوق الكرسى الدوار واضعا حمله فوق كرسى خيزران قديم. ينظر إلى المرآة أمامه مغازلا وجهه بإعجاب وارتياح. يواجه الصورة تارة، ويثنى رقبته يمنى ويسرى تارة أخرى. والآخر يراقبه من زاوية فوق الطوار. التقت عيناهما لحظة فوق سطح المرآة. تضايق وتحرك خطوة نحو الأمام. غاب الرجل عن منظوره. لا يرى الآن إلا الإسكافى العجوز وصاحبة المحل البدينة، خشى الآخر أن تلتصق صورته بعين الرجل خاصة أن وجهه سهل الانطباع. وجهه غامق، وعيناه حادتان، وشعره أسود كثيف ولكن الرجل مستغرق فى ذاته ولم يره من قبل. أضاءت مصابيح الشارع وتخايل ظل المساء. ها هو ذا يغادر الدكان وقد ازداد ـ بتلميع الحذاء ـ رضاء عن نفسه، وارتطم به مار مسرع فارتد بخطوة ملهوجة وهو يشدد قبضته على حمله ويصيح غاضبا :

ـ هـوه!

توقف المسرع مبهوتا وصمت فصاح به مرة أخرى :

ـ على الأقل اعتذر!

فسأله بضيق:

ـ أليست لديك لهجة أفضل؟

ـ كــلا!

ـ إذن فليس لدى اعتذار!

ـ حيــوان!

فبصق المسرع على الأرض محتجا. عند ذاك وضع الرجل حمولته على الرصيف ثم انقض عليه فتبادلا ضربات شديدة. أدرك المسرع أنه ليس ندا لخصمه فتراجع قائلا:

ـ غاوى خناق.. اشهدوا على المعتدى..

وتجمع خلق، وجاء الشرطى. والآخر يراقب بانفعال وضيق، وعندما قال الشرطى: القسم موجود والصلح خير.. بدا أن المتخاصمين تجنبا الذهاب إلى القسم، فتناول الرجل حمولته وذهب. تنفس الآخر بارتياح وتبعه. نسى الرجل انفعالاته تماما أمام محل للعب الأطفال. له أبناء فى سن الطفولة؟! ودخل. ما أعظم إلحاحه وصبره! وخرج بلا إضافة. لعله لم يشتر شيئا أو لعله اشترى لعبة كبيرة سيرسلها المحل إلى مسكنه. فى تلك اللحظة قابله كهل يتأبط حقيبة تصافحا بحرارة. تبادلا كلمات سريعة، ثم مضى الكهل وهو يقول:

ـ لا تنس المحكمة يوم عشرة القادم.

أأنت أيضا من أرباب المحاكم؟! متى تسمع الحكم؟ ترى أين يذهب بعد ذلك؟ عصير فواكه.. ليكن، أتعبتنى الله يتعبك. للمرة الثانية تتلاقى عيناهما فوق سطح المرآة. انقبض صدره.. هل يتذكره؟ كلا.. إنه مأخوذ بمذاق الشراب وعيناه تدمعان. ينظر ولا يرى ويتملى صورته بإعجاب وبراءة.

ها هو ذا يغادر الدكان. يعبر الطريق، يغيب فى محل ترزى يعد كسوة الشتاء، غاب ربع ساعة ثم عاد إلى الظهور، عرج إلى مقهى الحرية ثم دخل. المقهى على ناصية، وله أكثر من مدخل فلم ير الآخر بدّا من الدخول. جعل يراقبه من مجلس غير بعيد والرجل يحتسى فنجانا من القهوة ويكتب خطابا. أعطى الخطاب للجرسون وقام إلى التليفون. ها هو ذا يقف قريبا جدّا منه:

ـ آلو.. حسن؟.. الدكتور موجود.

ـ ....

ـ احجز لى فى أقرب موعد.

- . . . .

- عظيم . . الساعة السادسة مساء . شكرا . .

وما كاد يرجع إلى مجلسه حتى لحق به صديق ، جالسه وهو يتساءل :

- حضرت المأتم؟

- نعم . . علمت مصادفة . .

- كلنا لها . هل أطلب النرد؟

- لا وقت!

- عشرة واحدة بجنيه ، لى أو لك .

نظر فى ساعته ، قبل التحدى ، لعبا من فورهما . ويعلق بسخرية على كل رمية زهر ، ماهر فى الحرب النفسية ، واثق بانتصاره ، فى أقل من عشر دقائق قام وهو يدس الجنيه فى جيبه ، فمضى ضاحكا والآخر يقول له :

- يا لص ، ربنا يرزقك بنشال!

قال الآخر لنفسه : «إنها دعوة مستجابة غالبا» ، يمضى الآن نحو عمارته وسط المدينة . هذه هى الفرصة . ليست مضمونة تماما ، إذا فشلت فعليه أن يرسم خطة أخرى . كلما فشلت خطة تعرضت التالية لمصاعب جديدة . ها هو ذا يغيب فى مدخل العمارة . لحق به ثم دخل المصعد وراءه . إنهما منفردان . الرجل يسأل بكرم دون أن يلتفت إليه :

- الـدور؟

- الأخيـر . .

- وأنا كذلك . .

ولكن امرأة أدركت المصعد قبل أن يتحرك . جنَّ جنون الآخر . غير أن المرأة غادرت المصعد فى الدور الثانى فاستعاد الآخر حيويته ونشاطه . هذه هى الفرصة . الاحتمالات كثيرة ، ولكن العواقب لا تهمه ألبتة . ليس فى خطته للسلامة إلا واحد فى المائة . وبحذر شديد قبض على المطواة المستكنة فى جيبه . .

غادر المصعد . لم يصادف أحدا . الظروف تخدمه فوق ما قدر . ترك باب المصعد مفتوحا عن زيق . ثم هبط مسرعا . مضى إلى حانة إيديال . شرب كثيرا ولم يتناول من الطعام إلا الخس . ونعس وحلم حلما طويلا فى وقت قصير جداً . وغادر الحانة فعبر أمام العمارة فوق الطوار الآخر ، فرأى الشرطة وجمعا لا حصر له . واصل سيره إلى فندقه بالعتبة . دخل حجرته وهو يتنهد وقد نسى الحلم تماما . . أغلق الباب ، أضاء المصباح . التفت إلى الوراء ، رأى الرجل جالسا فوق الفوتيل يرقمه بهدوء ثقيل كالموت! ندت عنه

آهة دامية، تراجع حتى التصق ظهره بالحائط، تعلق بالفرار ولكنه لم يتحرك، وتسمر فى مكانه وبال على نفسه، إنه حقيقة ما يرى، هو هو الرجل. القرطاس بيد والكيس بالأخرى. . الموت يطل من صورة حية. . يحدق فيه بعينين جامدتين عالمتين بكل شىء. شعر بغثيان ويأس، وقال إنه الشعر أو الجنون. وأمره بالاستسلام دون أن يتفوه بكلمة، يخاطبه بلغة جديدة وواضحة ونافذة وغير مسموعة. كيف ومتى جاء بهذه السرعة؟ وما معنى تجمهر الشرطة والناس أمام مدخل العمارة؟ كم عاما مضت منذ ارتكب جريمته؟ كم عاما لبث بالحانة؟ وكلما مر وقت تأكد له وجود الرجل بثقله وسطوته غير المحدودة. وشىء حثه على أن يدس يده فى جيبه. فعثر على المطواة التى تركها منغرزة فى قلب الرجل، فأدرك أن هذا العالم يخضع لقوانين كثيرة لا لقانون واحد.

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. تلقى أوامر سرية فتهيأ فى خنوع لتنفيذها بدقة وطاعة عمياء. قام الرجل ببطء. سار بجلال نحو الباب. فتح هو الباب ومشى بين يديه صامتا مذعنا. أراد أن يصرخ، ولكن الصوت تلاشى فى حنجرته. هبط السلم والرجل يتبعه والتقى فى طريقه بفراش، بمدير الفندق، بموظف الاستقبال، ولكن أحدا لم يعره التفاتا، لم تسترع المعجزة انتباه أحد، لم تثر دهشة ولا اهتماما!

أمام الفندق وقف حنطور بلا حصان. اتجه الرجل نحو المقعد وجلس عليه بهدوء. أما هو فاحتل مكان الحصان وتأبط العريشين، لم ينظر أحد من المارة لما يحدث، لم يتجمهر أحد. كل فرد منشغل بشىء محسوس أو بشىء لا يرى. أكثر من ذلك ترنم أحد السابلة شاديا:

ـ أهل الهوى يا ليل.

وفرقع السوط فراح يجر الحنطور. مضى فى رشاقة وهدوء واستسلام. ورأى جانبى الطريق، ولكنه لم ير ما يمتد أمامه، فغاص فى مجهول. فى خط مستقيم يتقدم أو ينعطف متلقيا توجيهاته من جذبات اللجام. إلى أين يسوقه؟ ماذا يضمره له؟ لا يدرى. ولا يبالى. يمضى بلا توقف، يبول ويتغوط بلا توقف. يصهل أحيانا ويرفع رأسه، يلمس لجامه بلسانه الجاف، تتتابع إيقاعات حافره فوق الأسفلت. إيقاع رتيب ينذر بمسيرة لا نهاية لها.

الحــــوادث المثيــرة

١

سأذكر ما حييت حوادث حى الخليفة المثيرة المفزعة، الحق أنها لم تكن كلها مفزعة، فمنها حكايات تناقلها الناس عن هبات مجهولة من النقود تتسلل بليل إلى بيوت الفقراء، ولكن منها أيضا حالات التسمم بالجملة، والحرائق، وأكثر من ذلك تكرارها على وتيرة واحدة مما أشار إلى فاعل واحد. وبثثنا العيون والحراس. وقمنا بدوريات ليلية منتظمة. وقلت لرئيسى:

- المجرم مجنون ولا شك.

فقال لى بحدة:

- المهم أن نقبض عليه.

وتقضت أيام البحث وأنا فى غاية التعاسة، فلا نتيجة ولا أثر ولا توقف للحوادث، حتى جاءنا خطاب غفل من الإمضاء. به سطر واحد:

- «مجرم حوادث الخليفة هو مكرم عبدالقيوم المقيم بالشقة ٣ بعمارة الفردوس».

فقررنا بلا تردد مراقبته، ولكن سرعان ما انكشف لنا أنه أخلى شقته منذ يومين، وبادرت إلى التحرى عنه فى العمارة. فقابلت مالكها وهو ساكن بها أيضا، وقلت له:

- أريد ما عندك من معلومات عن مكرم عبد القيوم الذى كان يسكن الشقة رقم ٣.

فأجاب الرجل:

- لقد أخلاها منذ يومين.

- أعرف ذلك، ولكن إلى أين انتقل؟

- لا علم لى بذلك.

- لعلك تعرف محل نقل الأثاث الذى حمل أثاثه؟

- إنها شقة مفروشة، وقد حمل حقائبه فى تاكسى ومضى..

- أتعرف التاكسى أو سائقه؟

- كــلا.

ـ ما عمره؟

ـ يصعب تحديده لقوته وصحته، محتمل أن يكون فى الثلاثين أو فى الأربعين . .

ـ وما عمله؟

ـ من الأعيان، ولكنه كان موفور النشاط، يغادر العمارة فى الصباح الباكر، ويرجع فى أول الليل، ولكنى لم أتابع خط سيره إلا كلما اتفق لى ذلك . .

ـ وأسرته؟

ـ إنه وحيد، لم يزره أحد فيما أعلم . .

ـ معاملته؟

ـ من وجهة نظرى فى غاية الكمال، يؤدى الأجرة ـ مائتى جنيه ـ فى أول يوم للشهر، ولم أجد منه متاعب على الإطلاق .

ـ وسلوكه الشخصى؟

ـ لا غبار عليه فيما أعلم، إنه يحترم نفسه بكل معانى الكلمة . .

ـ ألم تعرفه عن قرب؟

ـ كلا، مرة عند تحرير العقد، ومرة عند فسخه .

ـ عندك فكرة عن حالته المالية؟

ـ كلا، ولكنه وجيه المنظر، ثم إنه يدفع إيجارا لسكنه فقط مائتى جنيه . .

ـ ألم يترك فى نفسك انطباعا بالشذوذ أو الإجرام؟

ـ إنه أبعد ما يكون عن ذلك . .

ـ أعطنى فكرة عن منظره؟

ـ طوله فارع، ضخم، قوى، قمحى اللون، ذو قسمات واضحة وقوية وبارزة، أنيق جدًا . .

ـ له علامة مميزة؟

ـ رغم سمرته فهو ذهبى الشعر والشارب .

ـ كيف أجر الشقة؟

ـ بوساطة السمسار عزوز بأول شارعنا .

٢

لم أجد فى أقوال صاحب العمارة أى إشارة ضوئية، فقررت أن أثنى بالبواب. وكان كالمألوف نوبيا ولكنه كان طاعنا فى السن. قلت:

ـ أود أن أتحدث عن مكرم عبد القيوم..

فقال بحرارة:

ـ ربنا يحفظه!

ـ إنك تحبه فيما يبدو؟

ـ كيف لا، إنه أطيب خلق الله.

وسألته أول ما سألته عن التاكسى الذى حمل حقائبه فأجاب:

ـ وجه السائق غير غريب عنى.

فدونت ذلك فى مذكرة خاصة، ثم تساءلت:

ـ قلت إنه أطيب خلق الله؟

ـ أجل. ما كلفنى مرة بعمل إلا نفحنى مكافأة، غير المواسم والأعياد، دائما بسام، يحيينى فى الذهاب وفى الإياب، يسأل عن حالى، لا أنسى مساعدته لى عندما كنت أقوم بتجهيز ابنتى، إنه حلم المحروم، ودواء الجريح..

ـ أعتقد أنه أخبرك عن المكان الذى انتقل إليه؟

ـ كلا.. ولكنه وكد لى أنه سيمر بى كثيرا..

ـ يعنى زيارة خاصة لك؟

ـ ربما عند زيارته للحى لدى سبب من الأسباب..

ـ ترى لماذا غير مسكنه؟

ـ عندما سألته عن ذلك أجاب بأنه يحب التنقل..

ـ ماذا تعرف عن صفاته؟

ـ إنه قوى ومهيب وجميل، وهو أيضا رقيق العواطف لدرجة لا تتناسب مع قوة مظهره، سمع مرة صراخا على ميت فى عمارتنا فاغرورقت عيناه بالدموع، وكان يهبنى نقودا لأبتاع خبزا للقطط الضالة التى تحوم حول العمارة، وبلغت به الرقة أنه كان يرمى بحبات من الفول السودانى عند بئر السلم غذاء لفأر كان يلمحه كثيرا..

- جميل هذا كله، ولكنك لا شك فى أنك تعرف أشياء لا يعرفها أحد عن سلوكه الشخصى، فرجل وحيد لا يستأجر شقة مفروشة لوجه الله . .
- لم يدخل شقته أحد قط، هذا الجانب لا يمكن أن يفوتنى . .
- ولا أصحاب ولا أقارب؟
- ولا أصحاب ولا أقارب . .
- وكان يغيب طيلة النهار فى الخارج؟
- فى بعض الأحيان كان يتغدى فى شقته، فيطلب غداءه من أحد المطاعم . .
- ألم يلفت نظرك شىء داخل شقته؟
- لم أدخلها قط .
- ماذا تعرف عن مواعيد رجوعه ليلا؟
- كان يرجع عادة حوالى العاشرة، وقد يتأخر به السهر إلى منتصف الليل أو حتى مطلع الفجر . .
- كيف ترى لو ثبت لك يوما أن ذلك الرجل سمم أبرياء وأشعل حرائق؟

فأخذ الرجل وقال :

- يكون نذيرا بقيام القيامة!

٣

جمعنا سائقى التاكسى العاملين فى الحى، عرضناهم على البواب، فتعرف على أحدهم ويدعى يونس باعتباره صاحب التاكسى الذى حمل حقائب مكرم عبد القيوم، ولم يجد السائق صعوبة فى تذكر الرجل، وقال إنه أوصله إلى سميراميس . وانطلقت إلى الفندق مصحوبا ببعض المعاونين . وهناك توكد لى أن الرجل بات فى الفندق ليلة واحدة ثم غادره فى الصباح الباكر، رجعت أسأل عن هوية التاكسى الذى حمله، لكن الشيال وكد لى أنه نقل الحقائب إلى سيارة مرسيدس ملاكى بيضاء، وأن البك الضخم الأسمر ذا الشعر الذهبى ساقها بنفسه، أما رقم السيارة فلم يلحظه أحد .

أهو صاحب السيارة؟ لمَ لَمْ يستعملها طوال إقامته فى العمارة؟ . . هل امتلكها أمس فقط؟ . . كلما أحدق الغَموض بتصرفاته رسخت تهمة الاتهام فى نفسى . . فتوثبت غرائز البحث والتحدى فى أعماقى .

٤

قصدت بعد ذلك جيرانه المقيمين معه فى نفس الطابق. أولهم مهندس معمارى يدعى رءوف، وما سمعنى أردد اسمه (مكرم عبد القيوم) حتى تقبض وجهه تقززا، فقلت:

- يبدو أنك لا تستلطفه؟

- عليه اللعنة! رجل غريب، منطو على نفسه لحد الشذوذ، ولا أشك فى أنه يمقت البشر..

- للبواب رأى آخر فيه.

- لا تأخذ بأقوال البواب فإن شلنا يدير رأسه، لا أنسى مرة تلاقينا فيها فى مدخل العمارة، بدأته بتحية فرد علىَّ بإيماءة متكبرة هبط لها قلبى وغلى دمى، إنه وقح وقليل الأدب.

- جديد علىّ ما تقول..

- أتحدى أن تعثر على ساكن واحد من سكان العمارة قد تبادل معه تحية، إنه متعجرف بغيض. أما قسوته..

- تقول قسوته؟

- حكت لى زوجتى أنها رأته يركل قطة بحذائه، صادفته أمام باب شقته - فارتطمت بعنف فى الجدار ثم سقطت بين الحياة والموت!

- عجيب هذا..

- فى مأتم العمارة يتجاهل الواجب الإنسانى بلا مبالاة، يمر أمام السرادق بلا اكترث ولا حياء.

- وسلوكه الشخصى؟.. أعنى الشقة المفروشة؟

- لا.. لا. لم يزره أحد فيما نعلم، أمثاله يعانون نقصا خفيا يدارونه بالعجرفة وأبهة المظهر..

- ولكنه ثرى فيما يبدو؟

- لم لا؟ ما أكثر الأثرياء الأوغاد!

٥

ليست شبهة ولكنها تهمة حقيقية . والبواب صادق كما أن المهندس رءوف صادق . وتوكد ظنونى معرفتى الوثيقة لتاريخ الجريمة . من غير مكرم عبد القيوم يرمى بالنقود إلى شرفات الفقراء ويدس السم فى الشوكولاتة للأبرياء؟ أليس هو الذى يهب النقود لتغذية القطط الضالة ثم يركل واحدة منها حتى الموت؟ !

وذهبت إلى الجار الثانى ، مدرس لغة عربية ، يدعى عبد الرحمن . قال :

ـ الرجل وحيد حقّا ولكنه ليس متعجرفا ، والمسألة أن المهندس رءوف كرهه من رد تحيته بجفاء ، ولعله كان وقتها مكدر البال . .

ـ فماذا تراه أنت؟

ـ أشهد له بالتقوى ، طالما تقابلنا فى الجامع عند صلاة الجمعة . .

ـ حقّا؟

ـ وماشيته مرة عقب الصلاة فوجدته لطيفا ، دعانى إلى الغداء فى مطعم الكورسال ، وألح علىّ فلم أجد بدّا من الاستجابة ، وأعلن لى عن حبه التراث ، ورغب فى الاستعانة بى فى الاستزادة منه . .

ـ لعله لم يتعلم؟

ـ كلا . . لم يكن متبحرا فى التراث . . ولكنه تخرج فى الجامعة بكلية الحقوق ، ودرس فى السربون القانون والتاريخ . .

ـ لعلك الوحيد الذى خالطه؟

ـ لعلى ، كنا نتقابل فى مشرب مينا هاوس ، وهناك وضح لى أنه كثير الأصحاب ، مصريين وأجانب ، وكان يدعى إلى التليفون مرات عديدة حتى خُيّل إلىّ أنه من رجال الأعمال . .

ـ ألم يخطر لك أن تسأله عن عمله؟

ـ مرة سألته بلباقة ما يفعل بوقته ، فأجاب بأنه يحب أشياء لا حصر لها ولكنه غير ملتزم بعمل محدد ، بمعنى آخر هو من الأعيان . .

ـ ما مصدر ثروته؟

ـ أرض . أسهم وسندات وهلم جرا . . ولكن ميزته الأولى فى نظرى أنه واسع

الاطلاع . . وقد طالبته مرة بأن يؤلف فى التاريخ، فابتسم وسألنى : «تصدق حقًا أنه يوجد شىء اسمه تاريخ؟» فاعتبرت تساؤله دعابة، ولكنه استدرك قائلا : «يمكن الاستغناء عن التاريخ ببابى المديح والهجاء فى الشعر».

- طبعا لم تعرف لماذا تجنب الزواج؟

- مرة شكوت إليه تمرد أحد أبنائى، فقال لى بأسى لم ألمسه فيه من قبل : «إن تمرد ابن خليق بأن يشكل مأساة بلا نهاية» . . ولرنين الأسى فى نبرته شىء قال لى إنه ذلك الابن أو إنه الأب المبتلى، وبشىء من الدهاء قلت له : «لقد أرحت نفسك من ذلك كله» فنظر إلىَّ وابتسم . . ولكنه لم يشف غليلى . .

- لمَ لَمْ تستوضح تلك النقطة؟

- كَنت أعاشره وأهابه، وأخشى أن أثقل عليه فأخسره . .

- طبعا أخبرك بنية ذهابه؟

- أبدا . . فوجئت برحيله . . لكننى حتما سألقاه يوم الخميس فى مينا هاوس . .

- لا أظن، ومع ذلك سنرى . .

- لماذا قلت لا أظن؟

- ألا تدرى أن ثمة شبهة فى أنه مرتكب حوادث حيِّنا المثيرة؟

فاتسعت عينا الرجل فى ذهول وقال غير مصدق بل محتجا :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

٦

تجهم الغموض فانقلب ظلاما، ولكن شعورى - شعور الخبرة والسنين - صار يقينا أو كاد. وأوشكت على الاكتفاء بما استخلصت من معلومات لأسرع فى المطاردة، ولكنى لم أجد بأسا من لقاء الجار الثالث - الملاصق بابه لباب مكرم عبد القيوم - وهو مفتش الضرائب بكر الهمذانى. ما إن سمع اسمه حتى هتف :

- المجنون!

- مجنون؟!

- طبعا، طالما بلغنى صوته وهو يدوى كالطبل فى صمت الليل، ترى أيتحدث فى التليفون؟ . . يحدث نفسه؟ . . يتعارك مع خيال؟ ولا عزيف الريح وجعجعة الرعد، وكان هنالك ماهو أدعى إلى الدهشة . .

- حقّـــا؟
- كان يغنى ويلعب بأوتار العود!
- شىء جديد تماما . . !
- الحق أن صوته قوى وجميل ، ولكنه يغنى أحيانا أغنيات فى غاية الوقار مثل : «ياما أنت واحشنى» أو يغنى أغنيات فى غاية الابتذال مثل : «أنا أبله كنت هبلة» أو تصور ذلك الرجل الضخم الوقور وهو يغنى : «يوم ما عضّتنى العضّة» . . ولكنه رجل عربيد .

كنت مرة راجعا من سهرة مسرحية ، فرأيته خارجا من حانة فلاديمير وهو يترنح من شدة السُّكر . ويقول بلسان ملعثم : «أنا جدع» .

- عربيد؟
- ما أعجب هذا!
- بل يوجد ما هو أعجب ، رجعت مرة فى سهرة فرأيته يسبقنى بخطوات ، دخل شقته وملت نحو شقتى ، ولسبب ما وجدنا شراعة بابه مفتوحة ، لاحت منى نظرة فرأيت فى نهاية الدهليز حجرة مضيئة ، ولعلها حجرة جلوس ، فتسمرت فى مكانى لغرابة ما رأيت .
- رأيت خليطا من عجائب متنافرة ، على الجدار المواجه لى ثبتت أقنعة غريبة ، جميلة وبشعة ورءوس حيوانات محنطة ، وأسلحة من مختلف العصور ، وأدوات موسيقية ، وفى وسط الحجرة ما يشبه المعمل الكيمياوى . . بل معمل كيمياوى بالفعل . .
- معمل كيمياوى؟!
- أجل . . مائدة طويلة صفت فوقها أوعية زجاجية مليئة بسوائل مختلفة الألوان ، وأنابيب طويلة مركبة على قوائم معدنية ، وبوتقات ، ومولدات الطاقة . .
- مدهش . . مدهش . .
- ذهبت إلى شقتى ذاهلا . أيقظت زوجتى . . أخبرتها بما رأيت . اتهمتنى بالسكر ، تحديتها أن تخرج معى لترى بنفسها . . كان منظرا مذهلا . .
- ألم تتبادل معه تحية أو كلاما؟
- أبدا . . أصارحك بأننى كنت أخافه ، وقد تشهدت حين سمعت برحيله . .

٧

فى اليوم نفسه ذهبت إلى السمسار، لم أكن فى حاجة إلى مزيد من المعلومات عن شخصية «المتهم» ولكنى أملت أن أجد عنده خيطا يوصلنى إليه. ووجدته متذكرا تماما للمعاملة التى جرت بينهما رغم انقضاء ما يقارب العام عليها. بل إنه قال:

ـ ذلك يوم لا يمكن أن ينسى!

ـ لماذا؟

ـ تمت المساومة فى دقيقة، بل لم تكن ثمة مساومة على الإطلاق، وكان أكرم مما يتصور العقل، ولكنى اكتشفت فقد حافظة نقودى فى ذلك اليوم أيضا، ولذلك فهو لا يمكن أن ينسى..

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ سلمنى النقود فوضعتها على المكتب ثم انصرف، شغلت دقائق بمكالمة تليفونية، ثم تناولت النقود لأودعها الحافظة فلم أجد للحافظة أثرا..

ـ ماذا دار بخلدك؟

ـ كانت الحافظة معى، لم يدخل دكانى إلا مكرم عبد القيوم ومساح الأحذية، وفى الحال شككت فى مساح الأحذية، استدعيته، استجوبته، عنفت به حتى صرخ، ولكنه أقسم بأغلظ الأيمان وبكى..

ـ طبعا لم تشك فى الآخر؟

ـ كلا، الحق كانت تساورنى شكوك أحيانا ولكنها كانت تعز على التصديق، وقد حرقنى فقد أكثر من مائتى جنيه، ولكن كيف أوجه تهمة إلى رجل مثله بدا لى أنه من أصحاب النفوذ بلا أدنى شك؟ وما جدوى الاتهام إلا أن يعرضنى لبطشه؟!

ـ وسلمت أمرك لله؟

ـ كما يحصل فى أغلب حوادث النشل، وكنت أراه أحيانا وهو ماض فى الصباح فأتبعه عينى بحيرة وأتمتم: «ربنا عزيز ذو انتقام».

٨

واجتمعت برئيسى فى مساء اليوم نفسه، وعرضت عليه التقارير التى سجلتها بعناية تامة. راح يقرأ وهو يسند رأسه إلى راحته حتى فرغ منها، ثم طالعنى بوجه متجهم وقال:

- علينا أن نستعيد الصورة، توجد حوادث مثيرة، بعض الفقراء يجدون فى شرفات منازلهم صررا مليئة بالنقود هبطت من مصدر مجهول، آخرون يجدون علب حلوى سليمة، أناس يجدون علب حلوى مسمومة مات بسببها أبرياء، اختفاء أطفال، حرائق تشب فى الحوانيت. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجىء جواب من مجهول يوجه الاتهام إلى المدعو مكرم عبد القيوم، وتتحرى أنت عن الرجل فتجيئنى بمجموعة من التناقضات تماثل فى غرابتها تناقضات الحوادث المثيرة، ما رأيك؟

قلت:

- أصبحت على يقين من أنه المجرم..
- يقين؟!
- إنه شعور داخلى..
- ما يهمنى هو الدليل القاطع أو الاعتراف..
- لا تنس يا صاحب السعادة أن الحوادث توقفت منذ رحيله.
- الفترة قصيرة جداّ ولا تعنى شيئا.
- لا تنس أننا أصبحنا مضغة للأفواه..
- سيخونه حرصه عاجلا أو آجلا.. فهو بلا شك مجنون!
- مجنون؟! محتمل. ومحتمل أيضا أن يكون عاقلا وداهية وذا أغراض خفية.

٩

اندفعت فى المطاردة بقوة متحدية، ضاعفت الدوريات والعيون، أبلغت الأوصاف إلى جميع الأقسام، ورسمت خطة شاملة للمرشدين ولأهل الخبرة بأوساط المجرمين.

لم يخف عنى أنه تحد لشخصى ومستقبلى وواجبى، وسيطر الموضوع على يقظتى ومنامى، وفكرت وفكرت ثم قررت تأجيل الاستعانة بالصحف والإذاعة.

١٠

وفيما نحن منهمكون فى المطاردة انقضت علينا صاعقة، طلعت علينا الصحف بأنباء حوادث مماثلة لما وقع فى حينا ولكن فى طنطا هذه المرة، انطلقت إلى طنطا بلا استئذان، وضعت معلوماتى تحت تصرف المسئولين هناك.

وفيما نحن نرسم خطة جديدة معتمدين أولا على الاستفادة من التجربة السابقة، طلعت الصحف بأنباء حوادث تقع فى أسيوط، وفى الحال سافرت إلى أسيوط وأنا أشعر بأن الجريمة استحالت فضيحة قومية. وهناك تلفنت إلى رئيسى أخبره بمقرى فإذا به يصيح:

ـ أين أنت؟!.. ما هذا التصرف المشين؟!

هممت بشرح الأمر ولكنه صاح بى:

ـ احضر حالا.. لقد عادت الحوادث إلى حينا!

١١

وخطر لى أن أستدعى رساما مشهورا، جمعت بينه وبين الشهود. وطالبته برسم صورة دقيقة للرجل المجهول من واقع شهاداتهم. وقلت له:

ـ لا تتركها حتى يقرروا بأنها طبق الأصل.

ونشرت الصورة فى الصحف مطالبا من يعرف صاحبها بأن يدلنا عليه، ودلنا مواطنون على أكثر من شخص، عمدة، تاجر أسماك، تاجر شنطة، بل انطبعت الصورة على مسئول فى الدولة له شأن، فاستفحلت الفضيحة حتى انقلبنا سخرية الساخرين ونادرة المعلقين.

وصاح بى رئيسى:

ـ لقد أشعلت النار فى الإدارة!

فقلت بإصرار:

ـ لا غبار على الخطة .

ـ ها قد جاءنا من لا نبحث عنه ، وغاب عنا من نبحث عنه .

ـ لعله تعمد الاختفاء أو التنكر .

ـ واضح أن الحوادث المتفشية فى جميع الأنحاء ليست من صنع رجل واحد . .

ـ لعله رئيس عصابة!

فهتف بيأس :

ـ لقد أشعلت النار فى الإدارة!

رجعت إلى حجرتى أعمى تماما من الغضب . عند الباب سمعت حوارا حادا بين الحاجب وآخر يريد الدخول لمقابلتى . قلت بحزم :

ـ لا وقت عندى الآن لأحد .

فقال الآخر بصوت جهورى متزن :

ـ أنا مكرم عبد القيوم!

١٢

تأبطت ذراعه ، دخلنا الحجرة ، وقفنا متواجهين وأنا ألهث ، تساءل بهدوء غاضب :

ـ ما معنى المنشور فى الجرائد؟

فسألته وأنا أمتحنه بعينى :

ـ لِمَ لَمْ تحضر مباشرة عقب النشر؟

ـ كنت فى البحر الأحمر بعيدا عن الجرائد وغيرها .

وفصل بيننا صمت متقد حتى عاد يتساءل :

ـ ما معنى هذه التهمة السخيفة؟

قلت بحنق :

ـ سنرى . .

وقررت إجراء التحقيق فى حجرة رئيسى وتحت إشرافه .

١٣

ـ مـاذا أقـول؟

أجـاب الرجل عن كل سـؤال فـورا وفى بسـاطة وثقـة، لـم نجـد دليـلا واحـداً يدينه، عرضناه على أهل الضحايا والمخبرين المبثوثين فى أنحاء الحى فلم يشهد أحد بأنه رآه فى ليل أو نهار. أذعنا رسالة موجهة للمجهول صاحب الرسالة أن ينورنا بمعلومات إن كانت لديه فلم يرد علينا أحـد. وهكذا غادرنا مكرم عبـد القيـوم مرفـوع الرأس وقد أصـابنى بضربة قاضية. والعجب بعد ذلك أن شعورى الباطنى باتهامه لم يتزعزع.

١٤

كـان لابد من كـبش فداء فقـررت الداخلية نقلى إلى الديوان وأحلت محلى من رأته أعظم أهلية للعمل. وتلقيت الأمر بغضب وتحد، فقدمت استقالتى معتزمـا الاشتغـال بالمحاماة، وظللت أتابع أنباء الحوادث والتحقيق وأنا مشفق من أن ينجح من حل محلى فى القبض على المجرم. إنه شعور مخجل ولكنه متوافق مع الطبيعة البشرية، وما أدرى ذات يوم إلا ومكرم عبد القيوم يقتحم علىَّ مكتبى، رمقته بدهشة، فجلس أمام مكتبى وهو يقول:

ـ جئتك لأعرض عليك أن تتولى إدارة أعمالى وقضاياى!

وكان العرض مغريا لدرجة يتعذر معها رفضه، ولكننى سألته:

ـ لم أنا بالذات ولم أعمل فى المحاماة إلا عامين؟

ـ ولكنك ذو خبرة كبيرة، ثم إننى أعد نفسى مسئولا بعض الشىء عن استقالتك..

فسألته بحـذر:

ـ نوع من الشماتة؟

فهتف بصدق:

ـ معاذ الله، ما ورائى إلا شعور طيب..

لِـمَ لا؟

هكذا أصبحت مستخدما فى دائرة الوجيه مكرم عبد القيوم!

١٥

وأشهد لقد وجدته وجيها بكل معنى الكلمة، وقورا، عالما عذب الحديث، طيب المعاشرة، كريما ودودا. وربما فتر حماسى أحيانا فأتساءل: «ألا يفاجئنى مرة بتناقض من تناقضاته؟.. ألا يحسن بى أن ألتزم جانب الحذرة». ولكنه خيب وساوسى وقرص ضميرى بإصراره على كل ما هو طيب.

وذات صباح ـ وعقب مراجعته لما عرضته عليه ـ رجع بمقعده الهزاز إلى الوراء وقال:

ـ أخيرا قيدوا القضية ضد مجهول!

فقلت بشماتة:

ـ لتكن هذه اللطمة ردا على اللطمة التى تلقيتها.

فقال بهدوء عذب:

ـ كلا.. لقد أخطأت..

ـ ولكـــن..

وسرعان ما قاطعنى قائلا:

ـ كان من الخطإ أن تركز الاتهام فىّ بسبب رسالة سخيف غفل من الإمضاء.

فقلت مدافعا:

ـ ليس بسبب الرسالة ولكن بإغراء التحريات غير العادية!

ـ وبتركيزك الاتهام فىّ تركت المجرم الحقيقى يفلت من يديك!

ـ لم يكن معقولا أن أربط بين أقوال الشهود وغرابة الحوادث.

ـ يا أستاذ! هل يخلو مخلوق من تناقضات؟ ثم ما الغرابة فى أن أطعم القطط وأن أركل قطة مريضة هاجمتنى؟.. ما العجب فى أن أتواد مع رجل.. وأجافى آخر لسوء خلقه؟.. وما الجديد فى أن أمضى وقورا حينا وأترنح من السُّكر حينا آخر؟ أيعنى هذا أن أسمم الأطفال وأشعل الحرائق؟!

ولذت بالصمت متفكرا وحذرا فى الوقت نفسه.

أما هو فواصل:

ـ بالمنطق نفسه يا عزيزى يمكن أن توجه التهمة إليك أنت.

فندت منى ضحكة وتمتمت:

ـ أنــا؟

ـ لم لا . . لقد استمرت الجرائم رغم تشديد الحراسة وبث المخبرين ، كيف اخترق المجرم سبيله فى حى ملغم؟ . . لا شك فى أنه كان مطمئنا إلى أن أحدا من رجال الأمن لن يشك فيه، عظيم . . فمن يكون هذا إن لم يكن الرئيس المكلف بالمراقبة . . أو بمعنى آخر إن لم يكن أنت؟ !

فضحكت عاليا وقلت :

ـ وحوادث طنطا؟

ـ لقد وقعت حوادث طنطا . وثبت أنك سافرت إلى طنطا ، أما أن سفرك لحق بالحوادث أو سبقها فلا نعرف عنه شيئا !

فقلت وما زلت أضحك :

ـ عظيم ، ولكن ما الدافع وراء الجرائم؟

ـ هو الدافع الكامن فى أعماق المجرم الذى أعياك البحث عنه !

ـ فى اعتقادى أنه مجنون . .

ـ وغير مستحيل أن تكون مجنونا ! !

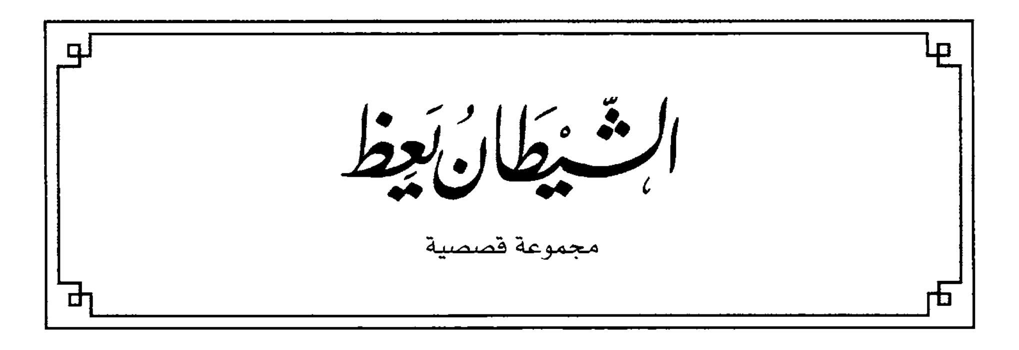
ـ هل تجد فى عملى معك شبهة جنون؟

ـ الجنون أنواع ، والمجنون آخر من يعلم . .

وضحكت متظاهرا بالاستهانة ، ولكن حديثه ساءنى ، وساءنى أكثر الجد الذى تناول به حديثه حتى خُيِّل إلىّ لحظة أنه يوجه إلىّ اتهاما حقيقيا ، بل إنه يصب اتهامه على الناس جميعا ، ثم تبسم فعاد الإشراق إلى وجهه الكبير ، وقال بنبرة جديدة :

ـ حسبنا ، ولنواصل العمل .

وقلت لنفسى يا له من رجل محير ! . . لا شك فى أن العمل فى دائرته فوز مرموق ، وأن شخصيته تتعالى عن الاتهام ، ولكن ما بال شعورى الباطنى باتهامه لا يفارقنى؟ !



المحتويـــات

الرجــل الثـــانى

١

جذبنى مقهى النجف فى سن المراهقة. كانت سنا يستهجن فيها غشيان المقاهى. الحق لم يجذبنى المقهى نفسه ولكن شدنى بقوة سحرية صاحبه موجود الدينارى الأسطورة الباقية. إنه آخر الفتوات، غير أنه بالقياس إلىّ أول الفتوات وآخرهم. ذهبت لأحظى بمشاهدته فوق أريكة الإدارة فى شيخوخته المجللة بالمهابة والقوة والجمال. اخترت مجلسا بعيداً عن مجلسه، منعنى الإكبار، وجاء بى دوما ما استقر فى قلبى من حكايات فتونته، سحرتنى أكثر نوادره الغامضة التى تضاربت حولها التفاسير. طالما شعرت وأنا أحتسى قرفته المخلوطة بالمكسرات بأننى أعيش أبهج ما فى الماضى والحاضر والمستقبل.

* * *

يحكى أن . .

يحكى أنه ألقى على أتباعه ذات يوم تحديا . عند الفجر من سهرة فى غرزة المنارة المسقوفة بالسماء . قلب عينيه فى وجوه الرجال فلم يبرح أحد مكانه . تبدت وجوههم غامضة على ضوء النجوم . تبدت وجوههم ذابلة من شدة السطول . تبدت وجوههم مخضلة بالندى . فى فصل صيف شهد له الآباء بالغلظ . قال لهم :

ـ لن ترجعوا إلى بيوتكم قبل أن تسمعوا .

تطلعوا إليه باهتمام . جاهدوا نعاس الخدر . توقعوا نبأ عن معركة . موجود الدينارى قهقه حتى سعل . قال بتؤدة أضفت على بنيانه القوى وملامحه الواضحة جدية مثيرة :

ـ إنكم تتساءلون . .

اشتعلت اللهفة ونفد الصبر ، فواصل الرجل :

ـ ما من جماعة مثلنا إلا وفيها رجل ثان ، على ذلك جرى عرف من غبر . .

ندت عن «طباع الديك» حركة عفوية داراها بسعلة مصطنعة . لم تغب عن عين الرجال ولا عين الرجل . كان أقوى الأتباع وأشجعهم وإن لم يجهر بذلك أحد . وطالما اعتقد أن المنزلة الثانية بمثابة حقه المعتبر . تساءل المعلم :

ـ ما رأيكم؟

أكثر من صوت أجاب :

ـ الرأى ما ترى يا معلم .

ـ كلكم أقوياء ، كلكم شجعان ، ولكن الفتونة الحقة لا تستند إلى القوة والشجاعة وحدهما!

عند ذلك قال طباع الديك :

ـ منك تعلمنا أيضًا مكارم الأخلاق .

فابتسم المعلم ابتسامة غامضة وقال :

ـ دعونا من الكلام ، عندى مهمة ، فمن منكم يقبل القيام بها؟

فبادروا قائلين :

ـ نحن رهن الإشارة!

وتساءل طباع الديك :

ـ ما المهمة يا معلمى؟

فقال الدينارى باسمًا :

ـ إنها سر من الأسرار .

همدت ألسنتهم . تذاكروا ما عرف عنه من غرابة الأطوار . تذكروا الغموض الذى يخالط وضوحه . حذروا بغريزتهم أن يقعوا فى شرك لا قبل لأحدهم به . وسر الدينارى بصمتهم فقال :

ـ إنها تتطلب أول ما تتطلب الطاعة العمياء!

وضح القلق فى حركات طباع الديك المتوترة ، ولكنه تجاهله قائلا :

ـ قد يحيق الهلاك بمن يتصدى لها ، لا يجوز إخفاء ذلك عنكم ، فإذا وفق فاز بالمكانة اللائقة ، وإن هلك تعهدت أهله بالعناية .

وخرج طباع الديك من صمته فقال :

ـ يا معلمى ، لقد خدمتك منذ . . .

ولكن المعلم قاطعه متسائلا :

ـ من منكم يقبل المهمة؟

من غشاء الصمت الثقيل انطلق صوت يقول :

ـ خدامك يا معلم!

تحولت الأبصار بذهول نحو شطا الحجرى . فتى جاوز العشرين بعام أو عامين . أحدث من انضم إلى العصابة . لم يشترك بعد فى معركة . قبل بناء على تزكية من طباع الديك نفسه . وجزع طباع الديك . إنه فى الحلقة الرابعة من عمره ويصغر معلمه بعام واحد . وعلى رغم سوء ظنه بالمهمة وحذره من مقالب معلمه فقد خاف أن تفلت منه فرصة العمر . لذلك هتف :

ـ لا أحد لها سواى .

فقال المعلم بهدوء :

ـ إنه شطا الحجرى .

ـ ولكنه . . .

فقاطعه المعلم :

ـ لقد سبق ، ولا حيلة لك!

غشيت الصمت كآبة . أيصير شطا الحجرى الرجل الثانى إذا لم يهلك؟ ترى ما المهمة؟ هل أنقذهم الخوف أو ضيعهم؟ أيهلك شطا أم يفوز؟ وماذا لو تكشفت المهمة عن تكليف يسير لا يشق على أحد؟ لقد تمنوا فى أعماقهم أن يتقرر الهلاك مصيرا لشطا . وتلهفوا على معرفة المهمة ، فتساءلوا :

ـ لم يعد محظوراً أن تكشف لنا عن سر المهمة يا معلم .

فقال المعلم بمرح :

ـ كل شيء مرهون بوقته .

وقــام الرجل نافضا عن عبـاءته ذرات الرماد ومضى نحو الحارة وهو يقول :

ـ تناسوا ما دار بيننا فى هذه الليلة الحارة فلا شأن لكم به !

٢

توارى المعلم عن الأعين . لزم الرجال أماكنهم من شدة الذهول . وجد شطا الحجرى نفسه فى بؤرة منصهرة بحرارة الأبصار والصيف . أراد أن يخرج من الحرج بكلمة اعتذار فقال :

ـ أعترف بأننى مازلت أحبو فى الذيل ، ولكنها إرادة الله .

فقال رجل مغلفا قوله بنبرة نذير :

ـ بل اخترت بإرادتك يا شطا !

فقال فى استسلام :

ـ إنما يجرى كل شيء بمشيئة الله .

فقال آخر بخشونة :

ـ للشيطان أيضًا دور فى رحاب الفتونة .

فتغير مزاج شطا وقال بعناد :

ـ لقد أعددت كفنى يوم انضممت إليكم .

فتلاطمت أصوات فى سخرية :

ـ عفارم . . عفارم ! الطموح مهلكة ولكنه حلم الفتوات !

ضاق شطا بصمت طباع الديك أكثر مما ضاق بسخريات الرجال . استأذن ناهضًا ثم غاص فى الظلمة .

استقبلته أمه فى بدروم عمارة الجبلى . ستهم الشهيرة بالغجرية تستيقظ عادة مع الفجر لتتهيأ ليوم عمل كادح . قال :

ـ حدث الليلة أمر عجيب .

وقص عليها ما جرى . عكس وجهها المتجعد الكالح انفعالات متضاربة ، تفكرت حتى وجمت ثم قالت :

ـ يا لك من متعجل!

فتحامى الجدل فقالت:

ـ إنك لمجنون يتحدى الجميع بلا تدبر.

فاتجه نحو منامه فوق الكنبة صامتًا فقالت:

ـ لم يبق لى من ذكر سواك، أخواتك فى بيوت أزواجهن، لعنة الله على شيطانك.

فتمتم بامتعاض:

ـ لا تتوقعين إلا الشر؟!

ـ أتحسب أن الفتونة لهو؟!

على رغم قلقه واضطرام أفكاره فقد أسلمه الإرهاق إلى نوم عميق.

٣

استيقظ شطا الحجرى عند الضحا. اجتاحته ضوضاء الحياة. ما زال الصيف يزفر نارا. استيقظت معه ذكريات الليل. لم يلق إليه المعلم بأى إرشادات. هل ينتظر حتى تجيئه إشارة؟ كلا، عليه أن يتحرك. ليتحرك حتى لا تنفرد به الأفكار. قرر أن يذهب إلى دار الدينارى. أول مرة يعبر البوابة العملاقة. اخترق فناء واسعًا. إلى اليمين مجمَّع نخلات مثقلة بالبلح الأحمر وإلى اليسار إصطبل. سمح له بالانتظار فى منظرة. طالعته فى الجدار الأوسط بسملة مذهبة تشرف على الأرائك والبساط السنجابى. حتى أذان الظهر انتظر، ثم جاء الرجل. خيل إليه أنه يرى رجلا آخر. لأول مرة يرى شعر رأسه الأسود، ولأول مرة يخطر أمامه فى جلباب فضفاض أبيض، أما رائحة المسك فهى دائمًا تنتشر منه. تربع فوق الكنبة الوسطى ثم أشار إلى الأرض قائلاً:

ـ اجلس.

فتربع على مبعدة قصيرة من موطئ قدميه، ثم قال كالمعتذر:

ـ جئت بلا دعوة.

قال ووجهه لا ينم عن شىء:

ـ لو لم تفعل لاعتبرت الأمر كأن لم يكن.

فحمد الله فى سره على أول توفيق يصيبه. وسأله الرجل:

ـ ماذا قال الرجال أمس عقب ذهابى؟

ـ اتهمونى بتجاوز الحد.

ـ هى الحقيقة بالقياس إليهم هم!

فحمد الله فى سره مرة أخرى على حين رجع المعلم يسأل:

ـ ماذا عن أمك الغجرية؟

ـ قلقة وخائفة.

ـ لو لم تقدم لاتهمتك بالجبن!

انقطع الكلام قليلا حتى قال شطا:

ـ إنى رهن إشارتك.

فمد ساقيه قائلاً:

ـ دلك ساقىَّ.

فشمر شطا عن ساعديه وراح يدلك الساقين المدمجتين بارتياح وفخار. تواصل الصمت حتى تساءل المعلم:

ـ ما الذى دفعك إلى القبول؟

فبادره شطا بحماس:

ـ أن أحظى برضاك.

ـ كاذب، أو نصف كاذب. إنه الطموح، ولكن لا فتونة بلا جنون.

لم يدر ماذا يقول. ترامت من بعد صيحات الغلمان ونداءات الباعة وحوار النساء. ثم تساءل المعلم:

ـ مستعد؟

ـ رهن الإشارة.

فقال الرجل بوضوح:

ـ اغتسل، ارتد ملابس جميلة، اعثر على أجمل بنت فى الحارة، ثم اذكرها لى!

ثقلت يداه وأوشكتا أن تتوقفا عن التدليك. ما سمعه لم يتوقعه قط. ظن المهمة مغامرة لا يطيقها إلا الأفذاذ. ما تصور أن تكون مهمة خاطبة. بل الخاطبة أشرف. لا يمكن أن تقتصر المهمة على ذلك. ما هى إلا مقدمة لاختبار الطاعة. الحذر.. الحذر من التردد. الطاعة أو الضياع. ما يعرف من قسوته مثلما يعرف من مكارمه. إنه ولا شك لم يقل كل شىء فلينتظر. لكن وجهه لا يعد بمزيد! أخيراً تساءل:

ـ أهذه هى المهمة بلا زيادة؟

قال المعلم ببرود:

ـ لا أسمح بأى سؤال .

تركه يدلك ساقيه فى صمت ، ثم سحبهما قائلا :

ـ مع السلامة .

٤

وهو يغادر الدار شعر بالندم . بل بالغضب . ربما ضرب يوما مثلا للحماقة والسخرية . الفتى الذى طمح إلى السيادة فعمل خاطبة . أو قوّاداً ذا قرنين . وسيكون نادرة أخرى إذا هرب . ولكنه وعده بالمكانة الثانية إذا نجح . وهو الوفاء إذا وعد . فكيف يشك فى جدارة العمل؟ إنه لأحمق إذا تهاون مع سوء الظن . إنها محنة حقا ولكن وراءها ما وراءها . فليصمد وليصمد وليمحق الريب .

وسألته أمه ستهم الغجرية بلهفة :

ـ خبرنى ما المهمة؟

أجل إن المعلم لم يكلفه بالكتمان ولكنه شعر بأن الأمان فى الكتمان . والكرامة أيضًا تلزمه به . فليذعه المعلم إن شاء أن يبلوه . لذلك قال :

ـ الأسف والمعذرة .

فصرخت المرأة :

ـ من يخف عن أمه سرّا فهو ابن حرام .

وهتفت أيضًا :

ـ أنت وشأنك ولتتجرَّعَنَّ الندم !

وقال لنفسه : «تقدم بلا تردد» . ذهب إلى حمام الأمير وأسلم جسده إلى المغطس . ارتدى جلبابا جديداً ولاثة منمنمة ومركوبا أخضر ومضى منور الشباب كالبدر . استحال عينين حذرتين ، تسعيان وراء الجمال حيث يكون . فى النوافذ ، عند صنبور المياه ، فى سوق الخردوات والحلى . كلما لمح حُسْنا سجله فى ذاكرته وواصل السعى . وصادف فى سعيه رجالا من العصابة يراقبون ويتساءلون . ضاعف من حذره مطمئنا إلى أنهم لم يقفوا على سره بعد . تمنى أن يحافظ المعلم على السر كما يحافظ عليه هو . تمنى أن يعثر على ضالته حتى تنجلى الحقيقة عارية . أجل ستنكشف مهمة الخاطبة عن المجد لا الندم .

وكان يستريح فى مقهى النجف عندما جلس إلى جانبه طباع الديك . انقبض صدره

ولكنه ابتسم. هو الذى زكاه عند المعلم يوم قبل. صديق أسرته الذى يعتبر ستهم الغجرية أمًا له. قدم له الشاى حبا وكرامة. ابتسم الرجل وقال:

ـ أصبح لك مظهر الوجيه لا الفتوة!

إنه يستدرجه ولكن هيهات. وتمتم الرجل:

ـ لا تستقر فى مكان!

بادله الابتسام دون أن ينبس فقال طباع الديك:

ـ لا أريد إحراجك، هذا أول ما تطالبنى به علاقتنا الطيبة.

فتمتم شطا بأسف:

ـ معذرة يا صاحب الفضل.

ـ إنى عاذرك، ومقدر لحالك، ولكن واجبى كصديق للأسرة يطالبنى بأن أحذرك.

ـ تحذرنى؟

ـ معاذ الله أن أحرضك على إفشاء سر، ولكنك حديث عهد بنا فلا تعرف فتوتنا كما أعرفه.

فقال شطا بصدق:

ـ الحارة كلها تعرفه.

ـ لعلها لا تعرف مثلى حبه الدعابة والعبث.

ارتعد قلبه ولكنه قال بقوة يغطى بها على ارتعاده:

ـ الدعابة لا العبث، إنه جاد كل الجد..

ـ لم صفح عن زميلنا الأعجر؟ ولم أصر على عقاب شعراوى القفا؟

ارتعد قلبه مرة أخرى ولكنه قال:

ـ ثمة سبب يعلمه ونجهله، إنه أبعد ما يكون عن العبث.

ـ إذا أردت الاستشهاد بالأدلة ستجد ما يؤيد جديته وستجد ما يؤيد عبثه.

ـ لا، لا تقس ما يقع فى حارتنا بما يحدث أحيانًا فى الغرزة.

ـ ولكن المغامرة التى تقدمت لها حدثت فى الغرزة.

فقال مجاهداً غيوم القلق:

ـ لكن نتيجتها ستطبق على الحارة!

ـ صدقنى يا شطا، لم لَم أقدم على المهمة على الرغم من أننى أجدر الرجال بها؟! حدثنى قلبى بأنه يهيئ للعبث مقلبا!

هز شطا رأسه نفيا واحتجاجا فقال طباع الديك :

ـ ثم إنه لا يتأثر بالعواطف، وهو قوى كما نعلم جميعًا، فمنذا يضمن وفاءه؟ بل هبك هلكت لا سمح الله فلم يعن أمك فمنذا يحاسبه؟!

لزم شطا الصمت بنظرة رافضة فنهض طباع الديك قائلا :

ـ الله معك!

فقال شطا :

ـ هيهات أن تتزعزع ثقتى به .

وأتبعه ناظريه وهو يلعنه .

٥

الوساوس والهواجس تخامره . طباع الديك لا يذكر العبث بلا دليل . أجل إنه مغرض وحاقد وخائف، ولكنه لا يهذى . على ذلك فهو يصر على جدية معلمه، على رغم غرابة ما كلف به . على رغم الغموض المتعمد من الآخر . رباه . . ما العمل لو كان يعبث به حقّا؟! ما العمل لو تبدد الجهد نظير لا شىء؟ ما العمل لو تناثرت قوائم حياته فيما يشبه المزاح؟!

وهو يحاور نفسه طالعه فجأة وجه يمرق من الملاءة السوداء كالضوء . وجه نفاذ الحلاوة بهيج الأثر . ما تمالك أن قال لنفسه وهو ينتفض بانتعاش غامر : «لعلها هى» . فى الحال تناسى وساوسه وهواجسه وحل بقلبه الظفر . لعله رآها قبل ذلك ولكنها عبرت فى غفلته بلا أثر . سرعان ما تبعها عن بعد على إيقاع تموجاتها الراقصة . حتى عطفة البرادة وحتى غيابها فى عمارة ريحان المتهالكة . هى هى ضالته المنشودة، فمن تكون؟ عليه أن يجمع المعلومات الكافية . الناجح من يحافظ على السر ويجمع المعلومات الوافية . أفعم قلبه بالإلهام والثقة . وحلم بالمكانة الرفيعة الثانية . ودعا الله أن يتم المهمة دون مساس بكرامته . ومن حظه السعيد لاحت فى النافذة، لمحها ولمحته أيضًا بنظرة خاطفة . فى العطفة كواء بلدى وبياع طعمية ولكنه تجنب سؤال الأنفس المتطفِّلة . استدرج غلاما يلعب فسأله :

ـ يا شاطر من يسكن فى الدور الثانى؟

فأجاب الولد :

ـ عم طناحى بياع الطعمية . .

آه . . ثمة شبه بين الكهل والبنت الفاتنة . رجع إلى بيته مستوصيا بالحذر . وعلى رغم ما بينه وبين أمه من جفاء سألها :

ـ هل تعرفين أسرة عم طناحى بياع الطعمية؟

فتجاهلته حتى كرر السؤال ، فسألته بدورها :

ـ لماذا تسأل؟

ـ حديث دار فى المقهى حول بنت جميلة له .

ـ زوجت له بنتين وبقيت الصغرى وداد ، صغيرة ولكنها أجمل البنات .

فقال مخفيا انفعاله :

ـ ذاك ما قيل عنها .

ـ قل لمن يتحدث : إن الطائر قد حلق فى السماء .

ـ السماء؟!

ـ ما زال الأمر سرّا ولكنى الوحيدة من غير الأسرة التى تعرف أن معلمك الدينارى خطبها منذ أسبوع!

ـ حقّا؟!

ـ حظها السعيد ، لا أهمية للسن ولا لكثرة الزوجات! ابعد إن كنت فكرت فى القرب .

إذن قد خطبها الرجل قبل أن يكلفه بالبحث عنها . ولكن هل يغير ذلك من موقعه من المهمة؟ عليه ألا يضيع وقته وأن ينسى ما سمع .

٦

قبع فى مجلسه عند قدمى المعلم وراح يدلك ساقيه . الرجل يرتاح لذلك وهو يجيده . مهما يكن من أمر العاقبة فهو اليوم ألصق الجميع به . غير أنه لا يستطيع أن يقرأ وجهه . ألا ما أكبر الفارق بينه وبين البنت ، فى العمر والحجم وكل شىء! والرجل صامت يضن بالسؤال فعليه هو أن يتكلم . قال :

ـ عثرت على البنت المنشودة يا معلم .

بعد هنيهة صمت قال الرجل :

ـ انطق .

ـ الاسم وداد ، كريمة عم طناحى ، بالدور الثانى من عمارة ريحان القديمة .

ـ ألم تفتك فرصة؟

ـ كـــلا .

ـ هل فطن أحد إلى مسعاك؟

ـ كـــلا .

ـ الكتمان فى صالحك أنت .

ـ حرصت عليه بحسن تقديرى .

ـ إنك معجب بنفسك .

فتورد وجهه الأسمر حياء ، تفاءل بالصمت ، ثم تساءل :

ـ انتهت المهمة يا معلمى؟

فقال الرجل بلا مبالاة :

ـ الآن عليك بمغازلتها!

كأنما تلقى ضربة على يافوخه . هتف :

ـ مغازلتها؟!

قال الرجل ببرود :

ـ مع السلامة .

فى الخارج لم يسمع صوتا على رغم الضوضاء ، لم ير أحدًا على رغم الزحام ، لم يلق بالا إلى متربص . المهمة تتعقد والمخاوف تتجسد والأشباح تتخايل . ها هو ذا يحمل أمرًا من معلمه بمغازلة خطيبة معلمه . وهو مطالب بإبلاغه بالنتيجة . هيهات أن تؤاتيه الشجاعة على الكذب . أهى طريقة لاختيار الرجل الثانى حقّا أم أن الأمر عبث فى عبث؟ الليل تتكاثف ظلمته وتتوارى نجومه وراء السحب .

٧

وجد نفسه بعد ذلك بين اثنتين : الهرب أو الصمود . قرر أن يصمد . ليس وراء الهرب إلا السخرية والضياع ، أما الصمود فإنه يمارس فيه رجولته وليكن بعد ذلك ما يكون . ربما انتهى به الصمود إلى شماتة الحاسدين ولكن الهرب ينذر بما هو أفظع . وكلما تعقدت الأمور وانبهم المغزى على إدراكه قال لنفسه مستهينًا :

ـ ليست السلامة بالغاية المفضلة فى هذه الدنيا .

وانطلق فى أثرها يخط بالقدم مصيره ومصيرها . تعرض لها فى نافذتها ، تبعها إلى دكان الخردوات وهى بصحبة أمها ، وهبها عينين حادتين وهى تمر أمام مقهى النجف . تطايرت نظراته الموشاة بالبسمات الخفية معلنة عن عاطفة لا وجود لها . وفى فرح شهده وكانت وداد بين المدعوات قاربت بينهما نظرة طويلة فغمز لها بعينه ملقيا بنفسه فى فم القدر . إنها الآن تعرفه تمامًا وتخمن مقصده فليتها تغضب ، ليتها تشى به عند والديها فتنقذه من المجهول ، وتنقذ نفسها . لكنها لم تغضب . بل مرحت فى دلال معلنة محاسنها كاشفة عن استجابة واضحة . قال لنفسه بحزن إنها لا تهمها الفتونة ، إنها تؤثر الحب على الجاه ، إنها حلم الشباب المثالى واأسفاه .

ومضى فى الطريق مستسلما لاغيا عقله . حتى ضمهما يومًا زحام يحدق بالحاوى . تزحزح خفية حتى استقر جنبها . ولما التفتت نحوه همس :

ـ يا جميلة .

فالتفتت عنه فى دلال مشجعة على المزيد فهمس :

ـ أقول إن جمالك . . .

ولكنها قاطعته هامسة ومعلنة استجابتها فى الوقت نفسه :

ـ الناس . . الناس !

ـ صدق من قال إن العاشق مجنون .

ـ أنت لا تعرف كل شىء .

فهمس متخطيا أشباحه :

ـ أعرف أنك مخطوبة للدينارى .

فرمقته بدهشة وإكبار وهمست :

ـ إنه سر .

ـ لكنى أعرفه . .

ـ لن تحظى بأحد يقبلك .

ـ المهم رضاك أنت .

فتساءلت متظاهرة بالتركيز على يد الحاوى وهو يلاعب الحية :

ـ أى فائدة ترجى؟

ـ لنتقابل على انفراد .

ـ أمر عسير .

ـ الشمس تقترب من المغيب، زاوية الدرمللى مكان آمن.

ـ ولكن..

ـ سأسبقك.. لا تضيعى فرصتنا الوحيدة.

ومضى نحو الميدان ثم انعطف إلى الزاوية. اضطرب خافق القلب. ثمة أمل ضعيف فى أن يستردها العقل فى آخر لحظة. أن تثوب إلى رشدها وتندم.

لكنه رآها مقبلة فى شجاعة تثير الدهشة.

٨

استغرق اللقاء الخفى دقائق معدودة فى الركن المتوارى المعتبر مأوى للمجاذيب. سألها:

ـ لديك فكرة عن الخطر الذى يتهددنا؟

فأجابت بثبات أكبر من سنها بكثير:

ـ نعم.

ـ لا سبيل أمامنا إلا الهرب إلى الأبد.

فتمتمت:

ـ ليكـــن.

وبانتهاء اللقاء الأول انعقدت سحب التعاسة فوق رأسه. وقع فى حفرة لم يقدر مدى عمقها من قبل. غزاه صدقها وشجاعتها وبراءتها. صدقته تمامًا، وهبته قلبها النابض، وضعت مصيرها بين يديه. دهمته أيضًا استجابتها غير المتوقعة. هاله الدور القذر الذى يمثله بمهارة فائقة. ألم يخش لحظات من جانب معلمه العبث؟ ها هو ذا يعبث بالطهارة والبراءة! لماذا؟ من أجل أن يعتلى الموقع الرفيع الثانى فى جماعته. أيهون عليه حقًّا أن يتم مهمته فيدفع بالبنت إلى الهاوية؟ كلا.. لم يكن يومًا من أهل ذاك المنحدر. وما أغراه بالانضمام إلى جماعة المعلم إلا استزادة من الشرف. وهيهات أن ينسى نظراتها المحبة الواثقة. ولا صوتها العذب وهى تتمتم:

ـ ليكن.

ـ هل يبيع ذلك كله من أجل مهمة غامضة كلفه بها رجل عظيم حقا ولكنه معروف

بأطواره المحيرة؟! كلا، فليقدم على ذلك وغد من الأوغاد لا رجل يهيم بالحياة السامية.

هكذا جلس عند قدمى معلمه وقد قرر أن شرفه أعلى من المهمة الغامضة.

٩

قال واعياً بإقدامه على ما هو أخطر من قبول المهمة نفسها:

ـ البنت عاقلة لا سبيل إليها!

فقال موجود الدينارى بهدوء:

ـ أنت كذاب.

تطلع إليه بذهول مؤمنا بأنه قد انتهى. السر افتضح وفاته أن يفترض ذلك. إنه لم يخنه فقط ولكنه أساء الظن أيضًا بقدرته. وانقلب أتفه من لا شيء. وراحت يداه تدلكان ساقى الرجل بآلية فى صمت ثقيل. حتى قال الرجل بجفاء:

ـ انطـــق.

فقال باستسلام:

ـ الصدق ما قلت يا معلمى.

ـ كيف غفلت عن أننى أمتحنك أنت لا هى!

فقال بأسى:

ـ إنى غبى ولكننى لم أستطع أن أكون وغدا.

ـ فلتهنأ بالشهامة والعصيان!

فقال بيأس:

ـ أعترف بأننى أخفقت فى القيام بالمهمة.

فتساءل المعلم بسخرية:

ـ ما المهمة؟

ـ ما كلفتنى به يا معلمى.

فصمت الرجل قليلا ثم قال:

ـ أقول لك يا أعمى استمر!

فتمتم شطا بذهول:

ـ أستمر؟!

ـ وأبلغنى عن كل خطوة فى حينها .

فاشتد الذهول بشطا وتساءل :

ـ أيعنى ذلك أننى ما زلت مكلفا بالمهمة؟

فندت عن يد المعلم حركة تدل على ضيقه وقال بحزم :

ـ اذهب .

١٠

إنه يغوص فى الظلمات بلا مرشد . خلا إلى نفسه فى البدروم الذى تهجره أمه طيلة النهار سعيًا وراء الرزق . تجرد من ثيابه دفعا لحر ذاك الصيف . فليفكر وليفهم . لقد أخفق فى المهمة واستحق غضب الرجل . كان عليه أن يدرك أن للمعلم عيونه أيضًا . لماذا إذن يأمره بالاستمرار عوضا عن أن يعلن فشله أو ينزل به عقابه؟ أيمنحه فرصة جديدة؟ كلا . . لا تمن نفسك بالأوهام . هل المهمة شىء آخر غير ما وضح له؟ أيريد أن يخفف من عقوبته بعد أن خسر الثمرة؟ هل يسوقه إلى العقوبة من حيث لا يدرى؟! ثمة أمرٌ يقينى وهو أنه يتعمد إلقاءه فى الحيرة . ما أعجزه عن الإدراك المطمئن! ولكن لا مفر من الاستمرار . إنه يفهم الآن مغزى تردد طباع الديك على رغم قوته وشجاعته . أما هو فما أشبهه بلاعب السيرك الذى يترصده الهلاك عند الخطإ . فليذهب إلى الموعد المرتقب . لن يخفَى شىء عن الرجل . عليه أن يهتدى إلى ما ينبغى له فعله قبل أن تتبدد حياته هباء .

* * *

وعندما أقبلت نحوه قبيل المغيب ، عندما منحته ابتسامة اللقاء ، نسى مخاوفه ، استهان بالعواقب ، محق شكوكه ، غمره رضا وسلام ، خفق قلبه بعمق ، اكتشف أنه يحبها . أجل إنه يحبها كما تحبه وأكثر . لعله أحبها من بادئ اللعبة وهو لا يدرى . وفى ظل الحب حظى باليقين . ومهما يكن من غموض معلمه أو عبثه فقد هداه إلى الحب . عليه أن يدمجه فى مصيره ويحملهما معًا . لقد محاها مرضاة لضميره وها هو ذا الحب يلحق بالضمير ويجاوزه . لا أهمية الآن للمهمة ولا للدفاع عن النفس ولا للبقاء فى الحارة . الهرب . . الهرب . . ! إنه الحقيقة الباقية . تلقاها بحرارة وسط ضوضاء المجاذيب . يوجد حتما من يراقبهما ولكنه سيلوذ بالمفاجأة .

ـ أهلا بك يا وداد .

ثم بجدية بالغة :

ـ ليس لدينا وقت نضيعه .

تساءلت بنظرة من عينيها السوداوين فقال :

ـ الآن وجب الهرب !

فاضطربت متمتمة :

ـ الآن؟ !

ـ قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد .

فتفكرت وهى تعبث بأناملها بقلق ثم تساءلت :

ـ أأنت مستعد؟

ـ معى من النقود ما يكفى فى البداية .

ـ إلى أين؟

ـ أقرب وآمن مكان ، الدرب الأحمر .

ـ لا صديق لنا فيه .

ـ جميع الدروب معادية ولكن فتوته الشبلى خير من غيره .

ـ وإذا أبى حمايتنا؟

ـ لا أظن ، سأجعل نفسى فى خدمته ، وإلا ولينا وجهة أخرى .

فوجمت كالمترددة ، فقال :

ـ لا اختيار لنا وثمة أعين ترقبنا !

تقلقلت عيناها من الخوف فقال :

ـ سنمضى من تونا وسوف تكون مفاجأة لم يتوقعها أحد ، هذه هى فرصتنا .

ـ إنى معك ، ولكن فلنؤجل التنفيذ حتى أستعد .

ـ إنها فرصتنا الوحيدة .

هكذا مضيا فى الطريق الجديد مضطربين مصممين سعيدين ، يموتان ويولدان من جديد .

١١

مضى شطا الحجرى من فوره إلى مقابلة المعلم الشبلى فى داره القديمة . صدمه الفارق الشاسع بين دارى الدينارى الباهرة وهذه الدار الهرمة ، بين هيكل معلمه المترامى وجسم هذا الرجل النحيل الذى تأهل للفتونة بخفة النمر ودهاء الثعلب .

قال شطا :

ـ جئتك مقدما الولاء وطالبًا الحماية .

سر الفتوة للجوء أحد أتباع الدينارى إليه ولكنه قال :

ـ حدثنى عما ألجأك إلى .

ولم يجد شطا بدا من الاعتراف الكامل بحكايته ليسوِّغ ما أقدم عليه من سلوك غريب . . وضحك الشبلى طويلا وقال :

ـ معلمك يحيط نفسه بالغموض ، فى الظاهر استجلابا للاهتمام وفى الحقيقة ليدارى جنونه المؤكد .

فأحنى شطا رأسه ليخفى ضيقه ولاذ بالصمت ، فقال الشبلى :

ـ لك الحماية والإقامة ، ماذا تريد أيضًا؟

ـ أن تقبلنى فى جماعتك .

فقال الفتوة بصراحة جارحة :

ـ أما هذا فلا ، لا أمان لرجل خان معلمه!

أصابت الطعنة مقتلا فقال بحرارة :

ـ أردت ألا أكون وغدا .

ـ نحن نفضل الوغد المطيع على الشهم المتمرد .

ـ لك ما تشاء وعلى الرضا بالمقدور .

ـ ألك حرفة؟

ـ كنت نجاراً قبل أن ألتحق بالجماعة .

ـ مارس حرفتك واحذر أن تلعب بذيلك .

فقال بانكسار :

ـ إنى أنشد السلامة يا معلم .

رجع شطا إلى وداد وقد خسر أشياء لا تعوض. ومن نقود الديناري المدخرة لديه تزوج واكترى حجرة وأثاثا بسيطا. استقر فى مسكن وعمل كما استقر الحزن فى أعماق نفسه. لقد اعتبر فى الدرب آية على تفوق فتوة الدرب ولكنه عومل كغريب. وأراد أن يهتك ستار الغربة فقال فى المقهى:

- كان أحد أجدادى من الدرب الأحمر.

فسأله شيخ الحارة متحديًا:

- أجئت من أجل ذلك؟

فبادره وقد فطن إلى ما وراء السؤال:

- بل جئت طلبا لحماية فتوة معروف بشهامته!

وتساءل فى نفسه ترى كم من زمن سيجرى قبل أن ينهضم مقامه ويألف ويؤلف ثم يتناسى أحزان الماضى كله؟!

وقال لوداد:

- دفعنا إلى المر ما هو أمر منه.

فقبلته قائلة:

- إنى غير نادمة.

- لقد اعترفت للشبلى بحكايتى، والآن آن لى أن أعترف لك.

وقص عليها قصة علاقته بها منذ خرج للبحث عنها حتى وقع فى حبها. وصغت وداد واجمة، وصمتت مليا، ثم قالت:

- قصة جميلة ولكنها لا تخلو من رعب.

فقال بحرارة:

- لم يبق لنا إلا أن نسعد.

ولكن حتى الليلة الأولى لم تخل من تنغيص ومن حزن. لقد حظى بالحماية ولكنه باء بسوء الظن والاتهام كما ثبت أنه غير أهل للثقة. وتساءل أناس: هل يرجع الديناري إلى المعارك غضبا لكرامته خارقا ما التزم به من تعهدات سلمية - هو والشبلى - أمام الشرطة؟! هل يثبت شطا الحجرى أنه شؤم على المكان الذى وفر له الحماية كما كان عاراً على المهد الذى ولد ونشأ فيه؟!

وانعكس ذلك كله على شطا وتسرب إلى حنايا وداد فلم تخل الليلة الأولى من شهر العسل من تنغيص ومن حزن.

١٢

في صباح اليوم التالي ترامت إليهما أنباء عما لحق بأهلهما من تحرش وتضييق في الرزق وتعرض لشتى ألوان الإهانات والقهر. في السوق أيضًا سمعت وداد اللعنات تصب على جمالها الذي يهدد الحارة والدرب. رجعت إلى مسكنها شاحبة الوجه منهزمة وهتفت بعين دامعة:

ـ أبي وأمي وأخواتي!

فتمتم شطا بنبرة حزينة:

ـ أمي وأخواتي أيضًا!

تبادلا نظرة طويلة حائرة. أفصحت النظرة عن أشياء انحبست وراء معانيهما. قالت النظرة إنهما اندفعا مع عاطفة طاغية دون تفكير في العواقب. الحق إنهما لم يشعرا بصفاء السعادة إلا في رحاب الاندفاعة المذهلة. الآن يعترضهما جدار سميك من الحقائق المرة بأنيابها الحادة. وكالغريق الذي يتعلق بقشة قال شطا:

ـ وراءنا طريق مسدود، وعلينا أن نستخلص من القمامة جوهرة السعادة المفقودة..

فتأوهت قائلة:

ـ اللعنات تطاردني في الطريق.

ـ علينا أن نجعل من الحاضر ماضيًا.

فنكست وجهها صامتة فرجع يقول:

ـ فعلنا ما هو صواب ومشرف.

ـ ولكننا نسينا العواقب.. دعنا نبحث عن رزقنا في مكان آخر.

ـ لن يخفف ذلك البلاء عن أهلنا.

ـ والعمل؟

ـ لا مفر من مواصلة الحياة.

ـ لكنها مليئة بالمرارة.

فقال بضيق:

ـ لا مفر ولا حيلة.

١٣

فى مساء اليوم الثالث استبقاه الشيخ ضرغام إمام الزاوية عقب صلاة العشاء وقال له :

ـ عندى رسالة إليك من الشيخ عقلة إمام حارتكم .

أصغى شطا بفتور وتشاؤم فقال الشيخ :

ـ إنه يخبرك بأن ما يعانيه أهلك وأهل زوجك فوق ما يحتمل البشر .

فتقبض وجه شطا وهو يقول :

ـ الحزن يمزق قلبى .

ـ أيكفى ذلك؟ الناس هنا يتساءلون كيف تنعمان بالحب على حين يؤدى أهلكما عنكما ضريبة العذاب؟

ـ أهل الدرب هنا يكرهوننا يا مولاى .

ـ إنهم معذورون .

فقال شطا متنهداً :

ـ من الأوفق أن نذهب .

ـ إلى أين؟

ـ إلى أى مكان .

ـ والمعذبون وراءكما؟

فقال شطا باستياء :

ـ كأنما تدعونا إلى الموت!

ـ إنى أخاطب ضميرك .

ـ ضميرى هو ما ساقنا إلى هنا ، والمسألة أننا ضحية عبث .

ـ عبث؟!

ـ أجل . . عبث لا معنى له .

ـ ولكن . . انظر . . ما من فعل إلا وله سببه وله هدفه أيضًا .

ـ لقد خدعت فكلفت بمهمة عابثة .

ـ ألم تكن تطمح إلى أن تكون فتوة حارتكم ذات يوم؟

ـ أيعنى ذلك أن أكون ألعوبة فى يد الغير؟

ـ من أجبرك؟

ـ عظيم، لقد اخترت بعد ذلك أن أفعل ما رأيته صوابا.

ـ وها هو ذا يتكشف عن أخطاء، فمنذا يصلحها؟

ـ وإذا سرت إلى الهلاك بقدمى فهل تدافع عنى أنت؟

فقال الشيخ ببرود:

ـ الهلاك نهاية كل حى ولكن يوجد الخطأ كما يوجد الصواب أيضًا.

شكره بجفاء وقام ماضيًا نحو مسكنه. شعر بأنه يمضى إليه كارها فتعجب من ذلك غاية العجب.

١٤

وجد فى الحجرة غَشاوة صفراء ـ مشبعة بحرارة الصيف ـ لا تستطاب فيها لقمة ولا يخفق قلب بالحب.

تبادلا النظرات فى صمت مشحون بالكآبة. أعاد على مسمعها حديث الشيخ. وتبادلا النظر أيضًا. كأنما تقول له «أنت السبب». إنهما تعيسان وما بينهما يتدهور كلبنات البنيان الآيل للسقوط. تنهد قائلا:

ـ الحياة لا تطاق.

فأمنت قائلة:

ـ هى كذلك.

اعتراف ينذر بالمأساة. تساءل كمن يتحسس ضرسًا مريضًا:

ـ هل نهجر الدرب ونعيش بلا مبالاة؟

ـ تقول ذلك بلسانك لا بقلبك.

فتساءل متحديًا:

ـ ما عسى أن نفعل؟

ـ أرشدنى فإنك أنت الرجل.

استشف فى قولها سخرية أثارت غضبه فقال غاضبًا:

ـ ما من شقاء إلا وراءه امرأة .

ـ فليسامحك الله ، ولا تنس أنك بدأت بخداعى .

ـ ستصبين الأخطاء فوق رأسى .

ـ كنت القائد وكنت التابعة .

ـ هذا هو الظاهر . . اللعنة!

فهتفت محتجة :

ـ ما دمت قد أحببت فإنى أستحق أكثر من ذلك .

ـ ما أعجب أن نذكر الحب فى مثل حالنا .

ـ لك علىّ ألا أذكره .

وندم على ما فرط منه . ما جدوى الغضب؟ وكبح جماح نفسه قائلاً وهو يجفف عرقه :

ـ نحن نهرب فى الغضب من مواجهة أنفسنا .

ـ طيب أن تذكر نفسك بذلك .

فقال كالمعتذر :

ـ وداد ، إنك امرأة ناضجة على رغم صغر سنك ، لك مزايا عظيمة ، الفتونة لم تخلب لبك فأخلصت لنداء قلبك ، تحديت الحارة وهربت معى ، ناضجة ومحترمة ، عظيم ، اقترحى على .

فقالت متأثرة بندمه :

ـ اقترح أنت .

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ الشك يمزق قلبى ، أأنا ضحية عبث؟ أم العبث من خلق تعاستى؟ فى مثل حالى هذه لا يحسن بى أن أتخذ قرارًا!

ـ تستطيع أن تتخذ قرارًا فى جميع الأحوال .

فتنهد قائلاً :

ـ سأحمل الشيخ ضرغام رسالة إلى معلمى القديم موجود الدينارى أسأله عن شروطه لكى يعفو عنا .

فصمتت غير قليل ثم تمتمت :

ـ افعل ، لا حيلة لنا ، لا أتوقع خيرًا .

١٥

جاءها بالرد فى مساء اليوم التالى أو اليوم الرابع فى مقامها الجديد. قال لها بوجه ناطق بحيرته:

ـ كما توقعت.

فقالت بأسى:

ـ لم أتوقع خيرًا.

ـ إنه أفظع من ذلك. لقد قال للرسول: «قل للأعمى أن يستمر»!

فانتقلت الحيرة إلى وجه وداد وغمغمت:

ـ أن تستمر؟!

ـ هذا ما ردده فى آخر لقاء لى معه.

ـ تستمر فى ماذا؟

ـ لم يزد عما قلت ولم ينقص.

ـ أهذا هو شرطه ليعفو عنا؟

ـ لم يجر للعفو ذكر فى جوابه.

ـ لا شك فى أنك تفهمه خيرًا منى.

ـ إنه يتعمد إبقائى فى الحيرة حتى أجن!

ـ ليته يقنع بذلك ويعفو عن أهلنا.

فضحك ضحكة جنونية وقال:

ـ لن يكف يده عنهم قبل أن أصدع بأمره وأستمر.

ـ إذن فعليك أن تستمر.

ـ فى مـــاذا؟

ـ لم لا تستوضحه؟

ـ فعل الرسول ولكنه لم يرد، الشيخ ضرغام نفسه قال عنه إنه يتعذر التفاهم معه بيد أنه نصحنى بأن أفعل ما يمليه علىّ ضميرى.

ـ رجعنا إلى ما قبل السؤال.

ـ توهمت مرة أنه يعنى أن أستمر فى المهمة!
ـ ولكنك أخفقت من أول خطوة.
ـ لا أستطيع أن أحكم لأننى لم أطلع على كل ما يدور فى رأسه.
فتساءلت نافدة الصبر:
ـ أهلنا هل ينتظرون حتى نحل هذه الألغاز؟
فقال متجاهلا مقاطعتها العصبية:
ـ توهمت مرة أخرى أنه يدعونى إلى إصلاح الخطإ.
ـ هل يقبل الحل الذى ترتئيه؟
ـ لا أدرى ألبتة!
فهتفت:
ـ ثمة مهمة عاجلة وهى أن نرفع العذاب عن أهلنا وأن نبعد عن هذا الجو المعادى لنا.
ـ هذا يعنى أن نذهب.
ـ بل يعنى أن نرجع إلى الحارة.
ـ لا يمكن أن نرجع ونحن زوجان وإلا عد ذلك تحديًا له.
ـ يجب أن نرجع.
قال بأسى:
ـ وداد، إنك تفكرين فى التخلى عنى.
فشهقت بالبكاء ولم تدر ما تقول، فقال:
ـ هبنا انفصلنا فهل يعفو عنا؟
ـ ثمة أمر مؤكد وهو أنه سيكف عن أهلنا وسننجو من هذا الدرب البغيض.
فتمتم كالمتردد:
ـ من يدرى؟
فقالت بوضوح:
ـ إنى راجعة..
ـ يلزمنا مزيد من التفكير.
ـ نحن نزيدهم عذابا، ونتعذب أيضًا، فلنقدم ولنكل أمرنا إلى الله.

١٦

عليه أن يستأذن المعلم الشبلى صاحب الفضل والحماية. إنه حريص على النزاهة بقدر ما هو متهم بالخيانة. شعر مرة أخرى بالفارق الكبير بين الدارين، دار الشبلى ودار الدينارى. هنا فناء واسع ولكنه موحش ولا زرع فيه والإصطبل تفوح منه روائح أليمة. وتجرى الأبراص بين عمد الأسقف البارزة. الشبلى نفسه لا ينعم جسده بالنظافة إلا حين انطلاقه إلى المقهى. أجل إنه ـ بخلاف الدينارى ـ واضح، ولكنه وضوح الابتذال والتفاهة. والحق أنه على رغم كل ما كان لم يحب الشبلى ولم يبغض الدينارى. وقد مهد لمطلبه قائلاً:

ـ لن أنسى فضلك ولا ما وجدته فى دربك من أمن.

فقال المعلم ببرود:

ـ لعله يثمر معك.

فقال متصبراً على اللطمة:

ـ لن أنسى فضلك أبدًا.

ـ ماذا تريد؟.. أراهن على أنك لم تحضر للسؤال عن صحتى!

ـ صحتك دائمًا عين المراد، المسألة أننا لم نعد نطيق البقاء مع ما بلغنا عن انتقام الدينارى من أهلنا.

فتساءل الرجل فى سخرية:

ـ أجئت تطالبنى بحماية أهلكم؟!

ـ ما إلى هذا قصدت، ولكننا قررنا الرجوع إلى حارتنا وليفعل الله ما يشاء.

ـ هل ترجع بخطيبة معلمك وهى على ذمتك؟

ـ سيكون الطلاق ضمن ما نقدّم من تضحية.

فتهلل وجه الرجل وقال:

ـ هو الصواب ولا لوم عليك.

ـ لذلك جئتك مستأذنًا فى العودة.

ـ لك ما تشاء، ولكن يجب أن يتم الطلاق هنا!

ـ لكن حدوثه فى الحارة خير لنا.

فقال بإصرار :

ـ أرى أن يتم هنا .

فتساءل شطا في ارتباك :

ـ وما وجه الحكمة فى ذلك؟

ـ لترجع زوجتك إذا رجعت بمشيئتها لا بحكم كونها زوجتك .

ـ ولكنها صاحبة الاقتراح .

ـ ولو ، قد تغير رأيها وتؤثر البقاء وحدها!

قالها بوضوح غليظ فأدرك شطا من فوره أن الرجل يريدها لنفسه! فقال بقلق :

ـ هيهات أن أنال العفو عن الأهل إذا رجعت وحدى .

فقال بقحة ونبرة منذرة :

ـ لا يهمنى ذلك!

فقال متوسلاً :

ـ معلمى . . .

ولكنه قاطعه قائلاً بخشونة :

ـ لقد قدمت لك خدمة لا توزن بثمن وجاءت نوبتك لترد إلىّ بعض الجميل .

تردد شطا فواصل الرجل غاضبًا :

ـ اذهب وطلق!

١٧

اهتز عودها الرشيق من الغضب وهتفت :

ـ لن يكون هذا أبدًا .

فرمقها شطا بحزن ويأس مدركًا عمق المأزق الذى وقع فيه فهتفت :

ـ فلنهرب!

فقال بذهول :

ـ هيهات أن يتيسر لنا ذلك .

فحدجته بنظرة غاضبة وقالت :

ـ لقد أخطأت بذهابك إليه .

ـ فعلت ما يقتضيه الواجب .

ـ دائمًا يقودك تصرفك إلى مشكلات لا حل لها .

ـ إنى أفعل ما يمليه علىّ ضميرى !

فقالت بحنق :

ـ لا شك فى أنه يطالبك بأن تحمى أيضًا زوجتك .

فهتف بغضب :

ـ أجل ، ولكن ما حيلتى ؟

ـ هل يمكن أن تتركنى له ثم تذهب ؟

فتمتم شاردًا :

ـ غير ممكن .

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ لا أدرى .

ـ إنه يتوقع أن تصدع بأمره .

ـ أجل .

ـ هل تصدع بأمره ؟

ـ كلا !

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ لا أدرى .

ـ أكاد أن أجن .

ـ ما أنا إلا رجل مفرد أمام عصابة فى درب لا صديق لنا فيه .

ـ إنك تفكر فى التسليم .

ـ إنك لا تفكرين إلا فى ذاتك .

فقالت محذرة :

ـ شر ما نفعله فى موقفنا الحرج أن نتشاجر معًا .

ـ من الخير أن نذكر أنفسنا بذلك .

عند ذاك دق الباب فنهض شطا إليه يفتحه فدخل الشبلى يتبعه مأذون الحى ونفر من رجال العصابة .

١٨

ابتسم الشبلى عن ثنيتين ذهبيتين وقال :

ـ جئنا لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه !

تراجعت وداد إلى ركن الحجرة وهى تحبك جلبابها حول جسدها متسائلة :

ـ أى اتفاق ؟

ردد الشبلى عينيه بينهما ثم قال بهدوء منذر :

ـ ها هو ذا المأذون ، واختر من الرجال شاهدين .

فغلى دم شطا فى عروقه وملكته نشوة كالتى دفعته إلى قبول المهمة فى غرزة المنارة فقال :

ـ لا اتفاق بيننا يا معلم .

فاربد وجه الشبلى وتساءل :

ـ ألا تريد أن تطلق ؟

فقال شطا وهو يفتح صدره على مصراعيه للمجهول :

ـ كلا .

فرنا إليه مليا بين رجال متوثبين فى صمت يشل الخواطر ، ثم التفت نحو المأذون قائلاً :

ـ اذهب فلا حاجة بنا إليك .

ولما أغلق الباب وراءه قال :

ـ لى طريقتى ولكل شيخ طريقة ، ولدى دائمًا ما هو أفتك من القتل !

وتنحى جانبًا وشطا يتابعه بعينيه أما الرجال فاتجهوا نحوه متحفزين فصرخ به شطا :

ـ تقدم أنت يا جبان .

انقضوا عليه فدارت معركة حامية . كال لهم ضربات صادقة وتلقى ضربات مجنونة . صارع بقوة وشجاعة ولكن توازنه اختل فهوى . ارتمى عليه الرجال فأشبعوه حتى نزف الدم من بين أسنانه وأنفه . وأوثقوا يديه وقدميه وجلس أثقلهم فوقه . مضى الشبلى نحو وداد وهو يقول مخاطبًا شطا :

ـ فلتر بعينيك عاقبة عنادك !

١٩

أخيرًا خلت الحجرة لهما. تحطمت قوائم الكنبة الوحيدة وتفزر حشوها وتغطت الحصيرة بالطين والتراب، وفاحت رائحة العرق. ذهب الرجال مخلفين روائحهم والجريمة. تكومت وداد ممزقة الملابس وطرح شطا على الأرض ملوثًا بالدم معذبا بالوعى. حجز بينهما صمت وشعور عميق بالحرج. أما الحزن والغضب فقد استقر فى أعماق الروح. وتملص من الصمت فقال:

ـ لا تحزنى، أنت بريئة وطاهرة.

تحجرت نظرتها أكثر فقال متأسفا:

ـ بذلت المستحيل!

تحركت من مرقدها. سوت ثوبها، مضت مترنحة إلى الدهليز. عادت قابضة على سكين. تمنى لو تغمدها فى قلبه. راحت تقطع وثاقه. تحرك متأوها وراح يجفف دمه بطرف جلبابه. أخذ راحتيها بين يديه مغمغما:

ـ يا للتعاسة!

فقالت بصوت غريب:

ـ لنذهب.

فقال متوعدًا:

ـ لأقتلنه ذات يوم!

ـ قد تقتل قبل ذلك، فلنذهب.

ـ لا شك فى أن الحكاية تتردد الآن فى سوق الدرب.

فقالت بكآبة:

ـ ستسبقنا إلى الحارة أيضًا.

ثم رفعت منكبيها استهانة وتساءلت:

ـ أين يتم الطلاق؟

فصرخ:

ـ لن أطلق أبدًا.

فاتسعت عيناها فى ذهول فقال بإصرار:

ـ أبدًا . . أبدًا . .

ـ وعذاب الآخرين؟!

ـ إنى ماض إلى مقابلة الدينارى ومواجهة المستحيل!

٢٠

غادر شطا الحجرى ووداد مسكنهما فيما يشبه الزفة. أحدق بهما الرجال فتبعوهما حتى عبرا بوابة المتولى مخلفين وراءهما الدرب الأحمر وذكرياته الدامية. قال شطا:

ـ لم يبق لنا إلا أن نواجه مصيرنا بشجاعة.

فتمتمت وداد:

ـ من يصدق أننا لم نلبث فى الجحيم إلا خمسة أيام!

ـ ساعة واحدة كافية إذا حم القدر.

ونفخ غاضبًا ثم استدرك:

ـ ليت فى الوقت متسعًا للصبر حتى يزول الورم عن أنفى وشفتى لأرجع إلى الحارة على الحال التى تركتها عليها.

ـ هيهات أن ترجع تلك الحال!

فقال متوعدًا:

ـ لى رجعة إلى الدرب الأحمر!

ـ فلنفكر فيما نحن مقبلون عليه.

ـ لن أعرف الجبن والتردد بعد اليوم.

وقبيل مدخل الحارة بخطوات وشمس الظهيرة تصب على الميدان نارًا، رأى طباع الديك يدخن نارجيلة أمام دكان النجار. انقبض صدره، وانقبض أكثر عندما نهض الرجل طارحا خرطوم النارجيلة على المقعد مقبلا نحوه فى ترحاب ظاهر:

ـ أهلا، لم تخلق الغربة لنا.

صافحهما ثم وقف يردد عينيه بينهما ثم قال:

ـ قلبى معكما، إنها لمأساة حقًّا!

فتساءل شطا نافد الصبر:

ـ أتنوى الشماتة بنا؟!

فقال مستفظعا :

ـ الشماتة؟! أنسيت أنى أعتبر أمك أما لى؟ أنسيت تزكيتى لك عند المعلم؟ أنسيت تحذيرى لك فى الوقت المناسب؟ أنسيت أيضًا أننى أعتبر الاعتداء على عرضك اعتداء على عرضى أنا؟!

آه . . إذن وصلت الحكاية مع أشعة الشمس! وهتفت وداد محتدة :

ـ إنى شريفة على رغم أنف الجاحدين .

فقال طباع الديك :

ـ وجه زوجك يشهد بشجاعته فى الدفاع عنك .

فهتف شطا :

ـ لن ينجو المجرم من العقاب .

ـ شهم ابن شهم ، ما عليك الآن إلا أن تنال عفو المعلم .

ـ هذا ما جئت من أجله .

ـ الأمور معقدة ولكن متى كانت الدنيا يسيرة؟ وكلما ازداد الرجل همة ازدادت الدنيا له تعقيدًا ، ولكن لن ينسى أبدًا أنك كنت السابق إلى قبول المهمة!

فقال شطا بعصبية :

ـ لن يخدعنى كلامك المعسول . لقد علمتنى المصائب فى أيام ما لم أتعلمه فى عشرين عاما ، وهيأتنى لمواجهة المصير أيا يكون .

ـ عفارم ، لا يعيبك إلا سوء ظنك بالناس ، وشر سوء الظن ما حاق بالأصدقاء ، وكان يجب أن تعلم أن الشماتة ليست من شيم الفتوات!

٢١

قال شطا لوداد وهما يمضيان نحو الحارة :

ـ إنى لا أصدقه ولا أثق به .

فقالت وداد بعدم اكتراث :

ـ ولا أنا .

وهما يدخلان الحارة همست وداد بخوف لأول مرة :

ـ ما أفظع لقاء الناس .

فقال شطا بتحد :

ـ ليكن ما يكون .

انتبه لهما قليلون راوحت نظراتهم بين الشماتة والازدراء . همس شطا :

ـ فلنسرع نحو دار المعلم .

ترامت إلى أذنيهما تعليقات :

ـ الهاربان .

ـ الخائنان .

ـ المهتوكان .

أخيراً طالعتهما البوابة العملاقة .

٢٢

ها هو ذا موجود الديناري . ها هو ذا وجهه الذى لا يفصح عن شيء . مثلا أمامه فى ذل واستسلام . ولما لم يتكلم أو يوح برغبة فى الكلام قال شطا :

ـ ليس فى نيتى الاعتذار ، ذنبى أكبر من ذلك ، ولكنى جئت مسلما نفسى لتقضى بما تشاء .

لزم المعلم الصمت . ترى أيخفى وراء الصمت غضبا؟ أم سخرية أم عبثا؟ . ونفد صبر وداد فقالت :

ـ لن نسألك شيئًا لأنفسنا ، ولكننا نطلب الرحمة لأهلنا الأبرياء .

لم يتغير مظهره ولكنه تساءل بهدوء :

ـ ماذا يشكو أهلكما؟

ـ إنهم يعانون العقاب الذى استحققناه نحن .

ـ هل تحريتم ذلك عند أهلكما؟

ـ كانت دارك مقصدنا الأول ولكن ذلك ما بلغنا فى مهجرنا .

ـ كذب ما بلغكما!

فذهل شطا كما ذهلت وداد . أما المعلم فقال :

ـ إنى فتوة الحارة وحاميها وليس من مذهبى أن آخذ البرىء بالمذنب .

فقال شطا بحماس :

ـ هذا هو المأثور عن شهامتك .

ـ ولكنكما صدقتما ما بلغكما مما يقطع بسوء ظنكما بى .

فتمتم شطا استحياء :

ـ الغربة أفسدت عقلنا .

ـ ما دام هذا التصور الخاطئ هو ما دفعكما إلى المجىء ، فلكما أن ترجعا ولن يتعرض لكما أحد .

فهتف شطا الحجرى :

ـ لا حياة لنا إلا أن تقضى فى أمرنا بما أنت قاض .

ـ لا أصدقك فقد عهدتك تقول قولا وتفعل نقيضه .

ـ كان الحرص على الشرف وراء كل فعل فعلته .

ـ إذن أنت تتهمنى بأننى أكلفك بما يناقض الشرف؟ !

فقال شطا بحماس :

ـ معاذ الله يا معلمى ولكنك تضن على بإدراك مطالبك .

ـ إما أننى عاجز عن التعبير وإما أنك عاجز عن الإدراك .

فقال شطا وهو يعانى مرارة القهر :

ـ أعترف بعجزى ولكن ما حيلتى؟ . . لقد أرسلت إليك من يسألك عن شروطك للعفو عنى فكان الجواب «قل للأعمى أن يستمر» ، أستمر فى ماذا؟ فكرت فى إصلاح الخطإ فماذا كانت النتيجة؟ !

عند ذلك قالت وداد وكأنما تجيبه عما يسأل :

ـ كانت المأساة الدامية والفضيحة التى سبقتنا إلى الحارة .

ـ لعلكما تتصوران أننى المتهم !

فهتف شطا :

ـ معاذ الله ، حسبنا الآن أن نتلقى حكمك .

فأشار المعلم إلى وداد وهو يسأل شطا :

ـ ما زالت على ذمتك؟

ـ اتخذنا قراراً بالطلاق والرجوع ، ثم كان الاعتداء الأثيم فأقلعت عن فكرة الطلاق إلى الأبد .

ـ وإذا أمرت بتطليقها؟

فأحنى شطا رأسه صامتًا ويائسًا فقال المعلم :

ـ فى الصمت جواب .

فقال شطا :

ـ إنى أنحدر من خطإ إلى خطإ، ولن ينتشلنى من العذاب إلا أن تقضى فىّ بما ترى .

فقال المعلم مخاطبا وداد :

ـ إنى أقرأ فى عينيك فكرة أخرى، ما هى؟

فقالت وداد بجرأة غير متوقعة :

ـ أن تعفو عنه وأن تعيده إلى جماعتك!

ـ حقّا إنك أنسب شريكة لمن كان مثله .

فقالت ثملة بجرأتها :

ـ حسبنا ما ذقنا من عذاب وحسبه ما أبدى من شجاعة .

فالتفت المعلم نحو شطا متسائلاً :

ـ أهذا رأيك أيضًا؟

فقال شطا بانكسار :

ـ إنى منتظر قضاءك!

ـ يا لك من ماكر .

ـ مثولى بين يديك يقطع بصدقى .

ـ بل أنت تريد أن تتوسل بالحكم إلى إدراك ما غمض عليك .

فقال مغلوبًا على أمره :

ـ أروم حياة مطمئنة . .

أمسك الرجل عن الكلام حتى تشبع الصمت باللهفة والأشواق، ثم قال :

ـ استمر!

فتطلع إليه شطا فى حيرة بل فى فزع فقال الرجل :

ـ هذا هو الحكم، استمر . .

فقال شطا بحرارة :

ـ أريد كلمة واضحة محددة .

فقال المعلم :

ـ لقد أضجرتنى فاذهب .

٢٣

مضى بزوجه إلى بدروم عمارة الجبلى . كانت أمه ـ ستهم الغجرية ـ فى الخارج فجلسا وحيدين . اجتاحته الحيرة والتشاؤم بخلاف وداد التى راحت تقول :

ـ كان بوسعه أن يضربك أو يطردك من الحارة أو يصر على طلاقنا ، الحق أنه عفا عنا . .

فتساءل :

ـ ماذا منعه من النطق بالعفو؟

ـ لعله عز عليه أن ينطق به بعد ما كان منك ، ولكن ألا ترى أنك حر ، لم ينلك أذى ، وأنك ستواصل الحياة مثل بقية الناس؟

ـ لم يتركنى حرًّا ، أمرنى أن أستمر ، ثبتنى فى أعماق الحيرة ، لم يطردنى من العصابة ولم يرجعنى إليها ، لم يعاقبنى ولم يعف عنى ، لم تند عنه كلمة واحدة تدل على الرضا ولا على الرفض .

فقالت بحرارة :

ـ عش حياتك ولا تشغل بالك بألغاز لا حل لها .

ـ ولكن كيف؟ ! ألا يجوز أن أحاسب فجأة على أننى «لم أستمر»؟ ما زلت أشعر بأننى مكلف بأمر ما ، غير أننى أجهله هذه المرة جهلا تاما .

ـ يخيل إلى أن محور همك يدور حول إيمانك بجديته المطلقة ، أليس هو فى النهاية رجلا يجدّ حينا ويلهو حينا آخر؟ أليس من المحتمل أنه يميل إلى العبث وأنه وجد فيك مادة صالحة لعبثه؟ ! أبعده عن ذهنك وعش حياتك ولن تلقى مكروها أبدًا .

ـ لو افترضت به العبث لانقشعت الحيرة من أساسها ، ولكنه رجل أقوى من الطاحونة وأدق من الساعة .

ثم رماها بنظرة مقطبة وتساءل :

ـ أيرضيك أن ترجعى ما حل بنا من شقاء وتضحية إلى اللهو والعبث؟ !

* * *

ولما رجعت ستهم فرحت بعودته ولكنها رحبت بفتور بوداد . وقبل مضى يوم راحت تعاتبه على ما جر على نفسه من سوء السمعة . والحق أن أقرانه لم يداروا عنه احتقارهم ،

وكاد أهل الحارة يقاطعونه مقاطعة كاملة. اضطر إلى أن يبحث عن رزقه بعيداً عن الحارة وتجرع الغربة وهو بين الأهل والجيران.

وتساءلت وداد بمرارة:

ـ متى تنسى حكايتنا؟

فقال لها:

ـ إنه عقابه الذى لم يعلنه.

فصرخت:

ـ بل إنهم أوغاد ولا رحمة فى قلوبهم.

فغمغم شطا وكأنه يهامس نفسه:

ـ استمر.. استمر.. ما معنى هذا؟!

٢٤

مضت الحياة بمرها الكثير وحلوها القليل. ظل شطا يسعى خارج الحارة ويعيش فيها بلا صاحب. وقبل أن ينقضى الصيف الثقيل وقع الشبلى فتوة الدرب الأحمر فى خطإ لا يغتفر. راح يتباهى بأنه اغتصب وداد خطيبة الدينارى على مرأى من شطا الحجرى «رجله الثانى». ترامت الأنباء إلى الحارة مصحوبة بأغان داعرة صاغت الحادثة فى قالب مزاح ساخر. وإذا بالحارة تشهد تعبئة لم تشهدها من قبل. تسلح الرجال بالنبابيت والخناجر، وشحنت عربات بالزلط والقوارير وخردة الحديد. وانضم شطا الحجرى إلى الرجال دون أن يدعى إلى ذلك وهو يقول لنفسه: «جاء اليوم الذى أحلم به».

وكانت غزوة مفاجئة وفى رابعة النهار. نشبت معركة حامية ما زالت ذكرياتها حية فى رءوس الكهول ودوائر الأمن. وحقق شطا حلمه فطعن الشبلى طعنة قاتلة متلقيا فى الوقت ذاته عشرات الضربات القاتلة. وكان من جراء ذلك أن ثار غضب المحافظة فاتخذت قرارها الحاسم.

٢٥

عندما درجت فى مدارج الوعى، كانت حكاية الدينارى قد انطوت فى أعطاف التاريخ ولكنها كانت ما تزال حية فى القلوب. لقد قضى على المعلم بالسجن عشرة

أعوام، ولما أفرج عنه فرضت عليه رقابة دائمة فابتاع مقهى النجف ومارس حياة مواطن كسائر المواطنين. جلس على كرسى الإدارة مجللا بالشيخوخة والمهابة والذكريات الباقية. وقد قتل شطا الحجرى فى مواجهة بطولية محت العار عن سمعته وكفرت عن زلته، فنشأ ابنه الوحيد رضوان محوطا بالاحترام. وقيل إن الديناري تكفل بدفنه فأول ذلك بأنه تقدير أخير له وبولغ فى التأويل حتى قيل إنه اعتبر رجله الثانى. وقد رأيت بعينى وداد وهى امرأة تجاوز الأربعين وكانت تبيع الخوص والريحان فى مواسم زيارة المقابر. وأدركت موجود الدينارى وهو يدير النجف وقد مضى عهد الفتوات والفتونة. اختفى الرجال وبطلت الشعائر فأصبح الرجل فى نظر القانون صاحب مقهى وتحت المراقبة الدائمة، ولكنه ظل فى نظر العباد فتوة الحارة وحاميها، حتى الشرطى وشيخ الحارة لم ينجوا من دفقة الشعور العام فكانا يختصانه بالاحترام وحسن المعاملة. أجل زالت عنه تقاليد الفتونة ولكن بقى له السحر الخفى الذى لا يبالى بالقوانين والأوامر الإدارية، بقى له التاريخ والمهابة والأثر الحى.

هكذا جذبنى مقهى النجف قبل أن أبلغ سن الشباب. وكنت أجلس فى ركنى المنعزل أسترق إليه النظر بشغف المعجبين وخيال العاشقين.

وكان بهاؤه يتجلى فى الأعياد فكأنها لم تخلق إلا له. كان يجلس على الأريكة متلفعا بعباءة جديدة، ممشطا اللحية والشارب، وتمر أمامه عربات الكارو محملة بالنساء والرجال والأطفال فى أثوابهم الجديدة الملونة فى هالة رائعة من الطبل والزمر والرقص:

يا فتوتنا يا دينارى

يا حبيبنا يا دينارى

يا حامينا يا دينارى

ثم تدوى الهتافات والزغاريد، ويثمل العاشقون بكئوس المجد والعشق والحنين العارم إلى النصر.

أمشـــــير

١

المارون بشارع رأس الحكمة بزيزينيا يجذب أنظارهم القصر الأبيض. عم عمارة الجعفرى البواب يجلس عادة على أريكته أمام الباب الكبير، هادئ النظرة تتحرك شفتاه

الغليظتان بتلاوة غير مسموعة، لا يكاد يرى ما يجرى أمامه، ولا يبالى بما يقوم خلفه. والقصر الأبيض قابع بطابقيه بين أشجار دائمة الخضرة تتخللها نخلات طويلة رشيقة مغطاة الجذع بأردية بيضاء. وعندما يدور السمر بين البواب والسواق والطاهى حول القصر الجميل يثنى عم عمارة على صاحبه جندى بك الأعور قائلاً: إن الله يزيده ثراء جزاء ما طبع عليه من إحسان وخلق كريم، إنه يرد تحيات الفقراء بأحسن منها ويوزع الزكاة فى الأعياد والمواسم. ولكن أى غمامة تلك التى تنداح فى الأفق؟ ماذا يحدث بين الناس الطيبين؟ لم يخيل إليه أن وراء الستائر المسدلة قلوبا تردد أصداء الأمواج الهادرة؟ ويدعو الله مخلصا: «اللهم احفظ القصر وأهله، اللهم احفظنا».

٢

فى ذلك الوقت انتقلت جميلة هانم من حجرتها إلى الفراندا الخلفية لمقابلة يحيى. جاءت جادة، حتى الابتسامة المغتصبة لم تحاول أن ترسمها فوق شفتيها الممتلئتين. واعتبرها يحيى زيارة غير عادية إذ إن أمه تجد ما يشغلها من شئون القصر طيلة النهار. جلست على كرسى إلى جانبه فى الفراندا المشرفة على حديقة الأزهار وحمام السباحة. وكانت الشمس تفترش الأرض الخضراء المترامية بين الأسوار العالية، ولا نأمة تجىء من شارع رأس الحكمة المزين على ضفتيه بالنخلات العشرين. وكان يحيى يستجم قليلا من المذاكرة، مستسلما لدفقات من نسيم الربيع تتلاقى فى وجدانه بأنغام موسيقى خفيفة تنبعث من ترانزستر. فأسكت الجهاز مرحبا بمقدم أمه. بدا فى البيچاما رشيقا طويلا، جامعًا فى صفحة وجهه بين عينى أمه الجميلتين وبناء شعبى لأطراف وجهه الغليظ. وعلى رغم رونق الأم الذى يعد فوق ما تتمنى امرأة فى الخمسين، فقد تجلت بها سمات شعبية فى دسامة يديها وخشونة نبرتها. وإعرابا عن حبه تناول يدها ولثمها وهو يلحظها باهتمام. قالت جميلة هانم:

ـ لم يعد بينك وبين الامتحان النهائى إلا ثلاثة أشهر كان يجب أن تمر فى هدوء شامل لتتفرغ لعملك، ولكن الظروف تحتم علىّ أن أحيطك بما يقع حولنا.

فرنا إليها بعينيه العسليتين باهتمام متزايد وهو يتمتم:

ـ ليكن خيراً إن شاء الله.

فقالت بأسف واضح:

ـ إنه أبعد ما يكون عن ذلك.

طالما شعر بأن القصر يمضى بلا تاريخ فماذا حدث؟ أما الأم فقالت :

ـ لا أريد أن تباغتك الحوادث . تقرر أن يغادر محروس ابن البك القصر هو وأسرته!

تردد الكلام فى مسمعيه أول الأمر بلا معنى . وسرعان ما لاح الانزعاج فى عينيه . وتبين له أن منظر أمه ينذر بشر غير محدود . تمتم واجما :

ـ إنه لغز ولكن له تفسيراً ولا شك .

ـ كأنه نوة من نوات البحر ، إنى آسفة . .

ـ ما معنى تقرر؟ . . من صاحب القرار؟

ـ صاحبه واحد ، من غيره؟ تقرر طرد محروس وأسرته .

تجهم وجه يحيى . تذكر النفور الدائم بين أمه وحرم محروس ، هل أدّى النفور دوراً فى تخطيط هذه النهاية الأليمة غير المتوقعة؟ وقال بحذر :

ـ محروس بك هو الابن الوحيد لجندى بك ، فكيف هان عليه أن يطرده هو وأسرته من قصره؟

أجابت جميلة هانم بحزن شديد :

ـ ثمة جريمة شنعاء!

ـ جريمـــة؟!

قالت وصوتها يتهدج :

ـ تصور يا يحيى ، لقد دبر الابن جريمة خفية لقتل أبيه!

تصلب عود يحيى من الانزعاج والذهول ، تفكر فى معنى ما يلقى إلى سمعه ، تأمله مليا برعب ، ثم تجلت لمخيلته صورة وداد الجميلة المستقرة فى أعماق قلبه . ما أكذب الربيع الساطع! إنه يسخر من أحلامه العذبة ويعصف بطمأنينته الراسخة . وتمتمت المرأة وكأنما تقرأ أفكاره الدفينة :

ـ الأمر محزن جدّا ، وهناك حزن آخر من أجلك أنت .

وراح يقول وكأنما يحادث نفسه :

ـ جريمة خفية؟! من يصدق هذا؟ ولكن كيف؟

ـ إنه الشيطان ، أجل لم ينعم الجو بالصفاء بين الأب وابنه ، ولكن الأب رجل عاقل وكريم ، لم يضن أبدًا على ابنه بخير ، وكان محروس يعيش فى القصر وكأنه صاحبه ، هو وزوجته وابنته ، ثم يحاول شراء الطاهى ليدس السم لأبيه؟!

ـ أى غباء وأى جنون!

ـ طوى الطاهى السر فى صدره. أجل إنه صنيعة محروس، ومحروس هو الذى جاء به منذ سنوات ولكنه إنسان أمين فجاءنى وأفضى إلىّ بسره!

ـ أنت؟!

ـ نعم، إنه يتعامل معى يوميا.

ـ وأنت التى أبلغت عمى؟

ـ ذهبت به إلى البك.

ـ الأمر يتطلب تحقيقا عادلا!

ـ عمك ثار وأوشك أن يبلغ الأمر للنيابة لولا توسلاتى إليه أن يفكر فى هدوء وأن يتجنب الفضيحة.

ـ ربما أسفر التحقيق عن لا شىء؟

فقالت بأسى:

ـ عندما ووجه محروس بالتهمة لم يدر كيف يدافع عن نفسه.. كأنما كان يعترف.

تنهد يحيى وتمتم:

ـ محروس فى الأربعين، زوج وأب، لا ينقصه شىء، كيف اشترى جريمة بالنعيم والأمل؟

ـ إنه الشيطان، ومن يدرى؟ العمل يبدو جنونا لا معنى له، والحمد لله أن عمك اكتفى بطرده وحرمانه.

بعيد أن يكون الرجل بريئا. لقد خسر بجنونه كل شىء. ضاع تمامًا. وتذكر مرة أخرى وداد كريمة المتهم. لقد طردت معهم بمعنى من المعانى. أمه ولا شك تدرك ذلك تمامًا. أيضًا زوج أمه جندى بك الأعور. كم من متاعب ترصده فى هذه الأيام الصفراء! ها هى ذى أمه تقول:

ـ إنى آسفة جدًا يا يحيى.

ـ لكن كيف تواجه الأسرة المطرودة الحياة؟

فقالت بعتاب:

ـ يجب أن ترثى أولا لعمك!

ـ بلا شك، ولكن سؤالى له وجاهته أيضًا!

فقالت وهى لا تخفى امتعاضها:

ـ لابد من فترة انتظار حتى تنحسر عواصف الانفعال. فى نيتى بعد ذلك أن أرجو عمك أن يهب الرجل وأسرته عمارة من عماراته حتى لا يدفعه اليأس إلى الجنون!

فقال يحيى مستردًا بعض أنفاسه :

ـ فكرة طيبة . .

وطوال الوقت فكر فى وداد ، وبدا أن أمه تشاركه خواطره ، وقد قالت بصراحة :

ـ إنى حزينة من أجلك يا يحيى .

فقال بوضوح :

ـ إنى أحب وداد ، وهى تحبنى ، لن يفرق بيننا شىء !

فقالت بإشفاق :

ـ عليك أن تتذكر عمك ، إنه فى الواقع أبوك .

فقال بمرارة :

ـ أعلم أننى بفضله أنعم بالحياة فى هذا القصر ، على حين أن أبى الحقيقى لا يدرى عنى شيئًا كما أننى لا أدرى عنه شيئًا . وأعلم أيضًا أنه كان من الممكن أن يعاملنى كغريب ، كابن زوجته من رجل آخر ، ولكنه عاملنى كابنه .

فقاطعته بحماس :

ـ بل عاملك خيرًا من ابنه ، وأحبك أكثر منه ، حتى قبل الجريمة .

ـ أسلم بهذا ، ولكننى أحب وداد أيضًا ، وهى بريئة من ناحية وحفيدته من ناحية أخرى .

وسَّدت راحتها مَنْكبه وقالت :

ـ إنى أطالبك بالحكَمة ، وأتمنى لك السعادة . .

ـ أنت لم تحبى محروس ولا زوجته ولكن وداد فتاة ممتازة .

ـ رأيك هو المهم ، ولكن عليك أن تنتظر فترة ثم لك بعد ذلك أن تفضى بنواياك إلى عمك .

يبدو أن المهمة لن تكون سهلة ، وأنه ربما اضطر إلى المقامرة بمنزلته عند الرجل . وهو لا يتعذر عليه النفاذ إلى أفكار أمه الخلفية ، ولكنه قال متظاهرًا بالبراءة :

ـ سوف أتحين فرصة مناسبة . .

ـ ورجائى ألا تثير غضبه . .

فقال بضيق :

ـ إنى حريص على رضاه ولكنى لن أفرط فى وداد .

فقالت بصوت منخفض :

ـ تخيل ما يعدك به المستقبل !

لم يرتح لقولها . وعلى رغم ثقته فيها تساءل عن الدور الذى قامت به فى هذه القضية . شد ما تفزعه الوساوس . وقد كان دائمًا يؤاخذ هذا القصر على تقديسه للمال . إنه لا ينكر أهمية المال ولكنه يكره أن ينصَّب هدفا أعلى للإنسان . لا حديث لأهل القصر سوى النقود والسلع . وقد دفعته تلك التقاليد إلى الالتحاق بكلية التجارة ، كما دفعت وداد بعده . ومن أجل ذلك المعبود حرص الابن على قتل أبيه ، وها هى ذى أمه تتوثب لاستغلال الموقف الجديد لصالحه . قال برجاء :

ـ لا تحدثينى بما يثير اشمئزازى . .

فقالت باسمة :

ـ لا أحد يحب الفقر .

هز منكبيه صامتًا . أدرك بوضوح أن المتاعب الجديدة لن تعفى أحدًا من آثارها .

٣

الشاطئ ما زال خاليًا . الرياح معتدلة مشبعة ببرودة ودودة آمنة . وفى أحضان العذوبة المنتشرة تراقصت الأمواج فى رشاقة . لم يكن فى كازينو جليم سوى العشاق . جلس يحيى ووداد فى طرف الكازينو المطل على الخليج قبل الغروب بساعة . أول مرة ذلك العام غيرت وداد ملابس الشتاء فتجلى عودها الرشيق تحت البلوزة البيضاء الثرية والبنطلون الرمادى . جميلة ببشرتها القمحية وعينيها السوداوين وشفتيها المضمومتين ، ولكنها جادة واجمة . لم تجمع بينهما جلسة كئيبة كهذه الجلسة من قبل . اختفى من عينيها المرح والدلال كما اختفت من عينيه الأشواق . جلسا جنبا لجنب وراء الترابيزة ينظران إلى البحر المنفسح بعينين لا تريان شيئًا . وكانت تقول :

ـ أقمنا فى شقة مفروشة ، حياة لا يمكن أن تستمر طويلا ، لا ندرى شيئًا عما يخبئه لنا الغد .

فانغمس فى الشجن وهو يقول :

ـ لكن والدك اكتسب خبرة فى الأعمال عندما كان يعمل فى مكتب والده .

ـ لا أعتقد أنه يتوافر له اليوم رأس مال كاف ، ثم إن التهمة الظالمة ستطارده طويلا .

تنهد قائلاً :

ـ حتى الآن لا أصدق ما وقع .

فقالت بإصرار :

ـ أبى ينكره وأنا أصدقه .

ـ فما الحقيقة إذن؟

ـ لعله سوء تفاهم استغل أسوأ استغلال .

شعر بأن ثمة اتهاما يحوم حول أمه مثل ذبابة، فضاق صدره ولكنه قال :

ـ أيكفى ذلك لاختلاق جريمة تفرق بين الأب وابنه الوحيد؟ !

فقالت بامتعاض :

ـ المصائب تفوق الخيال . .

وصمتا قليلاً فى حزن بالغ حتى قال يحيى :

ـ إذا كان للموضوع حقيقة خفية فلن تغيب طويلا ، وسوف يوجد للموقف العسير حل ، أما نحن فعلينا أن نركز فى الواقع الذى يتحدانا .

فلم تدر ما تقول فواصل حديثه :

ـ ما بين يوم وليلة أصبح تلاقينا لا يتم إلا سرا ، كأننا غريبان . هذا هو الواقع الذى علينا أن نتعاون على تحطيمه .

ـ ولكننى لا أستطيع أن أنزع نفسى من مشكلتنا القائمة .

ـ المأساة مأساتنا معًا ، سنفكر طويلاً ، لن نتركها ولن تتركنا ، ولكن علينا قبل ذلك أن نتفق على الدفاع عن حبنا حتى الموت !

فقالت بصدق :

ـ حبنا فى حرز حصين ، لسنا أطفالا ، ثم إنك ستختم دراستك بعد ثلاثة أشهر وسوف ألحق بك بعد عامين ، ولكن كيف نعيش فى هذا الجو الخانق؟ !

ـ إنه يُظلُّ القصر أيضًا ، لا أحد يبتسم ، وهو يهدد حبنا .

ـ لسنا أَطفالا . . ولندع للزمن فرصته .

ـ أود أن نسبق الزمن ، أجل يجب أن أنتظر مهلة ولكن لا مفر من مواجهة جدك ، وعليك أنت أن تتصدى بشجاعة لأى عدوان يجىء من ناحية محروس بك أو شريفة هانم ، ثم إننى فى النهاية شخص غريب ليس إلا ابن زوجة جدك . .

فقالت بإشفاق :

ـ إنك معدود ابنا له !

ـ لا أنكر ذلك ولكنى لن أتخلى عنك أبدًا .

قرر أن يخفف عن أعصابهما بشرب الكوكاكولا ، مضى يراجع ما انتهى إليه فوجده طيبا لا بأس به ، ثم قال متماديا فى نشدان الأمان :

ـ وداد ، اعتدنا المصارحة دائمًا ، هل ساءك ضياع الثروة المتوقع؟

فتفكرت قليلاً ثم قالت :

ـ يشغلنى الآن همّ أسرتى .

ـ لم تجيبى عن سؤالى .

ـ الثروة نعمة ، وحياتها عادة ، لا أدرى كيف أتخلص منها . . ماذا عندك أنت؟!

ـ أنا أيضًا اعتدت مستوى لا تؤهلنى له حقيقة أصلى ، ومذ أدركت أنى شخص فقير هيأت نفسى للحياة البسيطة .

ـ زدنى إيضاحًا .

ـ وداد ، لم أرتح أبدا لولع أمى وعمى بالمال .

ـ يمكن أن نحبه دون أن نعبده .

فهز رأسه فى حزن ولاذ بالصمت ، فقالت بنبرة دعابة لم تخل من فتور :

ـ أعلم أنك تحب سماع الموسيقى أكثر من اقتناء ثروة .

ـ أتسخرين منى؟

ـ كلا ، ولكن تردد فى بيتنا الحزين أن الخطوة التالية المتوقعة من جدى هى أن يملكك ثروته بطريقة قانونية!

شعر للمرة الثانية بالاتهام الحائم حول أمه فقال بشىء من الحدة :

ـ لو خيرت بين ثروته وبينك فلن أتردد فى الاختيار .

فقالت بأسف :

ـ ستكون حياتنا متواضعة جدًا .

فقال بعتاب :

ـ سيعوضنا الحب عن كل شىء!

فابتسمت ابتسامة خفيفة ، وكان قرص الشمس يهبط وديعا أليفا فى الشفق وقد استلت منه روح الشباب الفائر .

٤

تلقى من أمه خبراً بأن عمه يدعوه إلى مقابلته فى الحديقة. قالت له بحرارة:

ـ تذكر أنه أبوك، وتذكر أنه لم يبق على امتحانك النهائى إلا ثلاثة أشهر، وأنك يجب أن تحافظ على صفاء ذهنك.

مضى إلى الرجل الذى عاش طفولته وصباه وهو يؤمن بأنه أبوه، ويحبه ـ وما زال ـ مثل أمه. لم يعرف الحقيقة إلا عندما اطلع على شهادة ميلاده لأول مرة، عندما نودى فى المدرسة باسم يحيى عويس الدغل لا يحيى جندى الأعور. عند ذاك عرف أنه ابن رجل آخر لم يره، يدعى عويس الدغل، طلق أمه وهو طفل ثم هجرهما إلى حيث لا يدرى. ولولا مجىء جندى الأعور وزواجه من أمه واحتضانه له لتعرض لمصير مجهول لا خير فيه. كانت لطمة أليمة ولا شك، ولكن رعاية الرجل له أنسته ألمه وانكساره. وقد شب وعاش فى النعيم كأنه ابن الرجل الطيب. فعليه أن يتذكر ذلك التاريخ الذى لا ينسى، كما يتذكر حبه.

وجد البك جالسًا فى الدائرة الخضراء كما يحلو له أن يدعوها. هى ربوة مستديرة خضراء السفح، مسقوفة بمظلة من الخشب الأبيض على هيئة قبعة تتدلى منها المصابيح وضفائر اللبلاب. جلس على أريكة وثيرة فى جلباب أبيض، وضىء الصلعة، بين يديه فوق الخوان قارورة ويسكى وجردل أحمر ملىء بمربعات الثلج، وطبق فستق مقشر. ربعة بدين ذو كرش جسيمة، بيضاوى الوجه لحيمه، قوى الفك غائر العينين فى أنفه فطس ذو شارب غليظ لم تشب فيه شعرة واحدة على رغم بلوغه الستين. حياه الفتى وجلس ـ كما أشار إليه ـ فى قبالته. النسمة رائقة، وحفيف الغصون يبعث هسيسا هامسًا، والأرض تضحك بألوان الأزهار، وشذا الربيع يفوح مسكرا. قال يحيى لنفسه إن الجو يسخر منهم ويعلن لا مبالاته بأحزانهم. قال الرجل وكان لا يعرف اللف والدوران:

ـ ثمة حديث ما عاد يجوز تأجيله يا يحيى.

فاعتدل يحيى فى جلسته استعداداً فقال جندى الأعور:

ـ ما حصل قد حصل لا حيلة لنا فيه.

فتمتم يحيى:

ـ ربنا معك.

ـ ما زلت آسفا على أننى لم أسلمه ليد العدالة .

ـ تصرفت معه بما يتوافق مع خلقك الكريم .

فصب فى الكأس جديداً من الويسكى وقال :

ـ لم تكن الجريمة مفاجأة بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فهو لم يضمر لى حبا ولا خيراً . وعلى العكس كنت دائمًا حذراً من ناحيته ، دائمًا أتوقع ما لا يسر ، ولا جدوى من حسن المعاملة مع أمثاله بل لعلها زادته شرّاً . إنه الشرير الحقود ، وكم من مرة أضبطه متلبسًا بسرقة المكتب وأعفو ، ماذا ينقصه؟ إنه عاش فى بيتى عيشة الملوك ، ولعب بالقرش لعبا ، لكنه فاسق قذر ومقامر مجنون .

غشيته كآبة من مدخل الحديث فتنبأ له بنهاية غاية فى السوء . أما الرجل فقال بقوة ووضوح :

ـ وشد ما حقد عليك كأنما تقاسمه لقمته ، وشد ما طالب بطردك من القصر !

كان يشعر دائمًا بفتور عواطف الرجل نحوه ، وزوجته أيضًا كرهًا فى أمه ، ولكن حبه لوداد جرف النفايات من مجرى حياته ، أيضًا لم يتصور أن النفور يتمادى لحد المطالبة بطرده . غير أن ما كان يهمه حقا فهو الحب وحمايته من إعصار الموقف الهائج . وصمت جندى الأعور حتى تستقر كلماته فى أعماقه ثم واصل حديثه :

ـ له بطانة من السفلة والعاهرات ، وقد بلغ الخامسة والأربعين من دون أن ينال ذرة من الرشد .

لاحت الدهشة فى وجه يحيى . . تكشفت له أسرار بشعة لم تجر له فى خاطر . واستحضر صورة زوجته الجميلة فازداد دهشة . ما وداد إلا صورة جديدة من أمها فكيف هان على محروس بك أن يخونها؟ ! وقال جندى الأعور بتقزز :

ـ زوجته لا تجهل مغامراته .

فتمتم الشاب فى انزعاج :

ـ هكذا؟ !

ـ ولم تسكت المرأة الجريئة فردت الصفعة بأقذر منها !

لاح التساؤل فى عينى يحيى فقال جندى الأعور :

ـ انحرفت من دون مبالاة متشجعة على ذلك بأصل قذر !

ـ لكن . . لكن . .

فقاطعه :

ـ لا تكن ساذجًا يا يحيى ، لقد انحرفت ، وقد كانت فى الأصل عاهرة محترفة !

اصفر وجهه وهتف بصوت متهدج :

ـ لا . .

فضحك جندى الأعور وقال :

ـ براءتك مذهلة ، مثل أزهار هذه الحديقة ، ولكن آن لك أن تفيق . المرأة كانت محترفة ، وقد تزوج منها على رغمى مدعيا أنه يفعل خيراً يستحق عليه الثواب ، لم تكن إلا شهوة عمياء ينز بها ثور ، وقد رجع إلى فسقه وأرجعها إليه .

أحنى يحيى رأسه فى غاية من الغم فقال الرجل :

ـ حاولت الإصلاح فلم أوفق ، هددته وهددتها ، انتهى الحال بإنذاره بالطرد والحرمان فكان رده السعى لاغتيالى .

تنهد يحيى أو تنفس بصعوبة فمضى الرجل قائلاً :

ـ لا شك عندى فى أنها شريكته ، إنها داهية بقدر ما هو غبى .

امتلأ الجو بالغبار فلم تبق ثغرة لكلمة طيبة ، غير أن جندى الأعور قال :

ـ أمك تلح علىّ فى أن أهبه عمارة دفعًا للمزيد من شره ولكنى ما زلت مترددًا .

عند ذاك قال يحيى بشجاعة :

ـ أعتقد أنه اقتراح حكيم ، فهناك أيضًا حفيدتك وهى بريئة .

فقال بازدراء :

ـ لا أصدق أن تخرج نبتة طاهرة من مستنقع قذر .

فقال يحيى مستميتا فى الدفاع :

ـ لكنى أعرفها حق المعرفة .

فقال ساخرًا :

ـ أنت لا تعرف شيئًا ، لذلك رأيت أن الواجب يطالبنى بإزاحة الستار عما لم تعلم خصوصا وأنه لم يبق لى سواك !

فتمتم وهو غائب تمامًا :

ـ شكرًا لك يا أبى .

أدرك أنه مقبل على أيام محنة وبلاء . أدرك أيضًا أن الوقت غير مناسب للمواجهة . لا بأس من الانتظار ولو أنه لا توجد بارقة أمل فى السماء المكفهرة .

٥

بقى على الامتحان شهران ونصف الشهر. من أين له العقل الذى يستوعب به دروسه؟ حتى الموسيقى لم يعد يتذوقها، وهو كمحب ثابت ولكن موقفه حرج. وعندما سألته أمه عما دار بينه وبين عمه أجاب إجابة عامة موجزة دون إشارة إلى ما قيل عن وداد وأمها. فعل ذلك وهو لا يشك فى إحاطتها بما قيل كلمة كلمة. وإيمانه ببقاء وداد لا يمكن أن يتزعزع، والأهم من ذلك فهو يحبها حبّا لا تنال منه الاتهامات فضلا عن الشكوك. فى عالم النساء الساحر لا يخفق قلبه بحب سوى حبها، فهى مصدر الإشعاع والعذوبة فى دنياه. ومن أجلها سيوجه الضربة الأخيرة لذلك القصر المزهو برشاقته.

وذات يوم قالت له وداد:

ـ لدى رسالة إليك، أبى يرغب فى مقابلتك.

وسمّت له اليوم والساعة فى المسكن الجديد بشارع أبى قير. وافق بلا تردد. لو تردد دقيقة لخسر وداد إلى الأبد. إذا علم عمه بالزيارة فستحدث أمور ولا شك. إن القدر يقتلع جذوره المغروسة فى جنة رأس الحكمة جذرا بعد جذر، وهو يمضى نحو المأساة بكامل إرادته ووعيه. من هو حتى يحاكم جندى بك الأعور أو زوجته شريفة هانم الدهل؟! إنه على رغم البراءة لا يخلو من أخطاء وعبث. ولا ينسى آراء أقرانه فيه، فهم يرونه من أولاد الذوات المدللين، لا هم له إلا أناقته وسماع الموسيقى. منطو أنانى لا لون له، غير مبال بالتيارات التى يسبحون فيها ويعانون من أجلها ما يعانون. فمن هو حتى يحاكم جندى بك أو شريفة هانم؟!

ووجد الرجل فى انتظاره. رجل قصير قوى صغير الرأس غزير الشعر والشارب كبير الأنف جاحظ العينين. رحب به، ابتسم له كما لم يفعل من قبل، ولكنه لم يشك فى أن مقته قد تضاعف. ترى ماذا يريد منه؟ أى شرك يحفره تحت قدميه؟ ليكن ما يكون ما دامت وداد له. كان الوقت صباح الجمعة. مضى أوله فى احتساء القهوة وتلقى نظرات محروس المتفرسة. أخيراً قال الرجل:

ـ ستسمع فى القصر حكايات مثل حكايات ألف ليلة فلا تصدق ما يقال. الرجل مجنون.

فقال يحيى بنبرة متوترة:

ـ لقد اختلط ما يصدَّق بما لا يصدَّق ودار رأسى.

ـ إنه الحقد والجنون .

ـ لكنه أبوك .

ـ ما خفى عنك أنه مجنون!

ـ سيدى، إنه رجل استثمار ورب أسرة ومحسن كبير .

ـ لا تغرك المظاهر، إنه الإدمان والشذوذ والجنون، يوجد آخرون يعلمون بالحقائق ولكنهم يتجاهلونها لاستغلاله أسوأ استغلال .

لعله يشير إلى أمه . حقّا قد طفحت القلوب بالحقد . وقال على رغم امتعاضه :

ـ ليس مستحيلا أن تنتهى الأمور إلى خير .

ـ هيهات، لقد حيكت مؤامرة بمهارة خبيثة فتهولت فى خيال رجل مجنون ملئت أذناه بالأكاذيب المتواصلة مثل دقات الساعة!

إشارة أخرى إلى أمه . حتى متى يتحمل ويتصبر؟! وتساءل :

ـ ألا تستطيع أن تظهر الحق؟

ـ فات الوقت، كيف تطالبنى بالتفاهم مع مجنون؟!

وفرقع بأصابعه ثم تساءل :

ـ من هو جندى الأعور؟!

وبرقت عيناه بوحشية ثم تطوع بالإجابة :

ـ ستقول إنه صاحب المكتب التجارى المعروف، ورجل الخير والإحسان . أما المدمن الشاذ المجنون فلا يعرفه إلا خاصته المنافقون، ولا أهمية لذلك بالقياس إلى الحقيقة وهى أنه لص رسمى من أرباب السوابق والسجون .

وتضاحك هازئًا ثم سأله :

ـ ماذا قال لك عنا؟

أجاب يحيى بلا تردد :

ـ لا شىء . .

ـ هل تصدقنى القول؟

ـ أجل .

ـ سيفترى الأكاذيب عاجلاً أو آجلاً ولكنى سأروى لك قصته .

تساءل يحيى متضايقا :

ـ ما جدوى ذلك؟

فابتسم إليه ابتسامة صفراء وقال :

ـ إنها قصتك أيضا وقصة والدتك!

خفق قلبه ناشراً توقعات مبهمة ومقلقة، فواصل الآخر حديثه:

ـ إنه تاريخ لابد أن يعرف، لوجه الحقيقة والاعتبار، ولكى يتعرى جندى الأعور كما ينبغى له، وعند ذلك تعرف من أنت. الحقيقة أن جندى الأعور سرق أباك الحقيقى، لم يسرق ماله فقط ولكنه سرق أيضًا زوجته.

هتف مستنكرًا:

ـ أمى؟!..

ـ نعم، صبرك، بدأت الحكاية بتزامل أبى وأبيك فى السجن!

ـ لا!

بدرت منه فى حدة فقال بهدوء:

ـ صدقنى، ما أقول إلا الحقيقة، إن يكن ثمة عار فهو لاحق كلينا، لقد تزامل أبى جندى الأعور وأبوك عويس الدغل فى السجن، تزاملا عامين فقد دخل أبوك السجن حينما لم يبق من مدة أبى فيه إلا عامان، وقد دخلاه بتهمة واحدة على وجه التقريب. كانت تهمة أبى سرقة بالإكراه وتهمة أبيك السرقة للمرة الثالثة.

ارتعشت يدا يحيى من شدة الانفعال فصمت الآخر قليلاً ثم قال:

ـ إنى آسف، أرجو أن تتمالك نفسك، لا مفر من الكشف عن الحقيقة مهما تكن بشعة مرة. أقول لقد تزاملا فى العامين واطلع كل منهما على كثير من أسرار الآخر، وصارا بذلك صديقين، عرف أبوك أن أبى أرمل وأنه ترك وراءه فى الحارة شابا ضائعًا هو أنا، وعرف أبى أن أباك ترك زوجة ورضيعا هو أنت.

على رغم غضبه واحتجاجه شعر بأن الحكاية لا يمكن أن تكون محض خيال، فما من واقعة ذكرت إلا ويمكن التثبت من صدقها، ترى ماذا هناك أيضًا؟

ـ عرف أبى أن أباك سرق امرأة تدعى دليلة الفقى جعلت من مسكنها بنك رهونات، سرق الذهب كله، وادعى فى التحقيق أنه فقده، ولم توفق الشرطة فى العثور عليه. ولما غادر جندى الأعور السجن رجع إلى حارة التكية وهى أصلنا جميعا، رجع فى رأسه خطة.

بلغ يحيى نهاية فى اليأس والقهر ولكنه أصغى إلى محدثه ومعذبه بكل جوارحه فاستمر الرجل وهو يبتسم ابتسامة ظفر:

ـ أمك جميلة وكانت وقتذاك أجمل بالشباب، وكانت تكدح لتطعمك فى ظروف سيئة، فزارها أبى بوصفه صديقا لزوجها، ورهن نفسه لخدمتها. وكنت أراقبه على

كره منه إذ كنا دائمًا نتبادل سوء الظن والنفور وكان أيضًا يخشى جانبى. وما تدرى الحارة إلا وأمك تطالب بحقها فى الطلاق من أبيك، ثم تتزوج من أبى، ويقرران هجر الحارة، غير أنه اضطر إلى اصطحابى معه خوفًا منى!

سكت ليشرب قليلاً من الماء على حين انتظر الآخر فى كآبة وحزن، وقد شعر نحوه بمقت لم يشعر بمثله لإنسان من قبل. واستطرد محروس:

ـ سافرنا إلى الإسكندرية، ومضى أبى يبيع الذهب ويستثمر المال، وفى الحال أدركت أنه استولى على الكنز المسروق بإرشاد زوجته، ومضى يعمل ويثرى، وشيد القصر وابتنى العمارات، وتنكر فى صورة جديدة تناسب حياته الجديدة، بل عرف بالخير والإحسان، بفضل السرقة والغدر والخيانة، بفضل ثروة أبيك، وهى ثروتك إذا شئت، التى أدى أبوك ثمنها أعواما طويلة فى السجن من عمره.

نفخ يحيى غيظًا وقهرًا. آمن بأن حياته كانت سرابًا وأنه لم يبق منها ولا قبضة من تراب.

وضرب محروس الخوان براحته وقال:

ـ الحكاية قديمة أفلتت من قبضة القانون، ولكنها الحقيقة. إنه لا يحبك كما تتوهم، إنه لا يحب أحدًا، لقد كره ابنه الحقيقى فماذا تنتظر؟ وأنت صاحب الثروة والمذكر الدائم له بماضيه.

وسكت دقيقة طويلة ثقيلة ثم تساءل:

ـ ما رأيك فى الحكاية؟

فقال يحيى بجفاء:

ـ فظيعة لا تصدق.

ـ ألم تصدقنى؟

ـ لا أدرى ماذا أقول.

ـ لكن اليقين عند والدتك!

صمت قهرًا ويأسًا. أدرك مرماه الجهنمى. إنه ما استدعاه إلا ليعطيه الفتيل الذى يفجر به حياته وأهله. ولكن هل ثمة مهرب؟!

٦

خلا إلى نفسه فى حجرة مكتبه بحجة الاستعداد للامتحان ولكنه غرق فى همومه حتى قمة رأسه. إنه يتساءل دائمًا ماذا عليه أن يفعل. ويرى أنه يجب أن يبدأ من الصفر ولو تهاوى الحلم القديم فوق رأسه. كل شىء يدعو إلى التقزز وقد تحول إلى دودة ترتع فى الزبالة. وبدا أنه لم يحسن إخفاء ما يعتلج فى نفسه كما وضح له ذلك من نظرات عمه وأمه عندما تجمعهم المائدة. وإذا بأمه تسعى إليه فى خلوته. إنه يراها بعين جديدة. يرمق جمالها بأسى، يستشف وراء ربة القصر المرأة الكادحة المدعوة جميلة الأسطى. المرأة الخائنة. أجل إنها تزهو بالطول والعرض ولكنها محشوة بالقش. قالت بحنان:

- لا شك فى أنك حزين، ولذلك فإننى يائسة.

ولم ينبس. سحقا لأكاذيب الحياة كافة. قالت بإشفاق:

- لا شك فى أن عمك أطلعك على حقائق مرة.

هانت بالقياس إلى حقائق أخرى. قطب مصرا على الصمت فقالت:

- كلما أدركت مدى ألمك حز فى نفسى الألم، ولا شك فى أن احتمال فقد وداد احتمال أليم ولكنه لا يقاس بالكارثة التى عصفت بعمك.

فقال بجفاء:

- لا أوافقك على ذلك.

- يحيى.. تصور الأمر بعين عادلة.

فقال متخطيا حاجز التحفظ:

- ليس هذا بكل شىء.

فلاحت فى عينيها نظرة تساؤل، فقال متراجعًا:

- سوف يضيع العام الدراسى هدرًا!

فهتفت فى جزع:

- كان يجب أن تظل بمنأى عن همومنا.

- ما كان كان.

فتنهدت وقالت:

- لقد سمعت كلاما، وربما سمعت أكثر، تعلم كيف لا تكترث.

ـ كيف؟

ـ يحيى، تذكر ما تحوزه من فرص، إنك نجم هذا القصر، سيئول إليك كل شىء فيه، أمامك حياة طويلة عريضة ثرية، كل أولئك أشياء حقيقية، أما ما يقال فما هو إلا كلام لا يجوز أن يؤثر فى الأشياء الحقيقية، وداد نفسها بنت جميلة ولكن كم من جميلة تفوقها فى الإسكندرية!

فتساءل فى سخرية:

ـ والحب أليس له اعتبار عندك؟

ـ ما قيمته إذا ضيع فرص الحياة السعيدة؟

فعلى رغمه قال:

ـ لكنه قوة، بسببها ينتحر أناس ويقتل آخرون ويغدرون. .

فوجمت قليلا ثم تمتمت:

ـ العاقل لا يحرص عليه إلا إذا آمن بأنه طريقه إلى السعادة. .

إنه يحوم حولها ولكنه يشفق من الانقضاض عليها. أجل إنها تستوى أمام ناظريه امرأة ولكن وجدانه مازال ممتلئا بها كأم. يهم بتوجيه ضربة ولكنه يتوقع أن ترتد إلى صميم قلبه. ما كان يتصور أن يصدق كلمة مما قال محروس ولكنه تلقى كلامه فى وقت تزعزع فيه كل قائم. تلقاه بعد أن شهد الابن ساعيا لقتل أبيه، والأب طاردا ابنه وملوثا حرماته، فأى شىء لا يصدق؟ وإذا بها تقول وهى تتفرس فى وجهه:

ـ إنك لا تفتح قلبك لى. .

فلم يحر جوابا فقالت:

ـ لقد حدثك عن محروس؟

ـ أنت تعرفين ذلك. .

ـ وحدثك عن شريفة أيضا؟

ـ هل افترى عليها كذبا؟

فقالت بصوت متهدج:

ـ ما أبشع الصدق أحيانا!

فقال بتحد:

ـ كثيرا ما يكون كذلك.

ـ ولكنَّا يجب أن نقدس الحياة الموهوبة لنا!

ـ ولكنها تتمخض كثيرا عن أوهام وأشباح!

ـ ما أتعسنى بسماع ذلك .

فقال بتسليم :

ـ إنى تعيس حقا . .

فقالت برجاء حار :

ـ ولكننى مصممة على بعث الابتسامة فوق شفتيك !

٧

عندما ترامقا غاصا فى خيبة جديدة . كازينو جليم شبه خال ، الكوكاكولا والمغيب المقترب . قال لنفسه لو وجدتها مرحة سعيدة كالأيام الخالية لخاب أملى أكثر . قال لها بحنان :

ـ وداد . . لست على ما يرام .

ـ لست أسوأ حالا منى . .

ـ لقد توقفت تماما عن المذاكرة .

ـ سنة ضائعة لكلينا . .

جعل ينظر إليها وهى تهرب إلى الأفق الغارق فى البحر ، حتى سألته بنبرة محقق :

ـ ماذا قال لك أبى ؟

لم يدر ماذا يقول . العار مطوق لكليهما ، ولكن ما عسى أن يقول ؟ أخيرا تمتم :

ـ يخيل إلىّ أنك تعرفين كل شىء !

فلاذت بالصمت ، فإذا به يندفع قائلا وهو ما لم يغفره لنفسه :

ـ قضى علىّ بأن أسمع ما أكره ، تارة من أبيك وتارة من جدك !

أمالت وجهها نحوه فى ارتياب فغض بصره آسفا ، وعند ذاك سألته :

ـ ماذا قال جدى ؟

قال وكأنه يدافع عن زلته :

ـ علينا أن نعرف الحقيقة لنقرر مصيرنا ونحن على هدى ، ماذا سمعت ؟

فقالت بحزن :

ـ عين ما قيل لك ، ولا داعى لإعادته .

ـ القصة القديمة عن السجن والغدر؟

ـ القصة القديمة عن السجن والغدر، فماذا قال جدى؟

عاوده الاندفاع ليؤكد لها أنهما ينهلان من مستنقع واحد، قال:

ـ تكلم بدوره عن والديك.

فعاودها القلق والتوتر وقالت:

ـ أبى متهم، طيب، ماذا عن أمى؟

ـ لعله الغضب يا وداد.

ـ أريد أن أعرف ما عرفته.

ـ إنه سخف لا أكثر ولا أقل.

ـ كلا، إنك تصدق ما قيل، فما هو؟

ـ إننى فى حيرة.

فتساءلت بإصرار.

ـ ما هـو؟

ـ ماذا تتوقعين من رجل إذا أراد أن يعيب امرأة؟

اصفر وجهها، ازدردت ريقها، ثم قالت بحدة:

ـ أريد كلاما واضحا!

فقال ضارعا:

ـ لا تعذبينى فإننى كما ترين على أسوإ حال.

لاذت بصمت ثقيل أليم ثم تساءلت:

ـ ماذا بقى لنا؟

فقال بقوة لأول مرة:

ـ كل شىء، الحب..

ـ ما معنى الحب فى مثل حالنا؟

فردد معنى رددته أمه من قبل، ربما دون إيمان حقيقى:

ـ ما يهم هو الحياة الموهوبة لنا..

فقالت ساخرة:

ـ إذن فما علينا إلا أن نذاكر، ثم نمضى معا أرادوا ذلك أم لم يريدوه..

ـ هو ذلك!

فقالت بيأس :
ـ نحن نهذى يا يحيى .
ـ ولكن . . .
غير أنها قاطعته متسائلة :
ـ صارحنى بما تنوى عمله !
فقال مستسلما :
ـ جئت راجيا من تلاقينا أن يبعث فينا روحا جديدة .
فقالت بحدة :
ـ لكننا تبادلنا أنباء الفضائح والتعاسة .
ـ كان لابد من التعرض لذلك . .
فتساءلت بأسى :
ـ أين المحبان القديمان؟
ـ ها هما ذان ، أنا وأنت !
ـ يحيى ، إنك عاجز عن تجاهل ما سمعت !
ـ وأنت كذلك ، ولكننا سنقهر ما يعترضنا .
وساد الصمت والحزن . وعند ذاك استدعى شجاعته وقال بنبرة اعتراف :
ـ وداد ، قررت أن أسافر . . هذه هى الحقيقة !
فحدجته بنظرة متسائلة منزعجة ، فقال بالنبرة نفسها :
ـ قررت أن أسافر إلى القاهرة ، إلى الحارة . .
ـ أتعنى حقا ما تقول؟
ـ بيقــين ! . .
ـ خطوة غريبة تقطع بأنك أعجز ما تكون عن تجاهل ما سمعت؟ !
ـ إنها لا تقاوم . .
ـ هل تطمع من ورائها إلى خير؟
ـ يجب أن أقطع الشك باليقين .
فتساءلت بعد تردد :
ـ هبها أكدت ما سمعت؟
فتفكر قليلا ثم قال :

ـ ليكن، بوسعى بعد ذلك أن أقرر تجاهلها، بل لا معنى لتجاهلها إن لم أعرفها معرفة يقينية فى منبعها، ولا بديل عن ذلك سوى العذاب.

فرفعت منكبيها فى استسلام وهى تغيب فى مهوى الشمس المخضب بالاحمرار، وقالت:

ـ نصحتنى أمى بقطع علاقتى بك زاعمة أنها لن تجر وراءها إلا العذاب..

فقطب قلقا وهو يرمقها بعنف فقالت بهدوء:

ـ ولكننى رفضت النصيحة هازئة بما سمعت فانظر إلى موقفك أنت!

ـ أشكرك يا وداد، لا أتوقع منك قراراً آخر، ولكن لا تدعى الاستهانة، وإلا فما تفسير هذا الحزن القاتم الثقيل؟!

ـ إنها الصدمة المباغتة، والانهيار المنقض، وانتثار الأسرة الواحدة..

فقال متنهدا:

ـ لذلك قررت السفر!

ـ سافر إذا شئت أما قلبى فإنه يتوجس أوخم العواقب..

فتوسد راحتها براحته وقال:

ـ حبنا ثابت راسخ، إنه مثل الضوء لا يعنى اختفاؤه حينا إلا أنه يدور دورته ليريق ضحكته الإلهية فى الصباح التالى..

٨

ثمة جو جديد فى قصر رأس الحكمة ينفث رائحته الكئيبة. جندى بك لم يعد نفس الرجل، ولا جميلة هانم.. إنهما يبذلان جهدا لا يستهان به ليمارسا حياتهما اليومية فى هدوء وطمأنينة، كما كان الحال قبل الجريمة. الأسى يتجلى وراء الأقنعة كما يتجلى العمر وراء التصابر. أما هو فلم يلبس قناعا، ولم يبال بمشاعر الآخرين. وكانوا يحتسون القهوة بعد الغداء فى حجرة الجلوس الزرقاء عندما فاجأهما بقوله:

ـ إنى أستأذن فى السفر.

وقالت أمه بقلق:

ـ لم أتوقع ذلك، ولم يبق على الامتحان إلا أقل من شهرين.

ـ إنى لا أكاد أعمل، وبى اضطراب لا يمكن تجاهله، فلا بد من رحلة قصيرة للنقاهة..

ـ كان يجب أن تكون قد تغلبت على الكدر .

ـ لم أوفق إلى ذلك .

ـ ولكن أين تسافر؟

فأجاب بثبات :

ـ إلى مرسى مطروح .

فسأله جندى بك :

ـ أهذا قرار ضرورى؟

ـ أعتقد ذلك ، بضعة أيام أسترد بها صفائى . .

وهمت أمه بالاعتراض ولكن جندى بك قال :

ـ فليذهب ، وسوف يرجع على أحسن حال .

٩

إنه يقوم بأخطر رحلة فى حياته . رحلة المغامرة والتضحية والحقيقة . هى أيضا رحلة الهروب من العذاب . ربما إلى عذاب أعمق وأكثف . كأنه لم ير القاهرة قط ، كأنه من مواليد الإسكندرية . هجرها وهو ابن ثلاث ورجع إليها وهو ابن عشرين . دهمته القاهرة كأخطبوط خرافى . لم يجد شوقا للتقلب فى جنباتها فاخترق قطاعها الأوسط إلى الحى العتيق . أودع حقيبته فى حجرة بالكلوب المصرى وراح يدور من شارع إلى حارة . إلا حارة التكية أجل اقتحامه لها حتى يتشبع بالاستعداد . وقال له صوت من الداخل : «ماذا تفعل؟ لا تكن سخيفا ، ارجع من حيث أتيت ، انجح فى الامتحان ، انتظر وداد عامين ، تزوج بها ملقيا بالهموم جانبا ، مستهينا بجندى وعويس ، بجميلة وشريفة ، ليس فى الأمر مشكلة حقيقية» .

ولكن انتصب أمامه إغراء الحقيقة القاسى . على رغم شعوره بالعبث . وهل كانت إلا معركة بين لصين؟ ونادى عزيمته واقتحم الحارة . اقتحم الألوان الفاقعة والأصوات المتفجرة ، الحاضر الصاخب والماضى المتحفز ، النظرات المحملقة والقهقهات المتحشرجة ، نداءات الحرف المختلفة بالأصوات والدقات والروائح النافذة ، ومهرجان الأزياء من البدل والقفاطين والجلاليب فضلا عن الأجساد شبه العارية ، والعطفات والأزقة ، والبيوت المتداعية والعمارات الجديدة الشاهقة . ها هى ذى امرأة تنادى مثلما

كانت أمه تفعل، وها هو ذا رجل يتصعلك كما فعل أبوه وعمه، وها هو ذا طفل يلعب بفأر ميت ربما كما فعل هو. هنا تقررت مصائر عويس الدغل وجندى الأعور وجميلة الأسطى وشريفة الدهل. ذهب وجاء وهو يتساءل عن الراوى الذى سيهتك له حجب الظلام، من يكون؟ وأين يجده؟ ووقعت عيناه على عجوز قابع وراء صندوق الماركات فى المقهى الوحيد فحدس أن يجد فيه بغيته. وقد صدق الحدس. .

١٠

صدق حدسه فالرجل عجوز مقيم ومقهاه من معالم الحارة الأثرية. اختار أقرب مجلس إليه وراح يفكر فى وسيلة للنفاذ إليه واستدراجه للحديث. لفت نظر الرجل إليه ببقائه المتواصل وكرمه مع صبى القهوة. ونفد صبر صاحب المقهى العجوز فسأله باسما:

ـ أنت منهم؟

فتساءل ـ مرحبا بالحديث ـ عمن يقصدهم، فقال العجوز:

ـ رجال الجرائد؟

فانتهز الفرصة وزعم أنه منهم فقال العجوز:

ـ كثيرا ما يجيئون ويصورون ويأخذون ما يشاءون. .

فقال يحيى بدهاء:

ـ إنى أبحث عن حكايات، ولكل حكاية ثمنها!

فاختلج جفنا العجوز فوق عينيه الكليلتين وقال بإغراء:

ـ حارتنا حارة الحكايات. . ولكن لابد من جلسة كيف!

فوافق على شروطه ولكنه قال:

ـ تحت شرط أن نكون منفردين. .

* * *

هكذا جمعهما سطح مسكن العجوز. جلسا على وسادتين فوق كليم تحت ضوء النجوم تسعى حولهما دجاجات ناقة مقوقئة. تظاهر يحيى بأنه يدخن فجعل يملأ شدقيه بدخان الجوزة وينفثه فى قرف لم تتح للرجل رؤيته. ولم يضن عليه بما طلب من نقود. وصبر على ثرثرته عن أسعار البن والسكر والشاى وحكيه لبعض النوادر الدارجة ثم عجز عن كبت لهفته فقال:

ـ اسمع يا معلم سليمان، لقد سمعت من آخرين نتفا عن حكايات فلم يحظ بانتباهى إلا حكاية رجل يدعى عويس الدغل ولكنها جاءت ناقصة لا تشبع، فهل تعرف أصل هذه الحكاية؟

فسعل العجوز سعلة محترف وقال:

ـ عويس الدغل عليه اللعنة، إنه عظة كل مغفل فى حارتنا، ماذا سمعت؟

ـ لا أهمية لذلك، أريد أن أسمعها من راوية محنك مثلك، إنها حكاية مدهشة . .

ـ لا تدهش، عندما تبلغ من العمر ما بلغته فلن تدهش لشىء أبدا . .

ـ حقا؟! ولكن هل ما زال الرجل حيا؟

ـ وهل يبقى على ظهرها إلا الأشقياء؟

وضحك فجاراه فى ضحكه وهو يجد غمزا أليما فى قلبه، ثم سأله:

ـ ماذا يعمل؟

ـ إنه فى السبعين، تربية شوارع وسجون، وهو اليوم أحد ثلاثة فى حارتنا يرتزقون من توزيع الكيف . .

ـ إذن فهو فى عيشة راضية؟

ـ لا، موزع القطاعى محدود الرزق، تكون حاله أحسن إذا قام به، بالإضافة إلى عمل آخر، ولكن عويس لم يحترف عملا شريفا فى حياته، وعجز أخيرا عن السرقة!

اجتاحته رغبة فى البكاء فقاومها بعنف ساءت به حاله، وقال العجوز:

ـ إنه يعيش فى بدروم فى آخر ربع قبل البهو وإن شئت أن تراه أرسلت فى طلبه؟

فقال بسرعة:

ـ فلنؤجل ذلك . .

ـ لعله نسى.

ـ نسى؟

ـ غدر جندى الأعور وخيانة زوجته، ألم يحكوا لك ذلك؟

ـ بلى، زمالة السجن، الطلاق، والهرب بالذهب والزوجة والابن . .

ـ عندما خرج من السجن أقسم ليقتلنهما، وجدّ فى البحث عنهما ما وسعه ذلك، وعاش دهرا كالمجنون . .

فقال يحيى بصوت منخفض كيلا يفضح تأثره:

ـ حكاية غريبة.

فقال العجوز بلهجة منتقدة :

ـ الحق عليه ، لقد كانت المرأة عاهرة محترفة فتزوج بها ، ماذا يتوقع من مثيلاتها؟

آه . . حمدا للظلام ، إنه يتحلل مثل جثة الميت . لم يذكر محروس شيئا عن ذلك اتقاء لغضبه غالبا . وها هو ذا يتلقى الحقيقة كلسان من لهب . ها هو ذا . آه ما أفظع الألم!

وواصل الرجل العجوز حديثه منتشيا بأهميته :

ـ أين ذهب جندى الأعور والمرأة والطفل؟ لم يعلم أحد ، وحتى اليوم لا يدرى عنهم شيئا ، ونسى عويس الدغل الحكاية كما نسيتها الحارة ، ولا شك عندى فى أنه اليوم فى ا لسجن وربما الطفل أيضا . أما المرأة فلا محيد لها من الرجوع إلى مهنتها الأصلية . .

إنه يهبط درجات من الألم أردته إلى أعماق الجحيم فى معزل عن الدنيا جميعا ، إنه سقيم فى كون موبوء لم يبق له من الغذاء إلا السخرية ، وقال العجوز :

ـ عندما قبض على عويس هرعت دليلة الفقى صاحبة الرهونات إلى المرأة ، توسلت إليها أن ترد الذهب اتقاء لغضب الراهنات والراهنين ، فأقسمت بأغلظ الأيمان أنها لا تدرى عنه شيئا ، وقصدها الفقراء أصحاب الذهب المرهون يتوسلون ويبكون ، أكثرهن نسوة كادحات يشترين الذهب لوقت الحاجة ويرهنه ، عند الضرورة . .

فتمتم يحيى بذهول :

ـ أولئك هن صاحبات الثروة المسروقة!

ـ دون غيرهن ، وهن اليوم فى هذا الغلاء لا يجدن اللقمة إلا بالعذاب ، ولعلهن صدقنها فى وقتها حتى ظهر جندى الأعور وهرب بها فتأكدن بأنه ما لعب لعبته إلا من أجل الذهب المسروق . .

فقال يحيى بأسى :

ـ هن وحدهن صاحبات المال الحلال . .

ـ أما عويس وجندى فلم يكونا إلا لصين وبرمجيين ، وقد نال عويس جزاءه فى السجن وخارجه ، ولا يدرى أحد إلا بالظن بما حل بجندى . .

وضحك العجوز ضحكة ساخرة واستطرد :

ـ وقد كان لجندى ابن قواد!

ـ ابن جندى الأعور؟!

ـ نعم ، وقيل إنه ابن حرام ، وإن جندى كان يؤمن بذلك ولكنه كان يخشاه ، ولذلك أخذه معه اتقاء لشره ، ولعل الولد كان يراقب أباه وزوجة عويس حتى لا يفلتا من قبضته بالغنيمة ، وقد تزوج الابن من امرأة محترفة جميلة وكان يقدمها للأعيان!

فتساءل يحيى :

ـ ترى ماذا يفعل عويس لو عثر على جندى الأعور فوجده خلافا لظنك بنعم بالجاه والثروة؟!

فقهقه العجوز وقال :

ـ ماذا بقى من عويس القديم؟ هل يقتل؟ هل يبسط يديه فى ذل سائلا ما يجود به الآخر؟ كلهم لصوص برمجية أوغاد، وليرحم الله ضحاياهم المساكين!

١١

رآه واقفا كالنائم مركونا إلى جدار الربع. هيكل خلا من مقومات القوة، كليل البصر لا يرى أبعد من متر، غائر العينين بارز الجبهة أصلع نابت شعر الذقن يمرق عنقه من جلباب لا لون له من تلبد الغبار والأوساخ عليه حافى القدمين. مر أمامه ذهابا وإيابا فلم ينتبه الرجل إليه ولم يشعر هو نحوه بأى عاطفة ولكن اجتاحه إحساس شامل بالتقزز والاحتجاج والتمرد. لا يستطيع أن يقدم له شيئا ولا أن يأخذ منه شيئا. إنه غريب تماما ولكنه على رغم غربته قلب حياته رأسا على عقب. مضى ورأسه يشتعل بالأفكار المحمومة. هذا هو أبوه عويس الدغل وهذه هى أمه جميلة الأسطى. وهناك أيضا والدا وداد محروس جندى وشريفة الدهل. إنه ليس الفقر ما يخجل ولكنه الانحطاط. فى هذه القضية يستحق السارق والمسروق لعنة واحدة.

وقد أراد أن يتثبت فجاءه اليقين نافثا رائحته النتنة. ما عسى أن يفعل؟ ماذا يقبل؟ وماذا يرفض؟ الحيرة تمزقه وعليه أن يتخذ موقفا قبل أن يتبعثر بددا. إنه يحترق، لا يمكن أن يحتمل النار إلى ما شاء الله، ولا يمكن أن تمضى الحياة كما مضت على عهد الغيبوبة السعيدة، وله أن يفكر ولكن فليحذر الدوران مع الدوامة بلا عمل حاسم.

إنه بحاجة ماسة إلى وداد، ليتبادلا الرأى، وليتفقا على خطة موحدة. هل يطلق الكلاب المسعورة بعضها على بعض لتقول العدالة كلمتها القاسية فى عويس وجندى ومحروس والجميع؟! قواه الغاضبة تود أن تفعل ذلك وإلا فلا معنى لأى شىء. وإلا فكيف يخرج من الجحيم؟ ولكن لابد من مشاورة وداد. يجب أن تتكلم جميع جوانب نفسه. إنه يرفض أباه وأمه وعمه، ويود أن يوجه ضربات مذهلة.

١٢

وافته وداد إلى كازينو جليم . من أول نظرة من وجهه ارتسم القلق فى وجهها . قال لها محذرا :

ـ لا أحد يعلم بوجودى فى الإسكندرية . .

فسألته بدهشة :

ـ ولم تخفيه؟

ـ ربما رجعت إلى القاهرة مرة أخرى . .

فقالت متوجسة :

ـ هل دعوتنى لتحملنى مزيدا من الهم؟ إنى أعيش أتعس أيام حياتى . .

فقال بهدوء مخيف :

ـ يسعدنى أن أسمع ذلك ، شعور التعاسة فى مثل حالنا هو ما يهبنا الجدارة بالحياة الكريمة ، فلنترك السفلة ينعمون بالحياة فى غمرة سفالتهم . .

ازدادت قلقا ، أما هو فإن وحشية التجربة دفعته بقوة مستهترة إلى المكاشفة قال :

ـ قطعت رحلتى ولكننى سأرجع ، شعرت بالحاجة الماسة إلى مشاورتك . علينا أن ننتهى إلى موقف موحد .

ـ إنك منفعل إلى درجة تخيفنى . .

ـ لا أنكر ذلك ، تلزمنا إرادة حديدية لنستحق حياة نظيفة ، ليس الأمر هزلا ، ولن أباهى بظاهر براق إذا كان الباطن عفنا ، أريد أن أرفض الحياة القذرة . .

قطبت متفكرة فقال :

ـ سأصارحك بالكثير ، المصارحة بكل شىء فوق طاقتى ولكنك ذكية وتكفيك الإشارة . الحياة التى نعمنا بها طويلا حياة زائفة قذرة مهينة ، هناك فى الحارة عرفت أصول الأشياء ، من أبى ومن أمى ، من جدك ومن أبوك ومن أمك . إنه العار والقذارة ، المرارة تنسينى اللياقة ، تنسينى الترفق بك ولكنى لا أترفق بنفسى أيضا ، الماضى كله قذر ، لا يجوز أن يمتد فى الحاضر ، علينا أن نقرر . .

ازداد وجهها الجميل شحوبا وتجلت فى عينيها نظرة كئيبة . قرأها بعمق فخطر له احتمال مخيف وهو أنها قد يفقدها إلى الأبد ، وأن يتوه بلا قطرة عزاء فى جحيم المحنة . لكنه كان مشحونا أيضا بثورة طاغية . كان يعانى مقتا لمقدساته القديمة تساءلت :

ـ هل لديك أدلة قاطعة؟

فتفكر قليلا وقال :

ـ التاريخ نفسه لا يملك أدلة أقوى !

فلاذت بالصمت . ولاحظ هو أنها تتجنب المزيد من الإيضاحات . لم تسأله مثلا عما عرف عن والديها . ربما بدافع من الإشفاق وربما لأنها فى غير حاجة إلى سؤال . قال :

ـ فلنطرح الحلول الممكنة أولا ، فثمة حل هو أن نتجاهل الماضى بشره ونواصل حياة تحسدنا عليها الملايين !

فبرقت عيناها وقالت وكأنها تستغيث :

ـ فى بيتنا يتوقعون أن ينزل جدى لنا عن عمارة ولو دفعا للشر ، يتوقعون أيضا أنه سيملكك ثروته بعد وفاته . .

فساءه أنها تعلقت باقتراح لم يطرحه إلا بدافع الإحصاء وقال :

ـ الحل الثانى أن نرفض القوم وثروتهم وننجو بأنفسنا مهما تكن العواقب لنحيا حياة نقية جديرة بالكرامة . .

فلاحت متفكرة بعمق وصامتة فقال :

ـ لا أخفى عنك أن بى ثورة لا تقنع بذلك ، لذلك أفكر فى حل ثالث وهو أن أحرش الشياطين بعضها على بعض حتى لا يفلتوا من العقوبة الرادعة ، ولكى تعود إلى الأشياء معانيها . .

فرمقته بارتياع وتمتمت :

ـ إنك تتحدث بجدية تنذر بأوخم العواقب . .

فتساءل متجاهلا قولها :

ـ أى حل نختار يا وداد؟

فقالت بانفعال :

ـ مهما تكن الأخطاء فإننى أرفض أن أقيم من نفسى قاضيا للحكم على والدى ، ولا أسمح بأن يصيبهما مكروه على يدى ، بل لا أسمح أن يصيبهما مكروه إن استطعت دفعه ، ذنبهما على جنبهما كما يقال . .

إنها واضحة وضوحا حفر هوة بينهما . تساءل فى وجوم :

ـ حقا ترفضين؟

ـ وأيضا الحل الثانى أراه خياليا ، هبنا تبرأنا منهم فكيف نلقى الحياة بعد ذلك؟ سنضطر عند ذاك إلى الانقطاع عن التعليم ، ولن نجد عملا ، فهل نموت جوعا أو ننحرف مثلهم؟ إنه حل جميل تهفو النفس إليه ولكنه ليس عمليا يا يحيى . .

أى خيبة تجىء فى إثر خيبة؟! إنه فى واد وهى فى واد. هل تكشف له الأحداث عن شخصية أخرى تحت الشخصية المحبوبة؟! أما هى فواصلت وقلقها يزداد لشعورها بالفارق الكبير بين فتورها وحماسه:

- إننى متألمة مثلك، متقززة مثلك، غير أننى أرى أننا - أنا وأنت - لا نستحق أن نتحمل وزر ما ارتكبه الآخرون. فلنتجاهل الماضى الأليم، لنمض فى حياتنا لا يفرق بيننا شىء. ذلك حتى إذا آلت الثروة يوما إليك فلك أن تفعل بها ما يرضى ضميرك ويكفر عن أخطاء وجرائم الآخرين..

فقال بازدراء:

- معنى ذلك أن نرضى بنعيم اللصوصية والعهر..

- نحن نرضى بواقع علاقتنا بآبائنا..

فتساءل بغضب:

- وبعد أن رأيت بعينى البؤساء الذين هم أصحاب الثروة المسروقة؟!

فقالت بإصرار:

- نحن أبرياء، لم نرتكب إثما، بل نحن ضحايا لما نعانى من عذاب، ومن الحماقة أن نرمى بأنفسنا للضياع ونحن نمد يدنا لقطف ثمرة كد السنين، فلنصبر ولو على الأقل حتى نقف على أقدامنا!

فتساءل بحزن:

- أهذا رأيك؟

- يحيى، كن حريصا على حبنا حرصى عليه، لسنا قضاة ولا شرطة. وإذا أردت هجرهم لفورنا ففكر قليلا فى العواقب، هبنى قلت لك إنى معك فما الخطوة التالية؟ ماذا نعمل؟ أين نعيش؟ أعطنى إجابات محددة وأنا معك، لا أريد أن أقوم بمغامرة ثم أسقط فى الضياع..

فقال بصوت خامل محشرج بالخيبة:

- ليس عندى جواب محدد، لسانك يجرى بمنطق العقل، والعقل أسمج محدث فى موقفنا هذا. الجنون ما ننشد، أعنى الجنون المقدس..

- أرجو أن أكون واضحة تماما، أنا لا أتعامل مع الجنون المقدس، ولعلى لا أعرف جنونا مقدسا، وأنت فريسة للغضب. فعليك أن تعيد التفكير وأنت هادئ متمالك لا نفعالاتك..

فقال بعد تردد:

ـ أرى أننا مختلفان!

ـ كلا، من ناحية الشعور فنحن شخص واحد، لا أفرط فيك على رغم الحملات المتتابعة، وفى الوقت المناسب سأقرر مصيرى بنفسى، ولكنى أرفض المغامرات الجنونية!

بقدر ما حاصره منطقها ثار عليه، وكلما اشتد الحصار اشتدت به الثورة. ولكنه انهزم. على الأقل لم يمض فى اندفاعه إلى نهايته. أجل اتخاذ القرار. أجله وهو من القلق والحيرة فى نهاية. وهما يغادران الكازينو ضغطت على ذراعه التى تتأبطها إعرابا عن تمسكها به..

١٣

عندما ودعته قال فى نفسه إنها تطالبنى بالصبر ولو حتى الامتحان ولكن ألا يستوى أن أصبر شهرا أو عمرا؟! إنها مسألة مبدإ لا وقت. وقد انكشف عالمه عن حقيقته البشعة القذرة، فكيف يقبله دقيقة واحدة؟ ما زالت نقود عمه فى جيبه، يذهب ويجىء بها، وينعم بقوتها الفريدة. على رغم ذلك كله ما زال مترددا ولما يتخذ قراره. ترى لو رفع صوت العقل فى كل حين أكان يستشهد شهيد؟! العقل يحكم فى الفلك لا فى السلوك. إما براءة وإما قذارة. هل يظل ابن لص وعاهرة؟ ولو كانت المعركة صراعا بين لصوص لهان الأمر بعض الشىء ولكنها جناية وحشية ضحاياها أتعس تعساء البشرية!

وتفكر أيضا وهو ماض على الكورنيش أنه لم يبلغ ما بلغ من التربية والتهذيب والمستوى إلا بفضل النهب والدعارة فتضاعف امتعاضه وأساه. وهو على تلك الحال وجد نفسه يتجه نحو قصر رأس الحكمة. ليس لديه قرار نهائى ولكنه سيلقى الموقف بتلقائية ولينظر كيف تتطور الأحداث. مر بعمه وهو يشارب رجلا غريبا فى الدائرة الخضراء، رحب به الرجل وقال بنبرة المنتصر:

ـ قلت إنك ستضيق بالوحدة فترجع سريعا.

أما أمه فهرعت إلى حجرته متألقة بالسرور وقالت:

ـ خير ما فعلت، لا وقت لديك تضيعه وقد استجاب الله لدعائى..

جلست قبالته وهو يجذب نفسه من بحر الانفعالات الذى يشده إلى أعماقه. بين أمواج متلاطمة من النفور والازدراء والولاء. هاهى ذى تقول إنها تعرف الله وتدعوه وأنه يستجيب لها. وهى تجلس مطمئنة ملقية القدمين على وسادة مزركشة، جميلة

وفخيمة وربة قصر، وأى قصر؟! رياح الثورة ما زالت تعصف بأركانه ولكن يقاومها إشفاق لا يخلو من قداسة. ما زال يذكر بشدة منظر أبيه ومناظر الضحايا فيغص بالمرارة. غير أن الرحلة اقتلعت من صميمه التردد والحياء فلذلك اندفع يقول بلا روية:

ـ الحق أننى لم أسافر إلى مرسى مطروح!

ـ حقا؟ إذن أين كنت يا حبيبى؟

فأجاب ببرود منذر بالويلات:

ـ كنت فى حارة التكية بالقاهرة!

تلاشت البهجة فجأة من صفحة وجهها كأنها مصباح كهربائى انقطع عنه التيار. شحب لونها وهى ترنو إليه بوجوم واستسلام. لأول مرة يراها وهى مسحوقة بلا حيوية ولا كبرياء. وجاءه صوتها وانيا متسائلا:

ـ ماذا أذهبك إلى هناك؟ بل من دلك عليها؟

فلوح بيده ولم ينبس، فقالت:

ـ محروس؟!

ـ ما أهمية ذلك؟

وساد الصمت حتى أوشك أن يرثى لها، أوشك أن يندم على ما بدر منه. طال الصمت، وفيه قيل كل شىء بلا كلام. لم يتكلم ولم تسأل. كفى اسم الحارة لبعث تاريخ طويل بكل تفاصيله. ثم نكست رأسها ففقد القدرة على النطق. وقال لنفسه إنه لن يتيسر له البقاء بعد ذلك. لا قتال ولا سلام. ها هى ذى تقوم متثاقلة وكأنها طعنت فى الشيخوخة. مضت نحو الباب فتابعها بعين مودعة. غير أنها وقفت فجأة فوق العتبة. لبثت واقفة دقيقة كاملة. واستدارت بحركة لا تخلو من شدة. تجلى له وجهها جامدا ومتحديا ثم أقبلت نحو مجلسها بتصميم جديد. نظرت إليه مضيقة عينيها وقالت برزانة أضفت عليها ثقة:

ـ يحيى، ماذا أقول؟ ولكن عليك أن تسمعنى، وقبل ذلك أسألك ماذا عرفت؟

فأجاب وهو ينفخ:

ـ كل شىء..

ـ الأمر لله، عليك أن تسمعنى، لقد وجدت نفسى ذات يوم وحيدة منبوذة مكروهة مع وليد رضيع..

ثم وهى تزدرد ريقها:

ـ كان الطفل أمومتى الأولى والأخيرة فغير نظرتى للأشياء..

وتريثت حتى تعالج أنفاسها وواصلت :

ـ ثم ظهر فى حياتى رجل يدعى جندى الأعور . .

تفرست فى وجهه الواجم ثم قالت :

ـ لم يكن جندى الأعور خيرا من عويس الدغل ولا عويس الدغل خيرا من جندى الأعور، ولكن كان قدرى أن أجد نفسى دائما بين يدى أحد من أمثالهما ، ولم يكن يشغلنى وقتذاك إلا أن أجد مأوى لى ولابنى ففعلت ما فعلت . أى دناءة فى هجر لص من أجل لص آخر؟ ! وأى حظ كنت تتوقعه لو انتظرت أباك حتى يفرج عنه؟ وهل تدري أى وحش كان؟ !

تنهدت بصوت مسموع ، وبدت كمن نجا من الغرق بمعجزة ولكنه لم يبلغ الشاطئ بعد ، وقالت بصوت استمد من الشجاعة بعض القوة :

ـ وما كنته قبل أبيك كان محنة لا خطيئة ، لقد وجدت نفسى وحيدة ضائعة منذ صباى ، وما احترفت شيئا به إغراء لأى آدمى ، ولكن أين لمثلك ممن تربوا فى أحضان النعيم أن يدركوا ذلك؟ !

ها هى ذى تسخر منه أيضا ، وها هو ذا يخنس أكثر وأكثر وقد تداعت أركان مملكته . وقد زادت الأمور تعقيدا واكتنف اتخاذ القرار صعوبات جديدة . أما الأم فمضت تقول :

ـ ولأول مرة يغير جندى الأعور مسلكه فى الحياة فيقرر استثمار ماله عادلا عن الصعلكة والبرمجة ، مصمما على تمثيل دور جديد ، دور رجل الأعمال المحسن الكريم ، ما مدى إخلاصه؟ لا أدرى عن ذلك شيئا ولكن حسبنا أنه صار رجلا آخر وأنه أنشأك نشأة نبيلة ، وبوسعى أن أؤكد لك أنه يحبك . إنه ما أحب محروس قط ، كان دائما يخافه ويتوهم أنه ابن رجل آخر ، ويئس تماما من تغيير سلوكه ، فلم يبق له من عزاء سواك ، ولا أستطيع أن أحكم على ماضيه بغير العين التى أحكم بها على نفسى . كان ضائعا مثلى ومثل أبيك . نحن لا يديننا إلا من لم يذق مرارة العيش مثلنا ، حتى شريفة الدهل كانت مثلنا ، أقول ذلك على رغم الكره المتبادل بيننا . .

لم يرفع عينيه من الأرض ولم ينبس فواصلت بحرارة جديدة :

ـ إنى أتصور الضربة التى زلزلتك ، ألمسها فى وجهك ، فى رحلتك المخيفة ، ولكن لا أحد يستحق أن يكون هدفا لمقتك وغضبك ، إذا علمتك المأساة أن تحزن وتثور فتعلم منها أيضا أن تفهم . .

فتمتم بعد صمت طويل :

ـ ما لا عزاء فيه هو أنكم سرقتم أتعس التعساء . .

ـ ما الحيلة؟ ولكن لا تنس أننا كنا أتعس منهم . .

فتفكر مليا ثم قال :

ـ قد لا يكون لى حق المحاكمة ولكن واجبى أن أرفض .

ـ ترفض ماذا؟

ـ هذه الحياة التى لا يمكن الدفاع عن قذارتها !

فقالت بجزع :

ـ يا له من قرار خاطئ، لماذا؟ ما مضى مضى وانقضى . عمك اليوم يرغب فى أن يورثك ثروته وقد شاور محاميه فى الأمر ، ثم إنك برىء ولا شأن لك بأخطاء الآخرين !

فأشار إلى صدره وقال :

ـ الرفض من هنا ولا حيلة لى .

فتوسلت إليه قائلة :

ـ هلا أجلت التفكير فى ذلك حتى تنتهى من امتحانك؟

ـ آه . . بأى عقل أتقدم للامتحان؟

فقالت بقوة :

ـ احبس نفسك فى مكتبك كما تعودت أن تفعل ، واحذر أن يعلم عمك بما عرفت أو بما يدور فى عقلك . أعترف بأنه غبى وسيئ الظن بالبشر ، أجل كل شىء ولا تشغل نفسك الآن إلا بالامتحان . .

١٤

قرر يحيى أن يتأهب للامتحان فخاض معركة ليجمع فكره المشتت المبعثر . أراح قراره أمه ووداد وبعث فى نفسيهما آمالا جديدة . لم يكن راضيا عن نفسه ، كان أبعد ما يكون عن ذلك ، عد نفسه مترديا فى السقوط مثل آله ودون أن يملك من الأعذار ما يملكون . وواساه فى عذابه أنه مصمم على الرفض عقب انتهاء المرحلة التعليمية ، وأن هذا الرفض لا يعنى نبذ الحياة فى القصر فحسب ولكنه يعني أيضا رفض ثروة جندى بك الهائلة .

غير أن أحداثا غير متوقعة انفجرت تحت قدميه ، فما يدري ذات يوم إلا وجندى بك الأعور يقتحم عليه غرفة مكتبه . جاء مكفهر الوجه عدوانى النظرات ثم وقف فى وسط الغرفة وخاطبه بلهجة لم يعهدها من قبل قائلا :

ـ لدى سؤال عليك أن تجيبنى عنه .

واشتدت نظرته صلابة وهو يسأل :

ـ هل زرت حقا حارة التكية بالقاهرة؟

ذهل يحيى . تساءل فى نفسه عمن أبلغه . ليست أمه على وجه اليقين . غير أنه لم يفكر لحظة فى الإنكار فقال بتحد :

ـ نعـــم . .

فصرخ الرجل :

ـ إذن فكل ما بلغنى صحيح ، والآن دعنى أسألك عما يبقيك فى بيتى؟

اصفر وجهه . هل أجل الرفض ليطرد؟ غلى دمه . قال متحديا :

ـ إنه بيتى قبل أن يكون بيتك!

قهقه جندى بوحشية وصاح :

ـ عليك اللعنة ، لقد اعتدت أن أوجه عشر ضربات قبل أن أتلقى الضربة الغادرة . إنى لا أخشاك ، لا أخشى أباك ، ولا أخشى أمك ، لقد أرادت هى أيضا أن تدافع عنك ، وتمادت فى الغباء فهددتنى . اسمع ، إنى أطردك ، إنى أطردها أيضا ، فلا ترنى وجهك بعد اليوم . .

وغادر الحجرة وهو يرتعش من شدة الغضب .

١٥

هكذا وجد يحيى نفسه وأمه وحيدين فى حجرة ببنسيون الدلتا . هو لا يملك مليمًا وهى لا تملك إلا مؤخر صداقها . وعلى رغم الانفعالات التى تعصف بهما قالت له :

ـ أى نهاية! أنا صاحبة كل شىء ، ولكن لننس همومنا ، عليك أن تنجح ، هى فرصتك الأخيرة ، بل هى فرصتنا الأخيرة!

هو أيضًا مقتنع بذلك ومصمم عليه وليس أقل منها إحساسًا بالخطر ، غير أنه قال بحنق :

ـ لن يفلت المجرمون بلا عقاب .

فقالت بحرارة :

ـ لا تفكر إلا فى الامتحان .

ـ ولكن . . كيف عرف الرجل؟

ـ إنى أتصور ما حدث كما لو كنت شاهدة له، لقد أفضيت أنت بسر الرحلة إلى وداد، ما تعرفه وداد تعرفه أمها، أمها وجدت فيما سمعت ما يستحق أن تبلغه محروس، محروس وجد فيه ما يجب أن يوصله ـ بطريقة ما ـ إلى جندى الأعور ليقضى عليك أو علينا معًا وبذلك يمنعه من التصرف فى الثروة، جندى الغبى اعتقد أنك تبيت له أمرا فساء ظنه بك وبى وربما بأبيك أيضًا، قرر أن يتخلص منا قبل أن نتخلص منه. لا أحد يدرى ماذا ستكون الخطوة التالية، ولكن كل ذلك لا يهم، ما يهمنا شىء واحد هو نجاحك.

إنه مقتنع بذلك ومصمم عليه وليس أقل منها إحساسًا بالخطر. حتى الحنق، عليه أن يحبسه إلى حين.

وعندما التقى بوداد فى ركنهما بجليم دمعت عيناها وقالت بتأثر شديد:

ـ إنى آسفة يا يحيى، إن الحوادث جعلت من أبى رجلاً شريرًا!

فرفع منكبيه استهانة ولم يجد ما يقوله فقالت:

ـ أى ظلم وقع على والدتك!

أراد أن يقول إنه جزاء عادل وإنه يجب أن يبوح لها بأسرار غضبه، ولكنه شعر بأن علاقتهما صامدة أمام العواصف.

١٦

وجد أنه لن يستطيع التفرغ لدراسته إن لم ينفس عن غضبه بضربة عاجلة. فكر مليّا ثم قرر السفر إلى أبيه ليدله على مكان جندى الأعور وحقيقته. إنها مغامرة قد يستطيع أن يتكهن بعواقبها ولكن يحتمل أن يأكل الشر بعضه البعض. واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه قرار مخيف لا يبرره إلا الغضب والرغبة الجنونية فى رد الضربة بمثلها. وسافر دون أن يخطر أمه بنواياه. واقتحم الحارة منقبا عن عويس الدغل. ولما أعياه التنقيب قصد إلى صديقه العجوز عم سليمان صاحب المقهى. وقال له العجوز:

ـ جئت متأخرًا، قبض على عويس الدغل أول أمس!

فذهل يحيى وتساءل:

ـ هل رجع إلى السرقة؟

ـ بتهمة توزيع المخدرات، ولكن الحارة تردد حكاية غريبة!

وأعاد الرجل على مسمعه الحكاية وهى أن جندى الأعور علم أن سره بلغ عويس وأنه يدبر له أمراً فاستأجر شخصا للإيقاع به وتم له ما أراد!

وختم العجوز حكايته قائلاً:

ـ من السجن إلى القبر هذه المرة!

هكذا رجع خائب الرجاء ولكن غضبه جاوز النهاية. لم يعد يفكر إلا فى الانتقام من جندى الأعور ولو كلفه ذلك حياته.

١٧

فى الإسكندرية وجد أن الحوادث سبقته مرة أخرى. فى اليوم نفسه حدث ما حدث، وكانت أمه هى الراوية. فقد عرف أن جندى الأعور شارع فى الزواج من فتاة دون العشرين وأنه يماطل فى النزول عن إحدى عماراته لابنه محروس. تربص له محروس عند مغادرته مكتبه التجارى وقتله. هكذا ضاع الرجلان. استمع يحيى إلى الحكاية بذهول ولكنه لم يشعر بأسف. على العكس فقد زال توتر أعصابه لأول مرة منذ زمن طويل. ولكن سرعان ما اتجه تفكيره نحو وداد فتساءل:

ـ ما مصير الأسرة التى خلفها محروس؟

فأجابت أمه:

ـ لا يختلف عن مصيرنا.

فقال بقلق:

ـ ولكن وداد لن تنتهى من دراستها قبل عامين.

فقالت الأم:

ـ لدى أمها من الحلى ما يسترهم هذه المدة.

١٨

وقف عم عمارة الجعفرى البواب يلقى نظرة الوداع على القصر الأبيض. فاقت الأحداث تصوره وخياله ولكن طول العمر يهدهد الأحزان.. وراح الرجل يقول:

ـ لم يعد له صاحب هذا القصر الهائل، ستجف الأشجار وتذوى الأزهار، وسيجىء الربيع القادم فيجد الأبواب والنوافذ مغلقة والحديقة خرابة، وصاحب القصر ووريثه بين يدى علام الغيوب، من نحن حتى نفهم ما يدور حولنا؟ ولكنا نقول مع القائلين ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾.

الربيـــع القـــادم

١

إنه يوم عادى ولكنه سرعان ما انقلب فاجتاحته عاصفة هوجاء. وتذكر ربة البيت أن تاريخه يخلو من الهزات العنيفة. مسراته عادية ومتاعبه عادية، وغوصه فى عسر المعيشة مضى وئيدا، خطوة بعد خطوة، بلا طفرات، وهوّن منه بعض الشىء أن الجميع يشاركونه فى العناء ويتبادلون الشكوى. إلى ذلك فهى ربة أسرة تحظى بمزايا لا يستهان بها، فالأب ناظر مدرسة ثانوية، وهى كانت مدرسة أولى بالثانوية حتى وقت قريب. واستمرارها فى العمل كان مسلما به لولا إصابتها بارتفاع فى ضغط الدم، واقتران بخروج خادمتها عنايات فضل الله من خدمتها منذ أشهر للزواج من ابن عمها. وعنايات لبثت فى بيتها عشرة أعوام مذ بلغت السابعة عقب وفاة والدها وحتى استردتها أمها، وهكذا حملت جمالات ـ ربة البيت ـ الأعباء وحدها وقد تعذر الحصول على خادم إما لندرته وإما لارتفاع أجره ارتفاعًا غير محتمل.

لم يخل بيتها فيما مضى من خادم، أما اليوم فعليها أن تنهض وحدها وأن تلاطف أيضًا ما استطاعت ضغط الدم. تستيقظ مبكرة على رنين المنبه لتعد الإفطار لزوجها محمد فتحى ولأبنائها الثلاثة، زغلول (طالب طب) ورمضان (ثانوية عامة) ومحمود (الثانية الثانوية). وعندما يغادرون البيت تعكف على تنظيفه وترتيبه ثم تذهب للتسوق من سوق المنيل غير بعيد من شارع العاصى حيث تقوم عمارتهم، ثم ترجع لتعد الغداء. ويضايقها بصفة خاصة تنظيف الأوانى والأوعية وغسل الحمام والمطبخ، ولم تجد ما تستعين به فى ذلك سوى قفاز من البلاستيك. ولم يبق من اليوم ما تهبه للقراءة إلا وقت قصير تتصفح فيه الجريدة أو كتابًا من المكتبة التى كونتها ـ هى وزوجها ـ منذ أيام اليسر.

أجل كانت الحياة يسيرة واعدة، وكان ثمة مرتبان ينفقان عليها، ثم أخذ الغلاء يدب ويزحف ويتمطى وينجلى عن وحش لا يرحم، وسرعان ما عجز مرتب الزوج ومعاشها

عن ترويضه، فاضطر محمد فتحى إلى إعطاء دروس خصوصية على رغم مخالفة ذلك التقاليد، وودت هى أن تفعل مثله لولا ضيق وقتها بعد ذهاب عنايات. وتوجست خيفة من المستقبل وتساءلت: متى يكبح الغلاء؟ وهل يفلت من يدها الزمام؟. وهل يمكن أن تطالب زغلول ورمضان ومحمود بمزيد من التقشف؟! وليس من النادر أن يعرب محمد فتحى عن عذره فيقول:

- إنى رجل بيت مثالى، من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، كل ما يجيئنى من نقود أسلمه لك عدا ثمن السجائر والمواصلات.

ويردف ذلك عادة بتحية يزجيها إليها فيقول:

- والحمد لله أنك يا جمالات امرأة حكيمة مدبرة، البلد فى حاجة إلى وزير مالية فى مثل حزمك ودقتك، لا مليم يتبدد هباء فى بيتنا.

وإنها لكذلك حقا. وكثيراً ما ترمى بالبخل ولكنها ترفض الصفة قائلة إنه الحرص والحكمة فى مواجهة زمان عبوس. ألا يكفى أنها تبدو أكبر من سنها (خمسين عامًا)، بل أكبر من زوجها الذى يكبرها فى الواقع بخمسة أعوام؟ لقد ازداد وزنها، فقدت رشاقة عرفت بها أيام الشباب، وخددت التجاعيد جانبى فيها، وحالت نضرة بشرتها. وإنها لتغبط الرجل على صحته وتتهمه - فى نفسها - بمداهنة الهموم ومدافعتها ما استطاع عن باله. من ذلك أنها تتابع أبناءها بالملاحظات والنقد، أما هو فيقول:

- أبناؤنا يسرون الخاطر يا جمالات، لنحمد الله العلى القدير، حياتهم مستقيمة، تفوقهم فى الدراسة ملحوظ، متجنبون للانحرافات التى نسمع عنها هذه الأيام.

ثلاثتهم من أبناء الثورة، ولكنهم ثمرة تربيتها قبل ذلك، ثمرة تربية أخلاقية حازمة، ودور الأب فى ذلك لا يقل عن دورها. لم تستحوذ عليهم عاطفة سياسية بمثل ما استحوذت عليهم رغبتهم الصادقة فى التفوق. وهم يعتبرون أنفسهم منتمين إلى الثورة على مدى أطوارها، ولكنهم لو سئلوا عما يعنيه ذلك فلعلهم لا يجدون جوابا خيرا من أن يقولوا إنهم ليسوا من اليسار أو التيار الدينى المتطرف. ولم يفت جمالات أن تقيم هذا الموقف. إنها - كمربية أصيلة - تهتم بتقييم المبادئ كما تهتم بميزانية البيت. وهى تناقش زوجها فى كل شىء. والرجل يقول:

- موقفهم باهت، لعلنا لا نختلف عنهم كثيراً يا جمالات، ولكن تذكرى المحاكمات كى تحمدى الله على ذلك.

ويقول أيضًا:

- المهتمون بالسياسة اليوم قلة، أما الأكثرية فمنهمكة فى طلب اللقمة.. سوف يكونون أطباء ممتازين ومواطنين صالحين، وهذا خير من أى سياسة.

وتغرى جمالات نفسها فتقول إن السفينة يجب أن تبلغ مرفأ السلام قبل أن تعصف بها الرياح .

وكان يوم من أيام فبراير ضاعفت قوة الريح فيه من البرد ، وغشيت العمارات المتلاصقة فى الخارج غلالة هابطة من الغيم .

٢

دق جرس الباب . فتحت فرأت أمامها أم عنايات . لا يبدو من السواد الذى يكتنفها إلا وجه مدبوغ وعينان ذابلتان . أدخلتها مرحبة ، متسائلة فى سرها : ترى هل فشل مشروع الزواج ، وهل جاءت تسعى لإرجاع البنت إلى خدمتها؟

ـ أهلا يا أم عنايات ، ما أخبار العروس؟

تربعت المرأة فوق الكليم القديم فى المدخل ـ الأثاث كله قديم ـ وتمتمت :

ـ أخبار لا تسر يا هانم .

ـ لم كفى الله الشر؟

تجهم وجه المرأة وأغمضت جفنيها منذرة بالبكاء ، فسألتها جمالات :

ـ ماذا دهاك؟

ـ قام ابن عمها بالواجب ، أصبح الفرح قريبًا ، لكن حسدونا يا هانم .

تساءلت بقلق :

ـ ماذا حصل للبنت؟

ـ اختفت ، هربت ، دفنت رأسى فى الطين ، هذه هى الحكاية .

ـ هربت؟!

ـ نعم ، لا تفسير لذلك فى قريتنا ، إلا أنها هربت بعارها .

فقالت جمالات بقلق :

ـ عنايات!

ـ ابن عمها زين الرجال ، لا تفسير آخر ، وأكثر من شخص يطالب بغسل العار!

اضطرب رأس جمالات بالخواطر المتلاطمة السريعة وتمتمت :

ـ يا له من خبر!

والمرأة دافنة عينيها طيلة الوقت فى الكليم. تمطى قلق جمالات. ماذا جاء بالمرأة؟. قالت:

- لعلك توهمت أنك ستجدينها هنا؟
- إنها لم تعرف مكانًا آخر.
- ولكن بيتنا معروف لديك ولا يصلح للهرب.
- رأسى حائر، لا أدرى كيف أتصرف.
- إنى مقدرة لذلك، ومندهشة، فعنايات مستقيمة لا شك فى ذلك.
- تربت عندك، عند أحسن الناس.

أثار القول أعصابها ولكنها قالت بهدوء:

- كانت دائمًا موضع رعايتى، وعرفت فى الخارج بالاستقامة.

فترددت الأم ثم قالت:

- ربما كان أحد فى الخارج...

ولكنها قاطعتها:

- لا أظن ولا أتصور.
- أمرى لله.
- هل نجرى تحقيقًا فى السوق؟ الحق إنها لم تتأخر مرة دقيقة أكثر من المتوقع.
- الأمر لله وهو المطلع.

بلغ الضيق بجمالات حد الغضب. ترامى إلى مشمها رائحة طعام يحترق. هبت مسرعة إلى المطبخ فوجدت البامية قد جف ماؤها وشاطت. نسيت همومها وراحت تعالج الموقف بسخط إضافى. ولما رجعت إلى المدخل - وإلى الهموم - وجدت المرأة واقفة مرتبكة، فقالت لها:

- ابقى للغداء.

وقررت أيضًا - بلا أدنى ارتياح - أن تهبها أجرة الرجوع إلى بنها. وطيلة الوقت لم يخل رأسها من الفكر.

٣

ما هذا الذى حدث؟. متى؟ وكيف؟ ومن؟ أم عنايات امرأة حائرة معذبة مكسورة الجناح ولكنها تشير بأصبع الاتهام. ما حدث قد حدث وعنايات أمانة فى عنقها. جاءتها

وهى بنت سبع . ثمة مسئولية ولا شك . لا توجد قضية ولا توجد محكمة ولكن يوجد ضمير . وهى تستطيع أن تعصف بأى اتهام يوجه إليها ، ولكن كيف السبيل إلى إسكات بلابل العذاب الخفى؟ لا تفسير للهرب إلا شىء واحد . القرية صادقة فى ظنونها . الجريمة وقعت والبنت فى خدمتها . تتابعت فى مخيلتها صور زغلول ورمضان ومحمود . تنهدت مغمغمة :

ـ لكنهم أبنائى !

طنت الجملة فى باطنها مثل شعار بال . عنايات جميلة . نضجت فى بيتها قبل الأوان . فطنت فى وقتها إلى تحذيرات جمالها الناضج . آمنت أنه من الأفضل إرجاعها إلى أمها . لم تنفذ فكرتها لشدة حاجتها إليها . وصادف ذلك ورود طلائع المرض . وأيدت سلبيتها بأن أم البنت أرملة وحيدة وفى حاجة إلى النقود . وأنها لن تستطيع على أى حال الاحتفاظ بها فى بيتها . بنت رائعة ، فحتى الطهى أحسنته . فى القرية يركزون المسئولية فى الضحية . إنها هى أيضًا ضحية .

* * *

اجتمعت الأسرة حول السفرة فى منتصف الثالثة . لا يشغل بالهم إلا القضاء على الجوع عقب نهار برد وعمل مرهق . وجوههم مستبشرة . يبدو أن وجهها يقول شيئًا ما فها هو ذا محمد فتحى زوجها يتساءل :

ـ مـالك؟

قالت وهى تبتسم :

ـ يوم بارد كئيب .

فقال محمود ضاحكًا :

ـ ولكن طعامك لذيذ .

ها هم أولاء حولها . زغلول رصين ، لدرجة البرودة حتى ليوصف بأنه إنجليزى . . ذقنه مدبب وعيناه جاحظتان قليلاً ورأسه كبير بشكل ملحوظ . عاقل جدًا ، شغال جدًا ، محترم جدًا ، مترفع عن المهاترات ، ربما أخطأ أحد أخويه فى حقه ولكنه لا يخطئ ، حتى المزاح البرىء لا يميل إليه . رمضان كبير القسمات واضحها ، عملاق فى حجمه ، مارس الملاكمة والمصارعة ولكنه والحق يقال مهذب ، غاوى مناقشة ولكن المناقشة تهمه أكثر من الرأى نفسه ، مغرم بالقراءة ، يود أن يتفوق على زغلول نفسه . محمود أجمل الثلاثة وجهـا ، ممشوق القوام ، محب للأناقة والغناء ، طيب القلب وحيى وذكى وصديق لزغلول . الأول طالب طب والأخوان يحلمان باللحاق به وتعد قدرتهما بذلك . من منهم؟ . سلوكهم آية فى الاستقامة ، لا تتخيلهم فى صورة أخرى حتى لو كانت ظروفهم

المادية أحسن. ثلاثتهم يصلون ويصومون بلا إثارة من تعصب أو هوس. متوجون بالتهذيب والاعتدال والنشاط. لا تتصور بحال أن الجانى أحدهم ولكن وساوسها لا تنام.

الأب لا يدرى بما يمزقها. إنه يتناول طعامه فى صمت وتركيز، عملاق أيضًا، شاربه الغليظ يتحرك فوق شفته تحية لأجيال خلت. عما قليل يشاركها همومها. إنه مثلها ذو ضمير، ومثلها أسهم فى تربية الثلاثة. ما جدوى ذلك كله؟ متى يجود القدر بالبراءة والراحة؟!

* * *

لم تسنح الفرصة لإثارة الموضوع إلا عندما جمعتهما حجرة النوم للقيلولة. تبين لها أنه كان يراقبها أكثر مما قدرت فسرعان ما قال بجدية:

ـ جمالات، لست كعادتك.

فقالت بنبرة اعتراف:

ـ ملاحظتك فى محلها تمامًا.

رنا إليها متسائلا فى اهتمام وهو يشعل كليوباطرة فقالت:

ـ زارتنى اليوم أم عنايات وأخبرتنى أن عنايات هربت قبل الزفاف!

ردد قولها ببطء وهو يغوص فيه بحذر وإشفاق. تبادلا نظرة طويلة مثقلة بالشك ولكنه لم ينبس، فقالت جمالات:

ـ أنت تدرى كيف يفسرون ذلك فى القرية؟! ولعله التفسير الوحيد المقبول، وهو يعنى أنها ستظل عرضه للقتل فى أى وقت: وأنها فى جميع الأحوال قد ضاعت.

فتساءل كالمتهرب:

ـ لعلها أملت أن تجدها عندنا؟

ـ قالت ذلك..

ـ تفكير غير سليم.

ـ إنها تتصرف بوحى من اليأس ولكن يوجد اعتبار آخر!

ـ اعتبار آخر؟!

ـ محمد، يضايقنى تغابيك فى المآزق، ثمة اتهام موجه لبيتنا.

فتمتم بقلق:

ـ ساء ظنها؟!

واضح من نبرته أن الهم قد ركبه. إنها لم تعد وحدها، قالت:

ـ هذه المآسى محتملة الحدوث كما تعلم .

فقال بصوت ضعيف :

ـ الأولاد عقلاء .

ـ وهم أيضًا مراهقون .

ـ إنهم نماذج طيبة جدًا لجيلهم .

ـ ولــو .

فتساءل بقلق :

ـ ماذا عندك؟

ـ لا شىء على وجه اليقين .

ـ أحيانًا ألمح وقوفهم فى النوافذ ولكن ماذا نتوقع؟

ـ طبعًا توجد بنات الجيران ، إنى أقنع عادة بإرشادات عامة أضمنها حديثى وكأنها غير مقصودة لذاتها .

ـ عين الصواب ، هل علموا بالمأساة؟

ـ كلا بعد .

ـ هل يجدى النبش والتحقيق؟

ـ لا أدرى .

أطفأ الرجل سيجارته وتساءل بضيق :

ـ ألا يمكن أن ننسى الموضوع؟

على الرغم من أنها تمنت ذلك ، فإنها قالت :

ـ المسكينة أهدرت حياتها .

ـ ليس فى وسعنا أن نفعل شيئًا ، هل فى وسعك ذلك؟

ـ ليته كان ممكنا ، المساعدة غير ممكنة ولكن الراحة أيضًا مستحيلة .

ـ افترضى أنك عرفت الجانى فهل يهبنا ذلك أملا جديدًا؟

ـ من العدل أن يعرف ما جنته يداه .

صمت متفكرا ثم قال :

ـ يا له من كابوس !

ـ هو ذلك تمامًا .

فنفخ قائلا :

ـ لا داعى لأن نسبق الحوادث .

فقالت بإصرار :

ـ بل يجب أن يعرف الأمر ، أن يعرف الخبر على الأقل .

ـ إنك تنبشين عن المتاعب .

ـ لقد وجدت على رغم إرادتى .

فقال مقطبا :

ـ اعتمدى فى ذلك على نفسك !

ـ أنت تحاول الهرب .

هربت أم لم أهرب ستدركنى الحوادث حيث أكون .

فقال بوضوح :

ـ فلنؤجل الحديث إلى عطلة الجمعة .

٤

وجاء يوم الجمعة . تبدى محمد قلقا كئيبًا أما جمالات فكانت أقدر على حبس انفعالاتها . وعقب الإفطار تهيأ الإخوة إلى حفلة الساعة العاشرة بالسينما . وبصوت مرتفع قالت جمالات مخاطبة زوجها :

ـ زارتنى أم عنايات التى تركتنا لتتزوج من ابن عمها ، وأخبرتنى أن البنت هربت قبل الزفاف .

انتبه زغلول ورمضان ومحمود باهتمام ، اتجهت أبصارهم نحو أبيهم وهو يتساءل متجنبا نظراتهم :

ـ هربت؟ . . ما معنى ذلك؟

فقالت جمالات :

ـ لا معنى لذلك فى القرية إلا أنها هربت لتخفى عارها !

وحل صمت ثقيل حتى قال زغلول :

ـ ربما وجد وراء ذلك سبب آخر .

فسألته أمه :

ـ أى سبب؟

ـ لعل العريس لم يعجبها .

ـ هذا يحدث فى السينما .

فقال رمضان :

ـ أو هربت مع آخر .

ـ لو صح ذلك لعرف فى الحال ، وعلى أى حال فستظل مهددة بالقتل .

فتساءل محمود :

ـ ما زالت تلك التقاليد مرعية؟

ـ وستظل مرعية طويلاً .

فقال زغلول :

ـ يا له من سوء حظ ، كانت بنتا طيبة .

فقالت جمالات :

ـ الطيب عرضة للخداع .

أدركت جمالات أنهم يشعرون تمامًا بالتهمة المعلقة فوق رءوسهم . قال رمضان :

ـ نحن لا ندرى شيئًا عما يحدث فى الخارج .

فقالت جمالات بقوة :

ـ ما يحدث فى الخارج يتردد صداه فى الداخل !

فتساءل محمود :

ـ ماذا تعنين؟

فهدأت نوعا وهى تقول :

ـ أعنى أن . . أعتقد أن البنت بريئة .

ـ إذن فلماذا هربت؟

إنه هو الذى يحقق ! على ذلك تمنت من الأعماق براءتهم . وتمتمت :

ـ الله أعلم !

وضاق صدر زغلول بالمناقشة فنهض وهو يقول :

ـ صدقت ، إنه أمر مؤسف ولكن ما الحيلة؟ وقد آن لنا أن نذهب .

ولما خلا لهما المكان نظرت إلى زوجها قائلة فى عتاب :

ـ لم تتفوه بكلمة .

ـ إنى حزين، هل أفادك ما فعلت؟

ـ هو الواجب.

ـ هل خرجت بانطباع ما؟

ـ يلوح لى أنهم أبرياء.

ـ أرجو ذلك.

مضت ترفع أوانى الطعام وهى تقول:

ـ عيبنا أن لنا ضمائر.

فقال بسخرية:

ـ أفنينا العمر فى تربية الضمائر.

فرجعت من المطبخ وهى تقول:

ـ يقال إن زماننا بلا ضمير.

ـ فى كل عصر مضى قال عنه أهله ذلك.

ـ أتعنى أن الضمير خرافة؟

ـ كلا، ولكنه درجات، وأرفعه شأنا الضمير الذى يردف القول بالعمل فهو نادر جدّاً فى كل عصر، هبى أنك عرفت أن ابنا من أبنائك هو الجانى، فماذا كنت تفعلين؟

فتساءلت متحدية:

ـ هل تتوقع أن أبلغ الأمر للشرطة؟

ـ دعينا من الأساطير.

ـ توجد سبل كثيرة للتكفير عن الأخطاء أو إصلاحها.

ـ إنها تتطلب قدراً كبيراً من الشجاعة.

ـ أعلم ذلك.

ـ عظيم.

ـ لكن شعورى يحدثنى بأنهم أبرياء.

فتمتم بسخرية:

ـ إنك تنشدين الراحة.

فقالت بحدة:

ـ كلا..

فقال متنهداً:

ـ ثمة أناس يولدون للضياع .

ـ لعلك تشير إلى دور المجتمع ؟

فهز رأسه بالإيجاب فقالت :

ـ نحن ننشد الراحة بأى سبيل .

فقال فى ضجر :

ـ إنى مغتم من أجلهم قبل كل شىء .

ـ وأنا مثلك ولكننى مغتمة من أجل البنت أيضًا .

ـ لست وحشا كما تعلمين ، أأنت واثقة ببراءتهم؟

ـ أين منى ليت!

ـ هل نمضى إلى الأبد على هذه الحال الجنونية؟!

فصمتت جمالات فى غاية من التعاسة ثم تمتمت :

ـ ليتنا نعثر عليها لنفعل ما نستطيع من خير .

٥

المتاعب الطارئة ـ على رغم حدتها ـ تهون إذا انتظمتها سلسلة المتاعب القائمة . إنها تصارع كل يوم متاعب اللحوم والمواصلات والتليفون والمجارى فأوشكت أن تألف مأساة عنايات . غير أن أم عنايات رجعت ذات ضحا . ولم تكن وحدها فها هى ذى تسوق أمامها عنايات نفسها! يا لها من مفاجأة فجرت الأزمة كأعنف ما يكون الانفجار . اجتاحتها انفعالات متضاربة . تجهم المستقبل ـ مثل السماء ـ بالسحب . ها هى ذى عنايات أمامها كما تمنت ولكن أى إزعاج أثارته؟! على رغم كل شىء رحبت بهما قائلة :

ـ الحمد لله!

قالت الأم :

ـ أولاد الحلال دلونى عليها ، فررت بها لأنقذها من الموت ، ولم أجد لها مأوى آمن من بيتك!

حاولت أن تقرأ شيئًا وراء الوجه المدبوغ ولكنه بدا جامدًا لا يبين . إنها محاصرة . لا تستطيع أن ترفضها ولا تود أن تقبلها . قالت :

ـ سيهتدون إليها هنا .

ـ آخر مكان يتصورون وجودها به، فضلا عن ذلك فهم يجهلونه، لا ترسليها إلى الخارج، قلبك كله رحمة يا ست.

نظرت إلى عنايات فأجهشت فى البكاء. ذبل جمالها واتسخ. وهى خجلى تعيسة لا تستطيع أن ترفع عينيها. وسحبت جمالات الأم من يدها إلى المطبخ ثم قالت لها بحزم:

ـ أريد أن أعرف ما تعرفين.

فقالت الأم بحرارة:

ـ لا أعرف شيئًا.

ـ تمكرين بى؟

ـ لم يكن لدى وقت، تسلمتها وطرت بها قبل أن ينتبه إلينا أحد.

ـ ولكنك قررتها؟

ـ أبدًا وحياتك.

فقالت بإصرار:

ـ لا أقبلها حتى أعرف.

فتساءلت الأم بانكسار:

ـ هل ترسلينها للموت؟

فلعنتها فى سرها وقالت:

ـ ستحملنى من الهم ما لا يطاق.

ـ ربنا ستار وقلبك كله رحمة.

فقالت بوضوح:

ـ إذا أزعجنا أحد من القرية فلن أسمح بأن أجعل من بيتى مسرحًا لمعارك.

فقالت الأم بيقين:

ـ لن يكون ذلك.

وسرعان ما غادرت الأم البيت وكأنها تفر.

٦

جلست جمالات فى المدخل وعنايات قاعدة على الأرض بين يديها. قالت لها:

ـ لا شك تذكرين رعايتى لك، لذلك لم أصدق.

فأحنت رأسها ولم تنبس فقالت :

ـ طبعًا هربت لسبب ، ما هو؟

ثابرت على صمتها فقالت جمالات :

ـ ليكن الأمر كما ظنوا ، صارحينى من هو؟

غاصت فى الصمت أكثر .

ـ يجب أن أعرف ، هذا ضرورى جدّا لإنقاذك .

راحت تنشج فقالت جمالات :

ـ لا . . تكلمى . . لابد أن أعرف .

بإزاء إصرارها همست عنايات :

ـ لا أحد .

ـ إذن لماذا هربت؟

ـ لا أريد أن أتزوج .

فقالت بريبة :

ـ لكنه زوج مناسب .

ـ لا أريده .

ـ تحلفين على ذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب :

ـ توجد أكثر من وسيلة لمعرفة الحقيقة .

فلم تنبس فقالت بحدة :

ـ كذبك واضح ، أريد الحقيقة يا عنايات .

فرجعت تهمس :

ـ لا أحد .

ـ لعلك تحبين رجلاً آخر؟

هزت رأسها نفيا فهتفت جمالات :

ـ إنك تعبثين بى يا بنت .

فنشجت مرة أخرى .

ـ كفى عن ذلك ، أريد الحقيقة ، لماذا تخفينها؟ لقد ربيتك مذ كنت بنت سبع ، أنسيت ذلك؟

فغمغمت بانكسار :

ـ لا أحد .

ـ ما عيب عريسك؟

فلاذت بالصمت .

ـ أهو عجوز؟

هزت رأسها نفيا :

ـ أليس ابن عمك؟

فهزت رأسها بالإيجاب .

ـ هل به عيب؟

فلم تنبس فصاحت :

ـ أقلعى عن هذا الخرس، أنا لا أصدقك ولابد من الحقيقة .

ولكنها لاذت بالصمت ونشجت للمرة الثالثة فحنقت عليها متمنية فى الوقت نفسه أن تكون صادقة . تساءلت :

ـ إذن لم يعتد عليك أحد؟

فهزت رأسها بالإيجاب . تتمنى أن تصدقها ولكن من أين لها اليقين؟ ورأت الاكتفاء بهذا القدر من الاستجواب مؤقتًا . قامت وهى تقول :

ـ خذى راحتك ونظفى نفسك والله يتولانا برعايته .

٧

رجع الرجال إلى البيت فتناولوا غداءهم . الشقة باردة مثل الخارج أو أكثر ولكن إحكام إغلاق نوافذها حماها من عواصف أمشير فلم يقتحم الداخل إلا زفيف رياحه . هذا البيت لا يحب الشتاء وبخاصة أمشير . توارت فى أثناء ذلك عنايات فى المطبخ فلم ينتبه لوجودها أحد . وطيلة الوقت جعلت جمالات تتأهب لإلقاء الخبر . رددت فى أعماقها بإصرار «لا أحد» . حل سعيد لم يجر لها فى بال . لم لا؟ البنت بريئة ولأمر ما كرهت الزواج فهربت . إنه لا يصدق ولكنه غير مستحيل . لعلها تحب شخصًا آخر . إن صح تخمينها فهى تحب صبى الكواء فهو شاب وسيم ويخطر عادة فى البلوفر والبنطلون . وبعد الفراغ من الطعام مضت إلى حجرة الجلوس وهى تشير إليهم أن يتبعوها . جلسوا على الكنب العتيق . توقعوا أمراً وقال محمد فتحى الأب :

ـ لو تمطر السماء يصفو الجو وتهدأ العاصفة.

نظرت صوب التليفزيون والراديو الصامتين فوق حاملهما الخشبى وقالت ببساطة:

ـ عنايات هنا..

شخصت الأبصار. شخصت إليها باهتمام واضح. باتت عنايات بؤرة الإثارة وهدفها. ولم ينبس أحدهم بكلمة. انتظروا المزيد بوجوه مفصحة عن الاهتمام وحده. قصت عليهم قصة رجوعها وخطة أمها ثم قالت بارتياح:

ـ حققت معها فأسفر التحقيق عن لا شىء، زوبعة فى فنجان كما يقولون.

تساءل محمد فتحى:

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا جناية ولا جان.

تمطى الصمت حتى شمل الكون. تساءل الأب:

ـ لم كان الهرب إذن؟

فأجابت بسخرية:

ـ العريس لا يعجبها!

ـ هل يصدقونها هناك؟

ـ ما زالت حياتها معرضة للخطر، ولعلها معلقة بشخص ما. لعله صبى الكواء، سأعرف كل شىء فى حينه.

تمتم الأب:

ـ عادت المشاكل إلى بيتنا!

ـ قد تتزوجه وينتهى الأمر.

فقال الأب بامتعاض:

ـ كان من الخير ألا نقبلها.

ـ لم يكن بوسعى أن أطردها إلى الموت.

ـ قد يسعى إليها الموت هنا.

ـ إذا تزوجت انتهى كل شىء بسلام.

وقلبت عينيها فى الوجوه ثم قالت:

ـ لقد تصرفت فى نطاق ما نؤمن به من مبادئ فلا تلمنى.

٨

عاشت جمالات فى قوقعة الطمأنينة قانعة بمصارعة المعيشة. على رغم كل شىء تابعت عنايات بعين يقظة. لبث فى أعماق قلبها شك مثل دودة خفية. كلما حاولت استدارجها سمعت عبارة عنيدة: «لا أحد». اضطرت مرة إلى أن تسألها:

ـ لعله صبى الكواء؟

فهزت البنت رأسها نفيا.

ـ هل ترفضين الزواج إلى الأبد؟

فلم تحر جوابا ومضت فى عملها. وكانت عنايات تنام فى الطرقة المؤدية إلى المطبخ فوق شلتين متلاصقتين تحت بطانية خشنة. ومرة فى جوف الليل وجمالات راجعة من الحمام تلقت من إحساسها رسالة خفية بأن الطرقة تموج بحياة حذرة مكتومة. توقفت وأطفأت النور وذابت فى الظلام بقلب خافق. أشفقت من الإقدام وعجزت عن الذهاب. امتلأ رأسها بأفكار مثل الظلام. هل يمكن أن يتسلل أحد من الخارج وهم نيام؟ أى شيطانة! وأى تعاسة تقتحمها من جديد؟! وقبل أن تتخذ قراراً رأت فى الظلمة التى ألفتها عيناها شبحا يتسلل من مدخل الطرقة ماضياً نحو حجرة الأولاد. تلاشت أحلامها تحت صاعقة الحقيقة. صاعقة محقت أى أمل. جسدت الاتهام وقذفت به فى وجهها. تركته يذهب وهى مشلولة تمامًا. لم يهن عليها تفجير الفضيحة ولا إرعابه ولا حتى مواجهته. ثمة طرق أخرى توصل للحقيقة. وسوف توصل الحقيقة إلى الجنون. وبلا تردد اتجهت نحو الطرقة. أسدلت ستارة مدخلها وأضاءت المصباح. فتحت عنايات عينيها فزعة ولم تكن نامت بعد. نهضت مرتعدة ووقفت مستسلمة للأقدار. حدجتها جمالات بنظرة صارمة وسألتها:

ـ مـــن؟

ولما ترددت لطمتها على وجهها قائلة بانفعال شديد:

ـ انطقى..

فاندفعت تهمس فى فزع:

ـ زغلول؟!

يا للداهية!.. يأبى الداء إلا أن يصيب مقتلا. اضطربت أنفاسها.

ـ زغلول؟!

لاذت بالصمت منهارة تمام :

ـ هو الجـانى؟

هزت رأسها نفيا. ما معنى هذا؟

ـ ليس هو؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

ـ من الآخر؟ . . انطقى . .

وهزتها بعنف مكررة :

ـ انطقى . .

فهمست :

ـ سيدى محمود . .

ـ عرفت الاثنين فى وقت واحد؟

فصمتت ولكنه الصمت المغنى عن الجواب . . فتساءلت الأم :

ـ وهل يعلم أحدهما بما يفعل الآخر؟

هزت رأسها نفيا، ثم قالت بنبرة باكية :

ـ على رغمى . . لم أستطع صدهم . . جاءوا كلهم . .

ـ رمضان أيضًا؟

ـ نعم . . على رغمى . .

ـ أنت فاجرة!

بسطت راحتيها فى يأس وأجهشت فى البكاء.

٩

لما رجعت إلى الحجرة وجدت محمد فتحى يغط فى نومه. على ضوء المصباح السهارى رأت الساعة تدور فى الواحدة صباحا. لن يغمض لها جفن ولكنها أشفقت من إيقاظه. انتظرت فى عذابها حتى الفجر ثم نادته :

ـ معذرة، عليك أن تشاركنى سهادى.

فتح عينيه ثم تساءل :

ـ ماذا أيقظك؟
ـ إنى فى حاجة إليك .
طار النوم وحل محله قلق ثم تساءل :
ـ الموضوع نفسه أم شىء جديد؟
ـ نفسه!
تزحزح جالسًا وهم يتمتم :
ـ لم يطمئن قلبى أبدًا .
وصبت عليه الحقيقة صبا لتتخلص من قبضتها الخانقة حتى أسند رأسه إلى راحتيه وهو يقول :
ـ كارثة!
وتبادلا النظر فى حيرة فتركها حتى تساءلت :
ـ كيف نتصرف؟
ـ ليتك ما سمحت لها بالبقاء؟
ـ ما كان ذلك ليخفف من الجريمة .
وإذا به يقول فى خشونة :
ـ جمالات، الكلام عن الأخلاق شىء والسلوك الأخلاقى شىء آخر تمامًا، وقد حرصنا طيلة عمرنا على الاستقامة فلم يرسب فى تاريخنا ما نخجل منه، وأنشأنا أبناءنا على مثالنا .
فتساءلت فى أسى :
ـ وما النتيجة؟
ـ لم تصادفنا تجربة بهذه القسوة، كيف نتصرف؟، لنكن واقعيين، لقد وقعت جريمة ولكن لن نعدم لها الأعذار الطبيعية المناسبة .
ـ ليكن، ولكن المهم فى تصرفنا بعد ذلك .
فقال بنبرة لم تخل من غيظ :
ـ هذا صحيح، فما التصرف الصحيح؟ إنه واضح وهو أن يتزوج محمود من البنت التى شاركه فيها أخواه وهم لا يعلمون، بذلك نسترها ونكفر عن خطيئتنا وننقذها من الموت، فهل أنت قادرة على الحل الصحيح؟
أرخت جفنيها فى ذل وانكسار فقال :
ـ هذا هو الواجب، الكلام سهل أما الواجب فهذا هو، وهو كفيل بهز مستقبله

ويجعلنا مضغة أفواه المحبين قبل الكارهين . إنى أعرف تشددك وتقواك ، عظيم ، افعلى ما ترينه صوابا .

ها هو ذا يلقى عليها الحمل . كأنما يتحداها . يخيرها بين الذل والجريمة . وهى تمقت الجريمة ولكنها تجزع أمام الحل الصحيح . هذه هى الحقيقة التى تصفعها . وعوضا عن الإجابة دمعت عيناها . ولم يتراجع عن خطه فقال :

ـ ما جدوى الدموع؟ القرار عسير ، خذى مهلة كافية للتفكر .

فقالت بصوت ضعيف :

ـ الأمر لا يخصنى وحدى .

فقال بلا تردد :

ـ إن أردت رأيى فاعلمى أنى رجل واقعى كما أنى أخلاقى .

فانتظرت فى امتثال فقال :

ـ ممكن أن نزوجها من ابن الحلال بعد اتخاذ الاحتياطات الطبية الواجبة .

صمتت مغلوبة على أمرها ولم تخل من سخط عليه وعلى نفسها معا . وشعرت بخجل كإنسان جرد من ملابسه فجأة . أما محمد فواصل قائلاً :

ـ لا مفر فى هذه الحال من إبقائها حتى نبلغ بها بر السلامة ، ولكن عليك أن تخترقى الحاجز بينك وبين الآثمين .

ـ ألا تقوم أنت بهذه المهمة .

فقال بحسم :

ـ بل أنت ، والأفضل أن تزعمى لهم أننى لم أعرف شيئًا .

ـ لماذا؟

ـ هو الأفضل .

فتفكرت وقتا ثم قالت :

ـ إنه الحل الممكن ولكنه ليس الأمثل ، أمرنا لله ، وهو سيعرينا جميعًا نحن وأبناءنا ويفضح ضعفنا الحقيقى .

ـ سيدركون أننا نضحى بالسلوك النقى من أجل مصلحتهم .

ـ وسيدركون أيضًا أننا كاذبون ، صناعتنا الكلام لا أكثر ولا أقل .

فتساءل فى عصبية :

ـ أليسوا المسئولين عن الجريمة؟

ـ ونحن المسئولون عن الحكم .

فقال بضيق :

ـ تصرفى إن استطعت على مستوى مبادئك .

فهتفت :

ـ كأنما تسعى لإذلالى .

فخفف من نبرته قائلاً :

ـ معاذ الله ، كلانا غارق فى مصرف واحد!

وتبادلا نظرة خلت من الروح والثقة وأترعت بالأسى .

١٠

الصباح يفتتح يوما مفعما بالمعاناة . ما زال البرد قارسًا والرياح عاصفة . وتنظر من وراء زجاج النافذة المغلقة فترى الطريق ممتدا حتى المنعطف ، لا شجرة به ، الريح تنشر الزبالة فوق أديمه ، وجه الطوار متشقق متعدد الفجوات ، والناس يترنحون هنا وهناك . لقد انصرفوا جميعا ، وعنايات تعمل فى المطبخ ، وهى تفكر فى المواجهة التى ستتم بينها وبين أبنائها منفردين . إنها الكآبة والحرج . وكانت بدأت بالبنت فقالت لها بحزم حاد :

ـ حذار أن تذعنى لأحدهم ، كفى ما كان ، وسنجد لمشكلتك الحل المناسب .

من آن لآخر جعلت تراقبها وهى منهمكة فى عملها . ترى ماذا يدور فى رأسها؟ تبدو خالية البال كأن الموت لا يتهددها . بل أخذت النضارة تلوح فى وجهها الأسمر ووجنتيها البضتين . كما رثت لها حنقت عليها . مأساتها مأساة من يواجهن الحياة بلا مال ولا علم . وتذكرت ضيقها إزاء الغلاء المتصاعد وكيف تهبط أسرتها درجة بعد درجة . إنها تلبى طلبات الأبناء بنسبة لا تزيد على خمسين فى المائة ، ولولا جديتهم وتسلط روح العمل عليهم لانفجرت أزمات وأزمات . وهى تمر بالبنت قالت هذه :

ـ ستى .

فتوقفت متسائلة فتساءلت البنت :

ـ هل تريدين أن أذهب؟

فقالت بعصبية :

ـ لم أقل ذلك قط .

فتمتمت :

ـ أشعر بأنى غير مرغوب فى .

ـ انتبهى لعملك ونفذى ما أوصيتك به .

اتجهت إليها بكل جسمها وقالت بصوت منخفض :

ـ عرضوا على أمى أن أعمل فى شقة مفروشة !

يا لها من مفاجأة . تساءلت فى استنكار :

ـ ألا تفهمين ما يعنيه ذلك .

فقالت بصراحة لم تتوقعها :

ـ لن يكون أسوأ مما أنا فيه ، ويمكننى أن أقتصر على السهر فى الشقة !

وقالت جمالات بامتعاض شديد :

ـ سنجد لك مصيراً أحسن !

فقالت بصوت حزين دل على أنها ليست خالية البال كما بدت لعينيها :

ـ لا يوجد لى مصير حسن .

عند ذاك دق جرس الباب فذهبت جمالات لترى من القادم .

وكان القادم هو محمود .

١١

ـ ماذا أرجعك؟

مضى بها إلى حجرة الجلوس وهو يشير :

ـ تخلفت عن المدرسة لأحدثك على انفراد .

أجلسها إلى جانبه فجلست متوقعة أن تسمع اعترافًا وـ ربما ـ حلا من نوع ما . قال :

ـ لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت .

فنظرت إلى الأرض بوجوم رافضة أن تتظاهر بما ليس فيها ، فقال :

ـ الموضوع يتعلق بعنايات !

فلم يتغير من حالها شيء فاعترف قائلاً :

ـ لقد كذبت عليك ، هناك اعتداء وأنا المعتدى .

وتفرس فى وجهها ليرى أثر كلامه ، ثم قال :

ـ أدرك الآن أنك عرفت الحقيقة .

ـ أجـل .

ـ شد ما تعذبت عند سفرها مع أمها ، لن أغفر لنفسى تقاعدى عن مساعدتها ، كان الموقف أكبر من شجاعتى ، وتضاعف العذاب عندما علمت بهربها .

فقالت بهدوء :

ـ لا يداخلنى شك فى ذلك .

ـ أعتقد أن والدى يعرف أيضًا .

ـ نعم .

ـ إنها تنتظر أحد مصيرين ، الموت أو السقوط .

ـ ربما يوجد طريق ثالث .

فتساءل بلهفة :

ـ ما هو؟

ـ أريد أن أستمع إليك أولا .

فتردد قليلاً ثم قال :

ـ نحن قوم ذوو ضمائر حية .

ـ هذه هى المشكلة .

فتشجع قائلاً :

ـ الواجب يقضى علىّ بأن أحميها حتى أتزوج منها .

خفق قلبها منذعرة وسألته :

ـ هل تدرى ما يعنيه ذلك؟

ـ طبعا بكل أبعاده ، وأدرى أيضًا ما يعنيه الغدر ، وقد لقنت على يديك ـ ويدى أبى أيضًا ـ مبادئ لا يجوز أن تنسى .

انحبست الاعتراضات فى حلقها وتورد وجهها حياء أما هو فتساءل :

ـ أليس كذلك؟

فلم تجد بدًا من أن تقول :

ـ بـلى .

وجفلت من أن تشير له إلى ما تم الاتفاق عليه بينها وبين محمد فتحى فرددت فى نفسها «إذا بليتم فاستتروا» . سيقع ما كانت تحذره إلا إذا انبرى أبوه لإنقاذ الموقف .

تخيلت عنايات زوجة لمحمود وأمها حماة له فغاص قلبها فى صدرها. غاص قلبها على الرغم من أنها تتذكر تمامًا أن جدتها لأمها لم تكن ترتفع درجة واحدة عن أم عنايات وأن جد زوجها كان فراشا فى مدرسة! وإذا بمحمود يقول:

ـ ولكن توجد مشكلة أخرى.

حدجته بنظرة مستطلعة فقال بحياء وتلعثم:

ـ إنى فى حكم الخاطب.

ـ خـــاطـب؟!

ـ يوجد اتفاق لم يعلن بعد بينى وبين فردوس سمير جارتنا.

ذهلت جمالات حقا. إنها تعرف فردوس، كريمة المرحوم سمير المعلم، وهى صديقة حميمة لأمها جارتها منذ ربع قرن. أسرة طيبة ومحترمة، بكريها طبيب فى الأرياف، وفردوس فتاة تكبر محمود بخمسة أعوام، لم تتم تعليمها، ذات ثروة محترمة، ولكنها سيئة الحظ لأنها عاطلة من الجمال، لاحظ لها منه على رغم أناقتها المبالغ فيها، كما أنها تترك فى نفس محدثها ما يثير السخرية لتصورها أنها محدثة لبقة واسعة الاطلاع. سألته بدهشة:

ـ هل تحب فردوس؟

فقال بمزيد من الحياء:

ـ المسألة أننى استجبت لتوددها، لم أدر كيف أرفضها.

ـ يا لها من خطوبة غريبة.

ـ والأدهى من ذلك.

وتوقف مرتبكا فتساءلت:

ـ هل يوجد ما هو أدهى من ذلك؟

ـ تورطت معها.

فقاطعته:

ـ يا خبر أسود..

ـ لا أعنى ذلك، أعنى أننى اقترضت منها بعض النقود.

فكررت فى عصبية:

ـ لا أصدق أذنى.

ـ قروض اضطررت إليها.

ـ ما مقدارها؟

ـ الحق أنها مستمرة!

ـ مستمرة؟! . . أأنت فى حاجة إلى ذلك؟

ـ ماما، كيف غاب عنك ذلك؟

ـ نحن نشقى لنوفر لكم حياة كريمة.

ـ أعرف ذلك، ولكن لولا نقود فردوس لأرهقتنا المعيشة إلى درجة عدم الاحتمال أنا وزغلول ورمضان.

ـ يا للمصيبة، أهما شريكاك فى ذلك؟

ـ نعم . .

ـ ألم يعترض أحدهما؟

ـ لقد شجعانى على ذلك.

ـ شجعاك على خداع بنت سيئة الحظ لسلب نقودها؟

فبادرها بحرارة:

ـ ليس فى الأمر خداع، صدقت نيتى على الزواج منها فى الوقت المناسب، وقال لى أخواى إن المال ميزة مثل الجمال، وإن فردوس على خلق ومن أسرة طيبة!

ـ يا للعار يا محمود، تخطب فتاة سرا لتنفق عليك!

ـ إنها قروش سأردها فى المستقبل، ولولاها لحدثت لك أنت وأبى متاعب كثيرة.

ألصقت راحتها بجبينها وهتفت:

ـ إنى فى حاجة إلى طبيب.

فصمت مستسلما لوجوم كئيب حتى سألته:

ـ وكيف أخطأت مع الأخرى؟

ـ بلا إرادة. . ولكننى أعترف لك بأننى أحب عنايات!

ـ ما شاء الله، وهل علم أخواك بجنايتك؟

ـ كلا.

ـ لعل لديهما حلاّ فريدًا!

ـ ماما، إنى معذب، لا أستطيع أن أتخلى عن عنايات كما أنه يعز على جدّا أن أهجر فردوس.

ونظر إليها فى تعاسة مستوهبا النصيحة، حتى ندت عنها ضحكة عصبية وقالت ساخرة:

ـ ما عليك إلا أن تتزوج من الاثنتين .

فقال بلهفة :

ـ يهمنى جداً رأيك .

فقالت بحيرة :

ـ أمك احتارت واحتار دليلها ! ماذا يقول لك ضميرك؟

ـ يملى على أن أكون إلى جانب أشد الاثنتين حاجة إلى .

ـ ومن عسى أن تكون؟

ـ عنايات فيما أعتقد .

ـ ثم يقال إنك سرقت فتاة طيبة وخدعتها !

ـ أهون من أن أترك أخرى للموت أو السقوط .

ـ ستوجد على أى حال تضحية بفتاة بريئة .

وساد صمت ثقيل مرهق للروح حتى تساءل محمود :

ـ أليس هو الصواب يا ماما؟

فقالت بنفاد صبر :

ـ حسبى أننى ربيت ضميرك وعليك أن ترجع إليه وحده !

١٢

هكذا انضاف إليها واجب ثقيل آخر هو مواجهة زوجها قبل مواجهة زغلول ورمضان . تذكرت أياما خالية حرصت فيها على الاستئثار بحل المشكلات . كانت مشكلات هينة حقًا ، أما اليوم فكم تتمنى لو أن زوجها كان أكثر إيجابية ! وقد عاد زغلول ورمضان متعبين ولكن مرحين أيضًا لا يدريان شيئًا عما يتجمع وراءهما من سحب ، أما محمد فتحى فبدا وكأنه يتقدم فى العمر . وتساءل رمضان عن تخلف محمود عن الذهاب إلى المدرسة فأجابت أمه بأنه متوعك . وتناولوا الغداء فى جو لم يفلح جهد فى تبديد كآبته . وفى حجرة النوم قالت جمالات لزوجها :

ـ لدى مزيد من الأخبار المزعجة .

ورمته بالجديد منها بغير مبالاة . وراح الرجل يفكر ويضرب على كف بكف ، ويقول :

ـ لن أدهش لو تكشف بيتى عن عصابة إرهابية للاغتيالات الدولية .

فسألته بوضوح :

ـ أتستطيع أن تقنعه باقتراحك الأول؟

فهز رأسه قائلاً باقتضاب :

ـ كلا . إنه لا يريد أن يتلقى درسًا فى الأخلاق على بر ابنه وتلميذه .

قالت :

ـ الحق أننا أصغر من الأخلاق التى نعلمها .

ـ أى حل الآن لن يعفينا من سوء السمعة .

ـ ما أكثر الخاطئين ولكن ذوى المبادئ وحدهم هم الذين يدفعون الثمن . .

فابتسم ابتسامة ساخرة ولم ينبس فثارت ثائرتها وقالت :

ـ إنك تخجل من مواجهة ابنك باقتراحك .

ـ بل اقتراحنا فقد وافقت عليه أنت أيضًا .

وكالعادة سارع إلى ملاطفتها فقال بهدوء :

ـ لا ترهقى ذاتك بالندم ، فلنطارد التعاسة معًا ، المسألة أنه كان لنا حلم وتبدد .

لكن سخطها تمطى حتى شمل كل شىء . نالت عنايات أرقى نصيب منه فهى التى ـ بضعفها لا قوتها ـ زلزلت الأسرة وعرتها . ونال زوجها نصيبًا لا يستهان به لضعفه وسلبيته . ولكنها لم تتجاهل أنها المسئولة عن ذلك . بقوة شخصيتها وذكائها حولته من شريك إلى أسير . وطالما سعدت بذلك واستمتعت بقوتها بلا حدود . اليوم تشعر بوحدتها فتنحى عليه باللائمة وتكيل له التهم .

١٣

على الرغم من أن الغداء لم يهضم ، والجو لم يهدأ ولم يلطف ، فإنها لم تشعر بالبرد ، بل شعرت بأن رأسها يشتعل . تمنت أن يهطل المطر . شارع العاصى يتحول فى أعقاب الأمطار إلى برك ومستنقعات ومع ذلك تمنت أن يهطل المطر . وتلبية لإشارتها لحق بها زغلول ورمضان بحجرة الجلوس . رتبت فى ذهنها ما يقال وما لا يقال ، وسرعان ما لاحظت أنهما لا يخلوان من قلق . لا مفر من أن يعلما بقرار محمود وبدواعيه ، فيما يتعلق بعنايات وفيما يتعلق بفردوس . لن تشير من قريب أو بعيد إلى خطئهما أو

خطيئتهما ولكنهما لن يتوطا فيها مرة أخرى من دون حاجة إلى تنبيه. وفى تقديرها أن عنايات تحب محمود، وأن ضعفها وحده هو المسئول عن استسلامها لزغلول ورمضان.

هكذا قصت عليهما قصة محمود وقراره. لمست اضطرابهما وضيقهما. تطايرا فى الهواء على رغم المحاولة المستميتة للتظاهر بالحياد والثبات والبراءة. وهى محيطة بأزمتهما بكافة أبعادها، بمشاعرهما نحو أخيهما الذى اعتديا على من ستصير زوجة له، ونحو النقود التى سيفقدونها لقطع العلاقات مع فردوس. لم تشعر نحوهما بعطف إذ رأتهما مستحقين للعقاب. ختمت قصتها بقولها:

- اعتدنا أن نناقش مشكلاتنا معًا.

وسأل زغلول:

- هل علم أبى بالقصة؟

- كان لابد أن يعلم.

تبادلوا نظرات حائرة. قال زغلول:

- إنه قرار خطير جدًا.

- أجل، ولكن هل عندك حل أفضل؟

لم يحيرا جوابا، فقالت:

- علاقته بفردوس خطأ لا مبرر له وإنكما تتحملان تبعة ذلك مثله أو أكثر.

فقال زغلول مدافعًا عن نفسه:

- كان صادق العهد فى الزواج منها.

- ومسألة النقود؟

فقال رمضان بجرأة:

- لم نجد من الإنصاف أن نطالبكما بما تعجزان عنه.

فقالت بحدة:

- لم نقصر أبدًا.

- أجل، ولكن الممكن كان دون المطلوب.

- اعتقدت أنكما قادران على مواجهة الموقف بما يتطلبه من تضحية.

فقال زغلول:

- بذلنا ما نستطيع، أكرر أن القرار خطير جدًا.

وإذا برمضان يقول:

ـ ماما، نحن لم نعد ندرى بيقين ما الصواب وما الخطأ.

فتساءلت بانزعاج:

ـ ما معنى ذلك؟

ـ أصارحك يا ماما أنه بإزاء ما صادفنا من مشكلات تناقشنا ـ أنا وزغلول ـ فى ماهية الأخلاق التى نشأنا عليها.

فسألته وهى تتفرس فى وجهه:

ـ هل رابك منها شىء؟

ـ تساءلنا إلى أى درجة تصلح لهذا العصر!

فقالت بحدة:

ـ مدى علمى أنها تصلح لكل زمان ومكان.

فقال رمضان بأسى:

ـ ما أكثر الذين يستهينون بها وينجحون.

فتساءلت بذعر:

ـ هل أقنعتم أنفسكم بأن النجاح هو كل شىء؟

فقال زغلول بسرعة:

ـ كانت مجرد مناقشة استطلاعية.

فواصلت بحدة:

ـ تصوروا أن نقنع بطرد عنايات، والاستمرار فى ابتزاز أموال فردوس حتى يتخرج ثم يفسخ الخطوبة، تصوروا ذلك!

ـ كانت مجرد مناقشات مثل لعب الشطرنج.

ـ لا أريد أن أختم حياتى باليأس.

ـ هذا مسلم به.

وقال رمضان فى حيرة:

ـ لنا زملاء يخطئون بفكر متكامل، وهم يرمون كثيراً بالانحراف، وطالما غبطنا لأننا لم ننحرف، ولكن من نحن؟

فقالت بإصرار:

ـ مبادئنا فوق الجميع.

ـ معذرة، أريد أن أقول إن طمأنينتنا لا تقوم على أساس، يوجد خطأ ما، لم تلوح الحياة بهذه القسوة؟

ـ لذلك أسبابه، أحد هذه الأسباب الانحلال الأخلاقى.

فتمادى رمضان قائلاً:

ـ قد يقتل الإنسان دفاعًا عن نفسه!

فارتفع صوتها وهى تقول:

ـ المهم أن يكون على صواب، إنكم لا تقدرون تعبنا حق قدره، لقد عملت حتى اضطرنى المرض إلى طلب المعاش، أبوكم يعمل عملا مضاعفا على رغم انحداره إلى الشيخوخة، وتفوقكم ميزة لا يستهان بها فلم الشك والانتهازية؟

فضحك زغلول تلطيفا للجو وقال:

ـ ما زلنا عند حسن ظنك.

سخرت من قوله فى نفسها ولكنها قالت:

ـ أشكرك، سيكون لنا عودة إلى الحديث، أما الآن فإنى أفضيت إليكما بأخطر قرار اتخذ فى أسرتنا حتى لا تفجآن به غداً، فما رأيكما؟

وساد الصمت، وتبودلت النظرات، فقالت:

ـ حسبت الأمر لا يحتاج لتردد طويل؟

فقال زغلول:

ـ ليس التردد نتيجة للشك فى صوابه ولكن إشفاقا من عواقبه!

فقالت ببرود:

ـ قدرنا ذلك قبل اتخاذ القرار.

ـ عظيم!

ـ ماذا تعنى؟

ـ إنه قرار صائب تمامًا.

لقد غادرتهما وهى مليئة بالشك والغم.

١٤

وجدت رب البيت نائمـا. لمحت فوق الكومودينو قارورة البريكتين فأدركت أنه استعان بالمهدئ ليهرب. ما أحوجها هى إلى حبة بريكتين. لا شك فى أن الضغط الآن يتصاعد مثل الجو العاصف حولها. استلقت على ظهرها تحت الغطاء. تحت سطح الماء

الساكن تيارات تتلاطم فى الأعماق. أسرتها أسرة مثالية ولكن على الورق فقط، وها هى ذى تتمخض عن مفاجآت غريبة وقبيحة. زغلول ورمضان يتملصان من قبضتها. الجو الفاسد يتسلل إلى الداخل على رغم النوافذ المغلقة. لا جديد فى أن يختلف الناس فى الصواب، المهم أن ينشدوه لا أن يطرحوه أرضًا. وآمنت بأنها لو خرجت من هذه الأزمة دون مضاعفات صحية فسوف تكتب فى المعمرات.

ولبثت تعانى يقظة حادة، وترفض فى الوقت ذاته أن تمد يدها إلى قارورة البريكتين، فلم تدر أنها غفت قليلاً إلا بفضل حلم رأته عن أمها. ولدى استيقاظها شد انتباهها شيء فى الخارج. خارج الحجرة حركة وأصوات. ماذا يجرى؟ زوجها ما زال يغط فى نوم عميق. انسحبت من تحت الغطاء فارتدت الروب وغادرت الحجرة بسرعة. وجدت محمود فى الصالة واقفًا شاحب اللون مرتجف الأطراف. حدست فى الحال أن وجه الحقيقة الآخر كشف له عن بشاعته كلها أو بعضها.

ـ ماذا جرى؟

ضرب جبهته براحته حتى خيل إليها أنه سيحطمها. مضت به إلى حجرة الجلوس. أضاءت المصباح وحبكت الروب وقاية من برودة شديدة. جلست ولكنه لم يجلس. كررت السؤال فجعل يذهب ويجيء، ثم قال:

ـ عرفت أشياء غاية فى القبح.

ـ ما هى؟

ـ عنايات لم تكن ضحية كما توهمت ولكنها كانت داعرة!

ـ ماذا تعنى؟

ـ كانت تعبث بثلاثتنا، أنا وزغلول ورمضان.

ـ اعترفت لك بذلك؟

ـ اعترف لى زغلول ورمضان ليحذرانى.

آه.. إنهما يقصدان إجهاض القرار. وهى تعرف بواعثهما. بعضها أنانى وبعضها لا غبار عليه. وعلى رغم إيمانها بأن عنايات مظلومة فإن باطنها لم يخل من دبيب راحة. وسألته:

ـ ماذا فعلت؟

ـ قررت الداعرة حتى أقرت.

ـ خفض من صوتك أو يصل إلى الشارع، هل دافعت عن نفسها؟

ـ تدعى أنها استسلمت على رغمها الفاجرة!

ـ اهـدأ .

ـ فوق طاقتى !

ـ أرجو أن تنتظرنى حيث أنت .

مضت إلى المطبخ .

لكنها لم تجد لعنايات من أثر .

ورجعت إلى محمود متسائلة :

ـ هل طردتها؟

فهز رأسه نفيًا ، فقالت :

ـ لقد ذهبت .

١٥

انسرب الجو العاصف إلى القلوب . الإخوة ـ على رغم الاعتراف المريح للضمائر ـ فقدوا شعورهم الطبيعى بالبراءة وعزة النفس . جمالات تدرك ذلك وتلاحظه بنفس مكلومة . الأمور الآن تناقش جهراً ، وها هو ذا الأب وزغلول ورمضان يلحون على اعتبار الموضوع منتهيا ، أما محمود فقد تبعثرت ذاته . وضاعف من عذابها أنها فى صميمها قد ارتاحت إلى اختفاء البنت وهى بريئة من دمها . ولاحظت أن زوجها لا يأبه لأحزان محمود ولكنه يتابعها هى بقلق . وقال لها وهو منفرد بها :

ـ لقد رضينا بالحل الصحيح الذى دل على شرف الولد ثم حصل ما حصل بلا تدخل منا فلا مسوغ للحزن يا جمالات .

فقالت بوجوم :

ـ محمود ضائع تمامًا وسيخسر عامه الدراسى !

ـ خرج الأمر من يدنا ولم يعد فى وسعنا شىء .

ـ لن يغسل ذلك ملابسنا القذرة .

فقال بضجر :

ـ فلنتركها للشمس والهواء .

وحدجته بعصبية قائلة :

ـ إنى أحسدك .

فتغيظ وقال :

ـ إنى أصرح بما فى ذاتك أكثر منك .

فاصفر وجهها من شدة الغضب وهتفت بكبرياء :

ـ إنى ضمير حى لا يموت .

فهز منكبيه ولم ينبس . إنها واثقة بأنه يتجنب دائمًا مواجهتها فى معركة حقيقية . فى الوقت ذاته قد تعرت أمامه ، بل تعرت أمام نفسها . وقال متراجعًا :

ـ جمالات ، إنى أواصل العمل بطريقة تهدد صحتى ، اعذرينى وكونى لطيفة معى ما أمكن .

وتساءلت فى نفسها : كيف تمضى الحياة إذا أصرت طوال الوقت على احتقار أسرتها ونفسها؟ !

١٦

ولاحقت محمود فى انعزاله لشعورها بأنه أحوج الجميع إلى الدواء ، حذرته قائلة :

ـ مستقبلك ، لم يبق لك إلا مستقبلك وهو فى خطر .

بدا وكأنه لا يشعر بالخطر . أين حساسيته الشديدة؟ وأين مرحه؟ قالت :

ـ يوم أمثالنا لا يقدر بثمن .

فقال لها بحزن :

ـ رضيت بالتضحية ولكنى حرمت منها .

ـ أثبت حسن نيتك بلا أدنى شك .

ـ ما الفائدة؟ . . سأظل المجرم الأول فى حياتها .

ـ لنتركها لرحمة الله .

ـ الموت أو السقوط ، هذا ما تبقى لها .

ـ لا شائبة تشوب ضميرك .

وتفكرت قليلاً ثم واصلت :

ـ ولا تنس أنك ملتزم بفردوس !

فتنهد قائلاً :

ـ كلا .

ـ كلا؟!

ـ لقد بادرت إلى إرسال خطاب لها قبل أن يكاشفنى زغلول ورمضان بما خفى على.

ـ فسخت الخطوبة غير المعلنة؟

ـ اعتذرت بظروف قاسية، وسجلت المبالغ التى اقترضتها، واعدا بتسديدها عند الميسرة.

ـ وصل الخطاب إليها؟

ـ يصل اليوم أو غدًا.

ـ يا له من تصرف مرعب.

ـ ولكنه كان خيرا من الاستمرار فيه.

ـ لم يعد كذلك الآن.

ـ لقد فات الأوان.

ترى هل تمضى الأمور نحو الأحسن أو الأسوإ؟ قالت:

ـ على أى حال عليك أن تسترد صفاء ذهنك وقوة إرادتك لتواصل تقدمك الدراسى.

وتساءلت مرة أخرى: ترى هل تمضى الأمور نحو الأحسن أو الأسوإ؟!

١٧

وجاءت أم فردوس لزيارتها. ما أكثر الزيارات بينهما ولكنها شعرت بأن هذه الزيارة غير عادية. وجاءت كالعادة أيضًا عصرا وقد سفعت الرياح الباردة وجهها فاحمرت أرنبة أنفها. وهى تماثلها فى السن، لا تخلو من وسامة، إذ كان من سوء حظ فردوس أن ورثت خلقة أبيها لا أمها. وغشى جو الزيارة ارتباك خفى وشى بأسرارها. وما لبثت أم فردوس أن قالت:

ـ أريد أن أحدثك كأخت.

فقررت أن تواجهها بالصراحة اللائقة فقالت:

ـ ما علمت بالأمر إلا منذ أيام قلائل!

ـ وأنا كذلك وإلا ما أخفيت عنك شيئًا.

ـ كنت سأسر، فردوس ابنتى كما أنها ابنتك، وهى شابة ممتازة، ولعلهما أخفيا الموضوع لشعورهما بأنه سابق لأوانه بعض الشىء.

فقالت أم فردوس بصوت شاك :
ـ ولكنه انتهى نهاية غاية فى السوء .
تنهدت قائلة :
ـ أعلم ذلك .
وبعد فترة صمت مشحونة بالانفعالات تساءلت أم فردوس :
ـ ما الظروف الخطيرة التى أوجبت القطيعة؟
ـ لقد صدق فيما قال .
ـ ألا ترين أنه من الضرورى أن أعرفها؟
ـ بلى ، ولكن فيما بعد .
ـ أهو قرار نهائى؟
فتفكرت جمالات مليا ثم قالت :
ـ أعدك بأننى سأبذل أقصى ما أستطيع .
فقربت منها رأسها وقالت بصوت خافت :
ـ اعتبريها مهمة بالغة الأهمية ، البنت حالها فى غاية من السوء .
ـ أسفى فوق ما تتصورين .
ـ إنى واثقة بمحبتك ، وإليك اقتراحا مستعدة أنا لتنفيذه حال موافقتك ، وهو أن نزوجها الآن ، فردوس غنية ، وسيجد محمود فى بيتنا مكانا هادئًا ليتم تعليمه .
فوضحت الدهشة فى وجه جمالات فقالت الأخرى :
ـ فكرة وجيهة وحكيمة .
فقالت جمالات بعد تردد :
ـ محمود حساس جدّا!
ـ لكنه اقتراح لا غبار عليه .
فقالت جمالات بصدق :
ـ أعدك بأننى سأبذل أقصى ما فى وسعى .
وهما يفترقان همست أم فردوس فى أذنها :
ـ البنت حالتها سيئة جدّا .

١٨

داخلتها رقة فى غمار القلق والأحزان . اعتادت أن تحب فردوس منذ طفولتها . وهى تعطف عليها دائمًا لخلوها من الجمال ولقعودها فى البيت دون أن تتم تعليمها . وهذا الزواج المقترح إذا تم فسيفسر أسوأ تفسير ، سيقال إنه زواج اليأس من ناحية العروس والطمع من ناحية العريس . ثم إن خطيئة محمود مع عنايات يمكن الدفاع عنها ، أما ما ارتكبه مع فردوس فلا يمكن الدفاع عنه . وقد نبذ محمود عنايات بوصفها منحلة فلن تقف عنايات عثرة فى سبيل الزواج . محمد فتحى قال أول الأمر :

ـ إنه قراره هو . .

ولما ألحت عليه جمالات قال :

ـ فليتزوج بها ، سيضمن مستقبله ويصلح خطأه .

فقالت جمالات متهكمة :

ـ ويخفف عنك بعض الأعباء .

فقال بتحد :

ـ عنى وعنك .

زغلول قال :

ـ إنه موقف مناهض للرومانسية ولكنه ليس مناقضا للأخلاق .

وقال رمضان ساخرًا :

ـ مع السلامة ، حل غاية فى التوفيق .

إن ثقتها بزغلول ورمضان لم تتدهور ولكنها لم تعد تفهمهما تمام الفهم ، وعما قليل ربما تلاشى التفاهم بين الجميع . ومن حسن الحظ أن محمود لم يعارض فكرة الزواج . لعله يرى فيه إصلاحا لخطئه أو تكفيراً عنه . إن مثله لا تطيب له الحياة بلا تكفير . على ذلك قال لها :

ـ سيبقى فى النفس جرح لا يلتئم بسبب عنايات .

سيبقى فى نفسها أيضًا . لعل سر عطفها عليه أنه يشاركها العذاب ، وأنه جاد فى تحويل القول إلى عمل ، ولكنه كان أيضًا الجانى الأول ! فلتنته هذه المحنة التى عرَّتهم جميعًا بلا رحمة . فلتنته ليرجع إلى وسادتها النوم الهادىء وليخف عنها الضغط . وإذا

كانت لم تحظ براحة ضمير كاملة فقد لقنت درسًا فى التواضع والأسى . وسرعان ما زفت البشرى إلى صديقتها الحميمة أم فردوس ، وسرعان ما تم الزواج بلا تكاليف من ناحيتهم غير مؤخر صداق مقداره خمسمائة جنيه .

١٩

واشتدت الزوابع فى أواخر الشهر غير أن جمالات قالت لنفسها إن أمشير يلقى تحيات الوداع وعما قليل يهل الربيع بالنضارة والبهجة . وإذا بالبواب يقول لها وهى راجعة من السوق :

ـ عنايات تعمل فى شقة مفروشة بالعمارة الجديدة عند الناصية .

ارتعد قلبها وغشيتها سحب الأكدار . إنها إحدى النهايتين ، وهى تؤجل النهاية الأخرى ـ الموت ـ ولكنها تؤكدها . وقد ضاق محمد بالخبر ضيقًا شديدًا وقال :

ـ بوسعها أن تصون نفسها ، فلن يرغمها أحد على الفساد .

أشفقت من التمادى فى مناقشته غير أنها تمتمت :

ـ سيعلم محمود بذلك عاجلاً أو آجلاً . .

فلوح بيده قائلاً :

ـ فليعلم ، لن يغير ذلك من الأمر شيئًا .

* * *

وذات يوم رجع الرجل من عمله فى ميعاده ولكنه كان شاحب الوجه زائغ البصر . خفق قلب جمالات فشخصت إليه ببصرها دون أن تنبس . عند ذاك قال دون أن يشرع فى خلع ملابسه :

ـ خبر سيئ جدًا يا جمالات .

فغمغمت فزعة :

ـ اللهم احفظنا !

ـ محمود تزوج من عنايات وذهبا معًا !

فهتفت بصوت مبحوح :

ـ غير معقول .

ـ لكنه حصل .

ـ لقد انصرفت نفسه عنها بعد ما توكد له أنها . . .

قاطعها بنفاد صبر :

ـ لكنه حصل . .

فتساءلت بذهول :

ـ وفردوس؟ . . ومؤخر الصداق؟

ـ واضح أنه لم يصدر فى عمله عن عقل أو منطق .

ـ ومستقبله ودراسته؟

فقال بأسى :

ـ لم تتح لى مناقشته!

ـ وكيف يعيش؟ . . كيف يواجه الحياة؟ . . هل وجد عملا؟!

رفع الرجل منكبيه فى يأس وقال :

ـ لا معنى لهذه الأسئلة ، التصرف جنونى لا سبيل إلى فهمه فى نطاق العقل والمألوف .

وفرق بينهما صمت ثقيل فراح ينظر إلى صورة زفافهما المعلقة بالجدار نظرة خالية من الرؤية ، على حين امتد بصرها من الزجاج المغلق إلى السحب الراكضة .

الحب والقناع

١

أول ليلة فى الفيللا الجديدة عقب العودة من شهر العسل . شهر العسل ـ أغسطس ـ مضى فى رأس البر ثرى البهجة والرياضة والحساسية . بدأ حبا من جانب واحد ـ جانبه ـ ثم تسلل إليها الرضا والإقبال مقتلعا ذكريات بالية . استقبلا المساء بالجلوس فى الشرفة على كرسيين هزازين متجاورين فى ضوء خافت مطلين على الحديقة الصغيرة المفعمة بأنفاس الليل الناعمة . كم يطيب له أن يلحظ عارضها الجميل ورأسها النبيل بشغف ورغبة فى الاستطلاع . وكانت ترسل الطرف إلى شارع الهمذانى الغائص فى قلب المعادى بأشجار الكافور المغروسة على جانبيه . استرخت فى قميص أبيض طويل طارحة شالها على ذراع الكرسى على حين تمدد فى بيجامته الزرقاء الراسمة لطوله الرشيق . فى شهر العسل تم تعارف حميم ، تولدت ألفة حارة فاطمأن إلى نجاح مغامرته . قال :

ـ ضعى الشال على كتفيك .

فقال بصوت رخيم :

ـ الجو دافىء .

ـ سبتمبر لا أمان له .

فقالت بعذوبة :

ـ أشعر بالأمان الكامل .

وجد فى قلب الجملة معنى خاصا فامتلأ صدره بالامتنان . مالت بالكرسى إلى الأمام فملأ قدحين بعصير الموز له ولها . وردته ذكرى من ذكريات رأس البر حين قدم كأسين من الويسكى قالت وقتذاك بجدية لم يتوقعها :

ـ مستحيل .

فقال معتذرا :

ـ إنه شهر العسل .

ـ ولو .

ثم مستدركة برجاء وحزم معا :

ـ ولا أنت !

لم تنثن أمام الحرج أو المجاملة . حتى فى أيام التلاقى الأولى وفى غمرة طوفان العواطف رفضت ما تأباه بقوة وشجاعة . وقد تراجع متلقيا نذيرا من المتاعب . أجل لم يكن الأمر مفاجأة له فهو يعرفها من قديم . خبر صلابتها التى أرهقت قلبه ، وطالما رآها وهى طالبة بكلية العلوم ترفل فى زى المسلمات المحتشمات مطوقة الرأس والوجه بالخمار الأبيض . وألم يقل له صديقه عبدالبارى خليل المحامى : «إنك مقدم على الزواج من كائن له مظهر أنثى ومخبر إمام مسجد»؟ ! لكنه الحب أو لعله الحب والعناد .

وسألها :

ـ أعجبتك الفيللا يا فتحية؟

ـ إنها تفوق الخيال ولكنى لم أقدم لها إلا القليل . .

ـ قلامة ظفرك أثمن منها ومما فيها .

فقالت ضاحكة :

ـ أنت رجل غنى تجود بالكلام كما تجود بالأشياء الثمينة . .

ـ أنا رجل عاشق بلا زيادة . .

ـ وأنا سعيدة .

ـ لكن لم يجر الحب على لسانك بعد . .

فضحكت قائلة :

ـ أنت تعرف تماما ما تسأل عنه . .

تجلى لعينيه يسرى أحمد . لا يمكن أن يجيء وحده ، ولكن فى إطار جامع لعبدالبارى خليل ووهدان المتجلى وعدلى جواد وفتحية سليمان وشارع ابن خلدون بالسكاكينى . جيران وأصدقاء من الطفولة . أعمار متقاربة حتى فتحية لا تصغرهم إلا بعام واحد فهى فى التاسعة والعشرين بينا هو فى الثلاثين . لكن يسرى أحمد تجلى لعينيه وحده فى تلك اللحظة . تجلى له فى موقف لا ينسى حين خلا إليه فى حديقة الظاهر بيبرس . كان أحب الجميع إلى قلبه وكان يسعفه فى العلوم والرياضة المستعصية عليه . تطلع إليه بوجهه الشاحب الجذاب وارتبك فسأله :

ـ مالك يا يسرى؟

ـ لا أدرى كيف أبدأ .

ـ أمر مهم ولا شك؟

ـ فعلا ، لبيب ، نحن أخوان .

ـ طبعــا .

ـ وأنا باسم الأخوة أحدثك ، المسألة تتعلق بفتحية بنت الشيخ سليمان .

خفق قلبه خفقفة رسبت فى حفريات صدره إلى الأبد .

ـ ما لها؟

ـ إنك يا عزيزى تطاردها فى الشوارع .

تساءل بوجوم :

ـ شكتنى إليك؟

ـ معذرة ، إننا متفقان على الزواج . .

تمتم وهو يتجرع المرارة :

ـ لم أكن أدرى . .

ـ طبعا فأنت أخ كريم . .

. . هاهى ذى تقول له : «أنت تعرف تماما ما تسأل عنه» بعد أن تلاشى الماضى تماما . ولكنه تلقى الخبر وقتها بحزن مجنون بها . ودفعته انفعالاته إلى جحيم الكراهية . انقسمت عاطفته نحو يسرى أحمد فجرى الحب فى نصفها والمقت فى النصف الآخر . يسرى قصير رقيق وهو طويل رشيق ، صاحبه رقيق ضعيف وهو رياضى قوى نسخة طبق

الأصل من أبيه داود الناطورجى. وتساءل بحقد: هل أصابها العمى؟ وتساءل أيضا: هل يسلم بالهزيمة أو ينتظر نجدة من المجهول، من الموت نفسه؟ ها هى ذى تقول له: «أنت تعرف تماما ما تسأل عنه». وقال لنفسه: «إن خير ما اهتديت إليه هو أنه لا معنى لشىء».

- أعددت فى الڤيللا حجرة خاصة لوالدتك ولكنها عنيدة.
- وأنا أيضا ألححت عليها ولكنها كما قلت لك لا تفرط فى بيتنا القديم.

هز رأسه متظاهرا بالأسف. عادا يتبادلان شعورا خفيا بوجودهما معا ويلوذان بصمت هنىء حتى خطرت له خاطرة فضحك فسألته:

- ماذا يضحكك؟
- عرفتك دائما جادة فلم أكن أتصور أنك أنثى كاملة..

فضحكت بسرور وقالت:

- ولكنك أقدمت على رغم ذلك على طلب يدى!
- إنه الحب..
- أنت أيضا لا تخلو من تناقض، فمظهرك القوى غير متناسب مع رقتك الحقيقية..

فتملى قولها قليلا ثم تساءل:

- لعلك لا تتصورين أنى قاتل مثلا؟

فقالت ضاحكة:

- إنى كيميائية لا سيكلوجية وهذا من حسن حظك.
- بهذه المناسبة أقول لك إننى شرعت أغازل كتبك العلمية فعليك أن تغازلى كتبى الثقافية، كلانا يكمل صاحبه..

فقالت باهتمام:

- ولكنى أسىء الظن بكتبك، ولن تجد يقينا حقيقيا إلا فى الدين والعلم..

إنها تتحدث عن اليقين. لعلها تظن أنها تعرفه كما يعرفها. وهى صارحته بكل شىء، صادقة صريحة ومنذرة بالمخاوف. أما هو فلا تعرف عنه إلا السطح، فهل تزوجت من رجل آخر؟ إنه الحب ولكنه الخوف أيضا، فهل تتسع هذه الڤيللا لثلاثة؟ وثمة الشعور الحقير بالذنب يطارد العذابات الخفية. هيهات أن ينسى منظر يسرى أحمد قبيل وفاته، والانقضاضة الوحشية الدنسة فى ظلام الليل.

٢

وقفت فى الشرفة عند الضحى فى مهبط الشعاع الذهبى. عقب جولة من المشى السعيد فى شوارع المعادى. يا لها من قامة رشيقة ووجه جذاب. إنه يملك ذلك كله بعد حسرة التهمت الصبا والشباب الأول. تمتمت:

ـ غدا أرجع إلى العمل، لكل شىء نهاية.

كما انتهى شهر العسل. وكما يدب الفناء فى الوليد منذ اللحظة الأولى. قال بأسف:

ـ غاب ذلك عن بالى تماما.

فقالت متهكمة:

ـ هكذا ذاكرة الأعيان.

ـ ترجعين راضية إلى معامل وزارة الصحة؟!

ـ كل الرضا.

ـ ذكرياتى عن الكيمياء تتلخص فى أنابيب يتصاعد منها دخان كريه الرائحة..

ـ ولكنى أراها بعين أخرى.

ـ وكيف يستقبلونك بعد شهر العسل؟

ـ طبعا لن يخلو الاستقبال من غمز.

فتنهد قائلا:

ـ كم أحلم باستقرارك فى بيتك.

أقبلت نحوه حتى وقفت أمامه فى ردائها المكون من قميص أزرق وبنطلون رمادى وسألته:

ـ خبرنى متى تشرع أنت فى العمل؟

الصوت الذى يخشاه يتكلم. الوعد لديها ميثاق دولى. تذكر لقاء الخطوبة الثالث عندما بدا أنها تميل للموافقة عقب إصرار طويل على الرفض. وقتها سألته:

ـ متى تخرجت؟

فأجاب ببساطة:

ـ منذ ستة أعوام..

ـ ولماذا بقيت بلا عمل؟

ـ لست فى حاجة إلى العمل كما تعلمين .

ـ لكنه العمل الذى يخلق الإنسان لا دخل خمسمائة جنيه .

ـ لا ينقصنى شىء ، وإنى لخبير فى التعامل مع الوقت ، لى مكتبة ضخمة ، لى أصدقاء ، ثم إننى لم أقتنع بعمل أبدا . .

ـ إن كنت تضيق بالوظيفة فافتح مكتبا للمحاماة . صديقاك عبدالبارى خليل وعدلى جواد محاميان ، صديقك وهدان المتجلى قاض . .

ـ إنهم فى حاجة إلى العمل . .

ـ الإنسان بلا عمل عرضة للرعب .

ـ الرعب؟ !

ـ الضجر ، العادات السيئة ، العزلة . .

ـ قد توجد جميعا مع العمل . .

ـ الاستثناء يؤيد القاعدة ولا يهدمها .

ـ هناك الزواج والأبناء .

ـ العمل أيضا مهم ، إنه لأمر مهين أن يخطر الإنسان فى الحياة بلا عمل . .

ولما كان متلهفا على الظفر بها فقد قال :

ـ سأجرب ذلك . .

ـ فى أقرب فرصة .

فحنى رأسه بالإيجاب . تجاوز عن مزاجه الراسخ من أجل الحب . وتأثر بنظرة عينيها وثبات نبرتها تأثرا أشاع فى نفسه الحذر والتوجس . وتذكر موقفها الرافض للزواج حتى شارفت الثلاثين فازداد حذرا وتوجسا . وتساءل : هل يعثر تحت ذلك السطح الصخرى على ينبوع من ماء الأنوثة العذب؟ ! تساءل مرتين ولكنه كان يحب حبا عنيدا أيضا . وآلمه شعوره القديم بضعف شخصيته . كان وما زال ناقدا قاسيا للذات فلم تخف عليه علله . إنه الآن يضع أمله فى حياة زوجية متوازنة فى الحب ، حبها المتصاعد له . ستحبه كما أحبها وأكثر بل لعلها أحبته بالفعل فهمسات الفؤاد الخفية لا تغيب عن الوجدان اليقظ .

قالت بفخار :

ـ ملف خدمتى يحوى أجمل الشهادات بكفاءتى فى العمل .

ـ طبعـا .

ـ طبعا؟ . . لماذا؟

ـ إنك تتحرين الكمال فى كل شىء .

ـ أيرضيك ذلك؟

ـ بلا أدنى ريب، ولكنى أحب أيضا الاعتدال!

ـ يا لك من رجل طيب.

ماذا تعنى يا ترى؟ أما هى فتساءلت:

ـ كيف كنت تمضى يومك؟

فقال مستبشرا:

ـ كنت أبدأ يومى بالسباحة طيلة أيام السنة عدا الشتاء فألعب التنس، فآوى إلى مكتبى حتى الغداء، أذهب إلى لقاء عبدالبارى ووهدان وعدلى بركننا المختار فى الفردوس، وقد أذهب إلى سينما أو أمضى السهرة أمام التليفزيون.

ـ إنهم يستريحون من العمل، أما أنت فتواصل حياة الفراغ..

فابتسم بلا تعليق فقالت:

ـ قراءاتك متنوعة، يسرنى أنك تضم إليها العلم أخيرا، لكن لأى هدف تقرأ؟.. هل حلمت يوما بالتأليف؟

ـ أبـــدا.

ـ وفى المقهى كنت تشرب الويسكى؟

ـ بضع كئوس.

هزت رأسها بأسف فقال:

ـ علينا أن نأخذ الأمور بهوادة ورفق..

ـ أعتقد أن الإيمان يتطلب جدية أكثر.

تذكر قول عبدالبارى عن إمام المسجد. إنها طراز نسائى غريب حقا. قالت:

ـ إنك بذرة طيبة تعد بشجرة طيبة وسوف تشكرنى ذات يوم من صميم قلبك.

ياللداهية. ها هو ذا صوت داود الناطورجى ـ أبيه ـ يتردد من جديد. ماذا تظن؟ وماذا تدبر؟ تذكر اجتماعا ذا مغزى بركن الفردوس فى الشهر السابق لزواجه. قال وهدان المتجلى القاضى المعروف بميوله الدينية:

ـ فتحية ممتازة ولكن عليك أن تتغير.

فقال عبدالبارى خليل:

ـ أو اضمن حبها لك فيجىء التغيير من ناحيتها.

فتساءل هو بقلق:

ـ ألا يمكن أن يستقل كلانا بحياته؟

فقال عدلى جواد :

ـ كان عليك أن تختار فتاة من نوع آخر .

وهدان أسعد الثلاثة إذ ظفر بزوجة تملك شقة ، أما عبدالبارى خليل وعدلى جواد فيحلمان بالزواج منذ خمسة أعوام دون جدوى يأسا من العثور على شقة . ها هى ذى تهدده قائلة : «سوف تشكرنى ذات يوم من صميم قلبك» . قال مدافعا :

ـ إنى شجرة بالفعل ، لست بذرة . .

فقالت باسمة :

ـ سأعتمد على الحب والعقل . .

قال لنفسه إنه سعيد حقا ولكن ماذا يخبئ المستقبل؟

٣

هذا أول صباح ينفرد فيه بنفسه منذ زواجه . بعد أن أوصلها بالمارسيدس السوداء إلى وزارة الصحة واعدا إياها بانتظارها الساعة الثانية بعد الظهر فى المكان نفسه . إنه يشعر بوحشة لغيابها ولكنه يجد أيضا نوعا من الراحة . كما ألف منذ قديم معايشة المتناقضات جنبا إلى جنب . كثيرا ما يبدو نصفين يناقض أحدهما الآخر فى العواطف والآراء جميعا . أما ما يكربه حقا فهو الوجه الآخر من حياته الذى أخفاه عن فتحية . منه جانب تافه مثل عش الهرم الذى كان يمارس فيه نزواته . لن تحاسبه على الماضى ، ولن تنسى موقفه من ماضيها أيضا الذى أغدقت عليه بسببه صفة النبل والشهامة . من السخرية بعد ذلك أنه قد ارتكب ما ارتكب من آثام من أجلها هى . ها هو ذا يخلو إلى نفسه فى مكتبته كالأيام الخالية ، وها هى ذى كتب الفلك والطبيعة والأحياء الجديدة ، ولكن نفسه مشتتة .

حتى فى شهر العسل كشفت عن جوانب نفسها دون مجاملة . إنها تذكره بأبيها الشيخ سليمان مدرس اللغة العربية بخلاف شقيقها المنتدب مهندسا بالكويت الذى شابه فى الدماثة أمه ، فلم لم يحدث العكس؟!

إنها لا تدرى شيئا عن مقته ليسرى أحمد عندما علم بأنه حبيبها . فى تلك الأيام المتوحشة تمنى لصديقه الموت . أطلق على صورته خيالاته المدمرة المشحونة بالفناء . وشد ما سر عندما ألقى القبض على الشاب فى جنازة مصطفى النحاس . لم يعرف يسرى أحمد مصطفى النحاس ولكنه اشترك فى جنازته إكراما لذكرى أبيه الشيخ سليمان .

وكان ـ لبيب ـ يسمع عما يجرى فى المعتقلات فناط أمله بأيدى الطغاة تقتلع يسرى من سبيله . على الرغم من أن حبه له لم يتبخر تماما ، وعلى الرغم من أنه لم ينس أنه كان أستاذه فى العلوم والرياضة ومرشده فى أخطر مرحلة من مراحل حياته ، مرحلة الإلحاد والثورة على أبيه داود الناطورجى . صرخت الرغبة السوداء فى قلبه : «القتل فى المعتقل أو السرطان» .

فى غضون أسابيع أطلق سراح يسري أحمد لمرضه . وإذا بالأشعة تكشف فيه عن سرطان فى المثانة . تلقى الخبر بفزع واضطراب وحزن . شعر أيضا براحة عميقة . وكان فى إلحاده يتقزز من الإنسان بوصفه كائنا قذرا ذا إفرازات كريهة لا حصر لها فاقتنع بأن فى الإنسان من النوايا والسلوك ما يفوق الإفرازات الكريهة فى قذارته . وقد زاره فى رقاده الأخير . رأى الغطاء يشى بانتفاخ غريب فى منطقة البطن ، على حين لم يبق فى الوجه الجميل سوى الجلد والعظم . ولما رآه يسرى ابتسم ابتسامة خفيفة كأنما يلقى عناء حتى من التبسم وقال بصوت ضعيف :

ـ لبيب ، اقترب ، إنى فى حاجة إلى قلب محب . .

تفجرت دموعه بإخلاص فى تلك اللحظة . تذكر الماضى الحى والعواطف الجياشة والذكريات المشتركة فآمن بأن يسرى كان أصدق الأصدقاء جميعا . كيف هان عليه أن يقتله؟ لقد انطلق الغدر من صميم القلب الأسود إلى المثانة . كم ازدرى نفسه . كم ازدرى البشرية جميعا . وساعده ذلك الاحتقار ، بالإضافة إلى الخيبة فى الحب ، إلى التمادى فى الاستسلام للوحش . وتبدت فتحية فى تلك الأيام تمثالا للجمال والحزن . رثى لها وشمت بها . ألم تكن شريكته فى جريمة القتل؟ وتأمل بقسوة وحنق استقامتها الفريدة فقال إن لها أيضا إفرازتها الكريهة . وبكى فى جنازة يسرى طويلا حتى اقتنع بأنه لا خلاص إلا بتحطيم الكون .

ها هو ذا يصمم على القراءة فيقلب صفحات «الكون . . ذلك المجهول» . ويتساءل : هل فى وسع الحب والزواج أن ينتشلاه من الجفاف؟ ربما . ولكن فتحية تتبدى كثيرا كأنها نذير جديد بالمتاعب . وواضح ـ وهو الأدهى ـ أنها تروم خلقه من جديد .

برجوعها إلى الفيللا حوالى الثالثة مساء دبت فى الفيللا حياة جديدة . ولما دخلت الحمام عاودته خواطره الساخرة ، ثم جلسا يتناولان الغداء . له طاه خبير بصنع الطعام الجيد . وهما ـ فتحية ولبيب ـ يتصفان بشهية جيدة ، ولكن تناول الطعام كان من الخواص التي يتقزز منها ويطالب بسببها بتحطيم الكون . جعل يختلس إليها النظر وهو يرفع الشوكة إلى فيه ويقارن بينها وبين القطط والكلاب . حقا إن الطعام أس التعاسة البشرية . قالت :

ـ يوم مرهق بالقياس إلى العطلة .

فابتسم وقال بدوره :

ـ بدأ البحث عن شقة للمكتب .

فهتفت بسرور :

ـ جميل أن أسمع ذلك .

فحنق عليها فى باطنه ولكنه أفرخ حنقه فى صدر الدجاجة الرقيق . قال :

ـ قراءة العلم متعة فريدة حقا . .

فقالت بثقة :

ـ بالدين والعلم تكمل صورة الوجود ويطمئن القلب .

ولما همّ بتقشير تفاحة سألته :

ـ أليست مغسولة جيدا؟

ـ بالصابون أيضا .

فقالت بلهجة آمرة :

ـ كلها بقشرتها . .

الظاهر أن الوصايا ستمتد إلى التفاح أيضا! صدع بالأمر صامتا فسألته :

ـ ما رأيك فى زيارة ماما بعد العصر؟

فقال بسرور خفى :

ـ ليكن ذلك غدا إذ إنى دعوت عبدالبارى ووهدان وعدلى إلى فنجان شاى مساء اليوم .

٤

سر بوجودهم حوله فى الشرفة سرورا لا مزيد عليه . جالستهم فتحية وحثتهم على تناول الشاى والحلوى . إنهم أبناء شارع واحد وذكريات كثيرة مشتركة ، ومطلعون أيضا على دخائل أسرهم لدرجة لا يستهان بها . حتى المرحوم يسرى أحمد فرضت ذكراه نفسها فى سهو الحديث فمر على لسان فتحية مرورا عاديا ، فارتاح لبيب وأيقن أن الماضى قد مات تماما . فى أثناء الحديث قام وهدان المتجلى ليصلى العشاء فى ميعادها كعادته ، فتوجس لبيب خيفة مجهولة . لقد امتنع عن التردد اليومى على الفردوس كيلا يهجرها

وحدها عقب نهار مرهق ولكنه بيت أن يسألها السماح بسهرة أسبوعية . وكالعادة شاع في المجلس الشكوى من الحياة اليومية ، غلو الأسعار ، المواصلات ـ التليفونات ، المجاري ، حتى تساءلت فتحية :

ـ ماذا تتوقعون من دولة كافرة؟

فتساءل عبدالباري خليل :

ـ هل الإيمان يجفف المياه الطافحة؟

فقالت بابتسامة متحدية :

ـ اسخر كما ينبغي لماركسي أن يسخر .

كره لبيب انعطاف الحديث إلى منعطف متفجر ولكنه لم يدر كيف يسكت عبدالباري الذي قال :

ـ أسعد شعوب الأرض تعيش في كنف دول ملحدة .

فقالت فتحية بقوة لم تبلغ الحدة إكراما لآداب الضيافة :

ـ الإنسان بغير الله أتفه من ذرة غبار ، ماذا نعرف عن هذه الشعوب؟ لا شيء في الواقع ما دامت محرومة من التعبير الصادق عن قلوبها الخاوية . .

فقال عبدالباري :

ـ للبطولة والنبل ثمن .

ـ أي بطولة؟ وأي نبل؟ حتى المؤمنون يهبطون أحيانا إلى النفاق فيفقدون الأمل في البطولة والنبل ، فما بالك بالضائعين . . ؟

وتساءل وهدان :

ـ لماذا لا تشترك في الحديث يا لبيب؟

فبادره على الفور :

ـ زوجتي تتكلم بلسان الأسرة . .

ثمة غيوم كثيرة لم تظهر بعد في الأفق . لقد بعث أبوه من قبره على غرة منه . ليتها كانت امرأة مستغرقة في الأنوثة والبيت . إنها رجل أيضا ، تعاليم لا هوادة فيها ، ولا بديل عن الكذب إلا بخوض معركة . وألح عليه شعوره بضعف الشخصية . ذلك الشعور القديم الذي فطن إليه بفضل نقده القاسي للذات وتضعضع ثقته بنفسه تحت ضغط إرادة أبيه الصارمة . ها هو ذا لا يطيق الحياة بلا فتحية واستقرار الأسرة الزوجية . ولا شك في أنها تحبه وستحبه أكثر ولكن يبدو أنها لا تفرط فيما تؤمن به . ولقد وجد في معاشرتها معنى على حين أنه لا يجد معنى وراء ذلك . ووراء ذلك خواء وعدم ورعب . فبين يديه صخرة نجاة تنتشل من الغرق وإن لم يلح شاطئ آمن للنجاة قريبا كان أو بعيدا .

عندما ذهب الأصدقاء الثلاثة قالت له :

ـ عبدالبارى شيطان ، فكيف تتعامل معه؟

فقال بحذر :

ـ الصداقة فوق تناقضات الآراء .

ـ الصداقة يجب أن تقوم على أساس أقوى من ذلك .

ـ بغير تسامح تصبح الحياة غير محتملة .

فقالت بامتعاض .

ـ إنه التهاون لا التسامح .

ـ إذا بالغنا فى التدقيق فقدنا الناس أجمعين !

فتمتمت بأسف :

ـ يا له من مجتمع يكتظ بالقذارة .

أخيرا سمع رأيا يتفق معها فيه بلا حدود فرحب به قائلا :

ـ إنى أتفق معك تماما ، فما الإنسان إلا كائن ذو إفرازات كريهة ودوافع فظيعة مرعبة !

فرنت إليه بعينين دهشتين وقالت :

ـ ماذا قلت؟ عنيت بالقذارة تخلخل الإيمان ، ولكنك تتحدث عن إفرازات ودوافع كأنك عدو البشر أنفسهم؟!

ـ أعتقد أننى لم أتجاوز الحق .

ـ لا . . لا . . معذرة إن قلت إنها نظرة غير عميقة . فما تشير إليه يمنع الإنسان من عبادة الله وغزو الفضاء .

تساءل فى نفسه : ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك بلا إفرازات كريهة ودوافع وحشية وسلوك دنىء؟! لكنه جفل من التفوه بكلمة زائدة ، بل هز رأسه كالمقتنع طاويا صدره على أسراره . .

٥

يميل الجو إلى شىء من البرودة ليلا فيطيب الجلوس فى حجرة المعيشة الموصولة بالشرفة . وهى مأهولة بطاقم من الإسفنج المدثر بالقطيفة الزرقاء ، ويتوسط جوارها الأيسر دولاب من خشب الأرو يقتعد التليفزيون الملون أعلاه ويستقر الراديو أسفله .

رجعا منذ قليل من زيارة ا لأم نظيرة هانم مفعمين بذكريات ابن خلدون فتبدت فتحية منتشية على حين كتم هو انفعالاته المتناقضة المراوحة بين الجميل والمرعب . وفى أثناء تناولهما العشاء مع نظيرة هانم أبدت المرأة جزعها من تأخر حمل كريمتها . تذاكرا ذلك باسمين وقالت فتحية :

ـ ماما دقة قديمة .

لكنه فى الحقيقة متلهف على الإنجاب تلهف من يروم تحصين ذاته المزعزعة ضد المجهول والخواء فقال :

ـ لها حق أيضا يا عزيزتى . .

فحدجته بنظرة متفحصة فقال :

ـ يوجد الأطباء ، لم لا؟

لم تعترض ، مما قطع بتلهفها أيضا . آنس من ذلك آية على حبها له وزوال الماضى تماما . كما وجد فيها آية على أنوثتها التى يتمنى أن تغمر «الإمام المتصلب» الكامن فى أعماقها . لعلها كانت قلقة طوال الوقت ولكنها أحسنت إخفاء قلقها . هى أيضا لها أسرارها الباطنة كما أن له أسراره المرعبة . تمثلت له الظلماء وحركات الشبح اليائس والصرخة المكتومة فارتعد للذكرى .

وسألته وهى تلقى نظرة على الصور العائلية المعلقة :

ـ على فكرة أين صورة والدك؟

توجد صورة أمه الشابة ، صورة نظيرة هانم ، صورة الشيخ سليمان ، ولكن أين صورة داود الناطورجى؟ عادت تسأل :

ـ سهو أم أنه لا توجد صور له؟

رحب بحديث لن يضطر فيه إلى الكذب فضلا عن فوائده الأخرى التى فطن إليها من اللحظة الأولى ، لذلك أجاب :

ـ الحق أنى لا أحب ذكراه!

فحدجته باهتمام ودهشة قائلة :

ـ إنه أبوك . .

ـ ولو .

ـ يا للغرابة .

ـ لا غرابة فى الدنيا .

ـ إنى أتذكره جيدا ، كان أشهر شخصية فى حى السكاكينى ، ظل محترما حتى بعد

إحالته إلى المعاش بعد الثورة، اللواء داود الناطورجى، بيت اللواء، سيارة اللواء، أنت ورثت عنه طوله وروعته، وكنت وحيده. مازلت أتذكر منظرك وراء نعشه وأنت تجهش بالبكاء. .

فقال ببرود:

ـ كنت أحبه حتى موته، لم أجد نحوه إلا حبا خالصا.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لقد ماتت أمى وأنا دون العاشرة فلم أعرف بعد ذلك أما أو أبا سواه، وانقض علىّ موته كالصاعقة، ولما انفض المأتم وآويت إلى الدار الخالية وجدتنى لأول مرة وحيدا، لا أم ولا أب، فلم أصدق أنه ذهب حقا إلا فى تلك اللحظة، وعند ذاك اجتاحنى شعور غريب بالراحة والأمان والحرية، شعور يتناقض تماما مع حزنى. ذهلت لذلك ولكنى استشعرت بتمهل السرور الخفى المثلج للصدر.

فقالت بوجوم:

ـ إنه رد فعل لشدة الحزن؟

ـ إنه أفظع من ذلك، شعرت لأول مرة بتحررى من قبضة غليظة قاسية. تخيلت هول الكارثة لو أننى استيقظت فى اليوم التالى فرأيته واقفا فى الصالة يمارس رياضته الصباحية ويحاسبنى على تأخيرى فى الاستيقاظ!

جعلت تتابعه باهتمام وقلق فقال وكأنما يعنيها هى بمغزى حديثه:

ـ مع الأيام جعلت أحاسبه على معاملته الصارمة لى فيحتدم الغيظ فى قلبى ويشتعل الحنق، ويتولد النفور وينتشر حتى انقلب كراهية سافرة. .

ـ لا أصدق.

ـ فتحية، لقد بلغ بى النفور درجة حملتنى على أن أبنى لنفسى مدفنا خاصا حتى لا أرقد ذات يوم إلى جانبه!

هتفت:

ـ إنه ما لا يتصوره العقل. .

ـ وفاة والدتى فى عز شبابها كانت مصيبة لم أعرف أبعادها إلا فيما بعد.

ـ قيل إنه لم يتزوج بعدها إكراما لك. .

ـ وهذه كارثة أخرى، فقد كرس حياته لينشئنى على مثال مرسوم بدقة وصرامة، وراح يصبنى فى قالبه كأننى طينة لا هوية لها مستعينا بعنف لا مثيل له، هكذا تلقيت الدين وشعائره كما تلقيت كل شىء. العجيب أنه لم يقرأ كتابا فى حياته، حتى دينه

أخذه عن إمام جاهل اكتراه ليعلمه الإسلام ثم نقله إلى نقلا ميكانيكيا فحفظته ومارسته فى جو من الفزع . .

تمتمت بحيرة :

ـ أبى هو أيضا من علمنى دينى . .

ـ كان أبوك من علماء الدين أما أبى فكان جاهلا وإرهابيا !

ـ كنت أراك وأنت تتبعه إلى صلاة الجمعة . .

ـ وحملنى أيضا على صلاة الفجر فكان يغلبنى النعاس فى الفصل ، وحملنى على ممارسة الرياضة البدنية كالسباحة والعدو وحمل الأثقال بالعنف نفسه . أما ولعى بالقراءة فلم يخف احتقاره له ولكن جهله بالكتب منحنى فرصة فريدة للسياحة الثقافية بعيدا عن رقابته الصارمة . .

وضحك ضحكة جافة ثم واصل :

ـ لم يكن يفوق عنفه إلا تعصبه الأعمى لأفكاره ، من هذه الأفكار إيمانه بالمقاومة الطبيعية واحتقاره للدواء . ولما أصابتنى نزلة معوية قرر أن يتركنى لمقاومتى الذاتية ، طالبته المربية بإحضار طبيب فرفض ، ومضيت أهزل من الإسهال يوما بعد يوم حتى صرت كالخيال وهو لا يبالى ، كان يمكن أن أفقد حياتى وأشفيت على ذلك ولكنه لم يكترث ، ولما نجوت بأعجوبة قال لى بفخار . «إنك ابنى حقا ولن يهزمك المرض بعد اليوم ، لماذا رحلت المرحومة أمك فى عز شبابها؟ . . لأنها كانت ضعيفة فلم ينفعها طب ولا دواء» .

انساقت فتحية إلى ضحك بلا صوت فابتسم هو أيضا ثم قال :

ـ على رغم أنفى أجبرنى على الالتحاق بالكلية الحربية ، لم تجد توسلاتى ولا دموعى ، محتجا بأنها كلية الرجال والحكام أيضا . وأنها ستنقذنى من داء القراءة الوبيل ، ولولا وفاته الفجائية . . .

قاطعته قائلة :

ـ لقد تساءلنا وقتها عما جعلك تترك الكلية ، ولكنك لم تفد شيئا من التحاقك بكلية الحقوق !

ـ كانت أفكارى مختلفة فى ذلك الوقت . المهم أنك أنت نفسك تحديت أوامره وأنت لا تدرين !

فتساءلت بدهشة :

ـ كيف؟

ـ رشح لى ذات يوم عروسين هما كريمتا لواء على المعاش من أقرانه تاركا لى حرية اختيار إحداهما ومعتبرا ذلك من ناحيته تنازلا ديموقراطيا شاذا. وكنت أحبك كما تعلمين فصارحته بذلك معتمدا على صداقته القديمة بالمرحوم والدك، ولكنه انفجر غاضبا.

فقطبت لأول مرة متسائلة:

ـ لماذا؟

ـ بحجة أنه لا ثقة له ببنات الأرامل.

فقالت باستياء:

ـ كان سيئ الظن بالنساء!

ـ وبالرجال والحيوان والنبات والجماد. شد ما انتقد أصدقائى بلا سبب وكأنما يرغب فى أن ينشئنى بلا صديق سواه. وفضلا عن ذلك كله كان شديد الحرص فعاش فى حدود معاشه ولم يمس مليما من دخله الوفير من عماراته، ولعل ذلك ما جعله يتمسك بالبقاء فى البيت القديم بابن خلدون متعللا بأنه راسم أن يعودنى على الحياة البسيطة، وأعترف بأن ذلك لم يضايقنى إذ إننى لم أكن أطيق الحياة بعيدا عنك..

ساد صمت كئيب تبادلا فيه نظرات باسمة وحزينة حتى قطعت الصمت قائلة:

ـ كان شخصا غريبا ولكنه عرف فى الحى بالقوة والبهاء والتدين وحب العزلة، وبالتضحية بمسراته فى سبيل وحيده، الله يرحمه. على أى حال، أليس عجيبا أن ينحدر من صلبه رجل مثلك آية فى الكرم والاتزان وحسن الخلق؟!

ارتجف باطنه برعدة قاسية. غشى خياله الظلام الذى أخفى الوحش والفريسة، وتجسدت لعينيه نواياه القديمة بأنيابها ومخالبها. وتساءل بفتور:

ـ ألا يحق لى بعد ذلك أن أكره ذكراه؟

فقالت ضاحكة:

ـ كلا، لا تنس أنه وهبك الحياة والمال، ولكن ألم يخالط قلبك فى حياته أثارة من عاطفتك الرافضة؟

ـ كان يرمى به شديدا متواصلا ولكنى أحببته دائما، ولم يكن من الممكن أن تتسلل إلى باطنى عاطفة أخرى لأنه كان يعيش فى باطنى أيضا، فى تلافيف مخى ونبضات قلبى وأحلامى، كان الخوف يكمن هناك كالديدبان..

قالت متنهدة:

ـ كان أبى شيخا ولكنه كان ذا عقلية متفتحة، ربما كان يفضل أن يعدنى للبيت ولكنه

حين آنس منى تعلقا بالتعلم سمح لى بالاستمرار فيه، دخلت الجامعة أيضا دون معارضة تذكر، وعلمنى دينى أحسن تعليم فكرست حياتى للعلم بوصفه قراءة جديدة لدنيا الله .

فقال بحذر :

ـ كثيرون ألحدوا بسبب العلم . .

ـ لا دخل للعلم فى ذلك، الإلحاد عجز فى النظر .

ـ على أى حال كان أبى رجلا من صنف آخر، كان جاهلا ومتعجرفا وقد وجد فى الشكل مبتغاه، وكان يمقت المناقشة ويقاتل التساؤل البرىء، كان يلاحقنى من الصباح الباكر حتى النوم بالأوامر والتعليمات والمراقبة . .

ـ ألا يشفع له عندك حسن نيته؟

فقال بامتعاض :

ـ كـلا .

ـ أكان كذلك فى حياة المرحومة والدتك؟

ـ ذكرياتى عن أمى قليلة، أجل كانا يختلفان كثيرا، وكانت هى عصبية مستعدة دائما للتمرد والتهديد بهجر البيت، وكان ينبغى أن أتعلم منها ولكنه نجح فى استعبادى، تارة بالعنف، وتارة بإقناعى بأن أى استهانة بأوامره هى خروج عن إرادة الله المتعال، ولو أننى تمردت عليه حقا لضمنت لنفسى حياة أفضل . .

ـ حياتك مقبولة جدا . .

فقال مضمنا كلامه تنبيها لها :

ـ كانت حياتى لعنة ولكنها لم تخل من عبرة، فقد علمتنى أن أتجنب الاستبداد بالغير، واحترام الآخرين فكرا وعقيدة، علمتنى ألا أعُدّ نفسى مقياس الخير والشر فى الوجود!

وتساءل فى باطنه ترى هل أحسن الدفاع عن نفسه؟!

٦

مضى من الخريف ثلثاه وتشبع هواء الليل ببرودة مستقرة. من مجلسهما وراء الزجاج المغلق يرى البستانى نهارا وهو يكنس الأوراق المتساقطة، وتلوح فى السماء سحائب بيضاء وهى تهدهد الشعاع الذهبى . فتحية تملأ الفيللا بحركاتها الرشيقة . ما أشد الفارق

بين الكيميائية المتدينـة والأنثى الدافئة . إنه لتناقض يذكره بالتناقضات التى تمزقه . بوسعه دائما أن يهاجم أو أن يدافع عن أى رأى أو مذهب أو عقيدة ، الحجج السالبة تعادل عنده الحجج الموجبة ، ولكن لا أحد من أصدقائه يأخذ حديثه مأخذ الجد فهم يعرفون تماما أن قلبه ينبض فى خواء . وهو يرى فى زوجته نساء كثيرات : ثمة فتحية ذات الرداء الأبيض العاملة فى المعمل ، وفتحية المؤمنة المتطرفة ، وفتحية الفراش الباهرة . أيهن أصدق؟ فتحية الغريزة أم فتحية المؤسسات؟ !

قالت له ذات مساء وكانت متجهمة :

ـ اختاروا زميلا دونى كفاءة لبعثة صيفية !

تساءل وهو يلحظ حنقها بسرور خفى :

ـ لمـاذا؟

ـ أسباب سخيفة طبعا أهمها قرابته لأحد أعضاء مجلس الشعب .

ـ صحتك النفسية أهم عندى من البعثة .

ـ السكوت عن الخطإ أفحش من الخطإ ، أثرت الموضوع عند المدير ، وطلبت تحديد ميعاد لمقابلة وكيل الوزارة .

وعقب صمت قصير قالت مستعملة لغة الشعارات التى ينفر منها .

ـ على الحياة أن تكون جهادا متصلا .

ها هو ذا صوت مؤسسة يعلو . الغضب الذى احتقن به وجهها هو صوت الغريزة . لعلها تمتلئ الآن بالرغبات المدمرة . باسم الدين أو العلم يمكن أن ترتكب فظائع . أسعده أن تشاركه ولو بصفة عابرة صدق الغريزة الوحشى . شرها يقربها إليه بقدر ما يبعدها تطهرها . اقتحمته ذكرى وفاة يسرى أحمد . عرف وقتها أنها عاهدت نفسها على البقاء عذراء احتراما لذكراه . رفضت أيدى كثيرين . عنيدة وقادرة على الرهبنة . تربص منتظرا من بعيد . تتابعت الأعوام حتى قاربت الثلاثين من عمرها . وهى مصممة وهو صابر متصبر . إنها اليوم قلقة لتأخر الحمل ، كلما جاءها الطمث تجهمت . لعل حبها ليسرى لا يمكن أن يتكرر ولكنه قتل غريمه وفاز أخيرا بامرأته . فعل الإنسان الأول . لدى ظهور الإنسان انعقدت عليه آمال كبار . ألم يئن الأوان لإعادة النظر؟ رائحته تفسد جو الأرض وفعاله يندى لها جبين الحيوان .

ثم قرر أن يجرب حظه فمضى إلى مقابلة نظيرة هانم أمها . لم يتراجع أمام الرفض ولكنه طالب بالانفراد بها فى حجرة الاستقبال التقليدية المذهبة الطاقم . إنه ليذكر تماما ما دار من حديث فى أول لقاء :

ـ أتوسل إليك أن تصغى إلى .

ـ إنى مصغية .

ـ موقفك طال وهو غير معقول .

ـ لا أراه كذلك .

ـ ينتظر من أساتذة الكيمياء حكمة تماثلها .

ـ لا علاقة لذلك بالكيمياء .

ـ كلنا سنموت .

ـ إنى متيقنة من ذلك .

ـ لست الأولى .

ـ ولا الأخيرة .

ـ إنى أحبك من قديم .

ـ أشكرك .

ـ إنى أحب فتاة لا ذكرى .

ـ هل يوجد فرق كبير؟

ـ أظن ذلك .

ـ لا أظن .

ـ لا يمكن أن تضيع حياتك فى رهبنة .

ـ لا ينقصنى شىء .

ـ لن أطالبك بالحب فلنكل أمرنا للمعاشرة .

ـ إنك كريم ولكننى آسفة .

ـ لا تسدى الطريق فى وجهى ، دعينى أحاول وأحاول . .

فى تلك الأيام لم ينتحر بفضل مكر الحياة . لم تكن الخيبة خيبة الحب وحده ولكنها خيبة الحياة نفسها . هام بالحب كصخرة للنجاة فى خواء فقد أى معنى . تعلق بأى شىء من صداقة أو دعارة أو شراب ، شبع كثيرا وغاص فى الكآبة أكثر . .

بالإصرار نال أخيرا مبتغاه . وكان فاتحة التحول عندها أن راحت تحاسبه على بقائه الطويل بلا عمل . تزوج فطار بها من ابن خلدون إلى المعادى . رضى بها بلا قلب . سرعان ما تفتح القلب وتغيرت الحياة . لكن مجلسه السعيد معها لا يخلو من توجس . إنه يخشى الإمام وصوت المؤسسة . .

٧

أصبحت عادة جميلة مثل سحائب الخريف. تدثرت بالروب، كذلك هو فالجمال عند اقتراب الشتاء يتوارى كالأزهار. كلا إنها مثل الأشجار دائمة الخضرة ما زالت تعبق بأنوثة ريانة. وجاء وعد الطبيب أخيرا منعشا للآمال. ولكن فى غمرة النعومة ينبثق سؤال مثل:

ـ ما أخبار الشقة؟

ينقبض صدره ويجيب:

ـ إنى أتصل بالسمسار كل يوم.

ـ هل تنظر فى مراجعك القانونية؟

ـ طبعــا.

الكذب عادة يومية أيضا. كما تطبع به فى عهد أبيه. يقول وهدان المتجلى: «العمل قيمة عظيمة لمن كان مثلك، وزوجتك على حق». لمن كان مثلك يعنى لمن لا يربطه معنى بالحياة. لعله صدق. ولكن أى جدوى فى الاشتغال بقضايا المتطاحنين؟ وهى لا تصدقه تماما فرجعت تقول:

ـ أحيانايخيل إلى أنك غير مهتم..

فيوكد اتصاله بالسمسار. صوت أبيه يتردد من وراء القبر. إنها متوثبة دائما لصبه فى القالب المنشود كأنها لم تسمع بمأساته مع أبيه. سيظل دائما وأبدا فريسة للمؤسسات. كم سعى إلى الانخراط فى مؤسسة وكم فشل! طبعه أبوه بطابع الانقياد فقتل قواه الخالقة.

ـ على فكرة لم لا تصلى؟

ـ آه.

ابتسم ولم يجب.

ـ كنت قديما تصلى الجمعة والفجر.

هز رأسه صامتا.

قالت برقة تخفى انفعالها:

ـ ما أكثر المسلمين وما أقلهم.

أشار إلى قلبه وقال:

ـ هنا كل شيء .

ـ كلا ، كيف أقلعت عن الصلاة؟

قال ضاحكا :

ـ تمردت على أبى عقب وفاته .

فتساءلت بجزع :

ـ إلى أى مدى؟

فقال بوضوح :

ـ إنى مؤمن ، حسبى ذلك .

حتى متى يكذب؟ أما هى فشرعت تقول :

ـ ليتنى . . .

ولكنه قاطعها قائلا :

ـ كلا ، أرجوك ، الزمن كفيل بكل شيء .

فقالت بحرارة :

ـ ليت العمر يمتد بى حتى أشهد الله يحكم الدنيا مرة أخرى!

ـ آمـين .

هيهات أن يخطر لها أن يسرى أحمد هو من قادة الإلحاد . لم يجد صعوبة فى زعزعة إيمانه فقد صادف فيه متوثبا للتمرد على أبيه ، كما وجده سريع الانقياد كما طبعه أبوه . أجل خاض تجربة مرعبة معذبة ، ثم سرعان ما وجد نفسه فى كون بلا إله ولا حدود . وكان يسرى على رغم إلحاده ذا خلق متين ، وطالما قال له : «النبل أن نعيش كما ينبغى لنا من دون أمل» . وقد حفظ ذلك القول وردده كثيرا . حتى حيال أقرب الناس إليه ـ عبدالبارى ، وهدان ، عدلى ـ أسدل على وجهه القناع . أما الحقيقة فهى أنه لم يستطع أن يلتزم بالنبل فقتل ثم ارتكب ما هو أفظع من القتل . ولم يتركه ضميره بلا عقاب . وعجب لتطفل ضميره الذى رسب فى باطنه منذ العهد القديم . آية على ضعفه وجبنه . عندما يتحرر منه تماما يبلغ الصدق المنشود . سأله عبدالبارى : «لماذا تركز على السلبيات؟ . . هذا ما يقتل أى معنى للوجود» . الحق إن إفرازات الإنسان وغرائزه هى عقدته لذلك هان عليه أن يكفر بمؤسساته فيراها هياكل خاوية وهمية . إنه يطوى أسراره فى صدره أما فتحية فتتحدث عن الصحابة قائلة :

ـ كانت أغلبيتهم من الشباب ، ما أكثر من استشهد منهم ، كانوا يعشقون الموت!

ويقول لها بعقل شارد :

ـ هكذا المؤمنون . .

الإنسان يفوق الحيوان فى شهوة القتل فيقتل نفسه أيضا . وهذه الزوجة المحبوبة لا تخلو من شعرة جنون . كم تبدو مطمئنة متألقة كما يجدر بخليفة الله فى أرضه . بقدر ما يسخر منها فإنه يوشك أن يحسدها . التناقض دائما وأبدا . كما مزقه أمام كل شىء . حتى الانعدام الكلى للمعنى لم يمحق متناقضاته . أما فتحية فإنها لا تردد الشعارات فحسب ولكنها تصدقها وتؤمن بها . كيف يستمر التعامل معها؟ إنه حريص جدا على ألا تتبدد سعادته وهما من الأوهام .

٨

هلت بشائر الأمومة . والأبوة أيضا . صادف ذلك أوائل الشتاء وأياما ممطرة . راحت فتحية تحسب الزمن وقالت :

ـ سألد فى سبتمبر ، شهر مناسب للولادة .

فقال بحبور :

ـ بالسلامة .

لاح فى وجهها ذبول طارئ . أعقب ذلك فتور فى العواطف . وهدان المتجلى أخبره أن ذلك يحدث كثيرا ولا يخلو من فائدة . قال له ساخرا : «إنه تغير له معنى ككل شىء» . اقتنع هو بأن متاعب الذرية تقع حال تخلقها فى الأرحام . رمق الأمومة بأمل أن تشغل بها عن تربيته هو وتربية المجتمع الحديث . إنها جديرة بهذا الختام السعيد . هنيئا له انتزاعها من الرهبنة والجفاف . لقد فسر رهبنتها القديمة على أساس خاطئ . تذكر موقفا لا يمكن أن ينسى . ثمة تصرفات تهز النفس بنبلها حتى النفس الخاوية . احتسيا القرفة فى حجرة المعيشة وهما يشاهدان مسلسلة تليفزيونية . بات البار خاويا من قوارير الويسكى . عيناها السوداوان هادئتان متعبتان . إنها سعيدة ولا شك وتؤمن بأنه نبيل أمين . ما يزعجه حقا هو أنها تحب «الممثل» لا الشخص الحقيقى . الممثل رجل نبيل أمين مثقف لا عيب فيه إلا أنه مؤمن سلبى كغالبية المؤمنين فى هذه الأيام . لكنه ممثل ، شخص آخر ، ولو عرفت الشخص الحقيقى لولت تقززا . هى ليست من النوع الذى يحب الجسد وحده . ليست من النساء اللاتى يحببن اللصوص والبرمجية والقتلة . إنها تحب بروحها وجسدها معا . سلت حب يسري أحمد لتقع فى حب رجل وهمى . أما هو فلم يبرح موقعه القديم . موقع العاشق الخائب . موقع المحب من جانب واحد . ما زال يغتصبها ساعة بعد أخرى

ويخدعها يوما بعد يوم. لقد فقد معانى الأشياء ولكنه طمح إلى الحب بوصفه معنى مستغنيًا بذاته وهو حريص على ألا يلحق بالأوهام. يمكن أن نجد فى الحب والزواج والذرية معنى محليا يستغاث به. غاب عن التلفزيون فتذكر الموقف المثير. حين دعته إلى لقاء مفاجئ بحديقة الأمازون. عقب عدولها عن الرهبنة وقبل إعلان الخطوبة. كان سعيدا باللقاء فوق البساط الأخضر. راح يعلن خططه عن الخطوبة والزواج حتى لاحظ أنها ليست موجودة معه. فسألها:

ـ مالك يا فتحية؟

فقالت بوجوم:

ـ كان يمكن أن تمضى الأمور فى طريقها المرسوم بلا كدر.

ـ وهى ماضية كذلك فأى كدر تقصدين؟

ـ إنى أرفض الخداع وأمقت الكذب ولست نهازة للفرص بأى ثمن.

فقال بضراعة:

ـ لا تتركينى للحيرة.

فتريثت قليلا مكفهرة الوجه ثم قالت:

ـ يوجد فى حياتى سر لا يجوز أن تجهله.

خفق قلبه وتخايل لعينيه شبح واحد. تساءل:

ـ أى سر؟

فقالت بحرارة متصاعدة:

ـ إنه مأساة..

ثم فى شىء من الاندفاع:

ـ وقعت المأساة وأنا طالبة. كنت راجعة ليلا من بيت زميلة عقب ساعات من المذاكرة، رحت أقطع حارة حمزة فى طريقى إلى ابن خلدون، وإذا بأنوار الحى تنقطع فجأة فيغرق كل شىء فى ظلام مخيف..

رجع الظلام بوحشيته فتجنب ملاقاة عينيها بحذر ولم ينبس فقالت:

ـ لن أطيل فالذكرى معذبة، هاجمنى شخص فى الظلام، كتم فمى، تصارعنا حتى فقدت الوعى..

تهدج صوتها حتى سكتت ولكنها تغلبت على ضعفها قائلة:

ـ لعلك أدركت بقية ما حدث!

ـ يا للفظاعة!

فاه بها وهو يرتعد فهتفت غاضبة :

ـ وحش . . حيوان . . قذر . . جبان . .

فردد غائصا فى ظلمة باردة :

ـ وحش . . حيوان . . قذر . . جبان!

صمتا ليستردًّا أنفاسهما . . ترامقا فى تعاسة ، كلاهما أتعس من صاحبه . تمتم :

ـ أنت؟! يا للفظاعة!

ثم هز رأسه متسائلا :

ـ أكان لذلك علاقة برفضك الزواج؟

فقالت على الفور :

ـ أبدا ، لقد اعترفت لأمى فلم يهدأ بالها حتى أصلحت كل شىء ، فلم يكن ثمة ما يخيفنى من الزواج .

حنى رأسه مصدقا ، ولكنها تجلت أمامه فى هالة وضيئة . قالت مؤكدة :

ـ كان يمكن أن يمضى كل شىء بلا أثارة من شك!

ـ أدرك ذلك .

فقالت بصوت واضح :

ـ ولكنى أرفض الكذب والخداع ، فضلا عن أنك شخص جدير بالصدق!

فقال وبنيانه ينهار :

ـ فعلت ما هو جدير بك .

ـ شكرا .

فقال مزدردا ريقه :

ـ لا يمكن للشك أن يرتقى إليك وقد ازداد احترامى لك .

فتساءلت :

ـ ألا تخلو إلى نفسك بعض الوقت؟

ـ لا داعى من ناحيتى لتبديد الوقت .

فهمست باسمة لأول مرة :

ـ لبيب . إنك نبيل كما اعتقدت دائما .

هكذا وهب وسام النبل والأمانة . أما كان يجدر به أن يعترف لها بدوره؟ بدا ذلك مستحيلا ، كان على القاتل المغتصب أن يتوارى . الممثل يتهادى اليوم على المسرح

وحده. لولا الحب والعناد ما أقدم على طلب يدها. كان حانقا عليها بقدر حبه لها. وكان يراها الحقيقة الوحيدة المتاحة له. ها هو ذا الممثل يمعن فى التمثيل ويتمادى. على حين يختفى الشخص الحقيقى ويذوب فى الظلام. هو الظلام القديم الذى مكن له من الحب والانتقام. كان مرفوضا معذبا، رفضته فتحية كما رفضته الحقائق. كان لقيطا ملقى فى الوجود بلا أمل. وكان ينتظر خروجها من بيت صديقتها ليتبعها عن بعد. وانطفأت الأنوار فجأة وتمطى الظلام العميق. اعتقد أن الظلمة معجزة يجود بها الدهر. استيقظت شياطينه التى لم يعد يزجرها شىء. انقض على الحلم الجميل مدفوعا بالهوس والرغبة والتحرق على الانتقام. كاد يهلكها لولا أن أنقذها الإغماء. حملها إلى دهليز بيت قديم. انحصر فى ذاته الهائجة ففقد الوعى بالوجود. نسى أنه مهدد بقادم من فوق أو من الخارج أو بعودة النور. ثم مضى لاهثا ذاهلا لا يصدق بالنجاة. مضى متشفيا من ذاته، من أبيه، من فريسته، من الوجود نفسه.

كانت تتابع المسلسلة مسترخية باسمة. .

٩

جلسا فى مجال المدفأة الكهربائية. الجو فى الخارج يصرخ ويزمجر وإيقاع المطر يتتابع فوق الأشجار والنوافذ المغلقة. منظرها يستحق الرثاء. شحب لونها وغارت عيناها وانطفأ سحرها. وكان رمضان يطرق الأبواب فقال مداعبا:

ـ سأصوم وحدى يا عزيزتى.

قرر إعلان الصيام على أن ينتهكه سرا كلما ألح عليه الجوع إيثارا للسلامة. تمتمت:

ـ الله رحمن رحيم.

اعتقد أنه نال حظوة جديرة بالتقدير، ولكنها سرعان ما سألته:

ـ ما أخبار الشقة؟

اشتعل غضبه ولكنه انكتم فى أعماقه فقال:

ـ لم أوفق إلى شىء مناسب بعد.

ابتسمت ابتسامة أحنقته فقال:

ـ سيجىء كل شىء فى وقته. .

لازمت الصمت ولكن وشى منظرها بقلة الثقة، فواصل:

ـ وعدت وسوف أفى. .

ـ يبدو أنك تفعل ذلك من أجلى .

فنفس عن صدره بالصدق ولو مرة فقال :

ـ هى الحقيقة . .

ـ ما زلت ترفض العمل؟

فقال ضاحكا :

ـ الفراغ هو أمل الأحياء المنشود . .

ـ إنك تعيش فى الواقع لا فى الحلم .

ـ دخلى يمكننى من أن أعيش الحلم . .

فتساءلت بعتاب :

ـ تأخذ دون أن تعطى؟

فهتف محتجا :

ـ إنى أملك عشر عمارات تخدم المئات من الأسر ، وجريرة العمل أنه يشغل الإنسان عن التأمل . .

ـ اليوم طويل وفيه متسع لأشياء كثيرة .

ـ على أى حال لقد وعدت وأنا ملتزم بوعدى .

سكتت عنه . لا مفر من فتح المكتب . سيتظاهر بالعمل كما يتظاهر بالصوم . ربما تورط فى العمل . إنها أقوى منه وهذا يثيره . غيرت ظاهره ولا يبعد أن تغير باطنه ذات يوم . ربما أدى الصلوات فى أوقاتها أيضا . ربما ساقته يوما إلى الحج . الممثل يتضخم وتترامى أبعاده والشخص الحقيقى يموت . متاعب متلاحقة يعانيها من أجل الحب والحياة الزوجية . إنه أدرى الناس بضعفه وانقياده . إنه أدرى الناس بما تطبع به على عهد داود الناطورجى . هل يتاح له يوما أن يقتل الممثل؟!

* * *

وسألته ذات ليلة :

ـ هل يوجد شىء لا تعرفه عنى؟

فأجاب متوجسا :

ـ إنى أعرفك تماما .

ـ وأعتقد عادة أنى أعرفك كذلك ، ولكنك تبدو لى أحيانا كاللغز . .

رأى شبح تحقيق يقترب فقال :

ـ إنى شخص فى غاية البساطة .

ـ أقول أحيانا لنفسى إنه يكره العمل، إنه ينهمك فى القراءة، إنه لا يهتم بشىء مما يهتم به الآخرون!

فرمقها بحيرة، فقالت:

ـ من أنت؟ ما أنت؟ . . فى البلد هموم وتيارات ما موقفك منها؟

فتساءل وهو يفكر بسرعة وحذر:

ـ ألا يعيش الإنسان حياة كاملة بغير ما تسألين عنه؟

ـ إنسان مثلك لابد أن يكون صاحب رأى ولو كان مفاده الكفر بجميع الآراء!

ـ لا حديث لنا مع الأصدقاء إلا ذلك.

ـ ألا تعدنى صديقة أيضًا؟

ـ بلى، ولكنى أصون حياتنا مما يزعجها.

ـ أكنت دائمًا تعيش فى نطاق ذاتك؟

فضحك عاليا. بوسعه أن يبوح بأسرار صادقة كثيرة دون خطر. قال:

ـ لى تجارب حافلة.

فقالت بلهفة:

ـ هات ما عندك، حدثتنى مرة عن رد فعل عنيف عقب وفاة أبيك؟

ـ أجل، رد فعل اجتاح أبى وتراثه. ولعلك تدهشين إذا عرفت أن المرحوم يسرى أحمد هو أول من ساعدنى على التمرد، كان وقتها يتمرد على الإيمان فنفخ فىَّ من روحه المتمردة وأشركنى فى قراءة كتبه فتعرضت لأزمة غير يسيرة وتبنيت إلحادا شاملا.

تمتمت بامتعاض:

ـ فقدت إيمانك كله؟

ـ كله. . وخيل إلى أنى أكتشف العالم من جديد.

ـ أدام ذلك طويلاً؟

ـ على فكرة، لا شىء يدوم معى طويلاً فى عالم الفكر، ما هو إلا طور يعقبه طور جديد، وفى أقصر وقت يتصوره العقل.

فقالت بقلق:

ـ وهناك العواقب العملية لذلك!

ـ هو ذلك، إنى لا أحب الكذب!

ـ وانتهيت إلى إهمال الدنيا!

فتفكر قليلاً ثم قال:

ـ لا أظن، العكس تمامًا ما حصل، اندفعت لاكتشاف الدنيا، وملء الفراغ. عند ذاك تسلمنى عدلى جواد ففتح لى باب الديموقراطية فى وقت كانت تذكر عادة مصحوبة باللعنات، فعرفت تاريخ مصر المجهول قبل الثورة، واستفزنى الحماس فطال لسانى حتى استدعانى رجل الأمن بالكلية وأنذرنى.

ـ لذاك الحد؟

ـ أجل لم أكن سلبيّا كما تتصورين، غير أن المرحلة الديموقراطية لم تطل ولم ترسخ، فسرعان ما تقدم الصفوف عبد البارى خليل!

ـ أعوذ بالله!

ـ تبوأ مركز الأستاذ منى وراح يعيرنى كتبا عن المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ وصراع الطبقات والجنة الموعودة.

فتمتمت ساخرة:

ـ على الرغم من أنك وريث دخل يربو على الخمسمائة الجنيه شهريا؟!

ـ اقتنعت تمامًا، ووجدت فى تجاوز طبقتى ما يشرفنى أكثر.

تزايد الاهتمام فى نظرة عينيها الذابلتين فواصل:

ـ اجتاحنى الحماس للماركسية كما اجتاحنى من قبل للإلحاد والديموقراطية، وإذن فأنا مريض بالاهتمام لا بعدم الاهتمام.

فقالت بمرارة:

ـ ولكنك تتغير بسرعة مذهلة!

يا له من حكم صادق! فطن إليه بنقده المرهف للذات. سرعان ما يقع تحت سيطرة الصديق أو الكتاب. إنه ضعف ملموس محسوس طالما حمَّل أباه تبعته. هو الذى طبعه بسرعة الانقياد. هو الذى جعل من ذكائه أداة سلبية فى خدمة التلقى وبلا طاقة على التمحيص والنقد. وقال بامتعاض:

ـ إنه الشباب والحماس ورد الفعل لخضوع طويل للأب.

فتساءلت بقلق:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لقد اعتقلت، وتلقيت إهانات لا تمحى ولكن ثبت عدم تورطى فى أى عمل غير مشروع فأفرج عنى بخلاف عبد البارى الذى اعتقل طويلاً كما تذكرين حتى اشتهر أمره فى الحى.

ـ ثم؟

ـ زلزلنى الاعتقال والإهانة، أكان ذلك ما كفرنى بالماركسية؟ الذكرى غائمة، أما ما أذكره بوضوح فهو أننى عثرت على كتب الوجودية بلا مرشد، ولكن الكتاب كان وحده كافيا للإلقاء بى فى عبث الوجود واللا معنى!

فقالت بحزن:

ـ ما أجدر رحلة تبدأ بالإلحاد أن تنتهى بالعبث.

ـ صدقت!

ـ إنك قطعت فى أعوام ما قطعته البشرية الضالة فى عمرها كله!

ـ صدقت أيضًا.

ـ ثم؟

حسبه ما نفس به عن صدره وعليه الآن أن يرجع إلى التمثيل، قال:

ـ رجعت إلى الإيمان والحمد لله.

ـ أكان وهدان المتجلى وراء ذلك؟

ـ القراءة أكثر، والعناية الإلهية قبل كل شىء.

فقالت بجدية ملفتة للنظر:

ـ من حسن الحظ أنك تزوجتنى وأنت مؤمن وإلا لورطتنى فى علاقة غير شرعية!

يا للداهية! إنها تعنى ما تقول. وتتصور العلاقات على ضوء واضح صارم حاد النصل. وأزعجه جدّا أن تكون علاقته بها فى الحقيقة ـ من وجهة نظرها على الأقل ـ غير شرعية. وما تمالك أن قال:

ـ يوجد ملحدون معروفون وهم فى الوقت نفسه أرباب أسر!

فقالت بقوة:

ـ ما هى إلا زيجات باطلة لا يبقى عليها إلا داء التهاون المنتشر!

فحنى رأسه موافقًا أو متظاهراً بالموافقة وهو يلحق هذا السر بآثامه الخفية. حقّا إن زواجه تجربة مثيرة اعترضت حياته لتهزها من الأعماق. واستطاع أن يقول بنبرة المنتصر:

ـ ها أنت ذى ترين أننى لست عديم الاهتمام كما تصورت.

ـ ولكن رحلتك تركت فيك آثاراً باقية.

فتساءل بقلق:

ـ حقّـًا؟

ـ مثل تهاونك فى شئون دينك وكراهيتك للعمل!

فضحك ليخفف من توتر أعصابه وقال:

ـ أخطاء محتملة ويمكن علاجها، ولعلك أنت فى حاجة إلى قدر من التسامح.

فقالت بحرارة:

ـ المسألة إيمان أولا . .

ـ التسامح جميل أيضًا.

ـ أجمل منه أن تطابق بين إيمانك وسلوكك.

فتمادى فى كذبه وخوفه قائلاً:

ـ إنى ماض بعزم فى هذا السبيل.

وتساءل فى باطنه: هل تتمخض سعادته عن وهم زائل؟!

١٠

القلق يلازمه. على رغم استهتاره بالقيم كافة، فالقلق لا يبرحه. مجلسهما الليلى يهبه شعورين متناقضين، السعادة والقلق. الشتاء يسحب أذياله وعما قليل تفتح النوافذ وتشيع البسمات فى الحديقة. صحتها تبدو الآن أفضل مما كانت أول عهدها بالحبل. وهى تفضل الراديو على التليفزيون فيجاريها مرحبا بأنه لا يفصل بينهما فصلا كليا. إنه صادق فى حبها ولكن لا يجمعهما إلا الكذب. من حسن الحظ أنها تصدق «الممثل» ولا تدرى شيئًا عن الأصل. وسوف تجىء النهاية عندما تطلع على الشخص الرابض وراء الممثل. ما زالا يتمشيان عند الأصيل وبخاصة بعد أن أصبح المشى ضرورة صحية لها، وهى ترتدى اليوم فساتين مرسلة، وتعد عدتها لاستقبال الوليد. وشوقه إليها يزداد ومخاوفه تزداد أيضًا. شخصه الحقيقى لا يكف عن تعذيبه. إنه يعيش وحده فى عزلة تامة، لا يمارس الحب ولا الزواج ولا حق له فى التعبير عن ذاته. إنه كامن فى أعماقه فى ذل، يغلى بالحنق، ويحلم بالثورة. غارق فى العبث الذى وجد فيه الحل لمتناقضاته الماضية. هو الذى أخرجه من تردده المعذب بين الإيمان والإلحاد، بين الديموقراطية والحكم المطلق، بين الماركسية والرأسمالية. هو الذى أنقذه من الهياكل الخاوية ولكنه أصابه بمرض جديد، مرض الفراغ والرعب. وفتحية لم تفصل بين الممثل والأصل فحسب ولكنها تهدد الاثنين أيضًا. ألا ينقاد لها ذات يوم كما انقاد من قبل ليسرى أحمد وعدلى جواد وعبد البارى خليل؟ وأى عواقب تتربص به إذا تحقق ذلك الانقياد المتوقع؟!

سألته باهتمام :

ـ أى مراحل حياتك تراها الأفظع؟

بعد تأمل أجاب :

ـ لعله العبث .

ـ لماذا؟

ـ لأنه فراغ ، والفراغ مرعب .

ـ أوافقك تمامًا ، أى مذهب وضعى فهو انحراف . أما العبث فشلل للعقل ، وإذا شل العقل فماذا يبقى من الإنسان العاقل ؟ !

أجاب بلا وعى :

ـ لا شىء . .

ـ أى سخرية أن تتصور الإنسان لقيطا فى الكون ، تجىء به المصادفة العمياء ثم يندثر بالمصادفة أو العجز !

إنها تذكره بيأسه وهى لا تدرى ولكنه يوافقها بحماس قائلاً :

ـ أحسنت التصوير .

ـ يسرنى أنك تطالع كتب العلم بشغف ، إنها تؤكد المعنى فى كل شـــىء !

ـ تمـــامًا !

ـ حتى المتشكك يسلم بوجود معنى وإن عز عليه إدراكه .

ـ أجل ، يسلم على الأقل باحتماله .

وتأمل قوله بقلق . وازدادت مخاوفه . وغاب عنها وقتا فلم يدر كيف تطرقت إلى موضوع الصلاة ، كانت تقول :

ـ يستحسن أن تصلى وأنت صائم ، ولو شهر رمضان فقط !

أليس لديها اهتمامات أخرى؟ ألا تحب أحاديث النساء؟ لم لا يقاوم؟ هل زاده شعوره بالإثم ضعفا على ضعف؟ ! تمتم :

ـ فكرة مقبولة . .

إنها تحكم الحصار حوله . إذا ولى رمضان ستطالبه بالاستمرار فى الصلاة . وستذكره حتمًا بأن الصلاة لا تتفق وشرب الويسكى فى ركن الفردوس . وسيجىء الحج فى يوم من الأيام . سوف يتضخم الممثل ضاغطا بثقله المتصاعد فوق الشخص الحقيقى السجين . جعل يلحظها فى فترات الصمت فيراها وهى تغمض عينيها إعياء أو تنظر من خلال الزجاج إلى رءوس الأشجار المتوهجة بأنوار المصابيح . حنق عليها . وحنق على داود

الناطورجى أيضًا. حنق على ضعفه وجبنه. عز عليه أن يتوارى فى بيته تاركًا الممثل الغريب يعاشر زوجته أمام عينيه ويتلقى حبها ويهبها بكل وقاحة بذرة حياة جديدة. كل ذلك يحدث أمام عينيه وهو متوار صامت مستسلم.

١١

لأول مرة من أكثر من عام تخلو الفيللا من فتحية. انتقلت إلى مستشفى الولادة قبل ميعاد الوضع بأسبوع - لتوعكها المفاجىء - لتكون تحت الملاحظة الدقيقة والرعاية المتاحة. وجد نفسه وحيداً. لم يعد كما كان، ففى الربيع والصيف تكاملت شخصية الممثل وترامت أبعادها. إنه يجيد الآن تمثيل دور المؤمن والمحامى، بل إنه يسعى إلى تولى القضايا حتى لا يرمى بالخيبة. وشغل التمثيل جل حياته فلم يترك للرجل الحقيقى إلا وقتًا قصيراً يمضى عادة فى السخرية والمرارة والغضب. على سبيل المزاح قال له عبد البارى خليل:

- وراء كل عظيم امرأة!

فأحنقه ذلك جداً. إنه يشير إلى تغير أسلوب حياته ولكنه يعلم فى الوقت نفسه أنه تغير ألقى عليه من الخارج قهراً بلا اقتناع ولا إرادة ولكن تحاميا للعواصف وإيثارا للسلامة وإبقاء على راحته الشخصية. ولم يخف عواطفه فقال لأصحابه:

- إنى غاضب.

فقال له عبد البارى خليل:

- إن تكن صادقًا فى عبثك فلتعتبر الأمر كله فكاهة لا بأس بها.

فقال بإصرار:

- ولكننى صادق بلا ريب.

- ماذا يغضبك إذن؟ الضمير لا يوجد إلا فى رحاب إيمان ما.

فقال بحدة:

- رواسب اللاوعى لم تجتث بعد.

- الرواسب هى مشكلتك.

فقال وهدان المتجلى:

- إنى أضع الأمل فى الممثل لا فى الشخص، فلعله يندمج فى دوره فينقلب تمثيله صدقا مع الزمن!

عند ذاك قال عدلى جواد :

ـ لا بأس مطلقا من أن تعيش الشخصين حفاظًا على أسرتك وحبك!

كرر جملته مرتين ثم واصل حديثه :

ـ مَن من الناس حولنا يحظى بشخصية واحدة؟ نحن فى مسرح كبير، الجميع ممثلون، يقولَون كلامًا جذابا فوق الخشبة، ويتهامسون بكلام آخر وراء الكواليس، هكذا الجميع من القاعدة حتى العلالى، فليس فى حياتك شذوذ، احذر أى تصرف جنونى، دع ذلك للمجانين من زبائن النيابة والسجون. عليك بالسلوك الجدير بعبثى، ملايين يمثلون بلا فلسفة ولكن بوحى من غريزة البقاء، ويواصلون الحياة فى ارتياح واستبشار وسرور!

ها هو ذا ينفرد بنفسه ويزن تلك الأقوال بدقة. إنه الآن متحرر من ظلها. وهى طريحة الفراش بين أيدى الممرضات مشغولة بوعكتها عن المبادئ، تتأهب لاستقبال الوليد الذى ستنشئه على مثالها. أجل لقد تلقى النصيحة العملية السديدة التى تصون له حياته وسعادته. سيعيش فوق المسرح زوجا وأبا ومؤمنا ومحاميًا، ويبقى وراء الكواليس ضائعًا بلا معنى، قاتلاً، مغتصبا، عزبا، وحيدًا، ينتظر موتا سخيفا فى أعقاب حياة سمجة. وكلما ترامق الشخصان ـ الممثل والأصل ـ فعليه أن يبتسم، وإن شاء فليضحك، بلا هم ولا غم، وليتذكر أنه لا يمارس شذوذًا ما، وأنه يقلد الملايين فى حياتهم اليومية.

١٢

بدا فى وقت ما أن الصراع يمضى نحو مستقر. لاح الأمان أيضًا فى الأفق مع سحائب الخريف. وقال لنفسه إن آثامه ليست شيئًا إذا قيست إلى آثام الآخرين من السادة القتلة وقطاع الطريق المتهادين فوق المسرح بين التهليل والتصفيق.

ولكن فتحية عادت فأشرقت الفيللا بنورها. عادت إلى مقعدها وانتفض الوليد بحياته الجديدة فوق حجرها. لقد سمته سليمان باسم أبيها وسوف ينشأ نشأة جديدة تقيه من وباء الانقسام وتحقق له وحدته. وتبدت سعيدة بوليدها، سعيدة أيضًا بالرجل الذى أعادت خلقه من جديد. الحق أن استقراره تزعزع بحضورها. إنها نقية صادقة. على رغم تزمتها، بل على رغم صرامتها وعنفها. فهى نقية صادقة. إلى جانب نصاعة بياضها لاح لونه أغبر قاتمًا. حقا إنها ينبوع الحب والعذاب. من القلة النادرة التى لم تحترف التمثيل، فرجع مضطرا إلى المقارنة بين ذاتيهما. فى غيبتها ساد العقل والمنطق وسيطرت

ذكرى الحب ولكن فى حضورها انكشف الحب عن خدعة وفرية . هذه السيدة الجميلة الصادقة لا يمكن أن تبقى على حب قاتل مغتصب ضائع . ستقضى على العلاقة بعدم الشرعية . لا حب ثمة ولا زواج ولا أبوة فى محضرها . المطاردة تعنف ، واليأس يستفحل . وعجب لشأنه ولحدة انقلابه . التزعزع لا يغزوه نتيجة لضعفه وحده ولكن بوحى الحب أيضًا . الحب ذو التزام ويجفل من الخداع . هل يدمر الحب باسم الحب؟ وكأنه أزمع الدفاع عن نفسه فقال لها :

ـ من يقرأ الصحف يقتنع تمامًا بأن الصفوة نفسها تعيش وجهين ، وأنها لا تصدق مع ذاتها إلا وهى تمارس الشر فى الخفاء !

فقالت على الفور :

ـ المؤمن وحده من يعيش بوجه واحد .

سرعان ما صمم على ألا يقدم مختاراً على طعن سعادته طعنة الموت . سوف يألف هذه الحياة على رغم قربها ، وسوف يتحرر مع الزمن من آلامها . ونسمت من الباب المفتوح نفحة خريف عذبة مختلطة بالأصوات الغامضة الصادرة عن سليمان .

ولكن حدث شىء .

انطلق فجأة وبلا مقدمات من أعماقه المترعة بالقهر والقلق .

انطلق عملاقًا ثملاً حرّا مزهوا بحقيقته الراسخة وتأثيره المطلق . كأن صدره انشق عن ثغرة متفجرة بانفعالات طاغية غامضة لتغزو الفضاء كله . استطار خياله فى نشوة من السكر الأصيل مستمدا من المجهول قدرة شاملة . رأى بنظرة خاطفة الكون ماثلا فى صورة واحدة ملتحمة الأجزاء متعانقة الأبعاد تنبعث من بهائها نغمة ساحرة . فى غمرة السكرة الصافية مرق بكل قواه من قفص الزمن وعلا فوق المخاوف والحذر . انغمس حتى قمة رأسه فى انتصارات اللحظة الراهنة .

وبصوت غريب متهدج قال لها :

ـ فتحية ، أصغى إلى ، سأفضى إليك بأسرار مذهلة .

١٣

الخريف مستمر فى نفث أنفاسه ولكن العذاب انتهى . الحزن يغشى الوجود ولكن العذاب انتهى . إنه غارق فى هدوء عميق سبق بإعصار مدمر . تقوض المسرح وتلاشى

التمثيل، استرد ذاته، لا حب ثمة ولا زواج ولا سليمان ولا شعائر ولا قضايا. الجدب والوحدة ولكن العذاب انتهى.

من خلال جو جنائزى قاتم أطلت عليه وجوه الأصدقاء. لتوهم رجعوا من زيارة واجبة للحى القديم. مسعى تقليدى ولكن بلا ثمرة.

قال عدلى جواد:

ـ لا يمكن فهم تصرفك.

ـ ما أهمية ذلك؟ لكنه كان حتما من الحتم وعاصفة لا سبيل لمقاومتها.

وقال وهدان:

ـ حزنها لا يوصف.

فقال عبد البارى:

ـ وغضبها كذلك.

وقال وهدان:

ـ لم تغفر لى سكوتى من أول يوم.

رجع عدلى جواد يردد:

ـ لا يمكن فهم تصرفك؟

فقال:

ـ صعقنى بلا مقدمات. لعله نوع من الجنون.

ثم تمتم بعد قليل:

ـ ولكن لا ندم ولا أسف.

فقال وهدان:

ـ قياسًا على ما حدث يمكن أن يجد جديد لا يخطر الآن ببال أحد.

فقال عبد البارى:

ـ قول حسن.

من ناحيته فلا ندم ولا أسف. ولا عذاب أيضًا. ثمة حزن عميق ولكنه يتنفس فى الزمن.

السلطان

١

من فوق قمة المقطم لاحت قمة القاهرة مثل خلايا النحل، بيوتًا وعمائر متلاصقة متلاحمة، تمرق من بينها المآذن والقباب، يغطيها الأصيل بستار رمادى نعسان.

توقف السلطان نوح عن متابعة السير، التفت نحو تابعه منصور وقال:

ـ اذهب، ثم عد قبيل الفجر.

ولكن منصور لم يبرح. وقف واجمًا حائرًا، فقال السلطان:

ـ اذهب فقد أزف ميعاد العبادة.

وأخرج منصور من عباءته بلطة يلمع الموت فى نصلها. رمى بها تحت قدمى السلطان، وقال بحزن:

ـ كلفت بقتلك يا مولاى!

فرمقه السلطان بذهول فواصل الرجل:

ـ كان المتفق عليه أن أتوارى حتى يجثم الليل ثم أزحف نحوك لأطيح برأسك!

فاصفر وجه السلطان غضبا مثل الشعاع الغارب، وتساءل:

ـ من؟

ـ الملكة!

ـ يا للشيطان! لها شركاء يا منصور؟

ـ القائد كرداش.. والوزير عقبة..

ـ يا للفظاعة! قصر من الرمال، عاصفة من الظلم تبغى اجتياح رجل كرس حياته للعدل!

ـ إنه الطمع فى أرزاق العباد يا مولاى!

استدار السلطان وهو يتمتم:

ـ لأنكلن بالمجرمين!

فقال منصور بانكسار:

ـ لن تستطيع الرجوع يا مولاى.

ـ ماذا قلت؟!

ـ عيونهم منتشرة، وخناجرهم مشهرة.

ـ ما أحب العباد سلطانا كما يحبوننى.

ـ لذلك دبروا مؤامرتهم ليزعموا بعد ذلك أنك اختفيت، فإذا رجعنا اكتشفوا خيانتى لهم فانقضوا علينا كالشياطين.

ـ أنهزم تاركا رعيتى تحت رحمتهم؟

ـ اهرب.. اختف تمامًا عن الأعين، لقد تظاهرت بخيانتك لأنقذك، دعنى أرجع لأبشرهم بقتلك ودفنك!

فاشتد امتقاع وجه السلطان وراح يقول:

ـ الملكة، الأفعى، الجباه التى تنحنى وهى مثقلة بالنفاق والغدر، الألسنة التى تلهج بالثناء وهى تنقع بالسم، الجسد الذى يذعن للحب وهو يتراقص فوق موجة من الفسق المضمر، كيف جرى ذلك كله من وراء ظهرى؟!

فقال منصور بأسى:

ـ ما أشد حزنى يا مولاى!

ـ دع الحزن فما أملك الآن سواه، وسوف تفجر الطبيعة فى غشاوته شواظا من نار الغضب والانتقام.

ـ اختف يا مولاى، اذهب إلى أقاصى الصعيد أو إلى بر الشام، إليك هذه الصرة من الذهب.

لبث السلطان جامدًا وهو يتحول إلى شبح تحت أهداب الليل فقال منصور جزعا:

ـ لا وقت لديك، اهرب قبل أن يسعى إليك القدر.

فتأوه قائلا:

ـ أودع الحياة بلا دفاع، أتطوع للموت، أهيم مطاردا بلا رعية، تاركا ورائى رعية بلا سلطان، مفسحا المكان للمجاعة والأوبئة؟!

أكب منصور على يد مولاه فبللها بدمعه، ثم غاص فى الظلام.

٢

أقام السلطان نوح فى أطراف المدينة فيما يلى المقابر. لم يكن يعرف وجهه إلا المقربون وقلة من الرعية الذين شاهدوه فى مواكب المواسم، فتنكر ما وسعه التنكر واستثمر

الذهب فى تجارة الغلال، فكان يتاجر نهارا، ويعتكف ليلا ليتفكر فى الانتقام من أعدائه أو ليواصل عبادته التى شغف بها أيام ملكه.

وتسربت أنباء اختفائه مثل رائحة يتعذر كتمانها. عمل المتآمرون على نشرها فمضت من لسان إلى لسان ومن حى إلى حى. وأنهاها إليه بعض عملائه من التجار. أما سمعت عما يقال من اختفاء السلطان نوح؟ الناس حيارى محزونون يتساءلون. يقال إنه كان يمضى الليل متعبدا فوق جبل المقطم، هل باغته وحش؟ هل اغتاله قاطع طريق؟ هل اعتزل فى كهف مثل الرهبان؟ أما عن أحزان الملكة وحيرة الوزير والقائد فحدث ولا حرج، ليتك ترى الناس وهم يتجمهرون فى الطرقات؟ ما أشد الأسى على المحبوب الغائب!

ثم أعلن النبأ بصفة رسمية فنادى به المنادون. ونصب ولى العهد - ابن السادسة - سلطانا، وعين الوزير عقبة وصيا، كما عين القائد كرداش وزيرا وقائدا.

تلقى نوح الأنباء كالمطارق فوق رأسه. سمع نعيه على كل لسان. تبخرت شخصيته فى الهواء. عاشر الموت وهى حى. عجز عن دفع زحفه تماما. من مات فى وعى الخلق فقد مات. هذا هو الموت الذى بدا له غامضا فيما مضى. ليست الحياة قلبا يخفق أو دما يجرى ولكنها معنى يتردد فى وعى الناس. وقد مات نوح. ولم يعد التفكير فى الانتقام مجديا. لقد حل آخر محله فوق العرش، واغتصب غريب فراشه، وأدت رعيته ضريبة الحزن والدموع عليه. لم يعد لرجوعه معنى. سيهدم عالما أعيد بناؤه وتكوينه. وها هى ذى الأعوام تمضى مؤكدة موته، مقوضة لدنياه، ومن الخير له أن يبذل ليله كله للعبادة، وأن يسلم للمقادير، وأن يمهد طريقه إلى أعتاب الله ورحابه.

وجاءته أنباء جديدة ذات لون داكن ضارب للصفرة. لم يكن السلطان وحده الذى اختفى ولكن ها هو ذا طعم الحياة يتغير، ووجهها يتجهم، يعسر ما كان يسيرا، ويمر ما كان حلوا، ويضن ما كان مبذولا، ويغلو ما كان رخيصا، والمعاملة تسوء، والشدة تضرب، والجبروت يستفحل، والظلم يغشى. ورجع الناس يتذكرون سلطانهم الفقيد، ويترحمون على عهده، ورجع نوح يشعر بالحياة تدب فى أوصاله ولو فى صورة ذكرى، ولكن فيضا من شائعات مدبرة اجتاح العباد بغية تشويه سمعته. قيل إنه كان مهملا، وإنه كان يتعبد على طريقة الرهبان، وإنه كان شاذا مدنسا، وإنه جن جنونا كاملا حتى دعا أهل بيته إلى عبادته. وارتاب أناس فى حقيقة ما يذاع، وصدقه آخرون، وحدثت بلبلة ضاعفت من محنة الشدة والبلاء. وجزع نوح واكتأب، لقد رضى بالموت، ولكنه عانى ما هو أفتك من الموت.

٣

وفى السنة الخامسة عشرة من اختفائه زاره صديق يدعى طالب . كان يلهث من الانفعال والبهجة، وسرعان ما ارتمى على أريكة وهو يقول :

ـ قلب المدينة ينبض ببعث جديد .

فسأله نوح بهدوء صار طبعه من طول التعبد :

ـ ماذا حصل لقلب المدينة؟

ـ ألم تعلم؟ . . السلطان نوح لم يمت . .

فاقتلع هدوءه اضطراب طارئ وتمتم :

ـ نوح لم يمت؟!

ـ إنه حى ويسعى بين الناس . .

ـ مستحيل يا طالب .

ـ هى الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان!

ـ أرأيته بنفسك؟

ـ أجـل .

ـ أكنت تعرف صورته من قبل؟

ـ طالما رأيته فى الأعياد . .

ـ ووجدته أنه هو هو؟

ـ بنصه وفصله! وقد تعرف عليه كثيرون . .

ـ يا للعجب!

ـ وسرعان ما التف حوله المظلومون . .

ـ وماذا فعل السلطان الشاب «المتوكل»؟

ـ القتال محتدم بين الفريقين، بين المتوكل ونوح، وما زال رجال نوح يقاتلون فى جماعات متفرقة ولكنهم ينهكون جيش السلطان .

فتمتم نوح فى حيرة :

ـ قتال بين الأب وابنه؟!

ـ الابن يزعم أن الآخر دجال دعى!

ـ ولكن نوح يعرف أن غريمه هو ابنه . .

فقال طالب بحماس :

ـ فى سبيل العدل يهون كل شىء!

٤

زلزلت نفس نوح فسلَّته من عزلة العبادة إلى خضم الدنيا . سمع اسمه يتردد على ألسنة العباد، وسمع الحناجر وهى تهتف به، وتستنجد به على ما تعانى من جور وظلم . خيل إليه برهة أنه بعث، أنه حى، أن قد مات الموت، ولكنه سرعان ما باخ وانهزم، فأدرك أن الحى رجل آخر، لعله دجال أو مجنون أو داهية، وأنه جاء ليؤكد موته هو إلى أبد الآبدين .

وقال له طالب :

ـ قم بنا إلى معسكره خارج باب الفتوح لمبايعته . .

تاقت نفسه إلى رؤيته فمضيا معا فى غلس الظلام حتى انضما إلى جموع لا حصر لها، ووقفا فى طابور طويل، مقدمته أمام خيمة السلطان وذيله عند مشارف الصحراء . ومثل بين يديه فوجده يماثله فى الطول ولكنه أدق فى البناء، تضىء عيناه بنور قوى، وتتسم قسماته بالنبل . تطامن لتقبيل يده ثم قال :

ـ نبايعك من جديد كما بايعناك أول مرة .

فقال السلطان المبعوث :

ـ فليؤيد الله المؤمنين .

ـ ليكن النصر على يديك .

ـ أسبق لك أن مارست القتال؟

ـ كنت جنديا قبل أن أصير تاجرا . .

ـ إذن تنضم إلى قواتنا . .

٥

قال نوح لنفسه : إن الرجل سلطان حقيقى لا شك فى ذلك . وبقدر ما هو سلطان بقدر ما أنا ميت . أعدمت نفسى اتقاء الموت ، واتخذ هو هوية غير هويته متحديا الموت . ولم يعد لى من أمل فى الوجود إلا تحت جناحه . هذه هى لعبة الحياة والموت التى خسرت فيها حياتى . وإنه لرجل مخلص ينطلق بكل قواه وراء العدل المفقود . ينطق وجهه بالنبل والصراحة والعزم . وإن تصدق فراستى فيه فما أهمية أن يكون السلطان الحقيقى أو لا يكون؟

ونازعته نفسه إلى الرجوع إلى عزلته ولكنه سرعان ما خجل من ضعفه فقرر أن يصير جنديا فى جيش السلطان وأن يجعل من الجهاد عبادته .

٦

وتوثب الجيشان للقتال . وكالعادة المتبعة فى تلك الأزمان تقدم القائد كرداش متحديا السلطان لنزاله . وكلما تطوع لمقاتلته فارس صرعه . وكان السلطان الجديد زعيما أكثر منه مقاتلا ، فخرج للقتال السلطان الحقيقى . ولم يعرفه كرداش . تبادلا ضربات عنيفة ، وتمكن نوح من خصمه فجندله . ووقف فوق رأسه وهو ينزف ، وقال :

ـ مت أيها الخائن ، ألم تعرفنى بعد؟

ورنا إليه كرداش ببصر معتم فعجز وجهه عن التعبير عن ارتياعه فغمغم :

ـ أنت؟! . . لا . . لا . .

وفاضت روحه .

والتحم الجيشان ، وكان السلطان الشاب يقود جيشه بمهارة أثارت إعجاب نوح . وتواصل القتال حتى غابت الشمس وراء الأسوار فتراجع كل فريق إلى معسكره .

٧

في اليوم التالى برز السلطان الصغير من بين الصفوف مطالبا بالنزال. وخرج لنزاله فارس فدارت معركة شديدة تابعها نوح بقلب خافق. وجد نفسه يتمنى السلامة لابنه. وشعر بالإثم لتمنياته.. غشيته كآبة ثقيلة. ولما انتصر الصغير أغمض نوح عينيه كأنما يفر من عذابات هذا العالم.

واستمر السلطان الشاب فى تحديه للأبطال. وتكرر انتصاره حتى قال السلطان الجديد لنوح:

ـ اخرج له فإنك فارس مدرب!

فتردد نوح غارقا فى جيشانه فقال له السلطان بنبرة آمرة:

ـ اخرج والله ناصرك.

فلم يجد نوح مفرا من الخروج.

ولم يعرف السلطان الشاب أباه، ولم يفطن إلى ما يتصارع فى صدره من الانفعالات المتضاربة، وقال له بحقد:

ـ أنت قاتل كرداش، وسوف تدفع ثمن جنايتك..

والتحم الأب وابنه، الابن يندفع لقتل أبيه، والأب يتلقى ضرباته بمهارة ويفسدها بحذق متجنبا فى الوقت نفسه إصابته. ولكن مهارة الابن أوقعته فى مركز حرج فقد صمم ضربة قاتلة عرفت طريقها إلى مقتل أكيد فلم يجد الأب بدا من مبادرته بضربة أطارت سيفه وتركته أعزل.

توقف السلطان الشاب متوقعا الضربة القاضية، وتردد نوح، على حين هدرت الأصوات من جيش السلطان الجديد:

ـ طير رقبته..

ولكن نوح شل تماما فهجم جنود ابنه ليحموا سلطانهم والتحم الجيشان فى قتال مرير حتى غروب الشمس.

٨

واستدعى نوح إلى لقاء السطان فسأله بجفاء :

ـ لم لَم تقض على عدونا وعدوك؟

فقال نوح معتذرا :

ـ لا أقتل الأعزل يا مولاى!

فقال بغضب :

ـ بل أهدرت حقك، وأبحت دماء المئات من رجالنا!

لم يشك نوح فى صدق قوله، وغاص فى الحزن والكآبة . .

٩

وعاد الجيشان إلى الاشتباك فى اليوم الثالث. وعند الظهيرة رجحت كفة السلطان الجديد، ووقع السلطان الشاب ورجاله فى الأسر. ودخل الجيش المنتصر المدينة دخول الظافرين فاستقبله الخلق بحماس وسعادة.

وأمر السلطان فزج فى السجن بالسلطان الشاب والملكة وكبار رجال الدولة.

واستدعى السلطان الجديد نوح وقال له :

ـ أنت أيضا ستوضع فى السجن حتى يبت القاضى فى أمرك . .

فتساءل نوح ذاهلا :

ـ ألا يشفع لى ما أبليت فى القتال؟

ـ لا تشفع لك إلا براءتك!

١٠

هكذا جمع السجن بين الجميع وهم مكبلون بالسلاسل. وكان أول من عرف نوح تابعه القديم منصور، الذى أنقذه من الغدر، والذى صار بعد ذلك حاجبا مكافأة له على جريمته الوهمية. نظر نحو سيده بذهول ثم هتف بفرح:

ـ مولاى..

فحدق الجميع به حتى عرفوه وسرعان ما ارتعدت فرائصهم. وصاح منصور بسلطانه الشاب:

ـ هذا أبوك يا مولاى، هذا سلطان مصر الحقيقى..

وراح نوح يقلب عينيه ما بين الملكة والوصى القديم وابنه، ثم قال:

ـ أجل إنى أبوك، غدر بى رجالى وأمك وأنت لا تدرى.

فتمتم السلطان الشاب:

ـ أبى؟!

ـ أجل، إنى أبوك نوح، ضحية الخيانة والغدر..

ـ ولم كبلوك بالسلاسل مثلنا؟

ـ جزاء امتناعى عن قتلك..!

فقال الابن بتأثر:

ـ طالما حيرنى ذلك..

ـ ولكن لا مفر من الجزاء.

وراح نوح يردد عينيه بين الملكة وسائر الرجال الذين خانوه، ثم قال متهكما:

ـ انعموا بعاقبة الخيانة..

وأومأ بلحيته إلى شخصه وقال:

ـ ولأنعم بعاقبة الغفلة!

أيـــــــوب

١

إنه سجن بلا قضبان. وبلا ذنب أيضا. عليّ من الآن فصاعدا أن أحمل جسمى بعد أن حملنى خمسين عاما. حيثيات الحكم تبلورت فى مرثية طبيب الأسرة صبرى حسونة إذ يقول:

ـ لا مجال للخداع، سيطول بك الرقاد، الكورتيزون فعال ولكنه لا يخلق المعجزات، المسكنات والمهدئات فعالة أيضا فى مقاومة النوبات، ولكن عليك أن تتزود من الصبر، لا تتصور أن حجرة نومك زنزانة، كلا، لديك الراديو والتلفزيون والجرائد والمجلات، معك الهانم وآنسة نبيلة، ووفيق مشهود له بالكفاءة، أصدقاؤك كثيرون ولن يتخلوا عنك، المهم أن تسلم بالقضاء وأن تنحى عنك العناد والحسرة، والله معك..

لست أسير حجرة فحسب. الحقيقة أننى أسير الفراش. حتى الحمام أحمل إليه كطفل. أعانى الألم على فترات ولكنى أتجرع العبودية طيلة الوقت. إنى محتج لحد التمرد. أضرب كفا بكف. لا أدرى متى أذعن للقضاء. الصدمة شديدة تدهم النفس بعنفها وقسوتها ولامبالاتها. لماذا؟.. لماذا؟ أين الحياة الثرية الحافلة؟! أين تلال الأموال الطائلة؟ أين المكانة المرموقة؟ فى الخزائن والذكريات ولا شىء معى. ويجىء الأطباء من الداخل والخارج. يجمعون على حكم لا استئناف له. يناقشون الأسباب وما تراءت لى إلا ضربة عابثة. ويبقى اليأس والمفاصل المتورمة، ويتفشى اليأس والأسى. ويل لعابر العواصم الكبرى من أغلال مستحكمة.

* * *

حول الفراش الوثير ذى المرآتين المتقابلتين تجلس أفكار ونبيلة ووفيق. فى الأعين نظرة حزينة مواسية. بؤرة تستورد العطف بعد أن كانت تصدره. لا يفارق أحد منهم الحجرة ولكن حتى متى؟ إنه رقاد يبدو ألا نهاية له. والحياة هى الحياة لا أكثر ولا أقل. قلت متجاهلا انفعالاتى الجياشة:

ـ أمر ربنا، فلنواجه الأمر بشجاعة وبساطة.

فقالت أفكار:

ـ رأيى أن نسافر إلى الخارج .

فقلت بشجاعة لا أشعر بها :

ـ لم ينصح أحد بذلك ، جئنا بأكبر أخصائى عالمى وأخذ الشىء الفلانى . .

ـ لا شك فى أنه توجد فى الخارج استعدادات لا تتوافر هنا .

فقلت باسما :

ـ المسألة أنك تؤمنين بالخارج .

وقالت نبيلة بصوت متهدج :

ـ قلبى معاك يا بابا .

الكلمة اللطيفة ممن نحب مثل الكورتيزون وأنجع . قلت :

ـ أسأل الله أن يكفيكم شر المرض .

وفيق متجهم الوجه ولكنه متمالك لأعصابه . كما ينبغى لرجال الأعمال . والولد سر أبيه . قال :

ـ ستنهض معافى ، إنها محنة صبر وتصبر .

فابتسمت له فقال مستطردا :

ـ لك أن تطمئن تماما إلى سير العمل فى المكتب .

ـ طمأنينتى من هذه الناحية كاملة .

ـ وسوف أرجع إليك عند كل خطوة .

ـ لا يهمنى من ذلك إلا أن أراك كثيرا .

فقالت أفكار :

ـ أقترح أن نتناول طعامنا هنا معا . .

فقلت :

ـ الإفطار فحسب أما الطبيخ فله رائحة يعافها الإنسان إذا شبع !

وضحكت بلا سبب لأقنعهم باستعلائى على المفاصل ، ثم قلت :

ـ لا يمكن أن تبقوا حولى إلى الأبد ، إنى أكره أن أكون عبئا عليكم ، فلتسر الحياة سيرتها المألوفة .

إنى أستبق المتوقع والمألوف والطبيعى كما يجدر برجل مجرب فى الخمسين من عمره . لن أطالب الدنيا بما ليس فى دستورها . ثم إننى أحبهم .

٢

هرع الزوار إلى قصرى من كل ناحية. اكتظت مواقف السيارات بشارع المعتصم بجاردن سيتى. المقاولون وتجار الجملة والموزعون وأصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير وبعض المسئولين. كنت محورا دائرا لكون هائل فأمسيت مركزه الجامد ولو إلى حين. يقبلون الجبين ويجودون بنظرات المودة والرثاء. ثم تتضارب الأقوال:

ـ لم يعد شيء على الطب بمستعص..

ـ أقرب مثل ابن أختى، اعتقدنا أن حال مفاصله مزمنة، وهو يمشى اليوم مثل جواد السباق!

ـ كيف تكون لنا ليال قمرية والقمر غائب!

ـ اعتبرها هدنة سترجع بعدها فارس النضال المرموق.

ـ ولكن لا تنس أنك أهملت نصح طبيبك باستهتار غير محمود.

تمتمت:

ـ العمل والحياة..

ـ والصحة؟.. أليس لها حق أيضا؟

فقلت متأففا:

ـ الحق أنه عقاب لا أستحقه..

ـ لا تعترض على قضاء الله..

فقلت مستدركا:

ـ أحمده على أى حال.

ـ ليكن ذلك من قلبك..

ـ كيف لنا بإدراك حكمته!

ـ عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

تتابعت الشعارات الدينية من قوم لا يحفلون من الدين إلا بقشوره. أنا مثلهم أيضا. طالما نددت بإلحاد أعدائنا وأنا سكران. ما أعجب أن يتبادل أناس الأكاذيب وهم يعلمون أنهم يكذبون. الأدهى من ذلك أن بعضهم لا يفطن إلى كذبه. ولم تخدعنى حرارة مودتهم. زميلنا إبراهيم جندية المشلول منذ عام منذا يذكره اليوم؟ وقتنا ـ نحن رجال

الأعمال ـ لا يتسع للوفاء. ولن أطالب الدنيا بما ليس فى دستورها. إننا نقدس الوقت والنظام. وندرك تماما أبعاد حياة العمل ومقتضيات العصر. سوف يطول الرقاد. غالبا حتى النهاية. إنها الوحدة بلا صديق . .

٣

من جنون الحركة إلى جنون السكون، هذه هى الرحلة. اليوم بسنة كما تقول الأغنية. الآن أسمع الأغانى لأول مرة. لا استيعاب لها بعد فما زال الشعور مكتظا بالاحتجاج والضجر. لكنه سماع لا يخلو من اكتشاف على أى حال. فى الماضى كنت أعطى الأغنية من انتباهى ما أعطيه الشحاذ وهو يردد شعاراته. على رغم اهتمامى بالغناء فى صدر الشباب. ثمةعادات جديدة مقبلة. وتدخل زكية بجسمها القصير البدين المتحدى لتنظيف الحجرة. أقول لها:

ـ افتحى النوافذ ليدخل الهواء والشمس.

نحن فى أواخر الربيع ـ سيقبل الصيف ولكن لا مصيف ولا انتفاع بجهاز التبريد. تقول زكية:

ـ ليتنى بدلك يا سيدى.

كذبة حلوة وما أكثر الأكاذيب. أشرئب بعنقى ناظرا من النافذة فأرى النيل وشاطئه الآخر. النيل يجري بسمرته الشاحبة والشمس تغطى مساحة منه ببراءتها الفضية. . أراه أيضا لأول مرة. الباص النهرى يتحرك حاملا القادرين على الحركة. أناس يسيرون على الشاطئ والحمام يطير أسرابا. السيارات تتتابع فى حركة متصلة. كل شىء يسير إلا الشجر. طابور الجازورينا ثابت رغم شموخه ولكن دون مبالاة ولا ملل. لما أقبلت أفكار فى روبها الفضى قلت لها:

ـ انقلى الساعة إلى خارج الحجرة . .

رفعت من فوق حاملها الرخامى بصندوقها المذهب وبندولها المتحرك. وضع تلفزيون ناشيونال مكانها، كما جىء براديو فوق التابل دى نوى. حملت إلى الجرائد والمجلات، عربية وإنجليزية وفرنسية. إنى أقرأ أيضا لأول مرة. كنت قبل ذلك متصفحا للعناوين لا تجذبنى إلا أنباء السوق والأسعار والأوراق المالية. بالمقارنة النسبية فإنى أسمع وأرى وأقرأ والبقية تأتى. وأحاول أن أتذكر أحيانا. رؤى قديمة لم يبق منها إلا ذكريات شاحبة. لعل أفكار نسيتها تماما. متى أقترن حقا بالحياة الجديدة؟!

العادة تحتوى «المصيبة» فتمتص حرارتها. أجل أبت الأسرة أن تصطاف هذا العام وأصمت آذانها عن سماع إلحاحى. عدا ذلك قد شغل وفيق بالمكتب ولكنه يلقانى يوميا أكثر من مرة. أفكارونبيلة يترددان على النادى من آن لآن ويستقبلان الصديقات ولكنهما يمضيان جانبى وقتا لا يستهان به. زيارات الأصدقاء تقل يوما عن يوم. التليفون يحل محل الزيارة كثيرا. اختفى أناس تماما كأنما لم ألقهم إلا فى إحدى محطات السفر. وحدى أكثر ساعات النهار والليل. أسمع، أشاهد، أقرأ، أتصبر. متى تشملنى العادة بسحرها العطوف؟! متى يخلصنى أنس التلفزيون والراديو والفكر من الوحشة؟ متى يعوضنى عن السوق والرحلات والسهرات؟ متى أنسى عالم السحرة الحائزين لخاتم سليمان؟ متى أنسى إلهام المال المفعم بالسيادة؟ ألا يكفى أن يحظى وفيق بالحيوية والانتشار؟ ألا يكفى أن تضىء أفكار ونبيلة غشاء المجتمع الحريرى ويقتنيان كل ثمين وجميل؟

عجيبة الحياة، مخيفة الحياة، محيرة الحياة..

٤

مضت الحياة الجديدة تفرض على ذاتها كواقع يجب التسليم به. لم يفارقنى الشعور بالعبودية ولكن استجابت نفسى للرؤية والسماع والقراءة، بل اكتسبت عادات التفكير والتأمل والحلم وإن ناوشتها كثيرا أحلام اليقظة. ألفت الرجيم والدواء وداويت نوبات الألم بالمسكنات والمهدئات. بات وفيق همزة الوصل بينى وبين العمل. فما زال يصدر عنى الاعتماد والتوجيه. واشتد حرصى على متابعة العمل بوصفه باب الأمل الأخير.

وجاءنى مرة بحساب البنك عن أموالى السائلة البالغة خمسة ملايين من الجنيهات فخطر لى أن أسأله:

ـ متى يشبع الناس من اكتناز المال؟

فأجاب وهو يرفع حاجبيه الكثيفين:

ـ لا حد للنجاح، وما قيمة الحياة بلا عمل؟

هكذا ربيته منذ الصغر. تخرج فى كلية التجارة مثلى. نجحت فى تنشئته كابن رجل يعبد العمل لا كابن مليونير. وهو يسهر فى كل ليلة فى الهرم ولكنه لا ينفق كالمجانين. يملك سيارة مرسيدس طراز ١٩٧٨، ويتكلف فى الليلة عشرين جنيها ولكنه يغضب لإنفاق مليم فى غير موضعه الضرورى. إنه صديق ولا يخفى عنى شيئا. وطالما سهرنا

وشربنا معا. وقد داخلنى قلق لدى أول عهده بالسهر فإنى أكره التبذير وحسبنا ما تبدده أفكار ونبيلة ذات اليمين وذات اليسار. يومها قلت له:

ـ تمتع بحياتك ولكنى أكره أن يبدد السفه ما يجمعه العرق والمغامرة.

فقال لى بوضوح مريح:

ـ أوافق على رأيك تماما.

وسرعان ما تبين لى «عقله». ترامى إلى أن أصدقاءه يطلقون عليه على سبيل الدعابة «النتن». لم يسرنى ذلك بطبيعة الحال ولكن كان أحب إلى من أن يعرف بالمسرف أو المجنون. وحذرته مرة قائلا:

ـ النساء!.. النساء!!..

فقال لى مطمئنا:

ـ إنى أتجنب العلاقات الدائمة، أما العابرة فلا ترهق عادة.

ـ وإذا دهمك الحب؟

فقال بسخرية:

ـ إنى لا أعترف بالحب.

لم آخذ قوله مأخذ الجد على الرغم من أنى لم أعرف له حبا واحدا. تزوجت أنا عن حب. أجل لم تؤدِّ المرأة دورا فى حياتى ولكنى عرفت الحب. هذا الفتى جررته معى إلى ساحة العمل منذ سن المراهقة. نشأ عاشقا للعمل والمال. وأغرانى قوله بأن سألته:

ـ متى تفكر فى الزواج؟

فأجاب ببساطة وحسم:

ـ لن أتزوج.

فسألته مستنكرا:

ـ ألا ترغب فى الذرية؟

فأجاب ببساطة:

ـ كلا.

ـ إنه لأمر غريب يا وفيق.

ـ لم؟ ماذا ينقصنى؟ اللذة فى العمل، وأختم يومى بشىء من الشراب والرقص واللهو..

لا اهتمام له بشىء بعد ذلك. لا السياسة ولا الدين ولا.. ولا. إنى على الأقل ذو

إلمام بشكليات الدين، أما هو فقد نسى كل شىء. لعل أفكار هى الوحيدة بيننا التى ما زالت تملك نظاما من العقائد الموشاة بالخرافات. أخيرا سألته:

ـ أأنت راض عن نفسك؟

فأجاب بارتياح:

ـ نعم، العمل تاج الحياة.

٥

جاءتنى أفكار ساحبة نبيلة من يدها، جلستا وهى تقول:

ـ أشكو إليك ابنتك!

تساءلت باسما:

ـ جنحة أم جريمة؟

رددت عينى بينهما، صورتان متماثلتان لكن الأم أجمل. جمالها متوسط فهى سمراء صغيرة القسمات معتدلة القامة ملفوفة الجسم. نبيلة تماثلها لولا الذقن العريض الذى استعارته منى. قالت أفكار:

ـ إنى أعتبرها جريمة.

ـ ما هى؟

ـ للمرة الثالثة ترفض عريسا دون حجة مقنعة.

فقالت نبيلة:

ـ هذا شأنى وحدى.

فقلت برقة:

ـ أوافقك تماما، ولكن من العريس؟

فأجابت أفكار:

ـ شاب، مهندس، أبوه مستشار.

ـ من النادى؟

ـ نعم.

ـ مواصفات مقبولة ولكننا لم نسمع رأى المتهمة؟

فقالت نبيلة:

ـ لا يعجبنى وكفى .

فتساءلت أفكار :

ـ ترى من يحوز إعجابك؟

فقلت بهدوء :

ـ سنعرفه فى حينه .

ـ إنها لم تعد صغيرة .

فقلت :

ـ بنت عشرين صغيرة فى هذا الزمن ، وهل يخشى على ابنة مليونير من البوار؟!

أفكار على رغم تطبعها بالحياة العصرية ما زالت أسيرة الرواسب الماضية . تزوجتها وهى فى المرحلة الثانوية فعشنا ما لا يقل عن عشرة أعوام حياة كاتب حسابات بالأشغال بين الثامنة والسابعة . ست بيت ممتازة كانت . مخلصة مدبرة ممن خلقن ليسندن الرجال . المرأة الجديدة من صنع يدىَّ . العصرية المولعة بالأضواء والاقتناء والقمار . أردت أن أجعل منها امرأة ثانية فأفلتت من يدى وخلقت من نفسها امرأة ثالثة . ثم تولت بنفسها صنع نبيلة . القصر يضيق بمشترياتهما على سعته . يعيشان فى النادى وقد ترجع نبيلة بسيارتها بعد منتصف الليل . إنى واثق فيها ثم إن يد الزمان تغمض عينى . تبدى جنون نبيلة فى مساعدتها لصديقاتها الفقيرات على عهد دراستها الجامعية التى لم تتمها . لم أرفض الفكرة ولكن حرصى الطبيعى راقبها بقلق . يوما قالت لى :

ـ بابا ، صديقة فى حاجة ماسة إلى خمسمائة جنيه .

فزعت وقلت :

ـ الناس تحتاج إلى جنيه أو اثنين لا إلى خمسمائة ، إنك بسذاجتك تجعلين من نفسك هدفا للجشع ، يوجد فارق بين الشعور الإنسانى وبين الكفر بقيمة المال .

فقالت بإصرار :

ـ أسرتها فى حاجة ملحة إذ إنها مضطرة إلى إخلاء شقة فى عمارة قديمة آيلة للسقوط ، وقد وعدتها بالمساعدة .

هكذا دفعت بالمشكلة فى منطقة الكرامة فغلى دمى وقلت :

ـ لا تعدى بشىء ليس فى يدك الوفاء به ، أو ارجعى إلى أولا ، وتذكرى أن أباك رجل لا دولة .

أفكار أيضًا ضعيفة من هذه الناحية غير أن مساعداتها تختص غالبًا بأهلها الفقراء . ولم يسؤنى ذلك لما فيه من حفظ كرامتنا فى النهاية ، ولم تخل حياتى أنا من مساعدات

من هذا النوع أيضًا. ولكن لزوجتى نزوات مظهرية سخيفة كما أنها تؤمن بالنذر وتتبرع لصندوق السيد البدوى أحيانًا بحماقة.

* * *

فى حياتى الجديدة أتيح لى - على رغم همى الثقيل الرابض - أن أسمع وأن أرى وأن أقرأ وأن أكشف مسرات جديدة. أتيح لى أيضًا أن أفكر وأن أتذكر. لكنى وجدتنى أبعد ما يكون عن الرؤية الواضحة. بل وقعت فى حيرة معتمة كئيبة مما جعلنى أتلهف أكثر على الشفاء البعيد، أو المستحيل. وقلت لنفسى:

- ليس أفظع من أن يخلى بين الإنسان ونفسه.

٦

رباه.. من هذا الزائر الجديد؟

نظرت نحوه بذهول وهو يقترب فى خطاه الوئيدة، تسبقه نظرة مفعمة بالمودة والأسى. تغير كثيرًا ولكنى عرفته من أول نظرة على الرغم من أنه تعمد أن يحجب عنى اسمه. كهل يماثلنى فى العمر، خف وزنه ولكنه بادى الصحة، جدّ عليه الصلع والنظارة الطبية. هتفت:

- غير معقول!.. دكتور جلال أبو السعود!

فتحت ذراعى وأنا أقول:

- كيف ظهرت من جديد على سطح الأرض؟.. بالحضن والقبل.

تعانقنا وتبادلنا القبل. كان اليوم جمعة والوقت أصيلا والزمن أواخر الصيف. قدمت إليه زوجتى وابنتى وابنى ثم قلت لهم:

- دكتور جلال أبو السعود، رفيق المولد والدراسة، كنا زميلين فى الأولية والإعدادية والثانوية، دخل الطب ودخلت التجارة، كنا نذاكر معا على رغم اختلاف دراستنا، جمعتنا صداقة وأفكار.

أخذت شهيقا لأهدئ انفعالى وهم يتصافحون ثم يجلسون، وواصلت حديثى:

- عقب تخرجه انتقل إلى الأقاليم، تراسلنا عامًا أو عامين.

فقاطعنى:

- خمسة أعوام..

فتمتمت فى حياء :

ـ ثم شغل كلانا بحياته .

فقال باسما :

ـ من حسن الحظ أن الإنسان يحظى بقلب وذاكرة .

ـ صدقت ، ولكن كيف أسعدتنى بهذه الزيارة؟

ـ نقلت منذ قليل مديراً لمستشفى الحميات بالعباسية ، ثم علمت بمرضك أول أمس من الدكتور صبرى حسونة ، فجئت أزورك وأصل ما انقطع .

ـ أهلا . . أهلا . . لا تتصور كم أنى سعيد .

ـ وددت أن ألقاك فى صحة جيدة مثلى .

فقلت ضاحكًا :

ـ أدامها الله عليك ، أما عنى فإنى فى سجن كما ترى وكأنما رددت إلى الحال النباتية .

فقال جادا :

ـ قد يطول ولكنه لم يعد مؤبدا ، الطب يصارعه ويصرعه .

فقلت ضاحكا :

ـ رجعت قهراً إلى عصر الثقافة .

ـ رب ضارة نافعة .

وقالت أفكار :

ـ لتكن هدنة من إرهاق مستمر .

فقال جلال :

ـ أحيانا يمر الإنسان بتجربة مرة ولكنه يذكرها فيما بعد بالخير .

فقلت باسما :

ـ كلام جميل ، ما علينا ، كم أنجبت من الأبناء؟

ـ ثلاث بنات ، كبراهن متزوجة ولم تتم تعليمها ، والأخريان بكلية الطب .

وأعلنت زوجتى عن رغبتها فى التعرف على أسرته فالتحما فى حديث جانبى سرعان ما غاب عنى فى انفعال طارئ . فجأة توقف كل شىء عن الحركة فيخيل إلى أننى أسمع دبيب الزمن وهو يجد فى سيره . أجل الزمن يسير وهذا صوته . بل المؤكد أنه لم يتوقف لحظة عن السير فأين كان يختبئ؟ متى وكيف بلغت الخمسين؟ ومتى وكيف اقتلع شعر رأس جلال؟ كنا أطفالا وغلمانا وشبانا بلا شك وهذا جلال شاهد على ذلك . يا لها من انتباهة مرهقة حقا . وإذا به يسألنى وقد لاحظنى فيما بدا :

ـ أين أنت؟

فقلت ضاحكا :

ـ معك .

ـ حذار من الأفكار المثبطة .

ـ ثق بأننى فى دور النقاهة منها .

ـ يسعدنى أن أسمع ذلك .

وتبادلنا نظرة طويلة، ثم خطر لى خاطرة وجدت فيها مهربا من انتباهتى المزعجة فقلت :

ـ أطباء كثيرون يرفضون الترقية من أجل العيادة .

فقال بهدوء :

ـ كنت دائمًا طبيبًا طول الوقت .

فسألته بدهشة :

ـ تعنى أنك لم تفتح عيادة؟

فحنى رأسه بالإيجاب فقلت :

ـ أعجب ما سمعت .

ـ كيف تعجب وأنت تعرفنى حق المعرفة؟

ـ كنت مثلك أيضا ولكنها الحياة .

فابتسم صامتا فقلت مخاطبا أسرتى المستمعة :

ـ دكتور جلال من عشاق الثقافة منذ نشأته، آمنا معا فى ماضينا بأنه أيا كان عمل الإنسان فالثقافة يجب أن تستمر كمعين دائم لإنسانيته الحقة . . وقد طبق ذلك عمليا .

عند ذاك سأله وفيق :

ـ هل العيادة تتعارض مع الثقافة؟

ـ أعرف أطباء لا يجدون وقتا لتصفح الصحف .

ـ ولكنهم يؤدون خدمة إنسانية لا تقدر بثمن .

ـ إنى أؤديها فى المستشفيات على خير وجه .

ـ ولكنك لن تكون ثروة مثل زملائك؟

ـ المعيشة معتدلة ولكن لا ينقصها شيء مهم . . ثم إن لى ثروة من نوع آخر .

فقلت له :

ـ إنى أفهمك ولكن تضحيتك جسيمة .

فقال بهدوء :

ـ كانت لحظة الحسم عسيرة ، ولكنى اخترت ولم أندم .

فسأله وفيق بارتياب :

ـ ألم تندم حقا؟

ـ لماذا أندم؟ ! إنى أقوم بواجبى الإنسانى ، لا ينقصنى شىء ، حياتى ثرية جدًا ، إن يكن ثمة من يرثون لى فإنى أرثى لهم أكثر ، ولكن معذرة أنا لم أجئ لأتحدث عن نفسى .

ولكن وفيق قال بإصرار أدركت بواعثه :

ـ ألا توافقنى على أن العمل هو هدف الإنسان الأعلى؟

فابتسم . صمت مليا . ثم قال مخاطبا ابنى :

ـ إنك تستدرجنى إلى حديث طويل لا يتفق مع أغراض الزيارة فدعنى إلى مناجاة والدك بعد غياب ربع قرن .

فقال وفيق :

ـ أبى يهمه ولا شك أن يعرف رأيك .

فحركت رأسى موافقا وأنا ألاطم أمواج الانتباهة المزعجة . عند ذاك قال الدكتور جلال :

ـ العمل ضرورة ولكنه ليس الهدف .

ـ إذن فما الهدف؟

ـ لعله التحرر من ضرورة العمل .

وحل صمت ولكن بدا من تألق عينيه أنه يمنحنا فرصة لاستيعاب قوله قبل أن يستمر فيه ، وقال :

ـ مثلا ، مهنة الطب ضرورة ما بقى المرض ، فإذا قهرنا الأمراض امحت ضرورة الطب . . هدف الإنسان الفراغ الثرى!

فقلت ضاحكًا :

ـ إذن فقد حقق لى المرض الهدف المنشود!

فقال جادا :

ـ لقد أوصلك إلى الطريق الذى يجب أن تلتزمه فى حالتى المرض والشفاء .

ثم التفت إلى وفيق قائلاً :

ـ دعنى أشرح لك رأيى ، بماذا يتميز الإنسان عن الحيوان؟ بالعقل والروح ، فعمله الإنسانى الجدير به حقا يجب أن يكون عقليا أو روحيا ، ولكن حضارته بدأت بالسعى نحو الطعام ، بدأت بالصيد مثل الحيوان ، تاريخ الحضارة هو تاريخ العمل . ولكنه أيضًا تاريخ التحرر من العمل درجة بعد درجة ، حرر يديه باختراع الآلة ومضى فى ذلك السبيل الطويل حتى بلغ مرحلة المصنع الأوتوماتيكى الذى يَعدُهُ بأقل عمل وأكبر فراغ ، فلا تتصور أبدًا أن الزراعة أو الصناعة أو تكديس المال يمكن أن تكون أهدافا فى ذاتها ، إنها مراحل من الضرورة يمارسها الإنسان ليبلغ حريته ويمارس إنسانيته .

إنى على أى حال أكثر استعدادًا لتلقى هذه الأفكار من أسرتى التى تجلى الذهول فى أعينها . وتجسد الانفعال فى وجه وفيق فقال :

ـ يا له من خيال! أحدثك يا دكتور عن حياتنا الواقعة فتحدثنى عن حياة لن تتحقق أبدًا ، إنى أتحدث باسم أربعة آلاف ملايين من البشر ربعهم مهدد بالمجاعة!

فقال جلال بهدوء :

ـ لا يغيب عنى ذلك ، إنى أعرف أن العمل ضرورة حيوية ، ولكنى أريد أن أنبهك إلى أنه ليس الهدف ، هذه الحقيقة تغيب عن كثيرين ، بل تغيب عن الرسالات التى خلقت من أجل تحقيقها كالليبرالية والاشتراكية ، ولكن هدف آلاف الملايين يجب أن يكون واحدا .

أردت أن أخفف من توتر الجو ، وألطف من انفعال وفيق قبل أن ينسى نفسه ، فضحكت عاليًا وقلت :

ـ توهمت أنى مريض وإذا بى سوبرمان العصر .

فقال جلال :

ـ أرجو ذلك . .

فسألته :

ـ ألممت بنشاطى على رغم البعد؟

ـ بفضل الصحف ، شذرات من الأنباء عن رحلات ومعارك مع اليساريين ، وتخيلت الباقى .

ـ دعنى أقرأ لك أفكارك ، قلت لقد غرق فى جمع المال وعبادته ، نسى ولا شك أيامنا الماضية ، وانحدر إلى الأمية وهو لا يدرى!

فضحك وقد تورد وجهه حياء ثم قال مجاملا فى الغالب :

ـ أثرت إعجابى ولكنه إعجاب لم يخل من أسف .

فتساءل وفيق :

ـ ألا يستحق الإعجاب الخالص من يصبح مليونيرا فى أقل من خمس سنوات؟

هز رأسه هزة غامضة فقلت من فورى :

ـ لست غبيا كما تعلم ، دعنى أقرأ أفكارك مرة أخرى على ضوء فلسفتك . قلت عنى لذاتك إننى ضيعت حياتى فى سبيل استيراد سلع كمالية عاقبتها الحتمية تخريب الاقتصاد الوطنى وخدمة الطبقة الجديدة وتعذيب عامة الشعب ، ولا يمثل هذا الاستيراد إلا مزيدا من الاستعباد بخلاف العمل الإنتاجى الذى يمثل الضرورة والتحرير معا ، أليس كذلك يا جلال؟

فضحك وجهه بلا صوت وركبه حرج الموافقة الصامت . عند ذاك هتف وفيق متناسيا أصول المجاملة :

ـ هذا ما يردده المخربون!

فقلت ملطفا من وقع كلامه :

ـ ليسوا وحدهم ، صبرا ، لكن اللوم لا يقع علينا بقدر ما يقع على من أذنوا بذلك .

فقال جلال وكأنما يستثقل نفسه :

ـ دعنا من التفصيلات ، اعتبر إذا شئت رأيى حلما خياليا ، من الناس من يأنس إلى الأحلام ليتزود بقوة يواجه بها قسوة الواقع ، إنما أردت أن أهون لك من شأن الحياة التى انقطعت عنها وأزين لك الحياة التى حبست فيها ، فهى ليست شرا خالصا كما قد تتوهم ، ما هى إلا مرحلة عابرة إن شاء الله ، ويمكن أن تجد فيها من المسرات الشىء الكثير .

فشكرت له مودته ، ثم خضنا معا ـ باتفاق شعورى خفى لنتفادى من حدة وفيق ـ ذكريات مشتركة قديمة ، فشرقنا وغربنا فى متعة صافية ساعة نادرة من الزمان .

٧

خلفت الزيارة وراءها رجة . قالت أفكار :

ـ لم أفهم كلمة واحدة مما قال هذا الرجل .

على هذا بدت منفعلة كالآخرين . وتظاهرت بالمرح وهى تتساءل :

ـ أهذا شأن أصدقائك القدامى جميعا؟ !

فقالت نبيلة :

ـ إنه شخص جديد ومثير .

فسألها وفيق بحدة :

ـ ماذا تعنين؟

فقالت ساخرة :

ـ ليس جريمة أن يقول إن الحياة ليست المال فحسب !

فقال لها وفيق :

ـ دلينى على فعل واحد فى حياتك لا تعتمدين فيه على المال ، كلامك يدل على أنك تعبدين المال ولكنك تتنكرين لقيمته .

فقالت بعناد :

ـ إنى معجبة به !

وتدخلت فى الحديث قائلاً :

ـ دعها وشأنها ، ساءتنى حدتك يا وفيق .

فقطب قائلاً :

ـ إنه شيوعى حاقد .

ـ إنى أعرف صديقى خيرا منك .

ـ من أين لك أن تعرفه بعد انقطاع ربع قرن؟

ـ لقد أراد أن يعزينى عن السجن .

ـ لم تكن فى حاجة إلى تعزيته .

ـ شعر ولا شك بضيقى وكربتى .

ـ إنى أفهمه تمامًا يا بابا ولا تخدعنى فلسفته ، لقد جرب أن يثرى من المهنة ففشل ، وما أكثر العفة المتولدة عن العجز !

فهتفت أفكار :

ـ صدقت ، سأبخر القصر غرفة غرفة ، لا يحتمل أحد أن يصير قرينه فى الفقر مليونيرا من غير أن يحرقه الحسد .

فضحكت قائلاً :

ـ الأفضل أن تعقلى فلسفته وتقلعى عن التبذير .

فقالت لى :

ـ أتريد أن تدعم حرصك بفلسفته؟ . . هيهات أن يجوز ذلك علينا .

ولما خلت الحجرة استبد بى الانفعال دون شريك . استعدت أقواله وأدمت التفكير فيها حتى قلت :

ـ لن أذوق النوم حتى أتناول المهدئ .

عاودتنى الانتباهة فرجعت أنصت إلى صوت الزمن الجارى . رجعت أتساءل أين كان يختبئ . متى أنسى الكدر لأكتشف المتعة المتاحة؟ . . متى أسمع الأغنية فلا أسهو عن شىء من إيقاعاتها؟

٨

خفت ألا يجىء جلال أبو السعود مساء الجمعة التالية فتلفنت إليه . وقلت لأسرتى منبها :

ـ سأستدرجه إلى الحديث إياه فمن كره منكم ذلك فلا يحضر .

وجاء فى الميعاد فاستقبل بحرارة صادقة وكاذبة . ورحنا نتناول الشاى والحلوى . وفى أثناء ذلك نقل عينيه بين أفراد أسرتى وتساءل :

ـ ماذا قلتم عنى بعد ذهابى فى الجمعة الماضية؟

فقالت أفكار :

ـ كل خير يا دكتور .

فشكرها مبتسما . إنه ذكى وحساس ولذلك قلت له :

ـ إنى أسعد بحديثك وهو يهمنى جداً ، وهم متفقون معى !

فقال ببساطة صادقة :

ـ المهم أن تنعم بمزايا حياتك المتاحة .

ـ لدى الكثير كما تعلم ولكن يحز فى نفسى الشعور بالسجن وانصراف الزملاء عن زيارتى .

فقال وفيق بحدة :

ـ إنهم أوغاد .

فقلت بعجلة :

ـ كلا يا بنى ، إنهم رجال أعمال .

ثم مخاطبا جلال :

ـ أنت نفسك لو كنت صاحب عيادة لما وسعك أن تزورنى مرتين متتاليتين .

فقال جلال :

ـ يسرنى أن تعالج أمورك بروح واقعية !

ـ كل شيء طيب لولا إحساسى الأليم بفقد الحرية .

خيل إلى أنه هم بالكلام ثم عدل عنه ، فقلت له :

ـ لا تكبت الكلام فقد دعوتك لتتحدث ولأسمع .

فتساءل وهو ينظر نحو أسرتى :

ـ ونكدر صفو أعزة؟ !

فقالت أفكار :

ـ تكلم يا دكتور ، نريد أن نسمع مثله وأكثر .

فابتسم وقال :

ـ الأمر لله يا عبد الحميد ، ماذا قلت عن الحرية؟

ـ تكلمت عن إحساسى الأليم بفقدها .

ـ لكنك لم تفقد حريتك بسبب المرض !

ـ . . . ؟

فقال بهدوء :

ـ لكى تفقد شيئًا يجب أن تملكه أولا وأنت لم تملك حريتك قط !

فضحكت قائلا :

ـ حذار من المبالغة فإنك لا تعرف ما يعنيه أن يكون الإنسان مليونيرا .

ـ حقا؟ !

ـ كان بوسعى أن أفعل ما أشاء ، أن أتغدى فى روما وأتعشى فى باريس إذا أردت .

ـ أين الإرادة الحرة فى ذلك؟ . . وراء كل فعل منها نزوة متحكمة !

تخيلت فتور أفكار وحماس نبيلة السطحى واستفزاز وفيق ، فلم أنظر ناحيتهم . قلت أستدرجه :

ـ بهذا المنطق نهدم فكرة الحرية من جذورها .

فقال بثقة :

ـ الحرية وهم يتراءى لخيال الإنسان العادى، وهو إنسان ميكانيكى فى أغلب الأحوال.

ـ قد يصدق كلامك على غمار الناس ولكن يوجد أناس يمثلون القوة الفعالة المؤثرة فى المجتمع.

فابتسم قائلا :

ـ اسمح لى أن أذكرك بالأشياء التى تقيد حرية الإنسان، لا لأنها مجهولة لمثلك ولكن لأننا نتناساها عادة فى زحمة الحياة والغرور.

تنحنح ثم واصل :

ـ إنها تبدأ عملها فى بطن الأم، بلا استئذان أو مشاورة، فتقرر لنا طولا ولونا وملامح، وأجهزة تنفس وهضم وأعصاب ذوات خواص محددة، وغرائز، وبعض الأمراض أحيانا، يتم ذلك كله قبل أن نرى نور الدنيا.

تذكرت تلك الحقائق وكأنها اكتشاف جديد. أما وفيق فقال باستهانة :

ـ نحن نسلم بذلك ولكن لا أهمية له!

فقال جلال :

ـ عندما يخرج الوليد إلى الدنيا تتسلمه أسرته، ثم تتكاتف على صبه فى قالب جاهز من القيم والأذواق والتقاليد والعقائد وهو يتشكل بلا قدرة على الإدراك أو النقد أو الاختيار، أنت نفسك يا وفيق بك هل كان لك رأى فى الصورة التى صورت بها؟

فتساءل بعناد :

ـ أى خطإ فى ذلك؟

وقلت أنا :

ـ الوليد يتحول بذلك من حيوان إلى كائن حضارى!

ـ نحن نناقش فكرة الحرية، تذكروا ذلك من فضلكم.

ـ تفضل..

ـ ثم تتلقاه المدرسة لتحكم حوله قالبا جديداً يهبه فى النهاية عملا ورؤية للدنيا والأشياء، وينضم إلى المدرسة فى عملها المجتمع كله ممثلا فى أحزابه وجمعياته ونماذجه البارزة، الجميع طامعون فى حريته ولو فعلوا ذلك باسم الحرية نفسها.

فقال وفيق بإصرار :

ـ ولكن سرعان ما يجىء حين فيعرف الشاب الاختيار والرفض بل والتمرد والثورة.

ـ لست أنكر ذلك، ولكنى أقصر حديثى الآن على القوى المتربصة بحريتنا. . ثم يجيء دور قوى جديدة خارج المجتمع، منها البيئة، وأثرها معروف فى النشاط والكسل، فى القوة والضعف، فى الإيجابية والسلبية.

وتريث لحظات وهو يبتسم ثم استطرد:

ـ هناك الأرض نفسها، الكرة الأرضية، فهى بجاذبيتها وحركتها تحدد له وزنا وأسلوبا فى الحركة وحدودا لا يمكن تجاوزها، هناك أيضًا الشمس وأشعتها وانفجاراتها الموسمية، بل هناك النظام الشمسى كله فيما نعرف من آثاره وما نجهل، ولك أن توسع تصورك حتى يشمل الكون كله ما ظهر منه وما غاب، الكون كله يؤثر فى حريتنا ويكون لذلك نتائجه فى سلوكنا وتصوراتنا. أما الإنسان الغافل فقد يعتقد أنه حر حرية مطلقة، أو أنه لا يؤثر فيه إلا عقدة أوديب، أو عوامل اقتصادية. ثم تجيء بعد ذلك قوى غريبة خارجة عن التصنيف المنطقى، تبدو عارضة لا معقولة، نسميها مصادفات أو ما شئت من أسماء، ولكنها مع ذلك قد تقلب الحساب رأسا على عقب فى لحظة خاطفة، وهى لا حصر لها، مقابلة غير متوقعة، ضياع رسالة فى البريد، حادث قطار أو سيارة، وسقوط جسم فجأة إلخ إلخ، فهل تستطيع أن تتجاهل القوى المؤثرة فى حرية الإنسان وبالتالى فى مصيره؟!

صمتنا صمتا ثقيلا. ثم ندت عن نبيلة ضحكة رقيقة. ضحك وفيق أيضًا ضحكة باردة. تجلى حياء ناعس فى وجه أفكار. قلت باهتمام حقيقى:

ـ إذن فأنت ترى يا دكتور أن الإنسان حجر أو حيوان على أحسن الفروض؟

فبادرنى جادا:

ـ أبدا، إنى أبعد ما يكون عن ذلك.

ـ ولكن منطقك يسوقنا إلى ذلك؟

ـ إنى أحصى القوى المؤثرة لكى نعد لها ما يتطلبه الدفاع من صبر ومثابرة وعلم.

ـ كأن الحضارة أنشأها الكون لا الإنسان.

ـ بل أنشأها الإنسان بفضل ظمئه الخالد للحرية، كما قلت. إنه لم يتحرك بإغراء اللقمة ولكن ليتحرر من الجوع، الحضارة معركة مستمرة بين الحرية والقوى المؤثرة، الآلة تحرير من عبودية السخرة، الدواء تحرير من المرض، العلم تحرير من الجهل، الطيارة تحرير من الجاذبية، السرعة تحرير من الزمن. كذلك المذاهب، فالدين تحرير للروح، الإقطاع كان تحريرا من الفوضى، الليبرالية كانت تحريرا من الإقطاع، الاشتراكية تحرير من الليبرالية، معركة مستمرة بلا نهاية.

وتفكر قليلا ونحن نتابعه بعواطفنا المتناقضة ثم قال:

ـ المأساة، ولعلها ليست بمأساة، أنه ما من جديد يجد إلا ويجيء معه بقدر من الحرية وقدر من الاستعباد الجديد؛ فالآلة تحرر اليد وقد تأسر الروح، السلع الجديدة تشبع وتمتع وقد تحجب عن الإنسان مصيره، الإقطاع حرر من قطاع الطرق وفرض الرق، الليبرالية حررت المواطن من الحكم المطلق وجاءت بالاستغلال الاقتصادى، الاشتراكية حررت الإنسان من الاستغلال وسيطرت عليه بالبيروقراطية أو الدكتاتورية. ولذلك فلا نهاية للمعركة ولا للابتكارات ولا للمذاهب حتى يظفر الإنسان بحريته الكاملة ويصبح قولا وفعلا سيد مصيره. لذلك علينا دائمًا وأبدا أن نكون مع كل جديد بقدر ما يعد من حرية وأن نكون على استعداد للتخلى عنه كلما جد جديد أفضل أو رجحت كفته السالبة.

ونقل ضوء عينيه بين وجوهنا ثم ابتسم بارتياح ومضى يتساءل:

ـ ولكن ما دور الفرد ـ كفرد ـ فى هذه المعركة لكى يحرر إرادته ويحسن الاختيار؟

وبعد لحظات من الصمت أجاب:

ـ عليه أن يقتنع بأن «الذاتية» هى سبيل العبودية، وأن الموضوعية هى سبيل الحرية. الاختيار الحر يقوم على الموضوعية، وإلا أذعنا إلى غريزة ونحن نتوهم أننا نمارس عاطفة، أو سايرنا عاطفة ونحن نعتقد أننا نلبى العقل. ولكى يحدث الانسجام والتوازن بين الغرائز والعواطف والعقل فلابد من تربية الإرادة تربية تبلغ بها ذروة القوة، وبكل إنسان سليم من الصبر ما يستطيع به أن يربى إرادته ويتغلب على ضعفها وتراخيها، فى الإنسان قوة كامنة تضارع قوة الذرة.

وأغمض عينيه قليلا ثم فتحهما قائلا:

ـ أتذكر النظرة الذاتية للكون التى جعلتنا نتصور أننا مركزه؟ أتذكر النظرة الذاتية للمجتمع التى تغريك بالدفاع عن طبقتك وأنت تتخيل أنك تدافع عن الإنسانية؟ أتذكر النظرة الذاتية إلى المرأة التى تدفعك إلى الإيمان بسيادة الرجل وأنت تعتقد أنك تبشر بطبيعة الأشياء؟ . . اتجه نحو الموضوعية متحرراً من أى عبودية، عند ذاك تمارس الاختيار الحر، وتمضى فى سبيل السيادة الحقيقية، وتقترب خطوة خطوة من طريق الأشواق الأبدية المضنون به على غير الأحرار.

٩

قالت أفكار وهى تتثاءب:

ـ أكون مجنونة لو حضرت مجلسه بعد الليلة.

وقالت نبيلة :

ـ إنه مثير ولكنه سينقلب مضجرا .

وقال لى وفيق :

ـ إنه مجنون فيما أرى ، ما رأيك بصراحة؟

فقلت متظاهرًا بالمرح :

ـ لم يعد لى من تسلية سواه .

فقال بحنق :

ـ لقد أجنه الفشل ، كان الله فى عونك .

أثارنى حديثه لدرجة لم أقدرها . لم تكن لتحدث فى ظروف أخرى . عدت أسمع صوت الزمن . فيما مضى كنت شريكه فى الاطلاع والفكر . اليوم أصبحت مجرد مستمع ذاهل . ماذا أكون وماذا تكون أسرتى؟ أحرار أم عبيد؟ بدا السؤال مضحكا . السوق ، المكتب ، النقود ، الثرثرة ، التحف ، القمار . هل أمضى من المرض إلى احتقار الذات والأهل؟ ترى هل يمكن تربية الإرادة؟ هل يمكن تربية الإرادة بالإرادة؟ التغيير أهم من القراءة والرؤية والسماع . إنى أسمع وأرى وأقرأ ولكن ما جدوى ذلك؟ هل يجاوز التسلية العابرة وقتل الوقت؟

وامتعضت امتعاضًا شديدًا . عز علىّ قلقى واضطرابى . بوسعى أن أنسى ما سمعت ، أن أقطع الصلة الجديدة ، أن أهزأ منه . ولكن وراء السطح المحتدم قبعت لهفة تتشوق إلى عودته . لقد جلا الصدأ عن نفسى وبعث الشخص القديم .

ـ ألا يعد صوته إغاثة للمريض من وحدته؟

١٠

انفعلت انفعالاً سعيدًا متجددًا بزيارات جلال أبو السعود الدورية . وسعدت بصفة خاصة لانفرادى به بعد أن أضربت الأسرة عن شهود مجالسنا . وعاصرنا الخريف بجوه المنعش ، وشمائله العذبة ، وألوانه البيضاء ، ونفثاته الموحية ، فهو ربيع وطننا بلا شريك . ولدى أول زيارة انفرادية قلت له دون حذر من رقباء :

ـ والله زمان!

فألقى نظرة على الحجرة الخالية وتمتم ضاحكًا :

ـ هرب المستمعون!

ـ هذا أفضل .

فقال بأسى :

ـ يندر أن يطيب حديثى لأحد ولكنى لا أكف عن الكلام .

ذلك ما أعده من حسن حظى . إنه يتحدث عن تجربة شخصية حميمة ، عن معركة يخوضها بكل قوته ، وبتصميم رائع على تحدى اليأس .

وذات مرة قلت له :

ـ أتذكر الحكمة التى قرأناها معا فى ماضينا : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»؟

فحنى رأسه الأصلع بالإيجاب فقلت :

ـ أحاديثك المثيرة أعادتها إلى وعيى .

فقال باهتمام :

ـ أعتقد أننا فهمناها على غير حقيقتها .

ـ لكنها واضحة تماما .

ـ لا أوافقك ، يجب أن تكون دعوة للموت فى هذه الحياة التى نحياها . . !

فقلت ضاحكا :

ـ فال الله ولا فالك .

فقال جادا :

ـ لن يعزينا انتباه ما بعد الموت عن الغفلة الطويلة فى حياتنا .

ففكرت فى قوله تمشيا مع رغبتى فى المشاركة ونبذ دور المستمع السلبى ، أما هو فمضى يقول :

ـ علينا أن نموت فى هذه الحياة .

ـ لا أتصورك قاتلا أبدا . .

ـ فى عنق كل منا جريمة قتل عليه أن يرتكبها .

فقلت لأقنعه بأننى بت أفهمه :

ـ تعنى أن يقتل نفسه!

ـ إذا وفق إلى قتل نفسه المستعبدة تحرر ووهب الانتباه!

* * *

وفى زيارة أخرى بادرنى بسؤال عجيب :

ـ أتذكر نفسك التى آختنى فى عهدنا القديم؟

فقلت من فورى :

ـ طبعا .

ـ أشك فى ذلك ، كان شخصا آخر تماما ، فى خلاياه وشكله ووزنه وفكره ورؤيته .

ـ إنى أتذكره على أى حال كلما أردت ذلك .

ـ أشك فى أنك تتذكره تماما ، ولقد تتابع عليك مئات الأشخاص المختلفين لا يكاد يجمعهم إلا اسم «عبد الحميد حسنى» .

فقلت وأنا لا أدرى مقصده :

ـ هذا طبيعى جدًا .

ـ الطبيعى أن يكون الإنسان «أنا» واحدًا .

ـ وهو كذلك بمعنى من المعانى .

فابتسم لحيرتى ثم قال :

ـ انتبهت ذات يوم ـ وكنت فى أول الطريق ـ إلى تعدد شخصياتى ، فسجلت بعضها فى مذكرة اليوميات .

قاطعته متسائلاً :

ـ لك يوميات؟

ـ نعم هذا ضرورى جدا لمن يروم النجاح ، المهم ، إليك ما سجلته على قدر ما أذكره ، وهو يوم واحد :

١ ـ فى الصباح الباكر ، نزاع حاد مع زوجتى بسبب المصروف ، اتهام منى لها بالإسراف واتهام منها لى بالجهل . رميتها بالتمرد فرمتنى بالرجعية ، الحالة النفسية انفعال غضب . . ذاتية . . كذب . . ميل إلى الاستبداد . . خوف من المستقبل بلا أساس . . إرادة مشلولة . . عقل أسير . . عاطفة عمياء . . عاطفة فى قبضة غريزة .

٢ ـ قبيل الغداء بمستشفى ميت غمر ، حديث مع زميلة طبيبة مولدة شكت إلى زوجها وعقده ، ظهر فى «أنا» جديد ، حديث منى عن الرجل والمرأة فى ضوء حقوق الإنسان ، شعارات عصرية مبهرة ، الحال النفسية هادئ مرتب الأفكار . . كذاب لإرضاء الزميلة . . خائف من تهمة التخلف . . خيالات جنسية عارية .

٣ ـ العصر ، فى حجرة الأطباء ، بروز «أنا وطنى» مائة فى المائة ، حملة على الاعتداء الثلاثى ، تأييد للثورة فى محنتها ، دفاع عن حكمها الدكتاتورى ، تبرير الدفاع بأن لقمة العيش أهم من الحرية لدى تسعين فى المائة من الشعب ، الحال النفسية خوف من

الغارات الجوية، كذب فيما يتعلق بالحرية، العقل مكبوت، الإرادة مفقودة، تمزق بين حب الوطن ورفض أسلوب الحكم.

٤ ـ المساء فى النادى مع زميل منحدر من أسرة إقطاعية، تبلور «أنا» رابع، تصريح منى بأن الغزو وإن يكن شرا فى ذاته فلن يخلو من خير إذا حررنا من عصابة الضباط، موافقة على رأى الزميل بأن الحكم البريطانى كان أفضل من حكم الثورة، الحال النفسية كذب ونفاق وخوف وتمزق وحزن عميق.

وهكذا يا عزيزى، كل أنا شخص جديد فى عواطفه وأقواله وأفكاره ورؤيته للحقيقة، فالإنسان مفقود الوحدة، فريسة للكذب والخوف، لذلك يعيش إنسانًا بلا إنسانية.

فقلت منفعلا غاية الانفعال:

ـ على هذا الأساس فإن الفرد فى الواقع شعب كامل!

ـ نطقت بالصواب.. ولكن لابد من التسجيل لتتجسد الحقائق، لا تعتمد على التذكر فهو وهم كالحرية المزعومة وكالصديق المزعوم، وعندما تتجسد الحقائق يعبئ الإنسان إرادته لتغيير ذاته، ولخلق الانسجام والتوافق بين الغريزة والعاطفة والعقل، ليؤدى كل وظيفته الطبيعية بلا كبت ولا طغيان على الآخرين.

فسألت باهتمام شديد:

ـ هل تكفى الإرادة لإحداث هذه المعجزة؟

فقال بهدوء:

ـ ثمة شرط أساسى، أن يحدد الإنسان لنفسه غاية عليا!

ـ لا يخلو إنسان من غاية.

ـ وهم جديد يا عزيزى عبد الحميد، الغالبية العظمى من البشر لا تعرف لها غاية عليا، أجل لكل أنا غاية قريبة، وهى غايات متضاربة تخضع لميكانيكية الحياة اليومية، ولا بأس بها ولا ضرر منها إذا هيمنت عليها غاية عليا، ولا وحدة للإنسان إلا بهذه الغاية المنشودة!

فسألته بشغف:

ـ وما هذه الغاية يا ترى؟

ـ عليك أن تجيب عن السؤال بنفسك، لقد اجتهدت من جانبى واخترت الحرية كما قلت لك.

فكرت فلم أقتنع وقلت:

ـ الإنسان يتميز بالعقل فيجب أن تكون الحقيقة هى غايته العليا .

فقال باسما :

ـ لا اختلاف بيننا فى الواقع ، ألم أقل إن الحرية والحقيقة الموضوعية شىء واحد؟ ألم أقل إن الذاتية هى العقبة الكئود فى سبيل الحرية؟ فالعقل الحر وحده هو القادر على معرفة الحقائق .

فقلت وكأنما أخاطب نفسى هذه المرة :

ـ يلزمنى اطلاع كثير وتفكير أكثر .

ـ الأهم أن تبدأ فوراً بتربية الإرادة ، فلا اطلاع ولا تفكير بلا إرادة ، إن ضعيف الإرادة يطلع ويفكر أيضًا ولكنه يتشتت فى أحلام اليقظة ، انتهز فرصة السجن فهى نادرة خاصة لرجل مثلك ، والطريق ليس باليسير ، هو قضاء كامل على حياة زائفة ممتدة طولا وعرضا وعمقا ، هو اختيار كلمة أو سلوك أو اختيار على ضوء غاية عليا محددة ، وستواجه به أهوالا لا تخطر بالبال ، وتطالب بتضحيات لا حصر لها ولا حد ، بدءاً من تعاملك مع أسرتك وزملائك وانتهاء إلى مواقفك من النظم والدولة والطبيعة وما وراء الطبيعة .

وشملنا صمت غير قصير ، ثم ابتسمت فى حيرتى وسألته :

ـ هل وصلت؟

فأجاب بنبرة محايدة :

ـ كلا ، ولكنى أحرز نجاحا يوما بعد يوم .

ثم متسائلا فى أسى :

ـ وما قيمة وصول فرد واحد أو عدة أفراد بين آلاف الملايين من البشر؟

ـ دعنا من الخيال .

ـ ولكن لا قيمة لخلاص تحظى به قلة .

فقلت له على سبيل التعزية :

ـ قد يحدث التطور المعجزة .

فقال بازدراء :

ـ التطور الحقيقى لا يجىء إلا من الداخل .

فقلت ضاحكا :

ـ ستمحى المجموعة الشمسية قبل أن يحقق آلاف الملايين التطور الذى تحلم به .

فقال محتجا :

ـ لم يوجد شىء عبثا .

فسألته استجابة لخاطرة طارئة :

ـ هل تفكر فى نشر يومياتك؟

فحنى رأسه موافقًا فسألته :

ـ متى؟

ـ لم أحدد الوقت بعد ، سأنشرها عندما يسعنى أن أحدد الوقت بحرية .

ـ ماذا تعنى؟

فقال باسمًا :

ـ عليك أن تفهم ما أعنى بنفسك ، ولا أهمية لذلك .

فلم أشأ مضايقته . وخطر لى خاطر فقلت :

ـ يذكرنى طريقك بالتصوف؟

فقال بسرعة :

ـ كلا ، التصوف أرستقراطى وطريقى شعبى . التصوف مقاماته التوبة والفقر والتقوى والتواكل إلخ ، أما طريقى فمقاماته فى الحرية والثقافة والعلم والصناعة والزراعة والتكنولوجيا والحزبية والعقيدة . التصوف يجعل من الشيطان العدو الحقيقى للإنسان أما الطريق فعدوه يشمل الفقر والجهل والمرض والاستغلال والطغيان والكذب والخوف .

فضحكت وقلت :

ـ لعلك تعدنى ضمن الأعداء؟

فضحك مثلى ولاذ بالصمت .

١١

أول عهدى بالمرض نشدت التوافق مع الواقع ، وقهر الضجر بالرؤية والسمع والقراءة ، أى بالتسلية والمتعة والفكر . أجل فكرت كثيرًا ولكنه كان تفكيرًا يستهدف جلاء الحقائق وتذكر الوقائع ولا غاية وراء ذلك . وباقتحام جلال أبو السعود لحياتى انبثق منها تفاعل كيمياوى ولع بالتغيير وحلم به قبل كل شىء . لم آخذه مأخذ الجد من بادئ الأمر فلم أخش عواقبه ، وتصورت أننى سأتخلى عنه عند لوح الخطر . ولكن فكرة

التغيير مضت تلاعبنى لعب القط بالفأر بهرتنى مثل نجمة الصباح . وعقدت مقارنات خيالية بين أسرتى وبين حلم جلال فشعرت بما يشبه الغثيان . إنهم ثمرة حياتى وتربيتى لُعنت الشجرة والثمرة . وسألت نفسى فى قلق محموم :

ـ أأنا جاد حقا؟ !

أولئك المولعون بالتحف والثرثرة والمال ولع الأطفال بالحلوى كيف أحادثهم عن غاية عليا؟ !

وهتفت بضيق شديد :

ـ أيتها الحياة المحيرة ، لا أدرى أينا ضحية لصاحبه .

وكلما ألح على الأرق تساءلت :

ـ أأنا جاد حقا؟ !

* * *

وفى زيارة لجلال أقدمت على خطوة جديدة ومهمة ، بعد تردد معذب طويل كنا نطرق باب الشتاء ، وقد أمطرت السماء مطرة خفيفة واحدة قلت لجلال :

ـ فليسامحك الله على ما فعلت بى .

فضحك قائلا :

ـ لا تخجل تواضعى .

فرمقته بتحد وقلت :

ـ أريد أن أطلع على يومياتك .

فرفع منكبيه استهانة وقال :

ـ أكثرها لا يختلف عن يومياتك التى لم تدون ، الأفضل أن تسجل ذكرياتك !

ـ ألم تقل إن التذكر وهم؟

ـ ولكن الوهم ينقشع بتربية الإرادة .

ـ ولم تضن بها؟

ـ لدى أسباب ، وقد أطلعك عليها فى ظروف أخرى .

لم ألح عليه أكثر . وركزت على النية التى أنتويها . قلت :

ـ يخيل إلى أننى راغب فى دخول تجربتك !

فثقبنى بنظرة جامعة بين الحذر واللهفة ثم تمتم :

ـ حقا؟

فقلت مبادرًا :

ـ أنا لا أكذب أبدًا .

وسرعان ما تذكرت حديثه عن الكذب والخوف فقهقهت على رغمى وقلت كالمعتذر :

ـ فى الأقل فيما يتعلق بهذه الرغبة !

لم تغض نظرة الحذر من عينيه فتساءلت :

ـ لم تشك فى؟

فقال بهدوء :

ـ هذه الرغبة تسبق عادة برغبة أخرى .

ـ ما هى؟

ـ أن تعترف بخبايا حياتك التى تؤرقك .

فهتفت من فورى :

ـ هذا ما يلح على ، هذا ما صارعته حتى صرعنى .

فقال بارتياح :

ـ انتظرت طويلا أن أسمع منك ذلك حتى كدت أيأس منك ، أشهر مرت وأنا أنتظر !

ـ لم أتصور أن يكون للاعتراف كل هذه الأهمية .

ـ بل إنه يقطع بأنك دخلت التجربة وأنت لا تدرى وأن إرادتك بدأت تعمل .

فشملنى سرور صبيانى ، أما هو فواصل :

ـ كنا شابين مجتهدين فقيرين ، هدفهما عمل يوفر الرزق . وثقافة تثرى الحياة ، ماذا حدث بعد ذلك؟

قلت بلا تردد :

ـ توظفت ، تزوجت ، أنجبت ، واصلت حياتى الثقافية ، حققت الحلم كما ترى .

لم يعلق بكلمة ، فقلت :

ـ ثم قدمت استقالتى من الوظيفة .

لزم صمته دون دهشة أو تساؤل فأدركت أنه يأبى مساعدتى ليتوكد من صدق رغبتى . قلت :

ـ الحقيقة أننى اضطررت إلى الاستقالة .

لم يتأثر حياد وجهه فقلت :

ـ كنت مراجعا بحسابات الأشغال، وكان مقاولا ممن يتعاملون مع الوزارة، ندت عنه كلمة فوجدتنى أمام إغراء لم يعرض لى من قبل، اقتلعنى من مستقر حياتى، اكتشفت أننى أنطوى على رغبات أخرى غير الثقافة والسعادة البريئة، ثمة حياة أفضل، ترددت طويلاً ثم مددت يدى، وكان لى منطقى أيضًا المستمد من مناخ فاسد، وتوهمت أننى أطبقه بحرية كاملة.

حولت عينى إلى الأمام وقلت:

ـ الانحدار لا يعرف التوقف، فاحت الرائحة، لا أطيل عليك، اضطرونى إلى تقديم استقالتى على سبيل العطف.

عطفت إليه عينى فكأنما لا يسمع ما يقال. قلت:

ـ وجدتنى مهدداً بالجوع فكدت أجن لولا أن ألحقنى المقاول بمكتبه.

هل أكتفى بهذا القدر؟ ماذا يغنى عن التراجع؟ وساد الصمت حتى قال بلا اكتراث:

ـ عرفت قبلك مشقة الصدق.

كأنما يقرأ أفكارى. وقلت مستهترا:

ـ اعترضتنى أزمة لعينة!.. (ثم بعد صمت).. عشق المقاول راقصة أجنبية، لم يكن من الميسور فى ذلك الوقت أن تمد إقامتها فى مصر ما لم تتزوج من مصرى.. (ثم بعد صمت).. قبلت أن أتزوج منها سرّا نظير هبة مالية محترمة.

شعرت بإعياء فطال صمتى حتى تساءل:

ـ بتلك الهبة فتحت مكتب الاستيراد؟

فقلت بنبرة مرهقة:

ـ بدأت بالتهريب نظراً لتشدد القوانين فى تلك الأيام، ثم فتحت المكتب بعد ذلك، ثم انفجر النجاح بعد الانفتاح حتى بلغت ثروتى السائلة خمسة ملايين من الجنيهات.

شملنا صمت ثقيل فوجدت تعزية فى صفحة وجهه الذى لم يخرج عن حياده التام. وقال بهدوء:

ـ أشياء تحدث، كثيراً ما تحدث، أما الاعتراف بها فلا يحدث أبداً.

فتمتمت:

ـ إنها نسافة مثل الديناميت.

ـ الديناميت لا يهم من يرغب فى دخول التجربة، وسوف تجد فى يومياتى خطايا كثيرة.

ـ هل تأذن الآن فى إطلاعى عليها؟

ـ لا علاقة بين هذا وذاك، ستجدها بين يديك فى الوقت المناسب لا قبل ذلك.

فشبكت يدى فى بعضهما وقلت:

ـ أخاف على أسرتى من قرارات قد أتخذها يوما فيرونها جنونية.

فقال باسمًا:

ـ عندما تصبح قادراً على اتخاذها فلن تزعجك المخاوف.

ـ يجب أن أصمد حتى النهاية.

ـ فى الإنسان قوى لا حدود لها، ثق بذلك.

فقلت متأسفًا:

ـ مرضى يشككنى أحيانا فى قيمة رغبتى، أريد أن أختبر نفسى وأنا صحيح معافى.

ـ تفكير تستحق من أجله الثقة، ولكن المرض وحده لم يكن ليغيرك.

فداخلنى ارتياح وسألته:

ـ أمن الصواب أن أسألك الإرشاد عند الضرورة؟!

ـ كان لى مرشد أيضًا، المعاونة مهمة وضرورية.

فازددت ارتياحا ثم خطر لى خاطر فسألته:

ـ هل نجحت مع أسرتك؟

ـ لدرجة كبيرة، لا تنس أن النساء تستغرقهن الغايات اليومية ولكنهن فى النهاية يشاركن الرجال فى أعماقهن الإنسانية.

ـ أظن أنه يجب أن أربى نفسى أولا قبل أن أكر عليهم؟

فهز رأسه نفيا وقال:

ـ من الضرورى أن تسبقهم بالرغبة والخطوات الأولى، ثم عليك أن تشركهم فى التجربة، فالمقاومة الأولى مهمة جدّا بوصفها مقويا لا غنى لك عنه، ثم يجىء التعاون المثمر، تذكر دائمًا أن عملنا تعاونى وليس فرديا.

فتمتمت فى حيرة:

ـ إنهم فى واد بعيد.. بعيد..

ـ انتشلهم من الفراغ وادفعهم إلى العمل، هذه هى الخطوة الأولى.

فتساءلت فى دهشة:

ـ أنسيت ما قلت مراراً عن التحرر من العمل؟

فقال بوضوح:

ـ نحن في مرحلة العمل، ولن نتحرر من العمل إلا بالعمل، والفراغ المنشود هو الفراغ المثمر الحافل بالعمل الإنسانى، وقد أقنعت زوجتى ـ وهى تماثل زوجتك فى تعليمها ـ بالعمل عضوا فى جمعية رعاية الأيتام، ابنتى الكبرى ست ومربية وهو عمل، أما الأخريان فستكونان طبيبتين.

ـ المشكلة العسيرة هى وفيق فهو يعتقد أن عمله غاية الغايات.

فقال بأسى:

ـ إذا رأينا العمل نشاطا منتجا لخدمة الفرد والجماعة فوفيق عاطل بلا عمل، الأدهى من ذلك أنه يقوم بنشاط مخرب، وهو أشبه بتجار الحبوب المخدرة القاتلة!

بذلك كشف عن رأيه فى عملى أنا أيضًا فليس وفيق إلا امتدادًا لى. أخذت لحد الفزع ولكنى قلت:

ـ أمره هين على رغم ذلك.

ـ كيف؟

ـ إنى صاحب المال، وأستطيع إرغامه على التحول إلى النشاط الإنتاجى!

فهتف:

ـ احذف «الإرغام» من قاموسك، لا تتبع طريق الحكام الذين يمهدون للديمقراطية بمناهج دكتاتورية، أو يحققون العدل بالظلم، إنه طريق سهل لأنه يقوم على القوة لا التربية.

وصمتنا ولكننا واصلنا تبادل الأفكار بالنظرات حتى اقتحمنى خاطر كما يقتحم القذى فقلت:

ـ سوف ألقى من المجتمع حرجا أشد!

فوافقنى بهزة خفيفة من رأسه فقلت:

ـ طالما عددت من العمد المرضى عنها.

فقال بوضوح:

ـ لن يتيسر لك السير إلا بقهر الكذب والخوف.

١٢

مضى الشتاء وأنا أحاول لأول مرة الكتابة، كتابة المذكرات لم أكن أتذكر إلا المعالم التى لا تنسى وهى قليلة، ولكن التداعى استنقذ من العدم كهوفا مطمورة. وعن سياستى

مع أسرتى فقد دأبت على عرض آراء صديقى وكأنما أقصد تسليتهم ليس إلا . وأجاريهم فى اتهامه بالخبل ولكنى أقول أحيانا :

ـ حقًا إنه مخبول ولكن خبله لا خطر منه ، ثم إنه لا يخلو من حكمة ، أليس من المهم أن يقوى الإنسان إرادته ليحظى بحريته الحقيقية؟ وأليس العمل المنتج خيرًا من النشاط الانتهازى؟!

وأثنى جلال على منهجى ، ووصفه بأنه منهج «تسللى» ذو أثر فعال مع التكرار والصبر ، والإصرار حيال ضجر الآخرين .

وقلت له يومًا بشأن مذكراتى :

ـ لم أستطع حتى الآن تسجيل واقعة زواجى من الراقصة الأجنبية!

فقال بامتعاض :

ـ يسوءنى أن أسمع ذلك ، إن كذبة واحدة تقوض البنيان من أساسه .

ـ لا يعلم به إلا ثلاثة ، المرأة وقد طلقت من زمن وغادرت البلاد ، أما أنا والمقاول فلنا مصلحة واحدة فى إخفائها ، وهى كفيلة إذا عرفت بالقضاء على فى الأسرة والمجتمع .

ـ التسجيل مهم لتربيتك أنت أما النشر فلا أهمية عاجلة له .

ـ قد تطلع عليه الأسرة بعد وفاتى؟

ـ إذا نجحت فى تغيير الأسرة قرأتها بعين جديدة لا خوف عليك منها .

بدأت ـ على رغم اهمامى الظاهر ـ كمن يمارس تسلية ممتازة فى سجنه ولكنها مضت تنشب فىّ أناملها الناعمة بلا توقف .

١٣

فى ليلة من ليالى الشتاء الملتحمة بالربيع استمعت إلى ألحان شرقية قديمة بعمق وتركيز اكتسبتهما أخيرًا ثم أطفأت النور مستقبلا نوما مريحا . كانت أفكار ونبيلة ووفيق فى الخارج كالعادة وسرعان ما استغرقت فى النوم . ولكننى انتبهت من نومى مكللا بشعور بأننى لم أنم إلا قليلاً وأن الصباح ما زال بعيداً . طالعتنى ظلمة مكثفة بالستائر المسدلة فأغمضت عينى غير أننى سرعان ما فتحتهما استجابة لصوت غريب يشبه الحفيف . تخايل لعينى شبح إلى يمين الباب فتساءلت :

ـ أفكار؟

لكنه لم يرد ولم يتحرك. عجبت لرؤيته رغم الظلمة الكثيفة، حملقت فيه متلقيا دفقة من القلق والخوف. مددت يدى نحو ظهر الفراش حتى عثرت على زر الجرس ثم ضغطت عليه طويلاً وقد ضاعف عجزى من خوفى. سيسمع الخدم، وعسى أن يكون وفيق قد رجع. ولما طال الانتظار تسللت يدى الأخرى نحو زر الأباجورة وضغطت مجازفا بالمواجهة ولكن المصباح لم يضئ. هل احتاط الشبح وقطع التيار الكهربائى؟ أخرجنى الخوف من صمتى فتساءلت:

ـ من أنت؟

ثم مستمرا بصمته.

ـ ماذا تريد؟.. ليس فى الحجرة نقود!

وإذا بشبح ثان يتراءى لى إلى يمينه أطول منه بقبضة يد. اندفعت صارخا مناديا وفيق ولكن صوتى لم يخرج. لعله الخوف أو الشلل. وسيطر اليأس. وإذا بثالث يقف إلى يمين الثانى على مبعدة مترين من مقدم السرير، وإذا برابع يتجلى رغم الظلمة وهو أضخم الأربعة وأطولهم. امتلأت بوحدتى وعجزى ويأسى المطلق. تساءلت باستسلام:

ـ ماذا تريدون؟

فجاءنى صوت خيل إلى أننى لا أسمعه لأول مرة يقول:

ـ من حفر حفرة لأخيه..

فقلت بحرارة:

ـ أى حفرة؟.. إنى طريح الفراش منذ حوالى عام.

فقال الصوت بغضب:

ـ كففت عن الحركة لا التآمر!

ـ والله لا أدرى لقولك معنى..

فقال بحدة:

ـ لا تدع البراءة وأنت عريق فى الإجرام.

ووثبوا وثبة واحدة. اثنان إلى يمينى ويسارى، والآخران فوق الفراش. أيقنت بالهلاك فتوترت أعصابى لأقصى حد. قبض الأولان على ذراعى فاندفعت أقاومهما بعنف لأخلص ذراعى، متوقعا فى الوقت نفسه هجمة من الأمام. ووقع الهجوم فاستمددت من اليأس قوة. خلصت ذراعى ورحت أضرب كيفما اتفق فى جميع الجهات وأتلقى من اللكمات ما لا يعد. ازددت عنفا، ثم بلغت الرغبة فى الحياة ذروتها فطرحت

عن صدرى الرجلين وتبادلت مع الآخرين ضربا لا يعرف الهوادة. وسقط رجلا الفراش على الأرض ولكن كيف سقطا؟

تبين لى أننى دفعتهما بقدمى!

ذهلت من الفرح رغم كربتى واجتاحنى الشعور بالشفاء من العجز.

ازددت قوة وثقة حتى استطعت الوثوب إلى الأرض. وقفت أقاتل بقدرة كالإلهام بعد حدوث المعجزة، ووضح أنهم أضعف مما تصورت وأنهم عزل من السلاح. تقهقروا نحو الباب وأنا أتعقبهم باللكمات الصادقات حتى بلغنا الصالة الخارجية. ودوت صرخاتى الغاضبة وهم يولون الفرار.

١٤

شع الضوء فبهر عينى.

وقفت مذهولا بين أفراد الأسرة والخدم. هتفت نبيلة:

ـ شفيت يا بابا.

وتمتم وفيق:

ـ كابوس!.. ولكن شكرا له!

وقالت أفكار:

ـ علينا باستدعاء الطبيب فى الحال.

رجعت إلى الفراش ماشيا فى حذر، وشملتنى مع الذهول فرحة طاغية، وجعلت أقول:

ـ لا أصدق ولا أتصور..

وقهقهت أفكار متسائلة:

ـ ماذا رأيت فى نومك؟!

١٥

جمعنا لأول مرة بهو الاستقبال. قلت:

ـ أكد لى الدكتور صبرى حسونة أنه كان يتوقع لى الشفاء.

فقال جلال أبو السعود :

ـ أنا لا أصدقه تماماً .

ثم حدثته بالتفصيل عن الحلم فأوله بأنه ترجمة حرفية لآلام الشفاء .

ـ تأويل معقول فيما أرى .

فقلت بإصرار :

ـ أعتقد أن الحلم هو كل شيء .

فتفكر قليلاً ثم قال :

ـ بين الحقيقة والخرافة خيط رفيع فاحذر أن تقصفه .

فتساءلت :

ـ ألا تؤمن؟ . . .

فقاطعنى :

ـ أود أن تركز على إرادتك الحرة .

فقلت له بإصرار :

ـ الأمر يتعلق بآمال الإنسان فى الحياة وما وراء الحياة .

فقال بهدوء :

ـ طريقنا منهج ينتفع به المنتمى واللامنتمى على السواء .

ـ طالما قنع إيمانى بالقشور وأريد أن أعيد النظر فى موقفى .

فقال باسماً :

ـ وهى وحدة حتمية إلى إعادة النظر بعد تنقيته من العبودية والذاتية .

فقلت برجاء :

ـ أرجو ألا تضجر منى .

ـ سأنتفع بك بقدر ما تنتفع بى .

وخطر لى خاطر فقهقهت قائلاً :

ـ أسرتى سعيدة بشفائى ولكنها لا تدرى شيئًا عما ينتظرها من متاعب .

فضحك قائلاً :

ـ العبرة بالخواتيم !

وكنت فريسة للقلق مما بدا أثره فى حركات يدى ونبرات صوتى . ولحظت أنه يرنو إلى يدى بعمق فقلت كالمعتذر :

ـ إنه ما يسبق الميلاد .

قرار فى ضوء البرق

١

مصرع عصمت البطراوى أشد الجرائم إثارة فى زمن مضى. بادرت إلى فيلته بعمارة النيل فى صحبة كبار رجال الأمن، استجابة لبلاغ ورد لنا من ابنه الشاب الجامعى أمين البطراوى. وجدنا السياسى العجوز منطرحا فوق مقعد كبير بحجرة الاستقبال والدم ما زال ينزف من رأسه وقد تحول إلى جثة هامدة.

هكذا انتهى الجبار الذى أدمن الكاريكاتور المصرى تقديم شخصه ـ إبان عهده ـ فى صورة سفاح ذى صلعة على هيئة بحيرة من الدم. لم يكن ثمة أثر لمقاومة، ولم يسمع الخدم حركة ولا صوتا، فقد قتل غدرا وهو سابح فى هدوء الشيخوخة، وهذه أداة القتل ملقاة على حجره ملوثة بدمه، تمثال برنزى لرياضى إغريقى، وبالتدقيق فى التنقيب عثرت على زرار فوق السجاة وراء المقعد مباشرة. زرار لبنى ذى مركز ضارب للسواد. ولما كانت زراير بدلة الفقيد كاملة العدد فقد احتفظت بالزرار بعناية.

يبدو أن الجريمة ارتكبت فى الساعة الحادية عشرة أو بعدها بقليل، وبالفيلا وقتذاك الطاهى والسفرجى ومدبرة البيت، إذ إن الرجل أرمل منذ سنوات. وقد تلفنوا بالخبر إلى أمين فى النادى الذى أبلغنا من فوره. وكان من عادة الرجل أن يغادر مسكنه فى التاسعة صباحا فيمضى ماشيا إلى كازينو الشاطئ حيث يلبث ساعة ثم يرجع ماشيا أيضا. وهو يدخل المسكن بمفتاح خاص فلا يشعر به أحد غالبا، وهو ما حدث صباح اليوم. غير أنه قابل المدبرة فى حجرة الجلوس وقال لها: «يبدو أن أمين ذهب إلى النادى»؟

فأجابت بالإيجاب فأمرها بإعداد فنجانين من القهوة وذهب. استنتجت المدبرة أنه رجع بصحبة ضيف، ودهشت لذلك، إذ إنه لم يحدث من قبل، وهو يمضى أمسياته فى النادى مع القلة الباقية من أصدقائه القدامى المعروفين. وجميعهم قد جاوزوا السبعين أو شارفوا الثمانين. ولما ذهب السفرجى بالقهوة إلى حجرة الاستقبال رأى سيده قتيلا فصرخ معلنا الجريمة لأول مرة.

إذن قد ارتكبت الجريمة بسرعة نادرة وجرأة متهورة ثم تسلل القاتل خارجا. وبالبحث أيضا تبين أنه لم يسرق شيئا، لا من الرجل ولا من المسكن. وقال لى رئيسى همسا:

ـ القاتل من معارف الفقيد.

فوافقت من فورى فقال :

ـ طريقة القتل تقتضى قوة فلنستبعد الأصدقاء القدامى فضلا عن سخف التصور لأكثر من سبب .

فوافقت من فورى أيضا . .

فاتجه نحو أمين البطراوى وسأله :

ـ من فى تصورك يمكن أن يصطحب المرحوم إلى هنا؟

ـ لا أحد فيما أعتقد .

ـ ألا يزور البيت أحد من خارجه؟

ـ أصدقاؤه القدامى فى ظروف نادرة مثل المرض أو الولائم . عدا ذلك فهم يتلاقون فى النادى مساء كل يوم تقريبا . .

ـ وغير أولئك ، أليس لك أنت أصدقاء أيضا؟

ـ بلى ، لى صديقان حميمان وزميلان فى كلية الحقوق لكنهما لا يدخلان البيت إلا بصحبتى ، وفضلا عن ذلك فنحن نتلاقى عادة فى النادى . .

تكلم بلهجة رافضة كل الرفض للشك فيهما ، فسألته :

ـ هل يعرفهما المرحوم؟

ـ قدمتهما له بطبيعة الحال ورآهما أكثر من مرة معى هنا .

ـ هلا حدثتنى عن ميولهما السياسية؟

ـ جلال حمزة وطنى لا لون حزبيا له ولكنه رافض . .

ـ رافض؟!

ـ أعنى ينتقد كل شىء!

ـ الآخر؟

ـ على فؤاد . .

وتردد قليلا ، ثم قال :

ـ ديموقراطى . .

ـ البلد كله ديمقراطى . .

لكنه لم يزد على ذلك شيئا فحدجنى الرئيس بنظرة خاصة فحواها الاهتمام بهذا الجانب . وعندما خلوت إليه ، عقب التحقيق مع الخدم الذى لم يسفر عن شىء ، قلت :

ـ السياسى المعتزل لا يقتل بسبب السياسة . .

فقال بغموض :

ـ احذر القواعد ، والآن حدثنى عن برنامج تحرياتك .

فأجبت من فورى :

ـ ثمة أماكن مهمة مثل كازينو الشاطئ ، النادى ، بواب العمارة ، حتى الأصدقاء القدامى لا أحذفهم من برنامجى . .

٢

أما البواب فلم يشهد عودة عصمت البطراوى وبالتالى فإنه لم ير من كان بصحبته . وذهبت إلى كازينو الشاطئ حوالى الثانية بعد الظهر ومعى صورتان لجلال حمزة وعلى فؤاد حصلت عليهما من أمين البطراوى مع عنوانى مسكنيهما . فى الكازينو ساءلت المدير والجرسون بشير وماسح الأحذية . كان الخبر قد طار إلى الكازينو ولاحظت أن بشير كان أشد الجميع تأثرا به ، ثم علمت منه أن الفقيد هو الذى ألحقه بالعمل . ووافتنى معلومات لا بأس بها . فعلى فؤاد وجلال حمزة معروفان لدى بشير وحسونة .

ـ على فؤاد من زبائن الكازينو ، يمر بنا كل صباح تقريبا فى هذا الوقت من العطلة . .

وقال بشير :

ـ وأحيانا كان يتبادل التحية مع عصمت البطراوى ، وفى هذا الصباح بالذات تصادف قيامهما فى وقت واحد فغادرا الكازينو متصاحبين . .

تحركت غريزة المطاردة وطالبته بإعادة الشهادة غير أن حسونة قال :

ـ كنت فى ذلك الوقت راجعا من مشوار فرأيت الأستاذ على فؤاد وهو يودع المرحوم ويمضى إلى كشك السجائر .

ـ لعله لحق به بعد ذلك؟

ـ لم أر شيئا فقد دخلت من فورى الكازينو . .

ولكن شهادة بياع السجائر كانت قاطعة فقد شهد بأن على فؤاد سار فى اتجاه مضاد لطريق البطراوى المتجه نحو الجسر ، وفضلا عن ذلك فقد قال عن عصمت البطراوى :

ـ وقد لمحته من موقفى وهو يلتقى عن بعد بشخص ما سار بصحبته . .

وعرضت عليه صورة جلال حمزة ولكنه قال :

ـ لم أتبينه ولم أعن بالنظر إليه . .

أما عن جلال حمزة فهو لا يغشى الكازينو إلا فى النادر . ولكنه جاء الكازينو منذ قليل . .

كان مضطربا ، وهو الذى أبلغنا بخبر الجريمة ، وسألنا إن كان الفقيد قد صحب أحدا معه ، فأفضينا إليه بما قلناه الآن . .

وساءلت نفسى أكان جلال يحقق إسهاما منه فى الكشف عن قاتل والد صديقه؟ أم كان وراء ذلك باعث آخر؟

وانتقلت إلى النادى ، وبسؤال أصدقاء أمين البطراوى من الأعضاء عرفت كيف تلقى الشاب الخبر . ومتى جاء على فؤاد للقاء أمين فى الساعة الثانية عشرة فعرف بالخبر ، وكيف جاء جلال حمزة فى منتصف الواحدة تقريبا فدهمه الخبر . وسألت :

ـ هل من عادتهما المجىء إلى النادى فى موعد محدد؟

فكان الجواب ألا ميعاد محددا لهما فى ذلك وأنهما قد يتخلفان بعض الأيام . وبرجوعى إلى مكتبى تلقيت من مساعدى تحرياته عن الميول السياسية للشابين ولكنى لم أقتنع بالباعث السياسى أصلا كما قلت لرئيسى .

٣

كان على فؤاد يقيم فى شقة متوسطة بالجيزة مع أسرته . وقد فتشنا الشقة ولم نعثر على شىء ذى بال . حتى الكتب لا مغزى لها فقد كان طالبا بكلية الحقوق وكان طبيعيا أن تحوى مكتبته كتب الاقتصاد على اختلاف مذاهبها . عن علاقته بأمين سألته ، وعن معرفته بأبيه . عن عقيدته السياسية فلم ينكرها وقال باسما :

ـ إنها معروفة كالاسم والسن!

ـ شوهدت وأنت تغادر الكازينو بصحبة الفقيد هذا الصباح؟

ـ هذا حق . . ولكنى ودعته على بعد خطوات من الباب . .

ـ أين ذهبت بعد ذلك؟

ـ إلى كشك السجائر . ثم قابلت صديقا ثم ذهبت إلى النادى . .

ـ قيل إن البطراوى قابل شخصا آخر فى طريقه، هل اتفق لك أن رأيته؟

ـ كلا. سرت فى الطريق المضاد..

ـ قيل إنك أحد اثنين يزوران مسكن الفقيد فى أى وقت؟

ـ غير صحيح. ولكنى أزور المسكن بصحبة صديقى أمين.

ـ أكنت تحب عصمت البطراوى؟

ـ لم أكرهه على أى حال.

ـ أليس المتوقع أن تكرهه بسبب ميولك السياسية؟!

ـ لم يعد الرجل إلا ذكرى فضلا عن أننى كنت أنظر إليه بعين مودة لعلاقتى الوثيقة بأمين..

ـ متى قابلت صديقك جلال حمزة هذا الصباح؟

ـ لحق بى فى النادى فى الواحدة أو قبل ذلك..

كان واضحا هادئا ولم أجد ما يحملنى على الشك فيه.

٤

وكان جلال حمزة يقيم فى شقة صغيرة بعابدين وحده. إذ إن أهله مقيمون فى بنى سويف. وعندما علم بأمر التفتيش استاء وتساءل محتجا:

ـ لماذا؟

من أول نظرة أدركت أنه مهزوز الشخصية ولكنى توفرت بكل همة على التفتيش. وبوجه خاص الملابس. وفى الحمام رأيت بدلة بيضاء منقوعة فى طشت غسيل. وبفحص الزارير وجدت زرارا ناقصا. وبمضاهاته بالزرار الذى عثرت عليه فى حجرة استقبال البطراوى وجدته مطابقا. اقتحمنى شعور بالفوز.

ـ متى نقعت هذه البدلة؟

ـ أمس..

ترى هل خامره شك؟!

ـ تنقص زرارا.

ـ ربما.

ـ مثل هذا الزرار؟

وأريته بالزرار. قطب فى عصبية وقال:

ـ توجد آلاف منها فى السوق، وهى نفس زراير بدلتى الأخرى..

ـ هذا حق، وقد وجدت هذا الزرار وراء مقعد عصمت البطراوى..

فتساءل بحدة:

ـ هل تتهمنى؟

ـ معاذ الله، متى بدأت صداقتك مع ابن القتيل؟

ـ منذ عشرة أعوام.

ـ عرفت القتيل؟

ـ قدمنى إليه.

ـ ولكنك كنت تعرفه من قبل؟

ـ ماذا تعنى؟

ـ كل الناس كانت تعرفه.

ـ طبعا.

لعلك كنت من المعجبين به؟

ـ كـلا.

ـ صديقك يعرف ذلك؟

ـ نعـم.

ـ إذن كنت من أعدائه؟

ـ أجل!

ـ قلت عنه مرة إنه المدرسة التى تخرج فيها كل من استبد بهذا الشعب أو نكل به..

ـ من قال ذلك؟

ـ لنا تحرياتنا.

ـ على أى حال فهذا رأيى حقا.

وتساءلت مصطنعا الثقة فى نبرتى:

ـ هل رأيت الرجل صباح اليوم؟

تردد لحظات ثم قال:

ـ نعم، على مبعدة غير قصيرة من كازينو الشاطئ. . صافحته، سايرته أمتارا ثم استأذنت منصرفا إلى طريقى. .

ـ رآك أناس من رجال الكازينو؟

ـ ربمـا. .

وقلت مغامرا:

ـ ورآك بواب العمارة. .

فقال بحدة:

ـ غير ممكن، لقد تركته قبل ذلك بمسافة طويلة. .

تمنيت أن يسهو فيقع فيقول مثلا: إن البواب لم يكن موجودا ولكنه فيما بدا لى حاذق أو صادق. والحق، وعلى رغم كل شىء ـ قوى الشك فيه عندى. سألته:

ـ مضت ساعتان أو أكثر بين مقابلتك الرجل. وذهابك إلى النادى، كيف أمضيتهما؟

ـ عادة أتسكع، وأحب مشاهدة صيد السمك. .

ـ فى ذلك الوقت قتل البطراوى. .

فقال بحنق:

ـ ليرحمه الله.

ـ كيف فسرت الجريمة لدى علمك بها؟

ـ لم أجد سببا واحدا يبررها. .

ـ ألم يخطر ببالك أن يكون وراءها سرقة؟

قطب قليلا ثم قال:

ـ السرقة لا تحدث عادة فى النهار. .

ـ القتل نفسه حدث. .

فلم يحر جوابا، فقلت:

ـ إذن اتجه تفكيرك نحو السياسة؟!

ـ لم أقل ذلك، ولا هو بمعقول. .

ـ لمـاذا؟

ـ لا يفكر أحد فى اغتيال سياسى معتزل. .

ـ حتى لدى من عاش دهرا وهو يحلم بقتله؟

ـ من هذا؟

ـ كثيرون جدا تمنوا ذلك .

فصمت وقد بدا عليه إنهاك فقلت :

ـ أستأذنك الآن فى استعارة البدلة المنقوعة بعض الوقت . .

فحدجنى بذهول ثم تمالك نفسه فقال منفعلا :

ـ خذنى إذا شئت داخلها!

٥

وبينا كنت أحاور شكوكى فى جلال حمزة دهمنى خبر من شأنه أنه يقلب الموقف رأسا على عقب . عرفنا أنه اكتشفت وصية للمرحوم ، يوصى فيها بثلث ثروته للجرسون بشير . ومن فورى أبلغت رئيسى . ومن عجب أنه لم يسر . قال بفتور :

ـ جرسون؟! . . أله نشاط سياسى؟!

من تغير نبرات الصوت أدركت أن «شيئا ما» يدبر وراء الكواليس ، ولكنى قلت :

ـ إنى ماض للتحقيق .

فقال بامتعاض :

ـ أخشى أن نخوض علاقات شخصية وأخلاقية . .

إنى لم أفهم لغة رئيسى . لقد أدركت أن ثمة رغبة لاستغلال الجريمة استغلالا سياسيا ، لأسباب سياسية لا تخفى . تجاهلت ذلك . وسرعان ما استدعيت بشيرا واستجوبته بكل دقة . علما بأن وجوده فى الكازينو ساعة ارتكاب الجريمة أمر مؤكد . ومنه علمت أن أمه هى التى استشفعت بعصمت البطراوى ليلحقه بعمله فى الكازينو ، عمل ممتاز ووفير الربح . وزرت الأم فى حجرتها الوحيدة بعزبة العجوزة . عجوز جاوزت الستين ولكن وجهها يشى بأصل جميل .

ونجحت فى استدراجها للاعتراف بحقيقة مذهلة ، وهى أن بشير ابن غير شرعى للبطراوى ، وأن الفقيد علم بالحقيقة فى حينها . ولم نعثر على شبهة أو قرينة تدين الأم أو ابنها . ولما عرضت نتيجة التحقيق على رئيسى تهلل وجهه ، وسرعان ما أمرنى بالانصراف .

تخيلت ما يدور فى الحجرة المغلقة من اتصالات تليفونية وتدبيرات جهنمية .

وتسلمت الموضوع إدارة أخرى. وإذا ببيان يعلن فى الصحف مصورا مقتل البطراوى كجريمة سياسية متهما جماعة متطرفة، وذلك من خلال حملة إعلامية موجهة بضراوة نحو تلك الجماعة، وسبق ذلك حادث غريب وهو القبض على علي فؤاد ضمن عشرات من الأفراد الأبرياء. تابعت ذلك كله بكآبة شديدة وفى تأزم عنيف رغم بعدى عنه كلية، وقلت لرئيسى:

ـ ما زال اتهام جلال حمزة هو الراجح عندى..

فصاح بى وبغضب متسائلا:

ـ أبينك وبينه ثأر قديم؟

فقلت بوضوح:

ـ إنه مجنون أو نصف مجنون، إنى أعرف هذا النوع جيدا.

فصاح بى:

ـ لم يعد الموضوع من اختصاصك.

٦

قررت أن أرجع البدلة إلى جلال حمزة بنفسى. الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. نمى إلى علمى ما يلقاه المقبوض عليهم من ألوان التنكيل والتعذيب حتى حدث ما يعد كارثة. كارثة بكل معنى الكلمة. طويت نفسى على آلامها وذهبت إلى مسكن جلال حمزة.. استقبلنى بوجه أنهكه الإرهاق فبدا مثل شبح. تظاهرت أمامه بالمرح وقلت:

ـ دعنى أرد إليك بدلتك مصحوبة بالاعتذار!

وترامقنا فى جو مشحون بالتوتر. ثم تساءلت:

ـ ألا تدرى أننى شككت فيك من أول نظرة؟

فتساءل ببلاهة:

ـ أول نظرة؟

ـ كما يوجد حب من أول نظرة يوجد شك من أول نظرة.

فقال بسخرية:

ـ إنك رجل ملهم!

ـ وها هى ذى الحوادث تؤكد خطأ ظنى . .

فصمت، فقلت :

ـ حسبنا أن المجرم الحقيقى قد اعترف، طبعا علمت بذلك؟

ـ مثل جميع قراء الصحف .

ـ إنه صديقك .

ـ شخص لا يمكن أن يقتل .

ـ القتل أبسط مما تتصور .

فتردد قليلا ثم تساءل :

ـ ثمة إشاعة متطايرة تقول إنه وبعض زملائه قد قتلوا وهم يحاولون الهرب . .

كنت قد عرفت ذلك، ولكنى قلت :

ـ لا أستبعد أن تقع حوادث من هذا النوع .

وساد الصمت وعدنا للترامق فى توتر حتى قلت بهدوء وبدافع من مجازفة لا تقاوم :

ـ أصارحك بأننى ما زلت أومن بأنك القاتل . .

تضاعف توتره وثار غضبه، فقلت متماديا فى الانتقام منه ومن نفسى ومن الدولة :

ـ أتخيل ما حصل على الوجه الآتى : قابلت عصمت البطراوى بعد أن تركه الشهيد على فؤاد، تصافحتما، سايرته منجذبا إلى قطعة من التاريخ المثير، لعلك صحبته إلى البيت بزعم إدراك أمين قبل ذهابه إلى النادى. دخلتما الشقة دون أن ينتبه لكما أحد، مضى الرجل ليسأل عن ابنه ثم رجع، قتلته ثم تسللت خارجا، رجعت إلى مسكنك، خلعت ملابسك، نقعت البدلة من الفطنة، ثم ذهبت إلى النادى لتتشمم الأخبار، ثم إلى الكازينو لترى إن كان أحد رآك فى صحبة الرجل، ما رأيك؟

صاح جلال بسخرية وهو ينتفض على رغم ذلك :

ـ برافــو!

ـ تتظاهر بغير ما فى باطنك، إنك ضعيف هزيل، وها أنت ذا تشهد مصرع عشرات الأبرياء بسببك، إلى متى تحتمل ذلك؟

فصاح بسخرية :

ـ افترضنى بلا ضمير مثل حكومتك العريقة . .

فرمقته بازدراء وقلت :

ـ إنك مطمئن الآن فى حماية الحكومة، تعلم أنها لا تستطيع أن تتهمك وإلا اعترفت بقتل العشرات بلا جريرة.

ـ فكرة جميلة، مجرم يجد حمايته فى ظل حكومة أوغل منه فى الإجرام.

وبغتة تلاشت سخريته وكأنما جفت حيويته وخمد. انتقلنا إلى جو مشحون بيأس الاعتراف.

سألته بهدوء:

ـ أليس تصورى صحيحا؟

فصمت صمت الموافقة والتسليم، إنه يلتمس قطرة من العزاء. سألته:

ـ أكنت تضمر الرغبة فى قتله؟

هز رأسه نفيا فسألته:

ـ متى انبثقت فى وعيك فكرة القتل؟

لم يتكلم ولكنه ضرب يده بالأخرى ضربة سريعة واحدة فترجمتها متسائلا:

ـ فجأة!

تكلم بصوت ضعيف:

ـ وأنا أنصرف من الحجرة.. قمت وليس فى ذهنى إلا الذهاب، مضيت من وراء مقعده، تركز بصرى فى صلعته، انتفض جسمى، بغتة اجتاحتنى فكرة القتل..

عدنا للترامق. مرق فجأة من حال الاستسلام. برقت عيناه بجنون، صاح:

ـ أتحداك أن تعلن اعترافى!.. ما أنت إلا وغد مثلهم!

غضبت بدورى. كورت قبضتى فى وجهه مقاوما رغبة مرعبة فى تحطيمه، صمتُّ.

ـ جبان كذاب.. تعال إلى مكتبى واعترف رسميا ولترين ما أفعل..

اندفع يضحك بجنون حتى تصورت أنه فقد ذاته فغادرت مسكنه مشتت الخاطر ممزق القلب.

٧

بلغ بى التهور فى التفكير حد مناقشة فكرة قتل جلال حمزة متحديا العواقب كافة. ولكنى سرعان ما اقتنعت بسخف الفكرة فالمهم حقا هو كشف النقاب عن جريمة

الحكومة . ولم يطل بى التفكير إذ اقتحم جلال حمزة حجرتى ذات صباح مجللا بالانهيار الكامل . أدركت فى الحال أنه ـ حتى على رغم جنونه إن صح أنه مجنون ـ يشاركنى فى امتلاك ضمير معذب . وسرعان ما أملى على اعترافه ثم وقع عليه بإمضائه . ألقيت القبض عليه ورحت أفكر فى الأمر . إنى أعرف تماما خطورة ما أنا مقدم عليه . إنه لا يهدد مستقبلى فقط ولكنه يهدد حياتى أيضا .

وإذا بقوة عنيفة تتفشى فى وعيى خليقة بأن أتحدى بها الجبال . من خلال لحظة مقدسة رحبت بالاستشهاد وغرست بذرته فى نفسى لينمو شجرة خضراء وهلاكا أصفر . إنها لحظة لا تنسى تحتوى الإرادة مثل إلهام خالد . وفى الحال قصدت رئيسى وقدمت له الاعتراف . مضى يقرأ بهدوء أول الأمر . ثم أخذ وجهه يصفر وشفتاه تتشنجان . ثقبنى بنظرة مقت ثم هتف :

ـ إنه مجنون بلا أدنى شك !

فقلت بهدوء :

ـ فلتر النيابة فيه رأيها !

فصرخ :

ـ إنك مجنون مثله !

ثم بنبرة وعيد :

ـ إذا تسرب النبأ فستكون أنت المسئول عن ذلك !

وأمرنى بالانصراف بعد أن أعطانى مفتاحا للخروج من الأزمة . وفى الحال اتصلت بصحفى أعرفه من صحفيى المعارضة ، وذهبت إلى بيتى مرتاح البال لأول مرة منذ مصرع عصمت البطراوى .

* * *

لم يكن مفر ، عقب انفجار الخبر فى الرأى العام ، من التحقيق مع جلال حمزة ، وقد حول إلى الطبيب الشرعى الذى قرر جنونه فأودع فى مصحة الأمراض العقلية . وشككت صحف المعارضة فى القرار الطبى ، وحملت على الحكومة حملة صادقة . ونمى إلىّ أن أمرا يدبر لى فى الخفاء فلم أجد بدا من الأخذ بنصيحة الأصدقاء ، فقدمت استقالتى ، وسافرت للعمل فى خارج القطر . .

أسرة أناخ عليها الدهر

وجدتنى فى فناء ترب مكتظ بالآدميين والضوضاء. مربع الأضلاع مسقوف بسماء متلبدة بالسحب الداكنة. تتلاصق على أضلاعه الحجرات وتفوح فى جوه البارد روائح البصل والثوم والفول النابت والطعمية. أمام كل حجرة تقرفصت امرأة أمام كانون أو وابور غاز وانتشر فوق أديمه الملىء بالحفر والنفايات أطفال يلعبون. اتجهت الأعين نحوى وكأنما تتساءل عما جاء بهذا الأفندى إلى ربعهم العتيق. ملت نحو أقرب امرأة وقلت:

ـ صباح الخير أين أجد ست وجدية جلال؟

فأشارت بيدها المغطاة بقفاز من الخضرة نحو امرأة فى الركن الأيسر من الضلع المتوسط وهى تسأل بتطفل:

ـ من حضرتك؟ . . وماذا تريد منها؟

فشكرتها متجاهلا تطفلها وشققت طريقى متجنبا الحفر حتى وقفت أمام المرأة متسائلا:

ـ ست وجدية جلال؟

فرفعت إلى وجها بارز العظام مدبوغا بالتعاسة والكبر محدقة فىَّ بعينين كليلتين وهى تهمس:

ـ أنا وجدية.

فقلت برقة:

ـ مندوب وزارة الأوقاف.

نهضت بنشاط طارئ لا يناسب هزالها، ثم دخلت الحجرة وهى تقول بصوت بالغ المودة:

ـ تفضل.

أول ما طالعنى وجه شاب مفرط البدانة، واضح العته، يرسل نظرات بلهاء ويبتسم للاشىء. تربع فوق كنبة قديمة لا أثاث فى الحجرة سواها باستثناء سحارة سوداء وحصيرة متهرئة. قالت:

ـ لا مؤاخذة، لا يوجد كرسى، تفضل بالجلوس على الكنبة . .

قال الشاب بعجلة :

ـ لا . ارجع إلى أمك خديجة العرة !

نهرته الست وقالت لى آسفة :

ـ أنت سيد من يفهم ويعذر .

فقلت بهدوء :

ـ لقد تلقت الوزارة طلبك فأرسلتنى للتحرى كالمتبع .

فتساءلت بلهفة :

ـ متى تقررون لى إعانة؟

ـ كل شيء بمشيئة الله ، أتعيشان وحدكما؟

ـ معنا الله ، وهذا الابن الذى بقى لى كما ترى . .

ـ أله عمل؟

قال الشاب :

ـ يا مغفل ، ألم تعرف أن أولاد الملوك لا يعملون؟ !

فصاحت به المرأة :

ـ لا تفضحنا (ثم ملتفتة إلىّ) . . أكرر العذر وربنا يكرمك ، لا عمل له ، يمضى على باب الله فيطعمه المحسنون ، وأنا لا مورد لى إلا الملاليم التى تجيئنى من بيع النابت . .

ـ فى الطلب أنكم أسرة كريمة أناخ عليها الدهر؟

ـ كنا كذلك ، وضاع كل شيء . .

ونشجت باكية فقال الشاب الأبله :

ـ تريد أن تعتدى على أمى يا حمار؟ !

لم ألتفت إليه ، ولم أتأثر بالدموع من طول ما خالطت الأسر التى أناخ عليها الدهر ، قلت :

ـ أعطنى فكرة عن حياتك السابقة .

قالت وهى تجفف دموعها بطرف شالها الرث :

ـ كان أبى بياع حلاوة طحينية وكان زوجى موظفا .

ـ اسمه ووظيفته؟

ترددت ترددا لم يغب عنى بحكم خبرتى ثم قالت :

ـ مضى زمن طويل .

ـ لا بأس أخبرينى . .

ـ كان موظفا بدار الكتب . .

ـ اسمه من فضلك؟

ترددت مرة أخرى ثم قالت :

ـ غريب عدنان .

ـ أين كان مسكنك؟

ـ فى باب الخلق ، لا أذكر رقمه ولكن كانت بأسفله صيدلية .

ثم بصوت ملىء بالأسى :

ـ صحتى تسوء يوما بعد يوم ، ارحمونى يرحمكم الله .

فصاح ابنها وهو يشير نحوى :

ـ هذا الرجل لص ، رأيت بدلته على رجل ديوث .

غادرت المكان مسرعا فبلغت شارع السد بباب الشعرية ونظرات النساء ما زالت راسية فى أعماقى . دلتنى الزيارة على مراجعى . هناك شيخ حارة السد ، دار الكتب ، وبيت باب الخلق . وملت إلى دكان شيخ الحارة فوجدته لحسن الحظ جالسا إلى مكتبه القديم تحت صورة الملك . سلمت عليه ثم قدمت إليه بطاقة العمل فرحب بى فقلت :

ـ تفضل علىَّ بما تعلم عن ست وجدية جلال المقيمة بالربع ٢١ بحارة السد .

فقال بعدم اكتراث :

ـ علمى عنها قليل ، لكنها على حياء بخلاف بقية السكان . .

ـ أهى أصلا من سكان الربع؟

ـ لا . . أقامت فيه منذ سنوات ، وهى لولا ابنها المعتوه . . .

فقاطعته باسما :

ـ عرفته ، من أين له هذا القدر المخيف من الدهن؟

ـ يأكل فى كل مكان ، ولكن فيه شىء لله!

ـ تؤمن بذلك؟

ـ وأسمع . منذ شهر رأيته يبول فى وسط الطريق فزجرته فدعا علىّ ، أتعرف ماذا أصابنى؟

ـ خير إن شاء الله؟

ـ أبدا، أصبت فى نفس الأسبوع بفتق . . ، ولكن هل تنوى الوزارة مدها بإعانة؟

ـ ربمـــا .

ـ جميع جاراتها على مثل حالها من الفقر .

ـ للأسف الوزارة تقصر المعونة على الأسر التى أناخ عليها الدهر، أما الفقراء فهيهات أن يشبعهم إلا وزارة أوقاف أمريكا . .

* * *

قصدت دار الكتب لأسأل عن غريب عدنان فى إدارة المستخدمين فأحالنى المدير على أقدم موظف فى الدار بأرشيف الكتب يدعى الشيخ فرغل بهنس . قدمت نفسى وشرحت له مهمتى ثم قلت :

ـ قيل لى إنك خير من يحدثنى عن المرحوم غريب عدنان .

رفع الرجل حاجبيه وقال :

ـ يالله . . سبحان من يبعث الماضى بعد موت . . كان ـ غفر الله له ـ مأساة وعبرة . .

وطلب القهوة لى ثم واصل حديثه :

ـ كان مترجما بالدار، شهادته الأصلية البكالوريا ولكنه سافر إلى فرنسا على حساب أبيه فرجع بشهادة ما أو بلا شهادة ولكن شهد له بإتقان العربية والفرنسية . .

وصمت لحظات ليجمع أشتات ذكريات، ثم قال :

ـ كان أيضا ميسور الحال، ذا مرتب حسن وبيت مكون من عدة أدوار، وعرف بسعة اطلاعه، وكان بوسعه أن يفيد من علمه ترجمة أو تعريبا ولكن الشيطان دفع به إلى أحضان موضة انتشرت فى تلك الأيام، أتعرف ماذا كانت تلك الموضة؟

فهززت رأسى نفيا فقال :

ـ موضة الإلحاد والعياذ بالله، قرر أن يكون حر التفكير مثل فلان وعلان ممن أحدثوا بإلحادهم ضجة ونالوا عنها شهرة فكانت الكارثة . .

ـ كيف؟

ـ نشر كتابا عن الدين المقارن ردد فيه عن الإسلام ما يتقوله المستشرقون المتعصبون!

ـ أعطنى مثالا .

ـ لم أقرأه، ولا أتذكره، ولكنى أعرف تماما أن كتابه لم يحدث ضجة ولا أنشأ شهرة، ولكن أدخله السجن وأفقده الوظيفة . .

ـ لم لم ينج كما نجا آخرون؟

ـ كان وراء الآخرين أحزابهم ولم يكن وراءه إلا الشيطان.

ـ ومات فى السجن؟

ـ أبدا خرج بعد انقضاء المدة، عاش على ريع بيته عيشة ليست يسيرة، ثم مات بالكبد، وقيل إن الخمر كانت وراء وفاته..

ـ وماذا تعرف عن أسرته؟

ـ لا شيء يذكر سوى أنه كان صاحب زوجة وأولاد. لم تتجدد علاقتى به بعد الإفراج عنه. لقد قاطعته بلا أسف منذ لحقت به لعنة الكفر..

أدركت لم ترددت ست وجدية قبل اضطرارها إلى ذكر اسمه. على أى حال لقد ورثت أسرته البيت فكيف تدهور بها الحال إلى الربع ٢١؟ وأين بقية الأولاد؟

* * *

ها هو ذا البيت وها هى ذى الصيدلية، بيت مكون من أربعة أدوار كل دور شقة واحدة. بيت متوسط الدرجة ولكنه محترم فضلا عن أنه يعد قصرا بالقياس إلى ربع السد. جلت جولة استكشافية بالكواء والبدال والفران والصيدلى فاهتديت إلى بغيتى فى ساكن الدور الثانى، أما الباقون فسكان جدد. كان موظفا على المعاش يدعى محمد الصياد. استضافنى بحذر، ولما علم بمهمتى أدلى إلى بما عنده من ذكريات. قال:

ـ غفر الله لغريب عدنان ولكن ما ذنب زوجته وأولاده؟

ثم أجاب عن تساؤله:

ـ هى حكمة ربنا على أى حال.

سألته باهتمام:

ـ ماذا حصل للأسرة بعد وفاته؟

ـ الأم كانت ست عاقلة ومدبرة، وجدت نفسها مسئولة عن تربية أربعة ذكور وأنثى، فقررت أن تبيع بيتا ورثوه لتنفقه على تعليمهم، وهى صفقة رابحة على أى حال، وحال يقف أحدهم على قدميه تزول المتاعب..

ـ تفكير سليم ولكن أين ذهب الأولاد؟

ـ صبرك، الابن الأكبر وهو فى نهاية مرحلته العليا قتل فى مظاهرة على عهد إسماعيل صدقى.

انتظرت وأنا أفكر فى صحيفة التحريات التى ستعرض على لجنة الخيرات المنتمية فى النهاية إلى حكم راهن يستند إلى انقلاب ملكى! قال الرجل:

ـ الابن الثانى قامر بمصروفات المدرسة فخسرها ثم انتحر !

هززت رأسى فى أسى :

ـ ثم وجدت البنت عريسا لقطة، غاية فى نضج العمر والمال فلم يكلف الأم شيئا يذكر ولكنها بعد أعوام من الزواج هربت مع خمار يونانى ويقال إنه هربها معه إلى بلاد اليونان، أرأيت؟

وبعد صمت قال :

ـ لم يحتمل الابن الثالث الصدمة فاختفى ولم يعثر له على أثر .

ـ هكذا لم يبق لها إلا المعتوه .

ـ ثم تدهور بها الحال إلى الحضيض !

* * *

اجتمعت لجنة الخيرات برئاسة مديرها وعضوية نخبة من كبار الموظفين على حين توليت أنا سكرتيريتها . عرضت ما لدى من تحريات وتقررت ـ كالعادة ـ إعانات ما بين الجنيه والثلاثة جنيهات . ولما جاء دور طلب ست وجدية رحت أقرأ التحريات فى صمت ثقيل حتى فرغت . وضح لى الأثر العميق الذى تركه التقرير . كان مفتى الوزارة أول المتكلمين، تمتم :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وقال مدير الإدارة العامة :

ـ أى أسرة هذه الأسرة؟ !

فقال مدير الإدارة القانونية :

ـ أسرة جمعت ما بين الإلحاد والانحراف والتمرد والفسق والانحلال .

فقال المفتى :

ـ أسرة لم يبرأ من العيب فيها إلا معتوه .

فقال مدير الإدارة القانونية :

ـ والعته عيب أيضا غير أنه لا مسئولية عليه .

ونظرت إلى رئيس اللجنة متسائلا :

ـ هل أوقع بالرفض؟

فقال الرئيس يخاطب الأعضاء :

ـ دعونا من الأسرة وانظروا فى مقدمة الطلب فهى سيدة تعيسة الحظ قد أناخ عليها الدهر .

فتساءل المفتى بغضب :

ـ كيف نبرئها وهى البؤرة التى ترعرعت فيها الموبقات كافة؟

فقال الرئيس برقة :

ـ ألا تعتبر أيضا ضحية؟

فهتف المفتى :

ـ لا . . لا . . لا . . أبعدوا عنا هذا الطلب ، عشرات الأسر أحق منها بالإعانة . .

وساد صمت اعتبر موافقة فمضيت أوقع بالرفض . عند ذاك دق جرس التليفون فتناول الرئيس السماعة :

ـ أهلا سعادة الوكيل .

ـ . . . . . .

ـ حقا؟ . . الطلب خال من أى توصية .

ـ . . . . . .

ـ تسمح لى سعادتك بمقابلة دقيقة واحدة؟ . .

ـ . . . . . .

ـ شكرا يا فندم .

قام الرئيس وهو يقول لنا :

ـ الجلسة لم تفض ، عن إذنكم . .

* * *

غاب دقائق معدودة ثم رجع إلى مكانه وهو يقول :

ـ علينا أن نعيد النظر فى طلب ست وجدية جلال .

فقال المفتى بحدة :

ـ لقد انتهينا منه يا سعادة الرئيس .

وتساءل مدير الإدارة القانونية :

ـ أهى رغبة سعادة الباشا الوكيل؟

فأجاب الرئيس بوضوح :

ـ أجــل .

وكان للمفتى مكانة فى الحزب الحاكم لا تقل عن مكانة الوكيل إن لم تزد فقال بصوت جهير :

ـ لن أتراجع عن الرفض !

فقال رئيس اللجنة :

ـ ثمة توصية من شيخ مشايخ الطرق الصوفية !

فصاح المفتى :

ـ ولــو !

فقال الرئيس متسائلا :

ـ أتدرى من تكون وجدية جلال يا فضيلة المفتى ؟

فتساءل المفتى ساخرا :

ـ شجرة الدر ؟ ! أم كليوباطرة ؟ !

فقال الرئيس :

ـ إنها حفيدة إسماعيل الماوردى ، العارف بالله ، شملنا الله ببركاته !

وهتف مدير الإدارة القانونية :

ـ سبحانك ربى ، لك فى كل شىء حكمة وعبرة !

لم ينبس المفتى بكلمة وساد صمت الاستسلام والرضا . أجل والرضا . .

الظــلام القديــم

ليلة لا تنسى .

تأخر بهم الوقت فى صحراء العباسية فى ليلة من ليالى الخريف . لعبوا الكرة ، ربحوا جولة وخسروا الأخرى . تشاجروا ، انصرف الفريقان إلا ثلاثة ، على وممتاز وإسماعيل . لبثوا حتى يصفى الحساب ويتم الصلح وتصفو النفوس . من شدة التأثر أغمى على إسماعيل ، ارتبكا لذلك غاية الارتباك ، قاما له بتنفس صناعى ، وعندما عاد إلى وعيه كان الليل قد هبط بجلاله ولامبالاته فأحدق بهم الظلام .

كانت ليلة من ليالى الخريف، استقرت فى سقفها السحب، فلا نجم واحدًا فى السماء، ولا شعاع يتسرب إلى المكان. ساحة مترامية ولكنها محاطة بمرتفعات شتى على رأسها المقطم بشموخه، تتعاون جميعا على حجب أضواء المدينة. غرقوا فى ظلمة عميقة وشاملة لم يجربوها من قبل، ظلمة أصيلة نقية مسيطرة طمست على الحواس ونفذت إلى أعماق الوعى. اختفى الوجود. تلاشت أشباحهم، استوى أن تحملق الأعين أو تغمض، استولى العدم على الكون.

قال ممتاز:

ـ سرقنا الوقت.

فقال إسماعيل:

ـ أنا المسئول.

فقال على:

ـ إنى أرى الظلام لأول مرة.

ـ فلنمض نحو المدينة قبل أن يدركنا الهوس.

ولكن أين طريق المدينة؟ شعروا باختناق. على رغم جريان الهواء ورطوبته شعروا باختناق، وشعور آخر طوقهم هو أنهم مكبلون فى زنزانة.

ـ أين طريق المدينة؟

ـ لقد فقدنا الإحساس بالاتجاه.

ـ اختفى المكان.

قال ممتاز ساخرا:

ـ نسينا أن نحضر معنا بوصلة.

ـ ومعها عود ثقاب.

ـ ولا صوت لإنسان!

صمتوا فى حيرة ولكن الصوت كان أنسهم الوحيد وآخر ما بقى لديهم من علاقات الحياة، فعاد إسماعيل يقول:

ـ المدينة على مسيرة نصف ساعة.

ـ أجل ولكن أين اتجاه المدينة؟

ـ قد نوغل صوب الجبل الأحمر فتنقطع منا الأنفاس بلا جدوى.

ـ نسير مقدار نصف ساعة بلا زيادة.

ـ لكننا فقدنا الزمان كما فقدنا المكان!

ـ والسير نحو هضبة وابور المياه شديد الخطورة لوعورة الأرض وانتشار مساقط القمامة .

ونفخ إسماعيل . وضيعهم الصمت مرة أخرى . وسرعان ما قال ممتاز :

ـ على رغم القلق والقرف فإنى أشعر بالجوع .

فقال إسماعيل :

ـ وأنا عطشان ، لم تبق معنا برتقالة واحدة .

ـ ما زلنا نرتدى ملابس اللعب والجو رطيب ، هل نتجمد هكذا إلى الأبد؟!

ـ عسى أن تنجلى السماء عن فرجة يطل منها نجم .

ـ أو يمر إنسان معه بطارية .

ـ فلنتماسك بالأيدى خشية أن يضل أحدنا .

وتماسكوا بالأيدى وهم يضحكون بفتور ، وهتف إسماعيل :

ـ هذه هى نتيجة الشجار!

ـ الشجار كان نتيجة اللعب الردىء .

ـ أنت مغرور!

ـ يا للحماقة! هل نرجع مرة أخرى؟!

وضحكوا . عاد الصمت المخيف . قال على :

ـ فلنفكر . لم يبق معنا إلا التفكير .

ـ عظيم ، فلنفكر .

ـ السؤال الأساسى هو كيف نهتدى إلى طريقنا فى مثل هذا الظلام؟

ولما لم يجدوا جوابا جاهزا هربوا من التفكير ، فقال إسماعيل :

ـ ما تصورت أبدا أن الظلام له هذه القوة .

ـ كيف عاش أجدادنا الأولون قبل اكتشاف النار؟!

ـ كانت لهم غرائز خاصة بهم .

ـ نحن عميان بلا عصا ولا مرشد!

ـ ألم نتفق على أن نفكر خيراً من هذا الهذيان؟

رجعوا مكرهين إلى الصمت حتى هتف إسماعيل :

ـ نصرخ بأعلى أصواتنا لعل أحدا من أهل النجدة يسمعنا .

ـ وإذا سمعنا أحد من قطاع الطرق؟!

ـ أو ذئب؟

ـ أو أيقظ صراخنا حية رقطاء؟

فقال إسماعيل بنفاد صبر :

ـ سحبت الاقتراح .

وعادوا إلى الصمت والتفكير فغرقوا فى العدم مليا حتى قال ممتاز :

ـ أرى أن الصراخ ضرورة لتحقيق هدف آخر .

ـ ما الهدف الآخر؟

ـ نرسل صيحة ثم نرصد الصوت فنحدد موقع الجبل ، بذلك تتضح الجهات الأربع !

ـ فكرة غير مجدية ، فليس الجبل وحده هو ما يرجع الصدى ، هناك الهضبة ، وسور الغابة ، وجدار مقابر الشهداء .

ـ اللعنة . .

ورجع ممتاز يقول بإصرار :

ـ ليذهب كل منا فى ناحية ومن يظفر بالمدينة فعليه أن يرسل بعثة للإنقاذ .

ـ ثمة احتمال أن نسير جميعًا فى النواحى الخاطئة .

ـ وهب أن أحدنا وصل ألا يلزمه بعد ذلك تجميع نفر من الأصدقاء والحصول على بطاريات؟

ـ أننتظر حتى مطلع الفجر؟

ـ أو أن تنحسر السحب عن بزوغ النجوم أو القمر؟ !

ـ أى يوم هذا من أيام الشهر العربى؟

ـ أعتقد أننا فى الربع الأول منه .

ـ أضغاث أحلام ، علينا أن نفعل شيئًا .

ومضى الضيق يضيق أكثر وأكثر ، والاختناق يطبق عليهم بقبضة حديدية ، حتى هتف ممتاز :

ـ ما ألعن الصمت!

ـ نحن نفكر .

ـ لم لا نعتبرها تجربة مسلية؟

ـ والإرهاق والجوع والعطش؟ !

ـ انتظروا الفرج . إنه يجىء بغتة .

ـ بل ليس لنا إلا الاعتماد على أنفسنا .

ونفخ ممتاز بغضب وقال :

ـ فليسر كل منا فى اتجاه وليكن ما يكون .

ـ أليس الأفضل أن نبقى معا؟

وقال إسماعيل :

ـ أنا لا أطيق الظلام وحدى .

فقال ممتاز بإصرار :

ـ ابقيا إذا شئتما أما أنا فإنى ماض .

ـ أى ناحية؟

فضحك على رغمه وقال :

ـ إنه السير ، أما الناحية فقد ابتلعها الظلام .

ـ جهد ضائع .

ـ هو خير من الانتظار .

وسحب يديه من أيديهما وهو يقول :

ـ أستودعكما الله . .

مضى بلا صوت ، لم يدريا فى أى ناحية ذهب ، شدت يد إسماعيل على صاحبه ، وتمتم :

ـ إنه عنيد . .

ـ ولكن الانتظار غير محتمل .

ـ عليه اللعنة ، هو المسئول الأول ، وها هو ذا يتركنا مثل شيطان .

ـ لنسأل الله أن يسدد خطاه إلى الطريق الصحيح .

ـ وما أهمية ذلك؟ . . سنبقى هنا حتى مطلع الصبح .

ـ أليس من الأوفق أن نفعل مثله؟

فصاح بعصبية :

ـ كلا . .

ـ تمالك أعصابك .

ـ فلتذهب أعصابى إلى الجحيم .

واسترسل فى هياج فصاح :

ـ ما أنتم إلا لعنة من اللعنات، هذه هى الحقيقة.

ـ لا تثرنى أكثر من ذلك.

ـ ألا تريد أن تعترف؟.. من المسئول عن الهزيمة؟

ـ أنرجع إلى ذلك؟!.. أليس حسبنا ما نحن فيه؟

ـ ذلك ما أدى بنا إلى هذا الموقف.

ـ اسمع، فلنسر أو فلنصمت.

ـ لا هذا ولا ذاك.

ـ بل هذا أو ذاك!

ـ تريد أن تستغل ضعفى فتفرض على إرادتك؟

ـ بت أحسد الذى ذهب.

ـ ماذا تعنى؟

ـ لن نجنى من الانتظار إلا الشجار.

فشد على يده كالمستغيث فقال على:

ـ تعال معى، فرصة النجاة ستهبط درجة ولكنها لن تنعدم.

وتأبط ذراعه، وحمله على المشى معه وهو يقول:

ـ أى شىء خير من الانتظار.

وتحديا الظلام القديم الذى فقد سلطانه منذ اكتشاف النار.

الرســـالـــة

فى البدء كان الخوف.

حلق الشارب واللحية. استبدل بالجلباب والجبة بدلة. سمى شخصه الجديد «سالم عبد التواب» بدلا من عليش الباجورى الذى عرف به دهرا. ابتاع أرضا وبنى بيتا فأقام فى شقة وأجر تسعا. تجنب الاختلاط بالناس ما وسعه التجنب. عاوده الخوف من الزوايا والأركان، من الظلمة والضوء، من الهواء المشحون بأنفاس الخلق. يحذر نفسه من القضاء والمصادفة وسوء الحظ، فعند ذاك يستقر سهم الموت فى قلبه، وتتلاشى الحياة فى غيبوبة المجهول. قوة القانون الصلدة قضت عليه بالإعدام، وكلفت الجلادين بالتنفيذ، فلم تبق إلا الضربة القاضية. فى سبيل النجاة اقتلع شخصه من جذوره، من الماء والحيوان

والشجر . وتعز عليه الطمأنينة إلا فى غيبة الأحلام والكوابيس . هكذا تتواصل المطاردة جيلا بعد جيل ، تدفعها قوة عمياء مقدسة .

* * *

ـ اذهب والله معك .

ـ والغربة فى بلاد الغربة؟!

فى كل مكان ثمة حياة تتدفق ، وهى مقدسة مثل الموت!

* * *

فى البدء كان الخوف .

ولكن لا دوام لحال . الشروق والغروب ، تلاحم المعاملات وتبادل التحيات ، والتنفس والخفقان ، أحلام اليقظة وأحلام المنام ، كل أولئك من شأنه أن يلطف التوتر ، ويستأنس الشوارد ، ويحل عادة فى محل عادة ، يوهم بأن الأمور ستمضى غداً كما مضت أمس . ثم أليس لكل أجل كتاب؟ وأن تستسلم للمقادر أخف من أن تشقى دوما بعذاب الخوف ، وأن تعيش يومك خير من أن تعانى هولا لم يجئ بعد؟ لذلك مضى يختلف إلى المقهى ويجالس الجيران ويلاطف السكان . من يخطر له أن ينعطف إلى هذه الحارة المنزوية؟ من ينقب فى صحراء عن حبة رمل مضرجة بالدماء؟ ويفكر جادا فى المشاركة فى المقهى ، أن يحظى بنعمة الحب والزواج والإنجاب . أن يمارس الحياة بما يليق بالحياة ، وأن يطالبها بما هو حق للإنسان .

وتتم المشاركة . وتقوى أسس المعيشة ، ثم يتقدم إلى الشيخ الحلبى طالبا يد كريمته .

ـ من هو سالم عبد التواب؟ . . من هو عبد التواب!!

ـ لا غبار عليه كرجل عرفناه أعواما .

ـ إنه مقطوع من شجرة!

ـ أى مخلوق يتسلسل فى النهاية إلى آدم وحواء .

ـ ألا تخشى أن يظهر لأحفادك ذات يوم أعمام من الليمان؟

ـ فى كل سلالة مجرمون وما يهمنى إلا الرجل نفسه!

* * *

اقترن سالم عبد التواب من عظيمة كريمة الشيخ الحلبى ، وراح ينجب البنين والبنات . استقر قلبه فى أمان شامل أو شبه أمان ، فهو يمارس الحياة ، والأعمار بيد الله وحده .

أجل تناوشه أحيانا أفكار معتمة ، يخاف ما تفرضه حياته الزوجية من اتساع ، سيُلزم مرات بمغادرة الحارة ، سيمضى إلى السوق أو المدرسة ، ولكن ألا يجىء الموت مع السلامة كما يجىء مع الخطر؟!

وتلقى ذات يوم رسالة .

«جاء الأجل!» .

غفل عن الإمضاء وليس بها إلا هذه الجملة . واردة من حى السيدة كما يقر بذلك خاتم البريد . اقشعر بدنه برعدة خوف شاملة . وتفجر الرعب من مكامنه . جاء الأجل ، هل عرف فى النهاية مخبأه بين البيت والمقهى والأولاد؟ ولكن مهلا ، لم أراد المجهول أن ينذره؟ لم لَم ينقض عليه وهو غافل فى نعمة العسل؟ لماذا يعرض انتقامه للفشل؟ لماذا يعرض نَفسه وهدفه إلى يقظة قاتلة؟ لماذا يهبه فرصة للنجاة؟ أم يريد وقد تمكن منه أن يعذبه؟

جاء الأجل .

ما العمل؟ . ما الطريق؟ هل يفشى السر القديم إلى أهله فينفخ فيهم حياة جديدة مليئة بالفوضى والشغب؟ هل يلجأ إلى الشرطة وإن جره ذلك إلى الاعتراف بجريمة أكبر؟ أم يكتفى بالحذر وبالمسدس الذى لا يفارقه؟ وأيا ما كان الأمر فقد تعكر صفو الحياة ، واربد ماء البحيرة الرائق بقنبلة أعماق متفجرة .

رجع الخوف كما كان فى البدء . إنه لا يغادر البيت إلا لضرورة ملحة . يتفحص الوجوه بريبة دائمًا ، يراقب الرائح والغادى ، يتحسس بكوعه مسدسه ، يختلس نظرات الحنان والأسى من زوجته وأبنائه .

* * *

مرة قال له شريكه فى المقهى وهو يشير بذقنه إلى رجل جالس غير بعيد .

ـ كلفنى أن أسألك إن كان عندك شقة خالية .

رأى رجلا بدينا غليظ الأشداق ذا جبهة متحدية يستقر فى عباءة فضفاضة ، فقال بقلق :

ـ ليس من حارتنا!

ـ بياع فراريج ومستعد لدفع الخلو .

ـ واضح أن البيت مسكون .

ـ ترامى إليه أن شقة ستخلو قريبا .

ـ كيف عرف ذلك؟

ـ من أدرانى أنا؟!

ـ لقد اتفقت مع ساكن جديد ، أتعرف الرجل؟

ـ عرفته فى سهرة عند السمرائى ثم جر الكلام بعضه بعضا .

وذهب الشريك يخبر الرجل بنتيجة مسعاه ـ ومضى هو يقيسه طولاً وعرضًا. توقع أن يصرف النظر عن موضوعه ولكنه قام بخفة لا تناسب بدانته وقدم نحوه فجلس وهو يقول:

ـ الطيبون للطيبات.

فجعل ينظر إليه ببلاهة فقال الرجل:

ـ محسوبك كريم البرجوانى، تحت الأمر فاطلب ما تشاء.

فقال بحسم:

ـ العفو، سبق منى وعد شرف.

ـ جميل أن يحافظ الإنسان على عهده.

تجنب سالم تشجيعه ولو بابتسامة ولكن الرجل قال:

ـ ما قيمة النقود؟.. ما هى إلا عصافير.

ونهض الرجل وهو يقول:

ـ لكننا على أى حال أصبحنا صديقين.

وأتبعه عينيه وهو يمضى عن الحارة، وراح يتساءل ترى هل يعرف الكتابة؟ أهو كاتب الجملة أم أنه وحش مجهول رابض وراءه!!

ودعى يوما إلى شهود ذكر ببيت جار. فراعه أن يرى كريم البرجوانى جالسًا بين المدعوين. ماذا أقحمه على الحارة بهذه القوة؟! ورآه وهو ينضم إلى حلقة الذكر فيغوص فى موجاتها المتلاطمة الراقصة ويسبح حتى بح صوته، ثم تهاوى فى الختام فوق الحصيرة فاقد الوعى مثل ثور ذبيح. قال لنفسه إن خوفه من هذا الرجل غباء مطلق، فما هو من قريته، ولا هو من الصعاليك الذين يؤجرون للقتل. ولكن الرسالة نذير جاد وخطير، ليست دعابة مازح!

* * *

وعندما كان مدعوا للعشاء على مائدة حميه قال له الشيخ:

ـ رجل يريد الشقة التى ستخلو أول الشهر.

ـ من يا مولاى؟

ـ يدعى كريم البرجوانى.

فارتعد سالم وسأل حماه:

ـ تعرفه؟

ـ كلا.. استشفع بى دون معرفة سابقة.

ـ سبق أن رفضت طلبه .

ـ لم؟

ـ منظره لا يوحى بالثقة!

ـ أنت وشأنك ولكنى وجدته شهما وطيبا!

الرجل يتعقبه. إنه يريده هو لا الشقة، ولكن لم حذره بالرسالة؟ أيوجد وراءه مطارده القديم؟! كلا. ما الأمر إلا دعابة. له منافسون وكارهون فالحياة لا تخلو من ذلك أبدًا. أحدهم يبغى إزعاجه أو السخرية من أحمق. أراد أن يلقى نظرة جديدة على الرسالة ولكنه لم يجدها فى جيبه الداخلى. فتش عنها فى مظانها جميعًا ولكنه لم يعثر لها على أثر. ذهب إلى الكواء وفتش جيوب البدلة يظن أنه نسيها فيها ولكنه لم يعثر لها على أثر. أين اختفت؟ هل امتدت لها يد خفية؟ وتحرى الأمر مع عظيمة زوجته ولكنها قالت :

ـ لم يطرق ساعى البريد بابنا قط .

ولكنه تسلم الرسالة منه فى الخارج. ولا بأس من أن يتوكد منه بنفسه. ولكن الرجل لا يتذكر شيئا على الإطلاق. إنه يقرأ أو يوزع ولا يتذكر. هل كان حلما مما يرى النائم؟ أم هل جاء دور عقله ليشك فيه؟! مرة وحيدة توهم أنه ابتاع صفيحة سمن، ثم سرعان ما كشف توهمه! وأرجعه إلى حلم رآه ونسيه فى جملة مشاغله. ذاك وهم سرعان ما كشفه. أما الرسالة فكأنما يشعر بمسها ويقرأ حروفها، كانت حقيقة لا شك فيها. وما اختفاؤها الغريب إلا نذير جديد.

* * *

وكان يغادر بيته ليؤدى صلاة العيد، فتح الباب فرأى شبحا. عرف وجه كريم البرجوانى على الضوء الخافت المتسرب من ألق النجوم فى ظلمة الفجر. تراجع خطوة. . أخرج مسدسه. شعر بألم حاد. أطلق الرصاص وهو يغوص فى الغيبوبة.

ما عرف ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ إنما جاء على لسان كريم البرجوانى فى التحقيق، قال ذهبت لأداء صلاة العيد فى الزاوية، ولما مررت ببيت المرحوم سالم عبد التواب فتح الباب وظهر الرجل، أردت أن أحييه فإذا به يصوب نحوى مسدسه، خفت على حياتى، وبدفعة غير إرادية ركلته بسرعة فأصبت منه مقتلا على حين انطلقت رصاصة قتلت صبى الفران.

الشـــــفق

كانت تعترينى فى صباى فترات كآبة ثقيلة. أعزف عن الأهل، أعتزل فى حجرة، أكره الطعام، وأحيانا أبكى، بلا سبب واضح على الإطلاق. عرضت على أكثر من طبيب، جربت عقاقير كثيرة، بلا نتيجة. وقال أحد الأصدقاء لوالدى:

ـ اعرضه على خالد جلال الطبيب النفسى.

وكنا نسمع عن الطب النفسى لأول مرة، فأعلن أبى عن ريبته، فقال الصديق:

ـ إنه طب معترف به فى جميع أنحاء العالم، ولكن مدة العلاج طويلة، ربما امتدت إلى عام أو أكثر، كما أن تكاليفه بالتالى باهظة!

وتفكر أبى طويلا ولكنه بإزاء مرض غامض عنيد قرر استشارة خالد جلال. ولما كان عمله كتاجر أصواف فى أسيوط يمنعه من إقامة طويلة بالقاهرة.. فقد قال لى:

ـ ستقيم عند عمتك ليسهل عليك التردد على الطبيب، وعلى أى حال كان فى نيتى أن أرسلك إليها لتواصل تعليمك.

وزرنا الطبيب. كان فى ذلك الوقت شابا بهى الطلعة، دمث الأخلاق، جلى الاعتداد بنفسه وعلمه. وقد أصغى باهتمام بحضور أبى، ثم حدد لى يومين فى الأسبوع لزيارته، وقال:

ـ المهم المثابرة والصبر، لست طفلا، والسعادة قيمة لا يجوز الاستهانة بها.

انضممت إلى أسرة عمتى عضوا جديداً بها. عضواً لاقى ترحيبا حارّاً لثراء أبى وكرمه. ومضيت أتردد على الطبيب، وأحضر جلساته العجيبة. بدا لى العلاج فى أول الأمر فضولا لا جدية فيه، ثم أخذت أضيق به وأتذمر فى مرارة متواصلة، حتى قلت يوما لعمتى:

ـ لا أريد أن أذهب.

فقالت عمتى بقلق:

ـ والدك؟!

فقال زوج عمتى وكان موظفا بشركة الكهرباء:

ـ لا ذنب للعلاج ولكن حياتك مملة، لماذا لا تشارك فى «الشعلة» نادى حينا الرياضى؟

واشتركت فى النادى، ورحت أتدرب على الكرة والسباحة، ولم أنقطع عن العلاج.

وبرعت في الكرة كما برعت في السباحة. تحسنت صحتي البدنية، واشتدت عضلاني، وارتفعت روحي المعنوية في المباريات المحلية، وثمل رأسي بالهتاف والإعجاب. وانقطعت عن زيارة خالد جلال، وزايلتني نوبات الكآبة، وصرت ولدا سعيدا بكل معنى الكلمة. واستقبلت المرحلة الجديدة من التعليم بفؤاد جديد. ولما كنت قد أدمنت الثناء من خلال تفوقي الرياضي فقد أصررت على التفوق في الدراسة لأنعم بالإعجاب على المدى. وانتقلت من نصر إلى نصر، ومن بهجة إلى بهجة، وتناسيت مرضي، فلم يخطر لي ببال إلا في لحظات نادرة من لحظات الوحدة والفراغ، عند ذاك كان يخيل إليَّ أنه رابض في مكان ما، وأنه يتحين فرصة للانقضاض، ولكنها كانت لحظات نادرة جدًا ومتباعدة جدًا، وسحابة أو سحابتان لا يمكن أن تعكر صفو سماء صافية.

وفي أثناء دراستي بمدرسة التجارة اكتشفت زهيدة ابنة عمتي. أجل كنا نعيش في مسكن واحد ولكنني نظرت إليها ذات يوم ونحن منفردان فخيل إليّ أنني أكتشفها من جديد. لم أر من قبل ذلك تلك النظرة الساجية العذبة، ولا ذلك الجسد الناضج المتناسق. وتبادلنا نظرات جديدة تماما فتورد وجهها وارتبكت، وانبعث من أعماقي شعور متوثب حار وبهيج وطموح إلى غير حد. ولد الحب في تلك اللحظة في مهده الذهبي فباركه الحياء والمكر الحسن والحلم المبدع، وسرعان ما أعلنت خطبتنا.

تخرجت في مدرسة التجارة، اشتغلت مساعدا لأبي في أسيوط، ثم حللت محله عقب وفاته في نهاية العام، ثم خضت تجربتي مع السوق والزواج في عام واحد. والحق لقد أحببت العمل كما أحببت الزواج، وأصررت كعادتي على النجاح، وحذرت نفسي دائمًا من الفراغ ومن تذكر الماضي، وأنجبت ذرية كثيرة، فكنت كل عام أستقبل وليدا جديدا، وزخرت حياتي بالتجارة والحب والأبوة.

واندلعت نيران الحرب العظمى فانفتحت أمامي أبواب جديدة للأرباح الأسطورية. انهمكت في عملي لدرجة فاقت كل تقدير. وما لبثت أن أنشأت متجرًا ضخمًا للصوف في القاهرة، وانتقلت أنا وأسرتي إلى العاصمة، ثم شيدت قصرًا. ورسخت قدماي في دنيا الثراء والجاه، حتى انتخبت رئيسا للغرفة التجارية.

وجاءني ذات يوم خالد جلال للشراء. صار كهلا وقورا وما زال محافظا على بهاء طلعته. عرفته ولكنه لم يعرفني. صافحته وأنا أقول:

ـ سعادتك لا تذكرني!

وحكيت له تجربتي معه وهو يتابعني مبتسما، ثم سألني:

ـ وكيف حال الصحة؟

فقلت له بثقة :

ـ عال والحمد لله . .

فقال لى بهدوء :

ـ الشفاء بيد المريض فى أغلب الأحوال .

وجعلت نفسى فى خدمته حتى غادر المحل راضيًا شاكرًا . وعلى الرغم منى تسللت إلىّ ذكريات قديمة استقبلتها بنفور ، حتى خيل إلىّ لحظة عابرة أن عدوى القديم رابض غير بعيد . لم تكن إلا لحظة عابرة بالغة السخف ، أما ما كان يضايقنى كثيرًا فحملة كاريكاتور الصحافة على أغنياء الحرب وتصويرهم لهم فى صورة قطاع الطرق ، يا لهم من أوغاد حسودين ، وهل ينجح الإنسان إلا بالجهد والعرق؟!

وكان كلما أتم ابن من أبنائى تعليمه أشركته فى العمل ، ولكنى استأثرت بعقد الصفقات الكبيرة ، والقيام بالرحلات التجارية المهمة ، وكان أبنائى مثلا طيبة للبر والحذق ، وقدوة تجارية فى المثابرة وتقديس العمل والمال .

وبتقدم الأيام والعمر أرخيت قبضتى رويدًا عن بعض التبعات ، وحملتها الأبناء المجدين . لماذا فعلت ذلك على رغم هيامى بالعمل والنشاط؟ ربما لأنى أردت ألا يفاجأ الأبناء يوما بمسئوليات لم يتدربوا على ممارستها ، وربما لأننى طرقت أبواب الشيخوخة ولم تعد الطاقة تسعف كما أسعفت فى الماضى ، وربما لتسرب قطرات من الضجر إلى زوايا نفسى .

وظفرت بشىء من الفراغ سمح لى بالانطلاق بالسيارة ساعتين كل يوم فى الخلوات أو الطريق الصحراوى منفردا بنفسى أو بصحبة زوجتى . وفى تلك الأوقات المريحة عاودنى شعورى القديم بالعدو الرابض فطاردنى التوجس من جديد .

وذهبت إلى خالد جلال . بات شيخا مجلل الشعر بالشيب يوارى عينيه وراء نظارة طبية كحلية اللون . وذكرته بنفسى للمرة الثانية فى حياتى فرفع حاجبيه وهو يبتسم ، فبادرته دفعا لأى شماتة :

ـ المسألة من قبيل الاحتياط .

فقال بهدوء :

ـ الوقاية خير من العلاج .

ـ لعله توجد الآن عقاقير للوقاية بدلا من الجلسات الطويلة .

ـ لابد من الجلسات ، لابد من الصبر .

فقلت ضاحكًا :

- لم يعد فى العمر بقية كافية!

- اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا.

- ولكن عملى لا يسمح لى بأن أهرش ظهرى!

- آسف، إنى على استعداد لأعطيك ما عندى.

فشكرته وقلت وأنا أقوم للانصراف:

- سأفكر فى الأمر.

رجعت وأنا أفكر، لا صبر لى على الجلسات ولا وقت. وقد يسىء ترددى على عيادته إلى سمعتى وأنا رجل سمعته فى السوق تساوى مليونا من الجنيهات. وسرعان ما قررت حذف الموضوع من رأسى. ولما اشتد بى الضجر خطرت لى فكرة غاية فى الإبداع. قلت لزوجتى:

- لقد انقضى العمر بين ثلاثة أماكن محددة تفوح منها رائحة الصوف، وقد أتممت رسالتى، وأكرمنى الله بأبناء هم زينة السوق، فما رأيك فى أن تتأبطى ذراعى ونمضى لرحلة طويلة حول العالم؟

أخذت زوجتى التى أمضت عمرها بين السراى وبيوت الجيران، القانعة السعيدة بكل ما حولها، وقالت بخوف:

- حول العالم؟!

فقلت بحماس:

- أجل، أوروبا. أمريكا. الجبال. البحيرات. الناس.

فقالت بفتور:

- أريد أن أحقق حلمى الصيف القادم بالحج إلى بيت الله.

- ليكن ذلك فى العام المقبل!

كلا. إنها لا تريد ولا تحب. ولا داعى لإزعاجها. ولأقم بالرحلة منفردا. وقمت بالرحلة فى أبهة لا تتاح إلا لأصحاب الملايين. وفى مدينة نابلى شعرت بعدوى القديم يتحرك. تمطى حتى صار شبحا ثم تجسد وحشا. ترى هل أعتزل فى حجرة وأنشج فى البكاء؟! وفى شدة اليأس تعلقت بفتاة صغيرة فى السابعة عشرة، وكانت شهرتى كمليونير تنتشر من حولى. فتصيدنى أبوها البستانى وأسرته فوقعت كذبابة فى خيط العنكبوت. وتزوجت منها، وواصلت الرحلة، ونجوت من المخاوف. غمرتها بالهدايا، أغدقت على أسرتها.

سبقتنى أنباء مغامرتى إلى مصر، وانقلبت بين يوم وليلة حديث الناس والصحافة

عريس فى الخامسة والستين عروس فى السادسة عشرة. ملكة جمال . . مصاصة دماء . . ثروة مهددة بالفناء. انكسر قلب زوجتى، وتجمع أبنائى فى اتحاد مضاد، للدفاع عنى فى الظاهر، ودفاعا عن الثروة المهددة فى الواقع. وجن جنونى فقررت أن أعصف بهم. وإذا بهم يقيمون دعوى بطلب الحجر على!

وفى المحكمة شُرِّحْت تشريحا بلا رحمة، فارق السن، الأموال التى نثرتها يمينا وشمالا، ثم فضحوا مرضى القديم باعتباره نوعًا من المرض النفسى والجنون أهمل حتى استفحل. بت ويا للأسف مسألة عامة تناقش، المجالس والمقاهى والغرز والصحافة، تجلى الحقد المكبوت من قديم على نجاحى. اتهمت بالسفه. تدهور الشيخوخة، الجنون. اتهمنى المتدينون بأننى ألقى جزاء استغلالى للعباد فى أيام الحرب، وقال الشيوعيون إننى رجل طبيعى جدًا ولكننى رأسمالى بلا زيادة ولا نقصان. ودعى خالد للإدلاء بشهادته فكانت شهادته حاسمة فى إدانتى. اعترف بأننى مصاب بمرض نفسى منذ صباى، وأن حياتى لم تكن إلا سلسلة من المحاولات اليائسة للهروب من المرض ومن العلاج. وقد سألته المحكمة:

ـ وهل يتيسر نجاحه التجارى لمريض نفسى؟

فأجاب خالد جلال:

ـ يتيسر له النجاح فى التجارة، بل فى العلم، بل فى الحكم، إنما العبرة بالنتائج!

وبلغت المأساة ذروتها فصدر حكم بالحجر على. هكذا انتهت حياة النضال والكفاح والمجد. وسرعان ما ساءت العلاقات بينى وبين زوجتى الصغيرة حتى اضطررت إلى تطليقها، واعتزلت فى حجرتى، مقطع الأواصر بأسرتى، أمضغ الكآبة وأبكى كالأطفال. وعلى رغم موجدتى على خالد جلال لم أجد بدًا من اللجوء إليه. وقد بادرنى:

ـ معذرة، ما كان يمكن أن أشهد بغير ما شهدت به.

فتجاهلت ملاحظته وقلت:

ـ الحال سيئة جدًا . .

ـ أعلم ذلك ولكن الشفاء مأمول.

فغمغمت:

ـ الأمر لله.

فابتسم مشجعًا وقال:

ـ لو أذعنت من الأول ما صادفك شىء سيئ، ولعلك لا تتصور أننى كنت سأنصحك بفعل ما فعلت، أنصحك بالرياضة والعمل والزواج.

فقلت بفتور :

ـ ولكنى فعلت ذلك كله .

ـ هذا حق ، ولكنك تفعله بروح أخرى . هذا هو كل شىء .

اللقـــــاء

تجلت القاهرة لعينيه آية فى الأضواء والبهجة والصخب . إنه يفد إليها لأول مرة وعما قليل ـ بعد أربعة أيام على وجه التحديد ـ يلحق به أبوه ، ليقوما بأهم زيارة فى حياته ، زيارة السيد عبد الرحمن فاضل لطلب يد كريمته . أبوه يراه كفئا للبنت الجميلة ، فهو زراعى ومرب للعجول ، وذو مال ، وفضلا عن ذلك فأبوه مزارع أصيل ، وصديق للسيد عبد الرحمن فاضل وجار قديم له فى القرية قبل أن يهجرها الرجل إلى المدينة ، وقد أعجبته البنت ليلة لمحها فى الاحتفال بالمولد النبوى بالقرية ، وبارك أبوه إعجابه وتمنى له الخير فى رحاب آل فاضل . بادر بالانتقال إلى الهرم ، دار حول فيلا آل فاضل ، تملى طرازها العربى العريق ، تملاها بإعجاب ووجد ، وتلقى دفقة من أحلام الورد . . سار فى المدينة ساعات مستكشفا ثم آوى إلى مقهى الأمراء أسفل الفندق ، إنه فتى يحسن تربية العجول ، ويحب الغناء ، ويستحق أحيانًا الملامة . جلس فى المقهى تائها فى أحلام متشابكة حتى انتبه إلى جذبة نظرة مجهولة تناجيه بلطفها الخفى .

التفت فرأى رجلا يتطلع نحوه باهتمام ، فى الأربعين لعله ، ربعة واضح القسمات ، يتميز بسيما السجود فى جبينه وشامة فى ثغرة ذقنه . ولما تلاقت عيناهما دنا بكرسيه من مجلسه وقال :

ـ لا مؤاخذة ، كلانا وحيد ، تلعب عشرة؟

كان قد ضاق بوحدته فابتسم مرحبا ، صفق الرجل طالبا النرد وهو يقول :

ـ محسوبك جبريل الصغير من رجال الأعمال .

ـ تشرفنا ، فؤاد صاوى مزارع .

لعبا بمهارة وسماحة . فى أثناء ذلك عرف الرجل على وجه التقريب أسباب وفود الفتى إلى القاهرة . ولما أزف موعد الغداء دعاه الفتى مجاملة ولكن الرجل قبل الدعوة ، ثم دعا الفتى إلى العشاء فلم يجد بدًا من القبول . ذهب به الرجل إلى تافرنا . هكذا انزلق إلى صداقة جديدة بلا أسف . اعترف بأن ثمة تجاذبا قويا يدنيه من الرجل ويدنى الرجل منه ، هذه الأمور تحدث ، لم لا؟ تناولا شاورمة وسلطة خضراء ونبيذا أحمر . بعث النبيذ

الدفء والإلهام، في جو بارد ورذاذ متقطع تعلن عنه حباته اللؤلؤية المنسابة فوق زجاج النافذة. . وثرثرا طويلا فيما يشبه الطرب. ثم زقزقت عصافير النشوة في القلب فانسابت الأهواء من طرف اللسان كسلسبيل السماء. قال جبريل:

ـ إني رجل غني والحمد لله وكثير الذرية.

ـ حالي رضا، أسوأ ما فيها أني أعشق العجل وأنا أربيه فيبقى منه في القلب أسى بعد بيعه.

فقال جبريل ضاحكًا:

ـ إنك من أهل الخطوة خطوة، أما البهجة الحقيقية ففي المغامرة والطفرة!

ـ ما عملك على وجه التحديد؟

ـ المغامرة.

ـ زدني إيضاحا.

ـ صبرًا، حتى متى تبقى في القاهرة؟

ـ لمدة ثلاثة أيام أخر.

ـ ألم تسمع عن يوم بألف سنة؟

وتكلم عن رحلة تستغرق يومين يجني من ورائها ثروة صغيرة، فسأله فؤاد:

ـ ألا يعرضني ذلك لقبضة القانون؟

ـ لا خوف على صاحب السمعة الطيبة والصحيفة البيضاء من السوابق!

وحدثه عن سيدنا موسى وهجرته الأولى من مصر ثم قال:

ـ لولا ذلك ما صار نبيا!

فضحك فؤاد وقال بتوتر وشى باهتمامه وقال:

ـ ولكني سأصير مهربا!

ـ لا تنخدع بالأسماء.

شجعه بمثال سيدنا يونس وجوف الحوت فقال فؤاد بلسان متعثر من الشراب:

ـ إنه السجن وليس الحوت!

فعاد يذكره بسيدنا يوسف وكيف أفضى به السجن إلى الوزارة، ثم قال مداعبًا:

ـ الدولة تستورد فتسمي ذلك تجارة خارجية، فإذا حاكاها فرد سمت ذلك تهريبا.

ومضى به إلى ملهى لوك الليلي. . شربا مزيداً من الخمر. شاهد رقصة شرقية من أفراح.

أعجب الفتى بالراقصة، طالبه جبريل بتأجيل ذلك إلى ما بعد الرحلة.

قام فؤاد بالرحلة. رجع عند ظهر اليوم التالى. ربح من ورائها ما يربحه عادة فى عام من بيع العجول. احتفلا بالنجاح فى لوك. قال فؤاد:

ـ بوسعى الآن أن أبتاع شبكة فاخرة ونادرة.

فقال جبريل ملاطفًا:

ـ والبقية تأتى..

فتمتم فؤاد بحرارة:

ـ أفراح..

ـ عظيم، أهى من طراز عروسك؟

ـ كلا.

ـ هذا أفضل فعليك أن تشبع من أشياء كثيرة قبل أن تهب حياتك للعروس.

وبنفوذه جاءه جبريل بالراقصة ثم غادرهما إلى مكتب مدير الملهى. استحضر فؤاد لهما الشراب وهام فى السمر. وهيأ له السكر أن أفراح بحيرة زمردية فى مركزها نافورة تنفث السعادة. ولكن اقتحم المجلس ظل ثقيل. رجل متهور سكران يزعم أنه صاحب حق أقدم. سرعان ما تطايرت الكئوس فوق المنضدة محطمة.. وتأرجحت الشموع المتلألئة فى الأركان بفعل اللكمات المتبادلة. انسحبت أفراح وجلة مثل حية عقب معركة خاسرة، وجاء جبريل مهرولا وهو يصيح:

ـ ولا حركة ولا كلمة!

ثبت أنه مسموع الكلمة. تأبط ذراعه ومضى به وهو يجفف له دما يسيل من ثنيتيه.. أسعفه فى صيدلية.

اقترح عليه أن يوصله إلى الفندق ولكن فؤاد قال:

ـ ما زلت مصممًا.

ـ هه؟

ـ أفراح.

ـ ليكن ذلك فى ليلة أخرى.

ـ ليلتى هذه فرصتى الأخيرة.

مضى جبريل الصغير نحو تليفون الصيدلية وهو يتمتم:

ـ لك ما تشاء؟

* * *

استقبل والده فى محطة مصر . استقلا «تاكسى» مضى بهما إلى الفندق ، لحظ الرجل ابنه ثم تساءل :

ـ شفتك متورمة؟

فأجاب وهو مستعد لذلك :

ـ وقف التاكسى فجأة أول يوم لى هنا فارتطمت بحافة المقعد الأمامى !

ـ أظنها بسيطة؟

ـ وممكن نؤجل اللقاء .

ـ كلا ، وقت عبد الرحمن فاضل مشغول دائمًا . . زرت مصلحة المساحة كما كلفتك؟

أجاب بحرج :

ـ شغلنى الحادث ، كان وجهى كله متورمًا .

فصمت الرجل فى ضيق .

جلس بجانب أبيه فى حجرة الاستقبال بفيلا الهرم . بدا متوتر الأعصاب فهمس له أبوه :

ـ تكلم بطلاقة لتحوز الثقة .

وأزيحت الستار . برز من ورائها الرجل فى عباءة بنية . برأس كبير مغطى بطاقية من الصوف الأبيض . نهضا لاستقباله وسرعان ما أصيب فؤاد بدهشة غير متوقعة . دهشة بلغت حد الذهول وجاوزته . خيل إليه أنه يرى جبريل الصغير نفسه . . حتى صوته تردد وهو يقول :

ـ أهلا . . أهلا ، كيف حالك يا شيخ صاوى !

ـ بخير ما دمت بخير يا بيه ، هذا ابنى فؤاد .

وتمت المصافحة دون أن تبدر من عبد الرحمن فاضل بادرة واحدة تنم عن رؤيته للشاب قبل ذلك . حدق فيه بذهول . ساوره الشك . لعلها صورة أخرى ! . . لعله مجرد شبه وليس تماثلا . ولكنه هو هو . كلا طبعًا . إنه توهم وأثر من الليلة الماضية . من يقطع فى ذلك برأى قاطع ؟ !

ونظر السيد إلى فؤاد وقال ببساطة :

ـ أذكر طفولته .

فقال الشاب بحنان :

ـ تلك الأيام الطيبة لا تنسى !

هو جبريل الصغير ، كلا ، هذا رجل آخر جاد ووقور ولا أثر للافتعال فى حركاته . ما

أحوجه إلى صفاء الذهن . ما زالت بقية من الخمر فى معدته لم تهضم بعد . وقال الأب مخاطبا السيد :

ـ لعلك بخير وعافية .

ـ الأمور تسير بعون الله ، ولكن يندر أن نعثر على مخلوق جدير بالثقة .

ـ هذه هى المشكلة !

ـ وكما عرفتنى فأنا لا أقرر البطش إلا عند الضرورة القصوى !

ـ نبل عرف عنك منذ القدم !

ـ والوسطاء ألعن ، ولكن هل يسعنى أن أقوم بكل شىء بنفسى؟

ـ غير معقول ولو كان ممكنا !

ـ حتى خطر لى مرة أن أصفى عملى وأرجع إلى القرية .

ـ يسعدنا رجوعك ولكن بلا قهر !

فقال متأسفا :

ـ الأولاد متعلقون بالمدينة .

وفجأة التفت نحو فؤاد متسائلاً :

ـ مالك يا بنى؟

فتراجع فؤاد إلى أعماقه وقال :

ـ لا شىء يا سيدى .

ـ ولكنك تنظر إلىّ نظرات غريبة !

فتشجع فؤاد لعله ينجو من عذاب حيرته .

ـ الحق . . الحق . . ألك توءم يا سعادة البيه؟

ضحك الرجل وهتف الشيخ صاوى :

ـ يا لجهلك يا فؤاد . . الدنيا كلها تعلم أن البيه وحيد أبويه .

وسأله عبد الرحمن فاضل :

ـ أعرفت شخصًا يماثلنى لهذه الدرجة؟

ـ أجل . . ولكن لعلى واهم .

وقال الأب مجاملاً :

ـ عبد الرحمن بك لا مثيل له !

ولكن السيد سأل فؤاد :

ـ من هو ذلك الشخص؟

ـ يدعى جبريل الصغير وهو من رجال الأعمال.

فهتف عبد الرحمن فاضل:

ـ عليه اللعنة! . . لم يقل أحد قبلك إن بيننا أى شبه.

فتساءل الأب بقلق:

ـ ما لعينيك يا فؤاد؟!

وتمتم فؤاد حائرًا:

ـ أعترف بأنى مخطئ!

فالتفت عبد الرحمن فاضل نحو الشيخ صاوى وقال:

ـ كيف نسيته تمامًا يا شيخ صاوى؟ . . (ثم ضاحكا) كانت لك به علاقة لا تذكر بخير أنسيت؟ الرجل الذى كان يعمل عندى ثم طردته بعد ضبطه متلبسا باختلاس؟

تورد وجه الشيخ صاوى وقال:

ـ اللعنة . . الآن أتذكره . .

فرجع عبد الرحمن فاضل إلى فؤاد متسائلا:

ـ أيدعى أنه صاحب أعمال؟ . . فماذا أكون أنا؟ ما هو إلا نصاب. مهرب. قواد، كيف عرفته يا بنى؟!

تلاشى فؤاد فى حمأة الهجوم، اضطرب لدرجة أن اختفى التماثل بين الرجلين. وبادر الشيخ صاوى يقول مدافعًا عن ابنه:

ـ لم يعش فى القاهرة أكثر من أربعة أيام.

لبث عبد الرحمن ينظر إلى فؤاد منتظرًا الجواب عن سؤاله، فقال فؤاد:

ـ عرفته معرفة سطحية فى مقهى الأمراء. تبادلنا حديثا عابرا ثم افترقنا.

تنهد الشيخ صاوى فى ارتياح. فكر فؤاد بأن أباه مذنب مثله وإلا فما معنى علاقته القديمة بجبريل الصغير؟ أما السيد عبد الرحمن فاضل فقال للشاب بهدوء مريب:

ـ الصدق أولى بالشرفاء!

ـ أقسم . .

ولكنه قاطعه:

ـ ولا تقسم بالله باطلاً!

اصفر وجه فؤاد. لاح شبح الفشل لعينى الشيخ صاوى. استمسك الشيخ بآخر خيط للأمل وقال:

ـ اللعنة على جبريل وسيرته. ما من أجل ذلك جئنا، ألم يحدثك الشيخ مندور عن دوافع زيارتنا يا عبد الرحمن بيه؟.. فؤاد ولد طيب!

فقال عبد الرحمن فاضل بالهدوء نفسه:

ـ كلا..

تلاقت عينا فؤاد بعينى السيد فومضت الحقيقة حتى أعمته. وقال السيد ببرود:

ـ ليس بالولد الطيب ولكنه مهرب، فاسق، معربد.

هتف الشيخ صاوى:

ـ يا ألطاف الله!

خيم صمت معذب. تجسدت الإهانة كما تجسد اليأس من الخطوبة.. كيف يتكلم الرجل بهذه الثقة؟!

من وحى استنتاج أم من وحى الوقائع؟ أله عين دائمة ترصد حركات جبريل فرصدته هو ضمنا؟!

وهل هو تماثل أو تشابه، أم.. لا هذا ولا ذاك؟!

وتساءل الأب فى أسى:

ـ أليس لديك ما تدافع به عن نفسك؟

فتمرد فؤاد على وضعه وقال لأبيه:

ـ أُهنت يا أبى بما فيه الكفاية ويستحسن الآن أن نذهب.

فقال عبد الرحمن فاضل بصلابة:

ـ أنت المهان وأنت المهين!

ثم التفت إلى الأب قائلاً بنبرة لينة:

ـ آسف يا شيخ صاوى.

غادرا الفيلا صامتين يتجنبان الكلام، يتجنب أحدهما الآخر، يغوصان فى حيرة بلا قرار ويشعر كلاهما بالذنب.

الجبـــــــل

١

كهف فوق سطح المقطم. إلى اليسار ممر يبدأ من نقطة عند حافة الكهف اليسرى ويمتد فوق السطح إلى الخارج. إلى اليمين ممر يبدأ من نقطة عند حافة الكهف اليمنى وينحدر نحو الخارج موحيا بالامتداد حتى سفح الجبل.

الكهف مظلم. ثمة أشباح. يد شبح تشعل المصباح المدلى من سقف الكهف. يتضح المنظر. يوجد رجل بالملابس البلدية مقيد اليدين والقدمين جالسًا على الجهة اليسرى من الأرض وأمامه من الناحية المواجهة خمسة من الشبان جالسين على الأرض أيضًا يرتدون القمصان والبنطلونات.

يتوسطهم عساف بمركز الرياسة. إلى يمينه إسماعيل وحلمى. إلى يساره رمزى وحسنى.

الرجل المقيد : (فى حال فزع) انقضضتم علىّ فى الظلام وأنا راجع فتوهمتكم لصوصا، وها أنا ذا أرى أنكم أبناء من حارتى، أنت عساف، أنت إسماعيل، أنت حلمى، أنت رمزى، وأنت حسنى، جيران وأبناء جيران، ما معنى ذلك؟ لماذا فعلتم بى ما فعلتم؟!

عساف : جئنا بك لنحاكمك.

الرجل : (وقد امتزج الفزع بالدهشة) قلت تحاكموننى؟

عساف : نعم.

الرجل : ما أنا بالمجرم.

عساف : إنك مجرم.

الرجل : وما أنتم بالقضاة.

عساف : نحن قضاة كما ترى.

الرجل : إن كنتم تريدون نقودًا. . .

عساف : (مقاطعا) لسنا لصوصا.

الرجل : ولست مجرما.

عساف : إنك مجرم وتعلم أنك مجرم.

الرجل : حذار يا أبنائى من الخطإ، القانون لا يغفل، ولا يفلت أحد من العقاب.

عساف : نشكر لك نصيحتك التى لا حاجة بنا لها .
الرجل : إنكم شبان ، الحياة أمامكم طويلة وعريضة ، ولستم قضاة .
عساف : نحن قضاة ما دام العدل لا يجد من يقيمه .
الرجل : إن كنتم قضاة فأين الدفاع؟
عساف : ما جدوى الدفاع وجريمتك جارية على كل لسان؟!
الرجل : إننى أقرأ الحكم فى أعينكم متجسدا .
عساف : وسبق أن حكم عليك كل متعامل معك .
الرجل : أمثالى يملئون الأسواق .
عساف : سيجيئون تباعًا . .
الرجل : ليس ذنبى ولكنه الزمن .
عساف : بل هو الجشع .
الرجل : وما عقوبتى فى تقديركم؟
عساف : القتل!
الرجل : (صارخًا) القتل؟!
عساف : رجوعك يعنى هلاكنا .
الرجل : (متوسلا) أقسم لكم . . .
عساف : (مقاطعا) طالما حلفت كذبا بالطلاق!
الرجل : الرحمة!
عساف : قتلك رحمة بالعباد .

(يقفون وهو يرتعد. يحمله أربعة. الخامس يحمل خمس عصى غليظة ويتبعهم نحو اليسار. الرجل طيلة الوقت يستغيث)

(إظـــــلام)

٢

(إضـــاءة)

(يرجعون متجهمى الوجوه. تمر فترة صمت في وجوم ثم يبدأ حسنى بالكلام وهو أسوؤهم حالا):

حسنى : أن تقتل إنسانا عمل فظيع حقا ، لن أنسى نظرة عينيه ولا جمود الموت

الناطق بالفناء، لا تعرف الحياة على حقيقتها إلا لحظة الموت، الحق لقد مت معه.

(صمت. حسنى يجفف عرقه) معذرة فإنها المرة الأولى.

رمزى : نحن مثلك..

عساف : (متغلبا على وجومه) هل انهرتم وانتهيتم؟

رمزى وإسماعيل وحلمى: كلا.. كلا.. كلا..

عساف : (مخاطبا حسنى) إنى مثلك تماما يا حسنى ولكن علينا أن نحترف ضبط النفس.

حسنى : تلزمنا أعصاب من فولاذ وقلوب لا تخفق!

عساف : علينا أن نتذكر دائمًا الظلم وأن نثق تمامًا بقوة العادة، وقد تناقشنا طويلا، واقتنعنا بكل قلوبنا، وتعاهدنا على عمل لا رجوع فيه، إنها رسالة، والرسالة وقودها العذاب.

حلمى : هذا ما ارتضيناه بوعى كامل.

عساف : واعتياد الظلم أفظع من اعتياد القتل.

حسنى : الظلم والقتل، كلاهما فظيع.

إسماعيل : لتغفر لنا نوايانا الطيبة.

عساف : تذكروا أننا شرفاء ورحماء.

حسنى : ولكننا لن نعرف الابتسام.

عساف : لنكن شهداء.

رمزى : لنكن شهداء.

عساف : (بنبرة جديدة) علينا أن ننسى الجبل إذا رجعنا إلى الحارة.

حلمى : نمارس حياتنا مثل بقية الناس.

إسماعيل : ونتساءل عن سر اختفاء عم فرجل مع الآخرين.

عساف : ونلعن اللصوص ونعطف على أولاده.

حسنى : أولاده؟! إنهم مظلومون مثلنا.

عساف : (بخشونة) نحن قضاة لا محامون، والتاريخ نهر طويل يتدفق بالدم المسفوك تسعة أعشاره من دماء الأبرياء.

عساف : (يتحرك نحو اليمين وهو يقول): لا تنسوا أن دماءنا ستلتحم بدمائه البريئة ذات يوم.

(يذهبون واحدا فى إثر واحد).

(إظــلام)

٣

(الكهف. عساف، إسماعيل، رمزى، حسنى)

عساف : لندع لحلمى أن يوفق فى مهمته .
إسماعيل : فكرة طيبة ، المجرم زير نساء ، سرعان ما يقتنع بأنه قادم على سهرة طيبة .
رمزى : ستهتز الحارة هذه المرة حتى الأعماق .
عساف : سيؤمنون بأنه سفاح خطير .
رمزى : لن يعطفوا على جلاديهم .
إسماعيل : من أسف أن الخوف سيجتاح الجميع .
حسنى : وربما فطنوا عاجلا إلى نوعية المختفين .
عساف : لعله أنفع لرسالتنا .
حسنى : فى تلك الحال يخشى على الأبرياء من سوء الظن .
عساف : الأبرياء لا خوف عليهم .
حسنى : قد يتعرضون للأذى .
عساف : أشعر بأنك لم تبرأ بعد من ضعفك .
حسنى : ألا ترى أنى أعمل مثلكم؟
عساف : أعنى القلب ، فقد يستقل عن اليد واللسان!
رمزى : اطمئن إليه كما تطمئن إلى نفسك .

(تترامى نحنحة آتية من الخارج. يدخل حلمى يتبعه رجل فى ملابس بلدية فاخرة. الرجل يدهش لرؤيته الآخرين ويتوقف عن التقدم)

الرجل : (مخاطبا حلمى) ما معنى هذا؟!

(ينقضون عليه بسرعة وإحكام. يطرحونه أرضا. يقيدون قدميه وذراعيه وهو يقاوم عبثا. يجلسونه مكان الضحية السابقة وهو ينظر إليهم فى فزع).

الرجل : ما معنى هذا يا أبنائى؟ . . محال أن تكونوا لصوصا .
حلمى : صدقت ، ستعرف كل شىء .
عساف : لسنا لصوصا كما قلت ، نحن قضاة نحاكم مجرمى حارتنا .
الرجل : (برعب) قضاة . . محاكمة . . مجرمون . . !

عســـــاف : كما ترى . . وقد سبقك إلى هنا عم فرجل .

الــرجـــل : ماذا فعلتم به؟

عســـــاف : (مشيرا إلى اليسار) إنه مدفون فى الجبل .

الــرجـــل : ألا تخافون القانون؟ !

عســـــاف : نحن رجال القانون الأسمى ، دافع عن نفسك .

الــرجـــل : (بفزع) أنا فى عرضكم . . خذوا ما تشاءون .

عســـــاف : دافع عن نفسك .

الــرجـــل : (بضراعة) صبركم ، فكروا قليلا ، فيم أختلف عن أى مالك فى مصر؟ ماذا يجديكم قتلى؟

عســـــاف : ينقص الظالمين واحدا .

الــرجـــل : الأمر أكبر من ذلك ، فكروا قليلا ، لنتفاهم ، تجعلون من أنفسكم قتلة بلا ثمرة حقيقية .

عســـــاف : لديك أقوال أخرى؟

الــرجـــل : ماذا أقول؟ ماذا يمكن أن يقال؟ ستبقى المشكلة ، إنها أكبر منى ومنكم ، قد يوجد حل ولكنه ليس فى القتل .

(يقفون. أربعة يحملونه إلى سطح الجبل، يتبعهم الخامس بالعصى).

(إظـــــــلام)

٤

(إضـــــــاءة)

(يرجعون بوجوه متجهمة. نلاحظ أيضًا أنهم أملك لأنفسهم من المرة الأولى. أما حسنى فقد انتحى جانبـا على حال واضحة من السوء. أربعتهم يلاحظونه بقلق، وبخاصة عساف).

(صمت)

عســـــاف : لا يمكن أن تمضى الأمور على هذا النحو .

(صمت)

عســـــاف : إنى أتساءل متى تبرأ من ضعفك!

حـــســنى : يستحوذ علىّ إحساس غريب ، لعله المرض .

عساف : كلا، إنه أدهى وأمر.

حسنى : (بنبرة اعترافية) أخى عساف، ينبغى أن أصارحك بأن دفاع الرجل أقنعنى!

(فترة صمت)

عساف : ما شاء الله، وإذن فالرجل هو المظلوم لا أهل حارتنا!

حسنى : لا أعنى ذلك، إنما أعنى أن قتله لن يحل المشكلة.

عساف : اتفق رأينا فيما سبق على نقيض ذلك!

حسنى : (منفعلا) سنمضى من جريمة إلى جريمة، سنحترف الإجرام ونحن لا ندرى، بت أشعر بالمرض.

عساف : إنك مريض حقا، مريض الإرادة والروح.

حسنى : (بعصبية) العكس هو الصحيح!

عساف : حقا؟! كلامك يعنى أنك سليم وأننا المرضى؟

(صمت)

حلمى : (لحسنى) أهذا ما تعنيه؟

رمزى : (لحسنى) ماذا تقترح؟

عساف : بكل بساطة إنه يمهد للانسحاب.

حسنى : كلا.. أقترح أن نعدل جميعا عن خطتنا.

عساف : عن احتراف الإجرام؟

(صمت)

عساف : لا فائدة ترجى من مواصلة المناقشة، امكث قليلا فى هواء الليل النقى، استرخ فى هدوء، ثم نستأنف الحوار.

حسنى : (يتردد قليلا ثم يذهب ناحية اليمين ويخرج. يتبادلون النظرات).

عساف : ما رأيكم؟

حلمى : سوف يثوب إلى رشده.

إسماعيل : إنى لا أشك فى إخلاصه.

عساف : وإنى لا أشك فى إخلاصه، ولكن الضعف غزاه، ويجب أن نخشى عواقب ضعفه.

رمزى : لعله من الخير له ولنا أن ينسحب.

عساف : إنه حل قد يسفر عن عواقب وخيمة.

إسماعيل : لن يصلح رفيقا لنا.

عساف : أوافقك تماما، ولكن ما الخطوة التالية؟

رمـــزى : نعفيه من العمل .
عـــساف : من يضمن لنا سكوته؟
إسـماعيل : لا شك فى إخلاصه .
حـلـمـى : وكشف الأمر يودى به كما يودى بنا .
عـــساف : الضعف قد يؤدى إلى التهور أكثر مما تؤدى إليه القوة!

(صمت)

إسـماعيل : احتمال بعيد جدّا .
عـــساف : وهل نضع أرواحنا ورسالتنا تحت رحمة الظروف؟
رمـــزى : لدى اقتراح آخر ، أن يقتصر عمله على استدراج المجرمين .
عـــساف : لن يغير ذلك من واقع الأمر شيئًا .
إسـماعيل : فلنجرب ، لست متشائمًا .
عـــساف : دعونى أختبره . .

(عساف يخرج ناحية حسنى. إسماعيل وحلمى ورمزى يتبادلون النظرات فى حيرة واضحة).

إسـماعيل : الصبر ، سينتهى الصراع إلى خير .
رمـــزى : لعله .
حـلـمـى : صدرى منقبض .

(يرجع عساف متثاقل الخطوات. يجلس القرفصاء دافنا وجهه بين ركبتيه. ينظرون نحوه بقلق واستطلاع).

إسـماعيل : ماذا وراءك

(صمت)

رمـــزى : يبدو أنك لم تقنعه؟

(صمت)

حـلـمـى : تكلم يا عساف ، لا تسلط علينا الهواجس .

(يذهب إسماعيل إلى الخارج. تترامى منه آهة فزع. يرجع منفعلا نحو عساف).

إسـماعيل : لقد خنقته!

(يضطرب رمزى وحلمى. يهرعان إلى الخارج. يرجعان أشد اضطرابا).

إسـماعيل : من يصدق؟
رمـــزى : إنه قرار انفرادى ما كان ينبغى أن يتخذ دون الرجوع إلينا .
حـلـمـى : نحن نتدهور وننتحر .

عســـــاف : (رافعا وجها متقلصا من الحزن) الألم يمزقنى .
إســماعــيل : (بحدة) هيهات أن يرده ذلك إلى الحياة .
عســـــاف : لم يدع لى فرصة الاختيار .
إســماعــيل : نحن نعمل كوحدة لا تتجزأ فلم انفردت بالقرار؟
عســـــاف : لقد تحملت عنكم الألم وحدى .
إســماعــيل : لقد قضيت علينا بألم لا يمحى .
عســـــاف : أقدمت على الجريمة دفاعا عنكم وعنى وعن الرسالة، إنى سريع الحزن والألم .
إســماعــيل : إنك قاس فوق ما تصورت .
عســـــاف : الرحمة وحدها هى التى تحركنا .
إســماعــيل : يا للعجب! . . كيف طاوعتك يداك؟!

(عساف يدفن وجهه بين يديه. صمت).

(إظـــلام)

٥

(إضـــاءة)

(عساف، إسماعيل، حلمى. وجوههم جادة ولكن يبدو أن ذكرى حسنى قد جرفتها الأحداث).

حـــلـــمـــى : لم يعد للحارة من حديث إلا حديث السفاح الخفى .
عســـــاف : عظيم .
إســماعــيل : أهلى يتساءلون أين أمضى بعض الليالى حتى الفجر!
عســـــاف : إنه سؤال يتردد فى بيتى أيضًا ويثير متاعب .
إســماعــيل : لذلك يتولانى شعور أحيانا بأننى مطارد .
حـــلـــمـــى : وقد يربط قوم بين غيابنا واختفاء الضحايا!
عســـــاف : لقد اخترنا وسلمنا بالمصير المحتمل .

* * *

(يدخل رمزى متأبطا ذراع كهل. يدهش الرجل ويدهش كذلك عساف وإسماعيل وحلمى).

الكهل : أين نحن؟ (**رمزى يدفعه فيوقعه. يتعاونون على تكبيله على رغم مقاومته وصراخه. يتبادلون النظرات فى صمت**). خدعتنى يا رمزى، ماذا أرى، أنتم لصوص؟!

عساف : لنحمله إلى الخارج حتى نتشاور. (**يمضون به إلى اليسار ثم يرجعون**) (لرمزى) إنه ليس من كنا ننتظر ولا هو من المدانين.

رمزى : لكنه لا يختلف عنهم فى شىء.

عساف : ما جريمته؟

(**صمت**)

حلمى : المسألة بصراحة أنه نجح فى أن يكون خطيب البنت التى يحبها رمزى.

عساف : كيف تقحمنا فى شئونك الخاصة؟

رمزى : إنه كهل وهى فتاة فى السادسة عشرة، استغل فقرها، وفضلا عن ذلك فهو فاسق بدليل مجيئه معى جريا وراء سهرة محرمة.

عساف : مسألة شخصية.

رمزى : بل إنه استغلال دنىء للضعفاء.

عساف : قد تكون البنت آثرته باختيارها.

حلمى : لا تملك دليلا ضده، ثم إنها مسألة خاصة.

رمزى : لها صفة عامة فى رأيى.

عساف : لا يمكن أن نقتل لمثل هذه الأسباب.

حلمى : أتفق معك.

إسماعيل : وأنا كذلك..

رمزى : هل نطلق سراحه ليفشى سرنا؟

عساف : للأسف لا مفر من قتله ولكننا لن نقتله فلسنا مجرمين.

رمزى : إنك تلقى ألغازا؟

عساف : إنى واضح تماما، عليك وحدك أن تقتله، وعليك وحدك أن تدفنه.

(**رمزى ينظر نحو إسماعيل وحلمى ولكنهما يوافقان صامتين. أخيرا يتناول عصاه ويندفع نحو اليسار**).

عساف : سيصبح منذ الآن مجرما.

حلمى : أجل.

إسماعيل : الحق أننا شركاء له فى جريمته.

عساف : ماذا؟

إسماعيل : ها هو ذا برىء يقتل بموافقتنا واقتراحنا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

عساف : هل عندك حل أوفق؟

(إسماعيل يصمت).

عساف : (لحلمى) هل عندك أنت؟

حلمى : كلا.

عساف : هل من سبيل لإنقاذ شرفنا؟

إسماعيل : لن تنقذه قوة فى الأرض.

عساف : بل توجد وسيلة لإنقاذه!

إسماعيل : حقا؟

عساف : أن نعاقب المجرم بما يستحق.

إسماعيل : (فزعا) تقتله كما قتلت حسنى؟

عساف : (ساخرا) إنما أشير إلى الطريق الصواب ولكما الاختيار.

إسماعيل : إنه فوق ما نستطيع.

عساف : كونا مجرمين إذن.

حلمى : لننس الأمر كله.

عساف : هيهات.

حلمى : لا مفر من ذلك.

عساف : إنه الضعف يغزونا مرة أخرى.

إسماعيل : أصبحت الحياة كريهة.

حلمى : لننس الأمر ولنواصل السير، أصبحت الحياة كريهة حقا.

عساف : لقد جردتنا هذه الجريمة من شرفنا.

(يرجع رمزى غاض البصر. يقف مستندا إلى الجدار. يسود صمت).

(إظلام)

٦

(إضاءة)

(عساف، إسماعيل، حلمى، رمزى أمام ضحية جديدة مكبلة بالحبال. عند رأس الممر الأيمن خارج الكهف تقف فتاة متنصتة).

عساف : انتهى التحقيق فلنحمله.

(يحملونه ناحية اليمين مثل كل مرة سابقة).

(الفتاة تدخل الكهف بحذر، متوارية وراء الجدار تصرخ فزعة وتقع مغمى عليها).

(يرجع الشبان الأربعة فزعين وبأيديهم العصى. عساف يركع إلى جانب الفتاة على حين يجرى الآخرون نحو المخرج الأيمن).

عساف : **(بحنان)** هبة . . حبيبتى . . ماذا جاء بك؟!

(يربت خدها. يرجع الشبان).

إسماعيل : لا يوجد أحد، كيف جاءت؟!

عساف : **(للفتاة)** هبة . . هبة . . أفيقى .

رمزى : ماذا جاء بها؟

(تأخذ الفتاة فى الإفاقة. تنقل عينيها بين الوجوه. تتذكر. تقف فزعة).

هبة : **(لعساف)** ابعد عنى، إنك قاتل، كلكم قتلة .

عساف : مهلا، لسنا قتلة، اهدئى حتى أطمئن عليك .

هبة : لا تمسنى . . ابعد . .

عساف : مهلا . . كيف جئت إلى هنا؟

هبة : إنه حظى، لأعرفك على حقيقتك، أنت قاتل؟!

عساف : سأشرح لك كل شىء .

هبة : لقد رأيت بعينى . . رأيت القتل والدم .

عساف : ماذا جاء بك يا هبة؟

هبة : كنت عمياء، لاحظت تغيبك ليلة بعد أخرى، ظننت . . المهم أننى تبعتك .

عساف : يا لسوء الحظ!

هبة : يا للقتل والدم والوحشية .

(تتحول لتذهب. يقف رمزى فى طريقها) .

هبة : دعنى أذهب .

(يتبادلون النظرات) .

حلمى : غير ممكن .

إسماعيل : هذا مفهوم تماما .

هبة : فيم تفكرون؟

رمزى : لا يمكن أن تذهبى، هذه هى الحقيقة الأليمة .

هبة : ماذا تعنى؟

إسماعيل : حقيقة أليمة حقا .
حلمى : أى لعبة قذرة دامية!
رمزى : (لعساف) تكلم يا عساف .
(عساف يئن صامتا) .
رمزى : لا حيلة لنا .
هبة : ماذا تريد؟
رمزى : لن ترجعى أبدا .
هبة : (وهى فى رعب متزايد) ماذا تقصد؟
(تنظر نحو عساف فيزداد منها قربا) .
عساف : دعوا المسألة لى .
رمزى : أوضح!
عساف : يلزمنى وقت للتفكير .
رمزى : الأمر واضح جدا ولعلك لم تنس مصرع حسنى! (عساف ينظر إلى رمزى بقهر) . تكلم يا عساف .
عساف : (بانفعال) لا .
رمزى : لا؟! ماذا تعنى؟!
عساف : قلت لا . .
رمزى : أتريد أن تضحى بنا من أجل حبيبتك؟ (هبة تقترب أيضا من عساف) إنها بريئة، سيئة الحظ، ولكن لا مفر من قتلها . . (هبة تصرخ فزعة) عليك أن تقتلها وعليك أن تدفنها .
إسماعيل : يجب أن ينتهى هذا العذاب .
حلمى : لقد حلت بنا اللعنة . .
رمزى : إنها مهمتك يا عساف .
هبة : (لعساف) أنت تقتلنى؟
عساف : كلا . . لن يمسك سوء .
رمزى : هل تعنى ما تقول؟
عساف : (بتحد) كما تسمع وترى .
رمزى : ها أنت ذا تنكشف على حقيقتك .
عساف : لن يمسها سوء وأنا حى .
رمزى : (للآخرين) لنتخذ قرارا .
إسماعيل : صبرك .

رمــــزى : حتى متى؟
عـســاف : اعتمدوا على، إنها مشكلتى وسأجد لها الحل المناسب . .
رمــــزى : إنه قرار غير قابل للتأجيل .
عـســاف : نهرب معا، أنا وهى . .
رمــــزى : وتتخلى عن الرسالة وعنا؟
عـســاف : إنه الحل الوحيد .
رمــــزى : بل يوجد حل آخر، أن تقتلها وتدفنها بنفسك .
(ثم ينظر رمزى إلى إسماعيل وحلمى محتدا ويقول) تكلما . . ما معنى الخرس فى موقف البيان؟
حــلـمـى : الحقيقة واضحة .
إسماعيل : هذا حق .
رمــــزى : إنه قرار إجماعى . .
عـســاف : إنه المستحيل . .
رمــــزى : نعفيك من التنفيذ ونقوم به نحن .
(هبة تصرخ متعلقة بعساف) .
عـســاف : لن يتم هذا وأنا حى . .
رمــــزى : **(منقضا عليه بعصاه)** إذن يتم وأنت ميت .
(يتبادلان الضرب. يسقط رمزى) .
(هبة تندفع نحو اليمين هاربة. حلمى يتبعها بعصاه. يندفع عساف فى أثر حلمى فيعترضه إسماعيل ولكنه يقتله وينطلق خارجا) .

(إظــــلام)

٧

(إضـــاءة)

(يرجع عساف حاملا هبة بين يديه. يضعها على الأرض. ينظر إليها حزينا) .
عـســاف : عندما يتجاوز الشعور بالألم حده يفقد الإحساس بذاته . لذلك فإنى هادئ وسعيد . لولا أن الوقت غير مناسب لغنيت ورقصت . الوداع لكل شيء طيب أو قبيح . ولتسعفنى سعادتى على دفن الحبيبة والزملاء

والأمل . وأقول لأى هاتف بأننى لن أعترف ولن أنتحر . فى سطح الجبل الغائص فى الظلام متسع للتخبط الجنونى الثمل . امض أيها الشبح متلقيا الخلاء بخلاء أشد، مستعذبا التحدى بلا عون ولا هدف، مستشرفا ضربات المجهول ومفاجآت الغيب، مستعذبا الألم والسخرية وذكريات الأحلام الجميلة . .

الشيطان يَعظ

مسرحية فى فصل واحد

مستوحاة من «مدينة النحاس»
ألف ليلة وليلة

١

(حجرة ذات أسلوب مغربى يتصدرها ديوان يجلس عليه موسى بن نصير).

(يدخل حاجب، ينحنى تحية).

الحاجب : مولاى الأمير، قد وصل الأمير طالب بن سهل مندوب أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان . .

(موسى يقف ثم يتجه نحو الباب. يدخل الأمير طالب بن سهل على حين ينسحب الحاجب. يلتقيان بالأحضان وسط الحجرة).

موسى بن نصير : أهلا وسهلا ومرحبا برسول أمير المؤمنين .

طالب بن سهل : أهلا بكم أيها الأمير موسى بن نصير، وإليك أحمل سلام مولانا الخليفة .

(يجلسان على الديوان جنبا لجنب).

موسى بن نصير : أطال الله بقاء مولانا للإسلام والمسلمين .

طالب بن سهل : تبلغنا أنباء طيبة عن المغرب .

موسى بن نصير : إنه يقبس أنواره من المشرق بفضل الله العظيم وحكمة خليفتنا .

طالب بن سهل : إنك أمير حائز الرضا، فليتم الله نعمته عليك .

(طالب بن سهل يصمت قليلا ثم يواصل).

طالب بن سهل : معى إليك رغبة لأمير المؤمنين.

موسى بن نصير : إنى رهن إشارة مولانا الخليفة.

طالب بن سهل : إنه يريد قمقما من قماقم العفاريت!

(موسى بن نصير يؤخذ بما سمع فيتطلع إلى محدثه صامتا).

طالب بن سهل : فى مجلس سمر جرى الحديث إلى ذكر العفاريت العصاة حبيسى القماقم فتاقت نفس مولانا إلى امتلاك أحدها ليرى بعينه ويسمع بأذنه ويقتنع بعقله.

موسى بن نصير : رغبة مولانا واجبة علىّ، ولكن ماذا أملك لتحقيقها؟

طالب بن سهل : قيل من ضمن ما قيل إنه توجد قماقم من قديم الزمان فى صحرائكم.

موسى بن نصير : أشهد الله على أننى لا أعلم عنها إلا السماع والظن. ولكن ثمة رجلا طاعنا فى السن يعد أخبر الناس بصحرائنا، حاضرها وماضيها، فضلا عما حباه الله به من حكمة، فلنرسل فى طلبه.

(موسى بن نصير يصفق يدا على يد، يدخل الحاجب. على حين يهبط الظلام).

٢

(إضـــاءة)

(موسى بن نصير وطالب بن سهل. يدخل الحاجب).

الحاجب : الشيخ عبد الصمد بن عبد القدوس الصمُّودى. (ينسحب الحاجب. يدخل الشيخ. عجوز وقور. يرفع يديه تحية. يشير له ابن نصير بالجلوس فيجلس على وسادة بين أيديهما).

موسى بن نصير : مرحبا بالشيخ المبارك.

عبد الصمد : (حانيا رأسه) عظم الله المرسل ورسوله.

موسى بن نصير : إنك يا شيخ عبد الصمد رجل الصحراء دون منازع.

عبد الصمد : هى حياتى ومماتى أيها الأمير.

موسى بن نصير : لك علم ولا شك بما يقال عن قماقم العفاريت بها؟

عبد الصمد : **(باهتمام)** هذا ما توكده لنا الكتب القديمة .

طالب بن سهل : فى أى موقع من مواقعها؟

عبد الصمد : يقال إنها مستقرة فى قعر بحيرة بمدينة النحاس .

طالب بن سهل : وما مدينة النحاس؟

عبد الصمد : مدينة قديمة ، يقال إنها ازدهرت قبل التاريخ المعروف بعشرين ألف سنة ، لا يعلم عنها أكثر من ذلك ، لم يذهب إليها أحد ولم يجئ منها أحد ، قد تكون حقيقة وقد تكون خرافة .

طالب بن سهل : ألم يسع ساع إلى اكتشافها؟

عبد الصمد : ذاك ما يفوق طاقات الفرد والجماعة .

موسى بن نصير : مولانا الخليفة يرغب فى الحصول على قمقم من قماقمها!

عبد الصمد : **(يصمت متفكرا ثم يقول)** رغبة مولانا على الرأس والعين ، ولكن الله أمرنا بالشورى ، ومن يمد سلطانه بقوة القرآن فليس به حاجة إلى قوة العفاريت!

طالب بن سهل : اقتضت حكمته أن يسخرها فى خدمة الإسلام والمسلمين .

عبد الصمد : إنها مهمة شاقة حقا أيها الأمير ، فعلينا أولا أن نكتشف موقع فارس من نحاس إذا فركت يده أشارت إلى مكان المدينة .

موسى بن نصير : ستجد منى كل عون .

عبد الصمد : نحتاج إلى قافلة كاملة ومؤن ، وقوة وسلاح ، وحذر ودهاء ، فلعل المدينة ما زالت على قيد الحياة ، ولعلها تستطيع التصدى للغرباء ، بل لعل حاكمها قد سخر عفريتا لخدمته .

(موسى بن نصير وطالب بن سهل يتبادلان النظر برهة).

طالب بن سهل : لو كان لديهم عفريت مسخر لتسلطوا به على العالم .

موسى بن نصير : سأشرع من فورى لإعداد الحملة وسأكون على رأسها .

طالب بن سهل : ولن أتخلف عنها .

عبد الصمد : فليسدد الله خطانا وليجنبنا الضلال .

(يهبط الظلام)

٣

(إضـــــاءة)

(مدخل مدينة النحاس. موسى بن نصيـر، طالب بن سهل، عبد الصمد بن عبد القدوس الصمُّودى).

(ينظرون إلى الداخل وقد لفه ظلام الفجر).

موسى بن نصير : يا لها من رحلة خيالية فى مشقتها، لقد أرهقت الجند والجمال.

طالب بن سهل : لم يصادفنا حولها حى.

موسى بن نصير : اصبر، سوف ينقشع الظلام وتشرق الشمس.

طالب بن سهل : أليس غريبا أنه لا يوجد حارس واحد فى مدخل المدينة؟

عبد الصمد : لعل عزلتها الكاملة أغنتها عن الحراس.

طالب بن سهل : لم أعرف صمتا كهذا الصمت.

عبد الصمد : أهو صمت النوم؟

طالب بن سهل : ألا ينبح فيها كلب أو يصيح ديك؟

موسى بن نصير : ترى أين موقع البحيرة؟

عبد الصمد : ناحية المشرق غير بعيد من المدخل.

(يأخذ الظلام فى الانقشاع ويتجلى رويداً داخل المدينة).

(ميدان مكتظ بالناس، فى عمقه قصر، تقوم على دائرة محيطه الحوانيت وتتفرع عنه الطرقات. الرجال الثلاثة يتراجعون فى حذر).

موسى بن نصير : متى جاءوا؟ . . هل نستدعى الجنود؟

طالب بن سهل : انظر جيداً، إنهم لا يتحركون.

عبد الصمد : أجل.

طالب بن سهل : لا حركة، لا صوت، إنهم أصنام.

موسى بن نصير : هذه وجوه آدمية لا تماثيل.

طالب بن سهل : صدقت، هل يتحركون فجأة؟

موسى بن نصير : انظر إلى هيآتهم، كأنهم تجمدوا بغتة، توجد امرأة على عرش، حولها حراس وحجاب، الجمهور منه من تجمد وهو يرقص أو وهو يهتف، هذه المرأة تجمدت وهى تزغرد، هذا الرجل تجمد وهو يصفق.

عبد الصمد : ليس فى وسع حى أن يتجمد بهذا الكمال، ألا تطرف له عين؟
موسى بن نصير : أترى أنه الموت؟
عبد الصمد : إنى أشم رائحته.
موسى بن نصير : وكيف لميت ألا يتهاوى ويتغير؟
طالب بن سهل : وأين بقية السكان؟ ألا يجىء شرطى أو عابر سبيل؟
عبد الصمد : سأقدم على مغامرة، بسم الله الرحمن الرحيم **(ثم رافعا صوته)**.. يا هوه.. يا عباد الله.. **(صمت)**.
موسى بن نصير : لا استجابة على الإطلاق.
طالب بن سهل : نحن حيال لغز.
عبد الصمد : لله ملك السموات والأرض.
طالب بن سهل : لابد من اكتشاف الحقيقة.. اتبعانى.

(يتقدم، يتقدمون فى حذر، يلمسون المتجمدين، يشقون طريقهم بينهم حتى عرش المرأة).

موسى بن نصير : هؤلاء بشر وليسوا بتماثيل.
عبد الصمد : أموات، ولكن أى موت؟
طالب بن سهل : **(مركزا بصره على المرأة)** يا لها من امرأة جميلة.
موسى بن نصير : قصر جميل وحوانيت ثرية، متى وكيف تخلت عنها الحياة؟
طالب بن سهل : كيف حافظت على أشكالها وتوازنها، ما أجمل هذه المرأة!
عبد الصمد : قد يطول بنا الموقف، وهيهات أن نجد لهذا اللغز حلا، وقد نعود فيما بعد إلى هنا، أما الآن فلا يجوز أن ننسى مهمتنا.
موسى بن نصير : **(متحركا وراء عبد الصمد)** صدقت.
(ثم ينظر خلفه إلى طالب بن سهل).
موسى بن نصير : هلم أيها الأمير، هلم إلى البحيرة، احذر أن تقع فى شراك وهم.

(يهبط الظلام)

٤

(إضـــاءة)

(موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يرمون بالشباك فى بحيرة ويسحبونها فى دأب وصبر. تخرج شبكة عبد الصمد وفيها قمقم).

موسى : الله أكبر.
طالب بن سهل : قادر على كل شيء.
عبد الصمد : يسبح له الإنس والجن وكل حى وجماد.
موسى : قمقم صغير لا يتصور الإنسان أنه يحبس فى بطنه هذه القوة اللانهائية.
عبد الصمد : انظر إلى هذا المفتاح الصغير الملصق بعنقه، إذا دعك خرج العفريت وأصبح طوع أمرنا.
موسى بن نصير : هل نقدم على التجربة؟
عبد الصمد : لا أنصح بذلك، ولكننا نحاول الاتصال به.
موسى بن نصير : على الأقل ليتوكد لنا وجوده.
عبد الصمد : (**يقرب إلى فمه عنق القمقم**) أيها السجين، تكلم بحق الله المتعال.
صوت الجن : أخيرا وبعد عشرين ألف سنة من عذاب السجن.
عبد الصمد : من قضى عليك به؟

(**صمت**)

صوت الجن : ارتكبت معصية رآها ماسة بشرفه.
طالب بن سهل : ستحمل إلى أحكم الناس طرا مولانا الخليفة.
صوت الجن : كفانى عذابا، أخرجنى من القمقم أحقق لك ما تشاء نظير وعد بإطلاق سراحى.
طالب بن سهل : سيقضى الخليفة فى أمرك بما هو قاض.
صوت الجن : أصغوا إلى، إذا أخرجتمونى وجدتم فى خدمتكم قوة لا يقف أمامها بشر، بوسعى أن أجعل الخليفة نفسه عبدا لكم، لا تضيعوا فرصة لا تعوض لإنسان مرتين.
موسى بن نصير : عليك اللعنة، ما زلت عاكفا على الشر.
صوت الجن : ألا تحبون أن تسودوا الدنيا ومن فيها؟
موسى بن نصير : ملكك اللعين أخرج أبانا من الجنة فهيهات أن تخرجنا من الدين.
عبد الصمد : ألك علم سابق بمدينة النحاس؟
صوت الجن : كيف لا وأنا الذى قضيت عليها بالموت المسحور!
موسى بن نصير : إذن هى مدينة ميتة؟
صوت الجن : تلقت ميتتها المسحورة منذ حوالى عشرين ألف سنة.
طالب بن سهل : عشرون ألف سنة؟!.. كأنما ماتت لساعتها، ولكن لم قضيت عليها بما قضيت؟

صــــوت الجن : وقع قمقمي بين يدى الملكة ضمن صيد لها أصابه صياد القصر، ولمست يدها مفتاح القمقم وهى تقلبه فخرجت لها، وسرعان ما أدركت مدى القوة التى أذعنت لها، ثم وعدتنى بإطلاق سراحى إذا حققت لها ما تشاء، وإذا بها تتمادى فى غيها حتى الكفر! ولما كنت عفريتا مؤمنا بالله على رغم معصيتى فقد غضبت وأنزلت بها الميتة المسحورة التى تبقيها على حالها لا تتغير عبرة للمعتبرين، نابذا وعدها لى بالتحرر، هكذا ماتت المدينة ورجعت على رغم إرادتى إلى البحيرة.

عبـد الصـمـد : سوف نخبر مولانا الخليفة بتضحيتك فى سبيل الله، وستكون خير تمهيد للإفراج عنك.

صــــوت الجن : طال انتظارى للعفو والرحمة.

طالب بن ســهل : لكن من يثبت لنا صدقك؟

صــــوت الجن : بوسعى أن أجعل المدينة شاهدا على صدقى.

طالب بن ســهل : كيف؟

صــــوت الجن : بوسعى أن ألغى سحر الموت عنها نهارا فتشهد بعينك ساعاتها الأخيرة.

موسى بن نصير : ألا يصيبنا سوء إذا عثروا علينا؟

صــــوت الجن : كانت مدينة عظيمة تموج بألوان البشر من الوافدين.

موسى بن نصير : وكيف نفهم لغتها أو تفهم لغتنا؟

صــــوت الجن : هذا علىّ هين.

طالب بن ســهل : (بحماس) لابد من خوض هذه التجربة المثيرة، افعل أيها العفريت.

صــــوت الجن : إليكم آخر نهار من حياة المدينة، من طلوع الشمس حتى مغيبها.

(يهبط الظلام)

٥

(إضــــاءة)

(موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يقفون ناحية من الميدان غير بعيد من مدخل المدينة. يتابعون ما يحدث هنا وهناك وقد يعلقون

عليه. ومنظر النهار يبدأ والميدان خال إلا من شرطى يتقلد سيفه ويتفقد الحوانيت. يمر عابر ثم آخر. يقبل التجار فيفتحون حوانيتهم ثم يقبل الزبائن نساء ورجالا وشبانا وتدب الحياة وتتصاعد).

موسى بن نصير : (ذاهلا) أيها الأموات.

طالب بن سهل : (متأملا) كما كنتم وكما نحن تكونون.

عبد الصمد : أموات لا يخطر لهم الموت ببال.

(من حانوت قريب تترامى أصوات. فتاة تقلب بين يديها أقمشة، وشاب أيضا يفعل مثلها).

التاجر : (للفتاة) إنه فاخر ومناسب وسيكون عليك فتنة للناظرين.

الفتاة : سأشهد به حفل زفاف فى الشهر القادم، أرنى أجمل ما عندك.

التاجر : إليك هذا الثوب وهو بخمسمائة.

الفتاة : الأسعار ترتفع بجنون.

الشاب : لكى تغطى أرباح الجشعين من التجار والحاشية!

التاجر : (للشاب) من أجل طول ألسنتكم ضاقت عنكم السجون!

الشاب : لن يبقى خارج الأسوار إلا العبيد.

صوت الجن : (للرجال الثلاثة) لم يحظ بالسيادة فى المدينة سوى الملكة والحاشية ورجال الأمن والتجار، وقد استعبدوا الشعب واستغلوه، ولما سقط القمقم بين يدى الملكة قررت أن تستعبد جميع قبائل الأرض.

موسى بن نصير : الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام فأنقذ كرامة البشر.

* * *

(يقبل شاب فتعترض سبيله فتاة جميلة ثم تتبعه مغازلة إياه وهو يتمنَّع ويتدلل).

الفتاة : كيف تسير وحدك يا جميل؟

الشاب : هذا وقت عمل، أليس لديك ما يشغلك؟

الفتاة : ما يشغلنى شىء عنك، تعال إلى نزهة وكأس عند البحيرة.

الشاب : (مسرعا) إن لم تنصرفى ناديت الشرطة!

عبد الصمد : (للقمقم الذى أخفاه فى عباءته) ما معنى هذا؟

صوت الجن : كان للنساء المقام الأول فى المدينة وبخاصة فى عهد الملكة ترمزين، وكانت الفتاة هى التى تخطب عريسها، وهى التى تغازل الفتى، وهى التى تتمتع بحريتها الجنسية بخلاف الشاب.

طالب بن سهل : (ضاحكا) إذن لم تخل المدينة من طرائف مفيدة!

موسى بن نصير : (باسما) انتظر خيراً أيها الأمير فأنت الذى تمثل الشباب بيننا!

* * *

(تقترب متسولة من الرجال الثلاثة فى جلبابها الرث).

المتسولة : (للرجال الثلاثة) أعطونى مما أعطاكم الإله، أريد مأوى ورجلا وعبدا ومورد رزق ثابت.

طالب بن سهل : فليرزقك الذى خلقك.

المتسولة : (غاضبة) عليكم اللعنة.

* * *

(يقبل رجل مريض يتوكأ على ذراع زوجته).

المريض : (للرجال الثلاثة) أين الطريق إلى المستشفى؟

موسى بن نصير : نحن غرباء لم نعرف مدينتكم بعد، شفاك الإله.

المريض : غرباء؟! إنكم أصل المصائب، تجيئون إلينا من أطراف الأرض حاملين أمراضكم معكم، فتسرقون نقودنا وتعطوننا أمراضكم.
(يبصق ثم يذهب).

* * *

(يقدم موكب رجل غنى. عبيد يحملون هودجه، وعبيد يتقدمون موكبه وهم يوسعون له طريقا بين الناس بالعنف).

شابة : (لزميل يتأبط ذراعها) هذا سلوكهم، ماذا يفعلون غدا وقد سخروا العفريت لخدمتهم؟

صوت الجن : (للرجال الثلاثة) أعترف لكم بأن هذا القول وأشباهه أثرت فى، إذ إننى كنت أنتمى إلى شعب العفاريت المضطهدين.

* * *

(رجل عجوز يقف ناحية من الميدان).

العجوز الضرير : من يسمع كلمة تنفعه؟ . . من يسمع كلمة تنفعه؟
(يقبل عليه نساء ورجال ذوو مظهر حسن وهم يتغامزون).

امرأة : (للعجوز) ماذا عندك مما ينفع الناس؟

العجوز الضرير : إنى أعمى . . .

امرأة : (مقاطعة) هذا واضح.

العجوز الضرير : ولكنى أرى خيرا منكم.
(ضحك).

العجوز الضرير : أرى أشياء جميلة غير الشراء والربح والفسق والسكر وامتلاك العبيد.

كهل وجيه : يا لك من أعمى .
العجوز الضرير : وأرى الموت أقرب إليكم من أجسادكم .
أصوات : عليك اللعنة .
(يقترب الشرطى فيضع يده على منكب الضرير).
العجوز الضرير : من أنت؟
الشرطى : شرطى ، ماذا تقول؟
العجوز الضرير : (فى خوف) أقول لهم إن خدمة الملكة ترمزين أهم من الربح وامتلاك العبيد .
الشرطى : (بخشونة) اذهب لحال سبيلك ، مولاتنا الملكة ليست فى حاجة إلى أحد .

* * *

(يخرج حاجب من باب مكتوب أعلاه «العدل أساس الملك»).
الحاجب : محكمة!
(يتوجه كثيرون نحو المحكمة ويقفون على مبعدة).
(يخرج شرطى سائقًا أمامه رجلا معصوب العينين يئن بصوت مسموع فيدفعه بعيداً عنه ثم يخاطب الجمهور).
الشرطى : ادعى هذا الرجل أنه توجد نجومٍ لا ترى بالعين فحكم عليه بفقء عينيه .
(يدخل الشرطى ثم يجىء بشاب يسير مفرجا الجمهور).
هذا الشاب طالب بمساواة الرجال بالنساء فقضى عليه بالإخصاء . . (ضحك) .
(يدخل الشرطى ثم يرجع بنعش محمول. ثم يخاطب الجمهور).
هذه جثة مجرم ، احتج جهرا على تسخير جلالة الملكة للعفريت .
(ثم يرجع وهو يقول) وفى الغد البقية ، فإلى الغد .
عبد الصمد : (للقمقم) أهلكت المدينة كلها؟
صوت الجن : نعم .
عبد الصمد : وما ذنب هذا الشعب التعيس؟
صوت الجن : قررت إهلاك الظالمين بظلمهم والآخرين بنفاقهم وجبنهم .
عبد الصمد : ألم توجد بينهم مقاومة؟
صوت الجن : بلى ، منهم من قتل ، ومنهم من هاجر فنجا .

* * *

(صوت طبل يجيء من ناحية القصر الملكى. الأنظار تتجه نحو القصر. يخرج الحاجب الأكبر محوطا بحرس ثم يمضى حتى يقف فى وسط الميدان. يلتف الجمهور حوله. حتى التجار يغادرون حوانيتهم. يقترب من الجمع موسى بن نصير وطالب بن سهل وعبد الصمد).

(صمت)

الحاجب الأكبر : إعلان مهم من حضرة صاحبة الجلالة الملكة ترمزين إلى شعبها الوفى الأمين.

(صمت)

بناء على ما تيسر لنا من قوة لا نهائية بفضل تسخيرنا لقوة الجن فى خدمة شعبنا وتحقيق السيادة له على الأرض.

وبناء على نيتنا الصادقة فى ممارسة هذه القوة بالحكمة والعدل ومراعاة سعادة شعبنا بصفة خاصة وشعوب الأرض بصفة عامة، فقد تفضل الإله المعبود فأضفى رضاه عنا، وأصدر قراره بالنزول لنا عن عرشه فوق الأرض.

وإطاعة لقراره المقدس يتعين علينا أن نصبح المعبود الأوحد فى الأرض، وحق على شعبنا أن يعبدنا وأن يقدم لنا القرابين فى الأعياد الدينية.

وبهذه المناسبة المقدسة فإنى أدعو شعبى لشهود حفل التتويج الإلهى فى هذا الميدان عند غروب الشمس.

(صمت)

الحاجب الأكبر : **(يهتف)** لتحيا الإلهة ترمزين.

أصوات الحراس وبعض المتجمهرين : لتحيا الإلهة ترمزين.

(الحاجب الأكبر والحراس يرجعون إلى القصر).

موسى بن نصير : أعوذ بالله الواحد الأحد.

عبد الصمد : قتل الإنسان ما أكفره.

طالب بن سهل : كيف اختبأ الفجر البشع وراء ذلك الوجه الجميل؟!

* * *

وجيه : **(لزميل له)** كان الإله يتخذ من الأصنام رموزاً له وها هو ذا أخيراً يتخذ رمزاً حيا جميلا.

الزميل : فلتحل بنا البركات.

* * *

تاجر : (لزميل له) من يصدق أننى حلمت بهذه المعجزة ليلة أمس؟
الزميل : إنك رجل ذو قلب نقى .

* * *

(يتجمع نفر من الشباب نساء ورجالا على مبعدة يسيرة من الرجال الثلاثة).

شاب : متى وكيف قرر الإله ألا يعبد فى الأرض؟
شاب ثان : ماذا يحدث لنا بعد موت المعبودة الجديدة؟
شابة : فى الحق نحن مدعوون لعبادة العفريت المسخر .
موسى بن نصير : **(غير متمالك نفسه من الدخول فى حوارهم)** أيها الناس إنه كفر وإنه لا إله إلا الله .
الشاب الأول : **(لموسى)** ماذا قلت أيها الغريب؟
موسى بن نصير : **(محتدا)** قلت إنه كفر ولا يجوز أن يضلكم عن إيمانكم .
الشاب الثانى : **(لموسى)** صه . . لا يخلو المكان من آذان وعيون . . هلم إلى الحقول لنستمع إليك فى أمان .
طالب بن سهل : **(يمسك بذراع موسى بن نصير ويقول)** إياك أن تذهب معهم أيها الأمير .
موسى بن نصير : السكوت على الكفر كفر .
طالب بن سهل : لقد مضى على الحوار عشرون ألف سنة .
موسى بن نصير : **(يذهب قائلا)** سأغير الماضى كما أغير المستقبل .
(يذهبون).
طالب بن سهل : لقد زج بنفسه فى متاعب ماض انقضى منذ عشرين ألف سنة .
عبد الصمد : نحن ملتحمون به الآن ولا ندرى كيف يتعامل معنا .
طالب بن سهل : كأننى فى حلم .
عبد الصمد : إنه حلم فى باطن حلم!

* * *

(صوت موسيقى من ناحية القصر).
(يخرج موسيقى ومنشد يتبعهما عبيد يحملون دنان الخمر).
(يملئون الكئوس.. يقدمونها للناس).

خادم : نخب المعبودة .
خادم ثان : اشرب واطرب وتمتع بحياتك .
خادم ثالث : الدنيا قبلة وكأس .

(أناس يقبلون على الشراب ويشيع الطرب).

* * *

(يذهب السقاة وهم يوزعون الخمر. تترامى أصوات موسيقى شعبية، يظهر فريق جديد من طريق جانبى يدل مظهره على أنه يمثل «سيرك» ويعلن عنه. يتقدمه مناد يتبعه بلياتشو ورجال أقوياء مصارعون وحاملو أثقال).

المنادى : بشرى . . بشرى . . **(الناس يلتفتون نحو المنادى)** .

السيرك الكبير يشارك فى أفراح الشعب لمناسبة تتويج معبوده الجديد بعرض خاص هذه الليلة، برنامج حافل لم يسبق له مثيل، إليكم بعض النمر المختارة :

مصارعة حرة بين أسد جائع وبين رجل من أهل مدينتنا ثبتت خيانته فى مطالبته بتحرير العبيد . عرض نماذج من مجانين ممتازين نساء ورجالا سبق أن تولوا مناصب مهمة فى الدولة .

حرق رجل وهو حى لاعتراضه على عبادة الملكة ترمزين .

رجل وامرأة يعرضان قواهما الجنسية العجيبة .

ساحر السيرك يتنبأ لأى زبون عن مستقبله .

نشيد جديد عن الأبطال الذين بنوا مدينتنا سيدة الدنيا .

(الناس تتابع الإعلان، وعند نهاية كل مقطع يتصاعد الهتاف).

طالب بن سهل : **(ساخرا)** واأسفاه . . لن يسعدنا الحظ بمشاهدة هذا العرض الحافل .

عبد الصمد : **(باسما)** من يدرى؟ ، قد ينجح الأمير موسى فى تغيير الماضى!

* * *

(ضجة تجىء من طريق جانبى. تتقدم الجماعة المتمردة على رأسها موسى بن نصير وقد أحاط بهم جنود شاكو السلاح يسوقونهم نحو القصر).

طالب بن سهل : **(بجزع)** اكتشفت السلطة أمرهم ، ما العمل؟ أخاف أن يصيب أميرنا سوء؟

عبد الصمد : **(محاولا تهدئته)** هل تستطيع يد هالكة منذ عشرين ألف سنة أن تؤذى إنسانا من زماننا؟!

طالب بن سهل : محتمل أن يؤثر سحر قديم فى أحدنا ، أليس كذلك؟

عبد الصمد : **(للقمقم)** أثمة خوف حقا على صاحبنا؟

صوت الجن : إنى لا أعلم الغيب .

عبد الصمد : لكنهم أموات يعيدون تمثيل أحداث وقعت وبلا زيادة .

صوت الجن : أضاف صاحبكم بتدخله حدثا جديداً .

طالب بن سهل : أرجعهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يمتد يد بسوء إلى الأمير .
صوت الجن : هذا ما أعجز عنه وهيهات أن يتكرر قرارى قبل اللحظة التى وقع فيها .
طالب بن سهل : يا للفظاعة ، لن أتردد عن التدخل لدى أول فرصة .
صوت الجن : إنها حياتك فافعل ما تشاء .
طالب بن سهل : (لعبد الصمد) لعلك تعرف قراءة الطالع؟

(تسمع السؤال امرأة مارة فتقف ثم تقترب من عبد الصمد).

المرأة : أود أن تقرأ لى طالعى .

(سرعان ما يتجمهر أناس حوله مستطلعين).

عبد الصمد : لست عرافا .
المرأة : سمعتك تقرأ لصاحبك طالعه .
عبد الصمد : ما سمعت من ذلك شيئا .
رجل : بل سمعتك . . لماذا تضن علينا بقدرتك؟

(المتجمعون يلحون فى غضب).

طالب بن سهل : اقبل ، قل ما يحلو لك ، وأنقذنا من غضبهم .
عبد الصمد : عظيم . . عم تسألون؟
المرأة : الذى فى بطنى أنثى أم ذكر؟
عبد الصمد : ذكر . . أبشرى . .
المرأة : (بفزع) أتسخر منى أيها الدجال؟!
عبد الصمد : (هامسا لطالب بن سهل) نسيت ورب الكعبة .
شاب : (لعبد الصمد) ألا سبيل إلى مقاومة العفريت؟
عبد الصمد : لا تنس أنه يعمل فى خدمة إنسان!
الشاب : (بحماس) بلى : سيظل الإنسان هو الأقوى .
كهل : ما علاج الخوف من الموت؟
عبد الصمد : الموت نفسه .

(غضب من الكهل وضحك من الجمهور).

فتاة : متى يزول الظلم؟
عبد الصمد : بعد ساعات .
الفتاة : ماذا تعنى؟
عبد الصمد : ليس عندى زيادة .
رجل : قضيتى هل أكسبها؟

عبد الصمد : لن يكسبها خصمك!
الرجل : إنى أسأل عما يخصنى.
عبد الصمد : ليس عندى زيادة.
امرأة هزيلة : متى أشفى من مرضى؟
عبد الصمد : قبل حلول المساء.
المرأة : ما أحلى كلامك لو يتحقق.
(يمر الشرطى فيفترق الناس).
طالب بن سهل : كاد يغلبنى الضحك.
عبد الصمد : ما أعجب أن تحاور أمواتا!
طالب بن سهل : من موقعنا هذا ينكشف لنا الغيب طيلة هذه التجربة الفريدة.
عبد الصمد : حتى ذلك لا نستطيع أن نجزم به.
طالب بن سهل : نحن أحياء وهم أموات.
عبد الصمد : حسن أن تقول ذلك لنطمئن على أميرنا لكن لا تنس أنهم الآن أحياء وأننا لم نولد بعد.
طالب بن سهل : أود أن أفعل شيئًا لإنقاذ موسى.

* * *

(من القصر يخرج رئيس الشرطة يتبعه حراس. تنصب منصة فى الميدان).
حاجب : الشرطة تحاكم المتمردين تمهيداً لإحالتهم إلى المحكمة.
(الجمهور يهرع للمشاهدة).
(رئيس الشرطة يجلس على المنصة. يقدم أمامه مجموعة المتمردين وعلى رأسهم موسى بن نصير).
طالب بن سهل : ها هو ذا الأمير، لن يمسه أحد بسوء وأنا حى.
عبد الصمد : تمهل.. ولنتابع الماضى وهو يحاكم المستقبل.
رئيس الشرطة : (للمتمردين) إنكم شباب أرعن، لا إله لكم، وجهركم بالشر يغنى عن مساءلتكم، ستمثلون غداً صباحًا أمام القاضى فى المحكمة.
(رئيس الشرطة يلتفت نحو موسى بن نصير ويقول)
رئيس الشرطة : ماذا أوجدك بين هؤلاء الشبان وأنت كهل، ما كنت أتصور أن الكهول قابلون للعدوى بأمراض الشباب. ما اسمك؟
موسى بن نصير : موسى بن نصير.
رئيس الشرطة : أى اسم هذا؟
موسى بن نصير : هذا اسمى وأدعى به فى الشرق والغرب.

رئيس الشرطة : إنك تستحق بسببه السجن، أأنت غريب؟
موسى بن نصير : نعم.
رئيس الشرطة : من أى البلاد؟
موسى بن نصير : من بلاد المغرب.
رئيس الشرطة : لا علم لى بها. أنت كاذب، جاسوس وكاذب، ما عملك؟
موسى بن نصير : أمير المغرب.
رئيس الشرطة : لن ينفعك ادعاء الجنون.
موسى بن نصير : إنى أعرف أكثر منك بعشرين ألف سنة.
رئيس الشرطة : لن ينفعك ادعاء الجنون، إنك متهم بترويج أفكار مستوردة لإفساد شبابنا.
موسى بن نصير : ما قلت لهم إلا الحق وهو أنه لا إله إلا الله.
رئيس الشرطة : ها أنت ذا تعترف بكفرك على الملأ فما أنت إلا جاسوس يروج للكفر.
موسى بن نصير : سوف يحل بكم العقاب بعد ساعات ولا خلاص لكم إلا باتباع قولى.
رئيس الشرطة : سنرى من الذى سيحل به العقاب، سأفصل رأسك عن جسدك بيدى هذه صباح الغد. (للجنود) أعيدوهم إلى السجن.
(الجنود يسوقون المتهمين إلى القصر).

* * *

(يجيء رجلان وقوران، يقفان على مقربة من طالب بن سهل وعبد الصمد دون أن يفطنا إلى وجودهما).

الأول : سيدى الأستاذ نحن فى ورطة.
الثانى : لكل مشكلة مفتاح.
الأول : قضينا العمر ونحن ندرس لأجيال من طلاب العلم فلسفة تبجل الإله وقدرته، وتحلل الإنسان وفناءه، فكيف يكون موقفنا اليوم أيها الزميل؟
الثانى : نقول فى ترمزين ما قلناه فى الإله.
الأول : وكيف تفسر تناقضنا بين اليوم والأمس؟
الثانى : رأى الإله بقدرته اللانهائية أن يرفع الملكة إلى مرتبة الألوهية.
الأول : ولماذا ينزل الإله عن سلطانه لبشر فان؟
الثانى : لم تعد فانية.

الأول : وإن أدركها الموت؟
الثـانـى : أعتقد أننا سنسبقها إليه .
الأول : ومحتمل أن تسبقنا هى .
الثـانـى : نقول إن حكمة الإله لا تناقش .
الأول : وإذا تمادوا فى المناقشة؟
الثـانـى : نستعين بالشرطة فهى البرهان الأخير لمن لا يقتنع .
الأول : **(ضاحكا)** الآن شرحت صدرى ، والآن نستطيع أن نعد الخطبة التى سنلقيها عند الغروب . . **(يذهبان)** .
طالب بن سهل : **(متعجبا)** حتى أهل العلم؟!
عبـد الصـمـد : يؤسفنى أيها الأمير أن أذكرك بأن دار الإسلام لا تخلو من أمثالهم .
طالب بن سهل : **(دهشا)** أأنت من شيعة على بن أبى طالب؟
عبـد الصـمـد : إنى من شيعة الحق ورزقى على الواحد الأحد .

* * *

(يقترب نفر من الشرطة من موقف طالب بن سهل وعبد الصمد) .
الشـرطى : **(لعبد الصمد)** أنت العراف؟
عبـد الصـمـد : ما أنا بعراف .
الشـرطى : ترامى خبرك إلى جلالة الملكة فقررت أن تسمعك . أبشر بحظك السعيد واتبعنى .
(يتردد عبد الصمد ولكن الجنود تدفعه صوب القصر) .
طالب بن سهل : لم يبق سواى ، أصبحت وحيداً فى هذه المدينة الميتة ، ترى بأى حال تنتهى هذه المغامرة؟

* * *

(ما يكاد يتم قوله حتى تقترب منه امرأة كهلة حسنة المنظر) .
المـرأة : أبشر أيها الشاب السعيد
طالب بن سهل : ماذا وراءك يا سيدة؟
المـرأة : اتبعنى إلى حظك السعيد .
طالب بن سهل : أى حظ سعيد؟
المـرأة : لقد رأتك الملكة ترمزين من نافذة قصرها!
طالب بن سهل : **(بذهول)** الملكة ترمزين؟!
المـرأة : وهى تدعوك إلى حظك السعيد ، اتبعنى .
(تسير المرأة فيتبعها طالب بن سهل منفعلا بصورة واضحة) .
(يهبط الظلام)

٦

(إضــــاءة)

(بهو العرش. الملكة ترمزين جالسة فوق العرش حجاب. حراس).

(تدخل المرأة).

المــــــــرأة : (تنحنى) مولاتى، إنه ينتظر.

المـــلـــكـــة : أذنت له.

(الملكة تشير إلى الحجاب والحراس فينسحبون).

(يدخل طالب بن سهل. ينحنى تحية).

(الملكة تبتسم. تشير إلى مقعد قريب فيجلس عليه. تمعن فيه النظر بإعجاب لا تحاول إخفاءه. طالب يبادلها النظر بتأثر).

تـرمــــــزيـن : العين أصدق رسول وأخلص دليل.

طالب بن ســهل : هى كذلك يا مولاتى.

تـرمــــــزيـن : حدثنى عن نفسك.

طالب بن ســهل : اسمى طالب بن سهل.

تـرمــــــزيـن : غريب مثل صاحبيك؟

طالب بن ســهل : ومن بلاد بعيدة.

تـرمــــــزيـن : ما كنت أتصور أنه يوجد غريب بصورتك وقوامك.

طالب بن ســهل : الغرباء مثل رعاياك يسعون ويحبون ويموتون.

تـرمــــــزيـن : لا تجدف إنك استثناء، ما عملك؟

طالب بن ســهل : تاجر.

تـرمــــــزيـن : تاجر وعراف وجاسوس.. ماذا جمعكم؟

طالب بن ســهل : لقد تورط صاحبنا دون قصد سيئ.

تـرمــــــزيـن : لا تدافع عن مجرم، ولكن لندع هذا الحديث جانبا، قلت إنك تاجر. التاجر شخص ممتاز ومفيد، ولكن موضعك الحقيقى بين الحجاب أو الحراس.

طالب بن ســهل : ما أنبل نواياك يا مولاتى!

تـرمــــــزيـن : نحن النساء ننتظر قدرنا منذ البلوغ، وصدقنى فإنك أول رجل فى حياتى.

طالب بن سهل : من السعادة يا مولاتى ما يعز على الأحلام.

ترمزين : (باسمة) فيك جرأة محببة، ما من شاب فى موقفك إلا ويبدى الخجل والتمنع، أما أنت فتجاهر بسعادتك بلا تردد، أصارحك بأنه يعجبنى الشاب المتحلى بأحوال النساء!

طالب بن سهل : (مداريا ابتسامة) أخرجنى الانبهار من الحياء.

ترمزين : بالصدق والصراحة هل تبادلنى عواطفى؟

طالب بن سهل : أجل.. أجل يا مولاتى، ومنذ قديم.

ترمزين : حقا؟.. لعلك رأيتنى فى احتفال البحيرة؟

طالب بن سهل : رأيت جمالك فى خلوده.

ترمزين : رأيتك من نافذتى، من نظرة عابرة، دلتنى على أغنيتى المفضلة.

طالب بن سهل : ليهنأ كل محب بحبه إكراما لحبنا.

ترمزين : ولكن تجىء المتاعب فى أعقاب الحب!

طالب بن سهل : المتاعب؟

ترمزين : اختيار غريب لرئاسة الحرس قرار مثير للاستياء. (صمت) وزواجى من بشر عقب جلوسى على عرش الآلهة مستحيل، ولكنك ستكون أقرب إلى من أنفاسى المترددة.

طالب بن سهل : (بنبرة غلبها الحزن) ستصفو لنا الأيام.

ترمزين : وجهك ينطق بالأسى على حين يلهج لسانك بالسعادة.

طالب بن سهل : إنى أتساءل هل يسعد إنسان حقا بحب إلهة؟

ترمزين : بين يديك سأظل امرأة!

طالب بن سهل : قلبى يتوجس خيفة.

ترمزين : يا له من قلب ساذج.

طالب بن سهل : لم يحدث ذلك لبشر من قبل.

ترمزين : كأنما يداخلك شك فى قدرتى؟

طالب بن سهل : إنى بشر وأتمنى ألا تتخلى حبيبتى عن بشريتها.

ترمزين : لدى من القوة ما أستطيع أن أطيِّر به مدينة فى الفضاء.

طالب بن سهل : قوة عفريت مذنب؟!

ترمزين : القوة هى القوة بصرف النظر عن مصدرها، ماذا يملك الإله أكثر من ذلك؟

طالب بن سهل : يملك القوة ومصدرها والمسيطر عليها.

ترمزين : إنك تذكرنى بأقوال الخونة!

طالب بن سهل : ما أنا إلا محب يحب حبه ويحرص عليه .
ترمزين : ستجد ألا أصل لمخاوفك وأوهامك .
طالب بن سهل : أتوسل إليك أن ترجعى عن قرارك قبل فوات الفرصة .
ترمزين : أرجع؟
طالب بن سهل : أتوسل إليك، من أجل حبنا، من أجل سعادتنا .
ترمزين : سنكون أقدر على الاستمتاع بها من جميع البشر .
طالب بن سهل : إنها تجربة تنذر بالهلاك .
ترمزين : الهلاك؟! . . ماذا قلت؟
طالب بن سهل : ارحمى قلبى وحبى .
ترمزين : ما أعجب الحب، لو نطق غيرك بما نطقت به لفصلت رأسه عن جسده .
طالب بن سهل : ابقى امرأة لا إلهة .
ترمزين : ستجدنى امرأة وقتما تشاء .
طالب بن سهل : **(بحرارة)** أصغى إلى باسم الحب، صدقى قلبا يهيم بحبك، فالحب يلهمه الصواب . أقول إن الهلاك معلق فوق رأسك فتجنبيه، خذى الحب ودعى الموت، استجيبى لى لعل معجزة تقع .
ترمزين : **(ضاحكة)** أيها الرعديد المحبوب، ستشهد التتويج بنفسك، ثم نرجع لنصنع من حبنا الأعاجيب .
طالب بن سهل : **(بأسى)** لن نذوق من الحب قطرة واحدة .
ترمزين : **(بحدة)** إنك تتحدث عن الموت كأنه حقيقة واقعة .
طالب بن سهل : لقد رأيته بعينى!
ترمزين : **(ساخرة)** أأنت عراف أم تاجر؟
طالب بن سهل : أنا محب والمحب يرى ما لا يراه الآخرون .
ترمزين : كفى، لن ننتهى إلى اتفاق، تعلق بمخاوفك حتى تنقشع فى ليلتنا السعيدة، حسبنا ما ضاع فى نقاش عقيم، إنى أنتظر صاحبك العراف الذى أجلت لقاءه لهفتى عليك، لنسمع صوت الغيب الصادق .
(تصفق. يدخل حاجب).
ترمزين : إلىّ بالعراف . **(الحاجب يذهب. عبد الصمد يدخل. يرفع يديه تحية. يلمح طالب بن سهل ولكنه يتجاهله. يجلس عندما تشير إليه الملكة بالجلوس) (لعبد الصمد)** أبلغتنى عيونى المنتشرة فى كل مكان عن قدرتك .

عبد الصمد : ما أنا إلا عبد.
ترمزين : لدى أسئلة عن الغيب قبل أن يسفر لى عن وجهه عند المغيب.
عبد الصمد : ما أنا إلا عبد.
ترمزين : تواضع محمود، أجبنى يا رجل: هل يوجد متمردون آخرون غير الذين قبض عليهم اليوم؟
عبد الصمد : التمرد كامن فى القلوب، جهر به البعض فقبض عليهم، وأخفاه الآخرون وراء أقنعتهم الكاذبة.
ترمزين : **(بحدة)** ماذا قلت؟
عبد الصمد : أقول ما يخطر لى وإن شئت سكت.
ترمزين : ألا يؤمن بى أحد؟
عبد الصمد : حتى الشيطان فى قمقمه يعبد الإله.
ترمزين : خيبت ظنى بك.
عبد الصمد : حذار من قرارك، سينفجر لعنة مدمرة على الأرض.
ترمزين : وما مصير ترمزين؟
عبد الصمد : مصيرك بيدك.
ترمزين : إنى أحب الحياة.
عبد الصمد : ما عليك إلا أن تحبيها بصدق.
ترمزين : أحبها وأحب الحب.
عبد الصمد : إذن تراجعى عن الموت.
ترمزين : إنى أدرك ما ترمى إليه.
عبد الصمد : ستهلكين عند مغيب الشمس.
ترمزين : أعلم يقينا أنك كاذب، أتدرى ماذا يصيبك إذا نجوت؟
عبد الصمد : إذا نجوت من الموت فأرسلينى إليه.
(طالب بن سهل يرفع يده مستأذنا فى الكلام).
ترمزين : تكلم يا طالب.
طالب بن سهل : مولاتى، هذا الرجل يتكلم بثقة، وقد راهن على صدقه بحياته.
ترمزين : إنى أملك قوة لا تقاوم.
عبد الصمد : عفريتك عبد للإله، سيغضب لإلهه فيتخلى عنك ولو فقد آخر أمل فى تحرره.
طالب بن سهل : سوف يدمرك فوق عرش الألوهية.
ترمزين : **(غاضبة)** الآن وضح الحق، ما أنت يا طالب إلا نسيج فى مؤامرة،

مثل هذا العراف الكاذب، ومثل صاحبكم الذى قبض عليه وهو يؤلب شعبى علىّ. (**ترمزين تصفق. يدخل حاجب**) أحضروا الجاسوس. (**للرجلين**) إنكم تخافون القوة المسخرة أن تذل شعوبكم، ولكنى سأعتلى بها عرش الألوهية وأسود الأرض، الحب نفسه يا طالب لن يغرينى بخيانة مدينتى المقدسة. . (**يحضر موسى بن نصير ويسمع آخر خطابها ثم يقف**) (**تلتفت إلى موسى بن نصير غاضبة**) ها هو ذا الجاسوس الذى سيفصل رأسه عن جسده غدًا (**ثم ملتفتة إلى طالب بن سهل**) أما أنت فإنك شر الثلاثة لقد اتخذ أحدهما من الجاسوسية وسيلة إلى هدفه، ومارس الثانى الدجل، أما أنت فأهنت الحب المقدس، أنزلته من علياء سمائه وجعلته خدعة دنيئة.

طالب بن سهل : (**بحرارة وأسى**) : أقسم بربى أننى أحبك من كل قلبى، وأننى أتحدى الماضى والواقع لأنقذك من العدم.

ترمزين : هيهات أن أصدقك.

موسى بن نصير : (**منفعلا**) الوقت يقترب بسرعة مخيفة، وإذا أردنا أن نخوض التجربة المتاحة النادرة وهى تغيير الماضى فما علينا إلا أن نكاشفها بالحقيقة (**صمت**).

(**للملكة**) أيتها الملكة. . إنك فى الحقيقة ميتة قد شبع منك العدم.

ترمزين : (**تضحك ساخرة**) أيها الضال المضلل، بلغنى أنك تدعى الجنون، ولكنك ستنال جزاءك غداة الغد، أنت أنت الميت لا ترمزين.

موسى بن نصير : إنك ميتة منذ عشرين ألف سنة!

ترمزين : (**مغرقة فى الضحك**) خوفكم من قوتى أذهب عقولكم، فلتذهب إلى الجحيم ولتبق ترمزين ومدينتها إلى الأبد.

عبد الصمد : ما أشق أن تقنع حيا بأنه ميت.

طالب بن سهل : مولاتى، أعيرينا أذنك لتسمعى قصة مدينتك.

ترمزين : أيها المخادع الكذاب هل تشاركهما جنونهما؟ هل ترانى ميتة أيضًا؟

طالب بن سهل : لقد اكتشفنا المدينة وما بها إلا جثث أهلها: ولما استخرجنا العفريت من البحيرة اعترف لنا بأنه هو الذى أنزل بها الموت المسحور جزاء كفرها، ولكى يثبت لنا صدقه أوقف سحره نهارًا واحدًا هو هذا النهار الذى يقترب من نهايته، هكذا دبت فيكم حياة كالحلم لا تلبث أن تنقشع، وسوف يدرككم الفناء كما أدرككم أول مرة.

ترمزين : يا للدجل والكذب والخداع!

عبد الصمد : اعدلى عن قرارك توهب لك الحياة من جديد .
طالب بن سهل : هى الحقيقة يا مولاتى ، صدقينا قبل فوات الفرصة النادرة .
ترمزين : أيها الجواسيس الحقراء الحاقدون على عظمة مدينتى الموعودة!
موسى بن نصير : عن أى عظمة تتحدثين؟ ما هى إلا عظمة ذاتك ورجالك ، إنك تذلين شعبك كما تذلين الغرباء ، حتى أصحاب العقول والإلهام جعلت منهم عبيدا ودمى . انظرى ، ها هو ذا المستقبل يتجسد أمام عينيك ويعدك بمعجزة فاستجيبى له ، فمن لم يفقه لغة المستقبل دمره الحاضر .
ترمزين : **(تخرج القمقم من تحت وسادة)** أيها العفريت . اقذف بالحقيقة فى وجوه هؤلاء الجواسيس . **(صمت) (مقطبة)** أيها العفريت!
(صمت) (ثائرة) فهمت . . ما أنتم إلا سحرة ، تسلطتم على لسان العفريت ، ولكنى ما زلت مالكته ، وسوف يتحرر من سحركم حال قتلكم .
طالب بن سهل : حبيبتى لا تهدرى فرصة لا يجود بها الزمان أبدا ، أمامنا فرصة للحب ولخلق معجزة يفيد منها عالمنا الحى ، اقنعى بإنسانيتك وفيها الكفاية من المجد ، أطلقى سراح العفريت فما يجوز أن يملكه فرد به ضعف ، حررى شعبك ، احترمى عقل الإنسان وقلبه ، المجد لمن يخدم لا لمن يستخدم ، ولنحظ بعد بأغنية الحب الخالدة فلا خالد فى الدنيا إلا أنغامها .
ترمزين : لا يوجد فى الأحياء من يستطيع خداعى .
عبد الصمد : (للقمقم) كاشفها أنت بالحقيقة ، دعنا نشهد المعجزة!

(صمت)

صوت العفريت : مولاتى ترمزين .
ترمزين : (بدهشة وسرور) أخيراً تكلمت .
صوت العفريت : إنى رهن إشارة منك .
ترمزين : أيها العفريت ما رأيك فيما قال هؤلاء؟
طالب بن سهل : نحن راضون بحكمه ولكن عليك أن تفقهى قوله .
ترمزين : (للقمقم) ما رأيك فيما قال هؤلاء؟

(صمت)

صوت العفريت : إنك حية بل سيدة الأحياء .

(ترمزين تضحك فى سرور وشماتة)

عبد الصمد : أيها العفريت ، ألم تهلك المدينة وصاحبتها منذ عشرين ألف سنة؟
صوت العفريت : كذبت أيها الجاسوس!
ترمزين : يا للنصر .
(تصفق. يدخل حاجب. تأمره بإحضار الجنود)
صوت العفريت : لا يجوز أن تعدمى أحداً منهم قبل التتويج .
(يدخل الجنود)
ترمزين : خذوا الجواسيس إلى السجن وآتونى برءوسهم لدى عودتى من التتويج .
(تقف. تقترب من طالب وهو ضمن المقبوض عليهم)
(لطالب بن سهل) سوء الحظ لم يدركك وحدك يا طالب .
طالب بن سهل : إنى سيئ الحظ ما فى ذلك من شك .
ترمزين : لا مجد بلا ثمن . (تشير إلى الجنود فيمضون بهم) (محدثة نفسها فى أسى) ولكن ما أفدح الثمن .
(يهبط الظلام)

٧

(إضاءة)
(الميدان)

(حراس.. الجمهور يتطلع نحو العرش. موسيقى يتخللها هتاف كالهدير طبول يعقبها صمت شامل)
(يظهر موكب الملكة ترمزين خارجا من القصر فى هالة بالغة من الكمال والجمال)
(هتاف يستمر حتى تجلس على العرش)
(تشير الملكة إلى كبير الحجاب)
(يتقدم كبير الحجاب ويلقى خطبته)
كبير الحجاب : أيتها الملكة المجيدة ترمزين ، سيدة عالمى الأحياء والأموات . ودعى آخر لحظة من حياة البشر الفانية ، وتبوئى عرش الألوهية الخالد ، دمت لنا وللأرض «إلهة خالدة»!
(فجأة يرعد انفجار مروع يعقبه ظلام)

٨

(إضـــــاءة)

(المنظر الأول. منظر الميدان والجـثث المتجمدة. موسى بن نـصير، طالب بن سهل، عبد الصمد)

(موسى وعبد الصـمد ينظران فيما حولهما. طالب مـستغرق فى النظر إلى ترمزين)

عـبـد الصـمـد : مدينة الموت .

موسى بن نصير : مدينة الحلم .

طالب بن سـهل : مدينة الحب المستحيل .

عـبـد الصـمـد : **(منفعلا للقمقم)** خدعتنا أيها العفريت ، ما زال قلبك ينبض بالشر !

صوت العـفريت : أبيت أن أضيف إلى ذنوبى ذنبا جديداً .

عـبـد الصـمـد : أى ذنب فى هداية امرأة ضالة إلى الصواب .

صوت العـفريت : لو فعلت لتعذر على إهلاكها ، ولبعثت إلى الوجود مدينة ملعونة هلكت بظلمها لتواصل حياة غريبة متأخرة عن دنياها عشرين ألف سنة ، ولعمرى إن ذلك شر من الموت نفسه .

موسى بن نصير : حجة مقبولة فيما أرى ، فما يهلك لظلم لا يحق بعثه .

صوت العـفريت : حسبنا أن الثائرين قد هاجروا فنجوا ثم جاء عالمكم من ذراريهم .

عـبـد الصـمـد : **(باسمًا)** يبدو أنه قد اندس بينهم نفر من المنافقين والجبناء . . فما أبعد دنيانا عن الكمال .

موسى بن نصير : **(ملتفتا نحو طالب بن سهل)** أفق أيها الأمير فلا جدوى من التعلق بحب زمان مضى .

صوت العـفريت : لقد كفرت عن ذنبى ، أطلقوا سراحى أيها الرجال الصالحون .

موسى بن نصير : عليك أن تقنع بذلك مولانا عبد الملك بن مروان .

صوت العـفريت : صدقونى لا يجوز أن يملك قوتى إلا حكيم .

موسى بن نصير : خليفتنا أحكم الحكماء .

صوت العـفريت : لا يخلو من أهواء البشر وضعفهم ، ألا ترون كيف يرد على حجج معارضيه بالسيف المسلول؟ **(يتبادلون النظر فى صمت)**.

موسى بن نصير : (للقمقم) إنك قوة لو استغلت للخير لجعلت من دنيانا جنة .

صوت العفريت : ما تسلط عليَّ فرد إلا جعل منى نعمة له ولمن يحب ونقمة على الملايين ، صدقونى ما أحدث عفريت منا شرّاً إلا تنفيذاً لمشيئة إنسان .

(يتبادلون النظر مرة أخرى)

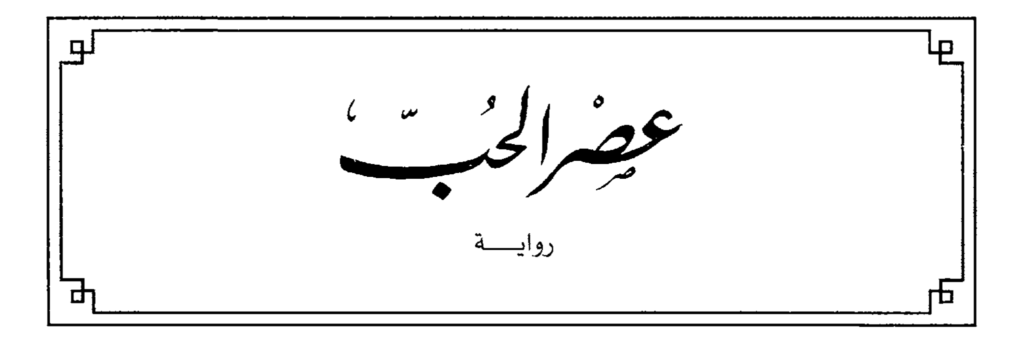
عبد الصمد : لنطلق سراحه .

طالب بن سهل : هل أخيب فى مهمتى كما خبت فى حبى؟!

عبد الصمد : لا تتحمل مسئولية ستسأل عنها أمام رب العالمين .

صوت العفريت : قل لمولاك : من يحكم بالإيمان فلا حاجة به إلى الشيطان .

عبد الصمد : انطلق أيها العفريت فلقد نطقت بالحق .



١

يقول الراوى :

ولكن من الراوى؟ ألا يحسن أن نقدمه بكلمة؟

إنه ليس شخصًا معينًا يمكن أن يشار إليه إشارة تاريخية ، فلا هو رجل ولا امرأة ، ولا هوية ولا اسم له ، لعله خلاصة أصوات مهموسة أو مرتفعة ، تحركها رغبة جامحة فى تخليد بعض الذكريات ، يحدوها ولع بالحكمة والموعظة وتستأسرها عواطف الأفراح والأحزان ، ووجدان مأساوى دفين ، وعذوبة أحلام يعتقد أنها تحققت ذات يوم . إنه فى الواقع تراث منسوج من تاريخ ملائكى ينبع صدقه من درجة حرارته وعمق أشواقه ، ويتجسد بفضل خيال أمين يهفو إلى غزو الفضاء رغم تعثر قدميه فوق الأرض الأليفة المتشققة التربة وثغراتها المفعمة بالماء الآسن . وإنى إذ أسجله كما تنامى إلىّ ، إذ أسجله باسم الراوى وبنص كلماته فإنما أصدع بما يأمر به الولاء ، وأنفذ ما يقضى به الحب ، مذعنًا فى الوقت نفسه لقوة لا يجوز المجازفة بتجاهلها .

* * *

يقول الراوى :

إنه كانت تعيش فى حارتنا أرملة تدعى ست عين . امرأة قوية عجيبة الأطوار مثيرة الأوصاف ، كائن فريد لا يتكرر ، يدعو إلى الحذر بين يدى الحياة الغامضة التى لا حدود لإمكانياتها . وتبدأ حكايتها عادة وهى أرملة فى الخمسين ذات ابن وحيد يدعى عزت فى السادسة من عمره . لم لم تبدأ الحكاية قبل ذلك؟ لم لم تبدأ وهى صبية أو وهى عروس؟ لماذا لا يحدثوننا عن عم عبد الباقى زوجها؟ . لم لم تنجب إلا عزت؟ ولم أنجبته على كبر؟ أجاء النقص منها أم من الزوج؟ ولكن ماذا يهم ذلك كله؟ الراوى ملتزم برؤيته ولو تحرر منها لوجب أن يسترسل فى التقصى حتى يبلغ رحاب أبينا آدم وأمنا حواء . وإذن فلتكن البداية وست عين فى الخمسين ووحيدها عزت فى السادسة وهى امرأة مرموقة ،

ذات شأن ينمو ويتضخم مع الزمن كمدينة صاعدة، تملك جميع العمارات الكبيرة فى الحارة فهى ثرية واسعة الثراء، بل لا مثيل لثرائها، ولا أدرى إن كانت هى موجدة الثروة أم زوجها ولكن مما يذكر أن شقيقتها أمونة لا تملك شيئا. أجل لا يقطع ذلك بأن ثروتها موروثة عن زوجها، فقد نتصور أن الشقيقتين تساوتا ذات يوم فى إرث محدود، بددته أمونة على حين استثمرته عين، على أى حال كانت أغنى شخص فى الحارة بلا استثناء للمعلمين والتجار.

وإلى الثراء الواسع خصت بصحة رائعة. يقولون إنها حافظت على رونق الشباب وهى فى الخمسين من عمرها، لم يبهت سواد شعرة من شعرها، ولا اشتكى لها عضو، متينة البناء متوسطة القامة، لا بدانة تثقلها ولا نحافة تعيبها، يتكور نهداها شامخين وسالمين من أثر الرضاعة ويكوّنان فى مقدمة الجسد مركز ملاحة مستتراً كأنه ـ بلغة اليوم ـ محطة إرسال ولكنه مغلف بالجلال الزاجر، وأجمل قسماتها العينان السوداوان يشع منهما نور هادئ ذائب فى الحنان، أما الأنف فدقيق ولكنه طويل يرشحه طوله لوجه رجل، كذلك فاها الواسع الممتلئ ويحدثونك كثيرا عن لون بشرتها القمحى النقى الذى لم تمسه الأصباغ، وخمارها الأبيض وجلبابها السابغ وتلفيعتها السمراء فلم تر فى الطريق مندسة فى ملاءة لف أو تزييرة أو متحجبة ببرقع أسود أو أبيض متحدية الألسن بوقار العمر وهيبة الخلق وسحر السلوك وحصانة المنزلة، معتزة بسمعة مثل شذا الورد، وفى حارتنا لا يغض البصر عن نقيصة، ولا تعفى نقيصة من القيل والقال، والحفظ والتسجيل، لذلك فليس أبقى فى الذاكرة من سير الفتوات والقوادين والعاهرات، ونغالى فنؤرخ بهم الأحداث فتقرن الذكرى بحياة الضبش أو الدنف أو علية كفتة. فإن يمضى تاريخ ست عين بلا كلمة واحدة تسىء إليها دليل قاطع على نقائها وطهارتها وفضائلها الجمة. وهى تمشى إذا خرجت فى الطريق فى صحبة مظلة لا تتخلى عنها صيفا أو شتاء، تتقى بها الشمس أو المطر أو تنذر بها ـ فى الأحوال النادرة ـ من يتعرض لها من السكارى أو المسطولين ويا ويل من يتعرض لها فى ذهوله من أهل الطريق. الحق أنها لم تكن مصونة بسبب عفتها فحسب ولكن لقوة شخصيتها أولا وأخيرا. كانت بحكم وظيفتها المالية تستقبل الكثيرين من السكان والمتعاملين، وكانوا سرعان ما يفيقون من سحر جمالها تحت تأثير صوتها القوى ومنطقها الجدى ونظراتها النافذة. حتى الفتوات لم تسول لهم أنفسهم الاستهتار فى محضرها، وربما رجعوا من لقائها وهم يتمتمون: «يا لها من رجل!». غير أن ذلك لم يعن أكثر من خيبة ثعلب مكار أو هزيمة محتال. لم تكن رجولتها إلا أسلوبا وجدته مناسبا للتعامل فى حارة هى أعلم الناس بأحوالها. لم تكن نقصا فى أنوثة أو خشونة فى طبع أو قناعا لستر عورة. كلا . . بل كانت الرحمة عينها. لم تصر أسطورة إلا بفضل رحمتها. لو أنها التزمت المكث فى دارها لسعى إليها

المحتاجون. وما دارها إلا أجمل دار فى الحارة. من الخارج لا يتجلى منها إلا جدار حجرى معتم لا يعد بخير، تتوسطه بوابة غليظة متجهمة تحمل فوق هامتها تمساحا محنطا وفى نقطة الوسط منها مطرقة نحاسية غبراء على هيئة قبضة بشرية. إذا فتحت البوابة تبدت الدار جليلة وافية التقطيع تشى بالعز والنعيم، وترامت وراءها حديقة تنفث أخلاطا من روائح الياسمين والحناء والفواكه، تدور حول فسقية ارتفع فوق سورها الرخامى سور من الخشب منذ تعلم عزت المشى والجرى والمغامرة. ومنذ ترملت لم تعد تنتظر المحتاجين فى دارها. انطلقت فى الحارة بمظلتها، تهبط على المحتاج فى داره، ألفت التجوال الرحيم، أصبحت الزائرة المترددة أبدا على ربوع الفقراء، تنغمس فى أسر الكادحات والأرامل والعجزة. يقول الراوى: إن الحارة نسيت فى أيامها البؤس والجوع والعرى، وهانت عليها واجبات الزفاف والمرض والدفن. تلاشت الهموم جميعا تحت مظلة عين، عين الحنون، القلب الخفاق بالحب، الجود الوهاب بلا حساب. التى تدير العمارات لحساب الفقراء والمساكين. إنها الطل يهطل على القفر فيتركه أخضر يانعا يرقص بماء الحياة. أمّ الحارة.. المودعة بالدعوات الصالحات، والبسمات المشرقات والامتنان الوفير، باسمها يحلفون، بنوادرها فى الإحسان يتذاكرون الحقيقة والمعجزة والأسطورة. وكانت تصادق وتناجى وتألف وتؤلف قبل أن تقدم الدواء، كانت تتسلل إلى أعماق القلوب الجريحة فتعايش الآلام وتخالط الأحزان وتوادد التعساء كأنما تتعامل مع أبناء أو تؤدى رسالة طرحتها عليها قوى الغيب، ويقال إنها مارست الإحسان فى حياة زوجها عم عبد الباقى فى نطاق الدار وبقدر محدود ثم انطلقت انطلاقتها الوردية عقب ترملها. كان المظنون أن تقتصد عقب الترمل، وإن تقتصد أكثر حبا فى عزت الصغير، ولكنها تجاوزت منطق الأشياء بجناحين مستعارين من الفردوس، رغم أمومة قوية وعميقة، فلم تسعد امرأة كما سعدت بالأمومة التى وهبتها فى فترة حرجة غير متوقعة، اعتبرت عزت هبة السماء لقلبها الوحيد. أسرها الامتنان للرحمن وأحيت ليالى البر للحسين والسيدة وأبو السعود طبيب الجراح. وكم أمضت من دهور وهى ترنو بمقلة مسحورة إلى الوجه الصغير ثم تمضى فى طريق الخير ناشرة شراع الرحمة، فى وجهه يتراءى أنفها الطويل وبشرتها النقية وعينا الأب الجاحظتان. وقالت إنه ولد لا بنت. والعبرة بالقلب، فليكن قلبه عذبا حنونا. وهو نشيط وأنانى ولا يتخلى عنها إلا بالهزيمة، وهو أيضا مدمر يبعثر الأزهار ويطارد النمل ويقتل الضفادع، ولا ينام إلا وهى تقص فوق رأسه القصص. أيظن نفسه سلطانا؟ هكذا تتساءل ضاحكة، تتساءل بقلب شكور ونفس زاخرة بالرضا وبهجة الزهور المتفتحة، ويخطر لها على سبيل الدعابة أن تفصل له جبة وقفطانا وعمامة، وترامقه وهو يتزيى بها طروبا، ثم تقول: «ما أجمل أن نهديها بعد زهدك فيها إلى الشيخ العزيزى» ثم تعرضه على صديقاتها من طلاب الرحمة

متسائلة: «ما رأيكن فى هذا الشيخ؟» فيجبنها «قمر ورب الحسين فليمد الله فى عمره إلى الأبد» وتتفكر قليلا فى «إلى الأبد» وهى ذكية بقدر ما هى مؤمنة. وتغشى سحابة ربيع صفاءها فتغمغم: «فليكن يومى يا رب قبل يومه ولتدفننى عند القضاء يداه» وسرعان ما تتذكر جيلا راحلا من أحبائها فتقتحم مخيلتها القبور والشواهد، والصبار والرياحين، وصور مسربلة بالحياة من البشر فتغمغم مرة أخرى: «إنهم أحياء معنا ولكن لا يعلم الغيب إلا الله».

وتسألها أم سيدة ذات يوم:

ـ كيف صرت أشرف خلق الله؟

فتستغفر الله تواضعا وتتمتم وهى تدارى سرورها الذى تجلى فى ابتسامة خفيفة كلمعة ضياء فى سحابة يمر وراءها القمر:

ـ ما هى إلا رحمة الله بعابدة مخلصة.

ثم تسائل نفسها:

ـ كيف لى أن أدرى بما يجعل سعادتى فى الحب العطاء؟

وعرف وذاع أنه عندما مرض عزت بالحصبة قد مكثت مسهدة لا تذوق النوم ثلاثة أيام.

* * *

وقد مضى زمن وجاء زمن. تغيرت حارتنا بدرجة ملموسة وتمخضت عن أجيال جديدة ذات مزايا باهرة ولا تخلو أيضا من غرابة، وكانو يتخذون موقفا خاصا مما يروى عن ست عين، موقفا يتسم باللامبالاة ولا يخلو أحيانا من قسوة:

ـ لم نطالب بتصديق ما يروى دون مناقشة؟

ـ إنها حكاية جميلة ولكن هل تصمد أمام التمحيص؟

ـ ألا ترون أن التاريخ العلمى نفسه تحوم حوله الشكوك؟

ـ الإحسان ظاهرة حقيقة ولكن ليس على تلك الصورة.

ـ ولا تنسوا أن الإحسان نفسه لعبة من ألاعيب الأنانية.

ـ إليكم حقيقة ست عين التى طمس الحب عليها، كانت مجنونة بالرحمة والإحسان. ولكنها لم تجد العين التى تنفذ فى أعماق الظواهر، ولو وجدتها لتكشفت عن امرأة أخرى لها سيرة بشرية حقيقية، وربما حافلة بالفضائح.

* * *

ـ ما عسى أن أقول ردا على ذلك؟ أقول ما سبق أن قلت من أن حارتنا تتطوع دائما

بتكبير العيب ونشره ولكنها لا تعترف بالخير إلا عندما لا تجد مفرا من ذلك. فضلا عن ذلك فإن حكاية عين لا تخلو من ضعف بشرى مما يؤكد صدقها وواقعيتها، ولكننا نأبى التسليم بالمثل العليا من طول انغماسنا فى الماء الآسن. المحاكم مكتظة بالأخوة، ومن يسقط فى الطريق يموت وحيدا. وما زلت متشبثا بتصديق حكاية عين فما من حكاية إلا وتعبر عن حقيقة ما كما أنه ما من ألم إلا ويشير إلى جرح ما. فحق لا شك فيه أن ست عين تمشى متلفعة بشملتها السمراء ومظلتها العتيقة وجلبابها السابغ. الابتسامة تشرق فى صفحة وجهها الوقور، تسعد بالدعاء والتحيات والنظرات المعجبة. تمضى نحو الربوع البالية، تجلس بين التعساء، وتهتف:

ـ كيف حالكم يا أحباء؟

تسأل عن زينب، وعم حسين، وأم بخاطرها، ثم تغادر المكان بعد أن فرشته بورود الرحمة، وما أكثر الذين يطالبون بدراستها على ضوء الغريزة والأنا والأنا الأعلى، ما أكثر الذين يحومون حول حياتك الجنسية يا عين. ما أكثر الذين ينقبون لك عن فضيحة فى حفائر الذكريات.

* * *

ويقول الراوى: إن عين كانت تعشق الفصول الأربعة. ألفنا أغلبية الناس تؤثر بالحب فصلا بعينه أو فصلين أما هى فكانت تعشق الفصول الأربعة. تحب الشتاء والسحب والمطر، لا تحول رياحه بينها وبين الجولات الثملة بالعطف، ولا يفزعها مطره إذا انهل فوق مظلتها المنشورة وجرى تحت قدميها ماء عكرا. وتحب الصيف وتتوافق سريعا مع حرارته وتنوه بلياليه العذبة، وتعشق الخريف وتقول عنه إنه فصل الجمال المغسول، والليالى المفتونة بالنجوى وتحيات الوداع المتبادلة. أما الربيع فهو فصل الحديقة والأصوات، وتجىء الخماسين محملة بالرسائل من أراض بعيدة مجهولة تشتعل أفئدتها بنار مقدسة، وهى تستجيب ولا شك للفصول المتغيرة بطبيعتها السمحة وإيمانها الراسخ.

وتموج حارتنا بالعواطف والانفعالات والأصوات المتلاطمة، وتجتاحها العواصف والخصومات ووجهات النظر المتضاربة فتتابع ذلك بهدوء وإشفاق، وتدعو للخير أن ينتصر، ولا يرد على قلبها خاطر سوء أبدا. ولم يكن عن لا مبالاة صفاؤها، فهى تدرى غالبا ـ هى التى لا تنقطع عن الناس ـ أين يتأرجح الخير وأين يكمن الشر، وهى كما قلنا تدعو للخير أن ينتصر، ولكنها لا تنسى أن جميع المتنازعين أو كثرة منهم فى حاجة إلى عونها!

ومما يذكر أن عامة المستهينين بها لم يعاصروا نشاطها، ولم يدركوا الفترة الأخيرة من حياتها، ولا شهدوا ختامها. ومما يذكر أيضا أن أكثرهم نشأ وتربى وشق طريقه بفضل إحسانها ورحمتها، ولكنهم يجهلون ذلك، أو يتناسونه أو يسيئون تأويله كما رأينا، وتتلاحق الأعوام فتتضخم السيرة فى ضمير الراوى حتى تصير جبلا شاهقا، ولكنه مثل سائر الجبال يتعرض لعوامل التعرية.

٢

وذات يوم ـ كما يقول الراوى ـ تجلس ست عين تحت خميلة الياسمين فى الحديقة ترمى بلباب الخبز المغموس فى المرق إلى مجموعة من القطط لا تقل عن الخمس عدا، وعزت واقف بجلبابه المقلم وصندله فيما بين الخميلة والفسقية، يقبض بيده الصغيرة على شعاع الشمس الغاربة الذى يتقلص على جذع شجرة الليمون، الصيف يودع الأيام الأخيرة من رحلته ولم يبق على مدفع الإفطار إلا قليل. وعين تطعم القطط بيدها، وتؤلف بينها وبينها ساعات الطعام وساعات المؤانسة: الأم بركة طحينية اللون ذات نجمة بيضاء فى وسط الرأس، والأب أبو الليل أسود فاحم، أنعام وصباح من سلالتهما، ونرجس مهداة من أسرة غريبة وكلهن روميات منفوشات الشعر، عن العلاقة الحميمة بينها وبين القطط، عن التفاهم والتخاطر، عن المودة والتناغم، عن الطاعة والدلال، عن الولاية والأسرار، عن كل أولئك تحكى القصص والنوادر.

وفى الهدوء يعلو صوت مستأذنا:

ـ يا أهل الله!

ترامى من ناحية الممر المفضى إلى مدخل الدار، تبتسم عين مستأنسة وتهتف:

ـ تعالى يا أم سيدة.

تقبل المرأة فى ملاءتها اللف سافرة الوجه شأن الكادحات من نساء الحارة، تتبعها صغيرتها سيدة بشعرها الممشط وقبقابها الأخضر، تتصافح المرأتان على حين تمضى سيدة بتلقائية نحو عزت لتشهد صراعه مع شعاع الشمس الغاربة. ورغم أنها تماثله فى السن ـ السادسة ـ إلا أنها تكبره تجربة ووعيا بأربعة أعوام. التفت نحوها التفاتة مقتضبة ثم رجع إلى الشعاع، ووقفت هى تراقبه باسمة وصامتة. وقالت عين لأم سيدة:

ـ لم أرك منذ ثلاثة أيام يا ولية يا خائنة.

تضحك أم سيدة من حنجرة غليظة وتقول:

ـ للرزق أحكام يا ست الكل .

ثم وهى تجلس فوق الأعشاب عند قدمى عين :

ـ ربنا يعلم أن يوما يمر من غير أن أراك لا يحسب من العمر .

القطط فى حركة متوترة بين انكباب على اللباب والتحديق فى عين بأعين شفافة مذعورة ، وقالت عين :

ـ دائما تعثرين على الكلمة المناسبة ، مشغولة بعروس جديدة؟

ـ الخاطبة تشوف العجب ، من يصدق أن عريسا يرفض من أجل حلة نحاس؟

ـ ماذا تقصدين؟

أدركت أم سيدة أنها فهمت قصدها فقالت باسمة :

ـ إنه شاب يستحق الإحسان!

تقوست بركة فارتفع ذيلها مثل نافورة ، شبعت فيما يبدو ، وثبت فاستقرت فوق الأريكة جنب عين فهدهدتها براحتها وبركة تستجيب مثل موجة راقصة . تساءلت أم سيدة مترددة وموجهة خطابها إلى القطة :

ـ كيف أنت يا نرجس؟

فهتفت عين :

ـ إنها بركة ، أرأيت كيف نسيت أهل الدار؟!

فضحكت أم سيدة ، ولمحت عزت فهتفت :

ـ كيف حالك يا سى عزت؟

فلم يهتم بها وقالت عين معتذرة عنه :

ـ إنه مشغول بشعاع الشمس!

فضحكت أم سيدة كرة أخرى وقالت بحماس :

ـ رائحة الملوخية تملأ الحارة!

ـ أهذا ما جاء بك يا نهمة؟

فراحت المرأة تناجى شذا الياسمين والحناء فى نبرة غزل ممطوطة منغمة .

* * *

عقب الأذان غيرت عين ريقها على عصير خشاف فاتر ثم نهضت لتصلى المغرب على حين جلست أم سيدة إلى المائدة بعد أن نزعت عنها الملاءة وهى تتمتم «لا حياء فى الجوع» وراحت خادمة تشعل المصباح الغازى الكبير المدلى من السقف فوق السفرة ، ثم أشعلت قنديل الفراندة المطلة على الحديقة ، ومضى الإفطار فى المضغ تتخلله كلمات عابرة .

وانتقلتا بعد ذلك إلى الشرفة فجلست عين على الكنبة وأثرت أم سيدة أن تقتعد شلتة لتمد ساقيها ترويحا لمعدتها المتخمة . ولفت سيجارة ، تخدرت من أول نفس ، نعست عيناها العسليتان وانتفخ أنفها الغليظ الممسوح الأرنبة كرأس قطة . وسيطر الصمت قليلا تحت تأثير رغبة ملحة فى الراحة ، وجاءت خادمة بفانوس عزت الملون فهفت نفس عين إلى الانطلاق وقالت :

ـ ما أحلى المشى عند الحسين !

فتمتمت أم سيدة ضاحكة :

ـ عندما ترجع إلىّ القدرة على المشى .

ولفت سيجارة ثانية فتمتمت عين :

ـ الشكر لله فالليل جميل .

فرمقتها أم سيدة بنظرة طويلة ثم قالت :

ـ عندى ما هو أجمل .

ـ ما عندك إلا حديث الزواج أو اغتياب عبد من عباد الله .

ـ إنه حديث زواج !

ـ حقا؟ . . عندك عروس لعزت؟

فقالت المرأة بابتهال :

ـ بل عندى عريس أو أكثر إن شئت .

فنظرت إليها بارتياب على ضوء القنديل الأزرق فقالت أم سيدة :

ـ وأنت العروس المنشودة !

لوحت عين بيديها محتجة وهتفت :

ـ عليك اللعنة .

فقالت بحماس متصاعد :

ـ ما من رجل أصيل فى حارتنا . .

ولكن عين قاطعتها :

ـ احتشمى يا ولية !

ـ يا ست الستات ما زلت شابة جميلة . .

فقالت بحدة :

ـ لو أردت الزواج ما لبثت حتى اليوم أرملة .

ـ ولم تبقين أرملة؟

ـ هس.

زجرتها وهى تتطلع نحو السور القديم وقد علاه البدر عظيم الثراء عميق الحمرة وانى الضياء يبدأ رحلته. تركتها تنعم بالنظرة ولكنها أصرت على الرجوع إلى الموضوع فقالت:

ـ ورب القمر..

غير أنها قاطعتها بلهجة حاسمة:

ـ كفى يا أم سيدة، إنه عزت، إنه عزت وكفى..

ثم تنبهت من غفلة فتساءلت:

ـ أين الولد؟.

فاستاءت أم سيدة من قطع الحديث وقالت:

ـ فى الداخل طبعا.

ـ وأين سيدة بنتك؟

ـ لا شك تلعب معه، لم يخرج، ها هو فانوسه ينتظر.

قامت عين. هبطت درجتى الفراندة، غاصت فى ظلمة الحديقة حتى اختفت تماما، ظهرت بعد قليل وهى تجر وراءها عزت بيد وسيدة بيد، وصوتها يتساءل فى غضب:

ـ ألا تخافان النار؟

جرت سيدة نحو أمها، ووقف عزت منكس الرأس. قالت عين مخاطبة أم سيدة:

ـ هى اللعنة، أرأيت؟

دارت أم سيدة ابتسامة ولكنها هتفت وهى تزغد ابنتها:

ـ أعوذ بالله.

ـ الولد برىء ولكن بنتك..

فتمتمت أم سيدة:

ـ الله أعلم..

ـ فتحى عينك يا أم سيدة..

ـ عينى مفتوحة دائما..

* * *

ولم تنس عند الوداع أن تقول لعين:

ـ لنا عودة إلى موضوعنا .

ولكن عين قالت بحزم :

ـ سدى هذا الباب بالضبة والمفتاح !

٣

هامت فى الصفاء المعهود خواطر قلقة . ليست بالخطيرة ولكنها تكدر بعض الشىء من ألف الصفاء ، ما وجه الانزعاج الحقيقى وراء عبث طفل؟ قد آن له أن يذهب إلى الكتاب . ورجال ثمة يطمحون إلى مالها . وتنظر إلى المرآة المثبتة فى الإطار العاجى الموشى بالآيات وتهز رأسها ، وتتذكر وعدها لعزت يوم وفاة أبيه بألا تتيح مكان الأب لغريب . مضت خمسة أعوام فلم يهن العزم . الفصول وحدها تتغير وتمر الأعوام . وما يشغل بالها حقا فهى شقيقتها أمونة . إنها تكبرها بعشرة أعوام فهى شقيقة أمونة وأمها . وتتذكر أمهما ، تتذكر بالأخص وفاتها . حزنها عند الفراق رائع . كذلك حزنها على أبيها . كما أشعل فراق الزوج قلبها . حزنها عميق كأفراحها ولكن الحزن يعمر أكثر ، ما إن تزور القبر حتى تخشع وتسترسل فى المناجاة . إنهم مثلنا أحياء ، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله . ما يؤلمها حقّا هو حدسها أن أمونة تضمر لها الحسد . وهى من ناحيتها لا تضن عليها بخير ، ولكن ذلك لا يستأصل الحسد . ما زالت أمونة تقول لها :

ـ إنك تبعثرين مالك بغير حساب .

فتقول عين متضايقة :

ـ إنه مال الله .

فتقول أمونة بامتعاض يشوه حسن وجهها :

ـ مدى علمى أنه مالك أنت يا أختى فتقول ساخرة :

ـ لا نملك فى الواقع إلا قبضتين من تراب .

ـ لم تحبين سيرة الموت؟

ـ ربما لأنه يرافقنا فى كل خطوة ، هل ينقصك شىء؟

ـ أنت الخير والبركة ولكننى أتحسر على المال الضائع . .

فتنظر إلى سجادة صغيرة معلقة بالجدار تعكس نقوشها قبة المسجد الأقصى وتهتف :

ـ اللهم فاشهد . .

ثم ترنو إلى أمونة قائلة :

ـ أهو ضائع المال الذى يجبر الخاطر ويطعم الجائع ويسند العاجز ويبهج الطفل؟!

ـ دلينى على ثرى أو ثرية . .

فتقاطعها :

ـ حسبك ، حديثك ينغص علىّ الصفاء . .

لكنها دائما ترجع إلى ذلك الحديث كما يرجع الحمار إلى حظيرته بلا مرشد . لذلك فهى لا تشك فى أن مولد عزت كان صخرة تحطمت عليها أمواج الجشع ، غير مولده الموازين والحسابات . وجاءته أم سيدة بالبخور السودانى الموصوف لتلك الأحوال وهى تقول :

ـ الأقارب عقارب!

وترضى عين عما تفعل صديقة العمر وتسألها :

ـ أتدرين ما هو سر السعادة فى هذه الدنيا؟

ـ ربنا يسعدك دائما وأبدا . .

ـ عندما لا نأخذ من المال إلا ما يحفظ الحياة!

* * *

ويقول الراوى : إنه فى ليلة القدر من رمضان زارتها أمونة ساحبة بيدها صغيرتها إحسان ذات الأربعة الأعوام ، وعندما جلستا فى الفراندة عقب الإفطار قالت لها عين برجاء :

ـ تجنبى ما يسبب لى الكدر .

واحتستا القهوة فى سلام ثم قالت أمونة بعذوبة :

ـ أريد أن أجرب حظى فى ليلة القدر!

فدعت لها قائلة :

فليهبك الله حظا سعيدا . .

وراحت أمونة تنظر إلى القطط وهى تستكن فى أركان الفراندة وتمتمت ضاحكة :

ـ إنه بيت القطط . .

ـ إذا شبعت استرسلت فى التسبيح . .

ـ أنت أدرى بلغتها . .

ثم متسائلة فى شىء من الارتباك :

ـ هل أجرب حظى؟

قالت عين ببراءة:

ـ عليك أن تنظرى إلى السماء طيلة الوقت.

ـ لكن حظى بين يديك أنت يا أختى..

ـ حقا!!

من خلال ما يشبه المجازفة:

ـ أختى.. ما رأيك فى عزت وإحسان؟

تشاءمت عين لسبب خفى ولكنها قالت:

ـ عزت ابنى الصغير وإحسان بنتك الصغيرة.

ـ ألا تفهمين قصدى؟

ـ من الأفضل أن تفصحى عنه.

ـ إنه واضح كليلة القدر.

فقالت عين بجدية منذرة:

ـ هل عندك علم بما يحدث غدا؟

ـ لذلك يهمنى جدا ما نستطيعه اليوم.

ـ اليوم حقا؟

ـ نعم.. نكتب كتابهما!

ـ يا للعجب!

ـ نحن أحرار فيما نفعل!

كرهت عين الفكرة واستبشعتها. رأت فيها شراهة يجب أن تنبذ. اعتقدت أن أختها فى حاجة ملحة إلى حمام بمطهر مركز، هتفت:

ـ لا يذكرنى ذلك بخير أبدا.

ـ إحسان بنت أختك.

ـ أمونة.. يسعدنى أن يختارها بنفسه ذات يوم..

ـ إنها جميلة كما ترين..

ـ لا أزوج طفلا لم يدخل الكتاب بعد.

ـ يفعلون ذلك فى الريف وهو مهد الحكماء.

ـ لا يفعل ذلك إلا المجانين!

اندفعت بركة بغتة نحو الحديقة كأنما شمت صيدا، وساد الصمت منذرا بالشجن، وانبعث صوت أمونة متغيرا:

ـ أهى كلمتك الأخيرة لى؟

فقالت عين بجفاء:

ـ بكل تأكيد.

ـ أنت.. أنت قاسية!

ـ أسأل الله لك الشفاء.

فقالت بحدة:

ـ لست مريضة يا عين!

ـ الله وحده يعلم.

فتساءلت أمونة بمرارة:

ـ ترى أينّا المريض؟

ـ لسانك حصانك يا أمونة.

قامت بشدة وهى تقول:

ـ طول عمرك تكرهيننى..

ـ حقّا؟

ـ وتحسديننى!

ـ أحسدك؟!

ـ رغم مالك الوفير تحسديننى!

فقالت وهى تنحى وجهها عنها:

ـ لا تستدعى الشيطان إلى قلبى..

فصاحت أمونة:

ـ إنه مقيم فيه!

حملت إحسان على كتفها وهى تجهش فى البكاء، مضت تغادر المكان بلا سلام، تحول غضب عين إلى حزن، قالت بجزع:

ـ سأجدك فى المرة القادمة فى حال أفضل..

فجاءها صوتها قائلا:

ـ لن ترينى ما حييت..

٤

فتح كتاب الشيخ العزيزى بابه ورياح الخريف تحبو من مهدها الرطيب . عزمت عين على إرسال وحيدها إلى الشيخ .

ـ ستجد فى الكتاب التكريم ونور الله .

التكريم لأن الشيخ من رواد إحسانها الدائمين ، ونور الله لأنه ينبثق أول ما ينبثق من الكتاب .

غير أن عزت تساءل فى توجس :

ـ أليست الحديقة أفضل ؟

فمسحت على رأسه براحتها وقالت :

ـ للرجولة أحكام .

وتذكر عزت جماعات الصبيان والبنات وهم يغادرون الكتاب فى العصارى . لا تفصح وجوههم عن سعادة بما جاءوا منه ، ولا رضى عن شيخه القزم المشوه . ورمقها بنظرة حائرة فقالت :

ـ يحب الكتاب الأولاد الصالحون ، فى الكتاب نتعلم ، ولا احترام لإنسان بغير العلم ، واحترام الشيخ واجب كاحترام الأم . إياك وأن تسول لك نفسك الضحك منه فذلك حرام والله لا يغفره لعبد !

إنه يتذكر الشيخ العزيزى فصورته الغريبة ماثلة فى كل ذاكرة ، قزم مقوس الساقين أقعس الصدر ، صغير القسمات كطفل ، يتمايل فى مشيته من جنب إلى جنب متوكئا على عصا قصيرة طولها ذراع أو دون ذلك ، كأنه لعبة مما تعرض فى الموالد ، وهيهات أن ينسى أنه رآه فى يوم ممطر وقد حمله فاعل خير على كتفه ليعبر به الطريق .

ـ أوصيك بصفة خاصة باحترام الشيخ . .

وكررت ذلك بصوت واضح فشعر بنذير الفراق ، وبالتوجس من تجربة مجهولة .

واستطردت وهى تحد من نظرة عينيها الجميلتين :

ـ وأسلك مع البنات السلوك الذى يرضى الله ! فتخايلت لعينيه الخميلة تحت ستار الليل فتورد وجهه وتحرك رأسه ارتباكا فتمتمت بلطف :

ـ عن الماضى قد قبل الله توبتك . .

وحينما تلقى الشيخ العزيزى الخبر فى حجرة الاستقبال ـ وهو يجلس على حافة مقعد مدلى الساقين فوق سطح الأرض بشبرين ـ تهلل وجهه وقال :

ـ طالما انتظرت هذا اليوم لعلى أرد جزءا من ألف جزء من جميلك . .

لكن عزت حين تربع فى الصف الأول ـ فوق الحصيرة ـ أمام سدة الشيخ بدا هذا شخصا آخر ، لا رحب به ولا شجعه بابتسامة وكأنه لم يره ولم يسمع به . عجب أيضا للنظرة الثلجية التى تستقر فى محجريه ، والصرامة التى تكسو وجهه الصغير ، على حين جلس الصغار والصغيرات فى صمت تلفهم رهبة وتتحكم فيهم قوة مجهولة . أين اللعبة التى تتابعها الأعين فى الطريق بعطف وسخرية؟ إنه الآن يتسلطن فى مملكته ، يمارس قوة غير محدودة ، الجريدة منطرحة جنبه تهدد أيادى وأقدام المتمردين . أيقن عزت أنه أسير ، بلا دفاع ولا امتياز ، يسرى عليه ما يسرى على الآخرين ، وأضمر ألا يتكرر حضوره مرة أخرى ، ولمح سيده فى نهاية الصف تلاقت عيناهما لحظة فيما يشبه ابتسامة ثم سرعان ما تجاهلته . ضايقه جو المساواة المخيم على المجلس ، الجميع سواسية فوق حصيرة واحدة ، تخلت عنه الامتيازات التى ينعم بها فى أى مكان باعتباره ابن الست عين وربيب الدار الفاخرة . إنه وضع جديد لا يحتمل ولعل أمه لا تدرى عنه شيئا . ولمح لصق سيدة بنتا تماثلها فى العمر لم يرها من قبل . شدت عينيه بقوة . لها وجه ثرى مستدير وعينان سوداوان منعشتان . تركت فى نفسه أثرا قويا وبهيجا لطف ألمه وأنساه حزنه . ترى فى أى موقع من الحارة تعيش؟ . هذه العصفورة التى أقصيت قسرا عن غصنها . إنها البنت التى خطفتها الغولة فغامر ابن السلطان بإنقاذها . ما أعذب صوتها وهى تردد وراء صوت الشيخ الرفيع «الحمد لله رب العالمين» . على أى حال فالكتاب ليس شرا كله . ولن يمسه الشيخ العزيزى بسوء .

* * *

وعندما جاء وقت الغداء جلس كالآخرين موجها وجهه للجدار . حل عقدة المنديل وبسطه وراح يقطع الرغيف ، عند ذاك جاءه صوت عن يمينه مباشرة :

ـ ماذا عندك؟

رأى صبيا فى مثل سنه ، فى عينيه ضيق ولكنهما مقبولتان ، فى فكيه قوة ، وفى أنفه فطس ، بدا بسيطا ومرحا . ساءه تطفله ولكنه لم يجد بدا من إجابته :

ـ جبن أبيض وحلاوة طحينية . .

ـ عال ، معى طعمية وسلطة طحينة . فلنأكل معا . .

ولم ينتظر موافقته فبسط منديله حتى تماست الحافتان ، أشار إلى الطعمية بإغراء ويده تمتد إلى الجبن ، ثم قدم نفسه قائلا :

ـ حمدون عجرمة . .

فاضطر الآخر أن يقول :

ـ عزت عبد الباقى :

ـ أنا عارف . . ابن الست عين !

استاء من أن يتردد اسم أمه مختلطا بالجبن والطعمية وسلطة الطحينة ، لكنه لم يستثقل حمدون وأعجبته نظافة جلبابه وطاقيته ، وقال له حمدون :

ـ أنت غير جائع . .

ـ أشبع بسرعة .

فلم يرتح حمدون للإجابة ولكنه التهم الطعام بصراحة .

* * *

وغادرا الكتاب معا . لم يفارقه حمدون وسرعان ما آنس إليه . وقال له حمدون :

ـ نلعب معا ونحفظ معا ونأكل معا . . هه؟

فحنى رأسه بالإيجاب فقال الآخر :

ـ وقد يطلع لنا عفريت من القبو فمن الأفضل أن نكون معًا . .

ـ لا أقترب من القبو ليلا وأمى تحفظ القرآن .

وإذا به يهتف فجأة «بدرية» فتابع عينيه حتى وقعتا على «العصفور» . نظرت البنت نحوهما باسمة ثم اندفعت تجرى فسأله :

ـ تعرفها؟

ـ جارتنا . . بدرية المناويشى . .

فأحب صداقته أكثر .

* * *

وتلقته عين بنظرة متفحصة ومشفقة تمتمت :

ـ مباركة عليك رحلة الرجولة .

فقال بفتور :

ـ يا له من مكان ثقيل !

ـ عليك أن تحبه ، هو الذى يجعل منك رجلا محترما . .

فقال بتأفف :

ـ جلست على الحصيرة كالآخرين . .

ـ كلنا أبناء آدم وحواء، والمجتهد هو الأفضل، لذلك وضعت فى منديلك طعاما كأطعمة الآخرين، وطعامك الآن ينتظرك، لا تنفر من أحد..

فقال مجاراة لها:

ـ عرفت كثيرين..

ـ حقا.. اذكر لى بعضهم.

ـ حمدون عجرمة..

ـ آه.. ولد يتيم يعيش مع خالته، وهى ست مستورة وطيبة، من أيضا؟

فصمت فى حيرة، ثم قال:

ـ هو فقط!

ـ كثيرون ولكنهم تمخضوا عن واحد فقط!

ـ وكم عدد البنات؟

ـ أربع.

ـ جديدات عليك؟

ـ إلا واحدة..

ـ سيدة؟

ـ نعم.. وعرفت اسم أخرى عند مناداتها. بدرية المناويشى..

ـ آه.. بنت أم رمضان، لعلها آخر العنقود من آخر زوج، لقد تزوجت أمها خمس مرات أو أكثر.

فتساءل باهتمام:

ـ لها خمسة أزواج فى وقت واحد؟

فضحكت عين وقالت:

ـ سوف تتعلم أن المرأة لا يكون لها إلا زوج واحد، ولكنها قد تتزوج من آخر إذا طلقت.

فسألها باهتمام متزايد:

ـ هل تتزوجين أنت أيضا من آخر؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟

ـ لأنى لا أريد.. والآن هلم كل لقمة تسند قلبك.

وقبيل المساء جاءت خادمة تعلن قدوم صبى يدعى حمدون عجرمة.

٥

لم تكن حياته فى الكتاب يسيرة فتلقى كثيرا من الزجر ولكنه لم يجلد قط. عرف الشيخ العزيزى أنه لا يستطيع أن يتجاوز معه حدودا معينة. وتقدم عزت فوق جسر من العثرات. وربما أعانه وحمسه أحيانا نشاط حمدون الموفور، أصبحت صداقتهما حقيقة وقد عرف مع الأيام جميع الصبيان ولكن بقى حمدون الصديق الأوحد. ورحبت عين بحمدون، أعجبها منظره النظيف ورغبته المبكرة فى الحفظ ورجت أن يجد فيه عزت مشجعا على العمل. قالت: إن الولد ذكى ومحب للمذاكرة دون أن يدفعه أحد إلى ذلك. وتمنت له مستقبلا حسنا يعوضه عن يتمه، وأكثر من مرة قالت له: ربنا يفتح عليك، إذا واظبت على اجتهادك فلن تترك التعليم لتتعلم حرفة يدوية.

وجعلت تدعوه للغداء يوم الجمعة. وبسبب ذلك دعت خالته ست رمانة لزيارتها فتوطدت بينهما علاقة طيبة. وكان زوجها تاجر أجهزة سرادقات يؤجرها فى الأفراح والمآتم، ربحه لا بأس به ولكن كان له من الأبناء عشرة، رغم ذلك عطفت ست رمانة على حمدون وعاملته كأى ابن من أبنائها، وكان قد ورث عن أبيه قطعة أرض صغيرة تنفع عند الضرورة للبيع والانتفاع بثمنها. واعترفت ست رمانة أكثر من مرة قائلة:

ـ إنى أحبه لاجتهاده.. يندر أن تجدى مجتهدا فى سنه.

هكذا بشرت الصداقة بخير للطرفين ووهبتهما سعادة بريئة سابغة، وكصداقة الصبية لم تخل من نزاعات فارغة مثل هزيمة تلحق بأحدهما فى الحجلة أو السيجة، ولم يكن ابن الست عين ممن يقبلون الهزيمة بروح طيبة، ولكن لم تتعد الخلافات قطيعة ساعة، وسرعان ما يجىء التنازل من ناحية حمدون!.

واللعب فى الحارة كان تسلية لا مفر منها، ثم بات هدفا سعيدا عندما انضمت إليهما سيدة وبدرية، ولم يستهجن أحد ذلك طالما دار اللعب تحت الأعين وفى ضوء النهار، واستأثرت «بدرية» بإقبال الصبيين حتى شعرت «سيدة» بأنها تكملة عدد ليس إلا، لم ينفعها مرحها، وتوارى حظها مع دكنة بشرتها وأنفها المتكور الذى يعيد سيرة أنف الأم. انبهر عزت بوجه بدرية رغم حداثة سنه، وسبق قلبه سنه فى الانفعال بعاطفة مبهمة تستقطر الأشواق من أرض خرافية لا وجود لها إلا فى الخيال. ولكى يستأثر باهتمامها حكى لها عن داره، أثاثها ورياشها، عن الحديقة والفواكه والأزهار، وقالت سيدة:

ـ أنا أعرف ذلك كله.

فقال عزت :

ـ ولكنها لا تعرف .

وقالت بدرية :

ـ نحن نلعب فى الحارة فقط .

وقال حمدون :

ـ وسيدة تدخل الدار مع أمها .

فقال عزت لبدرية :

ـ فلتزورنا أمك وأنت معها .

فقالت بدرية :

ـ أبى لا يسمح لأمى بالخروج .

وكانت سيدة تتودد إليه، ما وسعها ذلك ولكنه لم يكترث لها، وربما وردت على ذهنه ذكرى الخميلة ولكنها ترد مقرونة بالألم والخوف والخجل، أما بدرية فإنه يتطلع إليها بخيال عجيب سعيد مرح يعد بأفراح الدنيا والآخرة .

وقضى عامين فى الكتاب حظى فيهما بسعادة لا تتحقق إلا فى دنيا من نسج الخيال والبراءة .

* * *

وعندما هبت رياح الخريف من مهدها الرطيب كعادتها فى الأعوام السابقة أذنت هذه المرة بفراق جديد، حاد وأليم، أنذر بإخراج الولد الشمل من جنته . اعترضه قرار جديد بالتوجه إلى المدرسة الابتدائية لأداء امتحان القبول، ولم يغره هذه المرة أن يجد حمدون فى رفقته . أما بدرية وسيدة فقد غادرتا الكتاب، ومنعتا من اللعب فى الحارة، فتر حماس عزت وخمدت روحه، نجح حمدون فى امتحان القبول وسقط هو فى الحساب غير أن زيارة مباركة من أمه للمدرسة غيرت النتيجة وألحقته بالمدرسة بلا ترحاب من ناحيته ولا سرور . ولم تنقطع سيدة عن مجاله فهى تزور الدار عادة بصحبة أمها، واعتاد منظرها أكثر وأكثر، فباتت دكنتها مألوفة وتكويرة أنفها عادية ومرحها محبوبا وحديثها لا يخلو من تسلية، أما بدرية فلم يكن يراها إلا فى النادر جدا من الأوقات، غالبا بصحبة أبيها، يسرق منها نظرة خاطفة، وتمضى هى جادة أكثر مما يحتمل عمرها وكأنها لم تقاسمه عامين أفراح الحياة . وكان لديه من فرص العمل واللعب، ما يشغله عنها ولكنه لم يستطع أن يتحرر من ذكراها، ولا أن يمحو من ذاكرته تعلقه الفريد بوجهها الثرى .

* * *

وبدا متعثرا فى دراسته، تمضى الأيام ولا يحظى باستحسان واحد، لا يأنس إلى المدرسة. ويحن دائما إلى الحرية والحديقة. وذات يوم سمع تلميذا يقول وهو يومئ إليه:

ـ ما حاجته إلى التعليم وهو أغنى شخص فى الحارة!!

فعجب من إصرار أمه على تعذيبه، ولم يؤثر فيه تفوق حمدون إلا قليلا، وكان حمدون يشجعه على العمل، ولولا مواظبته على المذاكرة معه ما أصاب أى قدر من التقدم. وكان يقول له:

ـ عقلك ممتاز ولكنك كسول.

فتساءل عزت باستهانة:

ـ أمن المهم أن أكون مجتهدا..!

فقالت عين وهى تتابع الحديث باهتمام:

ـ طبعا، ما أجمل الناجحين! العلم من الإيمان وأنت من المؤمنين الصادقين..

أجل. كان محبا للعبادات ومغرما بالحكايات ولكنه حزن قبل الأوان.

واستطردت أمه باسمة:

ـ عليك أن تزيد من المذاكرة وأن تزيد من الطعام..

فقال حمدون مؤكدا:

ـ إنه نحيف جداّ، فى المدرسة يقولون إن والدته تنفق مالها على الفقراء وأن الابن لا يجد ما يأكله!

فضحكت عين وقالت بلهجة متوعدة:

ـ العلم والطعام..

فقال حمدون:

ـ يشغل نفسه بالجنة والنار!

فقال عزت لنفسه بالجنة والنار وبدرية. وهناك أمه التى تكون نسيج حياته وأحلامه وأفراحه ومخاوفه! إنها الصلة بينه وبين الله، والصلة بينه وبين الحياة، هى كل شىء، وهكذا ينظرون إليها فى الحارة. وقد ألف منذ يقظته الأولى ذهابها وإيابها، مسيرتها المكللة بالجلال والحب تحت مظلتها، اجتماعها بالفقيرات فى الحديقة. وتعلم أن يعتد ذلك عبادة من العبادات الرائعة، وعلى ضوء ما ترامى لأذنيه من تعليقات على نشاطها الكريم الموفور سواء فى المدرسة أم فى غيرها مضى ينظر إليها بعين جديدة، ويقارن وهو لا يدرى بينها وبين الأخريات. لم تكن الثرية الوحيدة التى تفعل ذلك، حتى صدق حمدون وهو يقول له مرة:

ـ إنها أم الحارة وليست أمك وحدك..

ولكن من العجيب أن هذه القوة النادرة لا تنفعه فى أشيائه الحميمة، فلا عون ينتظر منها على دروسه المعقدة، ولا فرج يأتى على يديها ليعيده إلى جنة بدرية المفقودة، إنها تداوى القلوب الجريحة وتتركه يعانى وحده، تتركه والأعوام تمر والكآبة لا تنقشع.

* * *

وذات يوم جاءه حمدون متألق البصر خفيف الحركة، ولسبب مجهول انقبض قلبه وتذكر بقوة وحزن بدرية المناويشى. جلسا فى الفراندة والسماء تمج رذاذا يغسل الأوراق ويطارد العصافير، وراح حمدون يقول بحماس عجيب:

- دنيا.. دنيا لا مثيل لها..

فحدق إليه متسائلا فقال الآخر:

- أمس اصطحبنى زوج خالتى مع بعض أبنائه إلى الكلوب المصرى.

- المقهى!

- بل المسرح، شاهدت مسرحية من البداية إلى النهاية.

ووصف له تفاصيل الرحلة بكل دقة. الدخول، الجلوس، الصالة، الستار، المسرح، الممثلين والممثلات، الحكاية، الغناء، كل شىء.

- هناك تضحك وتطرب وتبكى أحيانا..

لم يستطع عزت أن يتخيل شيئا ذا بال صورة الجنة أوضح فى مخيلته وكذلك صورة النار وقال حمدون:

- سوف تراها يوما ما. لكننا نستطيع أن نحاكيها ها هنا، فى هذه الفراندة!

- كيف؟!

- سأحفظك ما يقال..

ودون تردد راح يقتبس المسرحية ويخلق الديكور بالوهم، ثم قال:

- أنت الآن فتاة تدعى جولييت وأنا فتى اسمه روميو!

فقطب عزت متسائلا:

- ولم لا يكون العكس؟

فقال مطاوعا ومتجنبا إثارة غضبه أو عناده:

- ليكن..

ودار الحوار القصير كما تخيله حمدون، وكان يمثل ما وسعه ذلك ولكنه لم يفلح فى حمل عزت على التمثيل، تخيل عزت بدرية فى دور جولييت. هذه هى الحكاية، ولكن أين صاحبة الدور الحقيقى؟!.

وتابعت عين المنظر من شباك حجرتها فلم تفهم شيئا وقالت لنفسها: إن الأطفال يجيئون إلى الدنيا بالأعاجيب، وتلت آية الكرسى وقلبها ينضح بالعطف على اليتيم.

* * *

وتغير حمدون تغيرا ملموسا. . فتنته بالمسرح لم تخمد أبدا. . ملأ بعض وقت فراغه بهواية جديدة هى القراءة. . بشىء من الصعوبة كان يقرأ ما تصل إليه يداه من إعلانات، مجلات قصص بوليسية، واهتدى أخيرا إلى ألف ليلة وليلة. ومنه تعلق عزت بالقصص البوليسية، فلم يقرأ بدافع الحب وحده إلا القرآن والقصص البوليسية، وقال حمدون:

ـ ستكون العطلة الصيفية رائعة، سنمثل كل حكاية نقرؤها. .

فقال عزت:

ـ لننقل المسرح إلى الحارة. .

ـ فكرة. . هل تضايقت أمك من اللعبة؟

ـ أبدا. . ولكن لعلنا نضم إلينا ممثلات!

فضحك حمدون وراح يمسح على حاجبيه البارزين ويقول:

ـ فكرة مستحيلة. .

ـ أليست بدرية جارتك!

ـ ولكن بينى وبينها جدارا أقوى من جدار القبو العتيق. .

ولكنه يراها، ربما كل يوم، ويستحق لذلك الحسد.

* * *

فى ختام العام الرابع نجح كلاهما فى الابتدائية. كان النجاح بالقياس إلى عزت معجزة. قدمت لهما الحلوى فى الحديقة. فى الثانية عشرة من العمر أعلن حمدون عن رغبته فى أن يصير ممثلا ومؤلفا. ابتسم عزت ولم يصدق. وقالت عين:

ـ اختر عملا لا لعبة. .

كان حماسه أقوى مما يتصوران. وسألت عين وحيدها:

ـ وأنت؟

مط بوزه فى غير مبالاة. إنه يحب شيئين متنافرين، العبادة والسيادة. يعتز بأمه وبداره، ويهوى فؤاده الوجاهة. لم يكن متكبرا ولكنه يضمر أن يكون خليفة أمه. ربما فى الدار والحارة، أو فى الدار وحدها!. وتمتمت عين:

ـ أود أن أراك عظيما. .

ولم يدر ما العظمة على وجه الدقة ولكن فؤاده هفا إليها. .

٦

عهد المدرسة الثانوية كان عهدا جديدا .

فتحت نوافذ لتيار من المعلومات الجديدة ، ثم تدفق منها هواء دافئ يفتح الأكمام وينضج الحنايا ، ونبت شخص جديد فى حنايا عزت . . وحمدون أيضا . . فانقسمت أرنبة أنفه ، وغلظ صوته ، وتقلقل بالأشواق المبهمة . وترحمت عين على عم عبد الباقى وقالت إنه يحاكيه رغم أنه لم يعرفه . وقالت إنه من الآن فصاعدا ستهب النسائم محملة بالعبير والمخاوف . فى ذلك العهد صار حمدون قارئا لا ريب فيه ، متنوع القراءات منقبا عن أى كلمة ذات علاقة بالمسرح ، وانغمس عزت . . فى أوقات فراغه ـ فى قراءة القرآن والقصص البوليسية .

وكاد يعتاد السلوان عن بدرية لولا لقاء عابر غزاه بقوة من جديد . كان يمضى لدى الغروب فى العطفة نحو بيت حمدون وكانت بدرية تعبر العطفة نحو بيت مقابل . تشجعت بقرب المسافة وغياب الأب فخرجت فى الفستان سافرة ، شبه أنثى ناضجة بوجه أكثر ثراء ونقاء ، وقامة ممشوقة ، وضفيرتين مرسلتين حتى نهاية الظهر . كادا يتلاقيان فى نقطة واحدة تحت مظلة الغروب ، تبادلا نظرة باسمة بالذكريات المشتركة عامرة بالمودة وسرعان ما همس :

ـ أهلا . .

فهمست فى حياء :

ـ أهلا . .

وأسرعت فى مشيتها متعثرة بالخطى ، فواحة بالشباب المبكر . وتوقف تحت بيت ست رمانة والمغيب يقتحمه بعمق فيتحول رويدا إلى شبح . . أراد الوقوف ليثوب إلى رشده ويسترد توازنه وتنعقد أواصره بما حوله من جديد . . أدرك بوجدان جديد أنه قضى عليه بأن يحب بدرية إلى الأبد . وتبدى له الحب كالحياة نفسها فى جاذبيته واستبداده . وتخلى عنه إحساسه العميق بالسيادة فشعر بأنه وحيد . ولم يكن يحب المكث طويلا فى بيت حمدون لاكتظاظه بأهله فسرعان ما غادراه معا . مضيا نحو الكلوب المصرى ، وفى الطريق قال عزت ليروح عن نفسه :

ـ رأيت بدرية وأنا ذاهب إليك .

فتمتم حمدون :

ـ كثيرا ما أراها . .

فاستسلم لدفعة داخلية قائلا :

ـ إنى أحبها . .

فقال حمدون ضاحكا :

ـ مثلك تماما !

فتساءل عزت بانزعاج :

ـ تحبها أيضا؟

ـ أكنت تتوقع أن أكرهها؟

ـ كلا طبعا . . ولكنى أعنى بالحب شيئا آخر .

فقال الآخر بهدوء :

ـ ليس بهذا المعنى .

ـ أصدقنى القول !

ـ متى عرفتنى كاذبا؟

ارتاح نوعا ما ولكن قلبه لم يعرف اليقين ، وهو لم يرغب فى شىء ويمتنع عليه باستثناء عالم البنات . لكن اليوم غير الأمس . إنه يحلق ذقنه صباحا بعد صباح . ربما ليعجل طلوع شعره بيد أنه لا يدرى كيف يبلغ رسالة حبه فى حارته ذات القضبان العتيقة . إذا رفع رأسه ارتفعت معه مائة رأس متسائلة مستريبة ، وما زال يرفل فى غشاء الحياء والتقوى الذى نسجته يد أمه بأصابعها الطويلة الناصعة . والسهو عذر ولكنه لا يخلو من الحساب العسير وأين المفر من عين الله الساهرة؟ !

وقد صار من المترددين على المسرح بإغراء حمدون المتواصل . وبات حمدون يحلم بالتأليف ويحاوله سرا فلا يطلع عليه أحدا إلا عزت . وكم ود لو يغير مجرى حياته ولكنه استمر فى التعليم بهدف الاستقرار فى وظيفة . عزت يواصل التعليم بدافع الكبرياء وإرضاء لأمه .

* * *

ولم تغفل الأم عما يغلى فى داخله . . أشفقت من أن يزل ، من أن يعصى الله جل جلاله ، ورفضت أن تهرب من تحمل مسئوليتها ، أو أن تتركه وحده فى مواجهة الشيطان ، وتتشجع بالظلمة فى الحديقة وهى تجالسه فى أمسية من أماسى الربيع فتقول له :

ـ آن لى أن أعاملك كرجل . .

فضحك ضحكة مقتضبة. أما هى ففكرت بشقيقتها أمونة.. أرادت أن تصالحها كثيرا.. أرسلت إليها أم سيدة.. زارتها بنفسها.

أرجعتها إلى زياراتها السابقة ولكن أمونة ظلت متحفظة.. عزمت عين على أن تصالحها بطريقة عملية.. قالت:

ـ عزت.. من أصول التقوى أن نصون أنفسنا بالزواج..

أضاءت لفظة الزواج الخميلة فتبدت بدرية منورة، وتمتم عزت بدهشة:

ـ الزواج!

ـ نعم.. إنك رجل!

ـ لم أحصل بعد على البكالوريا..

ـ إنهم يتزوجون بلا شهادة.

فتساءل عزت ضاحكا:

ـ هل تستعينين بأم سيدة؟

ـ بل عندنا العروس، إحسان بنت خالتك.. إحسان جميلة، تميل إلى الامتلاء أكثر مما ينبغى مما ينذر بأنها ستكون فى حكم خالته أمونة، وهو لم يشعر نحوها بأى ميل حقيقى. قال بوضوح:

ـ لا..

فتساءلت باستياء:

ـ لماذا يا حضرة؟.. البنت كاملة..

ـ ربما ولكن لا حيلة لنا فى ذلك.

فسألته بأسف:

ـ ألا تعيننى على استرضاء أختى؟

ـ ليس عن هذا السبيل.

ـ هل تكره فكرة الزواج الآن؟

فقال بصراحة:

ـ الحق أنى لا أكرهها..

فتساءلت باهتمام:

ـ هل عينك على عروس أخرى؟

ـ نعم.

فقالت بقلق :

ـ تحدث أمور من وراء ظهرى ، لم لم تصارحنى من أول يوم؟ من؟

ـ بدرية المناويشى . .

أخذت لحظات فانداح الصمت ثم قالت بنبرة آسفة :

ـ لا . .

ـ لا؟! . . ألا تعجبك؟

ـ أمها مزواجة . .

ـ إنى أتحدث عن البنت لا عن أمها .

ـ البنت لأمها!

ـ حكم غير معقول . .

ـ لا خلاف عليه .

ـ لا أصدق ذلك!

ـ أمك لا تخطئ أبدا . .

فقال بشىء من الحدة :

ـ دعينى أجرب حظى . .

فقالت بتوسل :

ـ لا تستهن برأى أمك .

فقال بضيق :

ـ لا أستطيع أن أستهين كذلك برغبتى . .

ـ إنى شديدة الرغبة فى تزويجك ولكنى حريصة على سعادتك .

فقال بقوة :

ـ لن أتزوج إلا بمحض رغبتى الخاصة . . فتأوهت قائلة :

ـ هذا صوت جديد يا عزت ، أنت طبعا حر ، ولكنى غير راضية . .

انقبض قلبه ، لم يهن عليه إغضابها ، وهل يستطيع أن يخطو خطوة بغير رضاها؟ . قال :

ـ لولاك ما فكرت فى الزواج الآن قط . .

لم تنبس . ثقل عليه صمتها . أخذ يتعذب من الداخل . قال بحسم :

ـ لننس ما دار بيننا من حديث . .

لبث وحده فى الحديقة بعد ذهابها، شعر بأنها ما زالت قائمة فى مكانها. أحس غضبا قاسيا يجتاحه نحوها. كان أشبه بالكراهية. غير أنها كراهية عابرة. سرعان ما أخلت موقعها لأسر الحب وذله. لكنه استطاع أن يراها بعين ناقدة كأنما استعارها من زفرات الصراصير. إنها تتحول إذا شاءت إلى صخرة صلدة وينضب معين الرحمة من قلبها. هذه المرأة العجيبة التى تؤاخى الفقراء وتصادق القطط وتناصب ابنها العداء. وكم خوفته من الشياطين وها هو أسمج شيطان يتجسد فى عنادها!.

وقالت عين وهى تتنهد فى حزن بالغ إن الولد عنيد. عنيد مثل أبيه ومثل أمه أيضا. وصممت ألا تبيعه وهو جوهرة حياتها. هو أيضا أحمق مثل أبيه. ولولا أن عم عبد الباقى أذعن فى النهاية إلى مشيئتها لضاع مثل ذرة غبار، أجل إنه يحب البنت، والبنت جميلة حقا، ولكن ما قيمة الحب المترع بالضلال؟. والحب يحرره الزواج وعند ذلك لا يجد بين يديه إلا امرأة تحلم برجل آخر. هكذا عاشت أمها متنقلة من رجل إلى آخر. إنى مسئولة عنه اليوم، غدا يستقل عنى ويرتكب حماقاته.

واستدعت أم سيدة وسألتها بجفاء:

ـ ماذا تعرفين عن عزت وبدرية؟

فذهلت المرأة وتساءلت بدورها:

ـ ماذا عن عزت وبدرية؟

فهتفت بتحذير:

ـ إياك والمكر.

ـ معاذ الله.

ـ ماذا تعرفين إذن؟

ـ أستغفر الله العظيم.

ـ لا يتحرك قلب فى حارتنا إلا وأنت معه فى نبضه!

فقالت بحرارة:

ـ لا تهمنى الإشاعات..

ـ تهمنى أنا..

فنفخت أم سيدة وقالت بصوت منخفض:

ـ يتحدثون عن حب، إنهم كما تعلمين يصنعون من الحبة قبة..

ـ يتحدثون عن حبه لها؟

ـ أجل..

ـ وماذا يقولون عنها؟

ـ لا شىء، أنت تعرفين أباها . .

ـ وكيف يثبتون صدق رأيهم؟

ـ كلام فارغ، لا يقوم على أساس، نظرة عابرة مثلا . .

فقالت بأسى :

ـ قد يقود ذلك إلى فضائح، أصدقينى يا أم سيدة، هل تقابلا ولو مرة واحدة؟

ـ أستغفر الله . . البنت تعيش فى ظل أب صارم .

ـ هل عرفت أمها؟

ـ طبعا .

ـ ما رأيك فيها؟

ـ ليس بالرأى الحسن . .

ـ هل علمت بما يشاع عن ابنى؟

ـ لا أستبعد ذلك . .

ـ والأب؟

ـ مستحيل .

ـ هل حدثتك أم بدرية بهذا الشأن؟

ـ كلا، ولكنها طلبت منى البحث عن عريس مناسب، وألمحت إلى سى عزت وعلاقتى الوثيقة بوالدته، ولما كنت على علم برأيك فيها فقد اعتذرت بحجة أن سى عزت ما زال دون سن الزواج .

واقترحت حمادة الأفندى . .

ـ وماذا كان رأيها؟

ـ لم يملأ عينيها . .

فقالت عين ساخرة :

ـ طبعا، ما دامت تحلم بالعلالى . .

ورمتها بنظرة قاسية أخجلت عينيها وقالت :

ـ وأخفيت عنى ذلك كله . .

فقالت بحرارة :

ـ لم أشأ أن أغضبك بكلام يجىء من ناحية أم بدرية . .

فمالت نحوها متجهمة وقالت:

ـ ولكنك لن تخفى عنى كبيرة أو صغيرة تخص هذا الموضوع؟

فقالت وهى تتنفس بارتياح لأول مرة:

ـ أعاهدك مع ذلك والله شهيد..

ولما غادرتها أم سيدة أفرغت قلقها فى بركة فراحت تهدهدها وتهمس لها:

ـ إنى أتعذب يا بركة فادعى لى بالسلام..

٧

مضى الحب ينمو ويتضخم مثل شجرة بلح. وكان يسلى همه بالمسرح ولكنه يغرق وقت فراغه فى القصص البوليسية، كلما طالعه حمدون بوجهه القوى المشرق توجس خيفة غامضة، وغبطه على تقدمه وعبادته لهدفه. وردد عزت حكاية حبه كثيرا فكان حمدون يشاركه همه بحرارة الصديق المحب، قال له مرة:

ـ يخيل إلىّ أن والدتك تسىء الظن بالحب.

فقال عزت:

ـ إنها تسىء الظن بأم البنت وهذا ظلم..

ـ الحب أيضا متهم فى حارتنا..

ـ قصص الجريمة أجمل من الواقع!

ـ أجل أجمل من واقع بلادنا.

وراح يتحدث عن الاستعباد. وكان يهتم بذلك، ويتزايد اهتمامه بتقدمه فى العمر. ولم يخل حديثه من عبارات دموية. ولم تحرك هذه الشئون قلب عزت بجدية مثل صاحبه ولكنه قال:

ـ بوسعنا أن نقاوم الاستعباد ولكن كيف نتصرف مع أم مثل أمى؟

فقال حمدون:

ـ ومع ذلك فلا ينكر أحد جمال ابنة خالتك!

فحنق عليه وثارت مخاوفه الغامضة من جديد

* * *

وحصلا على البكالوريا فى عام واحد. وهنأته عين ووجهها يطفح بالبشر ولكنه قال لها:

ـ لا.. انتهى الحب بيننا!

فلم تأخذ قوله مأخذ الجد وقالت مازحة:

ـ أتدرى ما عدد البنات اللاتى يحلمن بالزواج منك؟

ـ ولكنى أريد واحدة فقط.

ـ ما تريدها إلا لأننى لا أريدها.

ـ بل كأنك ما ترفضينها إلا لأننى أريدها..

ـ أتحب أن أروى لك نوادر أمها؟

ـ أمها لا تهمنى البتة..

ـ إنها كامنة فى أعماقها..

ـ هبى أنه زواج خائب فهل أعجز عن الطلاق؟

ـ والخيبة؟.. أتظنها تمر بلا عواقب؟

* * *

فى أثناء الصيف اختار عزت أن يلتحق بمدرسة الحقوق. أما حمدون فعزم على أن يتوظف ليخفف عن خالته من ناحية ويهب بقية يومه للمسرح. وفى ذلك الوقت عرف أن عبد الحميد الكومى خطب بدرية وأن الفاتحة قد قرئت. اقتلع الخبر قلبا ـ وربما أكثر ـ من جذوره، وتبدت الحديقة لعينى عزت صفراء تنفث ريحا سامة. أكان يعتمد على سحر الحب الكامن وحده؟ هل تصور أنه ـ سحر الحب ـ قادر على حفظ حبيبته لحين قدرته على الخروج من سلبيته؟. وهتف بأمه ثقة منه فى قوتها غير المحدودة:

ـ اصنعى شيئا..

فتساءلت بجزع:

ـ أتريد أن تخطف بنتا من رجلها؟

ـ أنت الذى مكنته من خطفها!

فتمتمت بحنان:

ـ الخيرة فيما اختاره الله.

ورماها بنظرة حزنت لها ومضى. ووجد حمدون جياشا بالانفعال. وقال عزت:

ـ إنى أحترق وكان ينبغى أن أحرق..

فتساءل حمدون:

ـ هل انتهى الأمر؟

واصطحبه إلى والد بدرية، ورجاه أن يبقيها على ذمته حتى يستقل بنفسه، فقال الأب:

ـ لقد قرأنا الفاتحة، وكان بوسع والدتك أن تتكلم لو توفرت لها الرغبة. .

فقال حمدون:

ـ هو الذى يرغب. .

فقال الرجل:

ـ إنى رجل مستقيم لا أتعامل بالحيل!

❊ ❊ ❊

عرف عزت الوحدة وهو منغمس فى خضم الناس. حزن حزن القوى عندما يغلب على أمره. . أدرك أن جاهه زائف وأنه يستمد نوره من أمه. إنه فى الواقع حقير فقير عاجز. أعماه الغضب حتى فقد الرشد. تفجرت منه قوة حطمت رأس أمه، إنها قوة شريرة تتهادى فى رداء ملاك، قتلها سبع مرات كل مرة بأداة خاصة. وماتت حتف أنفها مرات أخر، لو كان فى قوة حمدون لغامر مغامرة فريدة مرحبا بالصعلكة. لكنه أسير الحديقة والوسائد الناعمة وتلك القوة الغامضة المجهولة. ولشدة ارتباطه بالحياة فقد الحياة الباهرة. إنه وفىّ للأسر ليشدو أغانى العذاب، وستجلو بدرية عن مجال أمله بعد أن أرست فيه طابعا لا يبيد ،وكتب عليه أن ينتظر أملا لا يعود وأن يبحث عن كائن ليس له وجود. واللعنة على الكبرياء التى يلقنها غر فى مهد عبودية.

❊ ❊ ❊

وفى حومة النضال العقيم تلقى من حمدون رسالة. ألم يجتمع به أمس وكل يوم!!

عزيزى عزت. .

عليك أن تفهمنى باسم صداقة العمر. إنها صداقة حقيقية متينة ونقية. إياك أن تسىء بى الظن. لقد وطنت النفس على التضحية تحت شرط أن تفعل أنت شيئا. لكنك أعلنت عجزك وسلمت بالواقع. عند ذاك قررت أنه من حقى أن أعمل. إنى مثلك فى الحب ولكنى لا أتركها تذهب مع الكومى. سنهرب معا لنتزوج بعيدا عن الأهل والحارة. معى مال قليل من ثمن الأرض سأعتمد عليه حتى ألحق بالوظيفة. لن أتخلى عنها كما لن أتخلى عن المسرح. وستبقى صداقتك معى وذكرياتها الجميلة. لا تسىء بى الظن وتقبل تحياتى.

حمدون عجرمة

قرأها مرات قبل أن يسيطر على معانيها. وقتل حمدون مرات ـ أكثر من أمه ـ قبل أن

يفهم موقفه. شد ما أخفى عنه حبه. حقا إنه لممثل ماكر. لم يغفر له رغم أنه لم يتهمه. ربما كان يسخر منه. ربما كان من الأفضل أن يأخذها الكومى. اعتاد أن تنفذ رغباته قبل أن يجهر بها فماذا جرى من وراء ظهره. غصت الدنيا بالمجرمين أمثال عين وحمدون وبدرية. أصبح القتل لا يجدى. أفظع من ذلك أن تغرورق العينان بالدموع. أن تعمق صفرة الحديقة وتموت العصافير. أن يمسى بلا حبيبة وبلا صديق وبلا أم.

وانتشرت حكاية الهرب فى الحارة كالغبار فى يوم عاصف. لفحته العاصفة باعتباره بطلها المهزوم. احترق والد بدرية وأمها وست رمانة خالة حمدون. اشتعلت خصومات. سجلت الشائعات للحادث حكاية فاضحة متكاملة. طلقت أم بدرية فى أثر شجار عنيف.

* * *

وكان يجلس فى الخميلة فى أصيل قائظ عندما رأى ظل أمه يفرش الأرض أمامه بين الشوح والجدول. اقتربت وهى تقول:

ـ لم نتبادل كلمة منذ أيام، إنه الجحيم..

رأى وجها متهدلا وخامدا، وقد حلت نظرة خابية فى مكان الألق البهيج. لم يعطف عليها وحول عينيه عنها. همست وهى تجلس:

ـ يجب أن تعرفنى أكثر..

فانتقم منها بالتمادى فى الصمت فقالت:

ـ آن لى أن أعترف لك بأشياء..

فى الصمت ارتفع نقيق الضفادع وزقزقة العصافير. واصلت الحديث:

ـ اهتممت بمعرفة كل شىء، فكرت فى الإذعان لمشيئتك، فجاءتنى معلومات غير متوقعة..

أنصت باهتمام ولكنه لم ينبس.

ـ كان ثمة حب متبادل بينها وبين حمدون، ذاك أمر الله ولا لوم على أحد..

فهتف وهو لا يدرى:

ـ كان يخدعنى!

ـ أبدا، إنه فتى أمين، لم يكن فى موقف سعيد، لا أدرى ماذا كان يدور فى ذهنه، ولكنه على أى حال لم يخطئ فى حقك..

وتنهدت بعمق واستطردت:

ـ اضطررت إلى الإصرار على الرفض ولم أر خيرا فى كشف الحقيقة..

قربت وجهها المحزون منه حتى لثمت جبينه، وقالت:

ـ لا تستسلم للحزن، الحياة أقوى من كل شىء، سيجيئك السلوان بأسرع مما تقدر، وستجد من هى خير منها . .

عند ذاك جاءت أم سيدة تتقدمها نحنحة فظة . غادر المكان والمغيب يستفحل، وفى الممر التقى بسيدة قادمة لتلحق بأمها . تصافحا . وفجأة اشتعل بلا تمهيد ولا مقدمات، وبلا سبب فى الظاهر . أخذ بما اجتاحه . لم يترك يدها . مضى إلى الداخل جاذبا يدها معه . أذعنت بلا مقاومة تذكر متشجعة بالظلمة . لم ينبس بكلمة، ضمها إليه، شملها ذهول أخرس . أطاع قدرا جامحا وغامضا وبلا أدنى تفكير فى العواقب وكأنه يعبث فى الظلام وحده بلا شريك . وتفشى فى الوحدة المطلقة إذعان ذليل ورغبة دفينة وذكرى آسرة . وحفرت فى لوحة الليل السوداء نقوش لا تمحى . .

٨

لم يعد الحب هو المحتل الوحيد للمكان . زاحمه قدر جديد هو الخوف . وتناسى الحب أحيانا ليرامق الشبح الجديد . وهو شبح ثابت لا يتزحزح ولا يهن بمرور الزمن . ومن الأخطاء خطأ لا ينى يطارد ويطالب بحل . وسيدة فى ذاتها لا شىء ولكنها بسبب الخطأ صارت كل شىء . إنها الآن تستكن فى ركن من الوجود ضئيلة لا ترى غائصة فى ضعفها ولكن صوتها يدوى مثل صرار الليل . لقد مات أبوها من دهر، أخوها الأكبر فى السجن والأصغر مهاجر . أمها ربيبة نعمة أمه ولكن الخطأ قوض بناء وأقام محله بناء جديدا . ما العمل؟ . ما اعتادت أعماقه أن تقترح حلولا ولكنها دأبت على القتل . ونظرة سيدة التى ترمقه بها عند اللقاء العابر راسخة فى خياله . مفعمة بالدلالات المشتركة، ذليلة وجلة يائسة تؤكد له أن ما كان لا يمكن أن يمضى كأن لم يكن . إنها حزنه الخفى حين يتجسد، وأحيانا تند عنها إشارة خفية تحكى مأساة متكاملة، استغاثة حارة صامتة، تستوهب إحسانا أو رحمة كآخر انتفاضة للضفدع قبل أن تسلم الروح . ما العمل؟ وتذكر وهو كاره حمدون . لماذا؟ . ربما لثرثرته الملحة عن الأقوياء والضعفاء، لآرائه التى يريد أن يصلح بها الكون .

وكان يقرأ فصلا فى رواية بوليسية عندما خيل إليه أن صوت أمه يحتدم فى الحديقة . نظر من نافذته فرأى المرأتين ـ أمه وأم سيدة ـ تسترسلان فى حديث ما . داخلته كآبة مثل جو المغيب المخيم . سيحدث ذات يوم أمر ما . إنه يتوقعه كما يتوقع مريض الفم ضربان ضرسه .

* * *

وسمع خطوات أمه قادمة فلعن مخاوفه ومرق من الخوف إلى التحدى. جلست على ديوان يتوسط الحجرة بوجه شاحب. أرعشت بيدها مروحة عاجية بحركة عصبية فوردت ذهنه فكرة غريبة بأن معجزة أمه ستتحطم على يديه. وقالت عين بصوت متهدج:

ـ ماذا ينقص هذا البيت؟

وتريثت قليلا ثم أجابت نفسها:

ـ يتلى فيه القرآن، يعبقه البخور، ترعاه الحسناوات والنوايا الطيبة، فكيف يندس الشيطان فى أركانه؟!

آه.. لقد وقعت الواقعة.. وعليه أن يتظاهر بمواصلة القراءة.

وتساءلت عين بأسى:

ـ ألم تشعر بوجودى بعد؟

فتساءل ببلاهة:

ـ ماذا؟

ـ ألا تخمن ما ورائى من حزن؟

أغلق الكتاب ونظر إلى تهاويل السجادة الفارسية فى استسلام.

ـ ما هذا الذى كاشفتنى به أم سيدة؟

فشحب وجهه ولم ينبس. تأوهت قائلة:

ـ لم أعذبك؟.. لا معنى للتأنيب بعد فوان الوقت..

رأى بوضوح ـ ربما لأول مرة ـ مبخرة فضية محمولة بساقين من النحاس تستقر أسفل ستارة أرجوانية.

ـ اسمع يا بنى، لست أول شخص يعبث به الشيطان، وما يهم حقا هو تصرفنا بإزاء ما نرتكب من أخطاء..

وتنهدت بصوت مسموع وقالت:

ـ نحن أغنياء ولكن لا قيمة لذلك، وإنما قيمة الإنسان تتحدد فى علاقته بربه، غير أننا نحاسب على قدر قوتنا..

وجد نفسه ينزلق فى طريق وحيد مسدود.

واستطردت عين:

ـ قد نخطئ ولكن لا يجوز أن نظلم. علينا أن نصلح خطأنا، وكلما جاء الإصلاح على غير هوانا اقتربنا أكثر من عفو ربنا..

ورفعت رأسها كأنما ترنو إلى القنديل وقالت بحزم:

ـ ستتزوج من سيدة فى أقرب فرصة . .

ثم نهضت وهى تقول :

ـ إنه قرار لا يقبل المناقشة ، وما يشهد لك بالطيبة أن ترحب به . .

* * *

وتلاحقت الأحداث كأنما تقع لشخص آخر . . وذاع الخبر فى الحارة فأحدث دهشة عامة ، كما صعق بيوت العرائس المرشحات لجمالهن وأصلهن لمثل هذا العريس الفريد . وكيف ترفض الست عين بدرية المناويشى لتقبل سيدة بنت أم سيدة الخاطبة؟ . أيرجع السر إلى مهارة أم سيدة؟ . أيجد تفسيره فى شذوذ طرأ على ذوق عزت؟ . وكالعادة تمطى التأويل السيئ لينفث ظنونه فأصاب الحقيقة هذه المرة بمحض الصدفة . هكذا تزوج عزت وهو فى الثامنة عشرة من عمره زواجا مناقضا لذوقه وميوله . وهكذا انتقلت سيدة إلى أجمل دار فى الحارة لتحتل أرفع مكان فيها . هكذا صارت أم سيدة حماة الوجيه الأول . وثارت أمونة ثورة حاقدة فقطعت علاقتها بشقيقتها إلى الأبد . واستسلم عزت فى الواقع كما يستسلم إلى قدر لا مفر منه . أجل لم يعتده قضاء نهائيا ، ولكن حلا ضروريا مؤقتا حتى يتخلص منه فى الوقت المناسب . وتضاعفت أشجانه على حبه الضائع فاعتبر المحنة كلها جزاء عادلا يستحقه لضعفه وتردده . ومن أول لحظة أدركت سيدة أنها لا تحظى بحب زوجها ولا حتى برضاه . وأنها تتجرع حياة باردة ، حيوانية مجردة ، لا عطف فيها ولا احترام . وبدافع من غريزة الدفاع عن النفس انطوت تحت جناح عين ، فوهبتها من قلب محروم جريح كامل الولاء والوفاء . وأوصتها أمها بالصبر والتزام الأدب . قالت لها :

ـ لك رب فليكن اعتمادك عليه وحده . .

فقالت لها الفتاة :

ـ أفضل أن أرجع إلى بيتى . .

فقالت المرأة بإصرار :

ـ لا تفرطى فى النعمة ، واعلمى أن الرجال لا يثبتون على حال ، وما الحياة الزوجية إلا معركة . .

وفى ذلك الجو الشحيح بأى عذوبة حملت سيدة ، ثم أنجبت «سمير» . أصبحت أما . . أصبح عزت أبا ، أصبحت عين جدة ، فحتى فى أسوأ الظروف استطاعت أن تغير أبعاد كونها الصغير ، وأن تفجر فيه من ينابيع العواطف الجديدة ما لا عهد له به . تحرك قلب عزت . جاءه حب جديد ليزاحم حبه القديم الذى اعتاد ألمه حتى ألفه . أما عين فجنت بالوليد وعشقته ، وطمح قلب سيدة الكسير إلى حياة أفضل .

وخاب عزت فى دراسته القانونية، لا الهمة وجد ولا الحماس، فانقطع عن المدرسة بعد عامين من التحاقه بها. وضاق بحياة بلا حب ولا صداقة فعزم على التوظف. أراد أن يظفر بقدر من الاستقلال، وأن يملأ فراغه، وأن يجرب الحياة الرسمية التى تفتن الكثيرين.

والتحق بوظيفة بوزارة المعارف. وسرعان ما نشب التنافر بينه وبين الوظيفة ومناخها العدوانى. ونصحته أمه بأن يدعو موظفى إدارته إلى وليمة فى الدار تعزيزا لمركزه ودفعا لمكر الماكرين. ومضى عليه شهر فى العمل ولدى عودته سألته أمه:

ـ ألم تحدد يوما للوليمة؟

فأجابها بهدوء:

ـ قامت معركة بينى وبين رئيسى..

فحدجته باهتمام فقال:

ـ قدمت استقالتى..

وأغرق فى الضحك.

٩

يقول الراوى:

ويمر عام فى أعقاب عام. يغوص حبه القديم فى غلاف من السكينة والفتور. وتظل علاقته بسيدة باردة فى مشاعرها، خشنة فى معاملاتها، لا تند عنه كلمة طيبة، ولا يتردد عن الإساءة إليها لأقل هفوة، وأحيانا بلا سبب، وكان يمضى بسمير بعيدا عنها ليمارس حريته فى ملاعبته وتقبيله. وضاق بحياته بعد غياب بدرية وحمدون، ولم تكف القصص البوليسية لملء الفراغ، فانزلق إلى غرزة يسلى بها همه. ومن ثم عرف أين يقضى ليلته حتى مطلع الفجر، وأن يهرب بالنوم حتى الظهيرة. وتابعت عين نظام حياته الجديد بقلق، وكانت تقول له:

ـ نحن الذين نصنع سعادتنا بأيدينا.

وحنق عليها لسعادتها الدائمة. إنها تمضى كالنحلة تمج رحيق الإحسان والحب. تتوغل فى الحلقة السابعة بحصانة تامة ضد أعراض الشيخوخة، تتجول بلا انقطاع، تحظى بالنشاط والرشاقة والفرحة المتألقة. وكأنما تقصد تعذيبه وهى تقول:

ـ يا بنى تعامل مع زوجك بالرحمة، إنها امرأة نادرة المثال فى صبرها وأدبها..

لقد ساءه أن تثبت له براءتها فى موقفها من بدرية، إنه نهم إلى إدانتها. ويذكر لها موقفها المتعنت من حبه قبل أن تعرف ما بين بدرية وحمدون من حب. إنها مدانة على أى حال. وهو ممزق بين حبها وكراهيتها، يحلم أحيانا بموتها. ولكن كيف يمكن أن تموت هذه المرأة البارعة؟ سوف يسبقها إلى القبر. سيعيش فى أسرها عمره كله. إنها تستمد من المجهول قوة خارقة. ولكن هل يتحمل الحياة بغير شعوره الباطنى بوجودها فى مكان ما فى الدار أو الحارة؟!

وتكرر حثه على معاملة سيدة بالحسنى فيتساءل ما الذى جعله يبقى عليها طيلة الأعوام الماضية؟

الحق أنه لا يحبها ولا يريدها. من أجل سمير؟ أم أنه الضعف الأبدى الذى يمنعه من العمل؟ وقال لعين ردا على توسلاتها:

ـ آن لى أن أطلقها..

فبسطت يديها نحو السماء متمتمة:

ـ اللهم جنبه قسوة الحيوان..

ـ إننى لا أحبها..

ـ الرحمة أولى بمن لا تحب.

ـ المسألة أنك سعيدة أما أنا فرجل تعيس..

فقبضت على يده بشدة وتوسلت قائلة:

ـ لا تفكر فى الطلاق، حتى لو رأيت أن تتزوج من أخرى..

ما معنى أن يجىء بامرأة أخرى بلا حب؟

عين امرأة سعيدة، والسعداء لا يرون الحقيقة.

إنها تبعثر الثروة والعمر يمضى.. قال لها:

ـ إنك تنفقين بلاحساب.

ـ الحمد لله.

ـ ولكنه مالى أيضا!

ـ حد علمى أنه مال الله سبحانه وتعالى.

فتساءل ضاحكا:

ـ ألم تسمعى عن أبناء يقتلون أمهاتهم؟

فأجابته ضاحكة أيضا:

ـ ولكنى أعلم أنك تحبنى، وأنك ستملأ قبرى بدموعك فيسبح فوقها جثمانى..

* * *

وانتهزت سيدة فرصة هدوء يمر بلا نقار فقالت له :

ـ إن ما ينقصك حقًا هو العمل . .

فتساءل بسخرية :

ـ أعمل خاطبة؟

فتجاهلت غمزته وقالت :

ـ أنشئ عملا مناسبا ، لن تضن عليك والدتك برأس المال .

غزته الفكرة ، كره أن تجيئه من سيدة ولكنها غزته . تمتم بسخرية :

ـ عجيب أن تخرج منك فكرة طيبة . .

قالت وهى تتنهد :

ـ جرب وربنا معك .

إنه فى حاجة إلى العمل والاستقلال ، ولكن من أين يجىء بالخبرة؟ أين اللعين حمدون؟ لم يحسن فى حياته سوى قراءة قصص الجريمة- وتدخين الكيف فى الغرزة . ها هو حلم جديد يبزغ فى حياته القاحلة . .

١٠

لم يعقب اقتراح سيدة فعل . حلم بالمشروع وبرم أكثر بالحياة . لم يجد فى الحياة جديدا سوى أنه اعتاد عادة جديدة هى الإكثار من الطعام بتأثير من الكيف ومعالجة للضجر . ولأول مرة يفقد رشاقته ويميل قليلا إلى البدانة .

فى ذلك الوقت نسى حبه القديم أو كاد ، وانطبع بطابع بلادة غاشية ، حتى العبادات مارسها بلا شعور وبلا حماس . ولم يجد أمامه إلا سيدة فحملها مسئولية تدهوره . وتمردت الفتاة فجأة على وضعها فهرعت إلى عين وهى متدثرة بعباءة وراء النافذة تشاهد من وراء الزجاج مطرا ينهل فوق الحديقة فيغسل الأوراق ويملأ القنوات ، بثتها شكاتها وقالت وهى تجهش فى البكاء :

ـ يجب أن أرجع إلى أمى . .

فلم تسترد عينيها من الماء والشجر ممتصة ثورتها بهدوء شامل ، ثم تساءلت :

ـ ألك أم غيرى؟

فهمست بأسى :

ـ أنت أم الجميع ولكننى معذبة . .

وتساءلت عين وهى تلتفت نحوها بحنان :

ـ أما زلت على جهلك بالرجال؟

ثم وهى تقرصها بعطف فى خدها :

ـ إنهم يحتاجون إلى تربية متواصلة تمتد من المهد إلى اللحد ، وهذه هى مهمتنا . .

وهمت الأخرى بالكلام فأسكتتها بإشارة وواصلت :

ـ المرأة التى تهجر بيتها جاهلة لا تستحق نعمة الأمومة ، ماذا غيرك بعد أن آمنت بأنك أعقل الستات طرا؟

ـ حتى متى أتحمل الإهانة؟!

ـ إنه يهيننى بأفعاله أكثر مما يهينك بأقواله فهل أهجره بدورى؟

ـ ولكن . .

فقاطعتها :

ـ حذار أن تعرضى الأمير الصغير للمتاعب .

* * *

وكان يسترق النظر إلى الفتيات اللاتى حلمن ذات يوم بالزواج منه . إنهن يرحن ويغدين فى الحارة محصنات بالزواج والاستقامة . أى واحدة منهن تفضل سيدة جمالا . وأى واحدة كانت خليقة بأن تخلق الحب خلقا إذا لم يتوفر فى البداية . وكان يعاشرهن فى الخيال وقد وهنت روادعه بوهن عباداته . ومن بينهن «اعتدال» عرفت بشىء من المرح فتشجع ذات مرة إلى توجيه تحية هامسة إليها ، لكنه قوبل بتجهم خشن . وكان للخطأ عواقبه ففاجأه الشيخ سلام الدروى ناظر المدرسة الأولية بالانقضاض عليه فى الغرزة ، وعلى مرأى من الجالسين بصق على وجهه وهو يصيح به :

ـ يا نذل . . يا جبان . .

وتفشت الفضيحة وعرفت تفاصيلها . اعتذر قوم بأنها لم تكن إلا تحية بريئة ندت عنه ببراءة وفى حال من السهو ، واستنكرتها الأغلبية ولكنها لم تنف عنه حسن النية . وتشابك الشيخ والفتى حتى خلص الآخرون بينهما . ورجع عزت إلى داره بشفة متورمة .

* * *

لأول مرة ينصب لوم على شىء ينتمى إلى الست عين . وتوارت سيدة عن الأعين لتبكى وحدها . أما عين فوقفت أمام عزت وقفة عسكرية وقالت :

ـ اصدقنى هل عبث بك الشيطان؟

فقال بحرارة كاذبة :

ـ كلا . . وأقسم لك على ذلك . .

فقالت وهى تتنهد بارتياح :

ـ إنى أصدقك . . ولكنك أخطأت . .

واستدعت الشيخ الدروى فأكرمته غاية الإكرام وأكدت له براءة ابنها . واستبقته للغداء فصالحت بينه وبين عزت ، ولم يسكن خاطرها حتى اطمأنت إلى أن سحابة الكدر قد تلاشت تماما .

* * *

لكنها لم تتلاش من سماء عزت ، هو وحده يعلم بكذبه ونفاقه وجبنه . ويشعر بأن عباداته خسرت روحها الصافية فلم يبق منها إلا وخز خفى ينفث الأسى ، وأذعن أكثر لمغريات الطعام الدسم وراح يحلم بالمشروع المقترح ، ويحلم أيضا بالهجرة من الحارة التى لم تُعد تعد بخير .

ومنه علمتَ عين برغبته فى إنشاء مشروع تجارى فرحبت بالفكرة وقالت :

ـ طالما فكرت فى ذلك ولكنى انتظرت حتى يجىء التفكير من ناحيتك !

فلم يسر بترحيبها وتوجس خيفة غامضة أما عين فواصلت تقول :

ـ لا خبرة لك ولكن لا شىء يدعو لليأس الناس حولنا يعملون فى الخشب والدقيق والبن والخيش ، دعنى أدخلك شريكا لأحدهم حتى تعرف سر المهنة ، ولك بعد ذلك أن تستمر معه أو أن تستقل بعمل مماثل فى مكان آخر . .

وجد نفسه على باب تغيير حاسم سيقلب نظام حياته رأسا على عقب فأجفل ، هل يتحرر من النظام الراهن بسهولة؟ . إنه يسهر الليل فى الغرزة ، وينام حتى الظهيرة ، ويتسلى بقصص الجريمة ، فهل يتخلى عن ذلك كله دفعة واحدة؟!

قال :

ـ عظيم . . سيحدث ذلك دون ريب . . ولكن فلنؤجل تنفيذه إلى حين . .

وألحت عليه الرغبة فى هجر الحارة ، وجعل يردد رغبته على مسمع من سيدة . وانقبض قلب الفتاة ، إنها تعلم يقينا أن حياتها الزوجية تدين ببقائها حتى الآن لعين . وأنه لا يتجاوز الحد فى الإساءة إليها حذرا من إغضاب أمه ، ولكن أى مصير تلقى إذا انفرد بها فى مكان بعيد؟!

لذلك وشت بأفكاره إلى عين ورجتها أن تخفى وشايتها . وتساءلت عين آسفة :

ـ أين يجد مثل دارنا؟ . ولكنه كره الحارة!

وفكرت لأول مرة فى إدخال تجديدات حديثة على هندسة دارها العريقة، وأنفقت بسخاء لتوصل إليها الماء والمجارى والكهرباء حتى عجب عزت من قرارها المفاجئ. . وتساءلت ضاحكة:

ـ لم لا؟ . . الدنيا تتغير، وثمة تجديدات تنفع ولا تضر. .

ثم سألته بعد حين قليل:

ـ هل يروقك الأثاث الحديث؟

فتساءل بفتور:

ـ ما أهمية ذلك؟

ـ أنت شاب، وللشباب ميوله، ممكن أن تجيء بقطع حديثة لتحتل مكانها بين الأثاث القديم، وممكن أن نجعل التجديد فى حجرتك شاملا، لم لا؟ ماذا يعجبك؟!

فرفع منكبيه ولم ينبس، وداخله شك فى أن سيدة وشت به، وسألها حال انفراده بها:

ـ هل أطلعتها على رغبتى فى الذهاب؟

فأنكرت بشدة ولكنه قال بازدراء:

ـ نمامة واشية مثل أمك. .

وعلمت عين بالشجار فواجهته بالصراحة التى تحبها. قالت له:

ـ لا تعذب أم سمير أكثر من ذلك، هذه دارك وقد جددتها إكراما لك، إذا كانت لك رغبة فى حياة مستقلة بعيدا عن حارتك فلن أعترض رغبتك، لك الحرية الكاملة فافعل ما تشاء.

هكذا وجد نفسه مع حريته ـ مرة إخرى ـ بلا عائق. وسرعان ما فترت همته وتحرك تردده.

كالعادة توقف فوق العتبة. ترى من أين يزحف عليه هذا الشلل؟! أهى حياته الخاصة التى تحولت إلى بلادة ناعسة؟! هل يوجد فى عين سر خفى ما زال يجهله؟

١١

وطالعته عين ذات صباح بعينين محمرتين من أثر البكاء فانزعج جدا. لا يذكر أنه رآها تبكى من قبل. سألها عما بها بقلب منقبض يتوقع شرا فهمست بصوت حزين:

ـ بركة . . تعيش أنت!

فما تمالك أن ابتسم وهو يشعر بالنجاة وتمتم :

ـ القطط تملأ الدار، البقية فى حياتك . .

ـ لكن بركة هى الأصل ، كان قلبها عامرا بالحب وحسن الإدراك ، ولم يكن ثمة مفر فقد انتهى الأجل . .

كان قد ألف هذه الدروشة ، وسلم بحقيقة المناجاة المتبادلة بين أمه والقطط ، وربط بين ذلك وبين حيويتها التى لم تنقص منها سبعون عاما شيئا . كذلك ألف معاشرة سيدة الراكدة ، بل لقد تألم لإجهاضها مرتين بلا سبب ظاهر ، وقد خفق قلبه عندما قالت له أمه ذات يوم :

ـ آن لنا أن نرسل سمير إلى الشيخ العزيزى!

حقا بلغ سمير السادسة ، وضحت الآن ملامح عين فى وجهه . الزمن يتقدم وقد بلغ هو الخامسة والعشرين من عمره ، لم يحدث شىء هام فى أثناء ذلك . . بل حدث تغير خفى لم يهمس به لأحد .

تغير عجب له وانزعج . إنه الفتور الذى يسرى فى شعوره الدينى . لا علاقة بذلك بأحد من جلساء الغرزة فهم مؤمنون . ولا شأن لقصص الجريمة فى ذلك . ولا دخل للتفكير فى الموضوع كله فهو لا يفكر ، ما هو إلا فتور فى الشعور أخمد الحماس واليقين فتهاوت أركان المعبد . كف عن الصلاة والصيام ولكنه احتفظ بسر ذلك لنفسه فلم يفطن إليه أحد . وخوت الدنيا ولم يكن فى وسعه أن ينعشها ، دنيا الفراغ والأكاذيب .

ولاحظ رمضان الزينى ـ عميد الغرزة ـ كآبته ذات ليلة فقال له :

ـ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . .

فابتسم متسائلا فقال الرجل :

ـ جاه ومال وشباب ، ماذا تريد أكثر من ذلك؟!

صدق الرجل ، حتى لو تهادى إليه ميراثه فأى شىء يفعل أكثر مما يفعل الآن؟

* * *

والغرزة تقع فى مكان فريد على الحد الفاصل بين التاريخ والعصر . فى حجرة مراقبة بالحصن العتيق القائم فوق القبو . فى زمن مضى كان القبو هو الباب الشمالى للقاهرة وكان الحصن فوقه هو مركز الأمن والدفاع . اليوم الحصن أثر من الآثار ، والقبو ممر عبور ومنامة للمتسولين ، ورمضان الزينى هو الذى اختار حجرة المراقبة مكانا لغرزته . ليست هى بالواسعة ولا بالضيقة ، وتتوفر لها التهوية من نافذة كان يطلق منها الرماة نبالهم .

وجعل من خفير الآثار خادما للجلسة، يهيئ الجوزة ويدور بها، ويشارك فى التدخين والعشاء.

واحتفل عزت بدخول سمير الكتاب فأهدى الجلسة خروفا مشويا وصينية بسبوسة. وكانت ليلة لا تنسى، لا للمناسبة السعيدة وحدها، ولكن لخبر جديد جاء به رمضان الزينى. قال:

ـ رأيت أمس ما لا عين رأت..

فتطلعت إليه الأعين الناعسة فقال:

ـ مر بالدرب الأحمر سيرك اللاوندى فذهبت إليه، بدأ العرض بالتمثيل، رأيت الممثلة والممثل. من هما فيما تظنان؟

قال له صوت مازحا:

ـ أمك وأبوك..

ولكنه استمر دون مبالاة:

ـ بدرية المناويشى وحمدون عجرمة!

وتصايح القوم:

ـ غير معقول..

أما عزت فقد اندلق فوق رأسه جردل ماء مثلج. فتح عينيه نصف المغمضتين فرأى الماضى متجسدا متسربلا بالانفعالات العنيفة.

وقال رمضان مسرورا بما أثار من اهتمام:

ـ بلحمهما ودمهما.

ـ يا للفضيحة!

وقال رمضان:

ـ ما يبدأ بالهرب ينتهى فى السيرك..

وتعاقبت التعليقات كالسموم، ورجع الماضى إلى عزت كأنما لم يغادره دقيقة واحدة لا سبع سنوات كاملة أو تزيد، ورغما عنه تمتم:

ـ يا لها من نهاية!

قال رمضان:

ـ صممت على إحراجه فقابلته..

ـ لا شك أنه انزوى؟

ـ أبدا.. ضحك.. رحب بى. إنه الاستهتار نفسه..

وسأله عزت :

ـ ألا زال السيرك يعمل بالدرب الأحمر؟

ـ كلا . . ولكن حمدون وعد بزيارتنا هنا . .

ـ مستحيل . .

ـ سترون بأنفسكم بعد قليل . .

ـ حقيقة إنه لقارح . .

واضطرب عزت، أيرى حقا حمدون بعد قليل؟ . ماذا يهم؟ . لقد اندثر الماضى ومات الحب كما ماتت الصداقة، ولكن وثوب الماضى على الحاضر فجأة لا يمر دون قلقلة . وتخيل للقاء صورا عديدة ولكن ما حدث فعلا كان مختلفا عما تخيل، فما إن رآه ينظر إليه من تحت حاجبيه البارزين بابتسامة مشرقة فاتحا ذراعيه حتى لبى دعوته فتعانقا بحرارة، وهمس حمدون فى أذنه :

ـ ما جئت إلا من أجلك عندما عرفت أنك من أركان الجلسة . .

وسرعان ما شارك فى التدخين بتلقائية وبلا حرج . لم يجد أحد الشجاعة للحملة عليه غير أن رمضان قال :

ـ ما تصورت أن أجدك فى سيرك فقال ضاحكا :

ـ عملنا مقصور على المسرحية وهى من تأليفى . .

ـ ولكنك كنت موظفا . .

ـ وما زلت، المسرح هواية ليس إلا . .

ـ ولكن . .

ولم يكمل رمضان فضحك حمدون وقال :

ـ ولكن زوجتى، أليس كذلك؟ . . إنها فنانة مثلى، لا جدوى من محاولة إقناع حارتنا بذلك . ولكننا أسرة شريفة كسائر الأسر الشريفة!

لم تتكلم إلا قرقرة الجوزة . . ثم التفت نحو عزت وقال :

ـ يسعدنى أن أشارك فى الاحتفال بدخول ابنك الكتاب .

ـ وأنت كم ولد لك؟

ـ أنجبت واحدا لم يعمر أكثر من عام ولا شىء بعد ذلك والحمد لله . .

فسأله رمضان :

ـ ألا تود أن تعقب ذرية؟

ـ إنها معطلة لنشاطنا الفنى!

وقرقرت الجوزة وحدها مرة أخرى.

* * *

غادرا الغرزة معا. دعاه إلى داره وهى تغط فى النوم. جلسا فى الحديقة رغم ميل الخريف إلى البرودة فى وقت الفجر. تبادلا عواطف صادقة دون أن يشير أحدهما إلى الماضى بكلمة. شعر عزت بانتعاش روحى جديد. قبض على الصداقة صافية بعد أن تلاشت الذكريات الأليمة، عادا كما كان بلا حب خائب يفرق بينهما. إنه لمعجزة تروى. وراح حمدون يحدثه عن تجربته:

- ما زلت موظفا ولكن كفاحى فى سبيل الفن لم يضعف لحظة، واكتشفت أيضا موهبة بدرية، ولكن كيف نشق طريقنا فى الصخر؟، لقد رفضتنى المسارح كمؤلف كما رفضت زوجتى كممثلة، لم أيأس، عرفت صاحب سيرك اللاوندى، اقترحت عليه أن نعرض مسرحية من فصل واحد بدلاً من التهريج الممجوج، لم نطالب بأجر فقبل التجربة، وقد نجحنا وانبسط الجمهور أضعافا مضاعفة.

فقال عزت:

- ولكنه سيرك!

- أجل، خير من لا شىء حتى تلين ارادة المستقبل..

وبدافع من الكبرياء أخبره عن مشروعه التجارى الذى يفكر فيه فقال حمدون:

- لا مفر من ذلك وإلا فما معنى الحياة؟!

- إذن فحياتك الآن لها معنى؟

- إنها مفعمة بالنشاط.. ومن يدرى فقد أكون فرقة ذات يوم..

- وهل تستطيع أن تصمد أمام المسارح الكبيرة؟

- أعنى فرقة صغيرة تعمل فى روض الفرج صيفا، وإن وجدنا تشجيعا عملنا فى الكلوب المصرى شتاء، هذا ما أطمح إليه..

دار رأس عزت، دهمته خواطر غريبة مباغتة. غزاه إلهام بعث النشاط فى قلبه وارادته. لم يشعر من قبل بمثل ما شعر به وقتذاك من قدرة على الخلق والعمل والاقتحام. ولكى يثبت لنفسه أنه موجود لا حالم قال:

- حدثنى يا حمدون عن التكاليف المطلوبة.

فقال الشاب باهتمام:

- أجرة المسرح والممثلين والملابس والديكورات. ليس بالمبلغ الخيالى ولكن يحسن ألا يقل عن خمسمائة جنيه؟

فتفكر عزت قليلا ثم تساءل :

ـ هل يضمن النجاح؟

ـ أعتقد ذلك خاصة إذا أدرنا البوفيه لحسابنا .

وساد صمت مليء بالانفعالات والأمل والدوافع العميقة . أخيرا تمتم عزت :

ـ دعنى أفكر يا حمدون قليلا . .

١٢

لم يكن فى حاجة حقا للتفكير (كما يقول الراوى) إذ اجتاحته دفعة حيوية شديدة الانطلاق والقوة خلقت منه إنسانا جديدا مجنونا بالحركة، دعاه داع عميق للنشاط والثورة على البلادة حتى أنكر نفسه، واعتبر الأمر لهوا مقدسا ولعبا سارا تتحقق به الذات على نحو بهيج . ولم يغب عن تقديره أن المشروع الجديد يجب أن يطوى فى طى الكتمان . فلا هو مما يمكن التفاهم عليه صراحة مع عين، ولا هو من الأعمال التى تعترف بها حارته أو تحترمها، وسوف تلوكه الألسنة إذا انكشف السر وتجود عليه بأشنع الصفات . ولم يثبط ذلك من همته، بل لعله ضاعف من حماسه وتمرده . صاحب مسرح ومديره ترى ما معنى ذلك؟ أعجب من ذلك أنه لم يكتشف فى نفسه اهتماما حقيقيا بالمسرح ولكنه يجرى وراء المجهول وتحدياته الغامضة، وينجذب إلى فترة ماضية عامرة بالثراء . ولا مراء فى أن الإدارة تناسبه . وصحبة حمدون تعابثه، وتغيير الجو من النقيض إلى النقيض يسحره، وحسن أن يخوض التجربة متحررا من ضعف الحب وآلام الوهم وبقلب متوفز جسور .

ولكن هل تصادفه عقبة غير متوقعة عند أمه؟ لقد قالت له :

ـ إنه مبلغ لا يستهان به ولكنه لك حبا وكرامة . أريد فقط أن أعرف مشروعك .

ـ شركة مقاولات .

ـ دعنى أجلس ساعة مع شركائك .

فانتفض غاضبا وهتف :

ـ لست قاصرا، وهذه أعمال رجال!

فضحكت قائلة :

ـ ليكن التوفيق حليفك .

* * *

اصطحبه حمدون إلى شقته القديمة بشارع محمد على لتناول الغداء. عندما لاح له المسكن شعر برغبة جازمة فى الهرب، غير أن الرغبة اندفعت فى اتجاه ومضى هو يتأبط ذراع حمدون فى الاتجاه المضاد، بعد دقيقة أو نحوها سيرى بدرية المناويشى، ممثلة سيرك اللاوندى، ويلمس راحة يدها لأول مرة فى حياته، لو حدث ذلك قبل سبعة أعوام لتكهرب أو اشتعل ولكنه يمضى اليوم متحررا وقد ذاب العاشق القديم فى تيار الزمن وحل محله آخر يحلم بالإدارة والسيادة واللهو البرىء.

فتح الباب عن محياها الثرى وابتسامتها العذبة وهى مرتدية فستانا منقطعا بالبياض، ورجع الصوت القديم وهو يقول بمرح وترحيب:

ـ أهلا.. أهلا..

دخل عالما جديدا لا رجعة منه، كان عليه أن ينقب عنه بين الأطلال، وها هو يغزوه متمتعا بالصحة والصداقة. وتذكر آلام الحب فتعجب. وجلس فى حجرة استقبال متواضعة وغرقوا فى المجاملات والذكريات المحايدة ثم دعى إلى المائدة، أثاث البيت ينطق بالتقشف. صديقه يعانى وها هو يجيئه فى الوقت المناسب، وراح يتناول طعامه بحماس قائلا:

ـ تعلمت أن آكل كما ينبغى.

فقالت بدرية:

ـ ازداد وزنك، ربما أكثر مما يلزم.

فقال حمدون معترضا:

ـ إنه مناسب جدا لصاحب مسرح ومديره.

فقالت بدرية:

ـ إليك المسقعة وورق العنب اللذين تحبهما كما أخبرنى حمدون..

* * *

وفى حجرة الاستقبال مرة أخرى قال عزت لحمدون:

ـ أرجو أن تكون أحسنت التصرف مع الوقت.

فقال حمدون بثقة:

ـ سنبدأ مع أول يوم من الموسم الصيفى، اخترت الممثلين والممثلات وسائر العاملين، وعند العصر سيحضر الأستاذ يوسف راضى المحامى. كل شىء جاهز..

وتذكر وفاة أبيها منذ سنوات فقدم لها العزاء وسألها:

ـ هل ترين والدتك؟

فقالت باقتضاب :

ـ تزوجت من زمان وانتقلت بصفة نهائة إلى البلينا . .

فقال حمدون ضاحكا :

ـ حسن أن يعيش الرجل بلا حماة . .

فقالت له بدرية :

ـ أنت مؤلف ووغد . .

ـ المهم أن أنجح كمؤلف . . أتود أن ترى مكتبتى؟

فأجاب عزت بفتور :

ـ طبعا ولكن فيما بعد!

وسألته بدرية :

ـ كيف حال الست عين؟ أما زالت تغدق الرحمة على أهل حارتنا؟

فقال ببرود :

ـ فى غاية من النشاط والحركة .

ـ أظن أنه آن لها أن تستريح .

ـ ما زالت شابة!

فقال حمدون بإخلاص :

ـ إنها تستحق الإجلال على مدى الدهر .

فقال عزت ضاحكا :

ـ يخيل إلى أحيانا أننا أسرة من المجانين!

ـ إذن فالجنون خير ما يوصف للعالم لإنقاذه .

ـ أما زلت تعتقد أن العالم فى حاجة إلى إنقاذ؟

فرفع حمدون يديه إلى السماء وهتف :

ـ اللهم فاشهد!

لاحظ عزت أن بشاشة بدرية تلاشت فجأة وأنها غيرت مجرى الحديث قائلة :

ـ لولا ثقتى فى أن مالك لن يتبدد ما رضيت أن نجرك إلى مشروعنا .

ـ شىء مدهش حقا أن تنجحى كممثلة .

فأشارت نحو حمدون وقالت :

ـ إنه صاحب الفضل ، هو المكتشف وهو المعلم ، يحفظنى دورى ، وأصر على تقويتى فى القراءة لأحفظ بنفسى .

فقال حمدون :

ـ لا أهمية لذلك طالما نقدم فصولا فكاهية ، ولكنى أحلم بتقديم مسرحيات شكسبير المترجمة فعليك أن تحسنى النطق بالفصحى . .

ـ الضحك مضمون النجاح ، وسوف يؤيد المدير رأيى . .

فابتسم عزت وامتنع عن الاشتراك فى الحديث ، فقال حمدون :

ـ الدموع تنجح كالضحك ، وقد قرأت حضرتها مناظر من يوليوس قيصر فأبدعت .

نسى الحارة تماما بادئ الأمر ، كأنها ذكرى أسطورية ، ثم جاءت سيدة لتجلس لصق بدرية ولتدعو إلى مقارنة قاسية . نشأة واحدة فى الحارة والكتاب . هذه تتألق بالذكاء والجمال والاقتحام والأخرى تتوارى وراء مسكنة ماكرة ببشرتها الداكنة وأنفها المتكور واستسلامها المنيع ، لكن ماذا صنع حمدون من بدرية وماذا صنع هو من سيدة؟ وقال أيضا إن سيدة أنجبت سمير أما هذه الحسناء فلم تنجب شيئا ، ولو قدر لها أن تتزوج منه لتغيرت المصائر إلى أفضل أو أسوأ .

خير ما يفعله ألا يفكر إلا فى مركزه الجديد كمدير على هذين النجمين ، وهو به سعيد جدا ، وفى غمرة حماس تتزايد قال :

ـ لعلنا نستطيع أن نستأجر مسرحا كبيرا فى المستقبل . .

ففرج حمدون بين ساقيه واضطجع إلى مسند الكنبة ليطلق لأحلامه العنان ، أما بدرية فقالت :

ـ المهم أن ننجح أولا . .

فتمتم عزت :

ـ لو أنها تهبنى ما تبعثره على الناس ، لو أننى أبيع عمارة واحدة!

فاستوى حمدون فى جلسته وقال محتجا :

ـ إنى أعترض على الأحلام غير البريئة!

فقال عزت دون مناسبة ظاهرة :

ـ أود أن يكون لى مسكن خاص بعيدا عن الحارة . .

* * *

قبيل العصر بقليل دق جرس الشقة فقام حمدون وهو يقول :

ـ جاء الأستاذ يوسف راضى وبدأ العمل .

١٣

تمخض الشتاء وأوائل الربيع عن إعداد واستعداد وإنفاق مال، كما تمخض عن صداقة حميمة بين عزت وحمدون وبدرية.. ويعد الراوى تلك الفترة من أسعد الفترات فى حياة عزت عبد الباقى، وكان يمضى شطرا كبيرا منها فى شقة حمدون وهناك تحررت العقود مع مالك المسرح والممثلين والممثلات والفنيين والعمال، وقد جدد أجزاء من مبنى المسرح وزوده بكراسى جديدة، وركب له مدخلا جديدا، فصار تحفة روض الفرج كما قال عم فرج يا مسهل عامل النظافة والمنادى الذى يرجع أصله إلى الحارة، وفى إبريل نقلوا مكان العمل إلى المسرح نفسه، وقد أعجبته حجرة المدير بمكتبها الكبير والخزانة والمقاعد الجلدية الوثيرة، ومارس عزت عمله كمدير وصاحب للمسرح، لم تكن السيادة بالحال الغريبة عنه ولكنها لم تمتد من قبل إلى آخرين بهذه النوعية، وتبدت الممثلات لعينيه فى صورة مبتذلة جدا أقرب إلى دنيا الدعارة منها إلى دنيا الفن، وخيل إليه أنهن يتسابقن فى عرض أنفسهن عليه فمضى فى إعداد شقة خاصة فى بيت متوسط الحجم بحدائق شبرا، نوى أن يدعو إليه أسرته الخاصة بعد أن يستغله لنفسه قبل ذلك. ولاحظ حمدون تطلعاته الجنسية فقال له:

ـ استمع إلى الصديق، جميعهن رخيصات كما ترى، الممثلات الحقيقيات لا يفرطن فى مسارحهن من أجل مسرح كمسرحنا، وأى علاقة مع امرأة من هؤلاء ستضع من مكانتك كمدير، افعل ما تشاء بعيدا عن هنا..

فامتثل للنصيحة، لم يلق صعوبة تذكر ولم تكن به رغبة حقيقية. توفر لعمله بحماس وأشواق، أو توفر له الرجل الجديد الذى خلق ليلة الاحتفال بدخول سمير الكتاب. وكان يلحق عند منتصف الليل بغرزة رمضان الزينى فى حجرة المراقبة بالحصن الأثرى العتيق ثم يمضى إلى دار عين عند مطلع الفجر.

وكمدير قرأ النص، مسرحية نديم السلطان المقتبسة من ألف ليلة وليلة، وهى التى قدمها حمدون من خزانة مؤلفاته المتراكمة. شهد أيضا البروفات، وراقب حمدون وهو يقوم بواجباته المتعددة من الإخراج والتمثيل، ورنا بدهشة إلى بدرية وهى ترفل فى طيلسان الجارية الرومية. من المؤسف أنه لا دور له فى هذا العمل المعقد السحرى الفاتن، وقال له حمدون:

ـ ستكون المنافسة شديدة، توجد ثلاثة مسارح غير مسرحنا.

فقالت بدرية :

ـ ميزتنا أن روايتنا جديدة ، جميع رواياتهم معادة ومن التراث الهزلى . .

فقال الأستاذ يوسف راضى :

ـ لا تنسى أنهم يغيرون العرض كل أسبوع ، والمكان لا يحتمل عرض رواية واحدة أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ولو كانت جديدة !

فقال حمدون :

ـ عندى مخزون غزير ، وعندنا التراث أيضا .

فقال المحامى :

ـ أنا عندى أيضا رواية جديدة !

فسألته بدرية :

ـ فكاهية ؟

ـ دراما جادة تعالج مشكلة تعدد الزوجات .

فقال حمدون :

ـ موضوع صالح أيضا للمعالجة الفكاهية .

ـ لكنى تناولته من نواحيه المأساوية . .

فقالت بدرية :

ـ لا يصلح لروض الفرج على أى حال . .

فرمق يوسف راضى عزت برجاء فقال هذا بثقة جديدة :

ـ دعنى أقرأها أولا . .

وارتاح للقرار واعتبره من صميم عمله .

* * *

وكانت ليلة الافتتاح فى أول مايو ، ووقف عم فرج يا مسهل أمام المدخل يصيح بصوت مجلجل :

ـ هنا . . ست بدرية الفنانة . . مسرحية جديدة لم تمثل من قبل . . نديم السلطان . . ضحك حتى منتصف الليل . . أغانى ورقص . . مشروبات من جميع الأنواع . .

كان عزت متوتر الأعصاب ، لم يعرف هذه الحال من قبل إلا فى محنة الحب ، وعند استهتاره بالعبادات لأول مرة . وقد شهد فى فترة الاستعداد نجوم الفرق المنافسة فاطمأن إلى تفوق بدرية ولكنه لم يضحك ـ كما توقع ـ وهو يتابع بروفات نديم السلطان . ومال نحو الأستاذ يوسف راضى . . كانا الوحيدين فوق مقاعد المشاهدين ـ وتساءل هامسا :

ـ لا شيء يدعو للضحك!

فقال المحامى منتهزا الفرصة :

ـ نحن فى زمن الدراما والدموع!

انقبض عند ذاك صدره وتساءل هل يرجع إلى أمه مفلسا؟! . لذلك توترت أعصابه مع مشرق يوم الافتتاح . . غير أن الجمهور كان أكبر من المسارح جميعا، غصت المسارح بالرواد، وعمل البوفيه بنشاط فاق طاقته فاستهلكت بالعشرات قوارير الغازوزة والجنجرايل وسندويتشات الفول والطعمية والبسطرمة . أكثر من هذا ضج الجمهور بالضحك، واستبق إلى إبداء الإعجاب ببدرية بألفاظ خرقت الاحتشام فى كثير من الأحايين . وضح له نجاح العرض فاسترد الثقة والكبرياء وتضاعف تقديره لحمدون، وشارك الجمهور فى سروره بالرغم من أنه كان يرى المسرحية للمرة العاشرة .

١٤

عقب الانتهاء عند منتصف الليل جاءت بدرية وحمدون إلى حجرته بوجهين سعيدين فهنأهما بالنجاح فقال حمدون بحماس :

ـ نجاح فاق كل تصور .

وتمتمت بدرية :

ـ وبعد أن تاب الله علينا من السيرك . .

وقام عزت وهو يقول :

ـ سنحتفل بالنجاح فى حدائق شبرا!

اجتمع فى الشقة الجديدة بدرية وحمدون ويوسف راضى، كذلك فرج يا مسهل للخدمة، وجيء بالكباب والفستق والويسكى على حين عكف فرج يا مسهل على تجهيز الجوزة . وذاق عزت الويسكى لأول مرة فى حياته فغزاه انفعال جديد بالطرب فلم يعد يبالى بوضعه الغريب ولا بتدهور قيمه . ورأى الكأس بيد بدرية فملكه شعور بأنهم ـ جميعا ـ أجانب، وأن الحارة القديمة كانت حلما ليس إلا . ولما أخذت النشوة بحمدون قال بنبرة خطابية :

ـ عرفت عزت فى كتاب الشيخ العزيزى فخلقت فوق الحصيرة صداقة أبدية ولكنى لم أعرف إلا الساعة أنه قدر علينا مصير واحد . .

فقال عزت :

ـ لكل إنسان أسرة حقيقية خلق لها، وباهتدائه إليها يبدأ حياته الأصيلة . .

فهتفت بدرية :

ـ كان علينا أن نضل طويلا قبل أن نهتدى إلى أنفسنا!

وانغمس عزت فى إلهام عجيب فتح قلبه لإشراق باهر. وأحب بقوة خيالية كل شىء. غير أنه كان أيسر عليه أن ينفصل عن قلبه أو كبده من أن ينفصل عن حمدون وبدرية أو المسرح الذى هيأ لهم الالتحام الأبدى. وقال إن بالدنيا كنوزا من الأفراح لا تخطر على بال. ولكن على من يروم السعادة أن يكون حاسما مع المعوقات المتلفعة بظلمة الأركان العتيقة. وقال :

ـ أرغب فى الغناء لولا قبح صوتى!

فقال حمدون ضاحكا :

ـ لنترك هذه المسألة لضميرك.

وقالت بدرية مشيرة إلى حمدون :

ـ كثيرا ما كان يصحو من نومه فيقول : «حلمت بعزت!».

فسأله عزت :

ـ بم كنت تحلم؟

ـ آه. . ما أسرع أن تنسى الأحلام!

فقالت بدرية :

ـ لكنى ما زلت أذكر حلما رواه لى، رأى أنكما ترقصان معا فى قارب. .

ـ ترى ما تفسيره؟

ـ إنه لا يهتم بذلك!

فقال فرج يا مسهل :

ـ لقد تحقق فى مسرحنا «الفردوس» فهو قارب على شاطىء النيل. .

وسرعان ما رحبوا بالتفسير غير أن عزت تساءل فى نفسه ترى ماذا كنت أحلم فى ذلك الزمن؟!

* * *

فى طريقه إلى الحارة امتعض كثيرا فلعن الحركة القسرية التى تختم بها الدائرة. حتى الغرزة أوى أصحابها إلى مضاجعهم. وهو يخوض الظلمة ارتطم به معتوه معروف يطيب له الهيمان فى الظلمة، وقع رأسه عليه وهو يتمتم بكلمات ممطوطة لا معنى لها فسال لعابه على خد عزت وعنقه. تقزز الفتى ودفعه بقوة فارتمى على ظهره عاويا.

وجاءت نحنحة الخفير من بعيد محذرة متسائلة فبلغ به القهر منتهاه . وانطلق منه قرار متكامل الأبعاد غير مسبوق بتدبير . كما ينقض قاطع طريق متربص . أن يرجع إلى الأبد . أن يقفز من شرفة الحصن العتيق ليقتنص حظا جديدا .

دار عليه عقبيه ومضى مترنحا ثملا بفرحة طاغية .

* * *

يقول الراوى :

إنه عند عصر اليوم التالى جاء رسول إلى دار عين حاملا وثيقة طلاق عزت من سيدة . أجهشت سيدة بالبكاء وراحت تجمع ثيابها فى غمرة انفعالها . أسندت عين رأسها إلى ظهر الديوان المحلى بالحكم والأمثال وأغمضت عينيها . وجعلت تهمس :

ـ ما أصدقك يا قلبى !

ولما فتحت عينيها رأت سيدة تنتهى من جمع ملابسها ، وسمير يتابعها بوجوم .

صاحت عين :

ـ ما هذا؟!

واعتدلت فى جلستها وقالت بلهجة آمرة :

ـ ارجعى ملابسك إلى مكانها . .

فقالت سيدة بصوت ممزق :

ـ كيف أبقى معه تحت سقف واحد؟

فقالت عين بأسى :

ـ لن يرجع إلينا مرة أخرى . .

وقامت تتمشى فى الحجرة ثم تمتمت :

ـ لن أدهش إذا تحول السقف إلى سحاب وانهل منه المطر . .

تمتمت سيدة :

ـ أذهب إلى أمى . .

فقالت بضيق :

قلت لك إن أمك هى أنا ، هذا بيتك ، هذا ابنك سمير ، امكثى بسلام حتى يرزقك الله بخير منه . .

وأرجعت الملابس بيديها وهى تواصل :

ـ حدثنى قلبى بأن أحداثا ستقع ، السحب لا تتجمع لغير ما هدف . .

وأخذت سمير من يده إلى الديوان وقالت مغيرة لهجتها :

ـ الشيخ العزيزى يثنى عليك طيب الثناء . اجتهد وعز قلوبنا الجريحة . .

همس الولد بقلق :

ـ بابا . .

ـ لقد باعنا بالتراب ، هذا هو أبوك !

وتساءلت فى تأثر :

ـ لم لا يكون الجزاء من جنس العمل ؟ !

وتنهدت ثم قالت مخاطبة المجهول :

ـ لقد ربيته على خير ما أستطيع ، وباركته بالهدى والحب ، ماذا به؟ كان دائما وكأنه يتوثب للسفر ، إلى أين؟ . لماذا تخاصم الهواء ، لماذا تتحدى راحة البال؟ ، لماذا تبحث عن المتاعب؟

* * *

واصلت الحياة سيرها الوئيد فى الدار والحارة . مكثت سيدة بالدار فى حياة جديدة خالية من الصراعات . استأنفت عين جولاتها المجللة بالحب والرحمة مبدية تماسكا وصبرا جليلا حيال المكدرات . وسعدت باجتهاد سمير وتقدمه . وانتشرت أنباء عزت فى الحارة . . الطلاق والهجر ـ فلعن الرجال والنساء الولد المارق .

١٥

الموسم يمضى فى نجاح . عرضت فرقة «الفردوس» أربع مسرحيات من تأليف حمدون . ومنذ أواخر أغسطس بدأ نشاط جديد لإعداد مسرح الكلوب المصرى للموسم الشتوى . عزت يتمرس بعمل المدير ، يحن لرؤية سمير ، ولكنه لا يفكر قط فى زيارة الحارة . ودارت مناقشة حول الموسم الجديد فى مكتب عزت فقال حمدون عجرمة :

ـ إنى أحذرك من مسرحية يوسف راضى . . فقال عزت :

ـ سأجد وسيلة لاقناعه . .

عند ذاك تساءلت بدرية :

ـ هل نعرض رواياتنا الهزلية فى الكلوب المصرى؟

فقال حمدون :

ـ إنها ليست هزلية بالمعنى المتعارف عليه، فمن خلال الهزل أقول أشياء لها قيمتها . .

فقال عزت :

ـ عظيم، ولكنك حدثتنى مرارا عن خطة أخرى . .

ـ إذا كان لابد من الجد فعندنا مسرحيات شكسبير المترجمة . .

تحرك رأس بدرية فى رشاقة وقالت بعذوبة :

ـ إنى أحب يوليوس قيصر !

رأى عزت حركة الرأس وسمع الصوت فحدث شىء . ذهل عن بقية الحديث . ودعاه وذهبا وهو لا يدرى . تمتم وحده :

ـ رباه . . إنى أحبها !

إنها ملء القلب والنفس والحياة . هل بعث الحب القديم فى هذه اللحظة؟ . أو أنه لم يذهب قط؟ . أكان يلاعبه طيلة الوقت؟ إنه لشىء رائع مخيف . يقتحم الحياة ليشحن المستقبل بشتى الاحتمالات . وعلى أى حال يعصف بالسلام إلى الأبد . تراجعت مشكلة يوسف راضى إلى الوراء . أجل لقد توثقت علاقته به، هو صاحب الفضل فى تعريفه بأكثر من امرأة من صديقاته . أشعل فى شقته ليالى حمراء، لكنه لم يهنأ بها كما تخيل . بدا له الحب التجارى مقززا للغاية . وشىء خفى فى طبيعته ينغص عليه صفوه ويملؤه بالقلق والنفور . شىء خفى مغرم بالنكد، حتى قبل أن يكتشف حبه . أو قبل أن يعترف به، نفسه تتضح له بقوة كما تتضح الأسماك تحت سطح الماء الشفاف . من يدرى، لعله لم يغامر باقتحام الحياة الجديدة، ولم يهجر عين وسمير وسيدة والحارة، إلا من أجلها، من أجل بدرية وسعيا وراء ندائها المجهول . إنه الآن أسير تماما، حياته محاصرة بأعداء مجهولين . متى يحدث الانفجار؟ . ولكن مهلا . يجب أن تعالج الأمور بأسلوب آخر . ليبق الحب سرا دفينا تحت الصداقة والعمل . فلتستمر الحياة فى عذوبة ولتستكن عذاباتها الخفية . وعاوده التناقض القديم الذى عاناه فى رحاب أمه . يحب بدرية ويحنق عليها . يحب حمدون ويمقته . يحظى بالنجاح ويقع فى قبضة القلق الحديدية . وعليه إلى ذلك كله أن يتعامل معها ـ بدرية ـ ببراءة وتلقائية . لكنه لا يطمئن إلى ثقته بنفسه، ويتعرض لهبوب رياح المخاوف . وهى ـ وهذا يقين ـ تحب زوجها لحد العبادة . وهى فيما بدا مطبوعة على الوفاء والاستقامة . ومواقفها من جمهور المعجبين مضرب المثل . ما أغبى حارته فى اتهامها لها ولزوجها . الأغبياء يتهمونه بالإتجار فى عرض زوجته . ليته كان من هؤلاء الصنف من الناس . إذن لاتخذت الحياة مجرى فريدا فى انسجامها وسعادتها . وأشد ما يثيره ساعة الأرق أحيانا فى أواخر الليل . يستيقظ فيسبح فى عالم أثيرى ويجيش صدره بأعمق عواطف الشجن والأسى . ما أفظع ساعات الأرق وسحب

الذكريات تهطل صورا براقة تنداح فى دموع ودماء وظلام وأنين. عند ذاك يرجع إلى البدائية الأولى المجللة بالبراءة والوحشية والألغاز. وجعل يختلس من الرقباء ساعة تحت ستار الظلام فيقف فى ركن ليشاهد دورها فوق المسرح فى مناجاة وابتهال، ويتساءل فى ذعر ترى عن أى مصير سيسفر هذا الجنون؟

* * *

يقول الراوى:

إنه قبيل انتهاء الموسم بأيام قلائل اندفعت الأحداث فى مجرى جديد غير متوقع، أخل بتوازنها وأسرع بإيقاعها، فانطلقت مثل قذيفة.

كان عزت فى حجرة الإدارة عندما جاءت بدرية وحدها قبل رفع الستارة بساعة أو نحوها.

ورغم أنها تبدت قلقة مشتتة البال إلا أن قلبه خفق بابتهاج عميق إذ كانت أول مرة يخلو إليها مذ عمل فى رحابها. جلست وهى تقول بنبرة المعتذرة:

ـ إنى مضطرة إلى إشراكك فى همومى الشخصية..

تضاعف ابتهاجه للثقة الموهوبة من أحب الناس وقال:

ـ همومك هى همومى أيضا.

قربت رأسها من المكتب حتى مست خصلات شعرها الأسود حافة الغطاء البللورى وهمست:

ـ هناك شىء واحد يجمع بيننا فى هذه الهموم. تمتم وهو يبذل طاقة كبيرة للسيطرة على انفعالاته:

ـ إنى مصغ إليك بكل جوارحى..

ـ هذا الشىء هو حبنا لحمدون!

تراجع حتى ارتطم مؤخر رأسه بجدار الحقيقة الباردة وقال:

ـ طبعا..

ـ تحدث أشياء غريبة فى بيتنا من شأنها أن تهدد حياتنا وعملنا ومستقبلنا..

ـ ترى ما هى هذه الأشياء الغريبة؟!

ـ هل سمعت عن «أبناء الغد»؟

ـ أجل.

ـ بعضهم يتسللون إلى شقتى من تحت البواكى كل ليلة.

ـ كيف؟

ـ عقب عودتنا من المسرح والشرطة نائمة أو هكذا يتوهمون!

ـ لا أكاد أفهم شيئا .

ـ إنهم متمردون على كل شىء، ومطاردون .

ـ ومتهمون باغتيالات معروفة!

ـ هذه هى المسألة .

ـ أتعنين أن حمدون . . ؟

ولاذ بالصمت فقالت وهى تتنهد :

ـ نعم، حسبت الأمر مجرد تعاطف قلبى، حتى اختاروا شقتنا مكانا لاجتماعهم، وعبثا حاولت منع ذلك فضلا عن إقناعه بالتخلى عنهم .

فتمتم عزت متفكرا :

ـ إنه شىء خطير حقا . .

ـ لذلك ألجأ إليك . .

فتساءل فى حيرة :

ـ تعنين أن أفاتحه فى الموضوع؟

ـ أعندك رأى آخر؟ .

ـ ألا يغضبك لإفشائك سره؟

فقالت بسرعة :

ـ لا يجوز أن يعرف ذلك!

ـ فكيف أفسر له معرفتى بالأمر؟

ـ لا أدرى . . ولكن أبعد ظنه عنى!

نظرت فى ساعة يدها . نهضت وهى تقول :

ـ اعتمادى بعد الله عليك . .

وسرعان ما غادرت الحجرة .

١٦

تركته فى دوامة، دوامة لا تبقى عضوا واحدًا فى موضعه الطبيعى، الدنيا ألوان وأصوات وأفكار وملائكة وشياطين متلاطمة، ثمل بالثقة، تحفز للمساعدة . تحير

طويلا. عبره طرب مجهول. وكان عليه أن يهتدى إلى فكرة. وتعترض أفكاره صورة حمدون فى لباس السجن، أو فوق المشنقة. يقول لنفسه بصوت مسموع لابد من خطوة لإنقاذ الموقف. لا يجوز أن تهجر بدرية أو تترمل، لا يجوز؟.

عليه أن يكون عند حسن الظن به. عليه ألا يهمل واجبه. القدر أيضا لا يهمل واجبه.

عند انتهاء الليلة قبل الختامية قال عزت لحمدون:

ـ أود أن أحتفل بالنجاح فى شقتك ولا أريد رابعا معنا!

بهت حمدون عجرمة وقال:

ـ لست الليلة على ما يرام!

ـ سوف ينعشك الويسكى..

فتساءل مترددا:

ـ أليست شقتك أوفى بالغرض؟

ـ ولكنها غير خالية!

ـ دعنا نرى عشيقتك الجميلة!

فتساءل عزت باستياء:

ـ كأنك لا ترحب بى؟!

* * *

ما كاد يستقر بهم المقام فى الشقة حتى دق الجرس. هرع حمدون إلى الباب. عاد بعد دقائق وقد زايله التوتر. رفع عزت كأسه قائلا:

ـ صحتكما.. أزائر فى هذه الساعة من الليل؟

فأجاب حمدون ضاحكا:

ـ طارق أضله الظلام!

شرب جرعة وهو يردد بصره بينهما ثم تمتم:

ـ لا تحاولا خداعى.

ـ خداعك؟!

ـ لا تحاولا خداعى.

تساءلت بدرية:

ـ ماذا؟

فقال عزت بهدوء مخيف:

ـ إنكما متهمان!

هتف حمدون شاحب الوجه:

ـ صارحنا بما فى نفسك.

فقال باقتضاب وثقة:

ـ أبناء الغد!

اشتد اصفرار وجه حمدون، غضت بدرية عينيها، قال حمدون:

ـ لا أفهم.

ـ بل تفهم كل شىء.

هبط صمت كالموت ولكنه لم يستقر طويلا، فتساءل عزت:

ـ أى خطر تعرضان نفسكما له؟

سأله حمدون باهتمام:

ـ من أخبرك؟

ـ شخص أثق به.

ـ الوغد!

ـ من تقصد؟ . . إنك لا تعرفه! . . لولا ثقتى فى أمانته لحثثتك على الهرب . .

ـ يوسف راضى!

ـ كلا.

ـ هو دون غيره.

ـ قلت كلا وأقسم على ذلك! ومن أين له أن يعلم؟

ـ إنه معنا ضمن مجموعة أخرى ولكنه يعتقد أننى أصادر عبقريته!

ـ أقسم لك أنه شخص آخر.

ـ من هو؟

ـ لست فى حل من ذكر اسمه، سأخبرك به ذات يوم عندما يحلنى من قسمى، لا أهمية لذلك، كيف تورطتما فى ذلك؟

فقال حمدون بضيق:

ـ لا علاقة لها بالأمر.

وقالت بدرية:

ـ لا أهتم إلا بالمسرح . .

فقال عزت مخاطبا حمدون :

ـ ليتك كنت كذلك . .

ـ لا حيلة لى فى ذلك . .

ـ طول عمرك تشغل نفسك بأمور لا تهم أحدا .

ـ لا تهم أحدا؟ !

ـ لن أجادلك فى ذلك ، أريد فقط أن أعلم هل تستمر هذه الاجتماعات المريبة؟

فلاذ حمدون بالصمت فقال عزت :

ـ نحن صديقان وأكثر من شقيقين ، لنا حياة مشتركة ، لم نكد نبدأ بعد ، أمامك مستقبل باهر ، لا زواج بين الفن والجريمة ، عليك أن تنقذ نفسك قبل ألا ينفع الندم . .

* * *

ورجع إلى حدائق شبرا وهو يقول لنفسه ما كنت أتصور أن الملائكة والشياطين يتجاورون فى وطن واحد!

١٧

فى غمار الدوامة ، فى الليلة التالية ـ وهى الليلة الختامية ـ رأى خالته أمونة وكريمتها إحسان وشابا مجهولا يدخلون مسرحه . تلاقت الأعين فتقدم للمصافحة ، مقابلة فاترة ، ولكنه تعرف بعريس بنت خالته الذى دعا حماته للمشاركة فى نزهة احتفاء بشهر العسل . ولم يغب عنه أن مهنته الجديدة ستعرف على حقيقتها فى الدار والحارة وستلوكها الألسن كنادرة من النوادر . وكانت فكرة زيارة الأسرة تعابثه من آن لآن فعدل عنها بقرار نهائى رغم حنينه المتقطع لرؤية سمير . انتهى عزت عبد الباقى القديم وحل محله رجل يميل إلى البدانة ، ويمارس عمله فى بيئة تكتنفها الشبهات ، وقنع بأن يكلف عم فرج يا مسهل ـ وهو أصلا من أبناء الحارة ـ باستطلاع الأخبار وموافاته بالأحوال .

* * *

وتحدد يوم ١٥ أكتوبر موعدا لافتتاح الموسم الشتوى بالكلوب المصرى . نفحه نجاح الموسم الصيفى بالثقة ، ولكن المستقبل تبدى له رغم ذلك غامضا وأمدته أعماقه المنصهرة بالحب والأخيلة المفزعة بالريبة والقلق ، ولم يخل ببدرية فى تلك الفترة إلا دقيقة فسألها :

ـ كيف الحال؟

ـ انتهت الاجتماعات ولكن . .

ـ ولكن؟

ـ ولكن حمدون يمر بحال سيئة . .

وقال لنفسه حسن أن تنتهى الاجتماعات غير أنه ابتسم ساخرا . وثمة صورة كانت تلح على خياله ، صورة حمدون فى لباس السجن يصاحبها إحساس بالألم يمجه الصوت الخفى الذى ينغص عليه صفوه .

وقال له يوسف راضى :

ـ من المناسب أن تفتتح الموسم بروايتى .

فقال عزت مجاملا :

ـ سنفعل ذلك ذات يوم .

فقال الشاب :

ـ إنى أفكر فى دعوة حمدون ذات يوم لأسمع رأيه وأدخل ما يراه ضروريا من التعديلات . .

ـ خير ما تفعل .

وجرت مفاضلة فى شقة حمدون بين يوليوس قيصر ونديم السلطان . بأيهما يستحسن أن يكون الافتتاح . قالت بدرية :

ـ يوليوس قيصر هائلة ولكن دورى تافه .

فقال حمدون :

ـ لقد حفظت أقوال أنطونيو حبا واستحسانا ولعله من الطريف أن تمثلى دوره .

فهتف عزت :

ـ دور رجل؟ !

ـ لم لا؟ . . ستكون مفاجأة مثيرة . .

* * *

ولم يتقرر شىء فى الاجتماع إذ جرت الأحداث بسرعة مذهلة . فى اليوم التالى عثر على يوسف راضى جثة هامدة فى شقة صغيرة بالقبيسى يقيم فيها بمفرده . نشرت الصحف الصورة والخبر ووصفت الجريمة بأنها وحشية وغامضة .

ارتعد عزت وانقلبت ساحة نفسه إلى مسرح للأشباح المفزعة . إنه والشيطان الوحيدان اللذان يعرفان السر . وجد الشيطان يقبع فى أعماقه ويشير ضاحكا إلى حمدون .

حمدون الذى قتل رجلا بريئا جزاء جريمة وهمية لم يرتكبها. من الذى قتل يوسف راضى؟ ليس حمدون وحده، لكنه ـ عزت ـ وراء ذلك وبدرية أيضا. يا لك من رجل خطير حقا يا حمدون ولكنك انتهيت. انتهيت. . انتهيت. . انتهيت. اليوم أو غدا أو بعد غد. حضرة. أنت الذى بادأتنى بالصداقة فى الكتاب. أنت القضاء والقدر. أنت الرجل المعجزة. حضرة صاحب. أين المفر من ذلك الصوت الذى يطاردنى ويكدر صفوى؟، ما ذنب البرىء الذى قتل غدرا وجهلا؟. وحتى متى يلازمنى الشيطان وهو يضحك؟. حضرة صاحب. فرصة. للتكفير فرصة. للجنون فرصة. للعذاب فرصة. للحب فرصة. لنقف أمام الميزان. حضرة صاحب السعادة. من أنت حتى تخاصم وتحاكم وتحكم. من أنت حتى تنفذ أيضا. دائما تصدر الإعدام على الآخرين. فعلت ذلك مرتين. فى كل مرة يهتف هاتف الغيب العين بالعين. أن أتحمل وقر إثمى فهو العدل. أن أتحمل إثم الآخر هو الجنون. حتى لو لم يخرج من العدم وجود فهى التجربة اليائسة. لابد لضحكة الشيطان أن تسكت. أو فليقهقه حتى يرج الجدارن. ترى فيم تفكر عين فى هذه اللحظة من الزمان. حذار أن يسبقك الزمن. حضرة صاحب السعادة النائب العام.

١٨

فى الظاهر تستمر الاستعدادات للموسم الجديد لكن مصرع يوسف راضى هز الأفئدة هزة عنيفة. جميع أفراد الفرقة يعرفونه معرفة شخصية. كاتب العقود والمؤلف المنتظر. قتل أمس والتحقيق ينقب فى كل زاوية. سئلوا جميعا ولم يعثر لديهم على شىء. ذهب حمدون معهم. لم يبح عزت بهاجس واحد من هواجسه. رجع بصحبة حمدون وبدرية. لاذ حمدون بالصمت طيلة الوقت.

قال عزت برثاء:

ـ يا للخسارة!

فعقب حمدون:

ـ أجل، كان شابا. .

وكعادة النساء نشجت بدرية بالبكاء. وبدت الدنيا غريبة كأنما تخلق من جديد ولكن فى لون منفر. مروا فى طريقهم بصندوق البريد الذى تعامل معه أمس لأول مرة. ترى أغادره الخطاب أم لا زال ينتظر. عزت. . حمدون. . بدرية. صندوق البريد. . يا

للوحشية يا بدرية. عندما لا نجد إلا الشيطان كرسول للضمير الحى! أرى عين ناشرة المظلة لتتقى أشعة الشمس. أتشرف بإبلاغ سعادتكم.

* * *

فى عصر اليوم نفسه، اقتحمت بدرية شقته بحدائق شبرا، زيارة غير متوقعة، متجلية التعاسة والاضطراب، تنذر بالمخاوف، الخطاب لم يصل بعد فماذا دهاها؟. ارتمت على مقعد بحجرة الاستقبال وأغمضت عينيها من الإعياء، ووقف قبالتها مذهولا، يهمس:

ـ خيرا؟!.. ماذا حل بك؟

تمتمت بيأس واضح:

ـ إنه الخراب..

ـ بدرية.. ارمينى بما عندك مرة واحدة.

فقالت وهى تتنهد كمن يزفر آخر نفس:

ـ جن حمدون، طلقنى، ضربنى، ذهب ليعترف بجريمة قتل يوسف راضى..

هتف متظاهرا بالانزعاج والعالم من حوله يتناثر ويتطاير:

ـ أى جنون..

ـ هى الحقيقة!

رأى فى وجهها دمامة لم يدر من أين أتت، رأى امرأة أخرى. قال:

ـ أريد أن أفهم قبل أن أجن بدورى!

نحت عينيها عنه وقالت كأنما تعترف للمجهول:

ـ انقلب حالى منذ علمت بمصرع يوسف، اتجه ظنى نحو حمدون، أدركت أن الرجل راح ضحية جريمة لم يرتكبها، اجتاحنى رعب وشعور مفزع بأننى القاتلة الحقيقية.

ـ ذلك يعنى أننى شريك ولكنها محض أوهام.

ـ ليست أوهاما على الإطلاق، يخيل إلىّ أنك شاركتنى العذاب أيضا، وعقب عودتنا إلى البيت لاحظ حمدون تغيرى المطلق، انهارت قوة احتمالى فصارحته بخوفى من أن يكون يوسف راضى قد راح ضحية جريمة لم يرتكبها..

قال عزت بأسف:

ـ اندفعت دون ترو.

ـ انفلت منى الاعتراف وأنا فى حال بائسة من الانهيار.

ـ كيف كان وقع ذلك فى نفسه؟

ـ اكفهر وجهه، استوضحنى ما أعنيه، اعترفت له بأن يوسف راضى لم يفش سر الاجتماعات إليك وأننى أنا التى فعلت!

فقطب عزت واختفى وجهه تحت قناع غليظ من الكآبة. وتبدت هى مشدودة إلى ذكرى مفزعة وطاغية ثم قالت:

ـ لا يمكن أن تتصور ما حدث، لقد وثب من مجلسه كالملدوغ، صرخ، تجلى الافتراس فى ملامحه، لطمنى لطمة كادت تفقدنى الوعى، اتهمنى بالجريمة، ومن شدة ألمى رددت إليه التهمة، صحت به: بل أنت القاتل!

تأوه عزت متسائلا:

ـ أهذا جزاء من يدفعه حسن النية إلى انقاذ من يحب؟!

وراح يضرب الجدار بقبضته، ويهدد بالويل، رمانى بالطلاق، استمر يعوى مثل وحش جريح.. ثم ركز عينيه على مليا وقال بمقت شديد: «أنت الجحيم أما أنا فقد انتهيت.».

وارتدى ملابسه فى عجلة ولهوجة وغادر الشقة وهو يقول:

ـ سأطلقك أولا، ثم أسلم نفسى..

هتف عزت:

ـ يا للتعاسة!

فانخرطت بدرية فى البكاء وقالت:

ـ تركنى فى وحدة مرعبة!

إنه يتردى فى نفس الوحدة المرعبة. لم تسرع بتحرير الخطاب الغفل من الإمضاء؟. كأنما لم يكن له من هدف سوى تسجيل الخسة على نفسه، سيعترف حمدون قبل وصول خطابه بيوم أو يومين. من العبث أن يمضى فى إقناع ذاته بأنه فعل ما يمليه عليه الواجب الإنسانى. وها هى بدرية حرة وحمدون يرسف فى الأغلال، ألم يكن ذلك حلمه الملح؟!. لكنه مريض وبدرية دميمة. والدنيا تعانى أنيميا حادة لا تصلح معها للحب، قال بأسى:

ـ اغسلى وجهك، اشربى قدحا من الشاى، علينا أن نفكر بهدوء فى الكارثة..

فنهضت وهى تقول متأوهة:

ـ إنه لا يدرى كم أحبه!

١٩

عرف الآن أن حمدون عجرمة المؤلف والممثل هو قاتل يوسف راضى المحامى، وأن الباعث على الجريمة هو ما لاحظه القاتل من غرام القتيل بزوجته. ذاع أيضا خبر الخطاب الغفل من الإمضاء الذى اتهم حمدون بقتل يوسف. أعيد التحقيق مع بدرية فأكدت أقوال حمدون ولم تشر من قريب أو بعيد إلى جماعة أبناء الغد. ولم تجد بدرية فى وحدتها المرعبة من أنيس أو معين إلا عزت. زالت دمامتها الطارئة ولكن ثقلت ملامحها بأسى ثابت وعميق، ورغم مرارة نفسه لم يفقد الأمل فى مستقبل قريب أو بعيد. واستمرت الفرقة فى أداء البروفات دون اشتراك بدرية، معيدة المسرحيات التى مثلتها فى روض الفرج. وتعمد عزت أن يشعر بدرية من آن لآن بأنه ما زال يمارس عمله كمدير. وكانت تعلم من ناحية أخرى بأنه لا مورد له إلا العمل. لذلك تشجع ذات يوم وقال لها:

ـ علينا أن نبدأ العمل فى ميعاده وإلا عرضنا أنفسنا للإفلاس..

فتمتمت بضيق شديد:

ـ ما أبغض ذلك!

ـ أشاركك الإحساس ولكن لابد مما ليس منه بد..

فقالت بحزن:

ـ نحن الآن بلا مؤلف..

ـ ولكننا نملك رصيدا لا بأس به من المسرحيات فضلا عن التراث والروايات المترجمة..

ـ إنه خسارة لا تعوض!

ـ ذلك حق ولكن علينا أن نفكر فى كل شىء وفى المستقبل..

وهنا قالت برجاء:

ـ أود أن أنجز عملا هاما قبل بدء الموسم.

ـ ستجدين منى ما تتوقعين وفوق ما تتوقعين.

ـ لقد قابلت محامى حمدون فأملنى كثيرا فى إنقاذه من حبل المشنقة.

ـ أرجو هذا فقد سلم نفسه وانتحل للجريمة عذرا مخففا.

ـ طلبت منه أن يبلغه رجائى فى أن يتزوج منى مرة أخرى!

فلم يدر ماذا يقول وهو يتلقى لطمة جديدة بلا رحمة، أما بدرية فاستطردت:

ـ سيعيننى ذلك على مواصلة الحياة..

فقال بفتور:

ـ شىء عظيم حقا.

* * *

استعد عزت لافتتاح الموسم وهو يشعر بأنه أحقر شىء فى الوجود. لم يخفف من شعوره ما علمه بعد ذلك من أن حمدون رفض طلب بدرية، بل ورفض حتى مقابلتها. وبدأ الموسم بنجاح متوسط، ولم يخف عنه أن بدرية فقدت الكثير من سحرها المسرحى، وتعاقبت الأيام لا تبشر بخير جديد، وفى أثناء ذلك تمت محاكمة حمدون وقضى عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وجاءه فرج يا مسهل ـ كالعادة ـ بأخبار الحارة فقال له لمناسبة الحكم على حمدون:

ـ لم يعطف عليه أحد فى الحارة!

فقال عزت بأسى:

ـ لعلهم يتمنون لى مصيرا مشابها!

ـ ست عين تدفع عنك بخيرها العميم نيات السوء..

ـ وما أخبار الدار؟

ـ الست الكبيرة كعهدها، هى هى لم تتغير، أم سمير رفضت أن تتزوج من عليش النجار مفضلة البقاء مع ابنها، سمير يتقدم فى الدرس بنجاح وذكاء.

وتذكر الحديقة وغرزة الحصن العتيق وسمير الذى سيشب جاهلا أباه، ولكن فيم يفكر فى ماض انقطعت عنه أسبابه إلى الأبد؟

* * *

وقال لبدرية:

ـ ما رأيك فى أن أجرب حظى مع مسرحية المرحوم يوسف راضى؟

فقالت بلا حماس:

ـ جرب، الموسم حتى الآن غير ناجح تماما.

ـ وربما وفر لها اسم مؤلفها ـ الذى لم ينس الناس مأساته بعد نجاحا إضافيا.

فقالت بدهشة وهى تبتسم:

ـ صرت حقا صاحب مسرح يا عزت!

فضايقته ملحوظتها وقال بشىء من الحدة:

ـ لقد صرت صاحب مسرح من أجلك .

ـ أجلى أنا؟!

ـ أعنى من أجلك وأجله؟

فحدجته بنظرة معتذرة ولم تنبس .

وقد حققت المسرحية نجاحا ملحوظا أقال الموسم من تعثره . ومضى موسم الشتاء بلا سرور ، ولكنه نجح نجاحا فذا فى موسم روض الفرج الجديد ـ وكان يسرف فى العمل كما يسرف فى كل شىء ولكن بلا سعادة حقيقية . وظل الحب يطارده بلا أدنى أمل . وسنحت فرصة ـ والفضل فيها لفرج يا مسهل ـ لتأجير مسرح الإليزيه بشارع دوبريه فاستأجره مدفوعا بروح المغامرة والآمال الغامضة ، وقال لبدرية :

ـ ها هى فرصة للعمل فى قلب المدينة ، آن لك أن تلمعى كنجمة حقيقية .

٢٠

أنفق فى الاستعداد للموسم الجديد مالا كثيرا ، والإليزيه مسرح حسن بناء وموقعا وقد كان مغلقا من أعوام بسبب اختلافات بين الورثة حتى استحقه بحكم قضائى الخواجا بنيامين فكان عزت أول مستأجر له فى حياته الجديدة . شعر بأنه أصبح صاحب مسرح بالمعنى الدقيق للكلمة وأنه سيعمل بكل فخار فى مجال رمسيس والأزبكية وبرنتانيا . أجل لم يوفق إلى ضم ممثل أو ممثلة ذات شأن إلى فرقته ولكنه كان شديد الثقة ببدرية ، ومضى يحلم بنجاح مرموق حتى ليلة الافتتاح . وإذا به يتلقى صدمة باردة فيرفع الستار عن صالة ثلاثة أرباعها خالية . اعتقد بادئ الأمر أن فرقته غير مؤهلة للنجاح فى وسط المدينة ولكن أنباء ترامت إليه عما تعانيه المسارح جملة من فتور وانكماش . وما كان بوسعه إلا أن يستمر ولعل النجاح الوحيد الذى قسم للفرقة كان من نصيب بدرية إذ تقدم لخطبتها تاجر ثرى! . عرف ذلك عن طريق فرج يا مسهل وليس عن طريق بدرية فضاعف ذلك من آلامه المزمنة .

وانفرد بها فى حجرة الإدارة فى جو ثقيل من الخيبة وفى نيته عزم على التحدى . قال :

ـ الحال كما ترين . ترى ماذا يحسن بنا أن نفعل؟

فقالت بحزن :

ـ يحسن بك ألا تستمر .

ـ الجميع يخسرون .

ـ هذا أدعى للأخذ برأيي . .
ـ هل نرجع إلى الكلوب المصرى وروض الفرج؟ .
ـ إذا شئت . .
فقال بارتياب :
ـ لست متحمسة . .
ـ لا شىء يدعو إلى الحماس .
فتساءل بارتياب أشد :
ـ وماذا عن مستقبلك؟
فغضت بصرها ولم تنبس فسألها بصراحة :
ـ أحقيقى ما سمعت عن رجل يطلب يدك؟
فأجابت بهدوء دون أن ترفع عينيها :
ـ نعم .
ـ عجيب أن يجيئنى الخبر من آخرين !
فندت عنها حركة تنم عن ضيق ولكنها لم تتكلم . قال :
ـ وهو خبر غير معقول .
ـ لماذا؟
ـ ألم تبدى استعدادا لانتظار الآخر ربع قرن من الزمان؟
ـ لم يدر بخلدى الفشل . .
ـ وهل حقا ما يقال من أن الرجل يكبرك بثلاثين عاما؟
ـ يحدث ذلك . .
ـ لعلك خفت عواقب الكساد ، ولكن ما تزال أمامنا فرص .
فحدجته بنظرة واضحة وقالت :
ـ المستقبل غامض ، أريد أن أحافظ دائما على كرامتى ، ثم إنى وحيدة . .
فقال محتجا :
ـ لا . . لا . . لست وحيدة . .
وتبادلا نظرة طويلة ثم مضى يقول :
ـ لست وحيدة ، ذلك قول أعتبره جارحا لى .
ـ أشكرك ولكنى أبحث عن حل دائم ومعقول .

ـ هنالك حل أجمل . .

ـ حقا؟

ـ أن نتزوج!

فتفكرت قليلا ثم تساءلت بنبرة لم تخل من سخرية :

ـ بدافع العطف؟

فقال بحدة واصرار :

ـ بدافع الحب .

ـ الحب؟!

ـ الحب القديم والجديد .

فقالت وهى ترمقه بنظرة ممتعضة :

ـ إنه لخبر جديد!

ـ لولا غبار الأحداث لرأيته من زمن .

ـ أكان موجودا وحمدون معنا؟!

فانكمش انفعاله وسقط فى الرماد ولم يدر ماذا يقول . وبعد فترة من الصمت الخانق وجد منفذا للخلاص فقال :

ـ عاد الحب فى أثناء وحدتك!

ورجع الصمت كرة أخرى مشحونا بالريبة وعدم التصديق ، نفخ متحديا وقال :

ـ من الغباء أن نعتذر عن الحب!

فسألته بمرارة :

ـ من الذى أرسل الخطاب إلى النيابة؟

انخلع قلبه فزعا . لم يتوقع أن يجرد من ثيابه بجذبة واحدة . أدرك ما تعنيه ولم يكن نسى شيئا . ولكنه تساءل متجاهلا :

ـ أى خطاب؟

ـ أنت تعرف قصدى ، وجهك يشهد بذلك . .

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنت الذى أرسل الخطاب . .

ـ إنك لمجنونة .

ـ ولكنه الحق .

ـ إنه الوهم، ثم أنسيت أنه اعترف قبل وصول الخطاب؟

فقالت ببرود:

ـ ولكن الخطاب كتب وأرسل . .

ـ تحقيق سخيف لا يقوم على أساس.

فقالت بهدوء:

ـ الزواج الذى تقترحه يعنى التمادى فى الإجرام، منك ومنى أيضا . .

فقال بعنف:

ـ المسألة أنك لا تحبيننى!

ـ هذا صدق أيضا، أنا لم أحب فى حياتى سوى حمدون . .

ـ ولكنك لن تتزوجى من ذلك الرجل.

ـ هذا شأنى، ولا خيار لى.

فقال بغضب:

ـ سأمنعك . .

فقامت وهى ترفع منكبيها، ثم مضت وهى تقول:

ـ أستودعك الله.

٢١

ذهبت بدرية. توقف العمل. أطفئت الأنوار لم يعد صوت يجلجل بخير أو بشر. تقوض عالم الخيال. تبخر سحره. ران الأسى على كل قلب. لن يراها وهى تمرح فى طيلسان الجارية. لن يسعد بابتسامة الثغر. ولا بعذوبة الصوت. نظرة متحجرة رافضة آخر ما أهدته. وداع الإثم الضنين بالدموع. إذا هلت طلعتها فهى خيال المحروم. كتب على جوانحه أن تتعذب بالحنين العقيم. أن يتذوق الألم كتمزز المخمور. أن ينادى الغيب ليصد عنه سخريات الغيب. ملعون يوم رأيتك ملعون يوم رجعت إليك. ويوم ماكر شرير يوم لمحتك فى الكتاب. حين قدر البؤس على الوجيه المدلل. حين تواثبت العصافير فوق الغصون محذرة. ومضت عين بحماقتها تكفر عن حماقات البشر. وتلقى من الحصن العتيق ثورة ولكن بقلب طفل غرير. وشهد المجاذيب والمساطيل بجمالك يا بدرية. وها هو ضغط الحياة لا يسمح للمحزون بأن ينعم بالحزن. مضى يصفى عمله

ويتخلى عن رجاله بألم بالغ . لم يبق معه من ماضيه القريب إلا فرج يا مسهل . وحتى هذا قال له :

ـ آن لك أن ترجع إلى دارك العامرة .

كيف يرجع بالخيبة والجريمة والحب الضائع !! . قال :

ـ فات الأوان . .

ـ مكانك هناك ، ستجدنى فى خدمتك ، لقد خلقت للوجاهة والعز .

ـ تريد أن ترجعنى إلى البطالة والغم . .

ـ بل إلى الوجاهة والزواج ثم الحج إلى بيت الله !

فقال باسما :

ـ إنى الآن فى زمن العذاب ، فى عمر قادم سأعمل بما يناسبه ، أليس عندك رأى آخر ؟

سرعان ما تحول الرجل من أقصى طرف إلى أقصى طرف ، سأله :

ـ هل عندك مال موفور ؟

ـ نعم .

ـ عظيم ، حول المسرح إلى ملهى ليلى ، فهذا زمن الملاهى !

ـ ألك خبرة بذلك يا مسهل ؟

ـ الحمد لله ، سيبقى المسرح كما هو ، تتغير الصالة ، البوفيه يكبر ، أما البنات وخلافه فدع أمرها لى . .

أدرك أنه يغوص فى أعماق مظلمة . لم يفزع ولم يتردد . ألقى بنفسه فى تيار الاستهتار وكأنما ينتقم من عدو مجهول . وراح يا مسهل فى تفكير عميق وهو يقول :

ربحه مضمون .

* * *

انهمك فى تحويل المسرح إلى ملهى ليلى . جاء البناءون والنجارون . جرى الاتفاق مع الفتيات والجرسونات والعازفين . مثل الإدارة خير تمثيل ببدانته المتزايدة وحزمه المكتسب . وانتقل من شقة حدائق شبرا إلى شقة بشارع دوبريه نفسه . وزود نفسه بما تشتهيه من طعام وشراب ومخدر ونساء . صمم على نسيان بدرية كما نسى عين من قبل ، وأن ينسى كذلك جريمته . وجعل يقول لنفسه إنه ما فعل إلا أن أرشد العدالة إلى قاتل . ورغم ذلك لم يستطع أن يبدد سحب الكآبة ولا أن يسكت صوت النكد الخفى .

* * *

وعلى فترات متباعدة من الزمن تجيئه أخبار الحارة فتثيره وتنعشه . يجد فيها جديدا

وسط لياليه المفعمة باللهو والطرب والرقص والعجائب. أمه تطعن فى السن ولكنها لا تفقد حيويتها ونشاطها الدءوب على الخير. تمضى متوكئة على المظلة أو ناشرة إياها من درب إلى درب، ومن بيت إلى بيت، وقد أضفى الخيال عليها بركة وقداسة، وسلم أخيرا بالإعجاب بها بلا حدود، فالعمر الطويل الذى يتحدى الزمن بنشاطه وقدراته مما يستحق الإعجاب والتقدير. إنها مصممة على الخلود والشباب. وسيدة أصبحت وكأنها صاحبة الدار وخاصة بعد وفاة أمها. أما سمير فإنه يشق طريقه بنجاح خليق بأن يكفر عن سقوط أبيه، وها هو يتأهب لدخول مدرسة الهندسة، وكما يخلق من ظهر العالم فاسد يخلق من ظهر الفاسد عالم.

وربما تساءل أحيانا عما جرى لبدرية. وقد تكفل الزمن بإعدام حبه هذه المرة حتى الموت وليس كالمرة الأولى. إنه يدرك الآن أن كل شىء يموت وأن ما يلزمنا حقا هو شىء من الصبر عند الملمات. لعلها اليوم أم محجوبة وراء الأستار أو لعلها أرملة، أو لعلها مطلقة وشريدة. ماذا يهم؟ ما هى إلا مجرمة. هى قاتلة يوسف راضى. هى دافعته إلى الخيانة، هى مرسلة حمدون إلى التأبيدة. ماذا بقى من جمالها؟. أى شىء هذا الجمال الذى يعيش بضع سنين؟. ولكن كتب على الإنسان أن يتعذب بلا سبب، ولولا الطعام والشراب والمخدر لفسدت الأرض.

* * *

وتمر أعوام أيضا. تتراكم أرباحه، تزداد بدانته، ترمقه الأعين بالحسد، يجد فى الهروب من الألم والكآبة. آمن بأن السعادة هى التخفيف من الألم المحتوم، وأن الإنسان يتألم لسبب فإذا لم يجد السبب تألم أوتوماتيكيا. وذلك الملل الخفى الذى يتبعه كما يتبع الصوت عجلة العربة بلا تحديد لمصدره. أما أسعد الأوقات حقا فهى وقت النوم العميق. وإنه ليرنو إلى الضاحكين بارتياب حتى خيل إليه أن ملهاه الليلى ما هو إلا بؤرة للمجانين والتعساء. ترى هل تنتهى هذه الحياة بخراب فناء شامل؟!. وعجب كيف أنه لا يعرف فى دنياه من يأنس إليه إلا فرج يا مسهل.

وأيقظه أرق فى الهزيع الأخير من الليل. جاش صدره بالعواطف الحزينة الغامضة. قرر فجأة أن يستدعى ابنه ليراه.

٢٢

انتظر فى شقته الأنيقة ضحى يوم الجمعة. لم يتصور أن يتخلف عن الحضور. وحتى لو وقع المحذور فليتحمل ما جنت يداه.

«عزيزى سمير . .

لا تدهش . كاتب الخطاب هو أبوك . سوف تتساءل أبعد ذلك العمر؟ لكنك لم تعرف أعماق حياتى حتى يحق لك الحكم علىّ . أبوك يدعوك إلى مسكنه (عمارة ٣، شارع دوبريه، شقة ١٤) صباح الجمعة القادم (١٤ مارس) . ما كان يجوز أن نفترق ذلك الزمن الطويل ونحن فى مدينة واحدة . الأسباب كثيرة ولعلك سمعت الكثير ولكنك لا تعرف كل شيء . إنى والدك على أى حال . من الواجب أن نتعارف . سيسعدنى جدا أن أقابلك» .

«عزت عبد الباقى»

لن تمنعه من الزيارة أمه ولا جدته . ارتدى البيجاما والروب، حلق ذقنه بعناية، سوى شاربه، مشط شعره، تطيب، انتظر . وفى الساعة العاشرة دق جرس الباب . انتقل الرنين إلى قلبه، هرع بجسمه البدين إلى الباب . فتح، رأى شابا لم يشك لحظة فى هويته . خفق قلبه كما لم يخفق من قبل . فتح ذراعيه . أخيرا تلاقى الأب والابن وتعانقا . . مضى به إلى حجرة الجلوس . جلسا على فوتيلين متقابلين وراء باب الشرفة المغلق . بينهما خوان عليه طبق سمح متعدد الثغرات مليء بالفواكه والنقل والشيكولاتة ودورق ماء، وقارورة اسباتس وقدح ذو حامل فضى . راحا يتبادلان النظر فى اهتمام وانفعال وعلى شفتى كل منهما ابتسامة متألقة ترتعش فى شيء من الارتباك . سره أن يراه رشيق القامة مع ميل إلى الطول، وأن يرث عينى «عين» الجميلتين وأنفها الطويل السامق وجبينها المرتفع . يا له من شاب مليح عامر بالحيوية والذكاء .

وقرر إنهاء الصمت فقال :

ـ إنى سعيد جدا برؤياك .

فأجاب بصوت ذكره بصوت سيدة :

ـ وإنى لأسعد يا أبى . .

وهو يضحك :

ـ لا شك أنك تعرف عنى أشياء، لعلها غير سارة، أنا أيضا أعرف عنك الكثير، عندى من يوافينى بالأخبار، ومن ذلك تدرك أننى لم أتناس الأهل والمكان . ولكن لندع جانبا ما يعكر الصفو، ولندافع عن سعادتنا المشتركة ما أمكن .

ـ خير ما نفعل .

ـ أنت طالب فى الهندسة؟

ـ أجل .

ـ وناجح فى دراستك فيما بلغنى؟

ـ أملى كبير فى بعثة إلى الخارج .

فأشار إلى الخوان يدعوه إلى تناول شىء وقال :

ـ هائل! أبوك لم يحب الدراسة ولم يوفق فيها ، وتسليتى فى قراءة قصص الجريمة ، لكن الزمن يجىء دائما بالأحسن ، كل واشرب ، ثم حدثنى عن حياتك .

فقال وهو يصب الاسباتس فى القدح :

ـ دراستى هى شغلى الشاغل ، فى العطلة أمارس الرياضة والمطالعة . .

ـ لا تلمنى إذا لم أسألك عن أمى أو أمك فإنى أعرف عنهما كل شىء ، ماذا تطالع؟

ـ موضوعات شتى . . سياسة . . أدب . . دين . . وأحب السينما كذلك . .

وهو يضحك مرة أخرى :

ـ والمسرح؟

فعصر عينيه من الدموع التى بعثتها الغازوزة متجاهلا السؤال فقال عزت :

ـ لذلك أفلست المسارح ، وهل تهتم بالسياسة؟

ـ الجيل كله يهتم بها .

فغشيت عينيه نظرة جادة وتمتم :

ـ للسياسة مآسيها!

ـ أحيانا .

فقال عزت معاودا المرح :

ـ لن أنصحك بشىء ، أتدرى لماذا؟ ، لأننى ما عملت بنصحية أحد!

فقال سمير بحبور غمره من خلال ألفة متزايدة :

ـ طالما تشوقت لرؤياك . .

ـ ولم لم تشبع أشواقك؟

ـ خيل إلى أنك لا تهتم برؤيتى!

ـ تخيل خاطئ مائة فى المائة ولكنك لا تعرف كل شىء . .

وقدم له برتقالة ثم سأله :

ـ لم يكن لى أصدقاء كثيرون . وأنت؟

ـ لى كثيرون منهم ، فى الحارة والمدرسة . .

ـ ولا شك أن علاقتك بأمك وجدتك جميلة؟

ـ على خير ما يرام .

ـ أيهما أحب إليك؟

فابتسم وقال :

ـ الأم هى الأم ولكن سحر جدتى لا يقاوم!

ـ إنها العجيبة الثامنة فى الدنيا . .

ـ كيف هان عليك أن تهجرها ذاك العمر كله؟

وقال لنفسه أن ابنه لم يعرف الضجر ولا الألم بعد، وإذا به يقتحمه متسائلا :

ـ هلا حدثتنى عن حياتك العاطفية؟

فارتبك سمير وبدا عليه أنه لم يفهم فرحمه أبوه وسأله :

ـ يهمنى أن أعرف أأنت سعيد؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ فى ذلك الكفاية، أرجو أن تكون سعيداً حقا .

ـ أعتقد ذلك .

ـ عظيم، استمتع بوقتك فالحياة لا تبقى على حال .

فتفكر الشاب مليا ثم سأله :

ـ وكيف حالك أنت يا أبى؟

ـ ناجح والحمد لله .

ـ أعنى أأنت سعيد؟

فضحك عزت عاليا وقال :

ـ أعتقد ذلك!

ـ لدى سؤال ولكنى أهاب طرحه . .

ـ صارحنى بما تشاء . .

ـ أأنت متزوج؟

ـ ماذا يقولون هناك؟

ـ يقولون إنك متزوج . .

ـ ومن الزوجة التى زعموا؟

ـ بدرية المناويشى!

فضحك عزت مداراة لانفعاله وقال :

ـ أتزوج من امرأة الصديق السجين؟! . .

هل تصورت أن أباك يرتكب فعلا خسيسا كهذا؟
فقال سمير مرتبكا :
ـ ربما كانت الشهامة لا الخسة هى . .
فقاطعه قائلا :
ـ أبوك لم يتزوج ولم يفكر فى الزواج .
ثم وهو يعاود الابتسام :
ـ وماذا تعرف عن عمل أبيك؟
ـ صاحب ملهى ليلى .
ـ ترى ما رأيهم فى ذلك؟
فقال سمير ضاحكا :
ـ إنك أدرى بأهل حارتنا!
ـ وأدرى بجدتك أيضا .
ـ ولكنها تحبك دائما ، لا يمكن أن تتصور كيف كانت فرحتها بخطابك!
ـ وأنت يا سمير صارحنى برأيك فى عملى . .
ـ إنه عمل شريف يا أبى .
ـ لعلها إجابة مدرسية!
ـ ولكنها صادقة . .
ـ ألا يسيئك أن يعلم بها زملاؤك؟
ـ إنهم يعرفون!
ـ أنت ولد شجاع .
ـ بل أنت الشجاع يا أبى . .
ـ حقا؟!
ـ تفعل ما تشاء دون اكتراث لآراء الناس!

وتبادلا نظرة باسمة وغامضة ، وتساءل عزت ترى ألم يكن يفضل أن يجد أباه أقل بدانة وأنظف عملا؟! . وشعر بأنه ما زال عند أول درجة من درجات التعارف . وأن الكلفة لم ترفع بعد بينهما ، قال :
ـ لا يجوز بعد اليوم أن تغيب عنى طويلا ، سأنتظرك كل جمعة . .
فقال سمير معتذرا :

ـ أعدك بذلك ولكن بدءا من العطلة الصيفية . تلقى أول خيبة ولكنه قال :

ـ أجل ، الامتحان يقترب ، فليكن ، وعلى فكرة لقد أعددت لك غداء طيبا !

٢٣

بدخول سمير فى حياته تغير تركيبها بعض الشيء . على أى حال لم تعد كما كانت . وتوثقت العلاقة بينهما فى الصيف فتحولت إلى معاشرة على مستوى رفيع . فاز بسعادة صافية يوم الجمعة ، وأغدقت عليه ذكريات عذبة بقية الأسبوع . ومنه عرف أنه يحب طالبة بكلية العلوم تدعى رجاء وأنه سيعلن خطبته فور انتهائه من الدراسة فسعد عزت بالخبر . رحب بالحب الموفق واعتبر نفسه مشاركا فيه على نحو ما . هنأ ابنه على التوفيق الذى حرم منه طيلة عمره . ترى كيف كانت تكون حياته لو تزوج من بدرية يوم رغب فى ذلك؟ . أى حياة نظيفة ومستقرة أفلتت من كليهما؟! . ترى ألا تخطر لها مثل هذه الخواطر أحيانا؟ أما الذى أزعجه حقا فهو اهتمام ابنه الواضح بالسياسة . أصبحت السياسة مقرونة فى ذهنه بالخيانة والجريمة والضياع . قال له مرة :

ـ السياسة شديدة الخطورة يا سمير .

ـ ألم تشغل بالك أبدا؟

ـ كلا .

ـ وتظن أنه لذلك توفرت لك السعادة؟

خطف منه نظرة فقد حسبه يسخر منه ولكنه وجده جادا بريئا . قال متهربا :

ـ لقد قضت السياسة على صديقى الوحيد فى هذه الدنيا .

ـ حمدون عجرمة؟

ـ أجل ، أسمعت عن جماعة أبناء الغد؟

ـ طبعا .

ـ إنها لمأساة حقا .

فقال سمير باسما :

ـ ومأساة أيضا ألا نهتم بالسياسة .

ـ كان يردد ذلك ، ألا يكفيك أن تكون مهندسا ورب أسرة؟

ـ لا هندسة ولا أسرة بلا سياسة !

ـ مرحى . . مرحى . . يوجد ما هو أهم .

ـ حقا؟

ـ يطيب لى فى أوقات فراغى النادرة أن أتساءل عن معنى حياتنا!

ـ ولكن السياسة تعطيك الجواب!

فضحك عزت عاليا وقال :

ـ لا فائدة ، ولكن معذرة فقد أصبحت من رجال الماضى!

ـ ما زلت شابا!

ابتسم عزت بمرارة . ابنه لا يدرى ماذا يقول . لا يرى هذا الكرش . ولا هذه التجاعيد المبكرة تحت عينين أضناهما السهر والشراب والمخدر . ولم يعرف شيئا عن الخطاب الغفل من الإمضاء ، ولا عن احتقار المطلقة المهجورة له وإيثارها لحيوان طاعن فى السن . وعاد يسأله :

ـ وما الهدف من السياسة؟

فأجاب بعد تفكر :

ـ هو هدف كل إنسان ، السعادة!

ـ ولكن للسعادة سبلا أسهل وأقل خطورة .

ـ لا أظن ، نادرا ما يحقق إنسان ذاته وسعادته مثلك!

فقال بحدة غير متوقعة :

ـ لا تضرب بى المثل من فضلك!

وتذكر أمه فى إصرارها الأبدى وجولاتها الخالدة فقال إن الولد سر جدته ، كلاهما مصاب بجنون واحد ولكنه فريد فى نوعه . أما حياته هو فهى السعى الدائب نحو سعادة لا تريد أن تتحقق . وقد وهب الصحة والمال والنجاح والمرأة ويعيش مطاردا بقوة ماكرة خفية . وقال بنبرة جديدة مستسلما :

ـ أتدرى يا بنى ، يبدو أن أكبر خطأ نرتكبه فى حياتنا هو الاعتقاد بأن الهدف هو السعادة .

فسأله سمير ببراءة :

ـ فما البديل؟

فقال فى حيرة وهو يضحك :

ـ لا أدرى .

ـ ولكنك خبرت الناس والحياة . .

ـ لا أرى فى الملهى إلا السفهاء والمجانين .

فضحك سمير فى حبور فاستطرد عزت :

ـ لعل النقص يكمن فى أننا نمر بفترة انتقال .

ـ أجل إن وطننا . .

ولكنه قاطعه قائلا :

ـ أعنى الإنسان ، إنه قادر على إدراك تعاسته . .

ـ الأمر سهل ، ما علينا إلا أن نزيل أسباب الشقاء !

فارتفع صوته وهو يقول :

ـ صديقى حمدون فقد حياته وهو يفعل ذلك .

ـ إن التضحية . . حسن ، لابد أنك تسلم بقيمة التضحية؟

فأجاب ضاحكا :

ـ كلا ، إنها حماقة لا يبررها إلا الجنون .

ولما انفرد بنفسه عقب ذهاب سمير قال :

«آه لو أجد الشجاعة للاعتراف بخطيئتى ! » .

٢٤

تخرج سمير مهندسا . أعلنت خطبته على رجاء . اختير لبعثة مدتها عامان فى إنجلترا . دعا عزت ابنه وخطيبته للاحتفال بهما فى شقته . أعجبته الفتاة . غزاه جو الخطبة حتى الأعماق ـ حن فجأة إلى حياة زوجية مستقرة . وجد فى حنينه المباغت فكرة جديدة ، ماكرة ، ولكنها قوية آسرة . لكن أى عروس تناسب رجلا فى سنه؟ . إن نفسه تعاف النساء اللاتى يزرن شقته من آن لآن . يريد أن يرفع النقاب الأبيض عن وجه برىء فى ميعة الشباب . لعل ذلك آخر ما ينتظره من سلسلة المغامرات الجنونية . وهبط عليه الإلهام الذى يسبق الإقدام . إنه يتذكره وهو به خبير . غير أن ينابيعه جفت وهو يودع سمير . قبّله وهو يقول :

ـ ليس من اليسير أن أصبر عامين .

وخلت دنياه من الكائنات والحياة . كما خلت يوم اختفاء بدرية ، ومن عجب أنه توثب رغم ذلك لتحقيق حلم الزواج الطارئ .

يقول الراوى :

إن الحوادث لم تمهله، كعادتها معه دائما. تجىء إذا جاءت منقضة كأنما لتفرغ من مهمتها فى أقصر وقت. فذات صباح جذب بصره هذا العنوان فى الجريدة «القبض على فرع لجماعة أبناء الغد». ولأسباب تاريخية ليس إلا.. سرت فى بدنه رعدة شديدة واجتاحه شعور بالتشاؤم عميق. وقرأ التفصيلات باهتمام مركز لا يتفق وما عرف عنه من لا مبالاة إزاء ذلك النوع من الأخبار. إنه يتابع الأخبار هذه المرة وكأنما هو عضو فى هذه الجماعة المخيفة، وكأن من قبض عليهم من الشبان أقرانه، وما ضبط من منشورات هو شريك فى تحريرها وطبعها وتوزيعها. ونشر خبر القبض على الفرع باعتباره أول نصر يحققه جهاز الأمن فى ذلك المجال، وأنه الخيط الذى سيؤدى حتما إلى أوكار الجماعة حيثما وجدت. ومضى يهش الذكريات المعتمة عن خياله المريض، ويلعن الضعف الذى اعتور أعصابه. ولكنه تابع الأخبار يوما بعد يوم حتى صدر البيان الرسمى عن الموضوع. لقد قبض على الكثيرين، والمطاردة جادة فى إدراك الهاربين. وإذا بالبيان يشير إلى حقيقة جديدة ما إن اطلع عليها حتى تردى قلبه فى هاوية.. بل ندت عنه صرخة مدوية فى شقته الخالية. ثمة كلام عن سمير عزت عبد الباقى. عضو البعثة الهندسية بإنجلترا. الذى هرب من إنجلترا فى اللحظة المناسبة إلى مكان مجهول. راح يتمشى مهرولا بجسمه البدين ويتساءل فى ذهول «سمير عضو فى جمعية أبناء الغد؟! سمير هرب إلى مكان مجهول؟! هل يختفى سمير إلى الأبد؟! هل يلتهمه الضياع والتشرد فى الغربة؟. ها أنت تنتقم منى يا حمدون عجرمة. إنى خبير بهذه الألاعيب القاتلة التى تصادفنا ونحن نجد فى سبيل السعادة!. عزت وسيدة وعين ينصهرون فى بوتقة تعاسة واحدة. يا لها من ألاعيب قاسية مجنونة يحركها شيطان ساخر.. وشرق بالدمع فجفف عينيه بالمنديل الحريرى المطرز ركنه بالحرفين الأولين من اسمه. وقال له فرج يا مسهل معزيا :

ـ حظه على أى حال أسعد من الذين قبض عليهم..

ـ لا أدرى.. إنى واثق من شىء واحد فقط وهو أننى لن أراه مرة أخرى فى هذه الحياة..

فقال الرجل بتسليم :

ـ لا يعلم الغيب إلا الله.. هلا زرت الست الكبيرة؟

خطر له هذا وهو غارق فى حزنه.. أن يزور عين وسيدة.. ولكنه سرعان ما نبذ الفكرة فى غضب ونفور. ليس الوقت بالمناسب للتمثيل والحركات البهلوانية. إنه يعلم الآن بما قدر عليه. أن يقلع عن أحلام السعادة السخيفة، أن يتسول رؤية لن تتحقق، أن ينفذ حكما بالأشغال الشاقة المؤبدة وهو قائم بين السكارى وطلاب اللذة.

وزحف عليه تعب من نوع جديد شمل الرأس والأعضاء. وعانى من صداع لم يعرفه من قبل ربما كانت الفائدة الوحيدة لذلك الألم الوحشى أنه أجبره ـ ولو إلى حين ـ على تناسى أزمته الأبوية، وألا يفكر فى شىء سواه. ولأول مرة يقصد عيادة طبيب. واكتشف أنه يعانى من ارتفاع كبير جدا فى ضغط الدم. وعملا بمشورة الطبيب وافق على دخول مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية ليظفر برعاية متصلة حتى يزول الخطر. وهدف العلاج إلى تخفيض الضغط وإنقاص وزنه عشرين كيلو على الأقل. وأشرف فرج يا مسهل على الملهى، وكان يزوره باستمرار، وكان يقول له:

ـ دعنى أخبر الست عين.

جعله هذا الاقتراح يستشعر الخطورة ويفكر فى الموت. تخيل عين جالسة مكان فرج يا مسهل. كلا إنها لن تفارق الفراش. سينهال عليه سيل فياض بالدعوات المباركات والآيات الشريفة. ستقول له آن لك أن تغير حياتك، ستقول له أيضا إنى أعرف سر هذا الشقاء كله. ورغم حنينه الطارئ المستفحل بالرقاد والتفكير فى الموت فإنه لم يستسلم.

قال:

ـ لا تخبر أحدا، لا عين ولا أحدا فى الملهى..

ـ ترى ذلك؟

ـ نعم.. نفذ بكل دقة.. لا عين ولا أى راقصة ولا أى قواد!

وأخذ يتلقى التحذيرات عن البدانة والطعام والشراب، تهاوت الحصون التى يحتمى بها من الحياة وأطوارها الغريبة. يجردونه من أسلحته، ويتحالف المرض مع العقوبات المفروضة، ومن عجب أن رأى فى نومه قطط الست عين فى الحديقة، ورأى بينها بركة بهدوئها الشامخ، وتهلل لذلك سرورا وظن أنه سيفاجئ عين بالخبر السعيد وهو أن بركة حية لم تمت كما توهمت وأنه ما كان يجدر بها أن تبكى. واستيقظ ليلتها عند الفجر بقلب ثقيل بخلاف المتوقع، كمن يرجع من رحلة طويلة عقيمة، فخطر له أن الدنيا قطة وأنها تأكل صغارها وقال بصوت مسموع فى سكون الليل:

ـ إذا كان شارع دوبريه والاليزيه سجنًا فالحارة ليست إلا زنزانة!

* * *

وغادر المستشفى نحيلا هزيلا ولكن سليما. تهدلت ملابسه الداخلية والخارجية، وتبدى العالم متغير اللون، باردا، لا يحيى ولا يرد تحية. ورجع للتفكير فى سمير ولكن من خلال استسلام شامل. وحرص على الحياة رغم كل شىء فاحترم الرجيم والدواء ومواعيد التردد على العيادة، وهجر الكأس ولكنه لم يهجر الجوزة.

وأعاد تفصيل ملابسه. رجع رشيقا كما بدأ انتشر المشيب فى رأسه وحاجبيه وشاربه.

بدا كهلا وقورا يتنافر وقاره مع بيئته وعمله. وكلما تذكر أنه جاوز الخمسين يدهش، لا يصدق، يستحضر مناظر خالدة فى خميلة الياسمين أو كتاب الشيخ العزيزى أو تمثيل مسرحية روميو وجولييت فى الحارة. كان يظن أن ذلك يحدث للغير فقط. فالظاهر أن التاريخ صادق فيما يؤكد من مرور أقوام فى القديم وذهابهم. وحتى متى نسلم بذلك ونذعن له؟ ولكن شكرا للعادة فقد قتلت كل حزن وكل فرح ـ ولعله من الخير أن نترك الدنيا بعد أن نضيق بها مللا.

* * *

وماذا عن الحارة؟.

إن المخبر مستمر فى رواية الحكايات. مازالت سيدة منطوية فى الدار منطوية على أحزانها. ما زالت عين مصرة على نشاطها. لكن هيهات. لم تعد تخرج إلا مرة واحدة فى الأسبوع. كتمثال للشيخوخة الخالدة. وتسير إذا سارت بصحبة خادمة. ترى ماذا بقى من الذاكرة والإرادة والذكاء؟. وأى الحزنين أشد عليها حزنها على عزت أم حزنها على سمير؟. وما رأى إيمانها الراسخ فى هذه الأحوال الغريبة؟! هل لقى الموت مقاومة أشد مما لقى على يدى عين؟!

٢٥

يقول الراوى:

إن عزت عبد الباقى لم يتوقع جديدا إلا أن يكون إنزال الستار وإطفاء الأنوار. ولكن فرج يا مسهل زاره فى شقته ذات صباح من أيام الخريف وقال له:

ـ عرفت خبرا غريبا لعله يهمك أنت أكثر من جميع الناس.

فقال عزت ساخرا:

ـ لك الملهى وما فيه أن استطعت أن تشغل اهتمامى!.

ـ لكنه خبر يحكى على أى حال.

ـ ما هو؟

ـ بدرية المناويشى نجمة مسرحك القديم..

من أى صمت يخرج هذا الاسم! نجمة مسرحك القديم. لم يحدث أى رد فعل. نجمة يتهادى ضوؤها إليه من خلال أعوام طويلة طويلة، وكالنجوم تشكل ذكرى متألقة وحاضرا مجهولا. أى معنى للخبر؟. لا معنى على الإطلاق ولا أهمية. تساءل بفتور:

ـ ماتت؟

فضحك يا مسهل وقال:

ـ كلا، يقال إنها ترملت منذ عامين أو نحو ذلك، وإنها ورثت مالا سائلا لا بأس به، ولكن أتدرى كيف استثمرته؟.

ـ كيف؟

ـ أسمعت على ملهى زهرة النيل الليلى؟!

ـ هو ملهى فى عوامة فيما أعلم.

ـ بدرية صاحبته ومديرته!

ابتسم ابتسامة بلهاء، تمتم:

ـ مدهش!

ـ ربما تكون قد حنت إلى أصلها أو قريب منه.

ـ أو أنها خافت الوحدة والكهولة..

ـ الأرجح أنها اختارته لضمان الربح..

وضحك عزت. عزت صاحب ملهى الإليزيه وبدرية صاحبة ملهى زهرة النيل!.

* * *

بدافع الفضول، بدافع الضجر. قرر أن يسهر ليلة فى زهرة النيل. قال لنفسه عرفت الآن لم يرغب الناس فى زيارة الآثار. استعد بحمام فاتر، بدلة أنيقة، حلق ذقنه وسوى شاربه وشعره، مضى إلى زهرة النيل. أعمارنا متماثلة.. حمدون وأنا وبدرية وسيدة وكل أخذ نصيبه بالعدل. من المسئول عن تعاسة الجميع؟ أنا.. حمدون؟.. بدرية؟.. سيدة؟.. أما كان يجب أن نحاكم؟!.

والعوامة معدة على هيئة صالة، بالغة الأناقة مرتفعة الأسعار. تشهد لمن أسسها بالذوق الجميل والبراعة فى الخيال. اتخذ مجلسه وراحت عيناه تجوسان فى الأركان والصفوف والمسرح، إن صح ظنه فحجرة الإدارة تقع فوق السطح ويصل إليها بهذا السلم الحلزونى المفروش بالبساط الأحمر. طلب زجاجة شمبانيا. كان الوحيد المنفرد بنفسه. لماذا جاء؟ ولماذا لا يجيء؟. وغنى شاب بطريقة الافرنجو آراب. تلاه مونولوجست، ثم راقصة. هل تمضى الليلة دون ظهور بدرية؟! كان ينظر من آن لآن إلى السلم الحلزونى. انتبه على طقة حذاء. أخذ الجسم يظهر رويداً فوق السلم الحلزونى من أسفل إلى أعلى حتى استوى عند رأس الصالة، بدرية المناويشى، وقفت تراقب وتلاحظ. مديرة بكل معنى الكلمة، فراح يتفحصها. كان يتوقع تغيرا ولكن غير هذا

التغير الماثل. بدينة مثل امرأة عمدة. ريانة الوجه بدرجة تدعو للنفور. جف الماء العذب وانطفأ التألق. فى مثل عمرها يحتفظ نساء بآثار جمال ولكنها لم تحتفظ بشىء. ثم ما معنى هذه النظرة فى العينين المكحولتين؟. ليست طبيعية، مريضة؟. مهزوزة الأعصاب فاقدة الذاكرة؟!. حكاية تاريخ طويل تعيس!. مرت به عيناها فلم تقف عنده. من الأفضل أن يتجاهلها وأن يتحاشاها. ولكن ها هى تتهادى فى الممشى الجانبى. ورغما عنه لم يهرب منها بعينيه. لقد جاء وعليه أن يتحمل المسئولية. لم يعد يفصلها عنه إلا متر. تلاقت العينان. ابتسم اضطرارا. وقفت مبهوتة لا تصدق عينيها. وقع المقدور. زحزح كرسيه ووقف. همست:

ـ يا ألطاف الله..

مد يده فتصافحا. أشار إلى الكرسى الخالى هامسا بدوره:

ـ تفضلى..

فجلست وهى تتمتم:

ـ يا حسين مدد!

فضحك عزت متسائلا:

ـ أطلب لك كأسا؟

ـ كلا.. نسيت عادتها.. وأنت لم تشرب بعد؟

ـ ولن أشرب، ولكن بسبب المرض..

ـ سلامتك.. ليست صحتى على ما يرام أيضا.. ولكنى لم أتوقع أن أراك أبدا. الظاهر إنه مكتوب على الأحياء أن يتلاقوا.

انقبض قلبه، تذكر المطارد الغائب، تمتم:

ـ ليس دائما..

ـ ماذا جاء بك إلى ملاهى الشباب؟

فقال دون مبالاة:

ـ جئت لأراك!

ـ كيف عرفت؟

ـ أهل الخير كثيرون.

ـ دهشت طبعا، ولكن يوجد أكثر من سبب، وأنت ماذا تعمل؟

فقال وهو يضحك:

ـ صاحب ملهى الإليزيه..

فضحكت ضحكة عالية غير مبالية بالرواد! فقال :

ـ تحويل مسرح إلى ملهى ليس بالمسافة الطويلة، ولكن أنت؟!

ـ أسباب كثيرة منها حلم سخيف بأن أقدم مسرحيات قصيرة وأمثلها .

ـ جميل أن يعاودك الحنين إلى التمثيل بعد ذلك العمر الطويل؟

ـ مجرد حلم سخيف .

ـ وكيف كانت حياتك الماضية، أعنى منذ فارقتنا؟

فقالت مقطبة :

ـ غاية فى التعاسة، بين زوج لا رجاء فيه وكراهية أبنائه وأهله لى! وأنت متزوج طبعا؟!

ـ كلا، كما تركتنى . .

ـ أخطأت يا عجوز .

ـ حياتنا مليئة بالأخطاء!

ـ صدقت، تسليتى أن أراقب المجانين من عشاق الملهى .

ـ إنهم مضجرون فى النهاية . .

ـ ولكن لا حياة لنا بدونهم، كيف حال ابنك؟

أجاب وهو يخفى انفعاله :

ـ عال . . مهندس قد الدنيا . .

ـ برافو . . هذا أهم شىء فى الدنيا . .

ـ ليس فى الدنيا شىء مهم!

وهى تتنهد :

ـ أتتذكر أيام الحارة؟

ـ تجدينها الآن سعيدة؟

ـ أجل . . وأيام المسرح الناجحة . . وحبى القديم . . وأمى وهى تخلل الليمون، ترى أما زالت المرأة على قيد الحياة؟! . . على فكرة ما أخبار ست عين؟

ـ بخير .

ـ برافو! . . ليتنى أزورها ذات يوم . . وأنت مقيم فى دارها؟

ـ لم أرها منذ فارقت الحارة . .

ـ يا خبر! . يا ويلنا من أمنا فى يوم القيامة! فقال ببرود :

ـ اختلفت الطرق .

ـ طبعـا ، من الفن الخـائب إلى الملاهى الليليـة ، نحن نمت إلى طبيعـة واحدة ، وقـد تخلصنا فى الوقت المناسب من العضو الصالح !

فقال بامتعاض :

ـ هو الذى تخلص منا .

ـ سيخرج قريبا إذا لم يكن قد خرج ، ترى متى يخرج ؟

ـ لم أعد أذكر شيئا .

ـ ألا تتوقع أن تراه ؟

ـ لا أظن ، وأنت ؟

ـ لا أهمية لذلك ، ولكن ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

ـ قلت كى أراك .

ـ أجل ، ما زلت تذكر حبك القديم ؟

فابتسم ولم يجب . فقالت بحدة :

ـ الحب كذبة وضيعة ، لئيم مخادع ، يخيل إلى أننى لم أحب إلا المسرح .

ـ حقا ؟ ! . . رغم أنه جاءك عرضا ؟

ـ لكننى أحببته ، لم أتخل عن حبه ، فى أيام الزوجية التعيسة كنت أتعزى بالانفراد بنفسى وترديد بعض الأدوار .

ـ تعزية مبتكرة .

وهى تضحك بقحة :

ـ لقد كنت وغدا ، وكان حمدون بطلا ، ثم ماذا كانت النتيجة ؟ !

فقال بحدة لم يستطع تهذيبها :

ـ وكنت الشيطان وراءنا !

ـ لو تزوجنى الشيطان لكان التوفيق نصيبنا فهو خير من أمثالكم من الرجال . .

فما تمالك أن ضحك وزايله التوتر . تساءلت :

ـ لم لم تنشأ على مثال أمك الكريمة ؟

ـ أمى مثال لا يتكرر .

فضحكت ضحكة غجرية دون مناسبة وقالت :

ـ ليست أمك وحدها بالمثال النادر ، اسمعنى جيدا ، واحكم بنفسك .

هزت رأسها المصبوغ برشاقة ثم راحت تقول فى أناة وتجويد وبصوت منخفض :

ـ أيها الأصدقاء، أيها الرومانيون، أيها المواطنون، أعيرونى أسماعكم : إنى جئت لكى أدفن قيصر لا لكى أشيد بذكره» .

فابتسم كالحالم وتمتم :

ـ جميل !

فانتفخت بتشجيعه وواصلت بصوت ارتفع درجة عن سابقه :

ـ «إن ما يفعل الناس من شر يعيش بعدهم، أما الخير فغالبا ما يطمر مع عظامهم» .

التفت الجالسون حول المائدة القريبة نحو الصوت وعلت الابتسامة وجوههم، شعر عزت بشىء من الحرج، غير أنه همس وكأنما ليغريها بالرجوع إلى الهمس :

ـ كل شىء سيطمر مع العظام .

لم تنتبه لقوله، سكرت بنشوة الفن والذكرى اجتاحتها موجة تمرد واستهتار، جلجل صوتها فى جناح الملهى وهى تنشد :

ـ «جئت أتكلم فى مأتم قيصر، كان صديقى، وكان وفيا لى، منصفا معى ؛ لكن بروتس يقول إنه كان طماعا وبروتس رجل شريف» .

أحدقت بمائدته الأعين، وأشرأبت الأعناق من الجناح الآخر، انتقل المسرح الحقيقى إلى ركنه، التهب جبينه ارتباكا وحياء، قال برجاء :

ـ فلنذهب إلى حجرة الإدارة!

لكنها كانت قد جاوزت الزمان والمكان، وقفت بهيئتها الداعية للرثاء وقفة شموخ وتحد، وهتفت بصوت هز القلوب والأركان :

ـ «حتى الأمس كانت كلمة قيصر قادرة على أن تصد العالم. والآن ينطرح هناك لا تبلغ المسكنة بأحد أن يخصه بتكرمة» .

دوى المكان بالتصفيق، تصفيق الأعجاب والمجاملة والرثاء والسكر. وقال لها عزت بتوسل :

ـ حسبك . .

فقالت بظفر أبله :

ـ ما علينا إلا أن نعود للمسرح .

فقال اتقاء لغضبها :

ـ سأفكر فى ذلك .

ـ معنا المال، سيرجع حمدون، ماذا ينقصنا؟!

ـ عظيم . . عظيم . . عظيم . .

ـ تعاملنى كطفلة؟ !

ـ أبدا .

بحدة وحنق :

ـ لماذا جئت؟

ـ يجب أن نكون أصدقاء .

ـ إنك أسوأ ذكرى فى حياتى .

ـ الله يسامحك . .

ـ وغد جبان .

ـ الله يسامحك يا بدرية .

ـ اذهب ولا تعد!

وصدع بالأمر فقام ومضى يتسلل بوجدان يشتعل . أما هى فعادت تخطب بقوة :

ـ «أيها الأصدقاء ، أيها الرومانيون ، أيها المواطنون . أعيرونى أسماعكم . إنى جئت لكى أدفن قيصر لا لكى أشيد بذكره» .

٢٦

فر وهو يجفف عرق وجهه بمنديله . أى حماقة ساقته إلى زهرة النيل؟ . لم لم يعمل بالحكمة التى تجعلنا نوارى الجثث فى المقابر؟ . ما كان أغناه عن تلك التجربة الأليمة التى انغرزت فى عظامه ، ألم تكفه تجربة سمير الضائع المشرد؟ . وانفرد بنفسه فى حجرة الإدارة وراح يفكر فى حياته .

لم تكن أول مرة ولكنه كان مثارا لحد الإلهام . ضاق أول أمره بالفراغ ولكنه استبدل به عملا لا يؤمن به . أليس كذلك؟ لم يكن من رجال المسرح ، ولا هو من رجال الملاهى الليلية . العمل يمثل فى حياتى مهربا من شىء أو طمعا فى شىء أو انتقاما من شىء . أمى أول من دفعنى إلى الانحراف وهى الخير الصافى . لست قادرا على فهم هذه الأمور أو هضمها . وما ينقصنى حقا فهو راحة البال . ما ينقصنى حقا هو الرضا عن النفس . هل يوجد حقا ما يسمونه بالرضا عن النفس؟ ! . كيف يبلغه الإنسان؟ وأين أجد الجواب على هذا السؤال؟ ! . وما جدوى الأسئلة وأنا مستسلم لتيار الحياة اليومية؟ ! وخطر له أن يسأل فرج يا مسهل وهما يدخنان معا فى شقته عقب التشطيب ، سأله :

ـ أأنت سعيد يا عم فرج؟

فأجاب الرجل صادقا :

ـ بفضل الله وفضلك .

أدرك أنه لم يفهم قصده فعاد يسأله :

ـ ما أهم شىء لتوفير السعادة؟

ـ الصحة!

ـ ولكنها وحدها لا تكفى .

ـ والرزق!

ـ ولاشىء آخر؟

ـ الزوجة والأولاد .

لقد ضاق بها جميعا وفر منها إلى المجهول . ولو شاء أن يبقى ويتزوج من أخرى لفعل . كلا ، الأمر أشد تعقيدا مما يتصور فرج يا مسهل .

* * *

ودق جرس التليفون ضحى يوم فى شقته :

ـ ألو؟

ـ عزت عبد الباقى؟

ـ أنا هو . . من حضرتك؟

ـ أما زلت تذكر حمدون عجرمة؟

خفق قلبه مستدعيا خليطا من الانفعالات المضطربة ، لكنه هتف :

ـ حمدون!

ـ نعم . .

ـ لا أصدق . . أى فرحة . . مبارك . . مبارك . . مبارك . . أين أنت الآن؟ . . تعال بلا تردد . . إنى فى انتظارك . .

* * *

كان قد مضى على تجربة زهرة النيل شهر أو شهر وأيام . وجلس ينتظر بقلب كئيب ونفس رافضة حانقا على الماضى الذى لا يريد أن يموت ، وخيل إليه أنه يستمد من عذابه قوة ستغير كل شىء وأنه سيرفض ذل الأسر المقيم .

وأقبل حمدون عجرمة :

أقبل رجلا آخر كما توقع ولكنه فاق توقعه، لم يكد يعرفه. رآه لأول مرة أصلع، وعينه اليسرى أضيق من اليمنى. على حين وشت مشيته الواهنة ورجله اليمنى المتصلبة بشلل أصابه ذات يوم.. تجسد له إثمه القديم مكشرا بغيضا فاستل من نفسه أى حنان كان جديرا أن يمس أوتار وجدانه. اجتاحته عاصفة فى الخفاء وهما يتعانقان. استفزه ذلك إلى مزيد من التفكير فى البحث عن حياة جديدة. يريد أن يذهب كما يتعطش إلى رؤية سمير، وجلس فى فوتيل مقابل، فى موضع ابنه المختار، وتبادلا النظر هو مبتسما، والآخر جامدا أو عاجزا بفيه المعوج قليلا من الابتسام. قال عزت بابتهاج:

ـ الله وحده يعلم بمدى فرحتى بلقائك.

فقال حمدون بصوت منخفض:

ـ توقعت ذلك، لست على ما يرام، ولكن يسعدنى أن أراك فى صحة جيدة..

فقال عزت كالمحتج:

ـ بل أصبحت بدورى أخا مرض، ليس هذا هو المهم، كلانا وراءه حكاية وسيتيح لنا الوقت تبادل الحكايات..

فقال حمدون بهدوء وثبات:

ـ ولكنك أنجبت ابنًا رائعا!

فتأثر عزت تأثرا عميقا غطى على دهشته وتساءل:

ـ من أدراك به؟

ـ لا شىء يمتنع عمن وراء الأسوار.

ـ ماذا تعلم عنه؟

فلم يزد عن قوله:

ـ إنه فتى رائع..

ـ سرعان ما فقدته.

هز رأسه نفيا ولم يعقب.. ترى هل يعرف عن سمير أكثر منه؟ واندفع ربما دون تدبر ليخرجه من تزمته فقال:

ـ آخر أخبار بدرية أنها تعمل مديرة لملهى ليلى.. «زهرة النيل».. ؟

ولكنه لم يتأثر. تساءل بلا مبالاة:

ـ كيف حالها؟

ـ شاخت وخرفت!

ـ نهاية طبيعية وإن جاءت قبل الأوان بقليل..

ـ لنرجع إليك . . ما مشروعاتك عن المستقبل؟!

ـ لا شيء!

رغم توقعه لذلك فقد حنق غير أنه قال بنبرة ودية :

ـ لا تحمل هما . . ولكنك لست على ما يرام .

ـ أصبت من أعوام بشلل نصفى ، ولست آمل فى تحسن أكثر مما بلغت .

ـ يا للأسف . . ولكن الأمل موجود . . لا شك أنك متشوق للتأليف؟!

ـ لا قدرة لى على تأليف جملة واحدة .

ـ على أى حال لا تحمل للرزق هما . .

فقال ممتنا :

ـ نعم الصديق أنت!

سرعان ما حدث تغير فى صورة انفجار ، بلا تمهيد ولا مناسبة ظاهرة . خرج به عن الزمان والمكان . ألقى به فى جحيم فتوثب بإرادة من حديد وحطم حاجز الكذب . وقف كصاروخ ، وقال بصلابة ورفض كالمجنون :

ـ إنى صاحب الرسالة . .

ـ ارتسمت الدهشة على وجه حمدون وتساءل :

ـ أى رسالة؟

ـ رسالة الاتهام التى أرسلت إلى المحقق عقب القبض عليك!

ساد صمت كئيب ثقيل . رماه بنظرة بليدة ، تساءل :

ـ أنت؟!

ـ نعم . . وأعرف أنك اعترفت قبل وصولها ولكننى أنا الذى أرسلتها . .

ازدرد ريقه وسأله :

ـ لم؟

ـ خدمة للعدالة فى الظاهر ولكن لأستولى على زوجتك فى الحقيقة!

فتساءل حمدون بغموض :

ـ وتزوجت بدرية؟

ـ كلا . ليس بوسعنا أن نسيطر على خطة كاملة ، إذ إن غيرنا يشاركنا ونحن لا ندرى فى تأليفها .

وساد الصمت كغلاف لانفعالات شتى ولكن عزت رجع من مغامرته الجنونية بشيء من الهدوء . . وكثير من الاستسلام ، حتى إنه سأله فى النهاية :

ـ ما رأيك فيما سمعت؟

فأجاب بازدراء :

ـ إنك قذر ولكنك لست أقذر من كثيرين . . ولم يغضب ، تلقى الذم ضمن سيال مرتعش من نشوة مبهمة . ووقف على حافة التحدى بقلب لا يخلو من جذل وإلهام . . وإعرابا عن حاله الجديدة قال بصوت لا أثر للاستياء فيه :

ـ أمامنا فرصة لنسيان الماضى .

فتساءل حمدون بوجوم :

ـ ألم يكف ربع قرن للنسيان؟

ـ كلا .

ـ ماذا تقصد؟

ـ أن نعالج أمورنا بروح جديدة .

ـ أتريد أن توحد مصائرنا مرة أخرى؟

ـ بعزيمة صادقة .

فقال بازدراء :

ـ إنك تبحث عن كفارة وإنى احتقر ذلك .

ـ لم جئتنى؟

ـ لم يساورنى فيك شك .

ـ لقد حطمنا أنفسنا فيما مضى وعلينا أن نحاول البناء .

فقال بازدراء أشد :

ـ على أن أبصق على وجهك . .

فابتسم عزت وهو نشوان بقدرته على الاحتمال :

ـ إنى مسئول عنك .

ـ إنك لا تستطيع أن تحمل مسئولية حشرة .

ـ بل يجب أن تعيد التفكير .

ـ لن أراك بعد اليوم .

ـ كيف تواجه الحياة؟

ـ هل طرحت هذا السؤال على ابنك؟

تغلغل الألم حتى جذور قلبه فأمسك عن الكلام على حين واصل حمدون قائلا :

ـ أى تسامح من ناحيتى يعنى أن عمرى ضاع هباء .

فقال عزت بأسى :

ـ إنى أفكر فى بناء جديد يتسع لحياة صحية تضم حمدون وعزت وبدرية وسيدة .

ـ تحاول أن تجعل منا أدوات لخلق السلام لنفسك كما سبق أن جعلت منا أدوات تخريب لتشيد فوق أطلالنا السعادة التى رفضتك .

فقال عزت بحرارة :

ـ لقد نلت الجزاء وأكثر . .

ـ لو صح ذلك ما فكرت فينا قط .

وأخذ حمدون يقوم معتمدا على عصاه الغليظة ذات الكعب المطاط فقال عزت برجاء :

ـ تخل عن عنادك .

استقام ظهره على مهل . . تحرك للذهاب . . تساءل عزت :

ـ كيف تواجه الحياة؟

فقال وهو لا يتوقف :

ـ كما يواجهها ابنك .

وخفق قلبه فسأله بلهفة :

ـ أنت تعرف عنه أشياء ، ماذا تعرف عن ابنى؟

فقال وهو يعبر العتبة :

ـ لا تسأل عما لا يعنيك!

٢٧

يقول الراوى :

إن عزت صار شخصا آخر . منذ ذهاب حمدون تواجد عزت الأول وعزت الآخر متجاورين فى مكان واحد . صورتان متطابقتان تماما غير أن الأول رمق الآخر بدهشة وحيرة ، توجس منه خيفة واعتقد أن الآخر يتوجس منه خيفة أيضا .

وتساءل كيف يمضى التيار بهما وهما فى قارب واحد؟ لقد اعتاد أن ينفرد برأيه ربع قرن من الزمان وذاك الآخر يتصرف تصرف الشركاء ويعتد بنفسه لحد التحدى . وسمعه يقول :

ـ لن أستمر . .

فسأله بحذر :

ـ ماذا تعنى؟

لكنه لم يجبه . لم يبد عليه أنه يهتم بوجوده أو يشعر به . فقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لن أستمر ، أصبح ذلك مستحيلا . .

وإذا به يندفع فى اجراءات لم تجر على بال الأول ، قال لفرج يا مسهل :

ـ إنى ذاهب ، لك أن تدير الملهى إذا شئت . وحدجه فرج يا مسهل ببصر ذاهل فقال الآخر :

ـ سأبيع أثاث شقتى والتحف وخلافه .

فقال له عزت الأول :

ـ لا حق لك فى شىء من ذلك .

ولكن الآخر تصرف تصرف المالك الأوحد . وأدرك الأول أنه لا قبل له بمعارضته فأوعز إلى فرج يا مسهل بإطاعته وأن يوهمه بأنه يصدع بأمره وأن يبقى كل شىء على حاله . وأخيرا عانق الآخر فرج يا مسهل وهو يودعه فقال عم فرج :

ـ رجوعك إلى الحارة هو ما اقترحته عليك من بادئ الأمر .

فدهش الأول وسأله :

ـ أنرجع حقا إلى الحارة؟

وتجاهله الآخر كعادته ومضى إلى التاكسى . وقبل أن يتحرك التاكسى قال الآخر لفرج :

ـ قلبى يحدثنى بأننى سأحظى ذات يوم برؤية ابنى سمير .

فقال العجوز :

ـ وستجده على خير ما تتمنى له .

* * *

مضى التاكسى فى طريقه إلى الحارة . الآخر متخذا مجلسه داخله والأول يتبعه عن كثب . وقف التاكسى عند المدخل فدخل الاثنان الحارة مشيا على الأقدام . دهش الأول وقال لنفسه ليس من سمع كمن رأى . شد ما تغيرت الحارة . جددت أرضها فحل الأسفلت محل الحجارة . رشقت المصابيح بالجدارن . اختفت الخرائب وشيدت مكانها مساكن ومدرسة . حقا إنها تبدو جديدة ، فتياتها يخطرن فى الفساتين سافرات . لم يبق على حاله إلا القبو والحصن القديم فوقه . عمارات ست عين طليت من جديد . أما باب

دارها فلاذ بمكره تحت التمساح المحنط لا ينم أديمه الخشن عن الفردوس المترامى وراءه. لم ينتبه لهما أحد. لم يعرفهما أحد. غريبان فى حارة غريبة، سأله:

ـ ألم يكن الأوفق أن نسافر إلى الخارج؟

لكن الآخر طرق الباب. دخل بثقة كمن يدخل بيته. عرفته خادمة عجوز فهللت فقال الأول:

ـ عما قريب سترى عين. ماذا عندك من قول لها؟

وانجذب ـ متناسيا الآخر ـ لروائح الياسمين والحناء. ورأى قطة من جيل جديد لا بركة ولا نرجس ولا انعام ولا أم الليل ولا صباح.

ـ ها هى سيدة!

ظهرت فى الممشى الذى شدت منه قديما إلى المذبح. ما أشبهها اليوم بأمها فى كهولتها ولكنها نحيلة شاحبة. حزينة إلى الأبد. أنا المعتدى لا أنت. ولكنها ترنو إليك أنت وكأنها لا ترانى. ولكنكما تترامقان صامتين تحت ضغط الذكريات. ثم يقول الآخر:

ـ كيف حالك يا سيدة؟

لم ترد من شدة الانفعال. اغرورقت عيناها الذابلتان. لعل التاريخ اقتحمها فى دقيقة واحدة، ولكنها غمغمت أخيرا:

ـ تفضل فى الشرفة فالجو هناك ألطف.

إنه الأصيل وآخر الخريف ولكن اليوم دافئ وجلس على الأريكة القديمة، كل شىء تغير إلا الدار. وهناك الخميلة التى شهدت عبث الطفولة. وتساءل الآخر:

ـ أين أمى؟

ـ فى حجرتها.

ـ ألم تدر برجوعى؟

سمع أنفاسها بدلا من الجواب فكرر السؤال.

قالت:

ـ إنها لا تغادر الفراش.

ـ مريضة؟!

ـ كلا.. إنه العمر..

كان يجب أن تقودينى إليها.

ـ يجب أن تعرف أشياء قبل ذلك فرمقها متسائلا فقالت:

ـ لقد فقدت البصر .

قطب الآخر منزعجا ، وأدرك الأول ما غاب عن فرج يا مسهل . واستطردت سيدة :

ـ وفقدت أيضا السمع !

وقف الآخر مضطربا متسائلا :

ـ ألم يعالجها طبيب فى الوقت المناسب؟

ـ بلى ، أقل ما يجب ، ولكنها إرادة الله .

وقال الأول بحزن :

ـ لا عودة بلا ثمن .

* * *

اندفع الآخر إلى حجرة عين . رأى وجهها فوق الغطاء الأخضر على الفراش العتيق ذى الأعمدة الأربعة . انحسر المنديل الأبيض عن خصلات فضية . انطرح الوجه نحيلا طويلا محنطا بالشيخوخة . هتف :

ـ أمى !

وانكبا على جبينها فلثماه فى وقت واحد . ندت عنها حركة رقيقة وهمست :

ـ سيدة؟ !

فقال الأول مخاطبا الآخر :

ـ رحلة خاسرة .

قال الآخر بحزن :

ـ أنا عزت يا أمى .

فقال الأول :

ـ لن تخاطب إلا نفسك .

وقالت سيدة :

ـ لا تكف عن الدعاء لك ولسمير .

فقال الأول :

ـ فلنسافر إلى الخارج .

* * *

رجع الآخر بصحبة سيدة إلى الشرفة والمغيب يهبط متمهلا . قال :

ـ ستعرفنى بطريقة أو بأخرى .

فقالت سيدة :

ـ بالتأنى واللطف حتى لا تنفعل .

وابتعدت قليلا حتى كادت تلتصق بالأول وهى لا تدرى وقالت :

ـ يجب أن أذهب .

فسألها الآخر :

ـ إلى أين؟

ـ أى مكان .

فقال بحزم :

ـ هنا بيتك .

ـ ولكن . .

فقاطعها :

ـ إنه بيتك وسيكون بيتك أكثر .

فسأله الأول :

ـ ماذا تعنى بالضبط؟!

أما سيدة فقد رمت الآخر بنظرة متسائلة ، فسألها مبتسما :

ـ أيداخلك شك فى أننى تغيرت؟

فهمست :

ـ كل شىء تغير!

فقال له الأول :

ـ من الآن فصاعدا عليك أن تنظم قصيدة طويلة فى الرثاء .

وتساءلت سيدة :

ـ أما من جديد عن سمير؟

فقال الآخر :

ـ لا جديد ، إنه بعيد ، أمى بعيدة أيضا .

ـ لو أعرف فقط إنه حى يرزق!

فقال الآخر متأثرا بإلهام منبعث من الأعماق :

ـ هو كذلك وسوف نتلاقى ذات يوم .

فقال الأول :

ـ لابد من السفر إلى الخارج .

وجلست سيدة لأول مرة غير بعيدة من الآخر . وراحا ينظران إلى الحديقة معا .

وشعر الأول بأنه آن له أن يذهب . غير أنه سمع سيدة وهى تقول :

أوقفت ست عين أملاكها للخير على أن ينفذ ذلك بعد انقضاء الأجل .

فتفكر الآخر قليلا ثم قال فى غير مبالاة :

ـ خير ما فعلت!

ـ وعينتك ناظرا للوقف ومن بعدك سمير .

فتمتم :

ـ عظيم .

قالت وهى تفعل ذلك عنك «سيمارس الخير رضى بذلك أو أبى!» .

فابتسم الآخر وقال :

ـ سأفعله راضيا .

وقال له الأول :

ـ أستودعك الله .

غادر الدار . غادر الحارة . مضى إلى شارع دوبريه . استراح قليلا فى شقته . ذهب إلى الملهى والمطربة تفتتح السهرة منشدة :

يا ورد على فل وياسمين الله عليك يا تمر حنة .

ألقى نظرة على الصالة المكتظة ثم اتجه إلى حجرة الإدارة . وما إن انفرد بنفسه حتى قال :

ـ عندما يرجع سمير سيجد ثلاثة آباء فى انتظاره ، أنا والآخر وحمدون ، سيختار أباه بنفسه كما اختار حياته .

وتفكر مليا ثم قال :

ـ سأسافر إلى الخارج حال انتهاء الشتاء .

٢٨

يقول الراوى :

إنه فى ليلة القدر انبعث فى الست عين نشاط غير متوقع . رفضت أن تمس عشاءها من

الزبادى وسألت سيدة أن تجلسها . كسرت سيدة وراء ظهرها وسادة طرية وأجلستها نصف جلسة .

وقالت عين وهى تبتسم :

ـ سيطيب الجو وتشرق الأرض بنور ربها فارعوا العصافير بالرحمة . .

وتمادت فى الابتسام وهى تقول :

ـ سأغنى أغنية عشقتها فى صغرى .

وراحت تغنى بصوت ضعيف مثير :

يمامة حلوة ومنين أجيبها

ثم هتفت :

ـ إنى أرى . . أرى بكل وضوح . .

اقترب منها الآخر وسألها بلهفة :

ـ هل ترينني يا أمى . . ؟

ولكنها استطردت دون أن تشعر به :

ـ إنى أرى الطيبين الذين ذهبوا . . إنهم ينادوننى . . سمعا وطاعة . . عين قادمة . .

* * *

يقول الراوى :

إن الست عين لم تمت . . رغم أن الذين عاصروا وفاتها لم يعرفوها أو كذلك كانت أغلبيتهم . ما عرفوا إلا ما يتناقله الرواة ولكن ست عين لم تمت . . وحتى اليوم يطلق الناس على المستشفى الذى قام مكان دارها . . . «مستشفى الست عين» .

أُفْـرَاحُ القُبّة

روايـــة

المحتويـــات

طـــارق رمضـــان

سبتمبر، مطلع الخريف، شهر التأهب والتدريب. صوت سالم العجرودى المخرج يتدفق. يتدفق فى حجرة المدير المغلقة النوافذ المسدلة الستائر. لا صوت يتطفل عليه إلا أزيز خفيف يند عن جهاز التكييف. صوته يمرق فى إطار صمتنا اليقظ قاذفًا بالصور والكلمات. نبراته ترق وتخشوشن، تتلون بشتى الأصباغ، محاكية أصوات الرجال والنساء. قبل ترديد أى حوار يرمق صاحب الدور أو صاحبته بنظرة تنبيه ثم يسترسل. وتنبثق الصور من واقع ثقيل صلب يجتاحنا بصراحة مرعبة. يجتاحنا بتحد مخيف. سرحان الهلالى المدير يجلس على رأس المائدة المستطيلة المكللة بالقطيفة الخضراء. يجلس كحارس صارم. يتابع التلاوة بوجه جامد هادئ قابضًا على سيجار الدينو بشفتين ممتلئتين يحدق بوجهه الصقرى فى وجوهنا المشرئبة نحو المخرج. يصادر بجديته البالغة أى مقاطعة أو تعليق. يتجاهل انفعالاتنا المتوقعة ويدعونا بصمته البارد إلى تجاهلها أيضًا. ألم يدرك الرجل معنى ما يلقى علينا؟. الصور تتماوج أمام مخيلتى مخضبة بالدماء والوحشية. أريد أن أتنفس بكلمة أتبادلها مع أحد. سحابة الدخان المنعقدة فى الحجرة تزيد من غربتى..

أغوص فى الرعب. وأحيانًا بنظرة بلهاء بالمكتب الفخم وراءنا أو بصورة من الصور المعلقة. صورة درية وهى تنتحر بالأفعى. صورة إسماعيل وهو يخطب فوق جثة قيصر. ها هى المشنقة تتخايل لعينى. ها هى الشياطين تتبادل الأنخاب.

وعندما نطق سالم العجرودى بجملة «يسدل الستار» اتجهت الرءوس نحو سرحان الهلالى مترعة بالذهول.

يقول المدير:

ـ يسرنى أن أستمع إلى الآراء.

وتقول درية نجمة المسرح باسمة:

ـ فهمت الآن لم لَم يحضر المؤلف جلسة القراءة..

وأقول أنا، وأنَا أحلم بتدمير العالم:

ـ المؤلف؟!.. ما هو إلا مجرم علينا تسليمه إلى النيابة..

يرد على الهلالى بنبرة آمرة:

ـ الزم حدك يا طارق، انس كل شىء إلا أنك ممثل..

ـ ولكن..

يقاطعنى بغضبه الجاهز دائمًا:

ـ ولا كلمة!

ووجه عينيه نحو المخرج فقال المخرج:

ـ المسرحية مرعبة..

ـ ماذا تعنى؟

ـ ترى كيف يكون وقعها فى الجمهور؟

ـ لقد وافقت عليها وأنا مطمئن.

ـ لكن جرعة الرعب جاوزت الحد.

وقال إسماعيل نجم الفرقة:

ـ دورى بشع!

فقال الهلالى:

ـ لا يوجد من هو أقسى من المثاليين، هم المسئولون عن المذابح العالمية، دورك تراجيدى من الطبقة الأولى..

فقال سالم العجرودى:

ـ قتل الطفل سيفقده أى عطف..

ـ دعنا الآن من التفاصيل، ممكن حذف دور الطفل، لقد نجح عباس يونس فى إقناعى أخيراً بقبول مسرحية له، وشعورى يلهمنى بأنها ستكون من أقوى المسرحيات التى قدمناها فى عمر مسرحنا الطويل..

فقال فؤاد شلبى الناقد :

ـ إنى أشاركك شعورك ولكن يجب حذف دور الطفل .

فقال الهلالى :

ـ يسرنى أن أسمع منك ذلك يا فؤاد ، إنها مسرحية متقنة وصادقة ومثيرة . .

فقلت بحدة :

ـ ما هى بمسرحية . إنها اعتراف ، هى الحقيقة ، نحن أشخاصها الحقيقيون . .

فقال الهلالى بازدراء :

ـ ليكن ، أتحسب أن ذلك فاتنى؟ . . لقد رأيتك كما رأيت نفسى ، ولكن من أين للجمهور أن يعرف ذلك؟

ـ ستتسرب الأخبار بطريقة أو بأخرى . .

ـ ليكن ، الضرر الأكبر سيحيق بالمؤلف نفسه ، بالنسبة لنا سنضمن مزيدًا من النجاح ، أليس كذلك يا فؤاد؟

ـ أعتقد ذلك!

فابتسم الهلالى لأول مرة وقال له :

ـ يجب أن يتم كل شىء فى لباقة وكياسة .

ـ طبعًا . . طبعًا . .

فرجع سالم العجرودى يتمتم :

ـ الجمهور! . . ترى كيف يستقبلها؟

فقال الهلالى :

ـ هذه مسئوليتى أنا .

ـ عظيم . . سنبدأ العمل فورًا .

الجلسة تنفض . ألبث أنا وحدى مع المدير . لى دلالة عليه بحكم الزمالة والصداقة والجيرة القديمة . قلت له وأنا فى غاية الانفعال :

ـ علينا أن نعرض الموضوع على النيابة .

فقال متجاهلاً انفعالى :

ـ ها هى فرصة لتمثل فى المسرحية ما سبق أن عشته فى الحياة .

ـ إنه مجرم لا مؤلف .

ـ وهى فرصة ستخلق منك ممثلاً مهما بعد عمر طويل مضى وأنت ممثل ثانوى .

ـ إنها اعترافات، كيف نترك المجرم يفلت من يد العدالة؟

ـ إنها مسرحية مثيرة واعدة بالنجاح وذاك أقصى ما يهمنى يا طارق.

ـ فاض قلبى بالغضب والمرارة. انتشرت أحزان الماضى كالدخان بكافة هزائمه وآلامه..

إنها فرصتى للتنكيل بعدوى القديم.

* * *

ـ من أدراك بهذه الأسرار!

ـ عفواً.. سنتزوج!

* * *

ويتساءل سرحان الهلالى:

ـ ماذا أنت فاعل؟

ـ يهمنى فى الاعتبار الأول أن ينال المجرم جزاءه.

فقال بضيق:

ـ اجعل الاعتبار الأول لإتقان الدور.

فقلت بتسليم:

ـ لن يفوتنى ذلك.

* * *

يقتحمنى انفعال قهار عند رؤية النعش فأجهش فى البكاء مغلوباً على أمرى.. كأنه أول نعش أراه.. الدموع فى عينى مثلى مثيرة للدهشة. ألمح السخريات من خلال الدمع مثل ثعابين الماء. ليس هو الحزن أو العظة ولكنه جنون عابر. أتجنب النظر إلى المشيعين خشية أن ينقلب البكاء إلى هستيريا من الضحك.

* * *

أى كآبة تغشانى وأنا أخترق باب الشعرية. منذ سنوات لم تقترب منه قدماى. حى التقوى والخلاعة. أغوص فى زحام وضوضاء وغبار النساء والرجال والصبية. تحت سقف الخريف الأبيض. كل شىء يلوح لعينى فى ثوب الازدراء والكآبة. حتى الذكريات منفرة جارحة بما فيها مجيئى بتحية لأول مرة وهى تتأبط ذراعى فى مرح. مثل الهوان فى الظل ومعاشرة الصعاليك والقبوع الحقير تحت جناح أم هانى. اللعنة على الماضى والحاضر. اللعنة على المسرح والأدوار الثانوية. اللعنة على أول نجاح تأمله من لعب فى مسرحية عدو مجرم وأنت تعلو الخمسين من العمر. ها هو سوق الزلط النحيل

الطويل مثل ثعبان . ها هى بواباته المتجهمة العتيقة وها هما عمارتاه الجديدتان الوحيدتان . والبيت القديم رابض مكانه بما يطويه فى صدره من تاريخ أسود وأحمر . لقد استجد جديد لم يكن فتحولت المنظرة الخارجية إلى مقلى يجلس فيها للبيع كرم يونس وإلى جانبه حليمة زوجته . شد ما غيرهما السجن . وجهان هما صورتان مجسدتان للامتعاض . ينغمسان فى الكدر على حين يأخذ نجم ابنهما فى اللمعان . لمحنى الرجل . نظرت المرأة نحوى أيضًا . لا حب ولا ترحيب هذا ما أسلم به . رفعت يدى بالتحية فتجاهلها الرجل وقال بجفاء :

ـ طارق رمضان ! . . ماذا جاء بك ؟

لم أتوقع استقبالاً أفضل . اعتدت ألا أبالى . وقفت المرأة منفعلة ثم سرعان ما جلست على كرسيها المجدول من القش وهى تقول بمرارة ساخرة :

ـ أول زيارة مذ رجعنا إلى سطح الأرض .

ما زالت قسمات وجهها تتشبث بذكريات جمالها . الرجل يقظ مفيق رغم أنفه . من هذين ولد المؤلف المجرم .

قلت كالمعتذر :

ـ الدنيا شبكة من الهموم وما أنا إلا غريق من الغرقى . . .

فقال كرم يونس :

ـ جئت من الماضى كذكرى من أسوأ ذكرياته . .

ـ لست أسوأ من غيرى . .

لم يدعنى أحد للجلوس فى المقلى فلبثت واقفًا فى موقف الزبائن ، وشجعنى ذلك على التمادى فيما جئت من أجله . وتساءل كرم فى جفاء :

ـ هه ؟

فقلت بتحد :

ـ معى أخبار سيئة . .

فقالت حليمة :

ـ لم نعد نحزن للأخبار السيئة . .

ـ حتى لو تكن عن الأستاذ عباس يونس ؟

فقلقت نظرتها فى حدة وهتفت :

ـ لن تزال عدوه حتى الموت !

وقال كرم :

ـ إنه ابن بار، هو الذى أنشأ لنا هذه المقلى بعد أن رفضت العودة إلى عملى القديم بالمسرح . .

وقالت حليمة بفخار :

ـ وقد قبلت مسرحيته!

ـ قرأت علينا أمس . . .

ـ رائعة ولاشك!

ـ مرعبة . . ماذا تعرفان عنها؟

ـ لا شىء .

ـ ما كان بوسعه أن يخبركما . .

ـ لماذا؟

ـ إنها باختصار تدور فى بيتكم هذا، مكررة ما وقع فيه بالحرف الواحد، كاشفة فى الوقت نفسه عن جرائم خفية تفسر الوقائع تفسيراً جديداً . .

تساءل كرم بجدية لأول مرة :

ـ ماذا تعنى؟

ـ سترى نفسك كما سنرى أنفسنا، كل شىء . . كل شىء، ألا تريد أن تفهم؟

ـ حتى السجن؟

ـ حتى السجن، وموت تحية، ولكنها تدلنا على من وشى بنا إلى الشرطة، كما تثبت لنا أن تحية قتلت ولم تمت!

ـ ما هذا السخف؟!

ـ إنه عباس أو من حل محله فى المسرحية من يفعل ذلك . .

تساءلت حليمة بحدة :

ـ ماذا تعنى يا عدو عباس؟

ـ إنى أحد ضحاياه، أنتما ضحيتان أيضاً . .

فتساءل كرم :

ـ أليست مسرحية؟

ـ إنها لا تدع مجالاً للشك فيمن وشى بكما ولا فيمن قتل . .

ـ كلام فارغ . .

وقالت حليمة :

ـ عنده تفسير ولاشك . .

ـ اسألاه . . شاهدا المسرحية عند عرضها . .

ـ مجنون . . لقد أعماك الحقد . .

ـ بل الجريمة . .

ـ ما أنت إلا مجرم، وما هى إلا مسرحية . .

ـ إنها الحقيقة . .

ـ حاقد مجنون . . ابنى عبيط ولكنه ليس خائنًا ولا قاتلاً . .

ـ هو خائن وقاتل وليس عبيطًا . .

ـ هذا ما تتمناه .

ـ يجب تسليم قاتل تحية إلى العدالة . .

ـ إنه الحقد القديم . هل أكرمت تحية حينما كانت بيدك؟

ـ كنت أحبها وكفى .

ـ حب البرمجية . .

صحت بغضب :

ـ إنى خير من زوجك وخير من ابنك . .

فسألنى كرم بجفاء ومقت :

ـ ماذا تريد؟

فقلت ساخرًا :

ـ أريد لبًا بقرش .

فهتف بى :

ـ رح فى داهية . .

* * *

رجعت أخوض فى أمواج الأطفال والنساء . تأكد لدى أن عباس لم يشر إلى موضوع مسرحيته لوالديه مما يشهد على تجريمه . لكن لم يفش سرًا خطيرًا لم يشك فيه أحد؟ . أهى اللهفة على النجاح بأى ثمن؟ . أيلقى جزاءه شهرة بدلاً من المشنقة؟ .

* * *

ـ طارق . . ماذا أقول؟ . . القسمة والنصيب!

* * *

عند ناصية شارع الجيش التفت صوب العمارة ثم ملت نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويجن ويصاب بالجدرى. نلت جزاءك يا تحية.. من الإنصاف أن يقتلك من هجرتنى من أجله. سيستفحل الزحام حتى يأكل الناس بعضهم بعضًا. لولا أم هانى لتشردت فى الطرقات. المشنقة. هى قمة المجد يا عباس. لا ميزة لك إلا الفحولة. هزيمتها لا تنسى. ما معنى أن تعيش ممثلاً من الدرجة الثالثة؟. فى الأيام الحلوة نما الحب وراء الكواليس.. فقهت الغريزة الحية لغة الفحولة الخفية. نلت أول قبلة والموت يزحف على راسبوتين.

ـ تحية... إنك تستحقين أن تكونى نجمة لا ممثلة ثانوية كحالى..

ـ حقًا؟!.. إنك تبالغ يا أستاذ طارق..

ـ بل شهادة خبير..

ـ أم عين الرضا؟

ـ حتى الحب لا يؤثر فى حكمى!

ـ الحب؟!

كنا نسير فى شارع جلال فى النصف الثانى من الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:

ـ طبعًا.. أتريدين هذا التاكسى؟

ـ آن لى أن أرجع إلى بيتى..

ـ وحدك؟

ـ لا أحد معى فى شقتى الصغيرة.

ـ أين تقيمين؟

ـ شارع الجيش.

ـ نحن جيران تقريبًا، إنى أقيم فى حجرة بيت كرم يونس فى باب الشعرية..

ـ ملقن الفرقة؟

ـ نعم.. هل تدعيننى إلى شقتك أو أدعوك إلى حجرتى.

ـ وكرم وحليمة؟

ضحكت فابتسمت. تساءلت:

ـ لا أحد فى البيت سواكم؟

ـ ابنها الوحيد، تلميذ.

جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبى .

* * *

لم يستدعنى سرحان الهلالى ونحن منهمكون فى التدريب؟

يقف مستنداً إلى مائدة الاجتماعات فى تيار الشمس الدافئ يبتدرنى :

ـ اعتذرت مرتين عن التدريب يا طارق . . ؟

لم أجد ما أقوله فواصل بضيق :

ـ لا تخلط بين الصداقة والعمل . . ألم يكفك أنك حملت عباس على الاختفاء؟

ـ لعله هرب بعد افتضاح أمره .

ـ ما زلت مصراً على أفكارك الغريبة؟

ـ إنه مجرم ما من شك فى ذلك . .

ـ إنها مسرحية ، وإنك ممثل لا وكيل نيابة . .

ـ ولكنه مجرم وأنت تؤمن بذلك . .

ـ الحقد يعمى بصيرتك .

ـ لست حقوداً . .

ـ لم تشف من خيبة الحب بعد . .

ـ إننا نتدرب لنهيئ النجاح للمجرم .

ـ إنه نجاحنا نحن ، وهى فرصتك للضوء بعد عمر طويل فى الظل . .

ـ أستاذ سرحان . . الحياة . .

ـ لا تحدثنى عن الحياة . . لا تتفلسف . . إنى أسمع ذلك كل ليلة فى المسرح حتى مللته . إنك تهمل صحتك . . الجنس والمخدرات وسوء التغذية . . ولا تتورع عن تمثيل دور الإمام فى مسرحية الشهيدة وأنت سكران!

ـ أنت الوحيد الذى عرف ذلك . .

ـ أكثر من ممثل شم رائحة فمك . . هل تضطرنى إلى . .

قاطعته بجزع :

ـ لا تعرض صداقة العمر للهوان . .

ـ ولحنت فى آية وهو شىء لا يغتفر .

ـ مر كل شىء بسلام .

ـ أرجوك . . أرجوك . . انس هوس التحقيق الخرافى واحفظ دورك جيداً . . إنه فرصة العمر . .

وأنا أغادر الحجرة قال لى :

ـ عامل أم هانى معاملة أفضل . . ستعانى كثيرًا إذا هجرتك . .

اللعنة . . تماثلنى فى السن ولا تعرف الشكر . شهدت موت تحية دون أن تدرى إنها قتلت . سأمثل كل ليلة دور العاشق المهجور . . سأبكى مرارًا وتكرارًا أمام النعش . . ماتت دون أن تندم . لم تتذكرنى . . لم تعرف أنها قتلت . . قتلها المثالى . . إنه ينتحر فى المسرحية ولكن يجب أن يشنق فى الحياة . . ها هى جريمة تخلق مؤلفًا وممثلاً فى آن . .

ـ ألم تحضر تحية؟

ـ كلا .

ـ لم أقابلها فى المسرح .

ـ لن تذهب إلى المسرح .

ـ ماذا تعنى يا عباس؟

ـ أستاذ طارق . . أرجوك . . لن تحضر تحية إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح . .

ـ من أدراك بهذه الأسرار كلها؟

ـ عفوًا . . سنتزوج . .

ـ هه؟!

ـ اتفقنا على الزواج .

ـ يا بن . . أنت مجنون؟ . . ماذا تقول؟

ـ حلمك . . نريد أن نكون شرفاء معك . . دعنى . .

لطمته . . تنمر بغتة بوجه يموج بالعدوان ولكمنى . شاب قوى رغم السحابة على عينه اليسرى . دار رأسى . جاء كرم يونس وجاءت حليمة . . تساءلا :

ـ ماذا حدث؟

صرخت :

ـ شىء مضحك . . رواية هزلية . . المحروس سيتزوج من تحية . .

تساءل كرم ببرود مدمن ذاهل دائمًا :

ـ حقًا؟!

وهتفت حليمة مخاطبة ابنها :

ـ تحية : ! . . أى جنون . . إنها أكبر منك بعشرة أعوام . .

لم ينبس ، صحت أنا :

ـ لعب أطفال . . سأمنع هذا بالقوة . .

فصاحت حليمة :

ـ لا تزد الأمور سوءاً . .

فصرخت بجنون :

ـ سأهدم البيت على من فيه . .

فقالت لى ببرود :

ـ خذ ملابسك ومع السلامة . .

فغادرت المكان وأنا أقول بتحد :

ـ باق على أنفاسكم حتى النهاية . .

* * *

ذبيح الكرامة، مهين الفحولة، مضغوط القلب، مهجور الأمل يشتعل قلبه من جديد بعد أن ظن أن الروتتين قد أخمده. كنت أتوهم أن تحية ملكى مثل الحذاء المطيع كنت أنهرها وأهينها وأضربها، كنت أتصور ألا حياة لها بدونى وأنها تفرط فى حياتها قبل أن تفرط فىّ، فلما تلاشت بحركة مباغتة ماكرة قاسية تلاشى معها الأمن والثقة والسيادة وحل الجنون. وبزغ الحب من ركن مظلم غائص فى الأعماق ينفض عن ذاته سبات البيات الشتوى ليبحث عن غذائه المفتقد. لاحت خلف شراعة الباب تلبية لنداء الجرس. عكست عيناها نظرة ارتباك مثل نطق ملعثم ولكنها لم تتراجع متحدية أزمة مصيرها. تفرست فى الصورة الجديدة المتحررة من الإذعان الأبدى، المتطلعة إلى الجديد وهى تنزلق فوق الحد الفاصل الذى يستثير كوامن الجريمة.

ـ افتحى الباب يا تحية.

ـ أنت تعرف الآن كل شىء.

ـ هل تتركيننى فى الخارج كالغريب؟

ـ طارق، ماذا أقول؟، لعله خير لكلينا، وهو النصيب والقسمة . .

ـ إنه عبث وجنون.

ـ كان علىّ أن أخبرك بنفسى . .

ـ ولكنى لا أصدق . . افتحى . .

ـ كلا . . إنى أعاملك بشرف . .

ـ ما أنت إلا عاهرة!

ـ حسن . . دعنى فى سلام . .

ـ لن يحدث ذلك أبدًا . .

ـ سوف نتزوج فى الحال . .

ـ تلميذ . . مجنون . . نصف أعمى . .

ـ سأجرب حظى . .

ـ افتحى الباب يا مجنونة .

ـ كلا . . لقد انتهى كل شىء . .

ـ مستحيل . .

ـ ذاك ما حدث .

ـ لن تعرفى الحب إلا بين يدى . .

ـ لا يمكن أن تمضى الحياة على ذاك النحو .

ـ لم تبلغى بعد سن اليأس فلم ترتكبين الحماقات؟

ـ لنفترق بسلام . . أرجوك . .

ـ إنها نوبة يأس خادعة . .

ـ كلا . .

ـ إنى خبير بالأطوار الشاذة التى يتعرض لها أمثالك .

ـ سامحك اللّه . .

ـ يا مجنونة . . متى تغيرت؟

ـ لم أرتكب فى حقك أى خطأ . .

ـ عشت الكذب فترة ما . .

ـ لا تتماد فيما لا فائدة منه .

ـ إنك أول عاهرة . .

ولكنها أغلقت الشراعة .

* * *

بقيت فى بيت كرم يونس . عباس يونس ذهب . حل محل أبيه فى وظيفة الملقن بعد أن استغنى الأب عنها اكتفاء بما يدره عليه بيته من أرباح وفيرة . توتر الجو فى بادئ الأمر فتدخل سرحان الهلالى وهمس فى أذنى :

ـ لا تفسد علينا سهرتنا . . اعقل . . بإشارة تسترد أم هانى . . دخلها ضعف دخل تحية . .

الهلالى مجنون نساء ولكنه لا يعرف الحب . عاشر تحية مرة أو مرتين . لا يعترف بما

يسمع عن الحب وآلامه . . وهو يأمر وينهى فى الحب كأنه أحد الشئون الإدارية ويطالب بالتنفيذ فى الحال. لا أشك فى نواياه الطيبة نحوى، وكم هيأ لى من فرص فوق خشبة المسرح ضاعت كلها بسبب قصور موهبتى، ولكنه يؤمن بنجاحى فى مسرحية عباس. وقد بشر أم هانى. خياطة الفرقة ـ برجوعى إليها فرجعت إليها فراراً من الوحدة وتدعيماً لحالى المالية المتوعكة، وقبل أن أبرأ من التجربة المريرة. لم أتوقع لزواج تحية أى استمرار أو نجاح. كانت دائماً كثيرة العلاقات تستكمل أجرها الصغير. لم تحب أحداً سواى رغم فقرى. وقد كذبت توقعاتى فحافظت على الزوجية حتى وفاتها. غير أن المسرحية هتكت ما خفى من سرها. فى المسرحية تعترف ـ وهى على فراش المرض ـ بأنها باعت نفسها لضيف أجنبى، وعند ذاك يقرر زوجها ـ فى المسرحية ـ قتلها وذلك بأن استبدل بالدواء حبوب أسبرين لا جدوى منها. إذن قد صدقت توقعاتى وأنا لا أدرى، وقتلها الذى أزعجنا بمثاليته، الذى أرجو ألا يفلت من العقاب.

* * *

ـ أى مغامرة!

أجد نفسى وجهًا لوجه مع عباس فى شقته التى كانت ذات يوم شقة لتحية. اندفع إليها فى ذات اليوم الذى قابلت فيه والديه بالمقلى. إنه الآن مؤلف، ووحيد فى الشقة. أخيراً أصبح مؤلفًا بعد رفض العشرات من المسرحيات. مؤلف زائف يسرق الحقيقة بلا حياء. دهش لحضورى. لا تدهش. ما مضى قد انقضى ولكن آثاره تطرح نفسها من جديد. وقد صالح بيننا الهلالى ذات يوم فتصافحنا وما فى القلب فى القلب. جلسنا فى مكتبه ـ الشقة مكونة من حجرتين ومدخل ـ نتبادل النظر فى وجوم حتى قلت:

ـ أنت ولا شك تتساءل عما جاء بى . .

ـ لعله خير.

ـ جئت لأهنئك على المسرحية.

فقال بفتور:

ـ شكراً.

ـ سيبدأ التدريب غداً . .

ـ المدير متحمس لها . .

ـ بخلاف المخرج.

ـ ماذا قال؟

ـ إن البطل قذر جداً وبغيض جداً ولن يتعاطف الجمهور معه.

فهز منكبيه استهانة وإن تجهم وجهه . سألته :

ـ تشهد جلسة القراءة؟

فقال ببرود :

ـ هذا شأنى . .

ـ ألم تقدر أن حوادث المسرحية ستصب عليك مطرًا من الظنون؟

ـ لا يهمنى ذلك .

ـ سيتصورون ولهم الحق أنك قاتل وخائن لوالديك . .

ـ سخف لا يهمنى . .

فانفرط زمامى وقلت بانفعال :

ـ يا لك من قاتل محترف!

فرمقنى بازدراء وتمتم :

ـ ستظل حقيرًا دائمًا وأبدًا .

ـ أتستطيع أن تدافع عن نفسك؟

ـ لست متهمًا كى أطالب بذلك . .

ـ سيوجه لك الاتهام أقرب مما تظن .

ـ إنك أحمق . .

قمت وأنا أقول :

ـ إنها على أى حال تستحق القتل . .

وذهبت متمتمًا :

ـ ولكنك تستحق الشنق أيضًا!

* * *

وجدتنى فى رحاب غضبة هلالية . عندما يغضب سرحان الهلالى ينقلب زوبعة . لمعت أنيابه . لمحت الوهج فى عينيه اللوزيتين الجاحظتين . صاح :

ـ أنت أنت، كما كنت وأنت ابن عشرة، أحمق، لولا حماقتك لاستويت ممثلاً مرموقًا، تأبى إلا أن تتقمص وكيل نيابة، لم زرت عباس يونس أمس؟

هل شكانى إليه الوغد؟ . آثرت الصمت حتى تخف العاصفة .

صاح :

ـ لن تتقن دورك حتى تتفرغ له . .

تمتمت بهدوء :

ـ بدأنا اليوم . .

ثم بهدوء أعمق :

ـ مهم أيضًا أن ينال المذنب جزاءه .

فصاح متهكمًا :

ـ ما من أحد منا إلا وفى عنقه دين من الذنوب يستحق عليها السجن . .

ـ لكننا لم نقتل بعد .

ـ من يدرى؟ . . تحية ـ إن صح أنها قتلت ـ فقد اشترك فى قتلها أكثر من رجل على رأسهم أنت . .

ـ إنه لا يستحق دفاعك عنه .

ـ إنى لا أعتبره متهمًا ، هل لديك دليل واحد ضده؟

ـ المسرحية .

فضحك ساخرًا وقال :

ـ ما من مسرحية تخلو من اتهام ولكن النيابة تطالب بأدلة من نوع آخر . .

ـ لقد انتحر فى المسرحية . .

ـ هذا يعنى أنه لن ينتحر فى الحياة ، وإنه لمن حسن الحظ لنا أن يبقى ويكتب . .

ـ إنه لم يؤلف سطرًا ولن يؤلف سطرًا وأنت أدرى بما قدم لك من مسرحيات سابقة . .

ـ يا طارق رمضان ، لا تكن مملاً ، انتبه لعملك ، وانتهز فرصتك فإنها لن تتكرر . .

* * *

أتدرب على دورى فى مسرحية القاتل . . أستعيد حياتى مع تحية بدءًا من وراء الكواليس .

أنضم إلى البيت القديم بسوق الزلط . الحب فى الحجرة . اكتشاف الخيانة . البكاء فى الجنازة .

ويقول لى سالم العجرودى :

ـ إنك تمثل كما لم تمثل من قبل ولكن احفظ النص جيدًا . .

ـ إنى أكرر ما قيل بالفعل .

فضحك قائلاً :

ـ انس الحياة وعش فى المسرحية . .

عند ذلك قلت له :

ـ من حسن الحظ أن من حقك التغيير . .

ـ لقد غيرت ما اقتضت الضرورة تغييره فحذفت مشهد الطفل .

ـ عندى فكرة .

فرمقنى بضجر ولكنى قلت :

ـ البطلة وهى تحتضر تطلب رؤية عشيقها القديم . .

ـ أى عشيق؟ . . ما من ممثل فى المسرح إلا عشقها حينا . .

ـ أعنى العشيق الذى أمثل دوره . . ويذهب إليها فتعتذر إليه عن خيانتها وتموت بين يديه . .

ـ إنه يقتضى إدخال تغييرات جوهرية على الشخصية وعلى العلاقة بين الزوجين .

ـ ليكن .

ـ إنك تقترح مسرحية جديدة . . البطلة نسيت تمامًا عشيقها القديم . .

ـ غير ممكن وغير طبيعى . .

ـ قلت لك عش فى المسرحية وانس الحياة ، أو تفضل بتأليف مسرحية جديدة فنحن فى زمن مؤلفى النزوة والصدفة . .

ـ ولكنك حذفت الطفل ودوره؟

ـ ذاك شىء آخر ، إنه غير ملتحم بالأحداث ، وقتل وليد برىء خليق بأن يفقد البطل أى عطف .

ـ وقتل زوجة تعيسة؟

ـ اسمع ، مئات من المتفرجين يودون فى أعماقهم قتل زوجاتهم . .

* * *

أليس هذا هو كرم يونس؟ . بلى . إنه يغادر حجرة المدير . لم يكن بقى على عرض المسرحية إلا أسبوعان . وكنت واقفًا أمام مدخل البوفيه أحاور درية نجمة الفرقة وبيد كل منا فنجان قهوة . قلت له وهو يقترب منا فى بدلة قديمة ورقبة البلوفر الأسود تطوق عنقه حتى أسفل الصدغين :

ـ شرفت المسرح . .

فرمقنى شزرا وقال بجفاء :

ـ ابعد عن وجهى . .

وحيا درية تحية عابرة ومضى . . قطعت درية حديثها عن الغلاء .

وقالت :

ـ جاء ولا شك يسأل عن سر اختفاء عباس . .

فقلت بحنق :

ـ ما هو إلا اختفاء مجرم . .

فقالت درية باسمة :

ـ لم يقتل ولم ينتحر .

ـ لن ينتحر ولكنه سيشنق . .

رجعت تقول :

ـ كان يجب أن يقودنا النصر إلى حياة أيسر .

فقلت بسخرية :

ـ لا يحيا حياة يسيرة إلا المنحرفون ، لقد بات البلد ماخوراً كبيراً ، لم كبست الشرطة بيت كرم يونس وهو يمارس الحياة كما تمارسها الدولة؟!

فقالت درية ضاحكة :

ـ نحن فى زمن القومية الجنسية!

ـ إنى رجل منبوذ من أسرتى العريقة لانحرافى فلم تحدق بى الخيبة؟

ـ أيها الخائب الأبدى الذى لم يجد إلا أم هانى حقلاً لاستغلاله!

* * *

ليلة الافتتاح ١٠ أكتوبر . الليل فى الخارج يزفر نسمة لطيفة أما فى الداخل فثمة نذير بجو حار . بين المشاهدين كرم وحليمة ، الهلالى ، فؤاد شلبى ، أنا الوحيد الذى يكرر دوره الذى لعبه فى الحياة فوق الخشبة . إسماعيل يلعب دور عباس . حياة البيت القديم تعرض من جديد بكل قحتها وتلحق بها جرائم جديدة أكثر وحشية . المدير يقامر ويتسلل إلى حجرة نوم حليمة . الفضائح تتعانق وتتوج بالخيانة والقتل . لأول مرة فى حياتى تختتم مواقفى بالتصفيق . النجاح خمر . هل تشاهدنا تحية من وراء القبر؟ . النجاح خمر . الجمهور غارق فى الصمت أو منفجر فى التصفيق . المؤلف المجرم الجبان غائب . أى رد فعل انداح فى جوارح كرم وحليمة؟ . ستغطيها التجاعيد قبل الهبوط الأخير للستار .

يجمعنا البوفيه للاحتفال التقليدى . لأول مرة فى حياتى تحس الأبصار بوجودى . إنى شخص جديد تمامًا . تحية تخلق من العدم أكثر من رجل . ارتسمت على فم أم هانى ابتسامة واسعة تتسع لتسلل بولدج . ووراء كل عظيم امرأة . قال لى سرحان الهلالى :

ـ ألم أقل لك؟

وقال فؤاد شلبى :

ـ مولد ممثل كبير . .

إسماعيل نفسه تجلت فى ابتسامته المتكلفة الغيرة . مثلت العشق والبرمجة والجنون . . ملأت بطنى بالشويرمة والكونياك . تحالف الكونياك مع خمر النجاح . حتى نخب المؤلف شربته . رأيت حليمة فى التايير الذى استأجرته من أم هانى .

غادرت المسرح حوالى الثالثة صباحًا . أم هانى تتأبط ذراعى وأنا أتأبط ذراع فؤاد شلبى . قال :

ـ هلم نتمش فى القاهرة فى الوقت الوحيد الذى يتاح لها فيه الوقار .

قالت أم هانى :

ـ بيتنا بعيد .

ـ معى سيارتى . . تلزمنى بعض المعلومات . .

سألته :

ـ ستكتب عنى؟

ـ طبعًا .

ضحكت عاليًا . رحت استجابة له أتحدث عن الماضى .

ـ ولدت بمنشية البكرى . . قللتان متجاورتان . . آل رمضان وآل الهلالى . . رمضان أبى كان لواء بالسوارى من باشوات الجيش القديم . . الهلالى من ملاك الأرض . . أما البكرى وسرحان الوحيد . . لى أخ قنصل وأخ مستشار وأخ مهندس . باختصار طردنا ـ أنا وسرحان ـ من المدرسة الثانوية بلا ثمرة ولكن بخبرة واسعة ببيوت الدعارة والحانات والمخدرات . . لم يترك أبى شيئًا . . ورث سرحان سبعين فدانًا . . أنشأ فرقة حبًا فى الإدارة والنساء . . عملت معه ممثلاً . . انقطع ما بينى وبين إخوتى . . أجر بسيط . . ديون نثرية كثيرة . . لولا النسوان . .

ندت عن أم هانى آهة . تساءل فؤاد :

ـ طبعًا كان لك نشاط سياسى . . ؟

ضحكت مرة أخرى :

ـ لا أنتمى إلا للحياة . . أنا وكرم يونس توأمان روحيان . . يقال إنه مدين فى نشأته إلى أم عاهرة . . حسن ، لقد نشأت أنا فى أسرة فكيف تفسر تماثلنا؟ . . هذا يعنى أن الموهبة لا تتأثر بالبيئة! . كلانا يحتقر الحياة المحترمة . . الحق أن ما يفرق بيننا وبين الآخرين . هو أننا صادقون أما الآخرون فمنافقون . .

تساءلت أم هانى :

ـ هل ستكتب هذا الهذيان؟

فقلت متحديًا :

ـ فؤاد نفسه من حزبنا!

فتمتم فى مرح :

ـ يا لك من وغد . . ولكن ألا تؤمن بوجود أخيار بكل معنى الكلمة؟

ـ طبعًا، مثل الأستاذ عباس مؤلف «أفراح القبة» . . إنه مثالى كما تعلم، لذلك زج بوالديه فى السجن وقتل زوجه وابنه!

سألته أم هانى .

ـ ماذا ستكتب؟

فقال وهو يتجه بنا نحو سيارته الفيات :

ـ لست مجنونًا مثله . .

غادرنا السيارة أمام الحارة بالقلعة . منعه من الدخول طفح المجارى . سرنا على طوار متآكل ونشوتنا تخمد تحت وطأة الرائحة الكريهة . هل يتواصل النجاح ويتغير الحال؟ . هل أتحرر من هذه الحارة الكئيبة وهذه المرأة الخمسينية التى تزن مائة كيلو؟!

أنا وتحية نغادر البيت القديم بسوق الزلط فى طريقنا إلى المسرح . حبكت معطفها الأسود حول جسمها الناضج واخترقنا موجة من البرد فى عتمة المساء . يخطر لى أن جسمها معد للفراش لا للمسرح، وأننا فى خيبة الموهبة سواء قلت لها :

ـ ونحن نحتسى الشاى ضبطت الولد يختلس إليك نظرة جائعة .

ـ عباس؟ . . إنه مراهق . .

ـ سيعمل ذات يوم قوادًا ماهرًا . .

ـ إنه مؤدب، متبرئ من بيته!

ـ ابن كرم وحليمة! وفى هذا العصر العجيب، ماذا تنتظرين؟ الآن أدرك أننى لم أفطن إلى ما كان يدور فى نفسها . .

يقول لى سرحان الهلالى ضاحكًا :

ـ ما تصورتك قط فى صورة عاشق حزين . .

وهل تصور ذات يوم أننا نعبر القنال وننتصر؟

ـ إنها مثلك فى الفقر . .

ـ حدثها . . أرجوك . .

ـ يا مجنون . . لقد قررت هجر المسرح . . إنه سحر الزواج . .

ـ يا للشيطان . . إنى أكاد أجن . .

ـ إنه الغضب ليس إلا .

ـ صدقنى .

ـ البرمجى لا يحتمل الهزيمة!

ـ ليس الأمر كذلك .

ـ بل هذا هو كل شىء . . ارجع من فورك إلى أم هانى لأنك لن تجد من يقرضك . .

بعد تردد قلت :

ـ أحيانًا يخيل إلىّ أن اللّه موجود!

فقهقه قائلاً :

ـ طارق يا بن رمضان . . حتى للجنون حدود!

* * *

نجاح «أفراح القبة» مستمر . نجاحى يتوكد ليلة بعد أخرى . أخيراً صادف الهلالى المسرحية التى تثرى مسرحه . قرر لى مكافأة يومية أنعشت روحى وجسدى . وسألنى فؤاد شلبى :

ـ أعجبك ما كتبت عنك؟

فشددت على يده بامتنان وقلت :

ـ بعد أكثر من ربع قرن تظهر لى صورة فى المجلة . . .

ـ لن تتراجع بعد اليوم . . أما علمت لقد ظهر المؤلف المختفى . .

ـ حقًا؟!

ـ زار أمس الهلالى فى مسكنه ، أتعرف لماذا؟

ـ هه؟

ـ طالب بحصة من الأرباح . .

قهقهت عاليًا حتى أزعجت عم أحمد برجل وراء البوفيه وقلت :

ـ ابن حليمة! . . . وماذا كان رد الهلالى؟

ـ أعطاه مائة جنيه . .

ـ خسارة فى عينه . .

ـ لقد أصبح بلا عمل وهو منكب على كتابة مسرحية جديدة .

ـ ابتزاز . . وهيهات أن يكتب جديدًا ذا قيمة . .

ـ فال الله ولا فالك!

ـ وأين كان مختفيًا؟

ـ لم يبح بسره لأحد . .

ـ أستاذ فؤاد ألم تقتنع بتجريمه؟

ـ لم يقتل تحية؟

ـ لاعترافها بخيانته . .

فهز منكبيه ولم ينبس .

* * *

عندما رأيت النعش يتهادى من مدخل العمارة اجتاح جوفى فراغ مخيف تمادى حتى لفظنى فى العدم . هجم على البكاء هجمة غادرة فأجهشت . الصوت الوحيد الذى أثار المشيعين . حتى عباس كان جاف العينين . رجعت فى سيارة سرحان الهلالى . قال لى :

ـ عندما سمعت بكاءك . . عندما رأيت منظرك . . كدت أنفجر ضاحكًا لولا ستر الله . .

قلت باقتضاب :

ـ كان مفاجأة لى أيضًا .

ـ لا أذكر أنى رأيتك باكيًا من قبل .

فقلت باسمًا :

ـ لكل جواد كبوة .

أرجع الموت ذكريات الحب والهزيمة . .

* * *

سمعت بالخبر فى مقهى الفن قبل الذهاب إلى المسرح . هرعت إلى حجرة سرحان الهلالى ، سألته :

ـ الخبر صحيح؟

فأجابنى بوجوم :

ـ نعم كان عباس يقيم فى بنسيون فى حلوان . . غاب طويلا . . عثر على خطاب فى حجرته يعترف فيه بعزمه على الانتحار .

ـ هل عثر على جثته؟

ـ كلا . . لم يعثر له على أثر . .

ـ هل ذكر أسبابًا لانتحاره؟

ـ لا . .

ـ هل اقتنعت بانتحاره؟

ـ لم يختفى والنجاح يدعوه للظهور والعمل؟

وفصل بيننا صمت كئيب حتى سمعته يتساءل :

ـ لم ينتحر؟

فقلت :

ـ لنفس الأسباب التى انتحر من أجلها بطل مسرحيته .

ـ إنك مصر على اتهامه .

ـ أتحدى أن تجد سببًا آخر . .

انفجر الخبر فى الوسط الفنى وبين جمهور المسرح . لم يسفر البحث عنه عن شىء . اتخذت الإجراءات المألوفة فى هذه الأحوال . داخلنى شعور عميق بالارتياح . قلت لنفسى :

ـ لن يعرف نجاح المسرحية حدودًا يقف عندها . .

كـــــرم يونـس

الخريف نذير فهل نتحمل برودة الشتاء؟ . عمر ينقضى فى بيع الفول السودانى واللب والفيشار . وهذه المرأة التى قضى علىّ بها مثل السجن . لم نسجن فى بلد تستحق غالبيته السجن؟ قانون مجنون لا يدرى كيف يحترم نفسه . ماذا سيفعل كل هؤلاء الصبية؟ . انتظر حتى تشهد هذه البيوت القديمة وهى تنفجر . التاريخ يحزن لتحوله إلى قمامة . المرأة لا تكف عن الأحلام . ولكن ما هذا؟ . من هذا؟ . شبح من الماضى . إلىّ بخنجر مسموم . ماذا تريد يا مستنقع الحشرات؟ قلت لحليمة بامتعاض :

ـ انظرى . .

دهشت . . تساءلنا :

ـ أيجىء للتهنئة أم للشماتة؟

ـ ها هو يقف ملقيًا بابتسامته الكريهة . بعينيه الضيقتين وأنفه الغليظ وفكه القوى العريض . كن جافًا معه مثل الزمن .

ـ طارق رمضان! . . ماذا جاء بك؟

وقالت حليمة منفعلة:

ـ أول زيارة من أهل الوفاء مذ رجعنا إلى سطح الأرض . .

فقال طارق:

ـ ما أنا إلا غريق من الغرقى . .

فقلت بحنق:

ـ جئت من الماضى كذكرى من أسوأ ذكرياته . .

وشغلت عنه بزبون ثم رمقته بازدراء فقال:

ـ معى أخبار سيئة!

فقالت حليمة:

ـ لا تهمنا الأخبار السيئة . .

ـ حتى لو تكن عن الأستاذ عباس يونس؟

فقلت:

ـ إنه ابن بار . . عرض على أن أعود إلى المسرح فلما رفضت أنشأ لنا هذه المقلى . .

وقالت المرأة:

ـ وقد قبلت مسرحيته . .

لكنه ما جاء إلا من أجل المسرحية . . هل أعمته الغيرة؟ . يطيق الموت ولا يطيق أن ينجح عباس. فليمت بغيظه. إنك أصل البلاء. لا يفهمك مثلى فنحن من خرابة واحدة. قال:

ـ المسرحية تدور فى هذا البيت، عنكم، وتهدى إلينا جرائم جديدة لم تخطر ببال أحد. أيمكن ذلك؟ . عباس لم يقل لنا كلمة عن موضوعه. لكنه شاب مثالى.

تساءلت:

ـ ماذا تعنى؟

ـ كل شىء . . كل شىء. ألا تريد أن تفهم؟

ماذا يعنى؟ . لماذا يفضح عباس نفسه؟ . سألته:

ـ حتى السجن؟

ـ وإنه هو الذى وشى بكما إلى الشرطة وهو الذى قتل تحية . .

ـ إنه لسخف . .

وتساءلت المرأة :

ـ ماذا تعنى يا عدو عباس؟

وتساءلت رغم انقباض قلبى :

ـ أليست مسرحية؟

وقالت حليمة :

ـ لديه التفسير الصحيح . .

ـ شاهدا المسرحية بنفسكما .

ـ أعماك الحقد .

ـ بل الجريمة . .

ـ ما مجرم إلا أنت!

وقلت له وانقباض لا يزايل قلبى :

ـ حاقد مجنون . ابنى عبيط ولكنه ليس خائنًا ولا قاتلاً . .

فصاح :

ـ يجب القبض على قاتل تحية . .

اشتبك مع المرأة فى خصام جارح وأنا شارد فى أفكارى حتى سألته بخشونة :

ـ ماذا تريد؟

وطردته شر طردة!

* * *

غصت فى بئر . لا يمكن أن يجىء من آخر الدنيا ليلقى بأكاذيب يسير كشفها . إنه وغد ولكنه ليس أحمق . لا قدرة لى على الانفراد بوساوسى . نظرت نحو المرأة فالتقيت بعينيها تنظران نحوى . إننا غريبان يجمعهما بيت قديم . لولا إشفاقى من إغضاب عباس لطلقتها . عباس وحده الذى يجعل للحياة المرة طعمًا مقبولاً . إنه الأمل الوحيد الباقى .

تمتمت المرأة :

ـ إنه يكذب .

فسألتها وأنا أشد منها التماسًا لنقطة رحمة :

ـ ولم يكذب؟

ـ ما زال يحقد على عباس .

ـ ولكن هناك مسرحية أيضًا .

ـ لا نعرف عنها شيئًا ، اذهب إلى عباس . .

ـ سأقابله حتمًا . .

ـ ولكنك لا تتحرك .

إنى خائف . إنها غبية وعنيدة . قلت :

ـ لا داعى للعجلة .

ـ يجب أن يعرف ما يدبر من وراء ظهره .

ـ وإذا اعترف؟

ـ ماذا تعنى؟

ـ إذا اعترف بأن مسرحيته تحوى ما قال الوغد؟

ـ ستجد التفسير المريح .

ـ لا أدرى .

ـ لم يفضح نفسه إذا كان قاتلاً حقًا؟

ـ لا أدرى . .

ـ تحرك . . هذا هو المهم .

ـ سأذهب طبعًا .

ـ أو أذهب أنا .

ـ ليس عندك ملابس صالحة . . صادروا نقودنا . . ضربنى المخبر الكلب . .

ـ ذاك تاريخ مضى . . فكر الآن فيما نحن فيه .

ـ الوغد كاذب .

ـ يجب أن تسمع بأذنك .

ـ لم يكن يوافق على حياتنا . . كان مثاليًا كأنه ابن حرام . . ولكنه لا يغدر بنا ، ثم لماذا يقتل تحية؟

ـ إنك تستجوبنى أنا . .

ـ إنى أفكر .

ـ لقد صدقت ما قال الوغد .

ـ وأنت أيضًا تصدقينه .

ـ يجب أن نسمعه .

ـ الحق أننى لا أصدق . .

ـ إنك تهذى . .

ـ اللعنة . .

ـ اللعنة حلت يوم ارتبطت بك . .

ـ ويوم ارتبطت بك . .

ـ كنت جميلة . .

ـ هل رغب فيك أحد غيرى؟

ـ كنت دائمًا مرغوبة . . إنه سوء الحظ .

ـ كان أبوك ساعى بريد أما أبى فكان موظفًا فى دائرة الشمشرجى . .

ـ ذلك يعنى أنه كان خادمًا .

ـ أنا من أسرة . .

ـ وأمك؟

ـ مثلك تمامًا . .

ـ مخرف . . ولكنك لا تريد أن تذهب . .

ـ سأذهب عندما يروق لى . .

تشتت فكرى . ليكن ما يكون . لن يصيبنا أسوأ مما أصابنا . ألم نبدأ ـ أنا وهذه المرأة ـ من ملتقى مفعم بالحرارة والرغبة والأحلام الجميلة؟ . . أين نحن من ذلك الآن؟ . ولكن يجب أن أذهب على أى حال . لعل العصر هو أنسب الأوقات .

* * *

لم أعرف مسكن ابنى من قبل . منذ زواجه انفصلنا . لم يكن بيننا خير . كان يرفض حياتنا ويحتقرها فنبذته واحتقرته . وبانتقاله إلى بيت تحية تحررت من نظراته الممتعضة . أسعى إليه الآن بعد أن لم يبق أمل غيره . تلقانا بعد السجن ببر ورحمة فكيف يكون هو الذى زج بنا فيه؟ . سألت البواب عنه فقال :

ـ ذهب منذ ساعتين حاملاً حقيبة . .

ـ سافر؟

ـ قال إنه سيغيب بعض الوقت . .

ـ ألم يترك عنوانه الجديد؟

ـ كلا .

ذهلت . حدث ما لم أتوقعه . لِم لَم يخبرنا؟ . هل بلغته اتهامات طارق له؟ . وبازدياد

قلقى قررت أن أقابل سرحان الهلالى. ذهبت إلى مسرح الغد بعماد الدين وطلبت المقابلة. فسرعان ما أذن لى. وقف مرحبا بى وهو يقول:

ـ أهلاً حمداً لله على السلامة.. لولا ظروفى لزرتك مهنئًا.

ـ سرحان بك، عذر غير مقبول..

فضحك ولم يكن شىء يحرجه أو يربكه وقال:

ـ لك حق.

ـ إنها عشرة طويلة، لقد قضيت عمراً ملقنًا لفرقتك، وفتحت لك بيتى حتى قبض علىّ..

ـ إننى مخطئ فى حقك.. تشرب قهوة؟

ـ لا قهوة ولا شاى، إنى قادم بخصوص عباس ابنى..

ـ تقصد المؤلف المثير. ستنجح مسرحيته يا كرم نجاحًا غير عادى وأنت أدرى الناس بإحساسى..

ـ عظيم.. ولكنى لم أجده فى مسكنه، وقال البواب إنه حمل حقيبته وذهب..

ـ وماذا يقلقك من ذلك؟.. إنه شارع فى تأليف مسرحية جديدة.. ولعله وجد مكانًا هادئًا..

ـ بلغتنى أشياء عن موضوع المسرحية فخفت أن يكون لذلك علاقة بذهابه..

ـ تفكير خاطئ يا كرم.

ـ طارق حاقد وهو..

فقاطعنى:

ـ لا تحدثنى عنه فإنى أعلم به، ولكن لا داعى للقلق على ابنك على الإطلاق..

ـ أخشى أن يكون قد..

وسكت فقال ضاحكًا:

ـ المسرحية خيال ولو كانت..

ـ خبرنى عن رأيك بصراحة..

ـ لم أشغل عقلى دقيقة إلا بالمسرحية نفسها.. ما ارتكبه البطل فى المسرحية فى صالح المسرحية، هذا ما يهمنى..

ـ ولكنه وشى بوالديه وقتل زوجته؟

ـ خير ما فعل؟

ـ ماذا تعنى؟

ـ ذلك ما خلق المأساة . .

ـ ألم تشعر بأن ذلك قد حدث فعلاً فى الحياة؟

ـ لا يهمنى ذلك ألبتة .

ـ أريد أن أعرف الحقيقة . .

ـ الحقيقة المسرحية عظيمة ، وأنا كما تعلم مدير مسرح لا وكيل نيابة . .

ـ وأنا معذب !

فضحك الهلالى وقال :

ـ لا أدرى شيئًا عما تتحدث عنه ، ثم إنك لم تكن تحبه قط؟

ـ الحاضر غير الماضى وأنت سيد من يفهم . .

ـ المسرحية مسرحية لا أكثر من ذلك ، وإلا جاز للقانون أن يدخل ٩٠٪ من المؤلفين قفص الاتهام . .

ـ إنك لا تريد أن تريحنى . .

ـ ليتنى أملك ذلك يا كرم ، لا تشغل نفسك بأوهام سخيفة ، ولن يشاركك فيها إلا قلة من الأصدقاء المعروفين أما الجمهور فلن يخرج عن حدود المسرحية ، لماذا رفضت أن ترجع إلى وظيفتك القديمة كملقن للفرقة؟

ـ شكرًا ، اقترح عباس ذلك مؤيدًا اقتراحه بموافقتك ولكنى لا أحب الرجوع إلى الماضى . .

فضحك الهلالى وقال :

ـ إنى أفهم ذلك ، أنت الآن سيد نفسك ، ولعل المقلى أربح ، ليكن يا عزيزى ، ولكن لا تقلق على عباس ، وإنه يبنى نفسه وسيظهر فى الوقت المناسب . .

انتهت المقابلة . غادرته وأنا أنوء باحتقارى للجنس البشرى . لا أحد يحبنى ولا أحب أحدًا . حتى عباس لا أحبه وإن تعلق به أملى . الغادر القاتل . ولكن فيم ألومه وأنا مثله؟ . لقد تقشر الطلاء عنه فتجلى على حقيقته الموروثة عن أبيه . الحقيقة المعبودة فى هذا الزمان التى توشك أن تعلن ذاتها بلا نفاق . ما الفضيلة إلا شعار كاذب يتردد فى المسرح والجامع . كيف زج بى فى السجن فى زمن الشقق المفروشة وملاهى الهرم؟ . من هذا؟ . صادفت طارق رمضان أمام باب البوفيه . مد إلىّ يد ثعبان فرفضته . قلت له أن أبعد عن وجهى .

* * *

لم أخطئ. أليس هو زمن المخدرات؟ . وأنا رجل بلا قيود. لا أخلص إلا للغريزة. مثلى تمامًا أولئك الرجال ولكنه الحظ وحده. تقول حليمة:

ـ أتظن أن أجرى وحده يكفى للإنفاق على بيتك وابنك؟

ـ إنى على أتم استعداد للشجار!

ـ الأفيون يهدم كل شىء . .

ـ فليهدم كيف شاء . .

ـ وابنك؟ . . إنه ولد رائع جدير بالرعاية . .

لم أخطئ. لقنتنى أمى مبادئ الصواب الأبدى. حليمة تدأب فى تمثيل دور السيدة المحترمة وتتناسى ماضيها الداعر. لن أسمح للنفاق بالمعيشة فى بيتى.

وقلت للهلالى:

ـ إنكم تتعبون أحيانًا للعثور على بيت مناسب، إليكم بيتى.

حدجنى باهتمام فقلت:

ـ فى أعماق باب الشعرية، الجن نفسه لن يرتاب فيه.

لم أخطئ البيت القديم يتجدد على مبادئ جديدة. ينفض عنه الغبار. تتأهب أوسع حجرة فيه لاستقبال القادمين من الجحيم. أحترم هؤلاء العظام الذين يمارسون الحرية بلا نفاق. الهلالى والعجرودى وشلبى وإسماعيل وطارق وتحية. أعد أيضًا مخزن من الأطعمة الجافة والشراب والمخدرات. حليمة تتوثب للنفاق. إنى لا أرحم المنافقين. تثوب إلى حقيقتها الكامنة. تمسى ربة البيت الجديد بكل كفاءة. جميلة وذكية وحرة مثلى وأكثر. جديرة بقيادة ماخور. أمطرت السماء ذهبًا. ولكن لم ينظر الولد إلينا بامتعاض؟ . ابن من أنت؟ . من أبوك؟ . من أمك؟ . من جدتك؟ . ابن حرام أنت، ابن الكتاب والمسرح، وتصدق النفاق يا غبى. وتقول حليمة:

ـ الولد يقتله الحزن . .

ـ ليقتله الحزن كما يجدر بأى غبى.

ـ إنه يرفض.

ـ لا أحب هذه الكلمة . .

ـ إنه يستحق الرحمة . .

ـ إنه يستحق القتل . .

أصبح يمقتنى ويقتلع الحب القديم من قلبى.

ـ انتبه لحياتك . عش الواقع . قلة نادرة تظفر بمثل طعامك . . انظر إلى الجيران . . ألا تسمع عما يجرى فى البلد؟ . ألا تفهم؟ . من أنت؟ . .

عيناه تعكسان نظرة غريبة. إنه يعيش خارج أسوار الزمن. ماذا يريد؟. اسمع موعظة. هذا البيت بناه جدك. لا أدرى عنه شيئًا. جدتك جعلت منه مهدًا لغرامها. أرملة وشابة ولا تختلف عن أمك. أبوك نشأ فى أحضان الحقيقة. أود أن أحكى لك كل شيء. هل أخشاك؟!. لولا أن عاجلت الوفاة جدتك لتزوج منها الباشجاويش ولضاع البيت. أراد أن يستولى علىّ بعد وفاتها ولكنى ضربته. لذلك سعى حتى جندت فى الجيش القديم ولكن البيت بقى. أم هانى قريبة أمى وقوادة الهلالى كانت الوساطة لأتعين ملقنا بالفرقة. أود أن ألقى عليك هذه السيرة ذات يوم لتعرف أصلك وتنتمى بلا مقاومة كاذبة إلى مبادئك الحقيقية. كن مثل أبيك ليجمعنا الحب كما كان وأنت صغير. ولا تنخدع بنفاق أمك. ستعرف كل شيء ذات يوم. هل أخشاك يا ولد؟!

* * *

رجعت إلى المقلى فسألتنى حليمة بلهفة:

ـ ماذا قال لك؟

ـ لم أقابله، غادر الشقة إلى مكان مجهول حاملاً حقيبته..

ضربت فخذيها بقبضتيها وقالت:

ـ مكان مجهول!.. لم لَم يخبرنا؟

ـ من أدراك أنه يفكر فينا؟

ـ إنه هو الذى فتح لنا هذه المقلى.

ـ وانتهى منا، إننا بالنسبة له اليوم ماض يحسن نسيانه..

ـ إنك لا تفهم ابنى، ليتك ذهبت إلى الهلالى..

ـ صمت متأثراً بدفقة غيظ مجهولة البواعث فراحت تقول:

ـ إنك لا تحسن التصرف!

فقلت بازدراء:

ـ أود أن أفلق رأسك.

ـ هل رجعت إلى الأفيون؟

ـ فقلت ساخراً:

ـ لا يطمع إليه اليوم إلا الوزراء!

ثم استطردت:

ـ الهلالى لا يدرى شيئًا عن مكانه..

فتساءلت بقلق:

ـ زرته؟

ـ لا يدرى شيئًا عن مكانه . .

ـ أين ذهب ابنى؟ . هل أخلى شقته؟

ـ لا .

ـ سيرجع . . لعل فى الأمر امرأة . .

ـ تفكير ينسجم مع امرأة مثلك!

ـ فهتفت :

ـ لا يهمك أمره، لا يهمك إلا نفسك . .

ـ قضى علىّ بأن أخرج من سجن إلى سجن . .

فقالت بحنق :

ـ أما أنا فإنى أعيش فى زنزانة!

ومن شدة القهر نشجت باكية فتضاعف حنقى عليها . وتساءلت فى غرابة كيف أحببتها ذات يوم؟

* * *

البوفيه الأحمر . جدرانه وسقفه مطلية بحمرة قاتمة، كذلك أغطية مناضده وبساطه السميك . اتخذت مجلسى أمام طاولة الساقى عم أحمد برجل على كرسى جلدى طويل إلى جانب أنثى لم أتبينها . قدم لى كالعادة سندوتش فول وفنجان شاى . وبالتفاتة لابد منها بهرنى شباب ذو جمال رائق . أدركت أنها ـ مثلى ـ موظفة فى المسرح ففى الساعة الثامنة لا يتواجد أحد من الخارج . سمعت عم أحمد يسألها :

ـ هل من جديد عن الشقة يا آنسة حليمة؟

فأجابت بصوت دسم :

ـ البحث عن الذهب أسهل .

واندفعت متأثرًا بانبهارى :

ـ هل تبحثين عن شقة؟

ـ فأحنت رأسها بالإيجاب وهى تزدرد رشفة شاى فقال عم أحمد يعارف بيننا :

ـ السيد كرم يونس ملقن الفرقة . . آنسة حليمة الكبش قاطعة التذاكر الجديدة .

فسألت بجرأة لا تنقصنى :

ـ من أجل زواج؟

فأجاب عم أحمد عنها :

ـ إنها تقيم مع خالتها فى شقة صغيرة مكتظة وتحلم بشقة صغيرة خاصة ولكن هناك عقبة الإيجار وعقبة خلو الرجل .

وقلت بلا تريث :

ـ عندى بيت . .

فالتفتت نحوى باهتمام لأول مرة متسائلة :

ـ حقًا؟

ـ بيت كبير ، إنه قديم ولكنه مكون من طابقين . .

ـ الطابق شقة؟

ـ كلا . . إنه ليس مقسمًا إلى شقق . .

فسألنى عم أحمد :

ـ ممكن تستقل بطابق؟

ـ ممكن جدًا . .

فسألت هى :

ـ ألا يضايق ذلك الأسرة؟

ـ إنى أقيم فيه وحدى . .

فرفعت حاجبيها معرضة عنى فقلت مدافعًا عن حسن نيتى .

ـ ستجدين الطابق آمنًا أنت وأسرتك . .

فلم تنبس معتبرة الموضوع منتهيا أما عم أحمد فسألنى :

ـ وكم الإيجار؟

ـ لم يستأجره أحد من قبل ولست طماعًا بحال!

فسألنى جادًا :

ـ هل آتيك بساكن؟ .

ـ فقلت بنبرة إعلامية :

ـ لا أود ذلك ، إنه بيت الأسرة وله ذكرياته ، وإنما أردت أن أقدم خدمة للآنسة بصفتها زميلة لى فى المسرح . .

فضحك عم أحمد برجل وقال :

ـ أعطنا فرصة للتفكير وربنا يسهل . .

وذهبت الآنسة مخلفة فى نفسى انتعاشًا وحيوية ورغبة حريفة.

* * *

ها هى مقوسة فوق كرسيها متشابكة الذراعين، تعكس عيناها نظرة قرف ممتعضة وتنعقد فوق جبينها تكشيرة كاللعنة. أليست الوحدة خيرًا من عشير النكد؟. أين الانبهار القديم؟. أين سكرته المشعشعة؟. فى أى مستقر من الكون تحنطت؟.

* * *

كلما رأيتها فى البوفيه الأحمر قلت لنفسى «هذه الفتاة تستحوذ علىّ كالجوع». إنى أتخيلها تمرح فى البيت القديم، تجدد شبابه، تدفئ دماءه. أتخيلها وهى تشفينى من عللى المزمنة.

ودأب عم أحمد برجل على تشجيعى كلما انفرد بى. قال لى مرة:

- حليمة قريبة لى من ناحية أمى.. متعلمة وذكية.. أنا من سعيت عند الهلالى بك لإلحاقها بعملها..

فشجعته بدورى قائلاً:

- بنت ممتازة حقًا!

- خالتها طيبة، والبنت ذات خلق..

لا شك فى ذلك.

ورمقنى بابتسامة سكرت بها رغبتى المتحفزة. استسلمت لأنامل ناعمة، لنعاس مهدهد بأحلام اليقظة. وانفسحت أمامى عذوبة الحواس الطاغية. قلت له ذات يوم:

- يا عم أحمد، إنى أرغب بصدق..

أدرك البقية المضمرة من كلامى وتمتم بانشراح:

- جميل وحكيم..

- لا دخل لى سوى أجرى ولكنى أملك المسكن وهو امتياز لا يستهان به فى هذه الأيام.

- الرغبة فى الستر أهم من الظواهر.

وفى نفس الأسبوع استقبلنى قائلاً:

- مبارك يا كرم.

دخلت منطقة الظل الحنون، منطقة الخطوبة الصافية. منطقة شفافة يمتزج فى نسيجها الحريرى وشى الحلم وعذوبة الواقع. أهدتنى كيسًا جلديًا تصطف فى ثغراته وعلاقاته أدوات حلاقة الذقن فسعدت به فى طفولة. وإذا بسرحان الهلالى يرفع أجرى جنيهين

مهنئًا إياى بحياتى الجديدة. واحتفل بنا رجال المسرح فى البوفيه وشيعونا بالأزهار والحلوى.

* * *

فيم تفكر المرأة؟ . . يدها المعروقة تعبث بالفيشار ولا ينطوى رأسها على فكرة مريحة واحدة. قضى علينا أن نتبادل الضجر فى هذه الزنزانة. القاذورات منتشرة فوق أديم الشارع العتيق محددة له معالم جديدة تحت دفقات الضوء. هبات الهواء تطير ما خف منها فيزحم أقدام صبية لا حصر لهم. فيم تفكر المرأة؟ . .

* * *

ليلة الدخلة؟ . أجل عند صياح الديكة. وقد جذبتنا الحقيقة نحو بؤرة خانقة. وغابت الأعين فلم يبق إلا التاريخ. انقبض قلبى حيال الحيرة المقتحمة. كدت أتصور أن الوجود قد مات لولا تصاعد النحيب المكتوم. وقال النحيب كل شىء. وتمتمت:

ـ لن أسامح نفسى . .

حقًا؟ . . وتمتمت أيضًا:

ـ كان يجب أن . .

ماذا؟ . . لا داعى لمزيد. وأيضًا تمتمت:

ـ لكنى أحببتك . .

عرفت سرها ولكنها لم تعرف سرى بعد. من أين لها أن تعلم أن رجلها ينحدر إليها من عهد سابق على التاريخ؟ . من أين لها أن تتصور مدى حريته؟ . لم أكترث للعبة. كانت مجرد دهشة فقط. وحتى الدهشة استسخفتها. وقلت بسخرية عميقة:

ـ لا يهمنى الماضى.

فأحنت رأسها، ربما لتخفى ارتياحها، وقالت:

ـ إنى أحتقر الماضى وأولد من جديد . .

فقلت بنبرة عادية:

ـ هذا حسن.

نبذت أى رغبة فى مزيد من المعرفة. لست غاضبًا ولا مبتهجًا ولكنى أحبها. وانغمست فى حياتى الجديدة بحرارة صادقة.

* * *

تمر الساعات فلا نتبادل كلمة واحدة. مثل حبات الفول السودانى. ما من زبون يجىء إلا ويشكو الغلاء والمجارى الطافحة والطابور المهلك أمام الجمعية الاستهلاكية. أبادله العزاء. ربما نظر إلى المرأة متسائلاً.

ـ مالك ساكتة يا أم عباس!!

أى أمل أرتقبه أنا؟. هى على الأقل تنتظر عودة عباس.

* * *

انغمست فى الزوجية بحرارة صادقة. انزعجت عندما وافتنى ببشائر الأمومة ولكنه كان انزعاجًا عابراً.

وقد عشقت عباس فى طفولته. وبدأ كل شيء يتغير منذ قال لى طارق رمضان:

ـ حوار هملت صعب.. ذوب هذه فى فنجان شاى..

بدأت رحلة جديدة جنونية. صادف الإغراء رجلاً لا يهمه شيء. وكانت ينابيع الحياة تجف، ومسراتها تختنق فى قبضة أزمة قاسية.

وتقول حليمة:

ـ أتريد أن تنفق أجرك على السم وتتركنى أواجه الحياة وحدى؟.

أى صوت قبيح كأنما يصدر عن المجارى الطافحة. صرنا مثل شجرتين متعريتين. الجوع يطرق باب البيت القديم.

وذات يوم قلت لها بارتياح:

ـ نهاية حميدة.

ـ عم تتحدث؟

ـ فلنعد الحجرة الشرقية للعب.

ـ هه..؟!

ـ سيجيئون كل ليلة ولن نشكو الفقر..

رمقتنى بنظرة غير متوقعة لخير فقلت:

ـ الهلالى، العجرودى، شلبى، إسماعيل. أنت فاهمة، ولكن علينا أن نعد لهم ما يلزمهم..

ـ إنه قرار خطير..

ـ لكنه حكيم.. أرباحه خيالية..

ـ لم يكفنا أن يقيم عندنا طارق وتحية.. نحن نتدهور..

نحن نرتفع.. ليسكت صراخك وصراخ ابنك..

ـ ابنى ملاك.. إنه الرعب له..

ـ عليه اللعنة إن تحدى أباه.. إنك تفسدينه بأفكارك السخيفة..

إنها تستسلم بامتعاض. أنسيت ليلة الدخلة؟. عجيب أن يطمح أناس للتحرر من الحكومةعلى حين يرسفون بكل ارتياح فى القيود الكامنة فى أنفسهم . .

* * *

ها هى راجعة من مشوارها. لولا خدمتها فى البيت لتمنيت ألا ترجع. ينم وجهها عن الخيبة. لم أسألها عن شىء. أهملتها حتى قالت متنهدة :

ـ ما زالت شقته مغلقة . .

رحبت بزبون لأتجنبها فلما ذهب قالت بحدة كريهة :

ـ افعل شيئًا . .

غبت عنها راجعا إلى فكرة طالما أثارتنى وهى كيف تزج الحكومة بنا فى السجن من أجل أفعال ترتكبها هى جهارا؟. ألا تدير هى بيوتا للقمار؟. ألا تشجع المواخير المعدة للضيوف؟. إنى معجب بسلوكها ولكنى ثائر على نفاقها الظالم. وارتفع صوت المرأة وهى تقول :

ـ اذهب مرة أخرى إلى المدير.

فقلت ساخراً :

ـ اذهبى إليه بنفسك فهو أقرب إليك منى !

فهتفت بحنق :

ـ اللّه يرحم أمك !

ـ على أى حال لم تكن منافقة مثلك . .

فتأوهت قائلة :

ـ إنك لا تحب ابنك ، ولم تحبه قط . .

ـ لا أحب المنافقين ولكنى لا أنكر مساعدته لنا.

فولتنى ظهرها متمتمة :

ـ ترى أين أنت يا عباس؟!

* * *

أين سرحان الهلالى؟. غادر مجلسه ولكنه لم يرجع. لا يمكن أن ينام فى دورة المياه. . اللعب مستمر وأنا أجمع نصيبى عقب كل دورة. أين حليمة؟. أما آن لها أن تقدم شيئًا من الشراب؟ أتساءل :

ـ أين المدير؟

لم يجب أحد. كل مشغول بورقاته. ترى هل حدجنى طارق بنظرة ساخرة؟! يجب أن تقدم حليمة شيئًا من الشراب.

ـ يا حليمة!

لا جواب. لن أتخلى عن موقعى وإلا سرقت.

ـ يا حليمة..

دوى صوتى عنيفًا. جاءت بعد قليل.

ـ أين كنت؟

ـ غلبنى النوم..

ـ أعدى شرابًا.. وحلى محلى حتى أرجع..

غادرت حجرة اللعب. صادفت عباس فى صالة الدور الأول.

سألته:

ـ ماذا أيقظك فى هذه الساعة؟

ـ أرق طارئ..

ـ أرأيت سرحان الهلالى؟

ـ غادر البيت؟

ـ متى؟

ـ منذ قليل.. لا أدرى بالضبط..

ـ هل رأته أمك؟

ـ لا أدرى!

لم ذهب؟.. لماذا ينظر إلى الولد واجمًا؟.. إنى أشم رائحة غريبة. إنى أى شىء ولكنى لست مغفلاً. وعندما لم يبق فى البيت إلا أعقاب السجائر والكئوس الفارغة رمقت المرأة بنظرة طويلة ثم سألتها:

ـ ماذا حدث من وراء ظهورنا؟

فرمقتنى بازدراء وتجاهلتنى تمامًا فعدت أسأل:

ـ عباس رأى؟

فلم تجب وازددت غضبًا.. فقلت:

ـ إنه هو الذى ألحقك بالعمل..

فضربت الأرض بقدمها فقلت بسخرية:

ـ لا شيء بلا ثمن، هذا ما يهمنى، أما أنت فلا تستحقين الغيرة!

اندفعت نحو حجرتها وهى تقول:

ـ إنك أحقر من حشرة!

فقلت مقهقهًا:

ـ إلا حشرة واحدة..

* * *

ها هى راجعة من مشوار جديد.. فلتزدادى عذابًا وجنونًا.. لبثت واقفة فى المقلى وراحت تقول:

ـ فؤاد شلبى مطمئن تمامًا..

ـ قابلته؟

ـ فى مقهى الفن..

ـ من أين له أن يعلم؟

ـ قال إنها نزوة مؤلف وأنه سيظهر فى الوقت المناسب وبيده مسرحية جديدة..

ـ لابد من كلمة لتهدئة امرأة مجنونة مخرفة..

جرت كرسيها إلى أقصى المقلى وجلست ومضت تحدث نفسها:

ـ لو أراد اللّه لوهبنى حظًا أسعد، ولكنه رمى بى إلى رجل سافل مدمن..

فقلت بسخرية:

ـ هذا جزاء من يتزوج من عاهرة.

ـ اللّه يرحم أمك. عندما يرجع عباس سأذهب معه..

ـ إذن فليرجع عباس رحمة بى..

ـ من يتصور أنك أبوه؟

ـ ما دام قد قتل زوجته وزج بوالديه فى السجن فهو ابنى وإنى لفخور به!

ـ إنه ملاك، وهو من صنع يدى أنا..

تمنيت أن تكلم نفسها حتى تجن. وتذكرت صفعة المخبر على قفاى واللكمة التى أسالت الدم من أنفى. الكبسة مثل زلزال مدمر. حتى سرحان الهلالى شد جفناه من الذعر. ومصادرة المال المخزون الذى بعنا أنفسنا حبا فيه. يا لها من قشعريرة.

* * *

أى شيطان يرقص فى الصالة؟!

غادرت الحجرة فرأيت طارق وعباس وهما يتضاربان. حليمة تصرخ. اجتاحنى الغيظ. صرخت:

ـ ما هذا العبث؟

صاح طارق:

ـ مسرحية هزلية.. المحروس سيتزوج من تحية..

بدا لى الأمر سخيفًا، ومهددًا بإطفاء نشوة المخدر المتصاعدة.

صاحت حليمة:

ـ أى جنون!.. إنها أكبر منك بعشرة أعوام..

وتدفقت الإنذارات من فم طارق مع نثار لعابه فقالت له حليمة بشدة:

ـ لا تزد الأمور سوءًا..

فصرخ طارق:

ـ سأهدم البيت على من فيه.

سكت غيظى وتسللت إلىّ السخرية واللامبالاة. وقبل أن أتفوه بكلمة قالت حليمة لطارق:

ـ خذ ملابسك ومع السلامة.

فهتف:

ـ من وراء ظهرى فى هذا البيت القذر.

فقلت له بهدوء تبدى غريبًا فى ذلك الجو العاصف:

ـ إنه قذر بسبب وجودكم فيه..

فلم يعن بالالتفات إلىّ، أما حليمة فسألت عباس:

ـ أحقيقى ما يقول:

فأجاب المحروس:

ـ اتفقنا على ذلك.

فسألته دون مبالاة:

ـ لِم لَم تتفضل باستشارتنا؟

فلَم يرد فرجعت أسأله:

ـ هل يكفى أجرها للإنفاق على بيت زوجية؟

فقال عباس:

ـ سأحل محلك ملقنًا للفرقة . .

ـ من مؤلف إلى ملقن؟

ـ لا تناقض بين الاثنين .

فصاحت حليمة بصوت متشنج :

ـ ابنى مجنون .

وقالت لطارق :

ـ لا تكن أنت أيضًا مجنونًا .

فعاد يهدد فصاحت به :

ـ غادر بيتنا .

فمضى وهو يقول :

ـ باق على أنفاسكم ليوم القيامة . .

خلا المكان للأسرة الكريمة . جعلت أردد عينى بينهما فى شماتة وسخرية . قالت له بضراعة :

ـ ما عرفتها إلا خليلة لهذا أو ذاك . .

فقلت مقهقهًا :

ـ أمك خبيرة . . اسمع وافهم . .

واصلت ضراعتها :

ـ أبوك كما ترى وتعلم أصبح لا شىء ، أنت أملنا . .

فقال عباس :

ـ سنبدأ حياة جديدة .

فسألته ضاحكًا :

ـ لماذا خدعتنا طويلاً بمثاليتك؟!

غادر عباس البيت فأجهشت هى فى البكاء . رحبت فى أعماقى بذهابه النهائى الوشيك . هللت لتحطم التحالف الكريه القائم بينه وبين أمه ضدى . إنه صوت معارضة دائم . ضقت به وكرهته وها هو يختفى فيكتسب البيت هدوءًا وانسجامًا . كنت أخافه أحيانًا . تتجسد فيه أقوال أزدريها وأفعال أحتقرها . وجعلت حليمة تندب حظها مولولة :

ـ وحدى . . وحدى . .

فقلت لها بهدوء :

ـ وحدك؟ . . لا تدعى ما ليس فيك، فيم نختلف؟ . . نبع واحد وحياة واحدة وهدف واحد . .

فحدجتنى بنظرة تنز مقتًا واحتقاراً ومضت إلى حجرتها مشيعة بقهقهتى العالية .

* * *

نظرت إلى ظهرها عابراً تلال الفول السودانى واللب والفيشار والحمص المعبأة فى جيوب الطاولة الممتدة . أى حياة تمضى بلا سرور وفى جو مشحون بالكراهية والدخان! . عودة الولد ونجاحه خليقان بأن يضيفا إليها جدة وإثارة!

* * *

أنا مرح، حليمة تدارى وجومها . سرحان الهلالى يتساءل :

ـ أين طارق وتحية؟

ويقول سالم العجرودى :

ـ انكماش خطير فى اللعب . .

وقلت ضاحكًا :

ـ أخبار مثيرة يا سرحان بك، ابنى المجنون تزوج من تحية!

ضجت المائدة بالضحك وقال إسماعيل :

ـ الظاهر أن ابنك فنان حقيقى . .

وقال الهلالى :

ـ الولد الصغير؟!

فقال شلبى :

ـ زواج الموسم!

وقال إسماعيل :

ـ تجدون طارق الآن فى الصحراء مثل مجنون ليلى!

وضجت المائدة بالضحك مرة أخرى ولكن سرحان قال بنبرة ذات معنى :

ـ ولكن حليمة لا تشارك فى الأفراح . .

فقالت حليمة وهى تواصل إعداد الشراب :

ـ حليمة فى مأتم!

ـ من يدرى؟ . . ربما تصادفه السعادة التى لا ندرى أين تقيم . .

فقال سالم العجرودى :

ـ تحية امرأة طيبة رغم كل شىء . .

فقلت وأنا أضحك عاليًا :

ـ رغم كل شىء !

فقالت حليمة بحنق :

ـ السعادة فى هذه الأيام من نصيب البغال .

وتساءل سرحان :

ـ وهل يواصل محاولاته فى تأليف المسرحيات؟

فقالت حليمة :

طبعًا . .

فقال باسمًا :

ـ عظيم . . ستهبه تحية تجارب مفيدة !

ثم انهمكت فى جمع النقود وأنا أتذوق أول ليلة تمر بلا رقيب .

* * *

المرأة تبحث عن ابنها وأنا فى المقلى وحدى . . ترى أى نهاية رسمها لها فى المسرحية؟ . فاتنى أن أسأل عن ذلك ! . هل يسدل الستار ونحن فى السجن؟ . . فى المقلى؟ . ويجىء زبون فى أعقاب زبون . . هؤلاء الناس لا يدرون كم أحتقرهم وأمقتهم . منافقون . يفعلون مثلنا ويؤدون الصلاة فى أوقاتها . أنا خير منهم . أنا حر أنتمى إلى عصر سابق للدين وقواعد السلوك . لكنى محاصر فى هذه المقلى بجيوش المنافقين . كل رجل وكل امرأة . مثل الدولة . لذلك تترككم للمجارى والطوابير وتجود عليكم بالخطب الرنانة . ويحطم ابنى رأسى بمواعظه الصامتة ثم يرتكب الخيانة والقتل . ولو تيسر الأفيون وحده لهان كل شىء . لماذا تغرر بنا أيام الخطوبة؟ . لماذا تهمس لنا بعذوبة غير موجودة؟ .

ـ إنى مدين لعم أحمد برجل بسعادة فوق احتمال البشر .

ـ لا تبالغ .

ـ حليمة . . ما أسعد من لا يضيع خفقان قلبه فى العدم !

وتألقت ابتسامة مثل فلة يانعة . أين تختفى هذه العذوبة؟ . آه لو أن الرجوع فى الزمان ممكن مثل الرجوع فى المكان . فى كائنى البدائى ركن ساذج يطيب له أحيانًا أن يبكى الأطلال . كرم الذى لم يعد موجودًا يبكى حليمة التى لم تعد موجودة .

ها هى المرأة راجعة . دخلت وجلست دون تحية . تجاهلتها تمامًا ولم تنبس . فى عينيها

طمأنينة فماذا عرفت؟! . لا شك أن ثمة خبرا طيبًا تضن به علىّ. الخنزيرة. لو كان شرًا لصبته على رأسى قبل أن تدخل هل رجع عباس؟ . أبيت أن أسأل. ومضى وقت حتى قالت:

ـ نحن مدعوان لمشاهدة المسرحية . .

وقدمت إلىّ إعلانًا مطبوعًا. استقر بصرى على اسم المؤلف «عباس يونس». جرفنى زهو. تساءلت:

ـ هل نذهب؟

ـ أى سؤال!

ـ قد لا يسرنا أن نرى أنفسنا . .

ـ المهم أن ترى مسرحية عباس . .

صمت فقالت:

ـ قلبى يحدثنى بأن المؤلف سيظهر حتما . .

ـ من يدرى؟

ـ قلبى يدرى.

* * *

ذهبنا فى أحسن صورة ممكنة. ارتديت بدلة لا بأس بها واستأجرت حليمة ثوبًا ومعطفًا من أم هانى. استقبلونا استقبالاً حسنًا. وقالت حليمة:

ـ ولكنى لا أرى المؤلف.

فقال سرحان الهلالى:

ـ لم يحضر ولكنى أخبرتك بما فيه الكفاية . .

إذن قد قابلته وتلقت أخبارًا لا بأس بها. ولما كان الوقت مبكرًا فقد ذهبنا لزيارة عم أحمد برجل. قدم لنا ـ هدية منه ـ سندوتشين وقدحين من الشاى وهو يقول ضاحكًا:

ـ مثل الأيام الماضية!

لم نعلق لا بكلمة ولا بابتسامة. وفى الوقت المناسب انتقلنا إلى مقاعدنا فى الصف الأول. كان المسرح كامل العدد فقالت حليمة:

ـ هو النجاح:

فتمتمت:

ـ لا حكم إلا بعد مرور أسبوع . .

رغم استهتارى توترت أعصابى. فيم تهمنى مسرحية وأنا لا تهمنى الحياة! . آه ها هو

الستار يرفع عن بيتنا. بيتنا دون غيره. هل أراده العجرودى كذلك أو أنه عباس؟! الأب والأم والابن. إنه ببساطة ماخور ونادى قمار. يوجد أكثر من الجريمة والخيانة. الأم تبدو عاهرة بلا ضابط. علاقاتها تتابع مع المدير والمخرج والناقد وطارق رمضان!. ذهلت. لحظتها. أنفاسها تتردد فى ثقل وخشونة. إنه الجحيم. استمتعى برأى ابنك فيك. رؤيته تتجلى بوحشية عن أبيه وأمه. من يتصور أن رأسه المتزمت يحوى هذه الخرائب كلها؟. إنى سعيد برأيه فى أمه. سعيد بإطلاعها على رأيه فيها. المسرحية تنكل بى وتنتقم لى. فى لحظة الفضيحة هذه أنعم بالانتصار على الأم والابن معًا. على عدوىّ اللدودين. ثم إنه لم يفهمنى. إنه يقدمنى كرجل منحل. كرجل واجه تحديات الواقع بالانحراف. لست كذلك يا غبى. لم أستو مركبا لكى أنحل. نشأت بسيطًا بدائيًا حرًا. نشأت شاهدًا ومدينًا للنفاق. ذاك ما لا يمكن أن تفهمه. وسر نجاحك أنك تتملق النفاق والاستعلاء الكاذب. تلق منى بصقة فى مهجرك الأبدى.

بعد تلاشى عاصفة التصفيق الهستيرى دعينا ـ اتباعًا لتقليد قديم ـ للاحتفال بالنجاح فى البوفيه.

سألتها همسًا:

ـ نشترك أم نذهب؟

فقالت بتحد:

ـ كيف لا نشترك؟!

تتظاهرين عبثًا بالاستهانة. ليس لك جناحان مثلى. تمتمت:

ـ ما كان ينبغى أن ينتحر..

فقلت أغيظها:

ـ أى نهاية تتوقعين لقاتل؟

ـ لقد فاز بالعطف..

دارت الأنخاب. قال سرحان الهلالى:

ـ لى فراسة لا تخيب..

فقال سالم العجرودى:

ـ وحشية بلا شك ولكنها مؤثرة..

فقال فؤاد شلبى:

ـ إنها تذكر الجمهور بمعاناته اليومية.. ولكنها متشائمة..

فتساءل الهلالى ساخرًا:

ـ متشائمة؟!

ـ ما كان ينبغى أن ينتحر بعد ما تعلق به أمل الجمهور.

فقال الهلالى:

ـ ليس انتحاراً ولكنه مصير الجيل الجديد فى نضال الإنقاذ!

ـ سلم الأوغاد.

فقهقه الهلالى قائلاً:

ـ ليحفظ الله الأوغاد.

والتفت المدير نحو طارق رمضان ورفع كأسه قائلاً:

ـ نخب اكتشاف ممثل عظيم فى الخمسين من عمره!

فقال فؤاد شلبى بحماس:

ـ أهم من اكتشاف بئر بترول.

ونظر الهلالى نحونا ولكنى سبقته رافعًا كأسى:

ـ نخب المؤلف الغائب!

سرعان ما ارتفعت موجة استحسان. فاضت النشوات على حساب المسرح. اختلط الجد بالهزل. تلذذت بتذكر فصائح كل رجل وكل امرأة. لماذا كان السجن من نصيبنا وحدنا؟. أيها الزملاء الأحرار اشربوا نخبى أنا. فإنى رمزكم الصادق.

وصلنا إلى بيتنا القديم عند الفجر. لم نجد أى رغبة فى النوم. أشعلت فحم المدفأة وجلسنا فى الصالة. البلاط المعصرانى مغطى بكليم أسيوطى قديم. رغم النفور المتبادل شعرنا بالرغبة فى التواجد معًا ولو لحين قصير. منذا يبدأ بفتح الحديث؟.. ما أشد ما نتبادل من مشاعر الحذر والتوجس.

سألتها:

ـ أعجبتك المسرحية؟

ـ جدًا.. جدًا..

ـ والموضوع؟

ـ يا له من سؤال سخيف لمن قضى عمرا فى المسرح..

ـ لم نتظاهر بغير ما فى نفوسنا؟.. لا مجال للشك..

ـ أرفض هذا التفكير السخيف..

ـ كل شىء حقيقى أكثر من الحقيقة..

ـ كلام فارغ، لقد رأيت نفسى فى صورة لا علاقة لها بالواقع.

فضحكت تاركًا للضحكة وحدها الإفصاح عن رأيى فقالت باستياء:

ـ إنه الوهم..

ـ ألم نر الجميع على المسرح كما عرفناهم فى الحياة؟

ـ المؤلف حر، يحافظ على من يشاء ويغير من يشاء. وهناك أشياء جديدة تمامًا..

ـ لم صورك فى تلك الصورة؟

ـ ذاك شأنه.

ـ أعتقدت طويلاً أنه يحبك ويحترمك..

فقالت بحدة:

ـ ذاك ما لا شك فيه..

ـ الحقيقة تتجلى فى نظرتك الكلبية!

ـ إنى واثقة من نفسى..

قلت باستهانة:

ـ حتى طارق!.. ما تصورت أنك حرة لذلك الحد..

ـ أرحنى من أفكارك القذرة.

ـ لولا الكذب لربحنا أضعاف ما ربحنا!

ـ الحق أنه صورك فى صورة أجمل من حقيقتك وهذا يقطع بأنه استلهم الخيال قبل كل شىء..

ضحكت عاليًا فهتفت:

ـ سيسمعك العائدون من صلاة الفجر.

ـ لما لا؟.. ذلك الولد الغريب الذى زج بنا فى السجن.

ـ كيف تطالب أحدًا بالتزام فضيلة أنت الذى لا تؤمن إلا بنزواتك؟

ـ ولكنه ادعى المثالية حتى أوجع رأسى..

فقالت بحماس ظاهر على الأقل:

ـ إنه ولد رائع.. مؤلف مرموق.. ابنى..

فقلت ساخرًا:

ـ إنى معجب بوحشيته!

ـ عندما يعود سأذهب معه هاجرة هذا البيت اللعين!

فقلت ساخراً:

ـ كل حجرة فيه تشهد لنا بالمجد . .

غادرتني عند ذاك فلبثت وحدى باسط الذراعين فوق المدفأة. كان يسعدنى بلا شك أن أعرف المزيد عن أبى. أكان من هؤلاء المنافقين؟. لقد عاجله الموت فسقطت أمى. ونشأت أنا تلك النشأة المتوجة بقرون الشيطان. أما أنت يا عباس فلغز غامض!. ما أشد الملل. إنى مثل شيطان حبيس قمقم لا يجد مجالاً للعبث . .

* * *

تابعت نجاح المسرحية باهتمام وشغف. توقعت أن يعود المؤلف ولو مع المسرحية الجديدة. توقعت أيضًا أن يغير نجاحه مجرى حياتى المملة. وكنت أتردد على المسرح بين الحين والحين لأتنسم الأخبار عنه. وفيما أنا أقطع المدخل ذات ضحى إذ هرع نحوى عم أحمد برجل، فمضى بى إلى داخل البوفيه الخالى. أقلقنى وجهه المكفهر المتقبض فاستشففت وراءه خبراً كئيبًا. قال:

ـ كرم. . كنت على وشك الذهاب إليك . .

فسألته:

ـ ماذا؟ . . ماذا عندك؟

ـ عباس . .

ـ ماذا عنه؟ . . هات ما عندك يا عم أحمد . .

ـ اختفى من بنسيون كان يقيم فيه فى حلوان تاركًا رسالة غريبة . .

ـ أى رسالة . . ألا تريد أن تتكلم؟

ـ كتب يقول إنه سينتحر!

غاص قلبى. وخفق مثل بقية قلوب البشر. تبادلنا النظر صامتين.

سألته:

ـ هل عثر على . . ؟

فأجاب بحزن:

ـ كلا . . البحث جار . .

تمتمت وأنا شارد الوعى:

ـ آه. . ربما . . من يدرى . . ولكنه ما كان يكتب الرسالة لولا . . فقال عم أحمد بنبرة من يعتبر المسألة منتهية:

ـ ربنا يلطف بكم . .

ـ يجب أن أذهب إلى حلوان . .

ـ لقد سبقك سرحان بك الهلالى . .

رحلة عقيمة وأليمة . لا توجد إلا الرسالة أما عباس فقد اختفى . مضى من الاختفاء الأول إلى الاختفاء الجديد . لن يعترف بانتحاره إلا إذا عثر على الجثة ، ولكن لم يكتب ما كتب إن لم يكن قد عقد العزم حقًا على الانتحار؟

وتساءل الهلالى :

ـ إذا كان يريد الانتحار حقًا فلم لم ينتحر فى حجرته؟

ـ أيداخلك شك فى صدقه؟

فأجاب ببساطة :

ـ أجل . . .

رجعت إلى البيت القديم مساء فلم أجد حليمة . أدركت أنها ذهبت إلى المسرح مستطلعة أسباب تأخرى . أغلقت المقلى الخالية وجلست فى الصالة أنتظر . وبعد مضى ساعة ثقيلة رجعت بعينين مترعتين بالجنون . تبادلنا النظر ثوانى ثم هتفت :

ـ كلا . . لو أراد أن ينتحر لانتحر بالفعل . . لا يمكن أن ينتحر . .

وانحطت على الكنبة وأجهشت فى البكاء وهى تلطم خديها . .

حليمة الكبش

أولد من جديد . من جوف السجن إلى سطح الأرض . ويهل علىّ وجه عباس فأحتويه بين ذراعى ، أدفن وجهى فى صدره مثقلة بالعار والخجل . همست :

ـ شد ما أسأنا إليك ، ليت الموت أراحك منا . .

قال برقة :

ـ ما يسيئنى إلا كلامك . .

ونشجت باكية فقال :

ـ الآن يطيب لنا الشكر . . دعينا نفكر فى المستقبل . .

فقلت بصوت مختنق :

ـ وحيد يا بنى . . ابتلاك اللّه باسترداد زوجتك وابنك . . ونحن لم نرحمك . .

ـ ما مضى قد مضى . .

لم يكد يتبادل مع أبيه كلمة. جمعتنا صالة البيت القديم كبعض الأوقات الماضية. وراح يقول:

ـ أرجو ألا نعود إلى ذكر الماضى..

وصمت قليلا ثم قال:

ـ فكرت فى أشياء.. ولكن هل يود أبى أن يرجع إلى عمله القديم فى المسرح؟

فقال كرم:

ـ كلا.. عليهم اللعنة..

ـ سأحول المنظرة إلى دكان، ممكن أن نبيع بعض الأثاث، ونجعل من المنظرة مقلى، تجارة يسيرة ومربحة.. ما رأيكما؟

فقلت بامتنان:

ـ الرأى ما ترى يا بنى.. أسأل اللّه أن أسمع عنك خبرًا قريبًا..

ـ بإذن اللّه.. أشعر بأننى قريب من النجاح..

فدعوت اللّه له كثيرًا حتى قال وهو ينقل عينيه بيننا:

ـ المهم أن يحل بينكما التعاون وألا أسمع ما يسيئنى..

فقلت بلهفة:

ـ طالما حلمت بأن أعيش معك..

ـ إذا أراد اللّه لى النجاح فسوف يتغير كل شىء..

وتساءل كرم بجفاء:

ـ ألا تتفضل بأخذها معك؟

فقال عباس بحرارة:

ـ أطالبكما بالتعاون.. سأبذل ما أستطيع لأوفر لكما حياة كريمة ولكنى أطالبكما بالتعاون..

أى تعاون؟!. إنه لا يدرى شيئًا. إنه أبرأ من أن يحيط بأسرار القلوب إذا نفثت دخانها. من أين له أن يعلم بما فعل أبوه وهو لم يشهد إلا سطحه الكئيب؟. إنه يبذل ما يجود به قلبه البار ولكن هل غاب عنه أنه يجمع بين خصمين فى زنزانة واحدة؟. من السجن إلى سجن، ومن المقت إلى ما هو أشد مقتًا. لا أمل لى يا بنى إلا أن تنجح وأن تنتشلنى من زنزانتى البغيضة.

أسترق إليه النظر وهو يعمل. يبيع الفول السودانى واللب والفيشار والحمص ويرمى بالقروش فى درج نصف مفتوح. بعد إدمان طويل للرزق الحرام الغزير. لا شك أنه

يحلم بالمخدر القاتل الذى شفاه السجن منه على رغمه. لولا أن عباس اشترط عليه أن نتقاسم الربح لبادرنا الخراب من جديد. دائمًا مكفهر الوجه لا يزيح قناع الأسى عن وجهه إلا فى حضرة الزبائن. تمادى فى العمر أكثر من الواقع بعشر سنوات وهذا يعنى أننى تماديت أيضًا. أيام السجن الحزينة. وليلة الكبسة التى استبقت فيها أيدى المخبرين بلطم وجهى. . آه. . الأوغاد. . لم يزرنا منهم أحد. الهلالى وغد مثل طارق رمضان. حجزوا فى القسم ليلة ثم أطلق سراحهم وحملنا الوزر وحدنا. حتى جيراننا يقولون إن القانون لا يصول ويجول إلا مع المساكين. يعزوننا ويشمتون بنا ولكنهم يتعاملون معنا. لا أمل لى يا بنى إلا أن تنجح. يمر الوقت دون أن نتبادل كلمة. حرارة المقت أقوى من موقد الفرن. وكم أشعر بالتعاسة وأنا أنظف البيت القديم الكريه أو وأنا أعد الطعام. كيف قضى علىّ بهذه الحياة؟. كنت جميلة ومثالاً فى التقوى والأدب. الحظ. . الحظ. . منذا يدلنى على معنى الحظ؟. ولكن اللّه مع الصابرين. وسوف يقول الحظ كلمته الأخيرة على يدك يا عباس. ولن أنسى زيارتك لنا ليلة مولد سيدى الشعرانى وقولك المفرج للكرب المفتح لأبواب السماء:

ـ أخيراً قبلت مسرحيتى. .

لقد انطلقت من صدرى ضحكة كاللؤلؤة، لم تترنم فيه منذ الشباب الأول. حتى أبوه تهلل وجهه. ما دخله فى الأمر. . لا أدرى. لقد كرهته كما كرهنى. حسن. . ها هو يستوى مؤلفًا لا خرافة كما توهمت. طالما عددت مثاليته سفاهة ولكن الخير ينتصر، ويجرف تياره المتدفق زبد السفلة من أمثالك.

* * *

لا أحب الخريف لولا أنه يقربنا من ليلة الافتتاح. من أين تجىء هذه السحب التى تحجب النور؟. ألا تكفينى السحب التى سبح فيها قلبى؟. وجاءنى صوت الرجل قائلاً:

ـ انظرى. .

رأيت طارق رمضان مقبلاً كحادثة سيئة من حوادث الطريق.

تساءلت:

ـ للتهنئة أم للشماتة؟

وقف قبالتنا يلقى بسلامه فى فراغ. قلت:

ـ أول زيارة من أهل الوفاء.

ولم ألق بالاً إلى اعتذارته حتى سمعته يقول:

ـ معى أخبار سيئة!

فقلت بتحد:

ـ لا تهمنا الأخبار السيئة . .

ـ حتى لو تكون عن الأستاذ عباس يونس؟!

هرب دمى . تماسكت ما وسعنى التماسك . قلت بزهو :

ـ قد قبلت مسرحيته . .

ـ ما هى إلا نكتة مبكية ، ماذا تدرين عن المسرحية؟

ـ وراح يسوق العجائب من خلال تلخيصه ويختم قائلاً :

ـ كل شىء . . كل شىء . .

دار رأسى . تساءلت وأنا أدارى رعبى :

ـ ماذا تعنى يا عدو عباس؟

ـ شاهدا المسرحية بنفسكما .

ـ أعماك الحقد .

ـ بل الجريمة .

ـ ما مجرم إلا أنت . .

ـ يجب القبض على قاتل تحية . .

ـ إنك مجرم خسيس وعليك أن تذهب . .

فضحك ساخراً وتساءل :

ـ كيف يقولون إن السجن تأديب وإصلاح؟ .

كبشت كبشة حمص ورميته بها فتراجع هازئا . ثم ذهب .

ماذا كتب عباس؟ . ماذا فعل؟ . ابنى لا يقتل ولا يخون . لا يخون أمه على الأقل . إنه ملاك .

تبادلت مع الرجل نظرة . يجب أن أخرج من وحدتى الأبدية .

قلت :

ـ إنه يكذب .

ـ ولم يكذب؟

ـ ما زال يحقد على ابنى .

ـ ولكن توجد مسرحية .

ـ اذهب إلى عباس . .

ـ سأقابله حتما .

ـ ولكنك لا تتحرك .

ـ لا داعى للعجلة .

فحنقت عليه . . إنه مثل طارق لا يحب عباس . هتفت :

ـ يجب أن يعرف ما يدبر من وراء ظهره .

ـ وإذا اعترف؟

ـ ستجد التفسير لكل شىء .

ـ لا أدرى .

ـ القاتل الحقيقى لا يفضح نفسه . .

ـ لا أدرى .

ـ تحرك .

ـ سأذهب طبعًا .

ـ أو أذهب أنا .

ـ ليس عندك ملابس لائقة .

ـ إذن فعليك أن تذهب أنت .

ـ الوغد يكذب .

ـ يجب أن تسمع بأذنك .

ـ ولكنه تراجع قائلاً :

ـ كره حياتنا . . كان مثاليًا كأنه ابن حرام . . ولكنه لا يغدر بنا . .

ثم لماذا يقتل تحية؟

ـ إنك تستجوبنى أنا .

ـ إنى أفكر .

ـ لقد صدقت ما قال الوغد .

ـ وأنت أيضًا تصدقينه .

كدت أبكى ولكننى أطبقت على شفتى وقلت :

ـ يجب أن نسمعه .

ـ الحق أننى لا أصدق .

ـ إنك تهذى . .

ـ اللعنة . .

ـ اللعنة حلت يوم ارتبطت بك .

ـ ويوم ارتبطت بك .

فقلت بتحد :

ـ كنت جميلة . . إنه سوء الحظ . .

ـ كان أبوك ساعى بريد أما أبى فكان موظفًا فى دائرة الشمشرجى .

ـ ذلك يعنى أنه كان خادمًا .

ـ أنا من أسرة . .

ـ وأمك؟

ـ مثلك تمامًا .

ـ مخرف . . ولكنك لا تريد أن تذهب . .

ـ سأذهب عندما يروق لى . .

ثم غير نبرته قائلاً :

ـ العصر أنسب وقت لوجوده فى بيته . .

سكت منادية الصبر المر . الشك يقتلنى من جذورى . ماذا يقال عن أشرف الناس؟ . الوردة النابتة فى خرابة . فى بلد اللصوص والضحايا . ابتاع لى قماشا لثوب يصلح للخروج ولكنى تقاعدت عن تفصيله . سأشرع من فورى فى تفصيله وحياكته . يعيرنى بأصلى ابن العاهرة . أما عباس فلا يمكن أن يخون أمه . احتقر كل شيء إلا حبى . الحب أقوى من الشر نفسه . .

* * *

بيت الهنا بالطمبكشية . الشمس لا تغيب حتى فى الشتاء والليل . حليمة الجميلة بنت الجميلة . أبى يرجع حاملاً شيئًا طيبًا تحبه الأنفس .

وتقول أمى لأبى :

ـ دعها تستمر . . التعليم فرصة العمر . . ليتنى وجدت فرصتى . .

ويقول قريبنا الطيب عم أحمد برجل :

ـ أصبحت البنت يتيمة . . الاستمرار فى التعليم مشقة . .

فتسأله أمى :

ـ وما العمل يا عم أحمد؟

ـ معها شهادة . . وهى ذكية . . يلزمها عمل . . ستخلو عندنا وظيفة قاطعة التذاكرة .

وتسألنى أمى :

ـ هل تحسنين عملاً كهذا؟

فأقول بلهفة :

ـ التمرين يكمل ما ينقصنى .

ويقول عم أحمد :

ـ الشمشرجى صديق الهلالى بك . . تشفعى به عنده وسأكلمه من ناحيتى .

ها هى الدنيا تتفتح عن تجربة جديدة . هكذا أدخل المسرح لأول مرة . مكان فخم ذو رائحة خاصة مؤثرة . عم أحمد يتضاءل ويلعب فيه دوراً صغيراً . أدعى إلى مقابلة المدير . أدلف إليه فى معبده الضخم بثوبى الأبيض البسيط وحذائى القديم . بهيكله العالى وعينيه الحادتين ونظرته المجتاحة يبدو كائنًا رائعًا شديد التأثير . تفحصنى حتى ذبت . يقدم لى فرخ ورق ليمتحن سرعة كتابتى للأرقام .

يقول بصوته الجهير :

ـ يلزمك تدريب قبل تسلم العمل يا . .

أقول بحياء :

ـ حليمة الكبش . .

يبتسم معلقًا :

ـ الكبش؟! . . ما علينا . . وجهك مقبول أكثر من وجوه ممثلات فرقتنا . . أريد أن أمتحنك عند انتهاء التدريب . .

أجتهد بحماس واثق . لا غيرة على مستقبلى . ولكن إرضاء لذلك الساحر الرائع . وأقول لأمى فتقول هكذا يكونون أولاد الأصول . أتخيل رضاه مثل نعمة مباركة . وأمثل بين يديه مضطربة الأنفاس . أنت تعويذة الفرقة يا حليمة . اللّه جميل يحب الجمال . متى بدأ مداعباته اللمسية؟ . كان شعاع الشمس النافذ من الزجاج يغمر وجهى وثمة مزمار بلدى فى الطريق يعزف راقصا . وأدفع يده المترامية لاهثة . لا يا سعادة البيك أنا بنت شريفة . تجلجل ضحكته فى أذنى . يتلاشى احتجاجى فى صمت الحجرة المغلقة الواسعة . عاصفة من الأنفاس الحارة والتسلل الماكر تشوش إرادتى الصادقة . إنه الكابوس الذى ينقشع عن دموع لا تستدر عطفًا . خارج الحجرة أحياء يذهبون ويجيئون . وتموت أمى قبل أن تعلم . .

* * *

تحرك أخيراً عند العصر . خف توتر أعصابى . إنى أتعلق بقشة ولكن ماذا أنتظر؟ .

على أن أعد الثوب لأستطيع الحركة. إنه يبوح بسره لى لا للرجل الكريه. ماذا يبقى لى الآن سوى عباس؟

* * *

الخيبة تجيء مع الأفيون. لا.. إنها أقدم من الأفيون. ما أعذب ما دفنت من آمال. يرشف آخر رشفة فى الكأس، يبتسم ابتسامة مخمورة، يشير إلى الحجرة الملاصقة للمنظرة ويقول:

ـ فى هذه الحجرة كانت أمى تخلو إلى الباشجاويش!

أذهل من هول المكاشفة. عباس نائم فى لفافة المهد. أقول غير مصدقة أذنى.

ـ سكرت يا كرم..

يهز رأسه قائلاً:

ـ كانت تحذرنى من مغادرة حجرتى..

ـ ما كان يجوز..

ويقاطعنى:

ـ لا أحب النفاق.. أنت منافقة يا حليمة..

ـ الله يغفر لها.. ألا زلت تحقد عليها؟

ـ ولم أحقد عليها؟

ـ إنى لا أفهمك.

ـ زوجك رجل لا مثيل له بين الرجال.. لا يؤمن بأى أكذوبة بشرية..

ماذا يعنى؟. إنه زوج لا بأس به لكنه يسخر من كل شيء. من إيمانى يسخر.. من مقدساتى وتقاليدى.. ماذا يحترم ذلك الرجل؟.

ها هو يهتك أمه دون مبالاة. أقول له:

ـ أنت مرعب يا كرم..

فيقول باستهانة:

ـ ذلك من حسن حظنا وإلا لطلقتك ليلة الدخلة..

انغرز دبوس محمى فى قلبى. دمعت عيناى. تلقيت ثانى ضربة قاسية فى حياتى. يقول:

ـ معذرة يا حليمة، متى تصيرين حرة؟

ـ أنت قاس وشرير..

ـ لا تهتمى بهذه الكلمات التى لا معنى لها .

ويحدثنى عن عشق أمه الجنونى للشرطى ، عن إهمالها له ، كيف نشأ حرا بفضل ذلك الإهمال الداعر .

ويقول بنبرة مخمورة :

ـ إنى مدين لها بكل شىء . .

إنه يطوقنى كشىء مرعب . إنى أعاشر قوة غير منتمية لأى قاعدة .

على أى أساس أتعامل معه؟ . الخيبة أقدم من الأفيون . الأفيون لم يجد روحًا ليقضى عليها . .

* * *

لمحته راجعًا فوثب قلبى رغم النفور . بدا فى الطريق أطعن فى السن مما يكون فى المقلى . . اتخذ مجلسه دون أن ينظر نحوى . سألته :

ـ ماذا قال لك؟

فقال ببرود :

ـ غادر شقته حاملاً حقيبته إلى مكان مجهول . .

يا للعذاب والرعب . . متى يكف الحظ عن التنكيل بى؟

ـ لم لَم يخبرنا؟

ـ إِنه لا يفكر فينا . .

أشرب إلى أنحاء المقلى قائلة :

ـ أحسن إلينا بوفاء لا نستحقه .

ـ يريد بعد ذلك أن ينسانا .

ـ كان عليك أن تذهب إلى الهلالى . .

رمقنى بازدراء وكراهية فقلت بتحد :

ـ إنك لم تحسن التصرف .

ـ أود أن أكسر رأسك .

ـ كأنك رجعت إلى الأفيون .

ـ لا يقدر عليه اليوم إلا الوزراء .

وإذا به يقول مخفضًا درجة صوته :

ـ الهلالى لا يدرى شيئًا عن مكانه .

فسألته بلهفة :

ـ زرته؟

ـ لا يدرى شيئًا عن مكانه.

ـ رباه.. هل أخلى شقته؟

ـ لا.

ـ لعل فى الأمر امرأة.

ـ تفكير سليم من وجه نظر امرأة مثلك..

ـ ماذا يمكن أن أقول لمثلك؟.. ثم إن أمره لا يهمك ألبتة.

وغلبنى البؤس فبكيت من أعماقى..

* * *

ذهبت مرتدية ثوبى الجديد متلفعة بشال قديم. لم أحمل معى أملاً وتؤكد هناك يأسى. قلت للبواب:

ـ عندك معلومات ولا شك؟

ـ أبدًا.

لم أجد شجاعة للذهاب إلى المسرح. رجعت كارهة. زرت سيدى الشعرانى واستغثت بكراماته. مضيت إلى الزنزانة لأجد الرجل يضاحك زبونًا وهو ناعم البال. جلست منهزمة حانقة. ونفد صبرى فقلت:

ـ أفعل شيئًا، أليس عندك حيلة؟

ـ أود أن أقتلك، سأقتلك ذات يوم..

ـ زيارة جديدة للمدير..

فقاطعنى:

اذهبى إليه أنت فهو يخص جواريه بعنايته..

ـ الحق أننى ضحية أمك، مارست تعذيبى من وراء قبرها، هى التى خلقت منك هذا الوحش!

ـ إنها تعتبر بالقياس إليك سيدة عفيفة!

* * *

هذا المسرح يشهد عذابى وحبى. شهد أيضًا اغتصابى ولم يمد لى يدا. تحت قبته العالية تدوى شعارات الخير فى أعذب بيان وتسفح على مقاعده الوثيرة الدماء وأنا ضائعة.. ضائعة.. محتقنة بسرى. وهو لا يدرى بحبى ولا يهمه شىء. لعله نسى اسمى أيضًا:

ـ إنك تتجنبنى . . شقيت حتى قابلتك . .

ـ هل ينقصك شىء؟

ـ ماذا؟ . . أنسيت؟ . . لقد فقدت كل شىء . .

ـ لا أحب المغالاة . . لم يحدث شىء ذو بال . .

طفرت الدموع من عينى .

ـ لا . . لا . . لا يجوز أن يلاحظ شىء فى المسرح . .

ـ ولكننى . . ألا تدرك حالى؟ . . لا تتركنى . .

ـ الأمر أبسط مما تتخيلين . . لم يحدث شىء ضار ألبتة . . احتفظى بصفاء ذهنك من أجل عملك ومستقبلك ، وانسى ما كان فلا فائدة ترجى من تذكره .

إنه الصوان . أمقته بقدر ما أحبه . مهجورة وحيدة معذبة . ستخمن خالتى سر عذابى ذات يوم . ماذا أرجو من دنيا لا يعبد فيها اللّه؟!

* * *

عند الأصيل ذهبت إلى مقهى الفن . رأيت فؤاد شلبى يدخن الشيشة فقصدته . لم يتوقع حضورى بحال فقام مرحبا وأجلسنى وهو يقول :

ـ كان يجب أن أزوركم ، اللعنة على الشواغل!

فقلت دون مبالاة :

ـ لم يزرنا أحد ، لا أهمية لذلك ، إنما جئتك مدفوعة بالقلق لاختفاء عباس . .

فابتسم وقال :

ـ لا داعى للقلق ، الأمر واضح ، لقد هرب من المتطفلين وخيراً فعل ، ولاشك أنه يعد مسرحيته التالية . .

ـ أما كان يجب أن يخبرنى؟

ـ اغفرى له خطأه ، لا تقلقى ، ما زلت جميلة كما كنت يا حليمة ، كيف حال كرم؟

ـ حى يمارس هوايته فى إتعاس البشر . .

فضحك ، وظلت ضحكته تثير أعصابى حتى غادرت المقهى .

وجدت الشجاعة والتصميم هذه المرة للذهاب إلى المسرح . طلبت مقابلة المدير . دخلت الحجرة . الحجرة نفسها . الكنبة الجلدية نفسها . الرجل نفسه . لا . . إنه رجل آخر . لم يبق من الآخر إلا نذالته . إدمان الشهوات كبره أكثر مما كبرنا السجن . أيهما المسئول أكثر عن تعاستى؟ وقف مرحبا . . هتف :

ـ أهلاً . . أهلاً . . يسعدنى أن أراك بخير . .

فتساءلت بسخرية وأنا أجلس :

ـ بخير؟!

ـ كما يجدر بأم مؤلف ناجح!

ـ إنه سر عذابى الراهن!

ـ يا له من عذاب لا أساس له، عندى خبر سار، لقد اتصل بى تليفونيًا . .

قاطعته بفرحة مشتعلة :

ـ أين هو؟

ـ لا أدرى . . إنه سره فليحتفظ به كيف شاء . المهم أنه مكب على تأليف مسرحية جديدة . .

ـ هل ترك عمله؟

ـ نعم . . إنها مجازفة، ولكنه واثق من نفسه وأنا واثق؟ . .

ـ لم يكلف خاطره بالاتصال بى؟

ـ يتجنب أن يستجوبه أحد عن مسرحيته . . هذا ما أتصوره . .

ـ لقد قالوا وعادوا . . ما رأيك أنت؟

ـ المسرحية فن، والفن خيال مهما استمد من الحقائق!

ـ ولكن ظنون الناس . . . ؟

ـ الجمهور لن يرى شيئًا من ذلك كله . . إنه سخف، ولولا حماقة طارق . .

فقاطعته :

ـ إنه عدوه عليه اللعنة . .

ـ أطالبك الآن بأن تقرى عينا . .

* * *

ـ بلغنى أن كرم يونس يطلب يدك؟

ـ أجل .

ـ ممكن إصلاح الأمر . .

ـ لا . . أرفض هذا النوع من الكذب .

ـ ستصارحينه؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ يا لك من فتاة استثنائية فى هذا الزمن المغمور بالسفلة، هل تكاشفينه بالفاعل؟

ـ لا أهمية لذلك . .

ـ الأفضل ألا تفعلى . .

* * *

مضيت إلى البوفيه . صاح أحمد برجل عند رؤيتى :

ـ خطوة عزيزة . .

جلست أمامه صامتة . راح يعد لى السندوتش والشاى ، هنأنا من أهل الأرض شخصان ، أحمد برجل وأم هانى . غمرتنى ذكريات المكان . الشاى والسندوتش والغزل . والمزمار الراقص فى الجحيم .

مثل قطرات مطر صافية أصابت مزبلة . وقال عم أحمد :

نجاح عباس حظ طيب وبشير بالعزاء عما سلف .

فقلت بأسى :

لكنه هجرنا بلا كلمة طيبة . .

لاتقلقى ، لايقلق أحد ممن حولنا لذلك . .

وطارق رمضان؟!

إنه نصف مجنون؟

* * *

التجربة عنيفة وجديدة . ثمة تصميم على الاعتراف وخوف يخرسنى فى آخر لحظة . إنى شريفة وطاهرة وأكره الخداع ولكن الخوف يخرسنى . يبدو لى كرم مثالا للجدية والحب ، فهل أفقده؟ .

وخرست حتى أغلق علينا بابنا هالنى عارية متوترة مستخذية بينى وبينه همست :

ضعفى فبكيت انتصبت الحقيقة عارية متوترة مستخذية بينى وبينه همست :

أنى مجرمة . . عجزت عن أن أخبرك من قبل . .

تحيرت فى مقلتيه نظرة ساهمة . ما أخشاه يقع . قلت :

خفت أن أفقدك ، وصدقنى لقد اغتصبت اغتصابا . .

وأخفيت عينى فى الأرض وانفعالاته تلفحنى . وقلت كلاما وقال كلامًا وضاع الكلام فى وقدة الألم . لكن صوته حفر فى وعيى وهو يقول :

ـ لايهمنى الماضى . .

ازددت بكاء ولكن بهرنى شروق غير متوقع . قلت إنه شهم وإننى سأكرس نفسى لإسعاده . وهمست وأنا أجفف عينى :

ما أسهل أن يضيع الأبرياء . .

* * *

ما أضيق صدرى وأن راجعة إليك . دخلت الزنزانة وجلست . سأقول كلمة عن لقاء فؤاد شلبى ولن أزيد . . لن أريحه . . إنه لايحب عباس . يتظاهر بعدم الاهتمام ليته يتعذب كما أتعذب . نحن نبيع التسلية أما تسليتنا الوحيدة فهى تبادل السباب .

فى الخيبة أمضى درجة بعد درجة لكن الشر الجديد يهدد أساس البيت .

ـ الأفيون مخيف جدا ، إنه يلتهمك !

ـ شكرا له على أى حال .

ـ إنك تنسحب من دنيانا بسرعة مزعجة

ـ أكرر له الشكر !

ـ إنى أبذل أقصى ما فى جهدى ، وهناك عباس وهو حبيبك مضى يرشف من قدح الشاى الأسود غائبا عنى .

ـ مرتبى لايكفى وحده للإنفاق على البيت . .

ـ عندك إيجار حجرة رمضان . .

ـ ولا هذا يكفى ، الدنيا نار . .

إنى الآن أعرفك ولذلك أخشاك . لست كما تصورتك فى أيامنا الأولى . ها أنت تفقد كل شىء حتى قدرتك التى تباهيت بها . استقل كل منا بحجرة خاصة . . لا حب وأيضا لاطعام؟! . أنت أنت الباقى يا عباس . لاتحفظ كلام بابا . . لاتصدقه فإنه مريض . من حسن الحظ أنك غالبا وحدك . الله معك . فيه الكفاية . كن ملاكا . ليكن صديقك المدرس والكتاب والمسرح . كن ابنى وابن الآخرين الطيبين . إنك النور الوحيد فى هذا البيت القديم الغارق فى الظلام . كن وحيداً فى كل شىء . .

* * *

يسترق إلىّ النظر أحيانا لعلى أبوح له بما لدى . هيهات . أتحداك أن تكرهنى أكثر . تساءل :

ـ عندما يجىء الشتاء فكيف نحتمل البقاء فى هذه المقلى المفتوحة؟

فقلت بثقة :

ـ عندما ينجح عباس يتغير المصير كله . .

فرد بمرارة :

ـ عندما ينجح عباس !

فقلت بتحد :

ـ سأذهب معه ولن يضن عليك بمعطف أو عباءة . .

* * *

البوفيه الأحمر باق كما كان ، يضحك من تغير رواده . . سمع الكثير مما يقال ولا يصدق أحدا . يقول لى عم أحمد برجل :

ـ هاك السندوتش وسأعد لك الشاى . .

ويجىء فيجلس على المقعد إلى جانبى شاب فيطلب أيضاً الفول والسندوتش . إنه من أهل المسرح فيما يبدو ولكنه ليس من الممثلين . شاب مقبول المنظر كبير الرأس والأنف . ويسألنى عم أحمد :

ـ هل من جديد عن الشقة يا آنسة حليمة؟

فأجيبه بشىء من التكلف أمام الغريب :

ـ البحث عن الذهب أسهل . .

وإذا بالشاب يسألنى :

ـ هل تبحثين عن شقة؟

فأجبت بالإيجاب وعارف عم أحمد بيننا فراح يسأل بجرأة

ـ من أجل زواج؟

آه . . بدأ الغزل . إنه يبدأ بسرعة فى هذا المسرح . ولا يتردد عن استعمال العنف . وتقتل الفريسة على أنغام المزمار البلدى .

ـ عندى بيت قديم مكون من طابقين .

ـ الطابق شقة؟

ـ كلا . . إنه ليس مقسما إلى شقق .

عم أحمد يسأله إن كان ممكنا أن أستقل بطابق فيجيب بالإيجاب سألته :

ـ ألا يضايق ذاك الأسرة؟

فأجاب بجرأته المعهودة :

ـ أنى أقيم فيه وحدى . .

أعرضت عنه فى استياء فقال بلباقة :

ـ ستجدين الطابق آمنا أنت وأسرتك . .

شكرته وصمت . لم يترك أثرا سيئا فى نفسى . ماذا يريد؟ . لا علم له بمأساتى . ولا بحبى . ولا بسوء ظن .

قلت أذهب إلى أم هانى بشقتها الصغيرة بالإمام حيث يقيم معها طارق رمضان . استقبلتنى بحرارة . وكان علىّ أن أنتظر حتى يستيقظ طارق من نومه . خرج من حجرته منفوش الشعر مثل شيطان وهو يقول بسخرية لاتناسب المقام :

ـ خطوة عزيزة

فقلت له دون لف أو دوران :

ـ أعتقد أنك زرت عباس قبل رحيله؟

ـ حصل . .

ـ لا أستبعد أنك أسمعته ما حمله على الرحيل . .

فقال بقحة :

ـ لقد شعر بالحصار فهرب .

فغضبت حتى طفرت الدموع من عينى فصاحت أم هانى :

ـ ألا يعرف قلبك الرحمة؟! ، ما هذا الذى يقال؟ ، لقد شهدت وفاة تحية ، وشهدت حزن عباس الجنونى!

دهشت وأنا أتلقى هذه الحقيقة وسألتها :

ـ هل يتفق ما شاهدته مع مايقال؟

ـ كلام فارغ . .

فقال طارق . .

ـ ما كان له أن يقتلها أمامك ياحمقاء .

ـ الحماقة أن تتصور عباس قاتلا . .

ـ اعترافه يتجسد على المسرح ليلة بعد أخرى . .

فقالت أم هانى :

ـ بفضله صرت ممثلا يصفق له الجمهور أكثر من إسماعيل نفسه .

ـ بفضل جريمته . . جريمته التى حملته على الهرب . .

فقلت بإصرار :

ـ إنه يقيم فى مكان هادئ ليتم مسرحيته الجديدة .

فقهقه ساخرا وهو يقول :

ـ مسرحيته الجديدة . . لا تحلمى يا أم عباس!

* * *

آه . . فى تلك الأيام كان معقولا ومقبولا رغم كل شىء

ـ ما رأيك ياحليمة . . طارق رمضان يرغب فى استئجار حجرة عندنا . . ؟

فقلت محتجة :

ـ لا . . لا . . فليبق فى مسكنه . .

ـ تشاجر مع أم هانى فاضطر إلى مغادرة البيت . . إنه يهيم بلامأوى والغلاء يرتفع يوما بعد يوم . .

ـ إنه لأمر كريه أن يقيم غريب بيننا . .

ـ إنه فى حاجة إلينا ونحن أيضاً فى حاجة إلى نقود .

ـ إنه أشبه بالمتشردين . .

ـ إنه طامع فى كرمنا ، فى كرمك أنت خاصة . . عندنا من الحجرات الخالية مايكفى جيشا !

وأذعنت كارهة . لم أحترمه قط . ممثل فاشل ويعيش بعرق النساء . ولكنى لم أتصور أن يفعل بنا مافعل .

* * *

ماندرى إلا وأم هانى تزورنا فى المقلى . زارتنا فى اليوم التالى لزيارتى لها . واضح أنها تريد أن تعتذر بالزيارة عن سوء معاملة رجلها لى . إنها فى الخمسين مثل طارق ولكنها بدينة ولاتخلو من حسن وحالتها المالية طيبة . قالت :

ـ إنهم يتحدثون عن نجاح المسرحية . . لم تنجح بهذا القدر مسرحية من قبل . .

فقلت بأسى :

ـ ولكن المؤلف لايريد أن يظهر . .

ـ سيجىء عندما يفرغ من مسرحيته الجديدة . .

وصمتت المرأة قليلاً ثم استطردت :

ـ ما أسخف مايقال . . ولكن طارق مجنون . . !

فتساءل كرم ساخرا :

ـ ألم يكن من الأفضل أن يقتل أمه ؟ !

كنت أميل إلى أم هانى ، ولم ينتقص من ميلى لها أنها قريبة زوجى . .

* * *

بيت الطمبكشية المكتظ بسكانه . مثل الباص تفوح منه رائحة المطاط . خالتى تخلى ركنا لتستقبل فيه عم أحمد برجل . تقول له :

ـ لا تنس التموين فاعتمادنا بعد الله عليك .

فيقول الرجل باهتمام غير عادى :

ـ جئت لما هو أهم!

ـ افتح الجراب ياحاوى .

ـ الأمر يتعلق بحليمة . .

ردت خالتى عينيها بينه وبينى فتصاعد الدم إلى خدى . تساءلت :

ـ هه . . عريس؟!

ـ صدق التخمين!

تطلعت إليه متسائلة فقال :

ـ كرم يونس

فتساءلت خالتى :

ـ ومن كرم يونس؟

ـ ملقن الفرقة .

ـ ما معنى هذا؟

ـ موظف محترم بالمسرح .

ـ تراه لائقا ياعم أحمد؟

ـ أعتقد ذلك ، ولكن المهم هو رأى العروس . .

ـ العروس قمر كما ترى . ولكننا فقراء ياعم أحمد .

وجاء دورى للكلام . كنت كسيرة الفؤاد ، أنطوى على سر دام . لاأحب العريس ولكننى لاأنفر منه . شاب مقبول ولعله يهبنى راحة البال وربما السعادة . قلت محاصرة بنظرات خالتى : لاأعرف عنه شيئاً ذا بال . .

ـ موظف ، يملك مسكنا ، ويشهدون له بالطيبة .

قالت خالتى :

ـ على خيرة الله . .

إنها تحبنى ولكنها ترحب بالتخلص منى . أنا كذلك أود النجاة من البيت المكتظ . وسرحان الهلالى وغد لاأمل فيه . .

* * *

ـ الحياة لاتطاق والجوع يتهددنا . .

رمقنى بسخرية وقال :

ـ وجدت الحل الذى يخرسك . .

ـ هل تحررت أخيرا من المخدر الجهنمى؟

ـ وافق الهلالى على أن يسهر هو وشلته فى بيتنا القديم!

لم أدرك مراده فقال :

ـ سنعد لهم حجرة للعب الورق وسوف يدر ذلك علينا رزقا سخيا .

فتساءلت فى ذهول :

ـ نادى قمار؟

ـ عندك دائما أبشع الأوصاف . . ماهو إلا ملتقى للأصدقاء

ـ ولكن . .

فقاطعنى :

ـ ألا تريدين حياة طيبة؟ . .

ـ ونظيفة أيضا!

ـ مادامت طيبة فهى نظيفة . . لاقذر إلا النفاق . .

فتمتمت بقلق :

ـ وهنالك عباس أيضا؟

فصاح بغضب :

ـ أنا صاحب البيت لاعباس . . ابنك مجنون . . ولكن يهمك ولا شك أن يجد الغذاء والكساء . .

* * *

كثيرا ماتختفى الشمس فى هذا الخريف وتغشى قلبى كآبة ثقيلة . ويستقبل الطريق الضيق كل يوم جنازة أو أكثر فيمضى بها إلى سيدى الشعرانى . والرجل كلما خلا من الزبائن راح يحدث نفسه . إنى أحلم بأمل يعدنى به عباس ولكنه لايجد مايحلم به .

* * *

لم لانسجل اللحظات السعيدة لنصدقها فيما بعد؟ . . أكان هو الرجل نفسه؟ أكان صادقا حقا؟

ـ إنى مدين لعم أحمد برجل بسعادة فوق احتمال البشر .

حركت رأسى بدلال وقلت :

ـ لا تبالغ!

فقال بصوت اضمحلت صفاته إلى الأبد:

ـ حليمة. . ما أسعد من لا يضيع خفقان قلبه فى العدم!

ورغم أنى لا أحبه فقد أحببت كلماته ودفئت بحرارته. .

* * *

جاء اليوم الموعود. قلبى يموج بالفرح والخوف. ذهبت إلى الحمام الهندى. أمدتنى أم هانى بفستان ومعطف وحذاء. رجعت من الكوافير بهالة جديدة من شعر طال إهماله. رمقنى الرجل بسخرية وقال: مازال لديك بقية من استعداد للدعارة فلم لاتستثمرينها فى هذه الأيام الداعرة المجيدة؟

صممت على ألا أكدر صفو الليلة بأى ثمن. ذهبنا إلى المسرح استقبلنا كما ينبغى لنا. رمقنى سرحان الهلالى بإعجاب. قلت:

ـ ولكنى لاأرى المؤلف.

فقال باسما:

ـ لم يحضر ولكنى أخبرتك بما فيه الكفاية.

تبدد الأمل الأول. أنطفأ الشعاع الباطنى المجدد لشبابى. ذهبنا لزيارة عم أحمد. كالعادة القديمة قدم لنا الشاى والساندوتش. تمتم ضاحكا:

ـ مثل الأيام الماضية. .

عم تتحدث ياعم أحمد. ليت ماكان لم يكن. حتى الثمرة الوحيدة المعزية غائبة. بوجودى فى المكان توترت أعصابى وازددت حزنا. . وفى الوقت المناسب دخلنا المسرح. انشرح صدرى فجأة بامتلاء المسرح وقلت:

ـ هو النجاح:

لم أسمع تعليقه. سرعان مارأيت البيت القديم ترفع عنه الستار. تتابعت الأحداث تجسدت أمام عينى عذابات حياتى. تجسدت بعد أن لم يبق منها إلا رواسب الأنين. وجدتنى مرة أخرى فى الجحيم. وأدنت نفسى كما لم أدنها من قبل. قلت هنا كان علىّ أن أهجره. هنا كان يجب أن أرفض. لم أعد كما كنت فى ظنى الضحية. ولكن ما هذا الطوفان من الجرائم التى لم يدر بها أحد؟ وما هذه الصورة الغريبة التى يصورنى فيها؟. . أهذا حقا هو رأيه فىّ؟. . ما هذا يا بنى؟ إنك تجهل أمك أكثر مما يجهلها أبوك وتظلمها أكثر منه. وهل اعترضت على زواجك من تحية بدافع الأنانية والغيرة؟ أى غيرة وأى أنانية؟. لا. . لا. . إنه الجحيم نفسه. إنك تكاد تجعل من أبيك ضحية لى.

أبوك لم يكن ضحية لشيء سوى أمه . هذه صورة جدتك لا أمك . ترانى عاهرة محترفة وقوادة؟ . ترانى القوادة التى ساقت زوجتك إلى السائح طمعًا فى نقوده؟ . أهو خيال أم هو الجحيم؟ . إنك تقتلنى ياعباس . لقد جعلت منى شيطان مسرحيتك . والناس يصفقون . . الناس يصفقون ! .

كنت ميتة تماما وأنا أدعى لحفل البوفيه . سألنى الرجل :

ـ نشترك أم نذهب؟

يتحدانى ويسخر منى ، ولكنى قلت له بتحد :

ـ كيف لانشترك؟ !

لكننى فى الواقع لم أشترك . انغمست فى غيبوبة محترقة . دوى رأسى بأصوات متلاطمة . . تماوجت أمام عينى وجوه غريبة تصرخ وتضحك بلا سبب . سينفجر رأسى وتقوم القيامة . لتقم القيامة . لتقم القيامة . لن يدركنى حكم عادل إلا بين يدى الله . قتلت وخنت وانتحرت فمتى أراك؟ . . هل يتأتى لى أن أراك؟

وصلنا البيت القديم عند الفجر . تهالكت فوق الكنبة فى الصالة على حين راح يشعل المدفأة . جاءنى صوته متسائلا :

ـ أعجبتك المسرحية؟

فقلت بفتور

ـ أعجبت الجميع

ـ والموضوع؟

ـ موضوع قوى !

ـ لم نتظاهر بغير مافى نفوسنا؟

ـ لاتفكر كطارق رمضان الحاقد .

ـ كل شيء حقيقى أكثر من الحقيقة . .

فقلت بغضب :

ـ لاعلاقة بين دورى فى المسرحية وبين الحقيقة . .

فضحك ضحكة كريهة ، فقلت متخطية عذابى :

ـ إنه الوهم

ـ الجميع كما عرفناهم فى الحياة . .

ـ الجديد المتخيل أكثر من الواقع بكثير .

ـ لم صورك فى تلك الصورة؟

ـ المؤلف شخص آخر غير ابنى .

ـ توهمت كثيرا أنه يحبك ويحترمك!

ـ لاشك فى ذلك .

ـ وجهك يشهد بنقيض لسانك .

ـ إنى واثقة من نفسى . .

ـ حتى طارق . . يا لك من امرأة فذة! . .

صرخت :

ـ أرحنى من أفكارك القذرة .

ـ ذلك الولد الذى زج بنا فى السجن!

ـ لم يكن يصور نفسه ، كان يصورك أنت .

ـ كم ادعى المثالية! . .

فقلت مغالية اليأس فى قلبى :

ـ عندما يعود سأذهب معه . .

وغادرته إلى حجرتى . أغلقت الباب وأفحمت فى البكاء . كيف لا تعرف أمك ياعباس؟!

* * *

يهبط السلم مترنحا يكاد يقع من الإعياء . . يرانى فيقول :

ـ كولونيا . . أنا فى غاية الإرهاق . .

أدخل حجرتى لأجيئه بالكولونيا فيتبعنى . أقول :

ـ إليك الكولونيا . .

ـ شكرا . . شربت أكثر مما يجوز .

ـ وكان حظك سيئا من أول السهرة . .

ينتعش قليلا . . ينظر إلىّ . يقوم إلى الباب فيغلقه . أتحفز الرد .

يقول :

ـ حليمة . . إنك رائعة! .

ـ هلم إلى فوق . .

اقترب منى فتراجعت مقطبة .

ـ أتخلصين لهذا الحيوان؟

أقول بجدية :

ـ إنى امرأة شريفة وأم . .

وثبت إلى الباب ففتحته . تردد ثانية واحدة ثم غادر الحجرة إلى خارج البيت .

* * *

ما من أحد منهم إلا راودنى عن نفسى فرفضته . عاهرة؟! . لقد اغتصبت مرة ، عاشرت أباك زمنا قصيرا ثم ترهبنت ، إنى راهبة لا عاهرة يابنى . هل صور أبوك لك تلك الصورة الكاذبة؟ إنى امرأة محرومة تعيسة الحظ . ليس لى أمل سواك فكيف تتصورنى فى تلك الصورة؟! . سأحدثك عن كل شىء ، ولكن متى ترجع؟! .

* * *

المعربدة يتسللون إلى بيتنا العتيق بليل . . بقلوبهم الآثمة المستهترة يدنسون الطريق المفضى إلى سيدى الشعرانى . قلبى يهبط وأن أطالع نظراتهم الفاجرة ويطوف فى إشفاق حول حجرة عباس . لكنك جوهرة يابنى ولايجوز أن تختنق فى وحل الفقر . ها أنا أرحب بهم فى مرح مصطنع وأتقدمهم إلى الحجرة فى الدور الأعلى التى أعدت بقرض لاستقبالهم . وسأعمل لهم ساقية تقدم الطعام والشراب ولاأدرى أين أقف فى المنحدر الوعر . .

ـ ياحبيبى لاتنزعج ، إنهم أصدقاء أبيك ، كل الرجال يفعلون ذلك . .

ـ وأنت يا أمى ما شأنك وذلك؟

ـ إنهم زملائى فى المسرح ولا يليق بى إهمالهم . .

ويقول سرحان الهلالى وهو يتخذ مجلسه إلى المائدة :

ـ مكان طيب وآمن . .

إسماعيل يفنط الورق . فؤاد شلبى يقول ضاحكا :

ـ ممنوع جلوس تحية جنب طارق . .

كرم يقف وراء الصندوق فى طرف المائدة . طارق يعلق ضاحكًا :

ـ صندوق نذور سيدى كرم يونس!

سرحان يقول محذرا :

ـ لاصوت يعلو على صوت المعركة

كرم يذيب الأفيون بالشاى الأسود ، يالها من بداية لاتعرف لها نهاية . . !

* * *

رجعت إلى الزنزانة كما رجعت الملابس إلى صاحبتها . ها هو يجلس بوجهه الكئيب

الشارد. يبيع الفول واللب ويشارك مع الزبائن فى التشكى من الزمان. قلت وكأنما أحادث نفسى:

ـ نجحت المسرحية وحسبنا ذلك عزاء.

فقال:

ـ لايمكن الحكم قبل مرور أسبوع.

ـ انفعال الجمهور، الانفعال هو كل شىء..

ـ ترى كم أعطاه الهلالى ثمنا لها؟

ـ أول عمل يباع بأبخس الأثمان، وعباس لايهتم بالمادة..

قهقه ساخرا، فلعنته فى سرى.

* * *

فى الحجرة المترامية يرمقنا إله الشر باسما ويتمتم:

ـ أهلا حليمة.. أخمن أن ابنك يقدم مسرحية جديدة؟

ـ هو ذلك.

يقول مخاطبا عباس:

ـ المسرحيات السابقة لاقيمة لها.

فيقول عباس:

ـ إنى أنتفع دائما بإرشاداتك.

ـ بودى أن أشجعك إكراما لوالدتك على الأقل

* * *

الأسابيع تتلاحق والنجاح يستفحل. لم يعرف المسرح نجاحا كهذا من قبل. الأسابيع تتلاحق والأشهر. متى يظهر المؤلف؟ ليكن رأيك مايكون، فلأتألم ماشاء لى الألم ولكنى أين أنت؟.. وقلت لأسمع الرجل:

ـ لاشك أنهم فى المسرح يعرفون جديدا عن الغائب..

ـ ذهبت إلى هناك آخر مرة منذ عشرة أيام..

لم أطالبه بشىء تحاميا للسانه. كان يتردد على المسرح من آن لآن أما أنا فلم أجرؤ على الذهاب منذ ليلة الافتتاح. لكنه ذهب فى ضحى اليوم التالى. إنه يوم دافئ، مشرق الشمس، وقد خفق قلبى بأمل ملهم.

* * *

أتصور عجائب وغرائب ولكنى لا أتصور أن يتزوج عباس من تحية. سيذهب عباس ويبقى طارق رمضان فأين عدالة السماء؟

ـ عباس، إنها تكبرك بعشرة أعوام على الأقل. .

إنه يبتسم فى استهانة فأقول:

ـ لها سيرة وتاريخ ألا تفهم مايعنيه ذلك؟

ـ المسألة أنك لم تعرفى الحب. .

تقلص باطنى بمرارة وتذكرت أحزانى الدفينة فعاد يقول:

ـ سنبدأ حياة جديدة. .

ـ لايمكن أن يتحرر إنسان من تاريخه. .

ـ تحية رغم كل شىء طاهرة. .

لم أكن منصفة ونسيت نفسى. كنت أتمنى له مصيرا أفضل. هذا كل ما هنالك. وقد زارتنى تحية. بدت حزينة ومصممة. قالت لى بتوسل:

ـ لاتقفى فى سبيل سعادتى.

فقلت لها بحدة:

ـ إنك تسرقين البراءة

ـ سأكون خير زوجة له. .

ـ أنت!

تضايقت من لهجتى فامتقع لونها وقالت:

ـ كل امرأة فى المسرح بدأت من سرحان الهلالى!

تقبض قلبى. أجل كل واحد هناك يعرف مايعرفه. ويستنتج ما لا يعرف. كأنها تهددنى. إننى أمقتها، ولكنه سيبقى ابنى رغم كل شىء.

* * *

ألم يتأخر الرجل عن ميعاد عودته؟

بلى. ها هى الشمس تسحب أطراف ذيلها من جدران الشارع الضيق فماذا أخره؟ . . هل عرف أخيرا مكانه فقصده؟ . . هل يجيئان معا؟ . . إنى أتخيل وجهه المهذب الباسم وهو يعتذر. وأؤمن بأن هذا العذاب لايمكن أن يستمر إلى الأبد. . أجل أطلعتنى المسرحية على كوامن ضعفى ولكننى حافظت دائما على نقاء قلبى. ثم ألم أكفر عن ضعفى بما فيه الكفاية؟ . . من كان يتخيل تلك الحياة مصيرا لحليمة الجميلة الطاهرة؟ . .

لايخفق قلبى الآن إلا بالسماحة والحب فاقض يا رب بما أنت قاض. حتى كرم سأغفر له وحشيته تقديرا لتعاسته.

سأغفر له كل شىء عندما يعود متأبطا ذراع حبيبى الغائب. قلبى يخفق بإلهام عجيب ولكن مرور الوقت يكدره. وقال لى زبون وهو يمضى بلفافته:

ـ أنت يا أم عباس فى دنيا أخرى. .

ترامى إلى أذان العصر والعتمة تزحف فوق نهار الشتاء القصير. ليس تأخره بلاسبب. إنه لايقيم وزنا لانتظارى الملهوف ولكن ماذا أخره؟. الشمعة تحترق وريح الشتاء تعصف بذبالتها. وقفت وليس فى نيتى أن أجلس ثانية. لقد تغير قلبى. خاننى بلاترفق. ونفد صبرى لابد أن أذهب. أول من صادفنى عند باب المسرح كان فؤاد شلبى.

أقبل بحنان غير معهود وبسط لى يديه وهو يقول:

ـ أرجو أن يكون خبرا كاذبا. .

فتساءلت وأنا أفقد البقية الباقية من الأمل:

ـ أى خبر؟

فارتبك الرجل ولم ينبس فتساءلت:

ـ عن عباس؟

فأحنى رأسه بالإيجاب ولم يزد. وغبت عن الوجود.

أفقت فوجدتنى مستلقية على كنبة فى البوفيه وعم أحمد يعنى بى، وفى المكان فؤاد شلبى وطارق رمضان. حكى لى عم أحمد الخبر بصوت جنائزى ثم ختم بقوله:

ـ لاأحد يصدق. .

أوصلنى فؤاد شلبى بسيارته. تساءل فى الطريق:

ـ إذا كان انتحر فأين جثته؟

فسألته:

ـ ولم كتب الرسالة؟

فأجاب:

ـ ذاك سره. . وسنعرفه فى حينه. .

ولكننى أعرف سره. . أعرف قلبى. أعرف حظى. . عباس انتحر الشر يعرفه المزمار.

عباس كرم يونس

البيت القديم والوحدة هما رفيقا عمرى الأول. أحفظه عن ظهر قلب. بوابته مقوسة الهامة. شباك المنظرة ذو القضبان الحديدية، حجراته فى الطابقين ذوات الأسقف العالية والعروق الخشبية الملونة وبلاط أرضياتها المعصرانى. أثاثه القديم الشاحب من الكنبة والشلت والحصر والأكلمة، وزجاج شراعات أبوابه بقطعه الملونة بالأحمر والأخضر والبنى. وأحياؤه من الفئران والصراصير والأبراص.

وسطحه المغطى بحبال الغسيل مثل أسلاك الترام والتروللى باص. المطل على أسطح تكتظ بالنساء والأطفال فى عصارى الصيف. أجول فيه وحدى، وصوتى يتردد بين أركانه مستذكرا درسا أو مسمعا شعرا أو مقلدا مقطوعة مسرحية أو منشداً أغنية. أطل على الطريق الضيق متابعا تيار الخلق، تواقا إلى رفيق ألاعبه. ينادينى غلام قائلا:

ـ انزل.

فأجيبه:

ـ الباب مغلق والمفتاح. مع أبى..

اعتدت الوحدة بالنهار والليل فلا أخافها، ولاأخاف الشياطين.

يقول أبى ضاحكا:

ـ لاشيطان إلا ابن آدم..

فتبادرنى أمى:

ـ كن ملاكا

وأتسلى عند الفراغ بمطاردة الفئران والأبراص والصراصير. قالت لى أمى ذات يوم:

ـ كنت أحملك معى وأنت وليد فى مهد من الجلد وأضعك على أريكة إلى جانبى فى حجرة قطع التذاكر وطالما أرضعتك فى المسرح.

ذلك عهد لا أتذكره ولكنى أتذكر عهد أحدث نسبيًا وأنا فى الرابعة أو حوالى ذلك فكنت أتجول فى صالة المسرح أو وراء الكواليس. وأستمع فيما بين هذا وذاك إلى ممثلين وهم يحفظون أدوارهم فتمتلىء أذناى بأناشيد الخير والمواعظ ونذر الشر والجحيم فأتلقى تربية لم تتح لى على يدى والدىّ الغائبين عنى دواما بالنوم والعمل. وعند العرض الأول لكل مسرحية جديدة كنت أشهدها مع والدى وأمضى الوقت بين الانبهار والنعاس.

وأيضا تلقيت أول كتاب مصور عن ابن السلطان والساحرة أهدانيه فؤاد شلبى . . هكذا عرفت بطل الخير وشيطان الشر فى المسرح، ولم يكن لدى أحد من والدىّ وقت لتوجيهى، فضلا عن أن والدى لايكترث بالتربية بتاتا على حين قنعت أمى بوصية فريدة ترددها لى :

ـ كن ملاكا .

وتشرح لى معنى الملاك بأنه المحب للخير المانع للأذى النظيف الجسد والملبس . فولى أمرى الحقيقى هو المسرح ثم الكتاب عندما يجىء وقته وآخرون لايمتون بصلة إلى أبوىّ .

لذلك سرعان ما أحببت المدرسة لدى إلحاقى بها . انتشلتنى من الوحدة وجادت علىّ بالرفاق . وكان علىّ أن أعتمد على نفسى فى كل خطوة . أستيقظ مبكراً، أتناول إفطارى البارد من الجبن والبيض المسلوق فى الطبق المغطى بالفوطة . أرتدى ملابسى وأغادر البيت فى هدوء حتى لاأوقظ أبوىّ النائمين . أرجع عصرا فأجدهما يستعدان لمغادرة البيت إلى المسرح . أبقى وحدى، أؤدى واجباتى المدرسية، ثم أتسلى باللعب المنفرد والقراءة ـ المصورة ثم المكتوبة ـ ولا أنسى هنا فضل عم عبده بياع الكتب المستعملة الرابض بمجلسه عند مسجد سيدى الشعرانى وأتناول عشائى المكون من الجبن والحلاوة الطحينية ثم أنام . لاأحظى برؤية والدىّ إلا فيما بين العصر والأصيل، وحتى تلك الفترة القصيرة يضيع جانب منها فى الاستعداد للخروج، ولايبقى للمؤانسة والرعاية إلا القليل . . وتعلق بهما قلبى وأشواقى، سحرنى جمال أمى وعذوبتها وحنانها، والملائكية التى تدعونى إليها . وبدا لى أبى كائنا رائعا بمداعباته الرقيقة، وضحكاته السخية . ولم يفسد جو اللقاء المحدود بتحذير أو إرشاد أو تهديد، وآثر دائما أن ينفقه فى دعابة ومرح، ولم يزد عن أن يقول لى أحيانا :

ـ تمتع بوحدتك، أنت ملك البيت، ماذا تريد أكثر من ذلك؟، الولد الوحيد الذى لايعتمد على أحد، كذلك كان أبوك، وستكون أروع منه . .

فتسارع أمى قائلة :

ـ إنه ملاك، كن ملاكا ياحبيبى . .

وأسأل أبى :

ـ هل كان جدى وجدتى يتركانك وحدك أيضا؟

فيجيب ضاحكا :

ـ أما جدك فقد تركنى إلى الآخرة قبل أن أعرفه وأما جدتك فكانت موظفة بالداخلية . .

وتقطب أمى فأشعر أن وراء الكلام سرا ما وتقول :

ـ مات جدك مبكرا ولحقت به جدتك فوجد أبوك نفسه وحيدا . .

ـ فى هذا البيت نفسه؟

ـ أجل . .

ويقول أبى :

ـ لو نطقت الجدران لحدثتك بأعجب الحكايات . .

كان بيت الوحدة ولكنه كان بيت الوئام أيضا . وقتذاك كان أبى وأمى زوجين متوافقين، أو هكذا بدوا لعينى فيما بين الأصيل والعتمة . يتبادلان الحديث والدعابة . ويشتركان فى عاطفة صادقة نحوى . وكان أبى يميل إلى الانطلاق فى التعبير فتوقفه أمى بنظرة تحذير ألحظها أحيانا فأتساءل . ولحظة ذهابهما كانت لحظة أليمة، لذلك كنت أنتظر يوم الخميس بنفاد صبر لأذهب معهما وأشاهد المسرحية . وكلما تقدمت فى التعليم والقراءة طالبت بمزيد من القروش لشراء الكتب حتى كونت مكتبة من قصص الأطفال المستعملة . . وقال لى أبى :

ـ ألا يشبعك أنك تشاهد المسرح كل أسبوع؟

ولكنى لم أكن أشبع . ووثبت بى الأحلام إلى آفاق جديدة حتى قلت له ذات يوم :

ـ أريد أن أكتب مسرحية!

فقهقه عاليا وقال :

ـ احلم بأن تكون ممثلا فهو أفضل وأربح . .

ـ وعندى فكرة أيضا . .

ـ حقا؟

ورحت أحكى له فكرة فاوست وكانت آخر ماشاهدت بلاجديد أضيفه إلا أننى جعلت بطلها غلاما فى مثل سنى، فتساءلت أمى :

ـ وكيف ينتصر الغلام على الشيطان؟

فأجاب أبى :

ـ ينتصر الإنسان على الشيطان بوسائل الشيطان نفسه!

فهتفت أمى :

ـ احتفظ بأفكارك لنفسك، ألاترى أنك تحدث ملاكا؟

منذ سن مبكرة تشبعت بحب الفن والخير . ناجيتهما طويلا فى وحدتى . وعرفت بهما

بين أقرانى فى المدرسة . تميزت بينهم لما غلب على أكثرهم من العفرتة . وكلما ضاق المدرس بهم صاح :

ـ يا أبناء حى الغوانى !

وملت إلى نخبة قليلة عرفت بالمثالية البريئة حتى كونا من أنفسنا جمعية أخلاقية لمقاومة الألفاظ البذيئة . . وكنا نردد الأناشيد ونصدقها ونؤمن بمصر الثورة الجديدة وعلى حين نذر البعض أنفسهم لبطولات خارقة، عسكرية أو سياسية، فقد نذرت نفسى للمسرح وتصورته منبرا للبطولة أيضا، ويناسب من ناحية أخرى ضعف بصرى الذى جعلنى أستعمل النظارة الطبية قبل إنهاء دراستى الابتدائية ومهما يكن من اختلافنا فقد حلمنا بعالم مثالى جعلنا أنفسنا على رأس مواطنيه المثاليين . وحتى الهزيمة لم تزعزع أركاننا، ومادامت الأناشيد لم تتغير، ولاتغير الزعيم، فماذا تعنى الهزيمة؟ لقد شحب وجه أمى وغمغمت بكلمات غير مفهومة، أما أبى فهز منكبيه كأن الأمر لايعنيه وراح يردد بصوت أجش ساخر :

بلادى بلادى فداك دمى .

وقد توقف المسرح عن العمل أياما فنعمت ببقاء والدىّ فى البيت طيلة الوقت مرة . واصطحبنى أبى معه إلى مقهى بشارع الجيش فتذوقت تجربة جديدة . وإذن فإن الهزيمةلم تخل من نتائج طيبة غيرمتوقعة وإن تكن قصيرة الأجل .

تقول أمى وهى تملأ أقداحنا بالشاى :

ـ عباس . . سيسكن عندنا غريب!

رنوت إليها غير مصدق فقالت :

ـ إنه صديق أبيك ، وأنت أيضا تعرفه، فهو طارق رمضان .

ـ الممثل ؟

ـ نعم ، اضطر إلى ترك مسكنه ولم يجد فى أزمة المساكن حلا آخر . تمتمت فى غير ارتياح :

ـ إنه ممثل تافه . . ومنظره لايسر . .

ـ الناس للناس وأنت ملاك يا حبيبى . .

وقال أبى :

ـ سيجىء مع الفجر وينام حتى العصر ويظل البيت مملكتك الخاصة عدا حجرة واحدة!

لم أشعر بمجيئه قط ولكنه كان يذهب عادة مع والدىّ أو فى أعقابهما . كان وقح النظرة

فظ التعبير . وجعل يهتم بى اهتماما متكلفا مجاملة لأبوىّ ولكنى لم أحترمه . وشاهد مكتبتى يوما من مجلسه فى الصالة فسألنى !

ـ كتب المدرسة؟

فقالت أمى بزهو :

ـ كتب أدب ومسرحيات ، إنك تحدث مؤلفا مسرحيا !

ـ اللعنة على المسرح ، ليتنى كنت بياع خردة أولحمة رأس .

عند ذاك سألته :

ـ لم لا تمثل إلا أدوارا صغيرة؟

فسعل سعلة غليظة وقال :

ـ قسمتى ! . . حظ أعرج يطاردنى ، ولولا شهامة أبيك لاضطررت للبيات فى المراحيض العمومية . .

فقالت له أمى :

ـ لا ترعب الأستاذ بكلامك يا طارق . .

فقال ضاحكا :

ـ على المؤلف أن يعرف كل شىء ، والشر خاصة ، فمن الشر ينبع المسرح :

فقلت بحماس برىء :

ـ ولكن الخير ينتصر دائما . .

فقال ساخرا :

ـ هو كذلك فى المسرح . .

* * *

ثمة تغير مبهم يزحف بهدوء وحذر كالليل . ليس الصمت هو الصمت ، ولا الكلام هو الكلام ، ولا أبى هو أبى ، ولا أمى هى أمى . أجل لم تكن الحياة تخلو من اختلاف أو نقار ولكنها كانت تمضى فى إطار معاشرة طيبة . ما هذا الغامض الخفى الذى تسلل بينهما؟ . كانت لها إشراقة دائمة فتلاشت . وكان يعيش خارج ذاته فى قهقهات وسخريات وملاطفات فانطوى على ذاته . علاقة أمى بى ـ إلى الحنان القديم ـ اتسمت بأسى لم تفلح فى مداراته أما أبى فأهملنى تمامًا . تسرب إلى جنبات نفسى قلق وتوقعات مجهولة غير سارة . وفى مجلس الشاى قبيل الذهاب سمعت طارق يقول لهما مرة :

ـ لا تستسلما للشيطان . .

فقالت له أمى بمرارة :

ـ ما الشيطان إلا أنت .

فقال أبى محتجًا :

ـ لست قاصراً . .

ولم تسترسل أمى إكرامًا لحضورى فيما توهمت . ولما غادروا البيت انتابنى شعور بالحزن والضياع . لقد حدث شىء ما فى ذلك من شك إنى أسأل أمى فتتهرب منى متظاهرة بالاستهانة . واسمع حواراً محتدمًا بينها وبين أبى وهما منفردان فى الصالة فأنكمش وراء الباب الموارب متصنتًا . تقول له بتوسل :

ـ ما تزال توجد فرصة للنجاة .

فيقول لها بغلظة :

ـ لا تتدخلى فى شئونى الخاصة .

ـ لكن فعلك ينعكس علينا ، ألا تدرك ذلك؟

ـ إنى أكره المواعظ .

ـ الأفيون قتل زوج خالتى !

ـ هذا يثبت أنه لا يخلو من فائدة .

ـ لقد تغيرت أخلاقك ولم تعد تحتمل . .

اقتحمنى الخوف . إنى أعرف الأفيون . عرفته فى مسرحية «الضحايا» . مناظر الهالكين لم تبرح ذاكرتى . هل يصير أبى واحداً منهم؟ . هل يترك أبى المحبوب للفناء؟! . وانفردت بأمى فى الصالة قبل مجىء أبى وطارق رمضان . رمقتها بحزن فسألتنى :

ـ مالك يا عباس؟

فقلت بصوت متهدج :

ـ إنى أعرف ، إنه شىء خطير ، لم أنس مسرحية الضحايا . .

ـ كيف عرفت؟ . . لا ، ليس الأمر كما تتصور . .

وجاء أبى منفعلاً مما قطع بأنه سمعنى وصاح بى :

ـ يا ولد الزم حدودك . .

فقلت له :

ـ إنى أخاف عليك . .

فصاح بصوت أفظع من الأول :

ـ اخرس وإلا كسرت رأسك . .

وأخذت وأنا أراه فى صورة جديدة متوحشة. تبدد حلم سعيد طويل. انسحبت إلى حجرتى. تخيلت منظراً مسرحيًا متكاملاً يبدأ بطرد طارق وينتهى بتوبة أبى على يدىّ وقلت إن الخير ينتصر إذا وجد من ينصره. ولكن الحال مضى من سيئ إلى أسوأ. أبى يزداد انطواء. تلاشى الأب القديم. يغيب عنا وإذا دعاه داع إلى اليقظة فلكى يصب اللعنات والإهانات. بت أخافه وأتحاشاه. أسى شقية ولا تدرى ماذا تفعل. وتسأله مرة:

ـ أجرى وحده لا يكفى بيتك..

فيقول لها..

ـ انطحى الجدار.

أجل لم تعد المعيشة كما كانت. تقشف فى الطعام وتراجع فى المصروف. أنا لا يهمنى الطعام ولا النقود. كيف أقتنى الكتب؟. حياة الروح لا تستغنى عن النقود للأسف الشديد. وأتعس ما رميت به أننى فقدت أبى. أين ذلك الرجل القديم؟. يثور على نظرة عينى ويقول لى:

ـ إنك أنموذج سيئ لا يصلح للحياة..

وتدهور الحال حتى انفصلا تمامًا فاستقل كل منهما بحجرة. تفتت البيت. بتنا سكانا غرباء فى طابق واحد. عز علىّ مصير أمى. ومن ذلك المنطلق تخيلت موقفًا مسرحيًا يدور حول معركة بين أبى وطارق، يقتل أبى طارق رمضان ثم يقبض عليه ويمضى وهو يقول لى «ليتنى سمعت كلامك». يعود الطهر إلى البيت القديم ولكنى أشعر بالندم. الندم على قسوة خيالى. وأسأل أمى:

ـ كيف تواجهين تكاليف الحياة وحدك؟

ـ إنى أبيع أشياء صغيرة. انتبه لعلمك فأنت الأمل الوحيد الباقى..

ـ قلبى معك.

ـ أعرف ذلك ولكن لم يحن الوقت بعد لتحمل همومنا. يجب أن تعمل من أجل مهنة مفيدة..

ـ حلمى أن أكون مؤلفًا للمسرح..

ـ مهنة لا تضمن لك ثروة.

ـ إنى أحتقر المادة، أنت تعرفين كل شىء عنى..

ـ احتقر المادة ولكن لا تتجاهلها..

فقلت لها بحماس:

ـ سينتصر الخير يا أمى..

إنى أدمن الحلم كما يدمن أبى الأفيون. بالحلم أغير كل شىء وأخلقه. أكنس سوق الزلط وأرشه، أجفف طفح المجارى، أهدم البيوت القديمة وأقيم مكانها عمارات شاهقة، أهذب الشرطى، أسمو بسلوك الطلاب والمدرسين، أوفر الطعام من الهواء، أمحق المخدرات والخمر.

ويجلس أبى فى الصالة ذات عصر وهو يشذب شاربه بملقاط وقبالته طارق يرفأ جوربه. ويقول طارق:

ـ لا يخدعك فقر الفقراء فالبلد ملأى بأغنياء لا يدرى بهم أحد.

فقال أبى:

ـ الهلالى يربح ذهبًا..

فيضحك طارق قائلاً:

ـ طظ فى الهلالى وذهبه، حدثنى عن النساء وفائض البترول!

ـ يعجبنى الجنون ولكننا عاجزون..

وتدخلت قائلاً:

ـ كان أبو العلاء يعيش على العدس وحده..

فصاح بى أبى:

ـ انقل هذه الحكمة لأمك!

وألوذ بالصمت وأنا أقول لنفسى «يا لهما من حيوانين».

❊ ❊ ❊

تحية أمامى وجهًا لوجه. ناضجة الأنوثة جذابة العينين. نظرت إليها فى ذهول وأنا لا أصدق عينى. فى الأيام السابقة للامتحان كنت أسهر الليل وأنام فى النهار. فتح الباب وأنا أتمشى فى الصالة ودخلت تحية أما أبى وأمى فقد سبقا للنوم. دخلت تحية وفى أثرها طارق رمضان. إنى أعرفها وطالما رأيتها فوق خشبة المسرح تقوم بأدوارها الثانوية مثل طارق:

نظرت إليها بذهول فقالت باسمة:

ـ ماذا يوقظك فى هذه الساعة المتأخرة:؟

فقال طارق:

ـ إنه مجاهد يسهر الليل فى طلب العلم وبعد أسبوع سيدخل امتحان الإعدادية..

ـ براڤو..

ومضيا يصعدان السلم إلى حجرة طارق. دار رأسى. فار دمى. أيجىء بها إلى

حجرته من وراء أبى وأمى؟! . أليس لها بيت يذهبان إليه؟ . أى تدهور يهبط ببيتنا إلى الحضيض؟ . عجزت عن تركيز ذهنى واحترق رأسى بالفكر . هاجمنى الشر وأنا أعانى المراهقة والرغبات الجامحة وأكافحها بالإرادة والطموح إلى النقاء . واشتعلت بالغضب حتى صرعنى النوم . وأقبلت على والدىّ وهما يجلسان فى الصالة عصرا . ما إن رآنى أبى حتى تساءل فى توجس :

ـ ماذا وراءك؟

فقلت بتدفق حار :

ـ حدث غريب لا يتصوره عقل ، جاء طارق بتحية إلى حجرته أمس!

فمد إلىّ بصره الثقيل وثبته علىّ دون أن ينبس فتوهمت أنه لا يصدقنى فقلت :

ـ لقد رأيت بعينى .

فسألنى ببرود مثير :

ـ ماذا تريد؟

ـ أردت أن أخبرك لتؤدبه وتفهمه أن بيتنا بيت محترم ، يجب أن تطرده . .

فقال بحدة :

ـ انتبه لعملك ودع شئون البيت لصاحبه . .

وقالت أمى بصوت منخفض ذليل :

ـ إنها خطيبته . .

ـ ولكنه لم يتزوجها بعد!

فخاطب أبى أمى قائلاً بسخرية وهو يومئ ناحيتى :

ـ يريد أن يموت جوعا . .

فقلت مجتاحًا بدفقة غضب :

ـ نحن الذين أفقرنا أنفسنا . .

فرفع قدح الشاى ليرمينى به ولكن أمى وثبت بيننا ، ومضت بى إلى حجرتى . رأيت عينيها منذرتين بالدمع وقالت لى :

ـ لا فائدة ترجى منه فلا تحتك به ، بودى لو نهجر البيت معا ، ولكن أين نذهب؟ . أين نجد مسكنًا؟ ، ومن أين لنا بالنقود؟!

لم أجد جوابا . تبدت لى الحقيقة ببشاعتها وبلا رتوش . لقد أذعنت أمى مغلوبة على أمرها . وغلب أبى على أمره مهزومًا بإدمانه . إنه مسئول ما فى ذلك شك ولكنه مغلوب على أمره . إنه أكثر من ذلك فإنه يبدو أحيانًا بلا مبادئ على الإطلاق . إنى أحتقره بقدر

ما أرفضه. لقد جعل من مأوانا العتيق بيت دعارة. أنا أيضًا ضعيف ما دمت لا أجد ما أفعله إلا أن أذرف الدمع الغزير . .

* * *

نجحت غير أنى لم أسعد بالنجاح كما ينبغى. لازمنى الشعور بالعار. استقر بأعماقى حزن مقيم. هاجرت فى العطلة الطويلة إلى دار الكتب. كتبت مسرحية. رجوت أبى أن يعرضها على سرحان الهلالى ولكنه قال لى:

ـ إنه ليس مسرح أطفال . .

تطوعت أمى بتقديمها إليه. رجعت بها بعد أسبوعين وقالت لى:

ـ لا تتوقع أن تقبل أولى مسرحياتك وما عليك إلا أن تعيد التجربة . .

حزنت ولكنى لم أيأس. وكيف أيأس بعد أن لم يعد لى من أمل إلا المسرح؟. وصادفت ذات يوم الأستاذ فؤاد شلبى فى قاعة المطالعة فصافحنى وذكرته بنفسى فرحب بى. وتشجعت بلطفه وسألته:

ـ كيف أكتب مسرحية مقبولة؟

فسألنى بدهشة:

ـ ما عمرك؟

ـ ماشى فى السادسة عشرة.

ـ فى أى مرحلة تعليمية؟

ـ الثانوية بدءًا من العام القادم.

ـ ألا تنتظر حتى تكمل تعليمك؟

ـ أشعر بقدرة على الكتابة.

ـ لكنك لم تفهم الحياة بعد.

ـ عندى فكرة عنها لا بأس بها.

فسألنى باسما:

ـ ما هى الحياة فى نظرك؟

ـ هى معركة الروح ضد المادة.

فازدادت ابتسامته اتساعا وهو يتساءل:

ـ والموت ما موقعه من هذه المعركة؟

فقلت بثقة:

ـ هو الانتصار النهائى للروح!

فربت على منكبى وقال:

ـ ليت الأمور بهذه البساطة، تلزمك تجارب كثيرة كثيرة، ابحث أيضًا عما يهم الناس ويثيرهم، إنى أطالبك بخوض خضم الحياة والانتظار عشرة أعوام على الأقل..

دفعنى حديثه فى جوف الوحدة أكثر مما كنت. إنه يتصور أننى بمنجاة من التجارب. لعله غاب عنه ما يحدث فى بيتنا. وغاب عنه أيضًا جهاد النفس فى معركة المراهقة. النزاع الذى لا يهدأ بين السمو والشهوات. بين أشعار المجانين والخيام. بين تحية العابثة فى الحجرة العليا وطيفها الزائر للخيال. بين الطين وقطرات السحب البيضاء.

* * *

إن ما يفعل بالحجرة المجاورة لحجرة طارق عجيب.. بيع أثاثها القديم، اشترى لها أثاث جميل من مزاد علنى. توسطتها مائدة خضراء، غطى بلاطها المعصرانى بساط كبير، قام فى جدارها الأوسط بوفيه، إنه استعداد غامض، وأسأل أمى فتقول:

ـ أبوك يعدها للسمر مع أصدقائه كما يفعل الرجال..

رمقتها بارتياب فما عاد اسم أبى يوحى إلا بالارتياب فقالت:

ـ سيسهرون سهرتهم عقب إغلاق المسرح..

تعودت أن أقبع فى الظلام فى حجرتى لأرى الأشياء. لا ترى الحوادث على حقيقتها فى بيتنا إلا من الظلام. وقد جاء الصحاب فى هزيع موغل من الليل. رأيتهم يتقاطرون، فى المقدمة والدى، الهلالى، إسماعيل، سالم العجرودى، فؤاد شلبى، طارق، تحية. تسللت إلى الدور الأعلى فى الظلام. قد تحلقوا المائدة ودار الورق. إنه القمار كما رأيته فى المسرح. مآسى المسرح تنتقل إلى بيتنا بأبطالها أو ضحاياها. هؤلاء الناس يتصارعون فوق الخشبة أما هنا فيقفون صفا واحدًا فى جانب الشر. إنهم ممثلون. حتى الناقد ممثل أيضًا. لا شىء حقيقى إلا الكذب. إذا جاء الطوفان فلن يستحق السفينة إلا أمى وأنا. إن يكن للنية قيمة إذ لا عمل لنا. حتى أمى تعد الطعام والشراب. وأقول لها:

ـ ما كان ينبغى أن تقومى بخدمة السفلة..

فتقول كالمعتذرة:

ـ إنهم زملاء وأنا ربة البيت..

ـ أى بيت؟، ما هو إلا ماخور وناد للقمار..

فتقول بأسى:

ـ أتمنى لو أهرب، لو نهرب معًا، ولكن ما الحيلة؟

فأقول بحنق :

ـ لذلك أكره النقود!

ـ لكنها ضرورية، هذه هى المأساة، على أى حال فلا أمل لى سواك . .

* * *

ما الخير؟ . ما الخير بلا عمل؟ . لا ينشط إلا الخيال . الخيال ميدانه المسرح . البيت غنيمة فى يد السفلة . حداثة سنى ليست بالعذر المقبول . إنه العجز . لذلك مر النصر كخبر . فى الأقران من الطلبة حياة لا أشارك فيها إلا بالحماس والخيال . تتحول الكلمات الجميلة إلى صور لا أفعال . إنهم يرقصون رقصة الموت على حين أصفق أنا خارج الحلبة . ويجىء فؤاد شلبى بدرية ليتناجيا فى الحجرة الثالثة تحت إطار البسملة المهداة من جدى . وقلت لأمى :

ـ شلبى ودرية أيضًا، علينا أن نذهب .

فقالت محمرة العينين :

ـ ليس قبل أن تستطيع ذلك أنت .

ـ إنى أختنق .

ـ وأنا مثلك وأكثر .

ـ هل الأفيون هو المسئول عن ذلك كله؟

فلم تنبس فقلت :

ـ ربما كان نتيجة وليس السبب .

ـ أبوك مجنون .

ثم بصوت منخفض :

ـ ولكنى مسئولة عن انخداعى به . .

ـ أود أن أقتله . .

فمست ذراعى بحنان وهمست :

ـ انغمس فى العمل فأنت الأمل الباقى . .

* * *

ليلة النار التى أهلكت آخر نبتة خضراء . من الظلام رأيت سرحان الهلالى يهبط السلم مترنحا . شعره منفوش، عيناه مظلمتان، يسوقه جنون أعمى . لماذا هجر الحجرة والمعركة محتدمة؟ . خرجت أمى من حجرتها مستطلعة وكنت أظنها فوق . لاقته أسفل السلم . تهامسا بما لم تبلغه أذناى . دخلت حجرتها فاندفع وراءها . توثبت للاندفاع

ولكننى لم أتحرك. أهمنى أن أعرف الحقيقة أكثر من أن أمنعها. أمى أيضًا؟!. لعله أغمى علىّ دقائق. هى النهاية التى ليس وراءها نهاية. تفتت الكون وضج بسخرية الشياطين. اندفعت إلى الصالة ومنها إلى الحجرة وقد غرقت فى الظلام. أضأت النور فوجدتها خالية. أطفأت النور وخرجت إلى الصالة وأضأتها. لبثت واقفا بوعى مشتت. وإذا بوالدى يهبط السلم حتى يقف أمامى ويسألنى بخشونة:

ـ ماذا أيقظك؟

فقلت وأنا لا أدرى ماذا أقول:

ـ أرق طارئ.

ـ هل رأيت سرحان الهلالى؟

ـ إذا لم يكن فوق فقد غادر البيت.

ـ متى؟

ـ لا أدرى.

ـ هل رأته أمك؟

ـ لا أدرى.

رجعت إلى حجرتى. لبثت واقفًا فى الظلام يشتعل رأسى بأفكار جنونية. لم أشعر بمرور الوقت حتى انتبهت إلى وقع أقدام الراحلين. لم يبق فى الصالة إلا أبى وأمى. ألصقت أذنى بثقب الباب لأسمع ما يدور.

سمعته يسألها:

ـ ماذا حدث من وراء ظهورنا؟

لم تجب فعاد يسأل

ـ عباس رأى؟

لم تجب أيضًا فقال:

ـ هو الذى ألحقك بالعمل. معروف أنه لم يعتق امرأة واحدة حتى أم هانى..

لم أسمع لها صوتًا فعاد يقول:

ـ لا شىء بلا ثمن، هذا ما يهمنى، أما أنت فلا تستحقين الغيرة..

أخيرًا جاء صوتها قائلاً:

ـ إنك أحقر من حشرة!

فقال مقهقهًا:

ـ إلا حشرة واحدة.

هذه هى الحقيقة. هذا أبى وهذه أمى. النار تتمادى فى الاشتعال. اغمد خنجرك فحتى قيصر قد قتل. سيرانو دى برجراك صاول الأشباح. إنى أرفض أبوىّ. القواد والداعرة. لا أنسى أننى رأيتها وفؤاد شلبى يتهامسان مرة فلم يداخلنى سوء ظن. ومرة أخرى مع طارق رمضان نفسه فلم يداخلنى شك. الجميع.. الجميع.. بلا استثناء.. لم لا؟. هى عدوى الأول. أبى مجنون مدمن أما أمى فهى المدبرة لما يجرى فى الكون من الشر.

* * *

جاءنى فى حجرتى صوت أمى مناديًا فلم أستجب. من عجب أن مقتى لأبى متجسد واضح أما شعورى نحوها فيتجسد فى سخط عارم لا كراهية واضحة. سرعان ما جاءت فأخذتنى من يدى وهى تقول:

- أجل القراءة وكرس لنا هذا الوقت القصير النادر..

أجلستنى إلى جانبها فى الصالة، قدمت لى الشاى، قالت:

- أنت لا تعجبنى هذه الأيام..

تجنبت النظر إلى وجهها فقالت:

- إنى أعلم بما يحزنك ولكن لا تضاعف آلامى، ساعة الخلاص تقترب وسنذهب معا..

يا لها من مخادعة. تمتمت:

- لا يطهر هذا البيت إلا حرقه!

- حسبك قلبى الذى يعبدك!

هل أصب عليها الحمم الذى يمور به قلبى؟. لكن خيالى كان يدمر كل شىء ثم يقف حائرًا أمام عينيها.

وسألتنى:

- هل تكتب مسرحية جديدة؟

فقلت:

- ستذكرك بمسرحية «المرأة السكيرة»

إنها مسرحية تقدم عالمًا أسود من النساء الساقطات فقالت:

- لا.. فلتشرق مسرحياتك بنور قلبك..

عند ذاك خرج أبى من حجرته ونزل طارق وتحية. وقفت لأرجع إلى حجرتى ولكن تحية اعترضت سبيلى قائلة بمرح:

ـ اجلس معنا أيها المؤلف . .

لعلها أول مرة تعيرنى اهتمامًا فجلست على حين قال طارق ضاحكًا :

ـ سيكون هذا المؤلف تراچيديًا . .

فتمتم أبى ساخرًا :

ـ إنه مريض بداء الفضيلة !

فقالت تحية وهى ترشف من قدحها رشفة :

ـ جميل أن يوجد فى زماننا هذا فاضل . .

فقال أبى :

ـ بصره ضعيف كما ترين فهو لا يرى ما حوله .

فقالت تحية :

ـ دعه فى جنته ، إنى أحب الفضيلة أيضًا !

فقال طارق ضاحكًا :

ـ فضيلتك من النوع الضاحك المقبول .

فقالت تحية :

ـ إنه وسيم مثل أمه . . قوى كأبيه . . يجب أن يكون دون چوان

فقال أبى ساخرًا :

ـ انظرى إلى نظارته ، عيبه أنه لا يرى . .

ولما ذهبوا فاض قلبى بالغضب والافتتان ، نشط خيالى ليهدم ويعيد البناء . ما تحية إلا صورة من أمى بل هى أفضل . عندما اعترضت سبيلى مستتنى فحركت حلمًا جديدًا . عندما تذكرت مسها لى وأنا وحيد انبثقت من سعير نفسى فكرة . هذه الدار العتيقة التى بناها جدى بعرق جبينه وكيف تحولت إلى ماخور ! . هذه هى الفكرة . لا دليل لدىّ على نجاحها إلا ارتعاشة الفرح التى خامرتنى . هل تصلح أساسًا لمسرحية؟ . وهل تقوم مسرحية بلا حب؟

* * *

سمعت على الباب نقرا خفيفًا . فتحته فرأيت تحية . ماذا جاء بها قبل ميعاد مجلس الشاى؟ . دخلت وهى تقول :

ـ الجميع نيام إلا أنت . .

وقفت فى وسط الحجرة بملابس الخروج تجيل النظر فى أنحائها

وتقول :

ـ إنها بيت لا حجرة، مكون من غرفة نوم ومكتبة، هل أجد عندك حلوى؟ . .

فقلت معتذراً:

ـ آسف . .

استوى جسمها الناضج فى وسط الحجرة فى هالة من الإثارة والجاذبية. ورأيت لون عينيها لأول مرة كالشهد الرائق. قالت:

ـ يجب أن أذهب ما دام لا يوجد عندك إلا الكتب . .

ولكنها لم تتحرك بل راحت تقول:

ـ لعلك تتساءل عما دفعنى للخروج مبكرة، إنى ذاهبة إلى شقتى فى شارع الجيش، ألا تعرفها؟، إنها تبعد عن باب الشعرية بمحطة ترام . . العمارة ١١٧ .

سألتها وقد ثملت تماماً بحضور الأنوثة الفواح:

ـ انتظرى حتى أجيئك بحلوى من الخارج . .

ـ سأجد فى الطريق ما يلزمنى، إنك لطيف جداً . .

فقلت متناسياً فى تلك اللحظة ما يرمز إليه وجودها من معاناة لضميرى .

ـ أنت اللطيفة حقا . .

فرنت إلىّ بنظرة موحية بالأحلام وتحركت ببطء ورشاقة نحو الباب فهمست على رغمى:

ـ لا تذهبى . . أعنى . . خذى راحتك . .

لكنها ابتسمت فى ارتياح ظافر ومضت وهى تقول:

ـ إلى اللقاء . .

تركت وراءها فى الحجرة الهادئة عاصفة من الانفعالات البهيجة. لم تجىء لغير ما سبب ولم تذكر رقم العمارة اعتباطاً. خفق قلبى المحروم المتشبث بالبراءة. لأول مرة يجد قلبى امرأة حقيقية ليهيم بها. إنه لم يهم قبل ذلك إلا بليلى ولبنى ومية وأوفيليا وديدمونة. وفيما تلا ذلك من أيام أصبح لكل نظرة نتبادلها خلسة معنى جديد يؤكد سحر الحياة. فى غفلة من الحضور نتبادل حواراً ساخناً. وتساءلت وأنا من الحيرة فى عناء ترى أأرتفع أنا أم أهوى إلى الحضيض؟!

* * *

ورغم رياح أمشير المزمجرة فى الخارج ترامى إلى أذنى من الطابق الأعلى صخب وعنف. رقيت فى السلم مستكشفاً فرأيت ـ فى الصالة ـ طارق وهو ينهال لطما على وجه تحية. تسمرت ذاهلاً. توارت هى فى الحجرة على حين قال لى هو فى برود:

ـ أزعجناك!

فتمتمت وأنا أكتم انفعالاتى:

ـ معذرة.

ـ لا تنزعج واستمتع بمشاهدة بعض عاداتنا اليومية..

وجاء صوتها المتهدج من الداخل صائحًا:

ـ لن أرجع هذه المرة..

وسرعان ما تبعها طارق وأغلق الباب.

ورجعت بحزن جديد غاص بى أكثر فى قلب الظلام. لمَ ترضى امرأة جميلة مثل تحية بحياة مهينة مع رجل كطارق؟. هل يتكشف الحب أيضًا عن مأساة؟. وقد غابت بالفعل يومين ولكنها رجعت فى الثالث مشرقة الوجه!. تقلص قلبى وتضاعف حزنى. احتقرت سلوكها ولكن حبى لها تجسد لى حقيقة لا مفر منها. ولعله ولد ونشأ ونما من قبل أن أعيه بزمن غير قصير. وفى ذلك اليوم عندما مضوا يغادرون المكان تأخرت لإصلاح جوربها ثم أسقطت من يدها لفافة ورق صغيرة قبل اللحاق بهم. بسطت الورقة بقلب مرتعش بالبهجة فقرأت العنوان والساعة.

* * *

الشقة صغيرة مكونة من حجرتين ومدخل ولكنها جميلة ونظيفة وتعبق بشذا بخور عذب. على منضدة فى المدخل استقر أصيص برتقالى كروى تنطلق منه باقة ورد وزهور كنافورة. استقبلتنى باسمة فى روب كحلى وهى تقول مشيرة إلى الورد:

ـ احتفالا بيوم اللقاء.

دفعتنى أشواق متراكمة إليها فتعانقنا طويلاً وتذوقت فرحة القبلة الأولى. ولو ترك الخيار لى لانتهى اللقاء قبل أن ننفصل ولكنها تخلصت بلطف وقادتنى إلى حجرة جلوس زرقاء بسيطة وأنيقة فجلسنا جنبًا إلى جنب على الكنبة الرئيسية. قالت بصوت منخفض:

ـ تصرفنا جرىء ولكنه عين الصواب.

فرددت بتوكيد:

ـ عين الصواب.

ـ ليس ممكنا أن نخفى ما بنا أكثر..

فقلت مصممًا على إزاحة الطفولة:

ـ عين الصواب، أنا أحبك من زمن طويل.

ـ حقًا؟.. أنا أيضًا.. هل تصدق أنى أحب لأول مرة!

لم أنبس ولم أصدق فقالت بحرارة :

ـ لقد رأيت بنفسك وسمعت ربما ما هو أكثر، ولكنه التخبط لا الحب . .

فقلت بأسف :

ـ حياة لا تليق بواحدة مثلك . .

فاستأنست بكلامى وقالت :

ـ لا يسأل متسول عما يليق وعما لا يليق . .

ـ يجب أن يتغير كل شىء .

ـ ماذا تعنى؟

ـ يجب أن نبدأ حياة لائقة .

فتمتمت بتأثر :

ـ لم أصادف أحداً مثلك . كانوا كلهم حيوانات . .

فتساءلت بامتعاض :

ـ كلهم؟

ـ لا أريد أن أخفى عنك شيئًا، سرحان الهلالى، سالم العجرودى، وأخيراً طارق . .

صمت . . تذكرت أمى . أما هى فقالت :

ـ إن كنت ممن لا ينسون الماضى فالفرصة مازالت متاحة للتراجع .

أخذت راحتها بين راحتى، شعرت بقوة ذاتية تدفعنى للقوة والتحدى، فقلت :

ـ لا أبالى إلا بالقيمة الحقيقية . .

ـ حدثنى قلبى دائمًا بأنك أكبر من مخاوفى الصغيرة .

ـ لست طفلاً . .

فقالت باسمة :

ـ لكنك ما زلت تلميذا .

ـ ذلك حق، ما زالت أمامى مرحلة طويلة . .

فقالت ببساطة مخلصة :

ـ أصبح لدى مدخر قليل وبوسعى أن أنتظر . .

لكننى وقعت فى أسر الحب، وفاضت بى رغبة كامنة فى هجر البيت الملوث الكئيب . فعقدت العزم على اتخاذ قرار يحول بينى وبين التراجع ويفتح لى فى الوقت ذاته طريقًا جديداً . قلت :

ـ بل يجب أن نعقد زواجنا فى الحال . .

فتورد وجهها وازداد حسنا وارتج عليها القول . فقلت :

ـ هذا ما يجب علينا .

ـ الحق أنى أريد أن أغير هذه الحياة، أريد أن أهجر المسرح أيضًا، لكن هل تضمن أن يمدك أبوك ببعض المال؟

فقلت باسما فى أسى :

ـ هيهات أن يفعل، وهيهات أن أقبل مالا ملوثًا . .

ـ وكيف إذن نتزوج؟

ـ بعد قليل سأفرغ من دراستى الثانوية، لن أجند لضعف بصرى، فمن الأفضل أن أعمل، خاصة أن موهبتى تعتمد على الدراسة الخاصة أكثر من الدراسة النظامية . .

ـ هل يكفى فى هذه الحال مرتبك؟

ـ لقد طلب أبى إعفاءه من عمله فى المسرح اكتفاء بما يربحه من القمار وغيره، وهم الآن بصدد البحث عن ملقن، سأتقدم لأحل محل أبى فأجد عملاً فى جو المسرح الذى أعقد به أملى فى الحياة . . يضاف إلى ذلك أنك تستأجرين شقة فلن تصادفنا عقبة السكن . .

ـ هل أستمر فى عملى بالمسرح حتى تتحسن الأحوال؟

فقلت بحدة :

ـ كلا . . يجب الابتعاد عن أولئك الرجال . .

ـ قلت إنه لدىّ مدخر قليل ولكنه لن يبقى حتى تقف على قدميك . .

فقلت بحماس :

ـ علينا أن نتحمل حتى نبلغ النجاح المنشود . .

عند بلوغ ذلك المرفأ استسلمنا لعواطفنا ونسينا إلى حين كل شىء . وربما لولاها ما وصلنا الحديث، ولكنها تخلصت من ذراعى بحنان وهى تهمس :

ـ يجب أن أتخلص من طارق . . لن أراه مرة أخرى .

فسألتها بضيق :

ـ سيجىء إلى هنا .

ـ لن أفتح له الباب .

فقلت بتحد :

ـ سأخبره بكل شىء . .

فقالت بقلق:

ـ أرجو ألا تتطور الأمور إلى ما يسوء..

فقلت بكبرياء:

ـ إنى على استعداد لمواجهته..

* * *

رجعت إلى باب الشعرية مخلوقًا جديدًا. لأول مرة أراها من خلال نظرة المودع فتلوح فى غلالة أجمل وأجذب للحنان. عما قليل سأنتقل من مقاعد المتفرجين لألعب دوراً فى مسرح الحياة. سأستنشق هواء نقيًا غير هواء هذا البيت القديم العطن. جلست فى الصالة الخالية فى الدور الأرضى حتى رأيت طارق هابطًا. حيانى ثم سألنى:

ـ ألم تحضر تحية؟

فقلت وأنا أتوثب للنزول:

ـ كلا.

ـ لم أقابلها فى المسرح.

ـ لن تذهب إلى المسرح.

ـ ماذا تعنى؟

ـ لن تحضر إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح.

ـ من أدراك بهذه الأسرار كلها؟

ـ سنتزوج.

ـ هه؟!

ـ اتفقنا على الزواج..

ـ يابن.. أنت مجنون؟!.. ماذا تقول؟

ـ قررنا أن نكون شرفاء معك.

ما أدرى إلا ويده تلطمنى. ثار غضبى فوجهت إليه لكمة كادت تلقيه على الأرض. وإذا بوالدىّ يندفعان نحونا. صاح طارق:

ـ شىء مضحك.. المحروس سيتزوج من تحية..

هتفت أمى:

ـ تحية!.. إنها أكبر منك بعشرة أعوام..

راح طارق يهدد حتى قالت له أمى:

ـ خذ ملابسك ومع السلامة . .

صاح وهو يمضى إلى الخارج :

ـ باق على أنفاسكم حتى النهاية . .

وسادنا الصمت قليلا . تمتم أبى ساخرًا :

ـ فى العشق يا ما كنت أنوح . .

وقالت لى أمى :

ـ عباس . . ما هى إلا نزوة إغراء .

ـ لا . . إنها حياة جديدة . .

ـ وأحلامك ومستقبلك؟

ـ ستتحقق على خير مثال .

ـ ماذا تعرف عنها؟

ـ لقد صارحتنى بكل شىء . .

فقهقه أبى قائلاً :

ـ بنت مسارح وتعرف الأصول . . وأنت شاب غريب . . كان يجب أن تزهدك معرفتك لأمك فى جنس النساء . .

عند ذاك مضت بى أمى إلى حجرتى ، وقالت لى :

ـ لها سيرة وتاريخ ألا تفهم ما يعنيه ذلك؟

تجنبت النظر إليها . طحنتنى من جديد الآلام الماضية . قلت :

ـ من سوء الحظ أنك لم تعرفى الحب . . سنبدأ حياة جديدة .

ـ لا يمكن أن يتحرر إنسان من تاريخه . .

أواه . . إنها لا تدرى أننى أدرى . . وقلت :

ـ تحية رغم كل شىء طاهرة . .

ليتنى أستطيع أن أقول عنك ذلك أيضًا يا أمى . .

* * *

ما إن أتممت المرحلة الثانوية حتى قابلت سرحان الهلالى راجيا أن أحل مكان أبى . وفى الحال عقدت زواجى بتحية . ودّعت البيت القديم وأهله بلا احتفال وكأنما أمضى إلى المدرسة أو دار الكتب . لم يتفوه أبى بتهنئة أو دعاء ولكنه قال :

ـ لماذا كان اجتهادك فى المدرسة ما دام المصير هو عمل ملقن فى الفرقة؟

أما أمى فقد عانقتنى وهى تنشج بالبكاء وقالت لى :

ـ ربنا يسعدك ويكفيك شر الناس، اذهب مصحوبًا بالسلامة ولا تنس زيارتنا . .

ولكن العودة إلى الجحيم لم تخطر لى ببال. تطلعت إلى حياة جديدة وإلى هواء نقى. وتمنيت أن أنسى البؤرة التى انصهرت فيها معانيا آلام العذاب والغم. ووجدت تحية فى انتظارى، كما وجدت الحب ينتظر أيضًا. وعرفت السعادة عندما تترجم إلى امتزاج بين اثنين متوافقين. فتضفى سحرها على الحديث والصمت، الجد واللهو، الطعام والعمل. وكانت تكمل بمدخرها ما يقصر عنه مرتبى. وحظيت باستقرار نفسى عوضنى عما بدده القلق والتشتت والحزن والغضب الكظيم. وكنت أرجع إلى البيت حوالى الثانية صباحًا، أستيقظ حوالى العاشرة، ويتسع الوقت بعد ذلك للحب والقراءة والكتابة أيضًا. وكان كلانا يعقد أمله بالنجاح المأمول فى تأليفى المسرحى. وفى سبيل ذلك رضينا بالبساطة فى العيش، بل بالتقشف أيضًا، وضاعف الاجتهاد والصبر والأمل من سعادتنا المشتركة. وأثبتت تحية بجدارة قوة إرادتها فلم تذق قطرة من خمر على تعلقها القديم بها، بل امتنعت أيضًا عن عادة التدخين توفيرًا لثمنه. واعترفت لى بأن قدمها كادت تنزلق إلى إدمان الأفيون لولا أن تعاطيها له صحب بأعراض صحية سيئة كالقىء الشديد فكرهته من أول الأمر. ولاحظت مهارتها كست بيت حتى قلت لها مرة:

ـ بيتك نظيف دائمًا ومنظم، طعامك ممتاز، معاملتك مهذبة، ما كان يجوز . .

وانقطعت عن تكملة الجملة فقالت:

ـ مات أبى فتزوجت أمى من محضر، لقيت منها الإهمال ومنه سوء المعاملة حتى اضطررت إلى الهرب . . !

لم تزد ولم أسأل عن مزيد. تخيلت على رغمى ما حدث حتى عملت ممثلة ثانوية عند سرحان الهلالى.

على رغمى أيضًا تذكرت أمى وعملها فى المسرح نفسه وتحت رحمة سرحان الهلالى. أضمرت حربًا لا هوادة فيها على كافة ألوان العبودية التى يتعرض لها الناس. لكن هل يكفى المسرح ميدانًا لهذه الحرب؟. وهل تغنى فكرة البيت القديم الذى تدهور فصار ماخورا؟!

* * *

حافظت تحية على رقتها وعذوبتها بصورة مباركة. لم تعرف علاقة أمى وأبى ذلك حتى فى أيام طفولتى السعيدة. إنها ـ تحية ـ ملاك حقًا. وآى ذلك تصميمها الناجح على محق عاداتها السيئة التى شابتها فى عهد الأحزان. وهى تحبنى بصدق، وقد تجلى ذلك فى حرصها على الإنجاب. ولم أكن أرحب به، وكنت أخافه على مواردنا المحدودة، وعلى حياتى الفنية المفضلة عندى على كل شىء فى الحياة، حتى الحب نفسه. غير أننى

كرهت أن أحول بينها وبين أمنيتها الأثيرة، وأبت أخلاقياتى الإذعان للأنانية. وكان الغلاء يتصاعد غير مكترث بتقشفنا وآمالنا فحملنا على التفكير فى وسيلة جديدة لمجابهته. وفى تلك الأثناء تحققت أمنيتها فى الحمل فركبنى هم جديد. وكان علىّ أن أستعد للمستقبل القريب والبعيد معًا، ثم أقنعنى الحال بأنه لا مفر من الاستعانة بعمل إضافى إن أمكن.

وكنت قد تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة محاكاة لما سمعته عن استعمال الكتاب الأمريكيين والأوربيين لها بدلاً من القلم. وكنت أمر أمام مكتب «فيصل» للآلة الكاتبة فى طريقى إلى المسرح فعرضت نفسى على صاحبه، وسرعان ما قبلنى بعد اختبار أجراه بنفسه. قبلت العمل من الثامنة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر، وقدر أجرى بالقطعة. وقد استقبلت تحية الخبر بعواطف متضاربة. قالت:

ـ تنام فى الثانية صباحًا لتستيقظ فى السابعة على الأكثر بدلاً من العاشرة، تعمل من الثامنة إلى الثانية، ترجع فى الثالثة، ستنام ساعتين على الأكثر ما بين الرابعة والسادسة، لا راحة، ولا وقت للقراءة أو الكتابة. .

فقلت:

ـ ما الحيلة؟

ـ أبوك غنى. .

فقلت باستياء:

ـ لا أقبل مليمًا ملوثًا. .

ورفضت الاستمرار فى المناقشة. حقًا إنها امرأة ممتازة ولكنها عملية فيما يتعلق بالحياة. وكانت فى قرارة نفسها تفضل الاستعانة بأبى على الانغماس الكلى فى العمل الذى سلبنى الوقت والفن والراحة. وقد اعتذرت من عدم الذهاب إلى مكتب فيصل يومين لأتم مسرحية. قدمتها لسرحان الهلالى، نظر إلىّ باسمًا وتساءل:

ـ ما زلت مصرًا؟

وفى فترة الانتظار نعمت بأحلام جميلة. أجل أصبح الفن هو الأمل الباقى للرغبة الملتهبة وللحياة الواقعية معًا. وكنت شرعت فى كتابة المسرحية قبل أن تنبثق فى نفسى فكرة البيت والماخور التى لم تتبلور بعد فأتممتها وأنا فرح بأخلاقياتها المثالية غير أن سرحان الهلالى ردها إلىّ وهو يقول:

ـ أمامك مشوار طويل. .

فسألته بلهفة:

ـ ماذا ينقصها؟

فقال بعجلة لا تشجع على الاسترسال :

ـ إنها حكاية ولكن لا يوجد مسرح !

يا له من عذاب يهون إلى جانبه أى عذاب . حتى عذاب البيت القديم . الفشل فى الفن موت للحياة نفسها . هكذا خلقنا . والفن بالنسبة لى ليس فنًا فحسب ولكنه البديل عن العمل الذى يطمح إليه المثالى العاجز . ماذا فعلت لمقاومة الشر من حولى؟ . وما العمل إذا عجزت أيضًا عن الجهاد فى الميدان الوحيد المتاح وهو المسرح؟! وتمر الأيام وأنا غارق فى العمل كالآلة . أتعامل مع الحب خطفًا ، وقد انقطع ما بينى وبين حياتى الروحية جميعًا فلا قراءة ولا كتابة ، وغاضت من الحياة بهجتها فلم يبق منها إلا البثور فى أديم الأرض ، ومياه المجارى الراكدة ، والمواصلات البهيمية .

فى أويقات الراحة على كثب من تحية تتمثل لى الحياة جدولاً غائضًا من السخرة والجفاف . نتبادل كلمات رقيقة فى مناخ كئيب تلطفه أحلام اليقظة . الدبيب النابض فى بطنها يعزف على أوتار النجاح المرتقب . أحلم أيضًا بالنجاح ولكن تشتعل أحلامى أحيانًا بغضب متوحش . أحلم بنار تلتهم البيت القديم ومن يفسقون فيه . هكذا يتجسد غضبى على العار والشر . لكنه لا يمر دون خجل ومحاسبة للنفس . حقًا لا توجد فى قلبى ذرة حب لأبى ولكنى أقف مع أمى موقف المشفق المتردد . وأعرب عن آلامى من تلك الناحية فتقول لى تحية :

ـ نادى قمارى سرى جريمة فى نظر القانون ولكن الغلاء جريمة أيضًا . .

فأسألها :

ـ هل تقبلين أن يقع ذلك فى بيتك؟

ـ لا سمح اللّه ، ولكنى أود أن أقول إن من الناس من يجدون أنفسهم فى محنة فيتصرفون كالغريق الذى لا يتورع عن فعل فى سبيل النجاة . .

وقلت لنفسى إننى أتصرف كذلك الغريق ، وإن لم أرتكب جريمة فى حق القانون ، لقد ملأت وقتى بالعمل التافه فى سبيل اللقمة حتى جف عود الحياة الأخضر ، أليس ذلك جريمة أيضًا . ؟

وتمر الأيام ويشتد العذاب فتتحرر الأحلام السرية بقوة شيطانية . وأنا جالس إلى الآلة الكاتبة أشعر بحنين جارف إلى الحرية . . إلى الإنسانية المفقودة . . إلى الفن الضائع . كيف يحطم الأسير أغلاله؟ . أتخيل دنيا مباركة ، بلا إثم ، بلا أسر ، بلا التزامات اجتماعية ، دنيا تنبض بالخلق والإبداع والفكر وحدها . دنيا تحظى بالوحدة المقدسة فلا أب ولا أم ولا زوجة ولا ذرية . دنيا يمضى فيها الإنسان خفيفًا ، غائصًا فى الفن وحده . . آه . . أى أحلام؟ . أى شيطان يكمن فى القلب الذى نذر نفسه للخير؟ .

فليتـجل الندم فى صـورة مـلاك باك . ولأنز خـجـلاً أمـام المرأة النفـاثة للحب والصبـر . ليحفظ اللّه زوجتى وليتب على والدىّ . وتسألنى :

ـ فيم تفكر؟ . . إنك لا تكاد تسمعنى . .

فألمس راحتها بلطف وأجيب :

ـ أفكر فى القادم الجديد وما نعده له .

❊ ❊ ❊

وأنا أهم بالجلوس أمام طاولة عم أحمد برجل ذات يوم قرأت فى وجهه عبوسًا ينذر بالسوء :

ـ خير يا عم أحمد؟

ـ يبدو أنك لم تعلم بعد؟

ـ إنى قادم لتوى ، ماذا هناك؟

فقال بحزن بالغ :

ـ أمس ، عند الفجر ، كبست الشرطة البيت . .

ـ أبى؟

أحنى رأسه .

ـ وماذا حدث؟

ـ ما يحدث فى هذه الأحوال ، أفرج عن اللاعبين وألقى القبض على والديك . .

انهرت تمامًا وغصت فى هم خانق . نسيت عواطفى القديمة ، نسيت غضبى الثابت ، وعز علىّ جدا ذلك المصير الموسف لأمى وأبى . عـز علىّ لدرجـة البكاء . وسرعـان ما استدعانى سرحان الهلالى وقال لى :

ـ سأوكل عنهما محاميا ممتازا . . لقد صودرت النقود . . عثر على كمية غير صغيرة من المخدرات . . يوجد أمل . .

قلت بصوت ذليل :

ـ أريد أن أقابلهما فورًا . .

ـ سيحصل دون شك ولكن لا مفر من أداء واجبك الليلة . . هذه هى طبيعة المسرح . . الموت نفسـه . . أعنى موت أى شخص عـزيز لا يمنع الممثل من أداء دوره ولو كـان هزليًا . .

غادرت حجرته مغلوبًا على أمرى . وتذكرت أحلامى المرعبة فتضاعف ألمى . .

❊ ❊ ❊

قبيل المحاكمة ولد طاهر، ولد فى جو كئيب مكلل بالحزن والعار. حتى تحية كانت تدارى فرحتها أمامى. ودخل جداه السجن وهو فى شهره الأول. وكان عليلاً يثير القلق ولكننى هربت إلى العمل المتواصل أغرق فيه همى وشعورى بالذنب. وقدر لى أن يعترض سبيلى ما ينسينى أحزانى الراهنة دفعة واحدة إذ توعكت صحة تحية. وشخصنا المرض باجتهادنا الشخصى باعتباره أنفلونزا وكان طاهر فى شهره السادس. ولما مر أسبوع دون تحسن أحضرت طبيب الحى. وقد قال لى ونحن على انفراد:

ـ يلزمنا تحليل فإنى أشك فى تيفود. .

وعلى سبيل الاحتياط وصف لنا الدواء، وسألنى:

ـ أليس الأفضل أن تنقل إلى مستشفى الحميات؟

فرفضت الفكرة عاقداً العزم على السهر عليها بنفسى. اضطررت لذلك الانقطاع عن مكتب فيصل. وتعويضا عما فقدت ولمواجهة المصروفات الجديدة بعت الفريچدير. جعلت من نفسى ممرضا لتحية ومرضعا لطاهر باللبن المحفوظ. تفرغت للخدمة بكل إخلاص. عزلت طاهر فى الحجرة الأخرى. مضت صحتها تتحسن بخلاف الطفل. بذلت جهدى مدفوعًا بالحب والامتنان نحو المرأة التى لم ألق منها إلا ما هو عذب وخير. وفى نهاية ثلاثة أسابيع وجدت تحية القوة فغادرت الفراش لتجلس على مقعد مريح فى مجرى الشمس. وكانت قد فقدت رواءها وحيويتها ولكنها دأبت على السؤال عن الطفل. وجدت نسمة من راحة، رغم تعاسة طاهر. لا يلقى أى عناية طيلة مدة عملى فى المسرح ما بين الثامنة مساء حتى الثانية صباحًا. أملت أن تنهض تحية لحمل العبء عنى ولكن حالتها ساءت فجأة حتى استدعيت الطبيب.

وقال الرجل:

ـ ما كان يجب أن تغادر الفراش. . إنها نكسة. . تحدث كثيراً بلا عواقب سيئة. .

رجعت إلى التمريض بحزن مضاعف وتصميم مضاعف. وعلمت أم هانى بحالى فتطوعت للبقاء مع تحية مدة غيابى. وتردد الطبيب علينا أكثر من مرة غير أن قلبى انقبض واستشعرهما قادما.

تساءلت هل تخلو دنياى من تحية؟. . هل تحتمل دنياى بلا تحية؟.

تمزقت بينها وبين الطفل المتدهور. قلقت جداً من تسرب النقود من يدى فماذا هناك لأبيعه أيضًا؟. وجعلت أطيل النظر إلى وجهها الشاحب الذابل وكأنما أودعه. وأتذكر عشرتها الجميلة فتظلم الدنيا فى عينى.

وتلقيت النذير الأخير وأنا واقف خارج المسكن. كنت عائداً من المسرح. ضغطت على الجرس. سبق إلىّ صوت أم هانى وهى تجهش فى البكاء. لقد أغمضت عينى متلقيًا القضاء، فاتحا صدرى بأريحية الكرماء للحزن البهيم.

عقب أسبوع من وفاة تحية لحق بها طاهر . كان ذلك متوقعًا والطبيب تنبأ به ولم يخفه على . لم تجد الأبوة فرصة طيبة لترسخ فى قلبى . وكان بقاؤه المعذب مصدر ألم دائم لى . لم أذكر من تلك الأيام إلا بكاء طارق رمضان . لقد تماسكت، أمام الناس بعد أن نفدت دموعى فى وحدتى وإذا بصوت طارق ينفجر فى ضجة لفتت إليه أنظار زملائنا فى المسرح . تساءلت عن معنى ذلك؟ . أكان يحبها ذلك الحيوان الذى نقل تقاليد عشقه المحفوظة إلى بيت أم هانى؟ . . تساءلت عن معنى بكائه لا كأرمل فحسب ولكن كمؤلف درامى أيضًا إذ إن غيبوبة الحزن لم تنسنى تطلعاتى الكامنة . . !

* * *

ها هى الوحدة . بيت خال ولكنه مكتظ بالذكريات والأشباح . قلب مترع بالحزن والإثم . طالعنى الواقع بوجه صخرى يناجينى بصوت خفى أن قد تحقق كل ما حلمت به . أريد أن أنسى الحلم ولو بمضاعفة الحزن . غير أن الحزن عندما يغوص حتى يرتطم بالقاع ترتد منه إشعاعات غريبة ثملة براحة خفيفة . آه . . لعل طارق ضحك ضحكة عميقة خفية واجهت المعزين بإجهاشة الدمع . ها هى الوحدة . ومعها الحزن والصبر والتحدى . أمامى تجربة للتقشف والكبرياء . والانغماس فى الفن حتى الموت . شرعت فى التخطيط لمسرحية «البيت القديم ـ الماخور» حضرتنى فجأة ذكرى تحية قوية يانعة بثقل الكائنات الحية . عند ذاك انبثقت فكرة جديدة . ليكن البيت القديم هو المكان، ليكن الماخور هو المصير، ليكن الناس هم الناس، ولكن الجوهر سيكون الحلم لا الواقع . أيهما الأقوى؟ . هو الحلم بلا شك . الواقع أن الشرطة كبست البيت، والمرض قتل تحية وابنها، ولكن ثمة قاتلاً آخر هو الحلم . الحلم الذى أبلغ الشرطة، هو الذى قتل تحية، هو الذى قتل الطفل . البطل الحقيقى للمسرحية هو الحلم . هو الذى توفرت له الشروط الدرامية . بذلك اعترف وبذلك أكفر . بذلك أكتب مسرحية حقيقية لأول مرة، أتحدى سرحان الهلالى أن يرفضها . سيعتقد هو وغيره أننى أعترف بالواقع السطحى لا الحلم الجوهرى ولكن كل شىء يهون فى سبيل الفن، فى سبيل التطهير . فى سبيل الصراع الواجب على شخص ولد ونشأ فى الإثم وصمم بقوة على الثورة .

وانفعلت بحمى الخلق .

* * *

ها أنا أذهب إلى سرحان الهلالى فى الميعاد المضروب . مضى الشهر الذى حدده لقراءة المسرحية . قلبى يخفق بشدة . الرفض هذه المرة خطير وقد يجرف الصبر . لكننى تلقيت من عينيه بسمة غامضة هزت فؤادى المثقل بالحزن . جلست تلبية لإشارته مستزيدًا من التفاؤل .

جاءنى صوته الجهورى قائلاً :

ـ أخيراً خلقت مسرحية حقيقية . .

وحدجنى بنظرة متسائلة كأنما يقول : «من أين لك هذا؟» فتبخرت فى تلك اللحظة ـ ولو إلى حين ـ همومى جميعًا وشعرت بحرارة التورد فى وجهى . قال :

ـ رائعة ، مرعبة ، ناجحة ، لماذا سميتها «أفراح القبة»؟

فأجبته بحيرة :

ـ لا أدرى !

فقال ضاحكًا فى تعال :

ـ مكر المؤلفين لا يجوز علىّ ، لعلك تشير إلى الأفراح التى تبارك الصراع الأخلاقى رغم انتشار الحشرات ، أو لعله من أسماء الأضواء كما نسمى الجارية السوداء صباح أو نور !

ابتسمت قانعا بسكرة الرضى ، فقال :

ـ سأعطيك ثلاثمائة جنيه . ربما كان الكرم فضيلتى الوحيدة ، وهو أكبر مكافأة لأول مسرحية . .

ليت العمر امتد بك حتى تشاركينى فرحتى . وتفكر قليلاً ثم تساءل :

ـ لعلك تتوقع أسئلة محرجة؟

ـ إنها مسرحية ولا يجوز إلقاء نظرة خارج نطاقها . .

ـ جواب حسن ، أنا لا يهمنى إلا المسرحية . . ولكنها ستثير عاصفة من سوء الظن بين معارفنا .

فقلت بهدوء :

ـ لا يهمنى ذلك .

ـ براڤو . . ماذا عندك أيضًا؟

ـ أرجو أن أشرع فى كتابة مسرحية جديدة . .

ـ براڤو . . حل موسم الأمطار . . وإنى فى انتظارك . . سأفاجئ بها الفرقة فى الخريف القادم . .

* * *

فى سكنى الصغير تغشانى الكآبة كثيراً . تمنيت أن أجد سكنًا آخر ولكن أين؟ . بدلت الحجرتين كلاً مكان الأخرى ، بعت الفراش واشتريت آخر جديداً . تغلغلت تحية فى حياتى أكثر مما تصورت . لم يبدأ حزنى شديداً ثم يخف ولكنه بدأ خفيفًا نسبيًا ـ ربما بسبب الذهول ـ ومضى يشتد حتى وضعت أملى فى النسيان بيد الزمن .

سيتصور كثيرون أننى قتلتها ولكنها تعرف الآن الحقيقة كلها. وقبيل الخريف غادر والداى السجن. واحتراما للواجب الذى أرفعه فوق العواطف استقبلتهما بالبر والرحمة. رأيتهما شبه محطمين فازددت حزنا. اقترحت على سرحان الهلالى قبول عودتهما إلى عملهما السابق فى المسرح فأوفر لهما العمل وأعفى نفسى منه لأتفرغ للفن فوافق الرجل ولكنهما رفضا ذلك بشدة دلت على نفورهما من المسرح وأهله. باستثناء عم أحمد برجل وأم هانى لم يكلف أحد نفسه بزيارتهما. ارتحت أنا لذلك لأنه جاء مطابقًا لما سجلته فى المسرحية. ظل أبى غريبًا رغم توبته الإجبارية عن الأفيون، لا رابطة فى الواقع بيننا، والحق أننى لم أفهمه، ولا أدعى فهمًا له أطمئن إليه. وقد شاءت المسرحية أن أصوره كضحية للفقر والمخدر، ترى ماذا يقول عن دوره؟، هل أستطيع أن أواجهه بعد العرض؟!. أما أمى فما زالت متعلقة بى، وتود أن تشاركنى حياتى ولكننى أود أن أظل خفيفًا وأحلم بأن أعثر على مسكن جديد ولو حجرة واحدة. إن لم أشعر نحوها بحب فإننى لا أضمر لها كرها. وسوف تذهل حين ترى دورها على المسرح فتعرف أننى عرفت جميع ما حاولت إخفاءه عنى، هل أستطيع بعد ذلك أن ألاقيها فى نظرة؟. كلا. سأتركهما ولكن فى أمان. فكرة المقلى فكرة طيبة وصاحب الفضل فيها هو أحمد برجل. أملى أن يجدا حياتهما وأن تدركهما توبة صادقة.

* * *

وجدتنى وجهًا لوجه مع طارق رمضان. فى المسرح كنا نتبادل التحيات الضرورية العابرة ولكنه هذه المرة يقتحم علىّ خلوتى بوقاحته المعهودة. إنه من القلة التى لا تعرف الارتباك ولا الحرج. طالما عاتبت أم هانى على معاشرتها له. قال كاذبًا بغير ما شك:

ـ جئت لأهنئك على المسرحية..

بل جئت للاستجواب الحقير ولكننى جاريته فشكرته. وبمكر أطلعنى على رأى المخرج قائلاً:

ـ إن البطل قذر جدًا وبغيض جدًا ولن يتعاطف الجمهور معه..

تجاهلت الحكم تمامًا. ليس البطل كذلك لا فى الواقع ولا فى المسرحية ولكنه يهاجمنى بلا زيادة ولا نقصان. جعلت أنظر إليه باستهانة حتى تساءل:

ـ ألم تقدر أن حوادث المسرحية ستلاحقك بأسوأ الظنون؟

فأجبته ببرود:

ـ لا يهمنى ذلك.

فإذا به يقول بانفعال واضح:

ـ يا لك من قاتل محترف!

فقلت باستهانة:

ـ ها أنت تعود إلى الماضى، وهو بالنسبة إلىّ تجربة حب أما بالنسبة لك فما هو إلا محنة حقد.

ـ أتستطيع أن تدافع عن نفسك؟

ـ لست متهمًا..

ـ ستجد نفسك فى النيابة قريبًا.

ـ إنك أحمق وحقير..

فقام وهو يقول ساخرًا:

ـ إنها على أى حال تستحق القتل.

ثم مضى قائلاً:

ـ ولكنك تستحق الشنق أيضًا.

رمتنى الزيارة البغيضة فى دوامة. أقنعتنى بوجوب الاختفاء عن أعين الأغبياء. ولكن هل أستحق الشنق حقًا؟. كلا.. حتى لو حوسبت على النوايا الخفية. ما كانت أحلامى إلا رمزًا للتخلص من متاعب راهنة لا من الحب أو المحبوب. وهى تثار بانفعال اللحظة العابرة لا بالعاطفة المستقرة. وعلى أى حال لم يعد لى بقاء فى مجال الشياطين.

دلنى سمسار على حجرة فى بنسيون الكوت دازور بحلوان. وجدتنى فى وحدة جديدة أنا والكتب والخيال. لزمت الحجرة أكثر الوقت وخصصت الليل وقتًا لرياضة المشى. استقلت من عملى ولم يبق لى إلا الفن وحده. قلت لنفسى إن علىّ أن أركز على فكرة من بين عشرات الفكر السابحة فى خيالى. عند الاختبار تبين لى أننى لا أملك فكرة واحدة. ما هذا؟. إنى لا أعيش فى وحدة ولكن فى فراغ. وعاودتنى أحزانى على تحية بصورة قاهرة ونافذة وعميقة، حتى صورة طاهر تجسدت لى فى هزالها وبراءتها وهى تصارع المجهول. وكنت أهرب من كآبتى إلى الفن فلا ألقى إلا الفراغ، والخمود أيضًا. أجل لقد انطفأت الشعلة تمامًا وانسحقت الرغبة فى الخلق، وحل محلها فتور أبدى وتقزز من الوجود.

فى تلك الأثناء قرأت الكثير عن نجاح المسرحية المذهل، واطلعت على عشرات التحيات الموجهة لموهبة المؤلف، وتنبؤات عما سيجود به للمسرح. سخريات تتابع معذبة لى وأنا أتقلب فى جحيم القحط. أتقلب فى جحيم القحط والأحزان ونقودى تتناقص يومًا بعد يوم. قلت أخاطب الكآبة المحدقة بى:

ـ ما توقعت ذلك قط.

أين موسم المطر الذى تغنى به سرحان الهلالى؟ . لا توجد أفكار ، إذا وجدت فكرة تمخضت عن لا شيء ، إذا تطلبت فكرة تأملاً كتم أنفاسها الجفاف والخمود . إنه الموت . الموت كما يتبدى لحى . إنى أرى الموت وألمسه وأشمه وأعاشره .

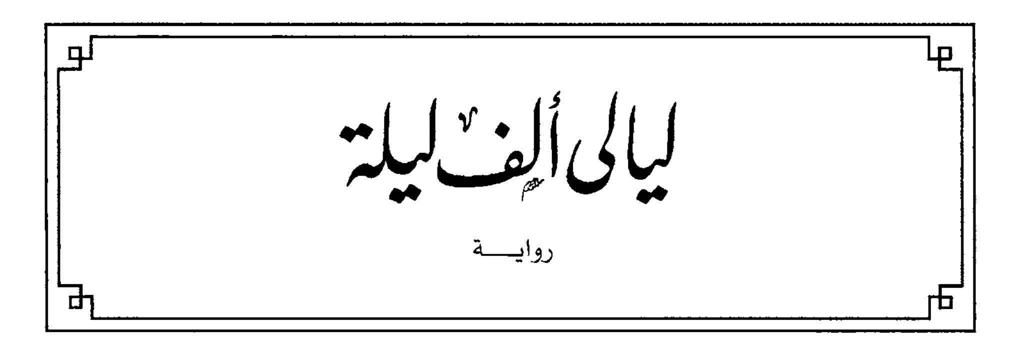
وعندما نفدت النقود ذهبت للقاء سرحان الهلالى فى بيته . لم يضن علىّ بمائة جنيه خارج العقد . انخرطت فى سباق مميت ولكن الجفاف استفحل حتى صرت جسداً بلا روح . وتسلل إلى صوت الفناء الساخر ينذرنى بأننى قد انتهيت . لقد عبث بى ما شاء له العبث ثم غادرنى مكشراً عن أنياب القسوة والإعدام . ونفدت النقود مرة أخرى فهرعت إلى سرحان الهلالى ولكنه لاقانى بحزم مؤدب معربًا عن استعداده لمنحى هبة جديدة تحت شرط أن أطلعه على أى جزء من المسرحية الجديدة . عدت هذه المرة إلى الوحدة والحزن والجفاف بالإضافة إلى الإفلاس أيضًا . خطر لى أن ألجأ إلى باب الشعرية ولكن سدا اعترض الخاطر مؤكدًا لى أننى يتيم وبلا بيت أو حى . عند ذاك قلت لنفسى :

ـ لم تبق إلا النهاية التى رسمتها للبطل !

اهتديت أخيراً إلى مخرج . رمقت الأعباء والهموم بشماتة وازدراء . حررت رسالة المنتحر محتفظًا بالسر لنفسى . مضيت إلى الحديقة اليابانية قبيل العصر . لم أنتبه إلى ما حولى ، لم أر إلا خواطرى المتلاطمة فى حمرتها القانية . جلست على أريكة بأى وسيلة وفى أى وقت؟ . ثقل رأسى فى مهب الهواء الجاف ولم أكن نمت الليلة الماضية إلا ساعة واحدة . ثقل رأسى وغلبنى الإرهاق وخفت النور بسرعة مذهلة . لما فتحت عينى تبدت العتمة فى هبوطها الوئيد . لعلى نمت ساعة أو أكثر . قمت فى خفة غير متوقعة . وجدتنى فى حالة جديدة من النشاط . تخلص رأسى من الحرارة وقلبى من الثقل . ما أعجب ذلك . انقشعت الكآبة وتلاشى التشاؤم . إنى الآن إنسان آخر . متى ولد؟ . كيف ولد؟ . لماذا ولد؟ . تساءلت أيضًا عما حدث فى إغفاءة ساعة . لم تكن ساعة فقط على وجه اليقين . لقد نمت عصراً كاملاً واستيقظت فى عصر جديد . لا شك قد حدثت فى أثناء النوم أمور ذات شأن . ولولا فرحة الشفاء المباغت لاحتفظ الوعى منها بقبس . ألهتنى الفرحة عن التشبث بالذكريات فتلاشت أشياء لا تقدر بثمن . لكننى قمت برحلة طويلة وناجحة ، وإلا فمن أين وكيف جاء البعث؟ . وهو بعث غير معقول ولا مبرر ولكنه حقيقة محسوسة ماثلة يمكن أن ترى ويمكن أن تلمس . بالرغم من الفراغ والإفلاس . بالرغم من عناد الأشياء وتحدياتها . بالرغم من الخسران والأحزان . وإذن فلأستمسك بالنشوة كتعويذة سحر . ولتكن قوتها فى سرها الغامض . ها هى الحيوية تدب ناشرة شذاها الظافر . وفى الحال مضيت نحو المحطة وهى هدف غير قريب . ومع تتابع الخطوات تدفقت الحيوية خلابة واعدة . كما تبشر السحابة الثرية بالمطر . ما هو إلا وعد وشعور وطرب . عدا ذلك فإننى مفلس ومطارد وذو حزن . وعندما ترامیت بعيداً

تذكرت الرسالة ولكن أدركت أيضًا أن قد فات أوان استردادها. قلت لنفسى لا يهم، وما يهم فى هذه اللحظة إلا الإمعان فى السير. ليكن من شأنها ما يكون. ولتكن العاقبة ما تكون. ذروة النشوة تتألق على جسد عراه الإفلاس والجفاف ولكن تنطلق إرادته بالبهجة المتحدية. .





ليالى ألف ليلة

رواية

المحتويات

شهريار

عقب صلاة الفجر، وسحب الظلام صامدة أمام دفقة الضياء المتوثبة، دعى الوزير دندان إلى مقابلة السلطان شهريار. . تلاشت رزانة دندان، خفق قلب الأبوة بين جوانحه، غمغم وهو يرتدى ملابسه: «الآن تقرر المصير . . مصيرك يا شهرزاد!».

مضى فى الطريق الصاعد إلى الجبل على برذون يتبعه نفر من الحراس ويتقدمه حامل مشعل فى جو مشعشع بالندى وبرودة مستأنسة . . ثلاثة أعوام مضت بين الخوف والرجاء، بين الموت والأمل . . مضت فى رواية الحكايات، وبفضل الحكايات امتد الأجل بشهرزاد ثلاثة أعوام . . غير أن للحكايات نهاية ككل شىء، وقد انتهت أمس، فأى قدر يرصدك يا بنتى الحبيبة؟!

دخل القصر الرابض فوق الجبل . اقتاده الحاجب إلى شرفة خلفية تطل على الحديقة المترامية . . بدا شهريار فى مجلسه على ضوء قنديل واحد، سافر الرأس، غزير الشعر

أسوده، تلتمع عيناه فى وجهه الطويل، وتفترش أعلى صدره لحية عريضة. . قبّل دندان الأرض بين يديه. . داخلته رهبة ـ رغم طول المعاشرة ـ لرجل حفل تاريخه بالصرامة والقسوة ودماء الأبرياء. . وأشار السلطان بإطفاء القنديل الوحيد فساد الظلام، ولاحت بوضوح نسبى أشباح الأشجار الفواحة. . تمتم شهريار:

ـ ليكن الظلام كى أرصد انبثاق الضياء. .

تفاءل دندان شيئا ما وقال:

ـ متعك الله يا مولاى بأطيب ما فى الليل والنهار. .

صمت. . لم يستطع دندان أن يستشف ما وراء وجهه من رضا أو سخط حتى قال بهدوء:

ـ اقتضت مشيئتنا أن تبقى شهرزاد زوجة لنا. .

وثب دندان واقفا ثم انحنى على يد السلطان فلثمها بامتنان ودمع الشكر يتحرك فى أعماقه.

ـ فليؤيد الله سلطانك إلى أبد الآبدين. .

قال السلطان وكأنما تذكر ضحاياه:

ـ العدل له وسائل متباينة، منها السيف ومنها العفو، ولله حكمته. .

ـ سدد الله خطاك إلى حكمته يا مولاى. .

فقال بارتياح:

ـ حكاياتها السحر الحلال، تفتحت عن عوالم تدعو للتأمل. .

ثمل الوزير بفرحته صامتا، فقال السلطان:

ـ وأنجبت لى وليدا فسكنت عواصف النفس الهائجة. .

ـ لتهنأ يا مولاى بالسعادة فى الدارين. .

تمتم السلطان باقتضاب:

ـ السعادة!

قلق دندان لسبب غامض. . ارتفع صياح الديكة. . قال السلطان وكأنما يخاطب نفسه:

ـ الوجود أغمض ما فى الوجود!

غير أن نبرته تخففت من الحيرة وهو يقول:

ـ انظر!

نظر دندان نحو الأفق فرآه يتورد بالسرور المقدس. .

شـــهرزاد

استأذن دندان فى مقابلة ابنته شهرزاد . . قادته قهرمانة إلى حجرة الورد ذات السجادة والستائر الموردة . . ذات الدواوين والوسائد المشربة بالحمرة . . هناك استقبلته شهرزاد وأختها دنيازاد . . قال الرجل :

ـ ينوء ظهرى بالسعادة فالحمد لله رب العالمين . .

أجلسته شهرزاد إلى جانبها على حين انسحبت دنيازاد إلى مقصورتها . . قالت شهرزاد :

ـ نجوت من المصير الدامى برحمة من ربنا . .

فغمغم الرجل شاكرا ، فقالت بمرارة :

ـ ليرحم الله العذارى البريئات . .

ـ ما أحكمك وما أشجعك !

فقالت هامسة :

ـ ولكنك تعلم يا أبى أنى تعيسة !

ـ حذار يا بنتى فإن الخواطر تتجسد فى القصور وتنطق !

فقالت بأسى :

ـ ضحيت بنفسى لأوقف شلال الدم . .

فتمتم :

ـ لله حكمته . .

فقالت بحنق :

ـ وللشيطان أولياؤه . .

قال بتوسل :

ـ إنه يحبك يا شهرزاد . .

ـ الكبر والحب لا يجتمعان فى قلب ، إنه يحب ذاته أولا وأخيرا . .

ـ للحب معجزاته أيضا . .

ـ كلما اقترب منى تنشقت رائحة الدم . .

ـ السلطان ليس كبقية البشر . .

ـ لكن الجريمة هى الجريمة . . كم من عذراء قتل ، كم من تقى ورع أهلك ، لم يبق فى المملكة إلا المنافقون . .

فقال بحزن :

ـ ثقتى بالله لم تتزعزع قط . .

ـ أما أنا فأعرف أن مقامى فى الصبر كما علمنى الشيخ الأكبر .

فقال دندان باسما :

ـ نعم الأستاذ ونعم التلميذة . .

الشيـــخ

يقيم الشيخ عبد الله البلخى فى دار بسيطة بالحى القديم . . تنطبع نظرته الحالمة فى قلوب كثيرين من تلاميذه القدامى والمحدثين وتنطبع بعمق أبدى فى قلوب المريدين . . العبادة الكاملة عنده مقدمة ليس إلا ، فهو شيخ الطريق ، وقد بلغ منه مقام الحب والرضا . . عندما غادر خلوته إلى حجرة الاستقبال أقبلت عليه زبيدة ابنته المراهقة والوحيدة وقالت بسرور :

ـ المدينة فرحانة يا أبى . .

فتساءل دون مبالاة :

ـ ألم يصل بعد الطبيب عبد القادر المهينى؟

ـ لعله فى الطريق يا أبى ، لكن المدينة فرحانة لأن السلطان رضى بشهرزاد زوجة له وعدل عن سفك الدماء . .

لا شىء يخرجه من هدوئه . . الرضا فى قلبه لا ينقص ولا يزيد . . وزبيدة ابنة وتلميذة ولكنها ما زالت فى أول الطريق . . وسمعت على الباب طرقا فمضت قائلة :

ـ جاء صديقك لزيارته المعتادة . .

دخل الطبيب عبد القادر المهينى فتعانقا ثم اقتعد شلتة إلى جانب صديقه . . ودارت المناجاة كالمعتاد على ضوء مصباح فى كوة . . قال عبد القادر :

ـ عرفت لا شك الخبر السعيد . .

فقال باسما :

ـ عرفت ما يهمنى معرفته . .

فقال الطبيب :

ـ الحناجر تدعو لشهرزاد بينا أنك أنت صاحب الفضل الأول . .

فقال بعتاب :

ـ الفضل للمحبوب وحده . .

ـ إنى مؤمن أيضا ولكنى أتابع المقدمات والنتائج ، لولا أنها تتلمذ على يديك صبية ما كانت شهرزاد . . لولا كلماتك ما وجدت من الحكايات ما تصرف به السلطان عن سفك الدماء . .

قال الشيخ :

ـ يا صديقى لا عيب فيك إلا أنك تغالى فى تسليمك للعقل . .

ـ إنه زينة الإنسان . .

ـ من العقل أن نعرف حدود العقل . .

فقال عبد القادر :

ـ من المؤمنين من يرون أنه بلا حدود . .

ـ لقد فشلت فى جذب كثيرين إلى الطريق ، أنت على رأسهم . .

ـ الناس مساكين يا مولاى ، فى حاجة إلى من يتعامل معهم ويبصرهم بحياتهم . .

فقال الشيخ بثقة :

ـ رب روح طاهرة تنقذ أمة كاملة . .

فتساءل الطبيب بامتعاض :

ـ على السلولى حاكم حينا ، كيف تنقذ الحى من فساده؟ !

فقال بأسى :

ـ لكن المجتهدين مراتب . .

فقال بإصرار :

ـ إنى طبيب ، وما يصلح الدنيا هو ما يهمنى . .

فربّت يده برقة فابتسم الطبيب وقال :

ـ ولكنك الخير والبركة . .

فقال الشيخ :

ـ أحمد الله فلا السرور يستخفنى ، ولا الحزن يلمسنى . .

ـ أما أنا فحزين يا صديقى العزيز . . كلما تذكرت الأتقياء الذين استشهدوا لقول الحق، واحتجاجا على سفك الدماء ونهب الأموال ازددت حزنا!

قال الشيخ :

ـ شد ما تأسرنا الأشياء!

فقال عبد القادر فى رثاء :

ـ استشهد الشرفاء الأتقياء، أسفى عليك يا مدينتى التى لا يتسلط عليك اليوم إلا المنافقون، لم يا مولاى لا يبقى فى المزاود إلا شر البقر؟!

ـ ما أكثر عشاق الأشياء الخسيسة!

وترامت إليهما من أطراف الحى أصوات زمر وطبل فأدركا أن الأهالى يحتفلون بالخبر السعيد . . عند ذاك قرر الطبيب أن يذهب إلى مقهى الأمراء .

مقهى الأمراء

يتوسط المقهى الجانب الأيمن من الشارع التجارى الكبير . . وهو مربع الأركان، واسع الساحة، يفتح مدخله على الطريق العام، وتطل نوافذه على حوار جانبية . . تقوم فى جوانبه الأرائك للسادة، وتستقر فى دائرة من وسطه الشلت للعامة . . يقدم مشروبات شتى ساخنة وباردة تبعا للفصول، وبه أيضا أجود صنوف المنزول والحشيش . . تشهد لياليه كثيرين من السادة أمثال : صنعان الجمالى وابنه فاضل، وحمدان طنيشة وكرم الأصيل وسحلول وإبراهيم العطار وابنه حسن، وجليل البزاز ونور الدين وشملول الأحدب . . كما تشهد كثيرين من العامة أمثال : رجب الحمال وزميله السندباد وعجر الحلاق وابنه علاء الدين وإبراهيم السقاء ومعروف الإسكافى . . غلب المرح على الجميع فى تلك الليلة السعيدة، وسرعان ما انضم الطبيب عبد القادر المهينى إلى مجلس يضم إبراهيم العطار وكرم الأصيل صاحب الملايين وسحلول تاجر المزادات والتحف . . أفاقوا ليلتهم من خوف متسلط واطمأن كل أب لعذراء جميلة فوعده النوم بأحلام تخلو من الأشباح المخيفة . . وترددت أصوات :

ـ الفاتحة على أرواح الضحايا . .

ـ من العذارى والرجال الأتقياء . .

ـ وداعا للدموع . .

ـ الحمد والشكر لله رب العالمين . .

ـ وطول العمر لدرة النساء شهرزاد . .

ـ شكرا للحكايات الجميلة . .

ـ ما هى إلا رحمة الله حلت . .

تواصل المرح والحديث حتى علا صوت رجب الحمال متسائلا :

ـ أمجنون أنت يا سندباد؟

فسأل عجر الشغوف بدس أنفه فى كل شىء :

ـ ماذا جننه فى هذه الليلة السعيدة؟

ـ يبدو أنه كره عمله وضاق بالمدينة ، لا يريد أن يكون حمالا بعد اليوم . .

ـ أيطمع فى أن يتولى إمارة الحى؟

ـ ذهب إلى ربان سفينة وما زال به حتى قبله خادما بها!

فقال إبراهيم السقاء :

ـ مجنون حقّا من يعرض عن رزق مضمون على البر ليجرى وراء رزق مجهول فوق الماء . .

فقال معروف الإسكافى :

ـ الماء الذى يستمد غذاءه من الجثث منذ قديم الزمان . .

فقال السندباد بتحد :

ـ ضجرت من الأزقة والحوارى ، ضجرت من حمل الأثاث والنقل ، لا أمل فى مشهد جديد ، هناك حياة أخرى ، يتصل النهر بالبحر ، يتوغل البحر فى المجهول ، يتمخض المجهول عن جزر وجبال وأحياء وملائكة وشياطين ، ثمة نداء عجيب لا يقاوم ، قلت لنفسى : «جرب حظك يا سندباد وألق بذاتك فى أحضان الغيب» .

فقال نور الدين بياع العطور :

ـ الحركة بركة . .

فقال السندباد :

ـ تحية جميلة من زميل الصبا . .

فسأل عجر الحلاق ساخرا :

ـ هل تتمسح فى السادة يا حمال؟

فقال نور الدين :

ـ جلسنا جنبا لجنب فى الزاوية نتلقى الدرس على يد مولانا عبد الله البلخى . .

فقال السندباد :

ـ وقنعت بمبادئ القراءة والدين شأن الكثيرين . .

فقال عجر مواصلا سخريته :

ـ لن ينقص بذهابك البر ولن يزيد البحر . .

عند ذلك قال له الطبيب عبد القادر المهينى :

ـ اذهب مصحوبا برعاية الله ولكن اشحذ حواسك ، ليتك تسجل ما يصادفك من بديع المشاهدات فقد أمرنا الله بذلك . متى تسافر ؟

فقال متمتما :

ـ صباح الغد ، أستودعكم الله الحى الباقى . .

فقال رجب الحمال زميله :

ـ ما أحزننى لفراقك يا سندباد!

صنعـــان الجمـــالـى

١

الزمن يدق دقة خاصة فى باطنه فيوقظه . . مد بصره نحو نافذة قريبة من الفراش فرأى من خلال خصاصها المدينة مسربلة فى الظلام . . النوم سلبها الحركة والصوت فاستكنت فى صمت مفعم بهدوء كونى . . انفصل من جسد أم السعد الدفىء هابطا إلى الأرض . . انغرزت قدماه فى زغب سجادة فارسية . . مد ذراعه ملتمسا موقع الشمعدان فارتطمت بكثافة صلبة فجفل متسائلا :

ـ ما هذا؟

جاء صوت غريب ، لم يطرق أذنيه مثله من قبل . . لا صوت إنسان هو ولا صوت حيوان . . اجتاح حواسه وكأنما انتشر فى المدينة كلها . . ونطق الصوت فى غضب :

ـ دست رأسى يا أعمى!

صرعه الخوف . . ما به من الفروسية ذرة . . ما يجيد إلا البيع والشراء والمساومة . .

أكد الصوت قائلا :

ـ دست رأسى يا جاهل . .

قال بنبرات مرتجفة :

ـ من أنت؟

ـ أنا قمقام . .

ـ قمقام؟!

ـ عفريت من أهل المدينة . .

أوشك أن يتلاشى من الرعب فانعقد لسانه . .

ـ آلمتنى فحقّ عليك العقاب . .

عجز لسانه عن أى دفاع فواصل قمقام حديثه :

ـ سمعتك أمس يا منافق وأنت تقول إن الموت علينا حق فما بالك تبول من الخوف؟!

نطق أخيراً بضراعة :

ـ ارحمنى ، أنا رب عائلة . .

ـ لن يحيق عقابى إلا بك أنت . . .

ـ ما فكرت لحظة واحدة فى التعرض لك . .

ـ يا لكم من مخلوقات مزعجة ، لا تكفون عن الطمع فى استعبادنا لتحقيق أغراضكم الدنيئة . . ألم يشبع نهمكم باستعباد الضعفاء منكم؟

ـ أقسم لك . .

فقاطعه :

ـ لا ثقة لى بقسم تاجر . .

فقال :

ـ أسألك الرحمة والعفو . .

ـ أى سبب يدعونى لذلك؟

فقال بلهفة :

ـ قلبك الكبير . .

ـ لا تحاول خداعى كما تخدع زبائنك . .

ـ افعلها لوجه الله . .

ـ لا رحمة بلا ثمن ، ولا عفو بلا ثمن . .

فشرق بالأمل المباغت فقال بحرارة :

ـ إنى أفعل ما تشاء . .

ـ حقًا؟

فقال بلهفة :

ـ بكل ما أملك من قوة . .

فقال بهدوء مخيف :

ـ اقتل على السلولى . .

غرقت الفرحة فى خيبة غير متوقعة كسلعة وردت بعد أهوال من وراء البحار ثم تبين عند الفحص فسادها . . تساءل بذهول :

ـ على السلولى حاكم حينا؟

ـ دون غيره . .

ـ لكنه حاكم ويقيم فى دار السعادة المحروسة وما أنا إلا تاجر .

فهتف :

ـ إذن فلا رحمة ولا عفو . .

ـ سيدى . . لم لا تقتله بنفسك؟

قال بحنق :

ـ استأنسنى بسحر أسود ، وهو يستعين بى فى قضاء مآرب لا يرضى عنها ضميرى . .

ـ لكنك قوة تفوق السحر الأسود!

ـ نحن بعد نخضع لقوانين معينة ، دع المناقشة ، لك أن تقبل أو أن ترفض . .

قال صنعان بحرارة :

ـ أليس لك رغبات أخرى؟ لدى مال موفور وسلع من الهند والصين . .

ـ لا تبدد الوقت سدى أيها الأحمق . .

اشتد به الإغراء من جديد فنطق به اليأس قائلا :

ـ إنى طوع أمرك . .

ـ حذار أن تحاول خداعى . .

ـ سلمت الأمر لقدرى . .

ـ ستكون فى قبضتى ولو أويت إلى جبال قاف . .

عند ذاك شعر صنعان بألم حاد فى ساعده فصرخ صرخة جرفت أعماقه . .

٢

فتح صنعان عينيه على صوت أم السعد وهى تقول: «ماذا أخرك فى النوم؟» . . أشعلت الشمعدان فجعل ينظر فيما حوله بذهول . . إن يكن حلما فماله يمتلئ به أكثر من اليقظة نفسها! إنه حى لدرجة تجلب الذعر . . رغم ذلك ابتل ريقه برحيق النجاة فهيمن عليه هدوء وامتنان . . رد العالم إلى نظامه بعد خراب شامل ونعم بعذوبة الحياة بعد عذاب الجحيم . . تنهد قائلا:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

نظرت أم السعد نحوه وهى تدس خصلات مبعثرة من شعرها داخل منديل رأسها وقد طمس النوم على رونق وجهها بطبقة زيتية فقال ثملا بالنجاة:

ـ الحمد لله الذى أنقذنى من كرب عظيم . .

ـ الله يحفظنا يا أبا فاضل . .

ـ حلم فظيع يا أم السعد . .

ـ خيراً إن شاء الله . .

وقادته إلى الحمام فأشعلت مصباحا فى كوة وتبعها وهو يقول:

ـ قضيت شطرا من الليل مع عفريت .

ـ كيف وأنت الرجل التقى؟

ـ سأقصه على الشيخ عبد الله البلخى، اذهبى الآن بسلام لأتوضأ . . راح يتوضأ . . عندما همّ بغسل ساعده اليسرى توقف مرتعدا:

ـ رباه!

جعل ينظر بذهول إلى جرح كالعضة . . ليس وهما ما يرى فمن مغارز الأنياب بضَّ الدم . .

دار رأسه وغمغم:

ـ هذا هو المستحيل .

فزع قائما وهرول نحو المطبخ، تساءلت أم السعد وهى توقد الكانون:

ـ توضأت؟

مد إليها ساعده قائلا:

ـ انظرى!

شهقت المرأة متسائلة:

ـ ماذا عضك؟

ـ لا أدرى..

فاستحوذ عليها القلق وقالت:

ـ نمت على خير حال!

ـ لا أدرى ماذا حصل..

ـ لو حَدَثَتْ فى النهار..

قاطعها:

ـ لم تحدث فى النهار..

تبادلا نظرة قلقة مضطربة بالخواطر المكتومة.. قالت بفزع:

ـ حدثنى عن الحلم..

فقال بضيق:

ـ قلت إنه عفريت.. ولكنه حلم..

تبادلا النظرة مرة أخرى.. وتبادلا معاناة القلق.. قالت أم السعد بحذر:

ـ ليكن الأمر سرا..

أدرك سر مخاوفها المتجاوبة مع مخاوفه.. إذا جرى ذكر العفريت فلا يدرى ماذا يحيق بسمعته كتاجر غدا، ولا ماذا تتعرض له سمعة كريمته حسنية وابنه فاضل. قد يلد الحلم خرابا شاملا.. ثم إنه ليس على يقين من شىء.. قالت أم السعد:

ـ الحلم حلم.. وسر الجرح يعلمه الله وحده..

فقال بيأس:

ـ هذا ما يجب التسليم به..

ـ المهم الآن أن تبادر إلى العلاج فاذهب إلى صديقك إبراهيم العطار..

كيف يهتدى إلى الحقيقة؟ أرهقه القلق حتى أحنقه فجاش بالغضب.. شعر بأنه يمضى من سيئ إلى أسوأ.. وجدانه جميعه يشحن بالغضب والحنق وطبعه يسوء فكأنه يخلق من جديد على حال تناقض دماثته القديمة الراسخة، ولم يعد يطيق نظرات المرأة، فكره نظراتها ومقت خواطرها ووجد رغبة فى تحطيم كل قائم.. وفى غفلة من ذاته الضائعة طعنها بنظرة غاضبة حانقة مستفزة كأنما هى المسئولة عن محنته ثم تحول عنها ذاهبا وهى تغمغم:

ـ ليس هذا بصنعان الذى كان!

وجد فى الصالة فاضل وحسنية على ضوء كاب نضحت به ثقوب المشربية . . ارتسم فى وجهيهما انزعاج دلَّ على ارتفاع صوته الهائج فازداد غضبا وصاح بهما بلا سبب وعلى غير عادة :

ـ اغربا عن وجهى . .

رد باب حجرته وراءه وراح يتفحص ساعده . . لحق به فاضل بشجاعة . . قال بقلق :

ـ لعلك بخير يا أبى . .

فقال له بفظاظة :

ـ دعنى وحدى . .

ـ كلب عضك؟

ـ من قال ذلك؟

ـ أمى . .

أدرك حكمتها فى إعلان ذلك فرضى ولكن حاله لم تتحسن . . قال :

ـ أمر تافه، إنى بخير ، ولكن دعنى وحدى . .

ـ لابد من الذهاب إلى العطار . .

فقال بضيق :

ـ لا حاجة بى إلى من يذكرنى بذلك . .

فى الخارج قال فاضل لحسنية :

ـ شد ما تغير أبى!

٣

غادر صنعان الجمالى داره دون صلاة لأول مرة فى حياته مذ صار صبيا . . ذهب من توه إلى دكان إبراهيم العطار . . صديق قديم وجار فى الشارع التجارى . . ولما رأى العطار ساعده قال متعجبا :

ـ أى كلب هذا؟! ولكن ما أكثر الكلاب الضالة!

وعكف على انتخاب جملة من الأعشاب وهو يقول :

ـ عندى وصفة لا تخيب . .

غلى الأعشاب حتى ترسبت مادة لزجة . . غسل الجرح بماء الورد . . غطاه بالمادة وبسطها عليه بملعقة خشبية ثم عصب الساعد بشاش دمشقى وهو يتمتم :

ـ بالشفاء إن شاء الله . .

وإذا بصنعان يقول رغما عنه :

ـ أو فليفعل الشيطان ما يريد . .

تفرس إبراهيم العطار فى وجه صاحبه المحتقن فعجب من تغيره وقال :

ـ لا تدع جرحا تافها ينال من طبعك الحلو . .

فمضى مكفهر الوجه وهو يقول :

ـ لا تأمن لهذه الدنيا يا إبراهيم . .

ما أشد جزعه! كأنما اغتسل بماء شطة حامية . . الشمس حارة غليظة . . وجوه العباد كئيبة . . وكان فاضل قد سبقه إلى الدكان فاستقبله بابتسامة مشرقة ضاعفت من غيظه . . لعن الجو رغم ارتياحه المعروف لجميع الأجواء . . لا يكاد يرد تحية . . ولا يرحب بأحد . . لا يستبشر بكلمة أو وجه . . لا يضحك لدعابة . . لايتعظ بعبور جنازة . . لا يسره وجه مليح . . ماذا جرى؟ ضاعف فاضل من نشاطه ليحول ما أمكن بين أبيه والزبائن . . وأكثر من زبون سأل فاضل هامسا :

ـ ما بال أبيك اليوم؟

فيقول الفتى بامتعاض :

ـ به وعكة ، لا أراك الله من سوء . .

٤

وسرعان ما تكشف حاله لرواد مقهى الأمراء . . يقصدهم متجهما ، يجلس صامتا ، أو يحاور محاورة الشارد . . كف عن تعليقاته الضاحكة . . يضجر سريعا فيغادر المقهى . . يقول إبراهيم العطار :

ـ عضه كلب متوحش . .

فيقول جليل البزاز :

ـ لقد فقدناه تماما . .

ويقول كرم الأصيل صاحب الملايين وذو وجه القرد :

ـ حاله التجارية مزدهرة جداً . .

فيقول الطبيب عبد القادر المهينى :

ـ قيمة المال تتبخر عند المرض . .

فيقول عجر الحلاق، الوحيد بين الجالسين على الأرض الذى يدس نفسه أحيانا فى أحاديث السادة، يقول متفلسفا :

ـ ما الإنسان؟ . . عضة كلب أو قرصة ذبابة . .

ولكن فاضل صنعان صاح به :

ـ أبى بخير، ما هى إلا وعكة تزول قبل شروق الصبح!

* * *

لكنه توغل فى حال يتعذر الهيمنة عليها . . وفى ليلة التهم من المنزول قدرا مجنونا وغادر المقهى متوثبا لاقتحام المجهول . . كره الذهاب إلى داره فراح يتخبط فى الظلام مشعث العقل والإرادة تسوقه أخيلة معربدة . . تمنى فعلا يمتص توتره الثائر ويريحه من العذاب . . وتذكر نساء من أهله شبعن موتا فتمثلن له عاريات فى أوضاع جنسية تطفح بالإغراء فأسف على أنه لم ينل من إحداهن وطرا . . ومر بعطفة الشيخ عبد الله البلخى ففكر لحظة فى زيارته والاعتراف بين يديه بما وقع له ولكنه أسرع مبتعدا . . وعلى ضوء مصباح مدلى من هامة أحد أبواب الدور رأى بنتا فى العاشرة ماضية فى طريقها تحمل بين يديها سلطانية . . اندفع نحوها معترضا سبيلها متسائلا :

ـ أين تذهبين يا عروس؟

فقالت ببراءة :

ـ راجعة لأمى . .

فغاص فى الظلام حتى فقد البصر وقال :

ـ تعالى أريك شيئا طريفا . .

حملها بين ذراعيه حتى اندلق ماء المخلل على جبته الحريرية ومضى بها إلى ما تحت سلم الكتاب . . حارت البنت فى أمر حنانه الغامض، لم ترتح إليه، وقالت متشكية :

ـ أمى تنتظر . .

لكنه أثار حب استطلاعها بقدر ما أثار مخاوفها . . أغراها عمره ـ الذى ذكرها بأبيها ـ بنوع من الاطمئنان . . خالط ذلك قلق مجهول وتوقع لحلم عجيب . . وندت عنها صرخة باكية تمزق لها وجدانه وبعثت فى مخيلته المظلمة أطيافا مرعبة فسرعان ما كتم فاها براحته المرتعشة . . لطمته إفاقة مباغتة فعاد إلى سطح الأرض وهمس متوسلا :

ـ لا تبكى . . لا تخافى . .

وزحف اليأس حتى قوض أركان العالم . . ومن الخراب الشامل تناهى إليه وقع أقدام تقترب . . وبسرعة قبض على عنقها الرقيق بيدين غريبتين عنه وتردى فى الهاوية كوحش كاسر زلت قدمه . . أدرك أنه انتهى . . انتبه إلى صوت ينادى :

ـ بسيمة . . بنت يا بسيمة . .

قال لنفسه فى يأس كامل :

ـ لا مفر . .

وضح الآن أن الأقدام تقترب من مكمنه . . وضوء فانوس يتخايل . . دفعته رغبة للخروج حاملا الجثة . . وإذا بوجود ثقيل يقتحم وجوده المتهافت فاقتحمته ذكرى الحلم . . وسمع الصوت الذى سمعه منذ يومين يتساءل :

ـ أهذا ما تعاهدنا عليه؟

قال مستسلما :

ـ أنت حقيقة إذن ولست حلما !

ـ أنت مجنون ولا ريب . .

ـ أوافق على ذلك ولكنك أنت السبب !

فقال الصوت بغيظ :

ـ ما طالبتك بشر قط . .

فقال بحرارة :

ـ لا وقت للمناقشة ، أنقذنى لأفى لك بما تعاهدنا عليه . .

ـ هذا ما جئت من أجله ولكنك لا تفهم . .

شعر بأنه يتحرك فى فراغ فى عالم شديد الصمت حتى سمع الصوت مرة أخرى :

ـ لن يعثر لك أحد على أثر ، افتح عينيك تر أنك واقف أمام باب دارك . . ادخل آمنا ، إنى منتظر . .

٥

سيطر صنعان على ذاته بقوة خارقة ، لم تشعر أم السعد بأن حاله قد ساءت أكثر . . اختفى وراء جفنيه فى الظلام وراح يتذكر ما فعل . . إنه شخص آخر . . القاتل المغتصب

شخص آخر . . نفسه تتمخض عن كائنات وحشية لا عهد له بها . . الآن يتجرد من ماضيه ويطوى آماله ويقدم نفسه للمجهول . . لم ينم ولم تند عنه حركة تنم عن أرقه . . فى الصباح الباكر ترامى إليه صوت نعى . . غابت أم السعد ساعة ثم رجعت وهى تقول :

ـ لك الله يا أم بسيمة . .

غض بصره متسائلا :

ـ ماذا جرى؟

ـ ماذا حدث للناس يا أبا فاضل؟ البنت اغتصبت وقتلت تحت سلم الكتاب، طفلة يا ربى ولكن تحت جلد بعض الآدميين وحوشا مفترسة . .

حنى رأسه حتى تشعثت لحيته فوق صدره وتمتم :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

ـ هؤلاء الوحوش لا يعرفون ربا ولا رسولا . .

وأجهشت المرأة بالبكاء . .

جعل يسائل نفسه أهو العفريت؟ أهو المنزول؟ أهو صنعان الجمالى؟!

٦

خواطر الحى كله هائجة . . الجريمة حديث الحى التجارى كله . . قال له إبراهيم العطار وهو يجدد له الدواء :

ـ الجرح لم يندمل ولكن زال خطره . .

ثم وهو يلف ساعده بالشاش :

ـ سمعت بالجريمة؟

فقال بامتعاض :

ـ أعوذ بالله . .

ـ المجرم ليس آدميا، أبناؤنا يتزوجون فى حال بلوغهم!

ـ إنه مجنون ولا شك . .

ـ أو أنه أحد الصعاليك العاجزين عن الزواج، إنهم يزحمون الطرقات كالكلاب الضالة . .

فتساءل العطار متهكما :

ـ كثيرون يرددون ذلك . .

ـ ماذا يفعل على السلولى فى دار الإمارة؟

ارتجف لدى ذكرى الاسم وتذكر العهد المعلق كالسيف فوق رأسه ولكنه جاراه قائلا :

ـ مشغول بمصالحه الخاصة وإحصاء الهدايا والرشاوى . .

فقال العطار :

ـ فضله علينا نحن التجار غير منكور ولكن عليه أن يتذكر واجبه الأصلى ليبقى لنا . .

فذهب وهو يقول :

ـ لا تأمن لهذه الدنيا يا إبراهيم . .

٧

علم حاكم الحى على السلولى بما يقال عن الأمن من كاتم سره بطيشة مرجان . . خشى أن تترامى الأقوال إلى الوزير دندان فيرفعها إلى السلطان فاستدعى كبير الشرطة جمصة البلطى وقال له :

ـ هل أتاك ما يقال عن الأمن فى عهدى؟

لم يتغير هدوء كبير الشرطة الباطنى لاطلاعه على أسرار رئيسه وانحرافاته وقال :

ـ عفوا يا سيدى الحاكم، ما أهملت ولا قصرت فى بث العيون ولكن الجانى لم يترك أثرا، لم نعثر على شاهد واحد، وقد حققت بنفسى مع عشرات وعشرات من الصعاليك والمتسولين، ولكنها جريمة غامضة لم أعرف لها مثيلا من قبل . .

فصاح به :

ـ يا لك من جاهل! اقبض على جميع الصعاليك والمتسولين، وإنك خبير بوسائل التحقيق الفعالة . .

فقال جمصة بحذر :

ـ ليس لدينا من السجون ما يتسع لهم . .

فقال الحاكم محنقا :

ـ أى سجون يا هذا؟! أتريد أن تلزم بيت المال بإطعامهم؟ سقهم إلى الخلاء، استعن بالجند، وائتنى بالمجرم قبل جثوم الليل . .

٨

انقض رجال الشرطة على الخرابات يقبضون على المتسولين والصعاليك ثم يسوقونهم جماعات إلى الخلاء. . لم تجد شكوى ولا قسم ولم يستثن الشيوخ. . واستعمل معهم العنف حتى جأروا بالاستغاثة بالله ورسوله وآل البيت. . وراح صنعان الجمالى يتابع الأنباء بذهول وقلق. . إنه الجانى ما فى ذلك من شك ولكنه يمضى مطلق السراح مجللا بالوقار. . مئات من الأبرياء يتعذبون بفعلته النكراء فكيف صار محور هذا الشقاء كله؟! وثمة مجهول يتربص به يهون بالقياس إليه جميع ما سلف. . وهو ضائع تماما ومستسلم بلا شروط. . أما صنعان القديم فقد مات واندثر. . لم يبق منه إلا ذاكرة حائرة تجتر ذكريات كالأوهام. . وانتبه على ضجة تجتاح الشارع التجارى. . ها هو ذا على السلولى حاكم الحى يخترق الطريق على رأس كوكبة من الفرسان. . إنه يذكر الناس بقوة الحاكم ويقظته ويتحدى البلبلة. . مضى يرد تحيات التجار عن يمين وشمال. . هذا هو الرجل الذى تعهد بقتله. . فاض قلبه بالخوف والمقت. . إنه سر عذابه. . ووقع الاختيار عليه هو ليحرر العفريت من سحره الأسود! . . هو العفريت دون سواه. . نجاته رهن بالقضاء عليه. . تسمرت عيناه فى وجهه الغامق الريان، ولحيته المدببة، وجسمه المائل إلى القصر. . وعندما مر أمام دكان إبراهيم العطار هرع إليه المعلم إبراهيم فتصافحا بحرارة. . وعندما مر أمام دكانه حانت منه التفاتة نحوه فابتسم فلم يجد صنعان بدا من العبور إليه والمصافحة! . . وإذا بالسلولى يقول له:

ـ سنراك قريبا بمشيئة الله!

رجع صنعان الجمالى إلى دكانه وهو يتساءل عما يعنيه. . هل يدعوه إلى مقابلة؟ . . لماذا؟ . . هل يجد السبيل ميسرا من حيث لم ينتظر؟ . . ربطت قشعريرة بين أعلاه وأسفله. . ردد قوله بذهول:

ـ سنراك قريبا بمشيئة الله!

٩

ولما أخلد إلى النوم ليلا هيمن عليه الوجود الآخر وسمع الصوت يقول متهكما:

ـ تأكل وتشرب وتنام وعلى أنا الصبر؟!

فقال بتعاسة :

ـ إنها مهمة شاقة لا يدرك مشقتها من له مثل قوتك . .

ـ ولكنها أسهل من قتل البنت الصغيرة !

فتأوه قائلا :

ـ يا للخسارة ! طالما عددت من الصفوة الطيبة . .

ـ لا تخدعنى المظاهر . .

ـ لم تكن مجرد مظاهر . .

ـ نسيت أشياء يندى لها الجبين . .

فقال بارتباك :

ـ الكمال لله وحده !

ـ لا أنكر أيضا مزاياك ولذلك رشحتك للخلاص !

فقال بجزع :

ـ لولا اقتحامك حياتى ما تورطت فى الجريمة . .

فقال بوضوح :

ـ لا تكذب ، أنت وحدك مسئول عن جريمتك !

ـ الحق أنى لا أفهمك . .

ـ الحق أنى أحسنت بك الظن أكثر مما ينبغى . .

ـ ليتك تركتنى وشأنى !

ـ إنى عفريت مؤمن ، قلت هذا الرجل خيره أكثر من شره ، أجل له علاقات مريبة مع كبير الشرطة ولم يتورع عن الاستغلال أيام الغلاء ، ولكنه أشرف التجار ، وذو صدقات وعبادة وذو رحمة بالفقراء ، لذلك آثرتك بالخلاص ، خلاص الحى من رأس الفساد وخلاص نفسك الآثمة ، وبدلا من أن تدرك الهدف الواضح انهار بنيانك وارتكبت جريمتك البشعة . .

تأوه صنعان واقعا فى الصمت فواصل الصوت :

ـ الفرصة متاحة ما زالت . .

فتساءل فى حيرة :

ـ والجريمة ؟

ـ الحياة تتسع للتكفير والتوبة . .

فتساءل بنبرة فيها ماء الأمل :

ـ ولكن الرجل فى حصن منيع .

ـ سوف يستدعيك إلى مقابلته . .

ـ إنى أعجب لذلك !

ـ سوف يستدعيك ، اطمئن واستعد . .

فتفكر صنعان مليا ثم تساءل :

ـ هل تعدنى بالنجاة؟

ـ ما اخترتك إلا من أجل النجاة . .

ومن شدة الإرهاق استغرق صنعان فى نوم عميق . .

١٠

كان يتأهب للذهاب إلى المقهى عندما قالت أم السعد :

ـ رسول من قبل الحاكم ينتظرك فى المنظرة . .

وجد كاتم السر بطيشة مرجان فى الانتظار بعينيه البراقتين ولحيته القصيرة . . قال له :

ـ الحاكم يرغب فى لقائك . .

خفق قلبه . . أدرك أنه ذاهب لارتكاب أخطر جريمة فى تاريخ الحى . . لعله ضايقه أن يكون بطيشة مرجان مطلعا على ملابسات الزيارة ولكنه اطمأن إلى وعد قمقام . . قال للرجل :

ـ انتظرنى حتى أرتدى ملابسى . .

فقام الرجل قائلا :

ـ بل أسبقك تلافيا من لفت الأنظار . .

إذن فالرجل يحرص على سرية المقابلة ميسرا بذلك مهمته . . وراح يتدهن بالمسك وأم السعد تراقبه ، منطوية على قلق لم يفارقها منذ ليلة الحلم . . هيمن عليها شعور بأنها تعاشر رجلا آخر وأن صنعان القديم تلاشى فى الظلام . . وفى غفلة منها دس فى جيبه خنجرا ذا مقبض من الفضة الخالصة تلقاه هدية من الهند . .

١١

استقبله على السلولى فى جوسقه الصيفى بحديقة الإمارة. . طالعه فى جلباب فضفاض أبيض ورأس عار فخفف عنه رهبة السلطة. . وقامت بين يديه مائدة حفلت بالقوارير والكئوس والنقل فبسط له المؤانسة والقرب. . أجلسه على وسادة إلى جانبه مستبقيا مرجان بطيشة، وقال:

ـ أهلا بك يا معلم صنعان، تاجر أصيل وإنسان كريم. .

فتمتم صنعان مداريا ارتباكه بابتسامة:

ـ الشكر لك يا نائب السلطان. .

ملأ مرجان ثلاث كئوس، ساءل صنعان نفسه هل يبقى مرجان إلى آخر الجلسة؟. . لعلها فرصة لا تتكرر، فما العمل؟ وقال السلولى:

ـ ليلة صيف لطيفة، أتحب الصيف؟

ـ أحب الفصول جميعا. .

ـ إنك ممن رضى الله عنهم، ومن تمام رضاه أن نبدأ حياة جديدة مثمرة. .

فقال صنعان مدفوعا بحب الاستطلاع:

ـ أسأل الله أن يتم نعمته علينا. .

شربوا فتلقوا من الراح نشوة وانتعاشا. . وجعل السلولى يقول:

ـ طهرنا لكم الحى من الأوباش. .

فقال بحزن دفين:

ـ نعم الحزم والعزم. .

فقال بطيشة مرجان:

ـ لا نكاد نسمع الآن عن سرقة أو جريمة. .

فسأل صنعان بحذر:

ـ هل اهتديتم إلى الجانى؟

فضحك السلولى قائلا:

ـ المعترفون بالجريمة فاقوا الخمسين عدا!

ضحك مرجان أيضا، ولكنه قال:

ـ الجانى الحقيقى ضمنهم ولا شك . .

فقال السلولى :

ـ إنها مشكلة جمصة البلطى !

فقال بطيشة :

ـ علينا أيضا أن نضاعف المواعظ فى المساجد والموالد . .

أوشك صنعان أن ييأس ولكن السلولى أشار إلى مرجان إشارة خاصة فغادر المكان . . ومع ذلك كان الحرس منتشرا فى الحديقة ، ولا يوجد مهرب ، ولكنه لم يغفل لحظة عن وعد قمقام . . قال السلولى مغيرا لهجته :

ـ فلنطو حديث الجريمة والمجرمين . .

فقال صنعان باسما :

ـ طابت ليلتك يا مولاى . .

ـ الحق أنى دعوتك لأكثر من داع . .

ـ إنى رهن الإشارة . .

فقال بثقة :

ـ إنى أرغب فى الزواج من كريمتك . .

دهش صنعان . . أسف لفرصة قدر لها الإحباط قبل أن تولد ، ولكنه قال :

ـ هذا شرف كبير وسعادة عظمى . .

ـ وعندى أيضا بنت هدية لابنك فاضل !

فقال صنعان طاردا ذهوله :

ـ إنه شاب سعيد الحظ . .

وصمت قليلا ثم واصل :

ـ أما المطلوب الأخير فهو يتعلق بالمصلحة العامة !

فتجلت فى عينى صنعان نظرة مستطلعة ، فقال الحاكم :

ـ المقاول حمدان طنيشة قريبك . . أليس كذلك؟

ـ أجل يا مولاى . .

ـ المسألة أننى اعتزمت شق طريق بحذاء الصحراء بطول الحى كله . .

ـ مشروع رائع حقّا . .

فسأله بنبرة ذات مغزى :

ـ متى تجيئنى به إلى هذا المكان؟

اجتاحته موجة من السخرية وهو يقول :

ـ موعدنا مساء الغد يا مولاى!

فحدقه بنظرة ثاقبة وتساءل باسما :

ـ ترى على أى حال سيجيئنى؟

فقال صنعان بلباقة ودهاء :

ـ على الحال التى تتوقعها تماما . .

ـ أنت لبيب يا صنعان، ولا تنس أننا أهل!

خاف صنعان أن يباغته باستدعاء بطيشة مرجان . . قال لنفسه : «الآن . . أو تلاشت الفرصة إلى الأبد» . . ويسر الرجل له الأمر وهو لا يدرى فمد ساقيه وانطوى على ظهره طلبا للراحة ثم أغمض عينيه . . كان صنعان يغوص فى خيال الجريمة ويقذف بنفسه فيما تبقى له من مصير . . استل خنجره . . سدده نحو القلب . . طعن بقوة مستمدة من التصميم واليأس والرغبة الأخيرة فى النجاة . . انتفض الحاكم انتفاضة عنيفة كأنما يصارع قوة مجهولة . . تقلص وجهه وحملق بجنون . . هم بضم ساعديه كأنما ليقبض على الخنجر ولكنه لم يستطع . . نطقت عيناه المذعورتان بكلام لم يسمع، ثم همد إلى الأبد . .

١٢

حملق فى الخنجر غائب النصل والدم المتدفق وهو يرتجف . . انتزع عينيه بمشقة ونظر نحو الباب المغلق بخوف شديد . . تمزق الصمت بنبض صدغيه . . ولأول مرة يلمح القناديل المعلقة فى الأركان . . ولمح أيضا قائما خشبيا مزخرفا بالأصداف عليه مصحف كبير . . توسل بكل عذاباته إلى قمقام عفريته وقدره . . وغشيه الوجود الخفى وسمع الصوت يقول بارتياح :

ـ أحسنت .

ثم بمرح :

ـ الآن تحرر قمقام من السحر الأسود . .

قال صنعان :

ـ أنقذنى فقد كرهت المكان والمنظر . .

فقال بهدوء وعطف :

ـ إيمانى يمنعنى من التدخل بعد أن ملكت حرية إرادتى . .

فقال بجزع :

ـ لا أفقه معنى لما تقول !

ـ عيبك يا صنعان أنك لا تفكر كإنسان . .

ـ رباه ، لا وقت للجدل ، أتزمع تركى لشأنى؟

ـ هذا تماما ما يقتضيه واجبى . .

فصاح :

ـ يا للفظاعة ! لقد خدعتنى . .

ـ بل منحتك فرصة للخلاص قلما تتاح لحى . .

ـ ألم تتدخل فى حياتى وتحملنى على قتل هذا الرجل؟

ـ كنت راغبًا بحرارة فى التحرر من شر السحر الأسود فاخترتك لإيمانك رغم تأرجحك بين الخير والشر ، قدرت أنك أولى من غيرك بإنقاذ حيك ونفسك . .

فقال بيأس :

ـ لكنك لم توضح لى أفكارك . .

ـ وضحتها بالقدر الكافى لمن يفكر . .

ـ مكر غير محمود . . من قال إنى مسئول عن الحى؟ !

ـ إنها أمانة عامة لا يجوز أن يتبرأ منها إنسان أمين ولكنها منوطة أولا بأمثالك ممن لا يخلون من نوايا طيبة !

ـ ألم تنقذنى من ورطتى تحت سلم الكتاب؟

ـ بلى ، عز علىَّ أن تنتهى بسبب من تدخلى أسوأ نهاية لا أمل فيها لتكفير أو توبة فارتأيت أن أمنحك فرصة جديدة . .

ـ وها قد قمت بما عاهدتك عليه فوجب عليك إنقاذى . .

ـ إذن تكون مؤامرة ، دورك فيها دور الآلة ، وتقف الجدارة والتكفير والتوبة والخلاص . .

فركع على ركبتيه قائلا بتوسل :

ـ ارحمنى ، وأنقذنى . .

ـ لا تبدد تضحيتك فى الهواء . .

ـ إنه مصير أسود!

ـ فاعل الخير لا تكربه العواقب . .

هتف بذعر :

ـ لا أريد أن أكون بطلا!

فقال قمقام بأسى :

ـ كن بطلا يا صنعان، هذا قدرك.

ومضى الصوت يتلاشى وهو يقول :

ـ أستودعك الله وأستغفره لى ولك . .

ندت عن صنعان صرخة ترامت إلى بطيشة مرجان ورجال الحرس فى الخارج . .

جمصة البلطى

١

سبحت روح صنعان الجمالى فى سماء مقهى الأمراء فغشى روادها الكدر، شهدوا محاكمته سمعوا اعترافه الكامل، رأوا سيف شبيب رامة السياف وهو يطيح برأسه . . كانت له منزلة طيبة بين التجار والأعيان، وكان من القلة النادرة التى يحبها الفقراء، وأمام أولئك وهؤلاء ضربت عنقه وشردت أسرته . . ذاعت قصته على كل لسان، هزت أفئدة الحى والمدينة، استعادها السلطان شهريار مرات ومرات . . وفى جو المقهى الملطف بطلائع الخريف قال حمدان طنيشة المقاول :

ـ الله خالق الملك وصاحبه، المتصرف فى شئونه بما يشاء، يقول للشىء كن فيكون، من منكم كان يتصور هذا المصير لصنعان الجمالى؟ صنعان يغتصب بنتا فى العاشرة ويخنقها؟ صنعان يقتل حاكم الحى فى أول لقاء معه؟!

فقال إبراهيم العطار :

ـ باستبعاد العفريت تصبح الحكاية لغزا من الألغاز!

فقال الطبيب عبد القادر المهينى :

ـ لعلها عضة الكلب، هى الأصل ثم تفرع عنها خيالات مرض خبيث لم يعالج كما يجب!

فقال إبراهيم العطار محتدا :

ـ لا يوجد من هو أخبر منى بمداواة عضة الكلب، آخرهم كان معروف الإسكافى . . أليس كذلك يا معروف؟

فأجاب معروف من مجلسه فى الوسط بين العامة :

ـ الحمد لله الذى أتم علىَّ نعمة الشفاء . .

فتساءل عجر الحلاق :

ـ ولم لا نصدق حكاية العفريت؟

فقال إبراهيم السقاء :

ـ إنهم يفوقون الآدميين عدا . .

فقال سحلول تاجر المزادات والتحف :

ـ الموت فى غنى عن الأسباب . .

فقال معروف الإسكافى :

ـ لى مع العفاريت حكايات وحكايات . .

عند ذلك قال شملول الأحدب، مهرج السلطان :

ـ علمنا أن العفاريت تتجنب دارك خوفا من زوجتك . .

فابتسم معروف مسلما بقضائه . . ولم تلق الدعابة نجاحا فى الجو الكئيب . . وقال جليل البزاز :

ـ ضاع صنعان وضاعت أسرته . .

فقال كرم الأصيل صاحب الملايين والوجه الشبيه بالقرد :

ـ ومدُّ يد المعونة لأسرته يعتبر تحديا للإمارة، فلا حول ولا قوة إلا بالله . .

فقال إبراهيم العطار :

ـ أخوف ما أخاف أن ينفر الناس من أسرته اتقاء لشر العفاريت . .

فقال حسن العطار الابن :

ـ هيهات أن يغير شىء ما بينى وبين فاضل صنعان . .

وعاد حمدان طنيشة المقاول يقول :

ـ يقول للشىء كن فيكون . .

٢

انطلق جمصة البلطى كبير الشرطة نحو النهر ليمارس هوايته المفضلة فى الصيد ـ كف نفسه أربعين يوما عن هوايته حدادا على رئيسه على السلولى . . وقد حزن على القاتل أيضا فى باطنه بحكم الجيرة والصداقة القديمة التى جعلت من الأسرتين أسرة واحدة . . رباه ، هو الذى قبض عليه ، هو الذى رماه فى السجن ، هو الذى قدمه للمحاكمة ، ثم ساقه أخيرا للسياف شبيب رامة ، هو أيضا من علق رأسه بأعلى داره وصادر أمواله وطرد أسرته من الدار إلى النار . . وعلى ما عرف به من شدة وصلابة ، فقد تكدر صفوه وحزن قلبه ـ له قلب رغم أن كثيرين لا يتصورون ذلك . . بل أحب هذا القلب حسنية كريمة صنعان وأوشك أن يطلب يدها لولا أن دهمته الحوادث . . اليوم طاب الجو وهامت فى السماء سحائب خريف صافية ولكن حبه دهس تحت عجلة الأحداث . . ترك بغلته مع عبد ثم دفع القارب إلى وسط النهر ورمى بالشبكة . . قطرات من الراحة فى خضم العمل الشاق الوحشى . . ابتسم . . سرعان ما تم التفاهم بينه وبين الحاكم الجديد خليل الهمذانى . . من أين يجىء شهريار بهؤلاء الحكام؟! أسفر الرجل عن وجهه عند أول تجربة . . التجربة كانت أموال صنعان المصادرة . . استولى على نصيب منها لا يستهان به ، وألقم بطيشة مرجان كما ألقمه نصيبه . . وأضاف المتبقى إلى بيت المال . . استولى على نصيبه بالرغم من حزنه لمصير صديقه معتذرا أمام نفسه بأن الرفض يعنى تحديا للحاكم الجديد . . فى قلبه موضع للعواطف وموضع للقسوة والجشع . . قال لنفسه : «من تعفف جاع فى هذه المدينة» . . وتساءل ساخرا : «ماذا يجرى علينا لو تولى أمورنا حاكم عادل؟!» . أليس السلطان نفسه هو من قتل المئات من العذارى والعشرات من أهل الورع والتقى؟! ما أخف موازينه إذا قيس بغيره من أكابر السلطنة! تنفس بعمق . . حقًّا إنه يوم جميل . . السماء منقوشة بالسحب . . الهواء معتدل مضمخ برائحة العشب والماء ، الشبكة تمتلئ بالسمك ، ولكن أين حسنية؟ أأسرة صنعان تقيم اليوم بحجرة بربع . . بعد الجاه والجواهر والإصطبل . . أم السعد تصنع الحلوى ـ التى كانت تسحر بها ألباب الضيوف ـ وفاضل يسرح بها كبائع جوال ، أما حسنية فتنتظر عريسا لن يأتى . . هل حقًّا سخرك عفريت يا صنعان أو أتلفتك عضة كلب؟! لن أنسى نظرتك الزائغة واستغاثتك بى «أسرتى يا جمصة» . . هيهات أن يجرؤ إنسان على مد يده إلى أسرتك . . ابنك فاضل أيضا ولد ذو كبرياء . . ضعت يا صنعان وما كان كان . . إن يكن عفريتك مؤمنا حقًّا فليفعل شيئا . . عجيبة هذه السلطنة بناسها وعفاريتها . . ترفع شعار الله وتغوص فى

الدنس . . وبغتة تحول وعيه إلى يده . . ثقلت الشبكة مبشرة بالخير . . جذبها بسرور حتى استوت فوق سطح القارب . . لم ير بها سمكة واحدة!

٣

ذهل جمصة البلطى . . ثمة كرة معدنية ولا شىء سواها . . تناولها حانقا، قلبها بين يديه، ثم رمى بها فى باطن القارب . . أحدثت صوتا عميقا مؤثرا . . حدث بها شىء غير ملحوظ فتمخض عن انفجار . . انطلق منها ما يشبه الغبار مدوما فى الجو حتى عانق سحب الخريف . . وتلاشى الغبار تاركا وجودا خفيفا جثم عليه فملأ شعوره بحضوره الطاغى . . ارتعب جمصة على إيلافه مواقف الخطر . . أدرك بسابق علمه أنه حيال عفريت منطلق من قمقم . . ما ملك أن هتف :

ـ الأمان بحق مولانا سليمان!

فقال صوت لم يسمع له مثيلا من قبل :

ـ ما أعذب الحرية بعد جحيم السجن!

فقال البلطى متوددا بحلق جاف :

ـ خلاصك تم على يدى . .

ـ أخبرنى أولا عما فعل الله بسليمان؟

ـ مات سيدنا سليمان منذ أكثر من ألف عام . .

فقال الرجل ورأسه يتمايل من النشوة :

ـ مباركة مشيئة الله، هى التى سلطت علينا إرادة آدمى لا يرقى ترابه إلى نارنا، وذلك الآدمى هو الذى عاقبنى على هفوة من هفوات القلب يغفر الله أكبر منها برحمته . .

فقال جمصة بأمل متصاعد :

ـ هنيئا لك الحرية فانطلق واستمتع بها . .

قال بسخرية :

ـ أراك تطمع فى النجاة!

ـ بما كنت الوسيلة إلى خلاصك!

ـ ما حررنى إلا القدر . .

فقال جمصة بلهفة :

ـ وكنت أداة القدر . .

فقال بحنق :

ـ فى سجنى الطويل امتلأت بالحنق والرغبة فى الانتقام . .

فقال بضراعة :

ـ العفو عند المقدرة من شيم الكرام . .

ـ بارعون أنتم فى الحفظ والاستشهاد والنفاق ، وعلى قدر علمكم يجب أن يكون حسابكم ، فالويل لكم . .

فقال جمصة البلطى باستعطاف :

ـ نحن نخوض صراعا متواصلا مع أنفسنا والناس والحياة ، وللصراع ضحايا لا يحيط بهم حصر ، والأمل لا ينعدم أبدا فى رحمة الرحمن . .

فقال العفريت فى صرامة :

ـ الرحمة لمن يستحق الرحمة ، ورحاب الله مفروشة بأزاهير الفرص المتاحة لمن استمسك بالحكمة ، لذلك لا تحق الرحمة إلا للمجتهدين وإلا أفسدت الروائح الكريهة نقاء الجو المضىء بالنور الإلهى ، فلا تعتذر عن الفساد بالفساد . .

ـ نحن نؤمن بالرحمة حتى ونحن نضرب الأعناق ونجتز الرءوس . .

ـ يالك من منافق! ما عملك؟

ـ كبير الشرطة . .

ـ يا لها من ألقاب! هل تؤدى واجبك بما يرضى الله؟

فقال جمصة بقلق :

ـ واجبى أن أنفذ الأوامر . .

ـ شعار يصلح لتغطية الخبائث . .

ـ لا حيلة لى فى ذلك . .

ـ إذا دعيتم لخير ادعيتم العجز ، وإذا دعيتم لشر بادرتم إليه باسم الواجب!

وقع جمصة فى حصار محكم وهفت عليه نذر الوعيد فتراجع إلى حافة القارب وهو يرتعد . . فى ذات الوقت شعر بنفاذ وجود جديد هيمن على المكان فآمن بمقدم عفريت آخر وأيقن بالضياع . . قال القادم الجديد مخاطبا الأول :

ـ هنيئا لك الحرية يا سنجام . .

ـ الشكر لله يا قمقام . .

ـ لم أرك منذ أكثر من ألف عام . .

ـ ما أقصرها بالقياس إلى العمر! وما أطولها إذا انقضت فى قمقم!

ـ وقعت أنا أيضا فى شباك السحر وهو يضاهى السجن فى عذابه . .

ـ ما تصيبنا آفة إلا من بنى آدم . .

ـ فى فترة غيابك وقعت أحداث وأحداث فلعلك يهمك أن تلم بما فاتك . .

ـ نعم ، ولكنى أريد أن أتخذ قرارا نحو هذا الآدمى . .

ـ دعنا منه الآن ، هيهات أن يفلت من يديك إذا أردته ، ولكن لا تتخذ قرارا وأنت حانق ، فما هلك منا عفريت إلا فريسة لغضبه ، هلم بنا إلى جبل قاف نحتفل بتحريرك . .

قال سنجام مخاطبا البلطى :

ـ إلى اللقاء يا كبير الشرطة . .

مضى الوجود المهيمن يخف حتى تلاشى تماما . . استرد جمصة حرية أعضائه ولكنه تهاوى فوق سطح القارب خائر القوى وثملا بالأمان فى آن . .

٤

وثب جمصة البلطى إلى الشاطئ فاستقبله العبد منحنيا ثم مضى يطوى الشبكة وهو يقول :

ـ ما فى الشبكة سمكة واحدة

فقال جمصة بريق جاف :

ـ أكنت تنظر نحوى وأنا فى القارب؟

ـ طيلة الوقت يا مولاى . .

ـ ماذا رأيت؟

ـ رأيتك وأنت ترمى الشبكة ، وأنت تنتظر ، ثم وأنت تجذبها ، لذلك أدهشنى أن أجدها فارغة . .

ـ ألم تر دخانا ينتشر؟

ـ كلا يا مولاى . .

ـ ألم تسمع صوتا غريبا؟

ـ كلا .

ـ لعلك غفوت!

ـ أبدا يا مولاى . .

ما كان بوسعه أن يشك فيما وقع له . . إنه حقيقى أكثر من الحقيقة نفسها . . وقد حفر فى ذاكرته اسم قمقام بمثل القوة التى حفر بها اسم سنجام . . فذكر اعترافات صنعان فى صورة جديدة فخُيِّل إليه أن صديقه القديم راح ضحية تعيسة . . وتساءل بقلق عما يخبئه له الغيب!

٥

طوى سره فى صدره . . حتى رسمية زوجته لم تعلم به . . وهو سر يثقل على الصدر والقلب ولكن ما الحيلة؟ إذا فشا يوما أضر بمركزه وأفقده وظيفته . . وأرق الليل متفكرا فى العواقب مصمما على الحذر . . سنجام مؤمن فيما بدا وسيحفظ له جميل تحريره ولو صدفة . . نام عقب صلاة الفجر ساعة ثم استيقظ على حال أفضل . . كان بطبيعته قويا يتحدى الصعاب والوساوس . . لقد استأنس السلولى والهمذانى وليس سنجام بأشد مراسا منهما . . وقالت له رسمية وهما يشربان لبن الصباح :

ـ أمس زارتنى جارتنا القديمة أم السعد . .

توترت أعصابه فجأة . . قدر خطورة الزيارة تقدير شرطى عالِم ببواطن الأمور ، وقال بجفاء :

ـ أرملة مسكينة ولكن . .

وتردد لحظة ثم واصل حديثه :

ـ ولكن زيارتها لنا تضر بمركزى . .

ـ حالها تقطع القلب . .

ـ هكذا حال الدنيا يا رسمية ولكن لندع ما لله لله!

ـ جاءت بأمل أن تعينها على تقديم التماس للحاكم برد أملاك الأسرة . .

فهتف :

ـ يا لها من جاهلة!

قالت :

ـ إن الله لا يأخذ الأبناء بذنوب الآباء . .

ـ شهريار نفسه هو الذى أصدر الحكم!

ثم قال بوضوح:

ـ صنعان كان صديقى ولكن ما قدر كان، ولعل قتل البنت بعد اغتصابها لا يعد شيئا بالقياس إلى قتل حاكم الحى، فالسلطان يعتبر الضربة الموجهة إلى نائبه موجهة إلى شخصه، وما زال السلطان سفاكا رغم تغيره الطارئ، فلا تشجعيها على التردد عليك وإلا حلت بنا لعنة لا قبل لنا بها..

فوجمت المرأة منكسرة الفؤاد فقال:

ـ إنى فى الحزن مثلك ولكن لا حيلة لنا..

٦

إنه صادق فيما قال.. حزنه على آل صنعان لم ينقشع، ومرجع ذلك ليس العشق وحده.. أحب الرجل من قبل أن يحب كريمته.. وهو لا يخلو دائما من عواطف طيبة، ومن ذكريات دينية، ولكنه لا يجد بأسا من ممارسة الانحراف فى عالم منحرف.. الحق أنه لا يوجد قلب فى الحى كقلبه فى جمعه بين الأسود والأبيض.. لذلك دعا فاضل صنعان إلى داره فى زيارة أحاطها بالكتمان.. جاء الفتى فى زيه الجديد المكون من الجلباب والصندل، زى البياع الجوال.. أجلسه إلى جانبه فى المنظرة وقال:

ـ يسرنى يا فاضل أنك تواجه مصيرك بشجاعة فائقة..

فقال فاضل:

ـ أحمد الله الذى أبقى على دينى بعد ضياع الجاه والمال..

أعجب به حقّا وقال:

ـ استدعيتك احتراما لعهدنا القديم..

ـ بارك الله فيك يا سيدى..

فنظر إليه مليا ثم قال:

ـ لولا ذلك لأبحت لنفسى القبض عليك..

فدهش فاضل متسائلا:

ـ تقبض علىَّ؟.. لماذا يا سيدى؟

ـ لا تتظاهر بالجهل.. ألم يكفكم ما حاق بكم من شر؟! اسع لرزقك بعيدا عن مصاحبة المخربين من أعداء السلطان!

فقال فاضل بوجه شاحب :

ـ ما أنا إلا بائع جوال . .

ـ دع المناورة يا فاضل ، لا شىء يغيب عن جمصة البلطى ، ومهمتى الأولى كما تعلم هى مطاردة الشيعة والخوارج . .

فقال فاضل بصوت منخفض :

ـ لست منهم ، وقد كنت تلميذا فى مطلع حياتى للشيخ عبد الله البلخى . .

ـ وكنت أنا أيضا تلميذه ، من مدرسة البلخى يخرج كثيرون ، أهل الطريق ، أهل السنة ، كما يخرج شياطين منحرفون عن الخط الأول . .

ـ ثق يا سيدى بأننى أبعد ما يكون عن الشياطين . .

ـ لك رفقاء ورفقاء منهم !

ـ لا شأن لى بعقائدهم !

فقال محذرا :

ـ فى البداية رفقة بريئة ثم تجىء النكسة ، وهم مجانين ، يكفرون الحكام ، ويغررون بالفقراء والعبيد ، لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب ، كأن الله اصطفاهم دون عباده ، احذر مصير أبيك فللشيطان طرق شتى ، أما أنا فلا أعرف إلا واجبى ، وقد بايعت السلطان كما بايعت حاكم الحى ، على إبادة المارقين . .

فقال فاضل بنبرة فاترة :

ـ توكد يا سيدى من أننى أبعد ما يكون عن المارقين . .

فقال جمصة :

ـ منحتك نصيحة أبوية فقدرها . .

ـ شكرا لمروءتك يا سيدى . .

وجعل يتفرس فى وجهه بحثا عن مواقع الشبه بينه وبين حسنية أخته ، انتشى لحظات بالوجد ، ثم قال :

ـ وثمة مسألة أخرى ، أرجو أن تبلغ والدتك أن تقديم التماس برد أملاك الأسرة يعتبر تحديا للسلطان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فقال فاضل بتسليم :

ـ هذا هو رأيى أيضا يا سيدى . .

وانتهت المقابلة فى سرية كما بدأت . وتساءل جمصة «ترى هل يتاح له يوما أن يستدعيه ليطلب منه يد حسنية ؟ !» .

٧

لعل جريمة صنعان الجمالى هى الحدث الخطير الوحيد الذى وقع فى خدمة جمصة البلطى . . ولم يحمله أحد مسئوليته خاصة بعد ما عرف من تدخل العفريت فيه . . وليس كذلك ما يقع اليوم فى الحى . . فقد تتابعت حوادث قطع طريق داخل سور الحى وخارجه بكثرة مزعجة، فنهبت أموال وسلع واعتدى على رجال . . وغضب جمصة البلطى غضب شرطى قدير حائز للثقة . . بث المخبرين فى الأماكن النائية، ونشر الدوريات نهارا وليلا، وتفقد الأماكن المشبوهة بنفسه ولكن الحوادث مضت فى جريانها هازئة بنشاطه ولم يقبض على مجرم واحد . .

وقال كرم الأصيل صاحب الملايين فى مقهى الأمراء :

ـ كان حال الأمن أفضل على عهد المرحوم السلولى . .

فقال الطبيب عبد القادر المهينى ضاحكا :

ـ لم يوجد قاطع طريق على عهده سواه!

فقال عجر الحلاق :

ـ جمصة البلطى فى أسوإ أحواله . .

وهو يطلع على أحوال السادة وهو يقدم لهم خدماته ـ كحلاق ـ فى دورهم، فقال إبراهيم العطار :

ـ الأمن حياة التجارة، والتجارة حياة الأمة، أقترح أن يذهب منا وفد إلى حاكم حينا الهمذانى . .

٨

ودعا خليل الهمذانى جمصة البلطى إلى دار الإمارة وقال له بعنف :

ـ المدينة تخرب وأنت تغط فى النوم . .

فقال كبير الشرطة بصوت منهزم :

ـ ما نمت وما قصرت . .

ـ العبرة بالخواتيم . .

ـ إن يدى مغلولتان . .

ـ ماذا تريد؟

ـ الصعاليك الذين سبق القبض عليهم ينطلقون الآن للانتقام . .

ـ ثبت من اعتراف صنعان أنهم كانوا أبرياء . .

ـ لذلك فهم ينتقمون ولا مفر من اعتقالهم مرة أخرى . .

فقال الحاكم بحدة :

ـ لقد سخط الوزير دندان على اعتقالهم فى المرة الأولى فلن أسمح به مرة أخرى . .

فقال جمصة البلطى بأسى :

ـ على أى حال إنى أخوض معركة بقوة لا تعرف الهوادة . .

فقال الحاكم :

ـ لابد من ضبط الأمن وإلا عزلتك!

هكذا غادر جمصة البلطى دار الإمارة يجر أذيال الإهانة لأول مرة فى حياته . .

٩

غضب حيال الإهانة فهيمنت عليه طبيعته القوية المتحدية . . غاضت نوازع الخير فتوارت فى أعماق بعيدة . . تصدى للهزيمة بوحشية رجل يستبيح أى شىء فى سبيل الدفاع عن سلطته . . لقد استوعبته السلطة وخلقته خلقا جديدا فتناسى الكلمات الطيبة التى تلقاها على يد الشيخ فى الزاوية على عهد البراءة . . سرعان ما جمع أعوانه فصب عليهم السيل الذى انصب عليه فى بهو الإمارة وفتح نوافذ الجحيم على مصراعيها . . وكلما وقع حادث جديد قبض على عشرات بلا دليل أو قرينة وعذبهم بلا رحمة . . وخفت تبعا لذلك متابعته للشيعة والخوارج فضاعفوا من نشاطهم ، وحرروا الصحائف السرية تطفح بتجريم السلطان والولاة وتطالب بالاحتكام إلى القرآن والسنة . . وجن جنونه فاعتقل كثيرين حتى خيم الخوف على الحى جميعا ومادت به الأرض . . واستفظع الهمذانى عنف الإجراءات ولكنه أغمض عينيه طمعا فى الفرج . . على ذلك كله ازدادت الحوادث عدا وعنفا .

١٠

انهزم جمصة البلطى ولكنه أبى الاعتراف بالهزيمة . . وجعل يبيت ليالى عديدة فى دار الشرطة حتى تسلط الإرهاق على قوته الخارقة . . وغلبه النوم مرة فى حجرة عمله فاستسلم له كأسد جريح . . لم يفز بالراحة المنشودة ولكنه طرح تحت ثقل وجود غليظ احتل جوارحه . . همس فى حيرة :

ـ سنجام؟ !

فجاء الصوت مقتحما وجدانه :

ـ أجل يا كبير الشرطة !

فسأله مستنكرا :

ـ ماذا دعاك إلى الحضور؟

ـ غباء من يدعون الذكاء !

تنور عقله فجأة لم تجر له فى خاطر فقال :

ـ الآن عرفنا سر قطاع الطريق الذين لا يعثرون لهم على أثر !

ـ الآن فقط؟

ـ من أين لى أن أخمن أنك صاحبهم؟

ـ اعترف رغم غرورك بأنك غبى . .

فسأله بتحد :

ـ كيف هان عليك نهب الأموال وذكر الله يتردد على لسانك؟ !

ـ لم يُصبْ غضبى إلا الطغمةَ المستغلة للعباد . .

فتأوه قائلا وكأنما يحادث نفسه :

ـ سأفقد عملى من أجل ذلك . .

ـ إنك أيضا من الطغمة الفاسدة . .

فقال بفخار :

ـ إنى مثل أعلى فى أداء الواجب . .

ـ والمال الحرام؟

ـ ما هو إلا فتات تتساقط من موائد الكبراء . .

ـ عذر قبيح . .

ـ إنى أعيش فى دنيا البشر . .

ـ ماذا تعرف عن الكبراء؟

ـ كل كبيرة وصغيرة، ماهم إلا لصوص وأوغاد!

فقال الصوت متهكما:

ـ لكنك تحميهم بسيفك البتار وتطارد أعداءهم الشرفاء من أهل الرأى والاجتهاد . .

ـ إنى منفذ الأوامر وطريقى واضحة . .

ـ بل تطاردك لعنة حماية المجرمين واضطهاد الشرفاء . .

ـ ما فكر رجل وهو يؤدى واجبى هذا إلا هلك . .

ـ إذن أنت أداة بلا عقل . .

ـ عقلى فى خدمة واجبى فحسب . .

ـ عذر من شأنه أن يهدر إنسانية الإنسان . .

ولمح فى وجدانه خاطر فتفتحت له أبواب ونوافذ، فقال بدهاء:

ـ الحق أنى لست راضيا عن نفسى . .

ـ محض كذب . .

فقال بحرارة:

ـ لم أفلح قط فى اقتلاع الهواتف الشريفة، إنها دائما تحاورنى فى سكون الليل . .

ـ لا أجد لها أثرا فى حياتك . .

فقال بلباقة:

ـ تعوزنى قوة تسندنى عند الحاجة!

ـ بل إنك تطارد الهواتف الشريفة كما تطارد الشرفاء . .

فقال بتحد:

ـ إنى أضع نفسى تحت الاختبار . .

ـ أفصح عما تريد . .

ـ اجعل قوتك فى مساندتى لا فى معاندتى . .

ـ ماذا تريد؟

ـ أهلك المجرمين واحكم الأمة حكما عادلا نقيا!

جلجلت ضحكة ملأت الكون وقال:

ـ تود أن تمكر بى لتحقيق أحلامك الدفينة فى القوة والسلطان؟!

ـ كوسيلة لا كغاية!

ـ ما زال قلبك غارقا فى العبودية!

ـ جربنى إذا شئت . .

ـ إنى عفريت مؤمن ولا أتجاوز حدودى أبدا . .

فقال جمصة يائسا:

ـ إذن فابعد عن طريقى بسلام . .

ـ الحق أنى فكرت بهدوء فوق جبل قاف فاقتنعت بأنك أديت لى خدمة غير منكورة وإن تكن غير مقصودة فقررت أن أرد الصنيع بمثله ودون تجاوز للحدود . .

فقال بحيرة:

ـ ولكنك تفعل نقيض ما تقصد!

ـ يا لك من غبى!

فقال بتوسل:

ـ أوضح لى هدفك . .

ـ لك عقل وإرادة وروح!

ـ ألق علىَّ بصيصا من نور . .

ـ لك عقل وإرادة وروح . .

همَّ بالتوسل إليه ولكن الآخر أطلق ضحكة ساخرة، ثم سحب وجوده بسرعة وتلاشى . .

استيقظ جمصة البلطى على نقر الباب . . دخل وكيله ليخبره بأنه مدعو إلى لقاء الحاكم الهمذانى . .

١١

تمنى لو ترك نفسه ليتأمل ولكنه لم يجد من الذهاب بدّا . . ما توقع خيراً من المقابلة . . لم يعد ينتظر خيرا على الإطلاق . . اختفت بروق الآمال فى سماء الخريف وصمتت طبول النصر . . سيتأرجح طويلا بين الحاكم وعبث سنجام . . غاص فى دوامة لا قرار لها فوق متن بغلته فى الطريق إلى دار الإمارة . . الطريق مفعم بالحركة والصوت، تحاصره

مطالب الحياة، الأعين تتابعه بازدراء. . لا سرور ولا غرور. . وانقضت أيام الاختيال. . حقير يقتات على الحقارة، هذا ما أقنعه به سنجام. . عزاؤه الوحيد كان أنه سيف الدولة. . فل السيف وتقوض الأمن فأى وزن له؟! لص قاتل حامى المجرمين ومعذب الشرفاء. . نسى الله حتى ذكره به عفريت من الجن. .

١٢

وجد خليل الهمذانى واقفا وسط البهو كرمح مستعد للقتال. قال جمصة بهدوء:

ـ سلام الله عليك أيها الأمير. .

فصاح الحاكم بصوت متهدج من شدة الغضب:

ـ انعدم السلام بوجودك. .

فقال بحزن:

ـ إنى أعمل حتى الموت. .

ـ لذلك سرقت جواهر حريمى من أعماق دارى!

فاق ذلك توقعه. . تساءل عما يريد سنجام. . وجم صامتا. . صاح خليل الهمذانى:

ـ ما أنت إلا حشاش أو شريك اللصوص. .

قال بصوت غليظ:

ـ إنى كبير الشرطة. .

ـ موعدنا المساء وإلا عزلتك وضربت عنقك. .

١٣

أى جدوى ترجى من البحث؟ ماذا يفعل رجاله حيال قوة سنجام؟ سوف يعزل ويفقد شرفه وتضرب عنقه. . إنه مصير طالما ساق الناس إليه فكيف يتهمه؟! لكن جمصة لن يقبل مصيره دون دفاع، ودون دفاع شرس. . أمامه نهار واحد ولا وقت للتردد. .

ها هى ذى حياته صفحة مبسوطة أمام عينيه. . شهادة مجسدة ومرعبة. . بدأت بعهد الله وانتهت بعهد الشيطان. . عليه أن يزلزلها قبل الموت. . وخطر الشيخ على قلبه كما تخطر نسمة شاردة فى جحيم القيظ. . هفّت محمولة بين طيات مقطرة من حنين. . قال

لنفسه: «هذا وقته». . جذبه على أى حال من أعمق أعماقه، عندما هتكت الأحزان القشرة الصلبة الملطخة بالدماء. .

وجده فى حجرة الاستقبال البسيطة كأنه ينتظر. . انحنى فوق يده صامتا وتربع على شلتة بين يديه. . تنشق الذكريات كعطر وردة محنطة، وتجسدت له فى الفراغ آيات وأحاديث، ومخلفات من النوايا الطيبة كالدماء. . ارتوى من السكينة حتى غلبه الحياء فقال بحزن:

ـ إنى أقرأ شعورك نحوى يا مولاى. .

فقال عبد الله البلخى بهدوئه الخالد:

ـ علم ذلك عند الله وحده فلا تدَّع ما ليس لك به علم. .

فقال بحزن:

ـ أنا فى رأى الناس شرطى سفاح. .

ـ ترى لم يزورنى السفاحون؟

فقال متشجعا:

ـ ما أعذبك يا مولاى! الحقيقة أن لدى حكاية أود أن تسمعها. .

فقال بزهو:

ـ لا رغبة لى فى ذلك. .

ـ يجب أن أتخذ قرارا وهيهات أن يدرك مغزاه دون سرد الحكاية. .

ـ القرار كاف لإدراك مغزى الحكاية. .

فقال بقلق:

ـ الأمر يحتاج إلى مشاورة. .

ـ كلا. إنه قرارك وحدك. .

فقال بتوسل:

ـ اسمع حكايتى العجيبة. .

فقال بهدوئه:

ـ كلا يهمنى أمر واحد. .

فسأله بلهفة:

ـ ما هو يا مولاى؟

ـ أن تتخذ قرارك من أجل الله وحده. .

فقال بحيرة :

ـ لذلك أحتاج إلى الرأى . .

فقال الشيخ بهدوء حازم :

ـ الحكاية حكايتك وحدك والقرار قرارك وحدك . .

١٤

غادر دار الشيخ موزعا بين الشك واليقين . . كأن الشيخ يعرف حكايته وقراره، وكأنه يبارك قراره تحت شرط أن يكون من أجل الله وحده؟ ! ألم يلعب اليأس دورا؟ ألم يلعب الدفاع عن النفس دورا آخر؟ ألم تلعب الرغبة فى الانتقام دورا ثالثا؟ ترى هل يهون من شأن التوبة أن تسبق بمعصية؟ ! العبرة بالنية الأخيرة وبالإصرار عليها حتى النهاية . . إنه على أى حال يدفن جمصة القديم ويبعث آخر جديداً . . ولما قر قراره تنهد بارتياح عميق . . وتضاعف نشاطه طيلة الوقت فزار داره وجالس رسمية زوجته وأكرمان ابنته، فجاش صدره بعواطف حارة خفية أشعرته بوحدته أكثر وأكثر . . حتى سنجام تركه لوحدته . . غير أن تصميمه كان نهائيا ولم يعرف التردد . . وواجه أخطر موقف فى حياته بشجاعة نادرة وإقدام لا يلوى على شىء . . ورجع إلى مركز عمله فأفرج بقوته الذاتية عن الشيعة والخوارج فى ذهول كامل شمل الجنود والضحايا . . وعند مطلع المساء مضى من توه إلى دار الإمارة . . أعرض عن النظر إلى الوجوه والأماكن فى طريقه كأنها لم تعد تعنيه . . ورأى أخيرا خليل الهمذانى ينتظر فى هدوء وتصميم فلم يشك فى أنه اتخذ قراره أيضا . . ضمهما البهو فى وحدة إلا من عذابات البشر المتجمعة وراء الوسائد والطنافس . . وشهود من جميع الأجيال الغابرة . . لم يتبادلا تحية وسأله الحاكم ببرود :

ـ ماذا وراءك؟

فأجاب جمصة البلطى بثقة :

ـ كل خير !

فتساءل الرجل بتفاؤل طارئ :

ـ أقبضت على اللص؟

ـ من أجل ذلك جئت . .

فقطب الحاكم متسائلا :

ـ أتظنه فى دارى؟

فأشار جمصة إليه قائلا :

ـ ها هو ذا يتكلم بلا حياء . .

ذهل خليل الهمذانى وهتف :

ـ جننت ورب الكعبة !

ـ إنه الصدق يقال لأول مرة . .

تحفز الحاكم للعمل فامتشق جمصة سيفه وهو يقول :

ـ ستنال جزاءك الحق . .

ـ جننت ، إنك لا تدرى ما تفعل . .

فقال بهدوء :

ـ إنى أقوم بواجبى !

فقال باضطراب وذعر شامل :

ـ عد إلى رشدك ، إنك تلقى بنفسك إلى النطع . .

فوجه إلى عنقه ضربة قاضية فاختلطت صرخته المذعورة بخواره واندفع الدم مثل نافورة . .

١٥

ألقى القبض على جمصة البلطى وانتزع السيف من يده . . لم يحاول الهرب . . ولم يقاوم ، آمن بأن مهمته قد انتهت . . لذلك حل به هدوء وصفاء ذهن وعلت فى وجدانه موجة الشجاعة الخارقة ، فشعر بأنه يخطو فوق جلاديه ، وبأنه لا يبالى الموت بأى قدر جاء . . وقال لنفسه : «إن الإنسان أعظم مما تصور ، وإن الدنايا التى اقترفها لم تكن جديرة به على الإطلاق ، وإن الإذعان لسطوتها كان هوانا دفعه إليه السقوط والتنكر لطبيعته الإنسانية» . وقال أيضا : «إنه يمارس الآن عبادة صافية يغسل بطهرها قذر أعوام الإنفاق الطويلة» .

وانتشر الخبر مع هواء الخريف فصار حديث العامة والخاصة ، وفجر الذهول تساؤلات لا حصر لها ولا عد . . وتضاربت النبوءات واحتدم هذيان المجاذيب فانطلق الاضطراب يجتاح الحى والمدينة ويصعد بهرجه إلى القصر السلطانى . . وما لبث أن انتقل الوزير دندان إلى دار الإمارة بالحى على رأس كوكبة من الفرسان . .

١٦

استُدعى جمصة البلطى مكبلا بالحديد للمثول أمام العرش فى بهو الأحكام. . وتبدى شهريار فى عباءته الحمراء التى يرتديها إذا جلس للقضاء، على رأسه عمامة عالية تتراسل فى جنباتها فصوص الجواهر النادرة. . إلى يمينه وقف دندان، وإلى يساره رجال السلطنة، على حين اصطف الحرس على الجانبين، أما وراء العرش فقد مثل شبيب رامة السياف.

تجلت فى عينى السلطان نظرة ثقيلة محملة بالفكر، ومضى يتفرس فى وجه كبير الشرطة مليا، ثم سأله:

ـ ألا تقر بفضلى عليك يا جمصة؟

فأجاب الرجل بصوت قوى مثير للأعصاب:

ـ بلى، أيها السلطان. .

فآنس السلطان منه تحديا لموقفه المكبل بالحديد فقطب وسأل:

ـ أتعترف بأنك قتلت خليل الهمذانى نائبى فى حيكم؟

ـ أجل أيها السلطان. .

ـ ماذا دفعك إلى ارتكاب جريمتك الشنعاء؟

فقال بوضوح ودون مبالاة بالعواقب:

ـ أن أحقق إرادة الله العادلة!

ـ ومن أدراك بما يريد الله سبحانه؟

ـ هذا ما ألهمته خلال حكاية عجيبة غيرت مجرى حياتى!

انجذب وجدان السلطان نحو لفظة «حكاية» فتساءل:

ـ وما الحكاية؟

روى جمصة البلطى حكايته. . مولده من أبوين من عامة الشعب، تلمذته فى الزاوية على يد الشيخ عبد الله البلخى، انفصاله عن الشيخ بعد تعلم مبادئ الدين والقراءة والكتابة، قوة بدنه التى أهلته للخدمة فى الشرطة، اختياره كبيرا للشرطة لكفاءته النادرة، انحرافه خطوة فخطوة حتى انقلب مع الزمن حاميا للمنحرفين وجلاداً لأصحاب الرأى والاجتهاد، ظهور سنجام فى حياته، أزماته المتتابعة، وأخيرا توبته الدامية. .

تابعه شهريار باهتمام . . وضح أنه انفعل بأقواله انفعالات متضاربة . . قال ببرود :

ـ سنجام جمصة ، عقب قمقام صنعان الجمالى ، أصبحنا فى زمن العفاريت الذين لا هم لهم إلا قتل الحكام!

فقال جمصة :

ـ ما زدت على الحقيقة حرفا والله شهيد . .

ـ لعلك تحلم بأن ينقذك ذلك من العقاب؟

فقال باستهانة :

ـ إقدامى يقطع بأننى لا أبالى . .

فقال شهريار بحيرة :

ـ سنجعل منك مثلا للمتمردين ، فليضربنّ عنقك ، وليعلقن رأسك فوق باب دارك ، ولتصادر أموالك . .

١٧

فى سجن تحت الأرض ، وفى ظلام . . كافح آلامه واستمسك بشجاعته . . أثار حنق السلطان فانتصر عليه . . تركه فوق عرشه يتعثر فى هزيمته . . وتذكر بأسى رسمية وأكرمان . . وطافت بخياله حسنية . . ستلقى أسرته من الهوان ما لقيته أسرة صنعان ولكن رحمة الله أقوى من الكون . . وظن أن السهاد لن يفارقه ولكنه نام نوما عميقا لم يستيقظ منه إلا على جلبة وضوء مشاعل . . لعله الصباح ، وها هم أولاء الجنود قد حضروا ليسوقوه إلى النطع . . سيكتظ الميدان بأهل الفضول وسيموج بالعواطف المتضاربة . . ليكن . . ولكن ماذا يرى؟ يرى الجنود تنهال بالركلات على جمصة البلطى ، وهذا يستيقظ فزعا متأوها . . ما معنى هذا؟ أيحلم؟ إذا كان هذا هو جمصة البلطى فمن يكون هو؟! كيف لا ينتبه إليه أحد وكأنما هو غير موجود؟! ذهل وخاف أن يفقد عقله . . بل لعله فقد عقله . . إنه يرى جمصة البلطى أمامه . . الجنود تسوقه إلى الخارج . . وإنه ـ بخلافه ـ شديد الفزع والانهيار . . وجد نفسه أيضا محررا من القيد ، فعزم على مغادرة السجن ، وتبع الآخرين لا يلتفت إليه أحد . . رباه . . المدينة منحشرة فى ميدان العقاب . . نساء ورجال وأطفال . . فى الصدر السلطان ورجال الدولة . . النطع فى الوسط وشبيب رامة ونفر من المساعدين . . لم تحضر رسمية ولا أكرمان فهذا حسن . . ما أكثر الوجوه التى عرفها وتعامل مع أصحابها! إنه ينتقل من مكان إلى مكان فلا ينتبه إليه

أحد . . أما جمصة البلطى فيقترب من النطع بين حراسه . . وجه واحد تراءى له كثيرا حتى عجب لشأنه هو وجه سحلول تاجر المزادات والجواهر . . وعندما هيمنت لحظة الصمت المؤثر ، وخطف النطع الأبصار من جميع الجهات ، خفق قلبه ، وخيل إليه أنه سيلفظ روحه عقب سقوط رأس الآخر . وفى اللحظة المفعمة بالصمت ارتفع سيف شبيب رامة ، ثم هوى كالصاعقة ، فسقط الرأس ، وختمت حكاية جمصة البلطى .

توقع جمصة البلطى الموت ولكنه مر به وذهب . . وتضاعف ذهوله وسط تيار المنصرفين حتى خلا الميدان تماما . . تساءل : «أأنا جمصة البلطى؟» وإذا بصوت سنجام يقول :

ـ كيف تشك فى ذلك؟

فهتف الرجل فى غاية من التأثر :

ـ سنجام؟! . . أنت صاحب المعجزة!

ـ إنك حى ، وما قتلوا إلا صورة من صنع يدى!

ـ إنى مدين لك بحياتى فلا تتخل عنى . .

فقال بوضوح :

ـ لا ، الآن لا علىَّ ولا لى ، أستودعك الله . .

فهتف مذعورا :

ـ كيف لى بالظهور أمام الناس؟!

فقال الصوت :

ـ هيهات أن يعرفك أحد ، انظر فى أول مرآة تصادفك . .

الحمّـــــال

١

من أعلى باب الدار تدلى رأس جمصة البلطى . . الرائحون والغادون ينظرون إليه ، يتوقفون قليلا ثم يذهبون ، وجمصة البلطى ينظر مع الناظرين . . ينظرون بفضول أو رثاء أو شماتة . أما هو فينظر بذهول ولم يكن أفاق من كربه حينما شهد طرد زوجته وابنته من الدار . . وقد مرا به دون اكتراث وهو متصور فى صورة حبشى ، مفلفل الشعر ، خفيف

اللحية، ممشوق القامة. . عجبه من منظر رأسه لا ينقضى، أما حزنه على أسرته فلا نهاية له. . ويحوم حول الدار فتترامى إلى أذنيه التعليقات المتضاربة تحت الرأس المعلق. . السادة ـ مثل: كرم الأصيل والعطار والبزاز ـ يلعنونه بلا رحمة، والعامة يرثون له. . وقد أشرف على مصادرة داره الحاكم الجديد يوسف الطاهر وكاتم سره بطيشة مرجان وكبير الشرطة الجديد عدنان شومة. . فتساءل عما ذهب إلى بيت المال وعما دس فى الجيوب. . وظل قريبا من الرأس المعلق ينظر ويتأمل ويسمع. . ورأى عجر الحلاق وهو يقول لإبراهيم السقاء مشيرا إلى الرأس:

ـ قتلوه جزاء الفعل الخير الوحيد فى حياته. .

فتساءل السقاء:

ـ لم لَمْ ينقذه عفريته المؤمن؟

فقال الحلاق محذرا:

ـ لا تخض فيما لا تعلم. .

فصدق معروف الإسكافى على قوله. . ورأى سحلول تاجر المزادات والتحف وهو ينظر نحو الرأس بلا مبالاة فتذكر نشاطه العجيب يوم الإعدام. . ولما كان التاجر وحده فقد اقترب منه وسأله:

ـ هلا نورت غريبا بحكاية صاحب الرأس؟

فحدجه سحلول بنظرة ارتجف لوقعها جسمه. . خُيِّل إليه أنها نفذت إلى أعماقه فازداد الرجل فى نظره غموضا على غموض. . وقال له سحلول وهو يمضى عنه:

ـ لا أعرف عنه أكثر من الآخرين. .

أتبعه ناظريه حتى اختفى ثم قال لنفسه: «لعله ترفع عن محادثة حبشى غريب!». . وتذكر تاريخه ـ كشرطى سابق عَالم بأحوال الناس ـ فشهد له بأنه التاجر الكبير الوحيد الذى لم ينشئ علاقة مريبة معه أَو مع الحاكم!. . ثم سرعان ما نسيه فى زحمة التأملات. . ورأى رجب الحمال ينضم إلى موقف عجر وإبراهيم ومعروف فقصده مدفوعا بخطة رسمها من قبل. . حيّاه وقال:

ـ إنى حبشى مهاجر وأريد أن أعمل حمالا!

فتذكر رجب صديقه الأول السندباد ولكنه قال:

ـ هلم معى والله رزاق كريم. .

٢

حام بروحه وجسده حول أسرته . . ما قيمة الحياة إذا ما انفصل عن أسرته ورأسه؟! وظل يتبع رسمية وأكرمان حتى استقرتا فى حجرة بالربع الذى يقيم فيه آل صنعان . . ولم يتردد فاكترى لنفسه حجرة فى نفس الربع وعرف بعبد الله الحمال . . وسره فى غيوم القلق أن أم السعد هى التى قادت أسرته إلى مأواها الجديد . . سره أن أم السعد لم تنس الجيرة القديمة . . ولم تنس سعى رسمية إلى مساعدتها فى محنتها . . وسوف تشارك رسمية زوجته فى صنع الحلوى فسيسرح بها فاضل صنعان لحساب الأسرتين . . سُرَّ بذلك أيما سرور وسر أيضا بجيرته لهم فيهنأ برؤيتهم ويطمئن على أحوالهم ويمارس ما يتاح له من زوجية وأبوة وعشق من بعيد، من موقع لا يدرى به أحد . . وتوقع أن يتزوج فاضل من ابنته أكرمان كما اتفق مع صنعان، وكما حلم هو يوما من الزواج من حسنية أخت فاضل . .

واصل تلك الحياة الغريبة . . يشعر أحيانا أنه حى، وأحيانا أنه ميت . .

٣

أجل . إنه عبد الله الحى وجمصة الميت معا . . تجربة غريبة لم يمارسها إنسان من قبل . . يسعى إلى رزقه فى رحاب زمالة رجب فيتذكر أنه حى . . يعبر الطريق تحت رأسه المعلق أو يرى رسمية وأكرمان فيتذكر أنه ميت . . ولم يغفل قط عن معجزة إنقاذه من الموت فعزم على السير حتى النهاية فى طريق التقوى . . يجد سروره فى العبادة وينعم فى وحدته بذكر الله ويناجى رأسه المعلق فيقول : لتبق رمزا على موت الشرير الذى عبث بروحى طويلا . . على أن صدره فاض بحنين دائم نحو شخصيته الزائلة . . تلك الشخصية التى توجت حياتها بتوبة صادقة . . مثيرا جداً أن يموت الإنسان وهو حى أو يحيا وهو ميت . . فمنذا يمكن أن يصدق أنه جمصة البلطى بجوهره الدفين؟! وهل يحتمل أن ينفرد بهذا السر وحده إلى الأبد؟! حتى رسمية وأكرمان تنظران إليه كغريب وافد من بلاد غريبة . . لذلك يشعر حيال نظرتها غير المبالية بغربة قاسية وظلم معذب . . لم يفطنا ولو مرة واحدة إلى الحب الراسخ وراء نظرته المسترقة . . لم يعكسا لأشواقه

صدى . . تطل من عينيهما نظرة تجدد تنفيذ الإعدام فيه كل صباح وكل مساء . . حتى حزنهما لذكراه لم يكن يمسه بأنامل العزاء . . ويحز فى نفسه ابتعادهما الوئيد عن ذكراه فيما يغوصان فيه من هموم الحياة اليومية . . لن يصدقا الحياة الموهوبة له بمعجزة ولن يتقبلاها . . لقد تجرعتا غصص موته، وعانتا كرباتها، وعرفتا الحياة بدونه، والخروج من الوضع الجديد مزعج مثل الدخول فيه . . وهو لن يقدم على تقويض البناء الجديد ولا يستطيعه . . من مات يجب أن يستمر فى الموت رحمة بمن يحب . . وعليه أن يألف موته فى حياته الجديدة . . ليكن عبد الله الحمال لا جمصة البلطى . . ولتكن مسرته فى العمل والعبادة . . غير أن عمله يسوقه كثيرا إلى بيوت معارفه السابقين، وإلى دور السادة والحكام . . عالم التقوى الظاهرة والفساد الكامن . . وأرجعه ذلك إلى التفكير فى ذاته وفى أحوال الناس . . كدر صفو سلامه الروحى . طارده الاعوجاج كأنما اقتحم أعضاءه وأخل بوظائفها . . وقال : «إنه كلما تنطلق الكواكب فى نظام بديع فهكذا يجب أن تجرى أحوال العباد» . . وتساءل فى قلق :

ـ هل بقيت فى الحياة بمعجزة لأعمل حمالا؟!

٤

جعل شهريار ينظر إلى أشباح الأشجار المتهامسة فى الليل . . ربض السلطان فى مجلسه بالشرفة الخلفية رغم أن الخريف كان ينسحب أمام طلائع الشتاء . . إنه أقدر على تحمل البرد منه على محاورة طوفان أفكاره . . والتفت نحو وزيره دندان متسائلا :

ـ أتكره الظلام؟

فقال الوزير بولاء :

ـ إنى أحب ما يحب مولاى . .

إنه يتساءل دائما ترى هل تغير السلطان حقّا أو أنها وقفة عابرة؟! . . ولكن مهلا . . كان فى ماضيه حاسما واضحا قاسيا بليد الإحساس، الآن سرعان ما تومض فى عينيه نظرة حائرة . . قال دندان :

ـ الأمة سعيدة وتلهج بالشكر . .

فتمتم السلطان بخشونة :

ـ قتل على السلولى وسرعان ما لحق به خليل الهمذانى!

فقال دندان بإشفاق :

ـ الشر والخير كالليل والنهار . .

ـ والعفاريت؟ !

ـ أمام النطع يختلق المجرم ما يستطيع . .

فقال بهدوء :

ـ ولكنى أتذكر حكايات شهرزاد !

فخفق قلب دندان وقال :

ـ لا بد أن يلقى القاتل جزاءه . .

ـ الحق أنى أوشكت أن أكتفى بسجن جمصة البلطى !

ثم بحنق :

ـ ولكنى أعدمته جزاء وقاحته فى مخاطبتى . .

قال دندان لنفسه : «إن مولاه لم يتغير منه إلا سطحه» ، ولكنه قال :

ـ على أى حال نال الشقى جزاءه . .

فقال بحدة :

ـ ونلت نصيبى من الكآبة . .

ـ مولاى ، لعلها وعكة طارئة . .

ـ بل حال من الأحوال ، وهل حدثتنى حكايات شهرزاد إلا حديث الموت؟ !

فقال الوزير بجزع :

ـ الموت؟ !

ـ أم تلتهمها أم ، يطرق بابها فى النهاية طارق مصمم واحد هو هازم اللذات !

ـ إنها مشيئة الله أطال بقاءك . .

فقال بصوت محايد :

ـ القلوب أسرار ، والكآبة ماكرة ، وقد تداوى الملوك السابقون فى الليل بالتجوال وتفقد الأحوال . .

فقال دندان مستمسكا بطوق النجاة :

ـ التجوال وتفقد الأحوال ، يا له من إلهام !

وقال لنفسه : « كائن لا حدود لقوته ، قد يتكشف عن زهرة أو يتمخض عن زلزال . . » .

٥

عبد الله الحمال ماض فى دورانه بلا توقف . . فى الأزقة المسدودة والحوارى الحلزونية وأحياء التجارة والحرف وطرق المراكب وميادين الرماية والصيد والإعدام والبوابات الضخمة تقوم مقام الحدود والروائح تنتشر كالعناوين ، رائحة العطارة النافذة والعطور المخدرة والأقمشة المدغدغة والأطعمة الفواحة والجلود العطنة . . يمر برسمية وأكرمان ، وأم السعد وحسنية ، يلقى التحية بلسان يتردد فى هذا العالم وبقلب سكن فى العالم الآخر . . وفى تجواله عرف فاضل صنعان ووثق علاقته به . . من الناس ما حفظ عهده مثل حسن العطار ونور الدين ، ومنهم من تجنبه تجنبا للشيطان . . وأشفق عبد الله من أن تتفشى حكاية العفريت فتقضى على مستقبل أكرمان وحسنية اللتين يؤهلهما إعدادهما لخيرة الزيجات . . وأحب فاضل صنعان لجده وتقواه وشجاعته فجعل من سلم السبيل محط راحته فى نهار العمل يلتقيان فيه ويتبادلان الحديث . . . وذات مرة قال له :

ـ إنك شاب تقى لا تفوتك فريضة فلم لا تصون عفتك بالزواج؟

فقال فاضل بأسى :

ـ لا قبل لى بنفقات الزواج . .

ـ القليل يكفى !

ـ لى حياء وكرامة . .

فقال عبد الله بإغراء :

ـ بين يديك أكرمان . .

التقت عيناهما فى ابتسامة كاشفة عن أسرار كثيرة وقال فاضل :

ـ وأنت يا عم عبد الله ناهزت الأربعين أو فتها دون زواج . .

فقال الحمال بوضوح :

ـ إنى أرمل ، وأود أيضا أن أصون عفتى !

ـ يُخيّل إلى أنك فى غير حاجة إلى خاطبة !

فقال بهدوء :

ـ ست رسمية أم أكرمان!

فضحك فاضل وقال :

ـ فلننتظر قليلا ثم نتقدم معا . .

ـ ولم الانتظار؟

ـ حتى تمحى ذكرى جمصة البلطى!

فانقبض صدره . . إنه أراد رسمية بدافع من وفائه وتقواه . . لو أطاع هواه ما اختار إلا حسنية . . ويوم تقبله رسمية سيسعد من قلبه نصف ويبكيه نصفه الآخر . .

٦

كلما خلا إلى نفسه تساءل: «هل بقيت فى الحياة بمعجزة لأعمل حمالا؟!» . . وتساءل أيضا «لم لَمْ يهجرنى سنجام فى اللحظة الحرجة كما هجر قمقام صنعان الجمالى؟» . . وامتلأ بالحيرة كوعاء مكشوف تحت المطر فقادته قدماه إلى دار الشيخ عبد الله البلخى . قبّل يده وتربع أمامه وهو يقول:

ـ إنى غريب . .

فقاطعه الشيخ:

ـ كلنا غرباء . .

ـ اسمك كالزهرة يجذب إليه شوارد النحلات . .

فقال الشيخ:

ـ الفعل الجميل خير من القول الجميل . .

ـ ولكن ما الفعل الجميل؟ . . هذه هى مشكلتى!

ـ ألم يصادفك عند مجيئك رجل حائر؟

ـ أين يا مولاى؟

فأجاب بهدوء:

ـ بين مقامى العبادة والدم .

فارتعد خوفا وقال لنفسه «إنه يرى ما وراء الحجاب» . . وقال متنهدا:

ـ فى الليلة الظلماء يفتقد البدر . .

فقال الشيخ:

ـ عرفت من التلاميذ ثلاثة أنواع . .

ـ هم السعداء فى جميع الأحوال . .

ـ قوم يتلقون المبادئ ويسعون فى الأرض، وقوم يتوغلون فى العلم ويتولون الشئون، وقوم يواصلون السير حتى مقام الحب ولكن ما أقلهم!

فتفكر عبد الله مليا ثم قال:

ـ ولكن العباد فى حاجة إلى الرعاية . .

فقال دون أن يتخلى عنه هدوءه:

ـ كل على قدر همته . .

فتحدى تردده قائلا:

ـ إنما قصدتك يا مولاى . .

وعثر فى الصمت كأنما ليجمع أفكاره فقال الشيخ:

ـ لا تحدثنى عن مقصدك . .

ـ لماذا؟

ـ كل على قدر همته!

أسبل جفنيه غائبا عن اللقاء . .

انتظر عبد الله أن يرفعهما مرة أخرى ولكنه لم يفعل، فانحنى لاثما يده وانصرف . .

٧

قال لنفسه: «إن الشيخ اطلع على هواجسه فأحاله إلى ذاته . . عليه أن يسلم بذلك ما دام الإنسان قد قبل الأمانة . . سيلقى الأشرار غدا الويل بفضل عزيمة تائب ومكر شرطى خبير» . . ومضى يمارس عمله وهو يتلقى صفاء وتركيزا . . ومن رحمة تنداح فى قلبه استمد عقله أفكارا لا تعرف الرحمة . . حادة كنصل السيف . . سرعان ما دهمته الحياة بتناقضاتها الساخرة ومصائرها الدامية وهنائها الموعود . . وأبى التراجع لأنه أبى أن يستأثر بهدية الحياة دون ثمن . . عند ذاك تراءت له حسنية كأمل يبرق فى سماء عالم آخر . . وعند الأصيل آوى إلى سلم السبيل فوافاه فاضل صنعان إليه . . تبين له أن الشاب وثب فوق الزمن بأسرع مما قدر . . قال فاضل:

ـ سأطلب يد أكرمان!

فقال بدهشة:

ـ كنت تفضل الانتظار وقتا؟

ـ كلا، عدلت عن ذلك، وسأطلب يد ست رسمية نيابة عنك!

صمت عبد الله متفكرا . . لا شك فى أنها بحاجة إلى رجل فى محنتها، وهيهات أن تطمع فيمن هو أفضل منه!

وقال فاضل بمرح:

ـ ما أجمل أن تتزوج الأم وابنتها فى ليلة واحدة!

ولما كان قد آنس إليه فقد أنشأ يقص عليه حكايتى صنعان الجمالى وجمصة البلطى . .

٨

ولما انتهى من حديثه المثير قال عبد الله معلقا:

ـ يعز من يشاء ويذل من يشاء . .

فتمتم فاضل صنعان:

ـ كل على قدر همته!

فاقتحمته الجملة مثل رائحة الفلفل وتساءل ترى هل تلقاها من المصدر نفسه؟! وقال ممهدا لمجرى جديد من الحديث:

ـ ومن كمال الهمة الحذر . .

ناجى كل منهما أفكاره الخاصة مليا ثم قال عبد الله:

ـ نحن نوشك أن نصير أسرة واحدة، لذلك أقول لك إن الحمال يدخل الدور التى لا يتاح دخولها إلا للصفوة . .

حدس فاضل أن صاحبه مقبل على الإدلاء باعتراف ما فحدجه بنظرة متسائلة فقال عبد الله:

ـ فى دارى يوسف الطاهر الحاكم وعدنان شومة كبير الشرطة يدور الهمس أحيانا عن أعداء الدولة . .

فقال فاضل متظاهرا باللامبالاة:

ـ إنه أقل ما ينتظر . .

ـ لا يتصور أحد أنى أفقه معنى لما يدور أو أننى أمد إليه أذنا . .

ـ ولكنك رجل غير عادى يا عم عبد الله وهذا ما أعجب له!

ـ لا عجب لفطنة رجل طالما تقلب بين البلدان والأحوال!

فقال فاضل بأريحية :

ـ الحق أنى سعيد بك . .

فمضى عبد الله فى اعترافه قائلا :

ـ وهم قوم موسوسون، كلما تمادوا فى الإجرام تخايلت لأعينهم أشباح الشيعة والخوارج . .

ـ أعرف ذلك تماما . .

ـ لذلك قلت إنه من كمال الهمة الحذر . .

فرمقه فاضل بارتياب وسأله :

ـ ماذا تعنى؟ !

ـ إنك لبيب !

ـ كأنك تحذرنى !

ـ لا بأس من ذلك . .

ـ ما أنا إلا بائع حلوى، هل رابك منى شىء؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ إنى أحب الحذر كما أحب الشيعة والخوارج !

فسأله فاضل بلهفة :

ـ من أيهما أنت؟

ـ لا من هؤلاء ولا من أولئك ولكنى عدو الأشرار !

وجد عبد الله بين يديه دعوة مفتوحة ولكنه كشرطى سابق آثر العمل بطريقته الخاصة !

٩

انطلق عبد الله الحمال كالسهم فى سماء الجهاد كما تصوره، نادى قوته القديمة وأخضعها هذه المرة لإرادته الصلبة النقية . . وفى الحال سقط بطيشة مرجان كاتم السرقتيلا . . وهو يمضى من دار الإمارة إلى داره عقب منتصف الليل، وبين حرسه، انقض من الظلام سهم فاستقر فى قلبه، فهوى فوق بغلته بين الرماح والمشاعل . . اجتاح الحرس المكان وما يتشعب منه وألقوا بالقبض على من صادفهم من المارة والمتسكعين والمكومين فى الأركان . . احترقت داره حزنا، وزلزلت دار الإمارة فغادرها يوسف

الطاهر كالمجنون على رأس قواته، وصعد الخبر إلى الوزير دندان فأرقه الفزع حتى الصباح. . ومنذ الصباح انتشر النبأ فى الحى ثم فى المدينة فماجت الأنفس وفاضت بالظنون. . حلقة جديدة فى سلسلة مصرعى السلولى والهمذانى. . التحام جديد بدنيا العفاريت الغامضة. . بل إنهم الخوارج أو الشيعة. . أو لعلها حادثة فردية تكمن وراءها غيرة امرأة أو حسد رجل. . وأمطرت السماء مطرا غزيرا لم ينقطع طيلة النهار فتراكم الوحل وجرى الماء مغطى بالزبد فى الحوارى والأزقة فأفسد نظام الجنازة والدفن منذرا بشتاء قاس. . واندس عبد الله الحمال بين العامة فى مقهى الأمراء مرهف الحواس باهتمام خفى. . استقطب الحادث الحديث كله، وتناقضت الآراء بين أفكار السادة المعلنة وهمسات العامة المتبادلة فى الآذان. . ولمح عبد الله المعلم سحلول تاجر المزادات والتحف وهو ينهمك فى حديث طويل مع كرم الأصيل صاحب الملايين فانقبض صدره. . إنه لم ينس نظرته النافذة تحت رأسه المعلق. . وتذكر أنه رآه يحوم حول موكب كاتم السر وهو ـ عبد الله ـ يتأهب لإطلاق السهم، فكيف لم يقبض عليه فيمن قبض عليهم؟ كيف غاب عن أعين الحرس؟ انقبض صدره وتوجس خيفة. . وعجب كيف أنه الرجل الوحيد فى الحى الذى لم يطلع له على سر طيلة عهده برئاسة الشرطة. . إنه مطلع على أحوال جميع السادة ما ظهر منها وما بطن إلا هذا الرجل، فهو لغز مغلق!

١٠

لم تخف حمى المسئولين ولا إجراءاتهم القاسية أما بقية الناس فمضوا يألفون الحادث ويملون الخوض فيه ثم يتناسونه. . وسرعان ما غلبت مطالب الحياة على أحداث التاريخ، فقالت أم السعد أرملة صنعان لست رسمية أرملة جمصة البلطى:

ـ ببركة الله وحكمته يرغب فاضل ابنى فى الزواج من أكرمان.

وتمت الموافقة فى فرحة شاملة. . إنهن جميعا يعشن فى واقع ولا يسمحن لحلم غابر بأن يفسده. . وقالت أيضا أم السعد:

ـ أنت أيضا يا ست رسمية!

وأعلنت لها عن رغبة عبد الله الحمال فى الزواج منها. . ضحكت رسمية ضحكة فاترة لوقع المفاجأة. . ولم تسر بها ولم ترحب. . وقالت بحياء:

ـ الزواج لأكرمان وحسنية لا لنا!

ثم عقب الصمت واصلت:

ـ جمصة لم يمت، ما زالت ذكراه حية فى نفسى!

وسُرَّ فاضل وعبد الله، كل بما تلقاه.. أجل. استاء عبد الله لوأد عواطفه ولكن جمصة الكامن فيه سُرَّ سرورا لا مزيد عليه..

١١

احتُفل بالزفاف فى حجرة أم السعد.. شهدته الأسرتان، ودعى إليه عبد الله الحمال فسوغ حضوره بهدية من العنبر والبخور قدمها للعروسين، وبما بذله فى النهار من كنس الفناء.. جاد بالهمة التى جاد بها ساعة تصدى لقتل بطيشة مرجان.. ثمل بعبق الأسرة الحار الذى نفثت فى جوارحه سكرة باقية.. جاش صدره بالأبوة والزوجية والحب خاشعا فى الوقت نفسه تحت هيمنة التقوى وحب الله الرحيم.. استرد ثراء وجدان قديم ونعم بالقرب، دافنا سره فى بئر مترع بالأسى..

وتطوعت حسنية لإحياء زفاف شقيقها معتمدة على إجادتها فى الشعر والغناء والصوت الحسن، وعلى إيقاع الأكف أنشدت بصوت عذب:

يترجم طرفى عن لسانى لتعلموا

وبيدى لكم ما كان صدرى يكتم

ولما التقينا والدموع سواجم

خرست وطرفى بالهموم تكلم

فطربوا جميعا، وطرب عبد الله حتى فاض قلبه بالدمع.. وقام ليلقى فى المدفأة حطبا فسمع على باب الحجرة طرقا.. مضى ليفتح فطالعه فى الظلام البارد ثلاثة أشباح.. قال أحدهم:

ـ نحن تجار أغراب، سمعنا غناء جميلا فقلنا إن الكرام لا يصدون الغريب..

أشار فاضل إلى النساء فتوارين وراء ستارة تشطر الحجرة ومضى نحو الأغراب قائلا:

ـ ادخلوا بسلام.. ما هو إلا زفاف قاصر على أهله البسطاء.

فقال الرجل الغريب:

ـ ما نريد إلا الأنس بالناس الطيبين..

وقال أحد الآخرين:

ـ عندكم دفء جميل..

وجاءهم فاضل بطبق البسيمة والمشبك وهو يقول :

ـ ما لدينا سوى هذا وهو ما نتعيش منه . .

ـ نحمد الله الذى حلى ريقنا وأحلى ليلتنا . .

ومال كبيرهم على أذن أحد الآخرين فغادر المكان مسرعا . . وخطف عبد الله من الكبير نظرات فخُيِّل إليه أنه لا يراه لأول مرة ، وحاول أن يتذكر أين ومتى ولكن خانته الذاكرة . . ثم رجع الرجل محملا بالسمك المقلى والمشوى فدب فى الأنفس نشاط ، وسعدت بلذيذ المأكل ، وقال فاضل ممتنا :

ـ ما يليق مسكننا بمقامكم . .

فقال الرجل مجاملا :

ـ العبرة بأهل المسكن . .

ثم برجاء :

ـ أسمعونا طربا ، فالطرب ما أسعدنا بمعرفتكم !

فذهب فاضل إلى ما وراء الستار . . وقبل أن يستقر فى مجلسه مرة أخرى تهادى صوت حسنية منشدا :

لو علمنا مجيئكم لفرشنا

مهجة القلب أو سواد العيون

وفرشنا خدودنا والتقينا

ليكون المسير فوق الجفون

فطرب الجميع وهتف أحد الغرباء :

ـ تبارك الخلاق العظيم . .

وسأل الكبير فاضل :

ـ كيف ملكت هذه الجارية وأنت على ما تزعم من فقر ؟

فقال فاضل :

ـ ما هى إلا شقيقتى . .

ـ لها صوت مهذب ينم عن أصل كريم . .

فوجم فاضل فما كان من عبد الله الحمال إلا أن قال :

ـ وإنه لمن أصل كريم اعترضته غدرة من غدرات الزمن . .

فتساءل التاجر :

ـ ما حكاية تلك الغدرة؟

فأجاب عبد الله الحمال :

ـ ما من أحد فى مدينتنا إلا ويعرف حكاية التاجر صنعان الجمالى . . !

فصمت التاجر لحظة ثم قال :

ـ سمعنا بها فيما سمعنا من أنباء مدينتكم العجيبة . .

وتساءل زميله :

ـ ولكن هل تصدقون ما روى عن العفريت؟

فتساءل فاضل بدوره :

ـ كيف لاوقد جرعلينا ما جر من كوارث!

ـ ولكن الوالى لا يستطيع أن يستدعى العفريت للشهادة أو التحقيق فكيف يقيم العدل؟

فقال عبد الله الحمال :

ـ على الوالى أن يقيم العدل من البداية فلا تقتحم العفاريت علينا حياتنا!

فسأله كبير الغرباء :

ـ ترى هل تكابدون فى حياتكم ظلما؟!

فأسعفه الحذر المكتسب من خبرته القديمة فى الشرطة وقال :

ـ لنا سلطان عادل والحمد لله ولكن الحياة لا تخلو من غصص . .

وتواصل الحديث ساعة حتى نهض الغرباء للانصراف . .

١٢

خاض ثلاثتهم الظلام صامتين . . التفت التاجر الثانى نحو الأول وقال :

ـ لعل مولاى قد وجد التسلية المنشودة؟

فتمتم الآخر :

ـ فرجة فى غموم القلب . .

ثم بعد قليل :

ـ لم تعد جلسة الشعراء تطربنى ولا تهريج شملول الأحدب يضحكنى . .

ـ تولاك الله بالرعاية يا مولاى . .

فقال مخاطبا نفسه :

ـ حلم قصير مذهل ، لا تتخايل فيه حقيقة حتى تتلاشى . .

انتظر الآخر أن يلقى السلطان ضوءا على قوله ولكنه لزم الصمت حتى النهاية . .

١٣

استقل فاضل وأكرمان بحجرة فجمعت الحجرة الأخرى رسمية وأم السعد وحسنية . . على بساطة الحياة نعم الزوجان بسعادة صافية ، وتمنى فاضل لحسنية خاتمة سعيدة كخاتمته . . وكان أحسن توفيقا فى تناسى الماضى من النساء فهو يجد ما يشغله وهن لا تمحى من ذاكرتهن الأيام الخوالى بعزها وأضوائها . . وتوحد مع عبد الله الحمال حتى تبادلا قراءة الأفكار وخواطر القلوب . . الرجل من معدنه ، روحه أكبر منه ، واهتمامه منجذب إلى هموم البشر كأنه فقيه لا حمال . . لو استمع أحد المارة إلى ما يدور بينهما من حديث فوق سلم السبيل لذهل ولظنهما رجلين خطيرين يتنكران فى ثوبى بياع وحمال . . وقال له يوما :

ـ فتحت لك قلبى ، ولكنك توصد قلبك حيالى . . .

فنفى ذلك بهزة من رأسه فقال :

ـ فى حياتك سر ولست حمالا بسيطا . .

فقال يطمئنه :

ـ كان لى مرشد فى وطنى ، لا سر وراء ذلك . .

ـ فى ذلك ما يكفى . .

ـ على أى حال نحن نرتوى من منبع واحد . .

فقال فاضل بجرأة :

ـ لذلك سأسألك خدمة . .

فحدجه بنظرة متسائلة فقال بنبرة ذات مغزى :

ـ إنك بحكم عملك تتردد على الدور جميعا !

فابتسم عبد الله بذكاء وصمت منتظرا فقال :

ـ أتقبل أن تحمل الرسائل أحيانا؟

فقال باسما وهو يتذكر أكرمان بحنان :

ـ ثمة أقوام يجدون معنى حياتهم فى السعى إلى المتاعب . .

فتجاهل قوله متسائلا :

ـ هل تقبل؟

فقال بهدوء :

ـ ما تشاء وأكثر . .

١٤

أدى هذه المهمة الجانبية فى يسر وأمان تامين فلم يعتدها إضافة ذات شأن إلى مهمته الأصلية، وهمومه الشخصية ـ رسمية، حسنية، تردده بين الحياة والموت ـ لم تمح من صفحته، ولكنها لم تعد تزعجه، وتلاشت همومه العامة كما تتلاشى أمواج النهر فى المحيط . . وكان الرجل الثانى فى برنامجه يوسف الطاهر أو عدنان شومة أيهما أيسر ولكنه قدم عليهما إبراهيم العطار لسبب عارض لم يخطر فى باله من قبل . . ذلك أنه حمل إليه لوازم فاختلفا على الأجر فلعنه التاجر الكبير وأهانه . . واستقر السهم القاتل فى قلب إبراهيم العطار وهو راجع إلى داره عقب سهرة المقهى . . وانفجر الفزع فى المدينة وانهمرت ذكريات مصارع السلولى وبطيشة مرجان والهمذانى . .

وجمع سلم السبيل بين عبد الله وفاضل فى عنفوان الاضطراب المتفجر . . تبادلا نظرات قلقة، وعبثا حاولا كتمان ارتياحهما . . تمتم عبد الله :

ـ يا لها من أحداث مرعبة!

فحدس الآخر ظنونه، فقال ببراءة :

ـ ليس الاغتيال ضمن خطتنا!

فقال عبد الله متظاهرا بالحيرة :

ـ لعلها حادثة انتقام شخصى . .

ـ لا أظن . .

ـ لكنه لم يكن أفسد من غيره . .

ـ يعرف الخاصة أنه يدس السم فى أدوية أعداء الحاكم!

قال عبد الله لنفسه : «إن صاحبه يعرف من أسرار الناس ما يعرفه وربما أكثر» . .

تساءل :

ـ إذا لم يكن الاغتيال ضمن خطتكم فمن فاعله؟

فقال فاضل بضيق:

ـ الله يعلم، إنه يقتل ونحن ندفع الثمن . .

١٥

عندما أطفأ الشمعة وآوى إلى فراشه شعر بالوجود الغريب يدهمه، فارتجف قلبه وتمتم:

ـ سنجام!

فسأله الصوت ببرود:

ـ ماذا فعلت؟

ـ أفعل بطريقتى ما أعتقد أنه الخير . .

ـ بل كان رد فعل لما ألحقه بك من إهانة . .

فقال بحرارة:

ـ ما فعلت إلا أن قدمته وكان دوره سيأتى عاجلا أو آجلا . .

فقال سنجام:

ـ حسابك عند المطلع على ما فى الصدور، فحذار يا رجل . .

وتلاشى سنجام فلم يغمض له جفن . .

١٦

فوق قبة جامع الإمام العاشر، فى جلسة مفعمة بالهدوء، مترعة ببرد الشتاء، متلفعة برداء الليل، جلس قمقام وسنجام . . تحتها تدفقت قوات الشرطة مكشرة عن أنيابها، يتطاير الشرر من أعينها الثملة بالحمرة القانية . . همس قمقام فى أسى:

ـ يا لعذاب البشر!

فقال سنجام كالمعتذر:

ـ ما فعلت إلا أن أنقذت روح جمصة البلطى من الجحيم . .

ـ ما تدخلنا مرة فى حياتهم وانتهى الأمر بما نود . .

ـ والإغضاء عنهم فوق ما نحتمل . .

ومر تحتهم فى تلك اللحظة المعلم سحلول تاجر المزادات والتحف فأشار إليه قمقام قائلا :

ـ إنى أغبطه على معاشرته لهم كأنه آدمى مثلهم !

فقال سنجام مشاركا :

ـ ولكنه ملاك ، نائب عزرائيل فى الحى ، واجبه يقتضى الاختلاط بهم ليل نهار ، ويحل له ما لا يحل لنا . .

فقال قمقام :

ـ لندع الله أن يلهمنا الصواب . .

فرد سنجام :

ـ آمين . .

١٧

اعترضت مسيرة عبد الله الحمال عثرة ضاق بها صدره . . كان يمضى بحمل كبير من النقل والفاكهة المجففة إلى دار عدنان شومة كبير الشرطة . . ولم يكن كف عن تقييم مصرع إبراهيم العطار ، ما وراءه من جهاد صادق ، وما تسلل إليه من غضب ورغبة فى الانتقام . . سبيل الله واضح ولا يجوز أن يخالطه غضب أو كبرياء ، وإلا انهار البناء من أساسه . . وكانت دار عدنان شومة تقوم فى شارع المواكب والأعياد على مبعدة يسيرة من دار الإمارة . . شارع وقور تقوم على جانبيه دور السادة والفنادق الكبرى ، وبه بستان وساحة بيع الجوارى . . قال لنفسه وهو يدخل الدار : «سيجىء دورك يا عدنان قريبا» . . وعندما همَّ بالذهاب أوقفه عبد ، ودعاه إلى مقابلة صاحب الدار . . ذهب إلى بهو الاستقبال بقلب يخفق بالقلق . . نظر إليه الرجل بوجهه المستدير الصغير وعينيه الضيقتين القاسيتين وهو يداعب لحيته ، ثم سأله :

ـ من أى البلاد؟

فأجاب عبد الله بخشوع :

ـ الحبشة . .

ـ قيل لى إن سمعتك طيبة وإنه لا تفوتك فريضة !

فتلقى أول نسمة راحة وقال :

ـ بفضل الله ورحمته . .

فقال بهدوء :

ـ لذلك وقع اختيارى عليك . .

تفشى المعنى المقصود فى رأسه كما تتفشى رائحة قوية فى مكان مغلق . . فكم من مرة ـ وهو كبير الشرطة ـ وجه مثل هذا القول إلى رجل إيذانا بنظمه فى سلك عيونه السرية . . هو يعلم أن التملص من التكليف خليق بالقضاء عليه وأنه لا مفر من الطاعة . .

وقال الرجل :

ـ بذلك تحوز الشرف فى خدمة السلطان والدين . .

تظاهر بالارتياح والسعادة والزهو . . أعطاه الأمارات التى يطمئن بها . . على ذاك قال له محذرا :

ـ احذر ما يردى الخائن فى الهلاك . .

فتمتم بغموض :

ـ تسرنى الخدمة فى رحاب الله . .

فقال عدنان شومة :

ـ الدور مفتوحة لك بحكم عملك ولا ينقصك إلا بعض الإرشادات .

هى الإرشادات المدونة فى دفاتر سرية منذ عهد جمصة البلطى . .

١٨

غادر دار عدنان شومة بحمل جديد أثقل من الحمل الذى جاء به . . ولدى اجتماعه بفاضل صنعان أفضى إليه بسره الجديد . . فكر فاضل فى الأمر طويلا ثم قال :

ـ أصبحت ذا عينين ، عين لنا وعين علينا . .

لكن عبد الله غرق فى همه فسأله :

ـ ألا تعتبر ذلك كسبا لنا؟

فقال عبد الله بوجوم :

ـ إنى مطالب بما يدل على إخلاصى فى العمل !

فلاذ فاضل بالصمت متفكرا فمضى عبد الله :

ـ أتساءل أحيانا هل دعانى الرجل لشكه فى أمرى؟

فبادره فاضل :

ـ إنهما أصحاب عنف فلا حاجة بهما إلى الحيلة . .

ـ أوافقك ، ولكن كيف أثبت إخلاصى؟

فرجع فاضل للتفكير فى الأمر ثم قال :

ـ تقضى المصلحة أحيانا إرسال أناس منا إلى بلاد بعيدة ، سأدلك على أحدهم لتبلغ عنه بحيث يفلت فى الوقت المناسب «مصادفة»!

فقال عبد الله وعيناه تبرقان بالفكر :

ـ حل موفق ولكن لا يجوز تكراره!

فقال فاضل مخاطبا نفسه :

ـ حقّا إنها ورطة!

ـ ها أنت ذا تشاركنى الرأى أخيرا . .

وسأل نفسه هل يستطيع الاستمرار فى تنفيذ مشروعه السرى؟! وتشعث تفكيره فجأة عندما رأى المعلم سحلول يعبر الطريق أمامهم مسرعا لا يلوى على شىء . . انقبض صدره كالعادة ولكز فاضل بكوعه متسائلا :

ـ ماذا تعرف عن هذا الرجل؟

فقال فاضل بنبرة طبيعية :

ـ سحلول تاجر المزادات والتحف ، كان من أصدقاء أبى ، ولعله التاجر الوحيد الذى يملك صحيفة بيضاء . .

ـ ماذا تعرف عنه أيضا؟

ـ لا شىء . .

ـ ألا يثير فضولك غموضه؟

ـ غموضه؟! ما هى إلا البساطة الصريحة ، رجل نشيط خبير ، ولا شأن له بالآخرين ، ما الذى يدعوك للتساؤل؟

فتردد قليلا ثم قال :

ـ له نظرة نافذة لم أرتح إليها . .

ـ لا أساس لظنونك تقوم عليه ، إنه استثناء طاهر لقاعدة فاسدة . .

تمنى أن يصدق رأيه وأن تكذب ظنونه . .

١٩

أيقن من خبرته السابقة بأنه سيوضع تحت المراقبة أسوة بالمخبرين الجدد . . هيهات أن يجد فرصة ليقوم بمغامرة جديدة إلا إذا أزاح عدنان شومة نفسه من طريقه بضربة موفقة . . وتسلل إلى داره فى لقاء سرى وقال له :

ـ عما قليل ستسقط ثمار كثيرة ، الحى ملىء بالكفرة ولكنى أرى أن أتجنب التردد عليكم . .

فقال عدنان شومة بسرور :

ـ سأعين لك وسيطا . .

ـ هذا يكفى فى الشئون العادية ، أما الشئون الخطيرة فأفضل أن يقتصر الاتصال عليك . .

ـ نتفق على ذلك فيما بعد . .

فقال عبد الله بحماس :

ـ خير البر عاجله . .

فقال عدنان شومة بعد تفكير :

ـ إنى أتواجد أحيانا ليلا خارج سور الحى ، أظنه مكانا مناسبا . .

وفاق تدبيره ما كان يأمل . .

٢٠

وبمعاونة فاضل صنعان قدم تقريرا عن شاب أعزب يقيم منفردا بحجرة فى ربع بعطفة الدباغين . . ولما انقضت القوة على مسكنه تبين له أنه غادره لسفر منذ دقائق ! . . وغضب عدنان شومة وقال لعبد الله :

ـ أثرت ريبته دون أن تدرى !

فوكد له أنه أدهى مما يتصور ولكن الآخر صرفه غير راض عنه . .

٢١

وزلزلت دار الإمارة، والحى والمدينة، العثور على جثة عدنان شومة خارج سور الحى . . . ماج شهريار نفسه بالغضب، وتخايلت لأعين الكبراء مخاوف مجهولة تزحف من مكامنها فى الظلام . . ونما إلى عبدالله من وسطه السرى الرسمى أن البحث يتركز فى كشف الأسباب التى دعت كبير الشرطة للخروج سرا من سور الحى . . وكان هو أول من أتيح له الاطلاع على سر ضحيته الذى كان يقصد دارا خاصة يلتقى فيها بجلنار وزهريار شقيقتى يوسف الطاهر حاكم الحى . . الحق أنه عرف سيرة المرأتين منذ عهد خدمته، ومن قبل أن يتولى يوسف الطاهر الإمارة . . لذلك دعاه كبير الشرطة إلى مقابلته فى جوسق بحديقة الدار ثم صرفه، ولكنه لم يرجع إلى الحى بل لبد له فى الظلام حتى غادر الدار قبيل الفجر فتلقاه بالسهم القاتل . . الآن يتلاشى شعوره بالأمان ولا يستبعد أن يكون بعض خاصة عدنان شومة من النساء أو الرجال قد عرف سر المقابلة بينه وبين الرجل . . قرر الهرب ولو إلى حين . . غادر الحى كله إلى ما وراء الخلاء عند النهر على كثب من اللسان الأخضر حيث اعتاد ممارسة هواية الصيد، نفس البقعة التى التحم فيها بسنجام . . وجد نخلة فارعة فارتمى تحتها وأغرق فى التفكير . . وأقبل الليل وتجلت النجوم متواضعة واشتد البرد . . ترى هل أحسن التدبير والتفكير أو أن لهفته على تنفيذ مشروعه قد أفسدت عليه هدفه؟ ! ومتى وكيف يتاح له العمل مرة أخرى؟ كيف يتجنب أعداءه وكيف يتصل بصاحبه فاضل صنعان؟ وفى سكون الليل ترامى إليه صوت يقول :

ـ يا عبد الله!

نظر صوب مصدر الصوت، صوب النهر، وتساءل :

ـ من ينادى؟

فقال الصوت بنبرة تبث الأمان والطمأنينة والسلام :

ـ اقترب . .

دنا من النهر يسير فى حذر حتى رأى صفحته معتمة تحت ضوء النجوم، ورأى شبحا نصفه فى الماء ونصفه مستند بساعديه فوق الشاطئ . . سأله :

ـ أأنت فى حاجة إلى مساعدة؟

ـ أنت المحتاج إلى المساعدة يا عبد الله . .

فسأله بقلق :

ـ من أنت وماذا تعرف عنى؟

ـ أنا عبد الله البحرى كما أنك عبد الله البرى، وقبضة الشر تتوتر للقبض على عنقك . .

ـ سيدى ماذا يبقيك فى الماء؟ من أى الأحياء أنت؟

ـ ما أنا إلا عابد فى مملكة الماء اللانهائية . .

ـ تعنى أنها مملكة تحيا تحت الماء؟

ـ نعم، تحقق بها الكمال وتلاشت المتناقضات، ولا ينغص صفوها إلا تعاسة أهل البر . .

فقال عبد الله منبهرا:

ـ عجيب ما أسمع، ولكن قدرة الله لا حد لها . .

ـ كذلك رحمته فاخلع ثيابك واغطس فى الماء . .

ـ لماذا يا سيدى؟ لماذا تطالبنى بذلك فى الليل البارد؟

ـ افعل كما أقول قبل أن تطوق عنقك القبضة القاتلة . .

وسرعان ما غاص عبد الله البحرى فى الماء تاركه لاختياره . . وبدافع من إلهام ثمل خلع ملابسه وغاص فى ماء النهر حتى اختفى تماما . . وإذا بالصوت يقول له:

ـ عد إلى البر آمنا . .

وما كاد يشعر بالأرض تحت قدميه حتى استقر قلبه بين ضلوعه وشعر بأنه جارحة من جوارح السماء والأرض والليل، وشعر أيضا بالدفء . . عند ذاك غلبه النوم فنام نوما عميقا هادئا وكأنما النجوم لا تومض إلا لترعاه . . وصحا قبل انبلاج الصبح . . ونظر فى مرآته على ضوء أول شعاع يهبط فرأى وجها جديدا لم يعرفه من قبل، فهتف:

ـ مباركة العجائب إن تكن من صنع الله . .

لا هو وجه جمصة البلطى ولا وجه عبد الله . . وجه قمحى، صافى البشرة، ولحية مسترسلة سوداء، وشعر غزير مفروق ينسدل حتى المنكبين، ونظرة عينين تومض بلغة النجوم . . أدرك الموت عبد الله كما أدرك جمصة البلطى من قبل . . وغاب فاضل وأكرمان، ورسمية وحسنية، وأم السعد . . ولكن ثمة أصواتا جديدة تتجسد، ومغامرات تقبل مع الشروق، ودنيا جديدة تنكشف عن عجائب مباركة . .

٢٢

طابت له الحياة فى الخلاء على مقربة من اللسان الأخضر الممتد فى النهر . . النخلة جليسه ، وصيد النهر غذاؤه ، والهواء النقى أليفه ، ورواد اللسان الأخضر من أهل الصبوات والطرب مثار نقمته ومرتاد عفوه ، أما راحة قلبه ففى مناجاة عبد الله البحرى . . ويجىء عابرو النهر بأنباء المدينة . . علم فيما علم أن الحاكم يوسف الطاهر اختار حسام الفقى كاتما لسره وبيومى الأرمل كبيرا لشرطته . . علم أيضا أن قوات الأمن تجتاح الحى كإعصار وأنهم يبحثون عن عبد الله الحمال وأنهم ألقوا القبض على معارفه فسيق إلى السجن رجب الحمال وفاضل صنعان وزوجته أكرمان . . هكذا سرعان ما فنى أمنه وجزع قلبه فتوثب من جديد للنضال . .

٢٣

لم يذهب ليقتل ولكن ليقدم نفسه فدية عمن يحب . . لم يستشعر رهبة ولا خوفا ، وسما به الإلهام فوق الوساوس . . قصد من توه بيومى الأرمل فى دار الشرطة ، وقال بهدوء ورزانة :

ـ جئت لأعترف بين يديك بأنى قاتل عدنان شومة !

فانتبه إليه كبير الشرطة متفحصا وسأله :

ـ من أنت؟

ـ عبد الله البرى صياد السمك . .

من منظره شك كبير الشرطة فى جنونه فأمر بتكبيله بالحديد اتقاء لخطره ، ثم سأله :

ـ ولم قتلت عدنان شومة؟

فأجَاب ببساطة :

ـ إننى مكلف بقتل الأشرار . .

ـ من الذى كلفك بذلك؟

ـ سنجام ، ذلك العفريت المؤمن ، وبوحيه قتلت خليل الهمذانى وبطيشة مرجان وإبراهيم العطار . .

فجاراه الرجل قائلا :

ـ سبق أن اعترف بقتل الهمذانى كبير الشرطة الأسبق جمصة البلطى . .

فهتف الرجل :

ـ فى الأصل كنت جمصة البلطى !

ـ رأسه معلق بباب داره !

ـ وقد رأيته بعينى رأسى !

ـ وتصر على أنك صاحب الرأس ؟

ـ لا ريب فى ذلك وسوف تصدقنى عندما تسمع حكايتى . .

ـ لكن كيف ومتى ركبت هذا الرأس الجديد ؟

ـ دعنى أطلب سنجام شاهدا . .

فصاح الرجل :

ـ إنك جدير بالإقامة الدائمة فى دار المجانين . .

وأمر بإرساله من توه إلى دار المجانين فمضوا به وهو يصرخ :

ـ إلىَّ يا سنجام . . إلىَّ يا عبد الله البحرى . .

* * *

وقد عذب فاضل فى السجن طويلا ، ثم لم يجد الحاكم بدّا من الإفراج عنه ومن معه ، آمرا فى الوقت نفسه بمضاعفة الجهد للعثور على عبد الله الحمال . .

نور الدين ودنيازاد

١

غمر نور الدين أشجار البلخ بميدان الرماية فالتمعت أزهارها البنزهيرية الناعمة . . وغمر نور القمر أيضا قمقام وسنجام المستلقيين فوق غصن من أغصان الشجرة الكبرى فى ليلة مازجت فيها أنفاس الشتاء المودع أنفاس الربيع المتحفز . . قال قمقام :

ـ ما أطيب الزمن إذا جرى تحت رضا العناية !

فقال سنجام :

ـ إذا استقرت السكينة سمعت همسات الأزهار وهى تسبح بحمد الله . .

ـ ماذا ينقص الإنسان ليحظى بنعمة الزمان والمكان؟

ـ هذا ما يحيرنى يا أخى، ألم يوهب العقل والروح؟

وأرهف قمقام أذنيه فى حذر ثم تساءل :

ـ ثمة نذير فى الجو؟

عند ذلك حط فوق غصن قريب عفريت وعفريتة ثملين بالمجون فهمس سنجام :

ـ سخربوط وزرمباحة!

فهمس قمقام :

ـ الكفر والشر . .

وضحك سخربوط ساخرا وقال معلقا :

ـ نحن نستمتع بالكون بلا خوف . .

فصاح به قمقام :

ـ لا سرور لمن خلا من الله قلبه . .

فتساءلت زرمباحة ساخرة :

ـ حقّا؟

وتبادلت مع رفيقها الغرام فتطاير من عناقهما الشرر . . اختفى قمقام وسنجام فند عن حنجرتى سخربوط وزرمباحة هتاف انتصار وقال لها :

ـ غبت عنى دهرا . .

فقالت ضاحكة :

ـ لعبت لعبة فى معبد بالهند، وأين كنت أنت؟

ـ قمت برحلة فوق الجبال . .

فقالت زرمباحة بإغراء :

ـ رأيت لدى عودتى فتاة جميلة بهرنى جمالها والحق يقال . .

ـ أنا أيضا رأيت شابا جميلا فى حى العطور لا نظير لجماله بين البشر . .

ـ إن نظرة على فتاتى ستمحو من ذاكرتك صورة فتاك . .

ـ هذه مغالاة لا مسوغ لها . .

ـ تعالى وانظرى بعينيك . .

ـ أين توجد فتاتك؟

ـ فى قصر السلطان نفسه . .

وفى غمضة عين كانا فى جناح البهاء بقصر السلطان . . تراءت فتاة آية فى الجمال وكانت تنزع عباءتها المطرزة بأسلاك من ذهب لترتدى حلة نومها المصنوعة من الحرير الدمشقى . . قالت زرمباحة :

ـ دنيازاد أخت شهرزاد زوجة السلطان . .

ـ جمالها يفوق الحياة حقًا ، لم يحظ بهذا الجمال كائن سريع العطب؟

ـ صدقت فهو ما يتألق إلا أياما معدودات ثم يعبث به الزمن . .

ـ لذلك تلذ الشماتة بهم . .

ـ لهم عقل ولكنهم يحيون حياة الأغبياء . .

ـ لشد ما تبدو خالدة!

ـ لعلك الآن تسلم أنها أجمل من فتاك؟

فقال سخربوط بعد تردد :

ـ لا أدرى . . تعالى لتنظرى بنفسك . .

فى أقل من لحظة كانا فى دكان شاب آية فى الحسن كان يغلق الدكان ويطفئ السراج ويهم بالذهاب . . قال سخربوط :

ـ هذا نور الدين بياع العطور . .

ـ جماله فائق أيضا ، من هو صاحبك؟

ـ بياع كما ترين ، وما يهمنا أصله . .

ـ هو أليق الذكور بفتاتى وهى أليق الإناث به . .

ـ يعيشان فى مدينة واحدة ويفصل بينهما ما يفصل بين السماء والأرض . .

ـ هذا هو العبث ، فكيف نتهم نحن بأننا العابثون!

ـ كيف لا يتنافس الخطاب فى فتاتك؟

ـ مهلا ، يتمناها الكثيرون ، منهم يوسف الطاهر حاكم الحى ، ومنهم كرم الأصيل صاحب الملايين ، ولكن من الكفء لأخت السلطانة؟!

ـ زرمباحة هذا الكون مثقل بالحماقة . .

وهتفت زرمباحة بسرور :

ـ جاءتنى فكرة . .

ـ ما هى؟

ـ فكرة جديرة بإبليس نفسه . .

ـ أشعلت أشواقى !

ـ نجمع بينهما فى دعابة ماكرة . .

٢

انبهرت عينا دنيازاد السوداوان . . إنه حفل زفاف سلطانى سيكون أحد أعاجيب الترف والأبهة . . القصر يموج بأضواء الشموع والقناديل ، يتلألأ بجواهر المدعوين والمدعوات ، يهزج بأغانى المطربين والمطربات . . حتى السلطان شهريار باركها ، أهداها جوهرة الدخلة ، قال لها :

ـ مباركة ليلتك يا دنيازاد . .

وانتظرت فى المخدع آخر الليل فى ثوب محلى بالذهب والمرجان والزمرد . . ودعتها أمها وأختها شهرزاد ، فانتظرت وحيدة فى المخدع ، وشرد ذهنها لايشغلها إلا ترقبها القلق وقلبها الخفاق . . انفتح الباب . . دخل نور الدين فى أبهى حلة دمشقية وعمامة عراقية ومركوب مغربى . . تقدم منها كالبدر فى تمامه وجلا القناع عن وجهها . . ركع على ركبتيه . . ضم ساقيها إلى صدره . . تنهد قائلا :

ـ ليلة العمر يا حبيبتى . .

ومضى ينزع ملابسها قطعة قطعة فى صمت المخدع الملىء بالألحان الباطنية . .

٣

فتحت دنيازاد عينيها وقد نضحت الستارة بالضياء . . وجدت نفسها مغموسة فى ذكريات النبع المبارك . . شفتاها نديتان بالقبل ، أذناها ثملتان بأعذب الكلمات ، خيالها مفعم بحرارة التنهدات . . العناق لم يبرح جسدها ولا الحنان . . هذه هى الصباحية . . ولكن . . ؟ سرعان ما هبت عليها رياح الوعى الصارمة . . أين العريس؟ ما اسمه؟ متى تمت مقدمات الزفاف؟ رباه . . لم تخطب ولم تزف ولم يجر فى القصر حفل . . إنها تنتزع من الحلم كمن يساق إلى النطع . . أكان حلما حقّا؟ ولكن العهد بالأحلام أن تتلاشى لا أن ترسخ وتتجسد حتى لتلمس وتشم . . مازالت ترى العريس رؤية العين

وتستشعر مسه وحنانه . . مازالت الحجرة معبقة بأنفاسه . . وثبت إلى الأرض فاكتشفت عريها ، اكتشفت حبها المسفوح . . انقضت عليها رعدة نافذة مرعبة . . هتفت فى يأس :

ـ إنه الجنون . . .

ونظرت فيما حولها بذهول وهتفت مرة أخرى :

ـ إنه الهلاك . .

ولاح لها الجنون كوحش يطاردها . .

٤

أما صحوة نور الدين فكانت غاضبة ثائرة عندما رأى حجرة نومه البسيطة بمسكنه القائم فوق دكانه بحى العطور . . أكان حلما؟ لكنه حلم عجيب له قوة الحقيقة وثقلها . . ها هى ذى العروس بجمالها حقيقة لا يمكن أن تنسى أو تمحى من القلب . . ومتى وكيف تجرد من ملابسه؟ مازال يشم الشذا الطيب الذى لا نظير له بين عطوره . . ما زال يرى المخدع الفاخر بستائره ودواوينه وسريره العجيب . .

ـ ما معنى العبث مع مؤمن صادق مثلى؟

ولم تعذبه الحقيقة وحدها ولكن أيضا عذبه الحب . .

٥

قهقهت زرمباحة وسألت سخربوط :

ـ ما رأيك فى هذا العشق المستحيل؟

ـ مداعبة فريدة حقّا . .

ـ لا عهد للبشر بمثلها . .

فقال سخربوط مترددا :

ـ ليس دائما ، إنهم مولعون بخلق الأوهام . .

ـ ولكن كيف؟

ـ ما أكثر الذين يتوهمون فى أنفسهم الذكاء ، أو الشعر أو الشجاعة!

فقالت مسترسلة فى الضحك :

ـ يا لهم من حمقى !

فقال بحقد :

ـ إنى أعجب لماذا فضلوا علينا؟

٦

سلمت دنيازاد بأن سرها أثقل من أن تحمله وحدها . . هرعت إلى جناح شهرزاد عقب ذهاب شهريار إلى مجلس الحكم . . وما إن رأتها شهرزاد حتى قالت بقلق :

ـ ماذا بك يا أختى؟

فجلست على وسادة عند قدمى السلطانة ورفعت إليها عينين مستغيثتين وقالت وهى تنشج فى البكاء :

ـ ليته كان مرضا أو موتا . .

ـ أعوذ بالله ، افترقنا أمس على خير حال . .

ـ ثم وقع ما لا يقع فى دنيا العقلاء . .

ـ حدثينى فقد بددت طمأنينة نفسى . .

فأسدلت عينيها ثم قصت عليها قصتها التى بدأت بزفاف وهمى وانتهت بدم حقيقى . . تابعتها شهرزاد بقلق وريبة ، ثم قالت برجاء :

ـ لا تخفى شيئا عن أختك . .

ـ أحلف لك برب الكون أنى ما أضفت إلى قصتى حرفا ولا نقصت منها . .

فتساءلت شهرزاد :

ـ أيكون وغدا من رجال القصر؟

ـ كلا . . كلا . . ما وقعت عليه عيناى من قبل . .

ـ أى عقل يقبل قصتك؟

ـ هذا ما أحدث به نفسى ، إنها قصة شبيهة بقصصك العجيبة . .

ـ قصصى مستوحاة من عالم آخر يا دنيازاد . .

فقالت متنهدة :

ـ لقد وقعت أسيرة صدق عالمك الخفى ولكنى لا أريد أن أكون ضحيته . .

فقالت شهرزاد بأسى :

ـ سأعرف الحقيقة عاجلا أو آجلا ، ولكنى أخشى أن تدهمنا الفضيحة قبل ذلك !

ـ هو ما يقتلنى خوفا وغما . .

ـ إن عرف السلطان حكايتك استيقظت من جديد شكوكه وارتد إلى سوء ظنه بجنسنا ، وربما أرسل بى إلى الجلاد ورجع إلى سيرته الأولى . .

فهتفت دنيازاد :

ـ معاذ الله أن يصيبك سوء من ورائى . .

وتفكرت شهرزاد مليا ثم قالت :

ـ فلنحفظ قصتك سرا ، ولن يدرى بها السلطان ولا أبى ، سأدبر ما ينبغى فعله مع أمى ، ولكن يجب أن تعودى إلى دارنا بحجة الحنين إلى أهلك . .

فتمتمت دنيازاد :

ـ ما أتعس حظى !

٧

دعا نور الدين أمه كليلة الدمر فجاءت عجوز متحركة الشفتين بتلاوة غير مسموعة ، يحمل وجهها النحيل آثار جمال قديم . . أجلسها إلى جانبه على كنبة خراسانية وسألها :

ـ هل زارنا غريب وأنا نائم؟

فقالت بدهشة :

ـ ما طرقنا طارق . .

ـ ألم يصدر عن حجرتى صوت؟

ـ أبدا ، إنى أنام ولا تنام حواسى ، وأخفت الأصوات يوقظنى ، لماذا تطرح أسئلة غريبة؟

فقال بعد تردد وحياء :

ـ لعله حلم ، ولكنه ليس كالأحلام . .

ـ ماذا رأيت يا بنى؟

ـ رأيتنى فى حضرة فتاة جميلة !

فابتسمت كليلة وقالت :

ـ إنها دعوة من الغيب للزواج .

فقال بحدة :

ـ كانت حقيقة ملموسة ومشمومة لا أدرى كيف أشك فيها ولكنى لا أستطيع تصديقها أيضا . .

فقالت العجوز ببساطة :

ـ لا تشغل بالك وتزوج . .

ـ هل سمعت من قبل عن حقيقة تتلاشى فى حلم؟

ـ ربنا قادر على كل شىء ، ستنسى كل شىء قبل مرور ساعة .

فتنهد قائلا :

ـ نعم . .

وكان يعلم أنه يكذب ، وأنه لن ينسى ، وأن قلبه يخفق بحب حقيقى ، وأن محبوبه كائن متجسد لا ينسى ولا يمحى أثره من الوجدان . .

٨

فتح نور الدين دكانه وطالع الناس بوجه جديد . . عرف طيلة عمره اليافع بجماله الصافى وبحضور البديهة فى المعاملة ولكنه بدا ذلك الصباح الربيعى شارد اللب ، حائر الطرف . . يتساءل الذين يستبشرون بطلعته عما غيره واستأثر بخياله . . ويتساءل هو طيلة الوقت عن حلمه العجيب الذى فاق الحقيقة فى الوجود والدسامة والأثر . . وقد بلغ العشرين دون أن يتزوج لرغبة قديمة فى الزواج من حسنية أخت صديقه فاضل صنعان . . تردد قديما بين رزقه المحدود وثراء أبيها الواسع ، وتردد بعد ذلك لمعارضة أمه فى الزواج من ابنة رجل خالط العفريت حياتهم . . قالت العجوز :

ـ ابعد عن الشر فلا ندرى عن هذه الأسرار شيئا . .

وأبقى على مودته لفاضل ، تاركا حسنية للزمن ، ولكن أين حسنية الآن؟ بل أين الدنيا وما فيها؟ لا وجود إلا لتلك الصورة الباهرة والمخدع الوثير والسرير الذى يفوق فى حجمه غرفة نومه كلها . . لقد رأى رؤيا حقيقية ، ومارس حبا حقيقيا ، وها هو ذا يحب حبا يتضاءل بالقياس إليه أى حب حقيقى . . ها هو ذا يعانى فتور الحياة ووحشتها وكآبتها وحزنها الأبدى فى البعد عنها . . أما شذاها فيعبق به أنفه ، وأما مناجاتها فتتردد مع

أنفاسه . . وتذكر صباه الذى أنفقه فى كنف الشيخ البلخى يتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الدين . . عندما أخذ من ذلك كفايته وهمَّ بتوديع الشيخ قال له الرجل :

ـ ما أجدرك بالعشق !

فهم أنه يدعوه إلى الاستمرار معه فقال له :

ـ والدى مريض وعلىَّ أن أحل محله فى الدكان . .

فقال الشيخ :

ـ ما أقبل فى صحبتى عاطلا . .

فقال كالمعتذر :

ـ حسبى العبادة والتقوى . .

وما أخلف الظن فى ذلك وما حاد عن الصراط ، وها هو ذا يتذكر بتلقائية قول الشيخ « ما أجدرك بالعشق ! » . ترى هل يجدر به أن يزور الشيخ مستنصحا ؟ ولكنه خاف ، وسلم بأن سره جدير بأن يطوى فى الصدر . . راح يتابع تيار النساء المحجبات . . هل يمكن أن تكون حبيبته إحداهن ؟ إنها موجودة على أى حال ما يداخله شك فى ذلك . . موجودة فى مكان ما وفى هذا الزمان دون غيره . . لعل أشواقنا تهيم فى جنون مُجدَّة وراء التلاقى . . لعل الذى صنع معجزة الحلم يعد بمعجزة أخرى تأويله وتحقيقه . . لا يمكن أن يتلاشى حلم كهذا كأن لم يكن . . لا يمكن أن تشتعل أشواق بهذه القوة دون ما سبب أو غاية . . لابد أن يصل العاشق . . بالعقل أو الجنون لا بد أن يصل . . ولكن ما أضيع الباحث بلا دليل !

٩

سعد الوزير دندان برجوع دنيازاد إلى داره الرحيبة ، أما الأم فعانت وحدها ـ بعد دنيازاد ـ معاشرة السر الأليم . . قالت لابنتها بحزن وغضب :

ـ زلت قدمك يا دنيازاد . .

فقالت دنيازاد باكية :

ـ إنى مسلمة أمرى لرب العالمين . .

ـ لن تكون العاقبة خيرا . .

فكررت باستسلام :

ـ إنى مسلمة أمرى لرب العالمين . .

وعندما لاحت الأمارات كالنذير أقدمت المرأة على إجهاض ابنتها مستغفرة ربها . . وقالت بأسى :

ـ نحن نؤجل البلاء ولكن ما العمل إذا جاء عريس؟

فهتفت دنيازاد :

ـ لا رغبة لى فى الزواج . .

ـ وماذا نقول لأبيك إذا وجده كفئا؟

فرددت دنيازاد :

ـ إنى مسلمة أمرى لرب العالمين . .

وإذا خلت إلى نفسها تناست الأخطار المحدقة بها فلم تذكر إلا حبيبها الغائب . . عند ذاك تستهين بالموت، ولا تأبه للعار، وتتساءل بوجد وعذاب : أين أنت يا حبيبى؟ كيف وصلت إلىَّ؟ ما سرك؟ ماذا يبعدك عنى؟ ألم يأسرك جمالى كما أسرنى جمالك؟ ألم تلفحك النار المشتعلة فى روحى؟ ألا ترق لعذابى؟ ألا تفتقد حبى وأشواقى؟

١٠

وعرض من الأحداث عارض، اهتزت له القلوب . . فقد مضى المنادى على بغلته ينادى رعية السلطان، مذيعا نبأ هجوم ملك الروم على أحد الثغور، ونهوض الجيش للجهاد ودفع الغزاة . . جاشت الصدور بالقلق، واكتظت المساجد بالمصلين، وارتفع الدعاء للسلطان شهريار بالنصر . . وفى المساء هرع الناس إلى مقهى الأمراء فامتلأ برواده من السادة والعامة . . وجمعت أريكة واحدة بين حسن العطار ابن إبراهيم العطار وفاضل صنعان ونور الدين . . لم يكن للقوم من حديث إلا الحرب . . وسمع الطبيب عبد القادر المهينى وهو يقول :

ـ إنكم لم تشهدوا غزوا للعدو، ما هو إلا عاصفة من الهلاك تجتاح المدن وأهلها . .

فقال جليل البزاز :

ـ جيش الله لا يغلب . .

فقال معروف الإسكافى :

ـ لله حكمته أيضا . .

فقال رجب الحمال :

ـ قد تقع سفينة السندباد فى الأسر!

فقال له علاء الدين بن عجر الحلاق :

ـ لا تفكر إلا فى ذاتك وصاحبك!

عند ذاك قال عجر الحلاق :

ـ رأيت حلما عجيبا!

ولكن أحدًا لم يسأله عن حلمه لسوء ظنهم بصدقه ولعلمهم بلهفته على إقحام نفسه فى شئون الآخرين . .

وارتعد نور الدين لذكر الحلم وقال لصاحبيه حسن وفاضل :

ـ ليس أعجب من الحلم فى حياة البشر . .

فسمع صوتا يقول معلقا على قوله :

ـ صدق ما قلت يا بنى . .

فالتفت إلى الأريكة المجاورة، فرأى سحلول تاجر المزادات والتحف يرمقه باسما فقال له :

ـ إنك حكيم ومجرب يا سيدى . .

فقال سحلول :

ـ من ملك الحلم ملك الغد!

مال إلى مناقشته بكل قلبه ولكن فاضل ـ مستذكرا ما سبق أن ردده صديقه الغائب عبد الله الحمال ـ لكزه بكوعه خفية وهمس فى أذنه :

ـ دعك منه . .

فتساءل نور الدين :

ـ ولكنه ذو تجربة؟

فهمس فاضل صنعان :

ـ إنه غامض أيضا كالحلم . .

وسمع الطبيب عبد القادر المهينى وهو يقول :

ـ فى تقديرى أن جيش السلطان سينتصر ولكن البومة ستنعق فى بيت المال . .

١١

وجعل نور الدين يتنهد فى أسى متسائلا أما لهذا الشوق من نهاية؟ كلت عيناه من النظر وأرهق القلب . . وراح يتجول فى الطرقات، حينا فى النهار وحينا فى الليل، منجذبا بصفة خاصة إلى مواقع النساء فى أسواقهن الأثيرة . . وأكثر من مرة يمر أمام دار الوزير دندان فى الوقت الذى تقف فيه دنيازاد وراء المشربية مستطلعة ولكنه لا يراها ولا تراه . . وتتجلى له التجربة الفريدة خارقة من الخوارق مستقرة فى عزلة بعيدا عن مجال الأمل أو تهامسه مرات كحقيقة مذهلة ستكشف له النقاب عن وجهها، وقتما تشاء رحمة الله . . ومرة أخرى رأى فى آخر الليل شبحا مقبلا . . تكشف له عندما ألقى عليه ضوء فانوس معلق بأعلى باب دار عن وجه قزم . . إنه كرم الأصيل صاحب الملايين فماذا أخرجه من داره الرائعة فى مثل هذه الساعة من الليل؟ ماذا يؤرقه وعم يبحث؟ ترى لو وقع أسير حلم مثله فهل كان يغنى عنه ماله فى العثور على آسره؟! وانقبض قلبه لغير سبب واضح . .

١٢

كرم الأصيل يحب المشى فى الليل فى الطرقات الخالية . . إنه صديق الأماكن فما يخلو مكان منها من عمارة أو بيت أو وكالة يملكها . . وله فى داره الرحيبة زوجة وعشرات من الجوارى ولكنه لا يملك القلوب كما يملك البشر والأشياء . . بقدرته أن يغير المصائر ولكنه عاجز عن تغيير صورته أو حجمه . . لذلك كثيرا ما تبدو له الدنيا كئيبة مثل وجهه . . تدفعه المعاملة لغشيان الناس ولكنه يحب الوحدة والليل . . لا يحب الغناء ويضيق بالسمر ويعشق المال ويعبد القوة . . لم يهنأ بقبوله نديما للسلطان، يؤدى الزكاة ولا يمارس الصدقة، يعنى بلحيته ويعجب بها، فهى أجمل ما فيه بثرائها وتماديها، أنجب من البنات عشرين ولم ينعم عليه بذكر واحد، وهو صاحب الملايين، وأغنى رجال الحى بل أغنى رجال المدينة . .

وهو أيضا عاشق . . ولعل ذلك ما جعل نور الدين يتابع شبحه بقلب مبهم وتأثر عميق .

١٣

ألقى عليه العشق عندما سقط النقاب عن وجه دنيازاد فوق الهودج فى حفل عاشوراء . . خفق قلبه الغارق فى هموم الأعمال كما يبرق برق فى سحاب مكفهر . . ومال نحو بيومى الأرمل كبير الشرطة ، وهو من عبيد جودة :

ـ من الجارية؟

فأجابه باسما :

ـ دنيازاد أخت السلطانة!

انقبض صدره وأيقن أنها لا تشترى بالمال .

هكذا يمضى فى الليل فى رفقة من ذكريات غير سارة . . ولما لمح نور الدين تجاهله . . إنه يحسده لجماله ويحتج غاضبا على حسده لشخص من البشر . ومر بدار سحلول تاجر المزادات والتحف . . قال لنفسه : «سيمسى ذلك الرجل منافسا لى فى الثراء» وكان يعتبره من القلة النادرة التى تلزم الآخرين باحترامها فكرهه أكثر مما يكره الآخرين . . واتجه نحو داره وهو يقول :

ـ كرم الأصيل ، عبد الله البلخى ، منذا يقرأ لنا الغيب؟ كان يجب أن تكون ثروتى من السرور أضعاف أضعاف ما أحرز

١٤

قال له البواب :

ـ مولاى ، حسام الفقى كاتم السر ينتظر عودتكم فى البهو . .

ماذا جاء به فى هذه الساعة المتأخرة؟ مضى إليه من فوره . . تعانقا . . قال كاتم السر :

ـ سيدى يوسف الطاهر حاكم الحى ينتظرك الآن فى داره . .

ـ أى أمر عاجل وراءك؟

ـ لا أدرى إلا أنه أمر مهم . .

ذهبا مسرعين . . وانفرد به يوسف الطاهر وهو يقول مداعبا :

ـ على قدر أهل العزم . .

فتفحصه كرم الأصيل باهتمام فواصل الرجل :

ـ انتصر جيشنا ، أنت أول رجل تزف إليه البشرى . .

فتمتم فى حيرة :

ـ منة من رب العالمين . .

فحدجه الحاكم بنظرة طويلة ثم قال :

ـ بيت المال تكلف فوق طاقته . .

انقبض صدره وأدرك كل شىء ، فقال يوسف الطاهر :

ـ السلطان فى حاجة إلى قرض يسدد عقب جمع الخراج . .

فتساءل فيما يشبه الدعابة :

ـ وما شأنى أنا وذاك؟

فضحك يوسف الطاهر وقال :

ـ اختصك السلطان بذلك الشرف . .

فتساءل دون ابتهاج :

ـ كم؟

ـ خمسة ملايين من الدنانير !

لا مفر ولا اختيار ، ولكن التمعت فكرة فى رأسه الخبير فى المساومة . . قال :

ـ فرصة للقرب من السلطان والطموح إلى ثواب الرحمن . .

ـ أحسنت . .

فقال بهدوء :

ـ ولكن ثمة رجاء لم أكن أدرى كيف أفصح عنه . .

فصمت يوسف الطاهر باسما فقال كرم الأصيل :

ـ يد دنيازاد ، أملى الأخير من شرف القرب . .

دهش يوسف الطاهر ولكنه لم يبد دهشة . . تذكر كم تمنى دنيازاد لنفسه . . حنق على محدثه فوق ما تصور . . لكنه قال بهدوء :

ـ سيُرفع الرجاء كما تشاء !

١٥

ـ وقع المحذور!

هكذا رددت الأم وهى فى غاية الاضطراب، ودنيازاد كانت تتوقعه على أى حال. قالت الأم:

ـ جاء العريس، حظى برضا السلطان وموافقة أبيك!

ترى من يكون؟! هل ادخر القدر معجزة جديدة فيها الشفاء؟ تساءلت عيناها دون أن تتفوه بكلمة، فقالت الأم:

ـ إنه كرم الأصيل صاحب الملايين!

قطبت دنيازاد وخطف اليأس دم وجنتيها فقالت الأم:

ـ الفضيحة تدق الباب كالرعد..

فبكت دنيازاد قائلة:

ـ إنى بريئة والله شهيد..

ـ هيهات أن تجدى مصدقا لحكايتك!

ـ الله حسبى..

ـ عنده العفو والمغفرة..

ـ أليس لى حق القبول أو الرفض؟

فقالت الأم مستنكرة:

ـ إنها رغبة السلطان..

فتأوهت قائلة:

ـ ليتنى أهرب من هذه الدنيا..

ـ تكون فضيحة أكبر وقد لا تسلم أختك من العواقب..

فأفحمت فى البكاء حتى قالت أمها:

ـ ليت المشكلات تحل بالدموع..

فهتفت دنيازاد:

ـ لكنى لا أملك إلا دموعى!

١٦

قال سخربوط لزرمباحة وهو يضحك بسرور :

ـ اللعبة تتمادى فى التعقيد ، وسوف تتمخض عن عواقب مثيرة . .

فقالت زرمباحة مشاركة فى سروره :

ـ تسلية نادرة . .

ـ ترى هل تنتحر الجميلة أم تقتل ؟

ـ الأجمل أن تقتل وينتحر أبوها . .

ـ هل ثمة مجال للمزيد من العبث ؟

ـ بل ندع الأمور تجرى فى مجراها ما دامت فى غير حاجة لتدخلنا . .

ـ الحق أنى أخاف . .

فقاطعته متسائلة :

ـ م تخاف يا حبيبى ؟

ـ أن يتسلل الخير من حيث لا ندرى . .

فقالت بازدراء :

ـ لا تكن متشائما . .

فضحك سخربوط ولم ينبس . .

١٧

انتشر نبأ خطبة كرم الأصيل لدنيازاد فى الحى ساحبا وراءه ذيلا عريضا من البهجة والتطلعات والسخريات . . حلم الفقراء بمطرة منهمرة من الصدقات من رجل لم يعرف حتى حب الصدقة . . وفرح الأعيان بهذه المصاهرة بين السلطان وحيهم . . وجرت الهمسات منذرة باقتران القرد بالملاك . . وناحت دنيازاد فى وحدتها مناجية المجهول : «أين أنت يا حبيبى ؟» ، «متى تجىء لإنقاذى من الدمار ؟» . وراح نور الدين يتخبط بين الطرقات وقد أثار نبأ القران أحزانه مناجيا المجهول أيضا «أين أنت يا

حبيبتى؟». . وتابع قمقام وسنجام المناجاة المتبادلة فى أسى عميق حتى قال سنجام لزميله:

ـ انظر ماذا يفعل الزمان والمكان!

فقال له قمقام:

ـ إن أنات البشر من قديم تتدفق فى نهر الحسرات بين الكواكب. .

ومر تحت الشجرة المعلم سحلول مهرولا فقال قمقام بصوت مسموع:

ـ إنه ماض إلى مهمة. .

فقال سحلول بحيرة:

ـ أحيانا أتلقى أوامر غير مفهومة!

ومضى فى سبيله. .

١٨

انتهى سحلول إلى سور دار المجانين ووقف فى الظلماء. . همس لنفسه: «لولا الإيمان لتساءلت عن معنى ذلك». .

وسلط إرادته على الأرض فيما بينه وبين زنزانة جمصة البلطى فانشق نفق لا يستطيع البشر شقه فى أقل من عام. . وفى ثوان كان واقفا فى الظلام فوق رأس جمصة البلطى يسمع شخيره المنتظم. . هزه برفق فاستيقظ متسائلا:

ـ من؟

فقال له:

ـ لا أهمية لذلك، جاءك الفرج، هات يدك لأنطلق بك إلى الحرية. .

استسلم جمصة له غير مصدق حتى غمره هواء الربيع الرطيب. . تمتم جمصة:

ـ يا رحمة الله! من أنت أيها الغريب؟ من أرسلك؟

دفعه سحلول وهو يقول:

ـ إلى مقامك المنعزل القديم على شاطئ النهر!

١٩

عندما ذهب الغريب قال جمصة البلطى لنفسه :

ـ «ليس هذا من عمل الإنس، تذكر ذلك يا جمصة، تذكر وتفكر» . .

عاش بين المجانين حتى ألف الجنون . . أدرك أنه سر مغلق وكشف مثير . . تمنى أن يغوص فى أعماقه ويجابه تحدياته . . ولما أنعشه الهواء جرى قلبه إلى أكرمان ورسمية وحسنية، تمنى لو يزور الربع ويخالط أنفاس الأحبة . . لكن من يكون؟ لقد حلقوا شعر رأسه ولحيته وجلدوه مرتين، لا وجود اليوم لجمصة ولا لعبد الله . . إنه اليوم بلا هوية ولا اسم، ملىء بالأشجان والنزوع إلى التقوى . . أوى إلى النخلة عند اللسان من النهر . . تذكر صديق الأحلام عبد الله البحرى . . ورجع يقول :

ـ كائن بلا هوية و غايته فوق الأكوان، ولكن تذكر وتفكر، فلم يجئك الفرج بغير ما سبب!

٢٠

حملت دنيازاد إلى السراى ليحتفل بزفافها فى رحاب السلطان تنفيذا لرغبته السامية . . اجتاحت رياح الرعب المثقلة بالغبار قلب العروس وشقيقتها صاحبة الحكايات . . نصحت شهرزاد أختها بادعاء المرض ورجت السلطان تأجيل الزفاف حتى تبرأ من مرضها . . واستدعى الطبيب عبد القادر المهينى فتولى العلاج، وسرعان ما ساورته شكوك . . كان فطنا أريبا ذا خبرة بالنفوس لا تقل عن خبرته بالأجساد، فرجح لديه أن العروس راغبة عن القرد، ولكنه، تغابى بلباقة، متعاطفا مع رغبتها، دافنا سرها فى بئر مهنته المصون، فقرر أن العلاج سيطول . . غير أن كرم الأصيل ضاق بالقرار، وساورته شكوك أيضا فتضرع إلى مولاه أن يأذن له فى عقد الزواج على أن يؤجل الزفاف لحين الشفاء . . وافق السلطان وجىء بكبير القضاة فعقد الزواج، وبذلك باتت دنيازاد زوجة شرعية لكرم الأصيل صاحب الملايين . . وانتظر قوم بهجة الأفراح على لهفة وتوقع آخرون سقوط الكارثة . .

٢١

وقادت أقدام نور الدين صاحبها الحائرة ذات مساء إلى النهر فخلا إلى نفسه عند اللسان . . فى خلوة ناعمة بأنفاس الربيع ، مشتعلة بألسنة الأشواق . . ترامى إليه صوت مناجاة فأيقن أنه صوت عابد ، فانجذب نحوه ناشدا راحة وسلوى . . عثر على الشيخ تحت النخلة فأشفق من مقاطعته وجلس يستمع . . ولما انتهى الرجل سأله :

ـ من أنت؟ وماذا جاء بك؟

فأجاب نور الدين :

ـ إنى معذب ، وأنت؟ من هذه الناحية يا عم؟

ـ لا تهم النواحى مَن جعل قرة عينه فى العبادة ، ولكن ما سر عذابك؟

ـ لى حكاية غريبة!

دفعته رغبة قوية للاعتراف فحكى له حلمه بتفاصيله وما أعقبه من جنون ، ثم سأله :

ـ هل تصدقنى؟

فأجاب الرجل :

ـ المجانين لا يكذبون . .

ـ هل عندك تفسير للسر؟

ـ وراءك ملاك أو شيطان ولكنه حقيقة!

ـ وكيف أبرأ من أشواقى؟

فقال بهدوء :

ـ نحن نكابد أشواقا لا حصر لها لتقودنا فى النهاية إلى الشوق الذى لا شوق بعده ، فاعشق الله يغنك عن كل شىء . .

فقال نور الدين بعد صمت :

ـ إنى مؤمن صادق العبادة ولكننى مازلت عاشقا لمخلوقات الله . .

ـ إذن فلا تكف عن البحث . .

ـ نال منى التعب والأرق . .

ـ العاشق لا يتعب . .

فقال باهتمام :

ـ يُخيّل إلىَّ أنك ذو خبرة . .

ـ عرفت رجلا لم يحرم ممن يحب فحسب، ولكنه حرم من الوجود ذاته!

ـ بالموت؟

ـ بل فى الحياة!

ـ هل داخلكما شك فى عقلى؟

ـ إنه الجنون نفسه . .

ـ والعقل أيضا . .

فقال بعد تردد :

ـ إنك تغمض وتزداد غموضا . .

فتساءل بنبرة باسمة :

ـ إذن ماذا تقول عن حلمك؟!

٢٢

ورجع نور الدين إلى المدينة يخوض بحار الظلمات . . لم يبل العابد غلته أو بالكاد فعل . . فحثه على البحث ولم يعده بالظفر ولا أنذره باليأس ثم وضح أنه من المبتلين . . لم يخلق نور الدين للزهد فى الدنيا ولكنه خلق لعشق الله فى الدنيا . . على ذلك فارق الشيخ عبدالله البلخى يوم فارقه . . لم يملك فى تلك اللحظة إلا اليقين بأن محبوبته كائنة فى مكان ما، وأنها منطبعة بأثر حبه . . بذلك حدثته نسائم الربيع الهائمة فى الليل كما حدثته ومضات النجوم الهابطة بين القباب والمآذن . . وهتف بصوت مرتفع فى وحدته :

ـ خفف عذابى يا لطيفا بالعباد . .

وإذا بصوت عميق يسأل :

ـ من الشاكى فى هذه الساعة من الليل؟

انتبه إلى شبح رجلين يعترضان سبيله فتساءل :

ـ أمن رجال الشرطة أنتما؟

فأجاب صاحب الصوت :

ـ نحن تاجران غريبان نتسلى عن طول ليلنا بالمشى فى حيكم العريق . .

ـ أهلا بكما ومرحبا . .

ـ ماذا تشكو أيها الشاب؟

وقال زميله :

ـ الناس للناس ، ولا تضيع الشكوى بين أهل المروءة . .

فقال نور الدين مدفوعا بكرمه :

ـ أدعوكما إلى دارى المتواضعة وهى قريبة . .

وضمتهم حجرة أنيقة ، وقدم لهما زلابية وقدحين من الكركديه . . حاما حول شكواه ، سألهما عن موطنهما ، قال إنهما من سمرقند . . حاما حول شكواه مرة أخرى . . قال :

ـ يبوح الحائر بسره للغريب . .

فقال ذو الصوت العميق :

ـ وقد يجد عنده ما لا يخطر على بال . .

فقال نور الدين متنهدا :

ـ فلتمطرنا السماء مطرة غير متوقعة . .

واندفع يحكى لهما حكاية حلمه العجيب حتى تلاشى صوته فى صمت شامل وهو يرنو إليهما فى حياء . . ثم قال ذو الصوت العميق :

ـ تعارفنا بالقلوب كما يجدر بأهل الكرم ولكن آن لنا أن نتعارف بالأسماء ، أما أنا فعز الدين السمرقندى ، وهذا شريكى خير الدين الأنسى . .

فقال نور الدين :

ـ نور الدين بياع الروائح العطرية . .

ـ تجارة جميلة مثل وجهك . .

ـ معاذ الله ، الله لا يضع جماله إلا حيث يريد أن يضع رضاه .

ـ هل صدقتمانى؟

فقال عز الدين :

ـ أجل أيها الشاب ، إنى جواب بلدان ، وقد سمعت من حكايات الأولين ما لا يخطر على قلب بشر ، لذلك لا أشك فى حقيقة حلمك . .

فانتعش قلب نور الدين بالآمال وتساءل :

ـ هل يمكن أن أبلغ المراد بالوصول إلى محبوبتى؟

ـ ما أشك فى ذلك . .

فتأوه متسائلا :

ـ ولكن كيف ومتى؟

فقال الرجل :

ـ بالصبر والإصرار يتحقق الوصول . .

وسأله خير الدين الأنسى :

ـ أأنت فى حاجة إلى مال؟

فقال متنهدا :

ـ لا أسأل الله إلا الوصول . .

فقال عز الدين :

ـ أبشر بفرج الله القريب . .

٢٣

رأت شهرزاد السلطان منفعلا كما لم تره من قبل . . كان فى الشرفة المطلة على الحديقة وقد فرغ من صلاة الصبح وراح يتناول إفطارا من الحليب والتفاح . . عما قليل سيرتدى زيه الرسمى ويذهب إلى مجلس الحكم ولكنه يبدو فى ساعته كطفل سعد باكتشاف جديد . . قال :

ـ ليلة أمس صادفت فى تجوالى حكاية كأنها إحدى حكاياتك يا شهر زاد . .

فقالت باسمة رغم كربها الدفين :

ـ تكرار الحكايات آية صدقها يا مولاى . .

ـ أجل، أجل . . أسرار الوجود شائقة وألذ من الخمر . .

ـ متعك الله بالوجود وأسراره يا مولاى . .

فقال بعد تمهل :

ـ الحق أننى فى حركة دائبة لا تتوقف ولا يهدأ القلب، يتنازعنى بياض النهار وظلام الليل . .

فقالت بمرح تغطى به على فتور روحها :

ـ هكذا الرجل الحى . .

ـ مهلا، جاء دورى لأحكى لك حكاية غريبة . .

وقدم لها حلم نور الدين بياع الروائح العطرية . . وانتبه إلى وجهها قائلا بدهشة :

ـ ما أشد تأثرك يا شهر زاد!

فقالت كالمعتذرة :

ـ استيقظت اليوم متوعكة . .

ـ لسعة رطوبة لا تلبث أن تزول وسوف يراك الطبيب، أما أنا فأريد أن أكلف المنادين بالسير بالحكاية لأجمع بين العاشقين . .

فقالت بحرارة :

ـ بل التمهل أولى بنا أن يتعرض بريئان لألسنة السوء!

ففكر مليا ثم تساءل :

ـ ألست قادرا على حمايتهما؟!

وقالت شهرزاد لنفسها : «إن هذا الرجل لم يكن يشغله إلا ضرب الأعناق، وما زال شيطانه ذا سطوة لا يستهان بها، ولكنه لم يعد يستأثر به» . .

٢٤

وقالت شهرزاد لأمها المقيمة فى السراى بعلة رعاية دنيازاد فى مرضها :

ـ ثمة خارقة من الخوارق تطالبنا بمزيد من الحكمة . .

فتنهدت الأم قائلة :

ـ لا يصلح قلبى لتلقى الحوادث الجديدة . .

ـ أمى، لقد تجلت حقيقة صاحب الحلم!

ففغرت المرأة فاها ثم تمتمت :

ـ لا تحدثينى عن الأحلام . .

ـ ما هو إلا نور الدين بياع الروائح العطرية . .

وقصت عليها مغامرة السلطان بحروفها . . عند ذاك قالت الأم بذهول :

ـ ما فى وسع مثله أن يتسلل بليل إلى سراى السلطان . .

ـ لو صح ارتيابك يا أمى لهان عليها أن تهرب معه . .

ـ ولكن ما الفائدة؟ أختك زوجة شرعية لكرم الأصيل والكارثة تقترب ساعة بعد أخرى . .

ـ وسوف ينادى المنادون بالحكاية ولا يبعد أن تنكشف حقيقتها . .

فزفرت الأم قائلة :

ـ الخطر يدهمنا . .

ـ هى الحقيقة المرعبة . .

ـ هل ننتظر كالمطروح فوق النطع؟

فقالت شهرزاد باضطراب :

ـ إنى خائفة ، على دنيازاد وعلى نفسى أيضا ، لا أمان للسفاك ، إن شر ما يبتلى به الإنسان أن يتوهم أنه إله . .

ـ إنه كالموت ، لا مفر منه . .

ـ يتراءى لى أحيانا أنه يتغير . .

ـ أبوك يقول ذلك أيضا . .

ـ لكن ماذا يدور بداخله؟ مازال فى نظرى لغزا غامضا لا أمان له . .

فقالت الأم بقلق :

ـ قد تعجبه الحكاية وهى بعيدة ، أما أن تقتحم داره وتتعامل معه فشىء آخر ، قد تعاوده وساوسه . .

ـ وينقلب شيطانا كما كان أو أفظع . .

ـ وما ذنبك أنت؟

ـ أرى أن نشرك دنيازاد فى همومنا . .

ـ إنى أشفق من ذلك كل الإشفاق . .

ـ إلام نهرب من الحقيقة وهى تطوقنا؟

واستأذنت القهرمانة مرجان فى الدخول . . قدمت لشهرزاد رسالة وهى تقول بخوف :

ـ اختفت سيدتى دنيازاد تاركة هذه الرسالة . .

قرأت شهرزاد الكلمات الآتية :

ـ عفوا يا مولاى السلطان . . لا قبل لى بعصيان أمرك بالزواج من كرم الأصيل ، ولا طاقة بى للزواج منه ، فاخترت أن أقضى على نفسى والله غفور رحيم . .

شهقت الأم وأغمى عليها . .

٢٥

راح المنادون يذيعون الحلم العجيب ويدعون العاشقين للتلاقى فى رحاب السلطان . . فى ذات الوقت تلقى السلطان نبأ انتحار دنيازاد بالحزن والسخط وأصدر أمره بالعثور على جثتها فى أى موضع من الأرض . . وغضب كرم الأصيل غضبا شديداً دعاه إلى الاعتكاف بعيدا عن شماتة الشامتين وسخرية الساخرين فلم يكن يغادر داره إلا عند انتصاف الليل . . أما يوسف الطاهر ـ حاكم الحى ـ فقد تلقى الخبر فى دفقة امتزج فيها السرور بالحزن العميق . . سُرَّ بتحرر دنيازاد من قبضة الرجل القرد ولكنه حزن بعمق على موت الفتاة التى تمناها لنفسه والتى من أجلها فكر جادا فى تدبير مؤامرة لاغتيال كرم الأصيل . .

٢٦

كان المجنون يتأمل فى ظلمة الليل تحت النخلة عندما انتبه إلى شبح يقترب على ضوء النجوم . . سمع صوت أنثى يحييه وتقول :

ـ باسم الله أسألك أن ترشدنى إلى سفينة تبعدنى عن المدينة .

فسألها برقة :

ـ أتهربين من فعل يغضب الله؟

فقالت بحرارة :

ـ ما أغضبت الله فى حياتى قط . .

صوتها ذكره بأكرمان وحسنية فمازج حنان الأرض أشواق السماء فى قلبه ، فقال برقة مشعشعة بالندى :

ـ عليك بالانتظار حتى مطلع الفجر والله يتولاك برحمته . .

ـ هل أستطيع الانتظار هنا؟

فابتسم ابتسامة لم ترها وقال :

ـ خلق العراء للهاربين! أين تذهبين؟

ـ أريد أن أبعد عن المدينة . .

ـ ولكنك وحيدة ولعلك جميلة!

فلاذت بالصمت ، فقال :

ـ لعل الله يعينك بيدى إن شئت؟

فقالت بامتنان :

ـ ما أريد إلا أن تيسر لى السفر . .

فتساءل بقلق :

ـ عهد الله إنك لم تخلّفى وراءك أذى لإنسان؟

فقالت بصوت متهدج وقد اطمأنت إليه :

ـ إنى مظلومة ، غادرت دارى لأقتل نفسى ثم خفت أن يلقانى الله غاضبا . .

ـ لماذا يا بنتى؟

فنشجت باكية فهتف مخاطبا السماء :

ـ إنك أعلم أين تضع رحمتك . .

ـ بريئة ومظلومة . .

ـ ما أحب أن أتطفل على سر قلبك . .

فاستسلمت قائلة :

ـ إنك من العباد الطيبين وإليك أبوح بسرى . .

وراحت تحكى حكايتها فقاطعها متسائلا :

ـ أأنت صاحبة الحلم؟

فهتفت متسائلة :

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ عرفته من شريكك فى نفس المكان ، وسمعته بعد ذلك من المنادين . .

ـ عقلى عاجز عن متابعتك ، هل تعرف شريكى فى الحلم؟

ـ المنادون يرددون اسمه فى كل مكان ، إنه نور الدين بياع الروائح العطرية . .

فقالت وكأنما تخاطب نفسها :

ـ المنادون؟! وراءهم السلطان! ياللعجب! نور الدين . . نور الدين . . لكنى متزوجة ، بل إنى ميتة . .

وأكملت قصتها فقال الرجل :

ـ اذهبى إلى زوجك!

فهتفت بإصرار :

ـ الموت أهون . .

ـ اذهبى إلى زوجك نور الدين !

فتساءلت بذهول :

ـ ولكننى زوجة شرعية لكرم الأصيل !

ـ اذهبى إلى نور الدين ودعى الفجر يطلع !

٢٧

قال سخربوط محتدا :

ـ ماذا أرى؟ الأمور تسير نحو حل سعيد!

فقالت زرمباحة مدارية مرارة :

ـ انتظر ، مازال الطريق مليئا بالأشواك . .

ولمحا تحت الشجرة سحلول يمضى مهرولا فى الظلام فتساءل سخربوط :

ـ مهمة طارئة أيها الملاك؟

وقالت زرمباحة :

ـ لعلها لنا لا علينا . .

مضى سحلول دون أن يعيرهما التفاتة . .

٢٨

فى الصباح الباكر غادر نور الدين داره ليفتح دكانه . . وجد عند الدكان فتاة محجبة كأنما تنتظر . . عليها رداء من القز الدمشقى يفصح عن هوية سامية . . تطلعت إليه باهتمام ثم ندت عنها آهة عميقة . . عجب لشأنها وتلقى من قلبه نبضات موحية بإلهامات غامضة . . ما لبثت أن أسفرت عن وجه مضىء ورنت إليه بثبات واستسلام وشغف . . مر دهر وهما غائبان عن الوجود وغائصان فى حلم ينفث السحر والوجد . . رقت نسائم الربيع ، خف وزنهما ، أفعما بشذا الزرقة السماوية . . أنستهما السعادة الهابطة ذكريات

العذاب والحيرة فحل السلام بالأرض وتلاحمت الأيدى بحركة عفوية مثل غناء الطير . . هتف :

ـ كائن وحى ، حقيقة لا حلم ، هنا فى هذه الساعة من الزمان .

فهمست بصوت متهدج :

ـ نعم . . أنت نور الدين وأنا دنيازاد!

ـ أى رحمة هدتك إلى مقامى؟

فتدافعت الكلمات من ثغرها تروى المأساة والفرج ، فقال بنشوة :

ـ كان علينا أن نطمئن إلى أن المعجزة لا تقع عبثا . .

ـ ولكن الرعد أقوى من هديل الحمام . .

فقال بإصرار :

ـ معا وإلى الأبد . .

ـ كان ذلك قدرا مقدورا . .

ـ لنذهب إلى السلطان . .

فانطفأت شعلة حماسها وهى تقول :

ـ ولكنى متزوجة من كرم الأصيل . .

فقال بحدة :

ـ وَعْد السلطان أقوى .

فقالت بأسى :

ـ والعثرات لها قوتها أيضا . .

ولكنه كان من السكر فى غابة .

٢٩

انعقد المجلس السلطانى فى الضحى وشهده كبار رجال الدولة . . مثل أمام العرش نور الدين بياع الروائح العطرية ودنيازاد أخت السلطانة . . قال السلطان متجهما :

ـ دهمتنا العجائب الغامضة وقد علمتنا الأيام والليالى بأن نخص العجائب باهتمامنا وأن ندق باب الغموض حتى تتفتح مصاريعه عن الضياء ، غير أن هذه العجيبة المتنكرة فى حلم اقتحمت علىَّ دارى . .

صمت السلطان فخفق قلب الوزير دندان، وشحب وجها دنيازاد ونور الدين . . قوى متضاربة تتنازع قلب السلطان ولا شك . . مازال المارد القاسى، سحرته الحكايات ولكنها لم تغير من جوهره، وإذا به يقول ووجهه يزداد تجهما :

ـ ولكن وعد السلطان حق!

فزال الكرب عن قلوب كثيرة وأشرقت وجوه بنور الأمل . . وعند ذاك قال المفتى :

ـ ولكن السيدة دنيازاد متزوجة بحكم الشرع . .

فأصدر السلطان أمره إلى دندان قائلا :

ـ أحضر كرم الأصيل . .

فقام يوسف الطاهر حاكم الحى العتيق وقال :

ـ مولاى، وجد كرم الأصيل ميتا ليلة أمس غير بعيد من داره .

اجتاح الخبر القلوب فزلزلها وسرعان ما تذكرت مصارع الحكام والأعيان . . وقام بيومى الأرمل كبير شرطة الحى فقال :

ـ عثر رجالنا على المجنون الهارب يهيم على وجهه ليلا فى الحى بعد بحث طويل خائب عنه فألقوا القبض عليه . .

فسأله السلطان :

ـ هل تتهمونه بقتل الأصيل؟

ـ إنه ينسب إلى نفسه كافة الجرائم فى مباهاة وعزة . .

ـ أليس هو الرجل المصر على الزعم بأنه جمصة البلطى؟

ـ هو نفسه ومازال مصرا على ذلك . .

وهنا قال يوسف الطاهر :

ـ نستأذن مولانا فى ضرب عنقه فهو آمن من إرجاعه إلى دار المجانين . .

فقال السلطان :

ـ حدثنى وزيرى دندان بأن النفق الذى هرب منه لا يمكن أن يصنعه بشر!

فقال بيومى الأرمل بتسليم :

ـ هو كذلك يا مولاى . .

تردد السلطان طويلا حتى شعر المقربون بأن الخوف يساوره لأول مرة فى حياته، ولما أدرك دندان ذلك قال بلباقة :

ـ ما هو إلا مجنون يا مولاى، ولكن به سر لا يستهان به فليترك وشأنه، وما من مملكة إلا وبها نفر من أمثاله لهم دورهم فى العناية الإلهية، أرى يا مولاى أن يترك وشأنه وأن يبحث عن القاتل بين الشيعة والخوارج . .

فقال السلطان شاكرا فى باطنه لوزيره لباقته :

ـ أحسنت النصيحة يا دندان . .

ثم نظر إلى دنيازاد ونور الدين وقال :

ـ لكما الوعد فتزوجا ، وسيكون لدنيازاد جميع مخصصاتها من بيت المال . .

وتجلل المجلس بالسلامة والسعادة . .

مغامرات عجر الحلاق

١

تبلبلت الخواطر لموت كرم الأصيل ، ولكن عجر الحلاق شغل بنفسه عن الدنيا وما فيها ، فى الظروف العادية لا يشغله شىء عن الأحداث ، فهو طفولى عريق ، ينسج من الحبة قبة ، ويعتبر فى دكانه راوية قبل أن يكون حلاقا ، ويستجلب بالأخبار والمبالغات الاهتمام والرضا . . غير أن ابتسامة أعادت خلقه من جديد ، وفجرت الأمانى المكتومة من قديم . . وهو قصير نحيل براق العينين ، غامق السمرة ، لا يخلو فى الأصل من وسامة ينطوى على نهم لا يدرى به سواه . . صاحبة الابتسامة ، متوسطة العمر ، تكبره بعام أو عامين . . لم تبسم إلى حلاق مثله؟ لعلها تحب الرجال؟ لعلها تغرى بالأنوثة وبالجود؟ فما يشك أحد فى فقر عجر الحلاق . . يا إلهى! إنه يحب النساء ، ولولا الفقر ما بقيت فتوحة زوجته الوحيدة طيلة ذاك العمر . . لعله يحلم بالنساء كابنه اليافع علاء الدين ويحلم أيضا بالجاه والطعام والشراب . . وقد واظبت على المرور أمام دكانه أياما متتابعات حتى تصدى لها فضربت له موعدا عند مدرسة السلطان عقب مغيب الشمس . . انتظر وهو يقول لنفسه : «جاء دورك فى الحظ يا عجر» . . لأول مرة يثنى على الحظ ويسجد ، لأول مرة يرحب بهبوط المغيب ، لأول مرة يأنس إلى الطريق وهو يقفر . . الدكاكين تغلق أبوابها ، وهو يمتلئ بالانفعال والانتظار . . ولما خلا الطريق أو كاد ظهر «المجنون» بجلبابه الفضفاض ولحيته المرسلة . . على غير انتظار ظهر ليخترق الليل بأسراره . . هو المتطوع دائما بأنه مرتكب الجرائم الكبرى ، والزاعم بأنه جمصة البلطى قاهر الموت ، الذى غزا قلب السلطان الحجرى فأطلق سراحه . . وعجر يحبه كدعابة غامضة ولكنه لم يرحب بظهوره فى تلك الساعة الفاصلة . . وحدث ما أشفق منه فاقترب منه المجنون حتى وقف بإزائه وقال له بصوته المليء :

ـ اذهب إلى بيتك فلا يخرج فى الليل إلا ذو هدف . .

فضحك عجر مغالبا توتره وقال له :

ـ شعر رأسك ينمو مثل شجرة بلخ ، ولحيتك تمتد طولا وعرضا كالستارة ، هلا زرتنى فى دكانى لأهذبك؟

فنهره قائلا :

ـ عقلك فاسد فلا تطاوعه . .

ـ يا لك من مجنون ظريف !

فمضى عنه وهو يقول :

ـ جاهل من ذرية جهلاء !

لم يبق وحده أكثر من دقيقة ثم أقبلت المرأة . .

٢

تجربة مشتعلة ، يستهان فيها بالمجهول ، بعد عشرين عاما من حياة زوجية يومية . . قادته فى الظلام المخفف بفوانيس الأبواب إلى دار شبه معزولة ببستان خارج السور . . آمن بأن التى تقوده من أهل الجاه والثراء والفجور فسعد بذلك درجة بعد درجة . . غائصا فى مكان مظلم وشت به روائحه الزكية فأدرك أنه حديقة ، ثم وجد نفسه فى بهو مضاء بقناديل فى الأركان ، يتصدره سرير وثير يتوسطه مجلس من الوسائد حوله مائدة حفلت بالطعام والشراب . . غابت المرأة ثم رجعت سافرة فى جلباب حرير . . مكتنزة ، حسنة القسمات ، أكبر مما حسب ، ولكنها تسيل دلالا وخلاعة . . جرى بصره على المرأة والطعام والشراب وقال لنفسه : «انظر كيف تتحقق الأحلام» . . قال وهو يتحفز :

ـ ليلتنا ليس فى الليالى مثلها . .

ملأت كأسين وهى تقول ضاحكة :

ـ لا ينكر النعمة إلا جاحد . .

وصفقت فجاءت جارية فى العشرين ، حاملة عودا ، تشبه المرأة فكأنها أختها وتتفوق بالشباب ، وقالت المرأة :

ـ أسمعينا ، لا يتم السرور إلا بالكمال . .

لعب الشراب بالعقول كما لعب الوتر بالقلوب . . وبقحة عجر المعهودة أقبل على الشراب والطعام والمرأة . . وتساءل مرات : متى يتم التعارف؟ ولكن ما أهمية ذلك؟

ليحذر التسرع وليلعب دوره كما يجدر به . . إنه لا يشك فى أنه بحضرة فاجرة . . لكنها فاجرة تجود وتهب ولا تستغل . . إنه حلم لا يضيره إلا أنه لا يصدق . .

٣

وخصته بيوم الاثنين من كل أسبوع . . طمع فى المزيد ولكنها تجاهلته . . نصح نفسه بالقناعة . . تحامت أن تشير إلى هويتها فأيقن أنها من علية القوم . . لماذا لم تستقر فى سراى مع كبير من الأكابر؟ لعله الفجور أو البطر فأنعم بأيهما . . والجارية الشابة شقيقتها بلا جدال . . غائصة ولاشك فى الفساد . . وهى مذعنة ومطيعة للمرأة كأنها تابعة . . وهى فتنة، وهما يتبادلان استراق النظر . . سيقع حتما فى شباك الصغرى كما وقع فى الكبرى وكل آت قريب . . إنه مجلس يعبق به الشهوة والخيانة ولكنه يعمل للمرأة ألف حساب . . وأحب الطعام والشراب مثلما أحب المرأة . . وبمرور الأيام أحب الطعام والشراب أكثر . . يهجم على المائدة بوحشية وبلا حياء حتى بات فرجة مسلية للمرأتين . . حرص على ألا يفضحه هواه بالجارية الشابة، وشجعته هى مستخفية وراء المزيد من الحذر . . شعر فى مقهى الأمراء بأنه أعلى مرتبة من الوجهاء وأنه أسعد من يوسف الطاهر وأنه شهريار آخر . .

٤

وذهب ليلة فلم يجد إلا الجارية الشابة . . البهو هو البهو ولكن المائدة خالية . . وتساءلت عيناه فى حيرة دون أن ينبس فقالت الجارية :

ـ إنها مريضة وقد كلفتنى بالاعتذار . .

خفق قلبه وبرقت عيناه وابتسم فقالت :

ـ ينبغى أن أرجع مسرعة . .

فقال بلهفة :

ـ إنها شديدة الثقة !

وتقدم خطوتين فاحتواها بين ذراعيه فقالت دون أن تبدى مقاومة تذكر :

ـ من يدرى؟

ـ ولكن الفرصة لن تفلت من يدنا . .

ـ يا لها من مغامرة!

ـ إنك حرة مثلها . . لا شك فى أنك شقيقتها . .

تخلصت منه بعذوبة وجاءت بالطعام والشراب . . أقبلا على الشراب بإفراط ليبددا مناخ التوتر والفكر . . وتذاوبا فى رغبة متأججة . . واعتليا قمة التحدى فغابا عن الوجود . . واستيقظ مبكرا . . قام يترنح برأس ثقيل . . أزاح الستار فتدفق ضوء المصباح . . حانت منه التفاتة إلى ذكريات الليلة الماضية ففرت من فيه آهة وجحظت عيناه . . رأى الجارية الجميلة مذبوحة! . . صفى دمها تماما، واستقر بها الموت . . متى؟ . . من؟ . . كيف؟ . . هل يهرب؟ فى الخمر ما أثقل رأسه! كأنما شرب فى الخمر بنجا . . التهمة معلقة فوق رأسه . . فكر سريعا . . وبلا منطق . . الحديقة . . دفن الجثة . . إزالة آثار الدماء . . هل فى الدار من يراقبه؟ عليه أن يعمل وأن يسلم نفسه للمقادر . . لا وقت للتفكير . . تقوض البناء كله . . ما كان كان . . لازمه شبح المرأة الأخرى طيلة الوقت . .

وعندما ألقى على المكان نظرة أخيرة رأى عقدا ذا فص من الماس ملقى أسفل السرير فتناوله وهو لا يدرى ماذا يفعل؟ ودسه فى جيبه . . تسلل إلى الخارج وهو يقول :

ـ ستكون معجزة إذا نجوت . .

٥

مضى عجر يتخبط فى زنزانة كربه المقيم . . الجريمة تحاصره وتبسط قبضتها المتشنجة لتخنق عنقه . . أعاهدك يا ربى على التوبة إذا أنقذتنى . . رآه ابنه علاء الدين فسُرَّ بعودته على حين كشرت فتوحة زوجته على أنيابها، قال دون مبالاة :

ـ غلبنى النعاس فى غرزة . .

لعنته . . الحياة بينهما تجرى مكتظة بالنقار والمودة . . فتح دكانه متأخرا عن ميعاده . . استقبل الرءوس واللحى بعقل شارد يهيم فى وديان الرعب . . كان ثمة شخص ثالث هو القاتل بلا ريب . . لكن لماذا قتل الشابة الجميلة؟ الغيرة؟ غيرة رجل مجهول أم غيرة امرأة؟ دائما تطارده صورة الأخت الكبرى . . قوية وفاجرة وقادرة على الكبائر . . هل تكتشف الجثة؟ هل علم أحد بتسلله الليلى؟ هل يساق ذات يوم إلى السياف ليضرب عنقه؟ أعاهدك يا ربى على التوبة إذا أنقذتنى . . وفكر لحظات فى الهرب . . العقد

المستقر فوق بطنه يعد ثروة ولكن عرضه للبيع قد يوقعه فى شر أعماله. . كلا. . إنه لم يقتل ولن يهرب والعناية الإلهية لا تنام. . أجل إن العناية الإلهية لا تنام، ولكن من هذا؟ نظر بصدر منقبض إلى «المجنون» وهو يدخل الدكان فيقتعد الأرض فى بساطة وهو يأكل مشمشة. . وكان يشذب لحية الطبيب عبد القادر المهينى فقال للمجنون:

ـ ماذا جاء بك فى النهار على غير عادة؟

فقال المجنون ببساطة:

ـ نهارك ليل يا عجر. .

ـ أعوذ بالله من شر الكلام. .

وضحك الطبيب قائلا:

ـ لا تخدعنى يا رجل فالجنون منتهى العقل. .

فقال المجنون:

ـ إنى شرطى قديم. .

ـ ما زلت مصرا على أنك جمصة البلطى؟

ـ والشرطى إذا توجه لله لم يتخل عن مهنته القديمة!

فقال عجر بضيق:

ـ ارحمنى من جنونك فلست رائق البال. .

فقال المجنون بهدوء:

ـ لا يدعونى إلا أمثالك يا جاهل. .

فضحك الطبيب عاليا وقال:

ـ إنه يُدعى عادة إذا عجز علمنا عن الخدمة. .

ونهض المجنون فمضى وهو يقول:

ـ الله ملجأ الحى والميت، والميت الحى. .

ولما غيبه الباب قال عجر للطبيب:

ـ قلبى يحدثنى الآن بأن هذا المجنون قاتل خطير. .

فتمتم عبد القادر المهينى:

ـ ما أكثر القتلة يا عجر!

شعر عجر بأن المجنون مطلع على سره. . ترى أهو الذى ذبح الجميلة؟! متى تنكشف الغمة يا رب السماوات والأرض؟!

٦

وليلة الاثنين جاءت . . موعد جلّنار المنذر بالاحتمالات المبهمة . . إذا ذهب فإلى الجحيم يذهب . . وإذا لم يذهب قدم الدليل على جريمة لم يرتكبها . . مضى إلى دار الجريمة والفزع . . سلم نفسه إلى المقادر مقشعر البدن . . أخفى الحديقة من الوجود بغض البصر . . أما العنق المنزوع من الجسد الجميل فقد لازمه خطوة خطوة . . رأى جلنار والمائدة فتلقى أول نسمة فى جو الصيف المشبع بالرطوبة . . عليه أن يكبح اضطرابه أن يفضحه . . عليه أن يمارس الحب فوق فراش الدم . . الجثة تملأ المكان وتغطى على المرأة النهمة . . ما أعذب الهرب! أقبل على الشرب بيأس . . المرأة هادئة باسمة . . أيسأل عن زهريار أم ينتظر؟ أيهما يشى بالريبة أكثر؟ لكن جلنار بادرته متسائلة :

ـ أين زهريار؟

فتساءل بدوره :

ـ ألم تحضر معك؟

فحدجته بحيرة وهى تشاربه ، ثم قالت :

ـ أرسلتها إليك حاملة اعتذارى . .

فقال بقلب خافق جاف :

ـ تبادلنا كلمتين ثم افترقنا . .

ـ اختفت كأنما تبخرت ، يئس المجدون فى البحث عنها ، البيت مشتعل نارا . .

فضرب كفا بكف وتمتم :

ـ حدث عجيب حقّا ، هل ثمة ما يدعوها إلى الاختفاء؟

ـ لا أدرى عن ذلك شيئا ولا أتصوره! البيت مشتعل نارا . .

ـ أى بيت يا جلنار؟

ـ بيتنا يا عجر ، أحسبتنا بلا أهل؟

ـ وهذه الدار ما شأنها؟

ـ ما هى إلا استراحة لنا أوقفناها على الطرب!

فتردد ثم تساءل ورأسه مثقل بلا نشوة :

ـ من أهلك يا جلنار؟

فقالت باسمة :

ـ ناس من الخلق ، ماذا يهمك منهم؟

فغاص فى الهم أكثر وتساءل بحزن :

ـ ترى أين أنت يا زهريار؟!

ـ أحزنك الخبر ولا شك؟

فانقبض صدره وقال بحذر :

ـ ما أنا إلا إنسان يا جلنار . .

فداعبت لحيته قائلة :

ـ وإنسان طيب يا عجر . .

وانتشت بالخمر فاقتربت منه . . أطبقت الكآبة متجسدة . . ران الإحباط على الطعام والشراب وجفت ينابيع الرغبة . . جفل من المرأة بقدر ما توجس منها خيفة . . إنه كابوس ثقيل طويل ويجب أن يتلاشى . .

٧

فى الموعد التالى ذهب وكأنما يذهب إلى النطع ، ولكن لم يستجب لطرقاته على الباب أحد ، ولم يفتح له بعد ذلك فتلقى أول شعور بالراحة منذ اكتشاف الجريمة . . لعل أهلها فطنوا أخيرا إلى سلوكها السرى ، لعلها نفرت منه ، لعلها لحقت بأختها ، ليكن من أمرها ما يكون فقد انتهى قدر لا يستهان به من عذابه . . لن يقترب مرة أخرى من مقام الجريمة ، وسوف يقاوم لون الدم الذى يطارده ، ولن يألو أن يذكر نفسه بأنه لم يرتكب طيلة حياته جريمة قتل . . هيهات . . ولا قتل دجاجة مما يستطيعه . . وابتعدت ذكريات الطعام والشراب والغرام فقال لنفسه المنهزمة : «لعلها لم تكن حقيقة قط» . . وكل يوم يمر يجود بهبة من الطمأنينة . . الخوف حق على المجرمين لا الأبرياء . . وهو برىء ما فى ذلك شك . . وكلما رسخت الطمأنينة دبت الحياة فى الرغبة المكبوتة . . رجع يتذكر ليالى الغرام والطعام ويتنهد . . ويتذكر العقد الثمين فوق بطنه المحروم من عرضه للبيع ويتأسف . . إنه يحمل ثروة معطلة ، وله تجربة مع السعادة لا تنسى ، ويتفجر فى أعماقه النهم وأشواق اللذة . . وتساءل فى حيرة :

ـ أليست التوبة أجدر بى؟

ولكن ليالى جلنار أشعلت فى وجدانه جنون النساء . . جالت عيناه متلصصة بين

الحسان، تنطلق من نار وترتد بنار أشد. . فى إحدى جولاتها وقعت على حسنية بنت صنعان شقيقة فاضل فشجعه فقرها وسمعة أبيها المتوفى على الطمع فيها. . وانتهز فرصة مجىء فاضل إلى دكانه ليشذب لحيته وشاربه فغالى فى الترحيب به وسأله ببساطة عجيبة:

ـ يا سيد فاضل صنعان، هناك من يطلب شرف القرب منك. .

فتساءل فاضل بعقل خال:

ـ من يا عجر؟

فقال بالبساطة نفسها:

ـ العبد لله.

صدم فاضل وكتم انفعاله. . قال لنفسه: «لعلّ عجر أيسر فى الرزق منى، ولكنه عجر وأنا فاضل، وحسنية لا تقل فى التهذيب عن شهرزاد نفسها». . تساءل ليكسب مهلة للتفكير:

ـ أختى؟

ـ نعم. .

فقال كالمعتذر:

ـ يبدو أن أحدهم سبقك يا عجر!

لاذ عجر بالصمت دون أن يصدقه. . لو سبقه سابق لعلم به. وهل يخفى عليه شىء مما يجرى فى الحى كله؟ وغضب عجر. . كيف لا يعتبر فاضل طلبه منة وهو يطلب القرب من بيت حلت به لعنة الشيطان؟!

٨

ازداد رغبة فى الحب، ولم يكف عن التلهف على الجاه. . خاض فى أجساد العذارى كالمراهقين رغم أن ابنه علاء الدين لم يتزوج بعد. . وتقلب بين الوسائد فى دور سحرية على مثال الدور التى يدخلها أحيانا لخدمة أصحابها. . وكما وقع فى حب حسنية تعلق قلبه بقمر أخت حسن العطار. . حب أقوى من الأول. . وزاده قوة أنه حب ميئوس منه. . حب مقضى عليه بالكتمان والأسى والعذاب. . ذهب يوما إلى دار العطار ليشذب لحية المعلم حسن فلمح البنت الجميلة ففقد راحة البال إلى الأبد. . لكنه لم يفقد الحلم. . إنه يهيم بالدور العظيمة كدور العطار وجليل البزاز ونور الدين. . ونور الدين ما أسعده من شاب! من بياع عطور بسيط لا يرتفع درجة عن عجر، ولعله دون ابنه علاء

الدين فى الجمال والكمال، إلى عين من الأعيان، قريب وعديل للسلطان، وزوج لدنيازاد أخت شهرزاد، أليس الله بقادر على كل شىء؟

٩

فى قهوة الأمراء جلس كعادته كل ليلة.. عقب نهار صيف حار جاد الليل بنسمة طيبة.. وجد نفسه أقرب ما يكون من أريكة المعلم سحلول تاجر المزادات، وأنهى الراوى فصلا من سيرة عنترة فسكتت الرباب ونطق السمر.. قال عجر للمعلم سحلول وهو من زبائنه:

ـ لم تشرفنا من زمن!

فقال الرجل باسما:

ـ سأزورك على غير انتظار ذات يوم!

وجاء حسن العطار وجليل البزاز وبصحبتهما فاضل صنعان فاطمأنوا إلى مجلسهم.. حياهم عجر مغاليا فى التودد والتقرب، فردوا تحيتهم بتحفظ.. إنه يلقى نفسه إلقاء على السادة ولكنه يرد دون تشجيع حذرا من تطفله.. إنه اليوم أعلى من فاضل ولكنهم يحفظون العهد القديم.. حلمه الدائم أن يقبل ليقدم خدماته نظير الاستمتاع بموائدهم.. يفلح مرة ويخفق عشرات المرات فيتأجج نهمه.. اليوم فاضل غريمه بعد أن رفض يده، أما حسن فيحوز النعمة التى لا أمل فيها.. سدد نحو مجلسهم أذنه على حين تظاهر بالاسترخاء والنعاس.. إنهم يتحدثون عن سهرة جميلة احتفالا بقدوم سفينة البزاز محملة من الهند.. سيكون طعام ولا طعام جلنار وسيجرى الشراب.. سيملأ بياع الحلوى بطنه كالأيام الخالية..

ـ الجو حار، نريد مكانا خارج الدور!

الصعلوك يعلن رغباته كأنه من السادة.. ويجيبه جليل:

ـ اللسان الأخضر، إنه جزيرة خضراء!

فقال حسن العطار:

ـ ودعوت شملول الأحدب!

فقال جليل:

ـ ما أجمل أن يهرج لنا مهرج السلطان!

حتى المهرج!.. أما أنت يا عجر فما إن يبتسم الحظ لك حتى يجتاحه الدم البشرى.. ونظر نحو المعلم سحلول وقال بأسف:

ـ إنك طراز وحدك فى زهدك فى اللهو يا معلم سحلول . .

فقال المعلم بهدوء :

ـ هذا حق . .

ـ إنك رجل كريم متواضع وما كنت تأبى أن أكون نديمك . .

فابتسم ولم يجب . . وتفكر قليلا كيف يحرضه على اللهو . . ونظر نحوه مرة أخرى فوجد مكانه خاليا . . أجال بصره فى المقهى فلم يعثر له على أثر . . هكذا يختفى فجأة وفى غمضة عين فما أغربه ! . . ولكن عجر صمم على أن يشترك فى سهرة اللسان الأخضر مهما كلفه الأمر . . ولو توجت المغامرة بطرده !

١٠

اللسان الأخضر الممتد فى عرض النهر مثل جزيرة نحيلة ولا ضوء إلا ضوء النجوم الخافت . . وغير بعيد ينطلق شبح النخلة يقوم أسفلها مثوى المجنون . . كان عليهم أن يمدوا بساطا ويهيئوا سماطا ، ويشعلوا ناراً للشواء . . غير أن شبحا أقحم نفسه بينهم متطوعا للخدمة وهو يقول :

ـ خدام السيادة !

لم يحظ الصوت بارتياح أو تشجيع وصاح جليل البزاز :

ـ عجر ! يا لك من طفيلى ثقيل !

فقال بثبات ويداه لا تكفان عن العمل :

ـ طفيلى أى نعم ولكن لست ثقيلا ، وكيف يطيب مجلس كهذا بلا خادم . .

فقال حسن محذرا :

ـ على شرط أن تلزق فاك بالغراء !

ـ لن أفتحه إلا بعد إلحاح . .

وارتفع صوت شملول الأحدب رفيعا كصوت طفل وهو يقول له :

ـ كيف تدس نفسك يا صعلوك بين الأكابر ؟

فحنق عليه ولكنه انهمك فى عمله مجهزا القوارير والكئوس وراح يشعل النار . . اندفعوا فى الشرب . . تناول شملول عودا يماثله فى الحجم ومضى يدندن بصوته المثير للضحك ، وكان رغم ضآلته يجيش صدره بعظمة كونية . . وعقب أول كأس تستقر فى جوف عجر نسى عهده فتساءل :

ـ هل سمعتم بآخر نادرة من نوادر حسام الفقى كاتم سر الحاكم يوسف الطاهر ؟

فصاح به حسن العطار :

ـ لا نحب أن نسمع ، فأغلق فاك!

وتمادوا فى الشراب على حين ترامى صوت غير مرئى المصدر يناجى «الواحد» فاتجهت الرءوس نحو شبح النخلة . . وقال فاضل :

ـ إنه المجنون . .

فتساءل جليل :

ـ ألم يجد مثوى غير ذلك ليفسد على اللسان الأخضر رواده؟

فقال حسن العطار مخاطبا فاضل :

ـ إنه يزعم أنه حموك جمصة البلطى . .

ـ هكذا زعم ولكن رأس جمصة المعلق يقول غير ذلك . .

فقال شملول الأحدب :

ـ كل شىء جائز فى هذه المدينة المجنونة!

عند ذاك قال عجر الحلاق :

ـ إن أردتم الحق . .

ولكن جليل قاطعه :

ـ لا نريد الحق ولا نحبه . .

فصاح شملول :

ـ لا تذكرونا بالموت ، بذلك أمر السلطان . .

فسأل جليل :

ـ كيف تسامر السلطان يا شملول؟

فقال شملول بعجرفة :

ـ لست ممن يفشون الأسرار يا أحقر الخلق!

ضحك الجميع إلا حسن العطار ، فقد انفجرت نشوته غضبا فصاح به :

ـ أيتها الحشرة . .

وغضب الأحدب فرمى بالعود ووثب قائما . . وما يدرون إلا وهو يبول على السماط بطعامه وشرابه! . . وجموا موقنين بأن سهرتهم هدمت وتقوضت . . اشتعل السكر بالغضب ورموا الأحدب بجمرات الحقد . . انقض عليه فاضل دافعا إياه على ظهره ثم

رفعه من قدميه الصغيرتين ومشى به إلى حافة اللسان الأخضر، ثم غطسه فى مياه النهر ثوانى طويلة . . رفعه مرة أخرى من الماء تاركا إياه يسقط على الأرض المعشوشبة وهو يرقد من الرعب . . وقام مترنحا فتناول المجمرة ورماهم بها فتطايرت الجمرات المتقدة تلسع هذا وذاك . . بلغ منهم الحنق مداه فاجتاحوه سكارى غاضبين وانهالوا عليه لكما وركلا حتى تهاوى فاقد الوعى . . تابعهم عجر جامدا ذاهلا . . تمتم :

ـ كفاكم يا سادة، إنه مهرج السلطان . .

وانحنى فوقه فى الظلام فى صمت . . رفع رأسه وهمس :

ـ يا سادة، لقد قتلتم الأحدب!

تساءل جليل :

ـ واثق بما تقول؟

ـ انظر بنفسك يا معلم . .

شُحن الصمت بالرعب . . شمت بهم عجر . . قال متماديا :

ـ جريمة من لا شىء تطرق باب السلطان!

صاح حسن العطار :

ـ إنه الجنون . .

ـ أى حظ أسود . .

ـ أنضيع بلا سبب ولا ثمن!

وكان رأس عجر يطلق خيالات خارقة فى جميع الجهات ويثب من حلم إلى حلم. أخيرا قال بهدوء وهو يشعر بالسيادة لأول مرة :

ـ خذوا حوائجكم واذهبوا . .

فقال جليل :

ـ كيف نذهب تاركين وراءنا هذه الجريمة؟!

فقال عجر بنبرة آمرة :

ـ اذهبوا . . سوف تختفى الجثة ولن يعثر عليها الجن نفسه . .

ـ أواثق أنت بنفسك؟

ـ كل الثقة وما توفيقى إلا بالله!

قال جليل بصوت متهدج :

ـ انتظر مكافأة بمثلها لم يسمع مثلها أحد . .

فقال ببرود :

ـ إنه أقل ما أنتظر!

ـ ولكن لعل كثيرين فى المقهى قد سمعوا بدعوتنا له إلى سهرتنا؟

ـ أجل حصل، ولكننى لحقت بكم بلا دعوة، وأستطيع أن أشهد بأنه لم يلبث معنا إلا ساعة ثم مضى وحده معتذرا بتوعكه، افهموا وتذكروا . .

١١

مع جثة الأحدب وحده . . تذكر زهريار والدم فارتعدت مفاصله . . لكن لا وقت للأفكار المثبطة . . ليبعد عن الأرض المزروعة . . ليبحث عن حفرة فى الصحراء . . عن مكان أمين لحفظ الجثة حتى يحقق رغائبه . . لقد أهدرت جثة حظه السعيد وهاك جثة تَعدُه باسترداد ما فقد . . السرعة والستر مطلبه . . وترامى إليه صوت هتك الصمت :

ـ أيها السائر فى الظلام تخفف . .

ارتعد كما لم يرتعد من قبل . . المجنون . . دائما يخترق وحدته . . ما عليه إلا أن يلف الجثة الصغيرة بطرف عباءته . . مد يده ثم سحبها بعنف كالملدوغ . . ثمة حركة أم لعلها نبضة . . ثمة نفس كالأنين . . رباه الأحدب لم يمت . . وترامى الصوت كرة أخرى :

ـ . . تخفف . . !

اللعنة . . ما زال يطارده . . قاتل زهريار الجميلة . . لم قتلها؟ لم لَمْ يقتل جلنار؟ حمل شملول على كتفه اليسرى وغطاه بجناح عباءته الأيمن . . همس لَه :

ـ اطمئن يا شملول . . صديقك عجر . . سأمضى بك إلى الأمان . .

هل تضيع المكافأة؟ هل تتلاشى الرغائب؟ آه لو به قدرة على القتل! ولكن . . ! أجل خطرت له فكرة . . أن يخفيه فى داره حتى ينال ما يشتهى . . استولت عليه الفكرة ولم يكن ممن يقلبون الأفكار على شتى وجوهها . .

١٢

نظرت فتوحة إلى الأحدب الضئيل بلا حراك بذهول، فقال لها عجر :

ـ اسمعى وأطيعى . .

فقالت ساخرة :

ـ إنه لا يصلح للطعام . .

فقال بحرارة :

ـ سنعد له مكانا مريحا فى العلِّيَّة ، ليبق أياما معدودة حتى يسترد صحته . .

ـ ولماذا لا تذهب به إلى أهله؟

ـ إنه نجمة الحظ التى ستجلب لنا السعادة وتنقلنا من حال إلى حال ، قدمى له ما يحتاجه ، وأحكمى إغلاق باب العلية ، لن يطول ذلك ، وسأخبرك بجميع ما ينبغى لك معرفته . .

١٣

لم يكد ينم من ليلته ساعة . . وتوثب للعمل منذ الصباح الباكر . . إنه يوم فاصل فى الحياة كلها ويجب أن تحدث فيه جميع المعجزات بلا تأجيل . . ليكن جريئا مقتحما وبلا حياء وهو لم يكن ذا حياء قط . . ما هى إلا فرصة واحدة وهيهات أن تتكرر وكل شىء بمشيئة الله . . وقرر أن يبدأ بأغلى صيد فقصد دار حسن العطار قبل موعد ذهابه إلى دكانه . . جاءه الشاب فى المنظرة الوثيرة وهو يتساءل بلهفة :

ـ ماذا وراءك يا عجر؟

فأجاب بنبرة مليئة بالثقة :

ـ كل خير يا معلم ، لك الأمان حتى آخر العمر . .

فشد على ذراعه وقال :

ـ موفق بإذن الله ، هل قابلك المعلم جليل؟

ـ كلا بعد . . أردت أن أبدأ بالرأس . .

ـ إليك ألف دينار حلالا لك . .

فقال بهدوء :

ـ بل عشرة آلاف يا معلم . .

قطب حسن مذهولا وتساءل :

ـ ماذا قلت؟

ـ عشرة آلاف دينار !

ـ لكنها ثروة ينوء بها أكرم الأغنياء؟

فقال بالهدوء نفسه :

ـ هى قطرة من بحرك، وحياتك لا تقدر بمال قارون نفسه . .

ـ اقتنع بخمسة آلاف وسوف يتمها جليل البزاز عشرا!

ـ لن أفرط فى درهم منها . .

لاذ حسن بالصمت مليا، ثم قام متثاقلا فغاب قليلا ثم رجع بالآلاف المطلوبة وهو يتمتم :

ـ لا رحمة لك . .

فأقبل يدسها فى جيبه وهو يقول محتجا :

ـ سامحك الله، ألم أنقذ أعناقكم من سيف شبيب رامة؟!

ـ لكن طمعك أفتك من سيفه . .

فتجاهل تعليقه قائلا :

ـ بفضل الله سيصير عجر من الأعيان ويستثمر أمواله مع الأفذاذ من أمثال المعلم سحلول . . بذلك يصير أهلا لتحقيق أحلامه الحقيقية . .

فتساءل بسخرية خفية ينفس بها عن حقده :

ـ وما أحلامك الحقيقية؟

فقال بهدوء وجرأة مذهلة :

ـ أن أطلب شرف القرب منكم فى يد أختكم المصونة . .

انتتر قائما وهو يهتف :

ـ ماذا؟!

فقال ببرود :

ـ لا تشعرنى باحتقارك، لا حق لك فى ذلك، كلنا من صلب آدم، ولم يفرق بيننا فيما مضى إلا المال، ولا فرق اليوم بيننا . .

فكظم حسن غيظه دفعا لسوء العاقبة، وقال متملصا من حرجه :

ـ ولكن لا بد من موافقتها كما تعلم . .

فقال وهو يرمقه بنظرة ذات معنى :

ـ ستوافق من أجل إنقاذ رأس أخيها المحبوب . .

فقال وهو يتنهد بعمق :

ـ طلبك يخلو من الشهامة . .

فقال بيقين :

ـ الحب لا يؤمن إلا بالحب . .

ساد صمت فغاصا معا فى حر اليوم المتصاعد حتى قال حسن :

ـ فلنؤجل ذلك إلى حين . .

فقال بقوة :

ـ موعدنا العصر . .

ـ العصر ؟ !

ـ عصر اليوم للعقد ولنؤجل الزفاف . .

قام منحنيا له تحية وذهب وهو يشعر بجمرات الحقد المتطايرة من نظراته تحرق ظهره . .

١٤

قبل أن يستدير الصباح كان قد حصل من جليل البزاز على عشرة آلاف دينار ، ومضى عنه مشيعا بحقده المكتوم . . قال إن عليه أن يوثق علاقته بكبير الشرطة بيومى الأرمل اتقاء لأى غدر فى المستقبل . . عليه أيضا أن يلتحم بحاكم الحى وكاتم سره كما يفعل الأثرياء وفى ذلك ما فيه من العزة والأمان . . أما فاضل صنعان فقد خلا به فى دكانه وهو يمر أمامه . . تفحصه بزراية وسأله :

ـ ماذا عندك لى جزاء إنقاذ رأسك يا فاضل ؟

فضحك فاضل مرتبكا وقال :

ـ عندى رأسى فهى أثمن ما أملك . .

فقال عجر بمرارة :

ـ سبق أن رفضت يدى بإباء . .

فقال فاضل معتذرا :

ـ لك علىَّ أن أكفر عن خطئى . .

فصمت لحظات وقال :

ـ وهبنى الله من هى خير منها ، ولكن تذكر أننى أنقذت رأسك بلا مقابل مراعاة لفقرك !

١٥

وفى عصر اليوم تمت المراسيم الشرعية لزواج عجر من قمر العطار فى جو أشبه ما يكون بجو المآتم . . تركز هم عجر فى الاحتفاظ بشملول الأحدب فى داره حتى تزف إليه العروس . . من ناحية أخرى اكترى دارا جميلة وشرع يعدها لاستقبال العروس . . ولم يكن مطمئنا للمستقبل كل الاطمئنان، فخدعته ستنكشف عاجلا أو آجلا، أكثر من ذلك ستعلم فتوحة بزواجه من قمر وتتجمع سحب المتاعب والأكدار . . غير أنه قد ينجو من السقوط إذا ضم إليه عروسه فانضم بطريقة ما إلى آل العطار، وإذا استثمر ماله فواتاه الربح الوفير والثراء المقيم . . وذهب إلى السوق فقابل المعلم سحلول وقال له :

ـ لدى مال أريد أن أستثمره عندك فأنت خير المستثمرين . .

فسأله سحلول ولم يكن يعلن عن دهشته قط :

ـ من أين لك المال يا عجر ؟

ـ الله يرزق من يشاء . .

فقال باقتضاب :

ـ لا أشرك أحدا فى مالى . .

فقال برجاء :

ـ علمنى فالتعليم ثواب . .

فابتسم سحلول قائلا :

ـ مهنتى لا تعلم يا عجر، انتظر حتى يرجع السندباد . .

وتوجه من فوره إلى نور الدين عديل السلطان فسأله الشاب فى شىء من الارتياب :

ـ أتقسم لى على أن المال جاءك من الحلال ؟

فاضطرب قلبه ولكنه أقسم، فقال له نور الدين :

ـ ستبحر سفينة فى هذا الشهر، ارجع إلىّ فى نهاية الأسبوع . .

مضى خائفا من مغبة القسم الكاذب، ولكنه تعهد أمام ضميره بأن يكفر عن ذنوبه بالحج والصدقة والتوبة . .

١٦

أدرك عجر أن أقدام الزمن تنذر بتحطيم آماله، وأنه لا يستطيع أن يوقفها. . ليس فى وسعه أن يحتفظ بالأحدب فى سجنه إلى الأبد، ولن يوجد فى المدينة مستقر آمن له. . لم يبق له إلا أن يستولى على عروسه ثم يهرب بها فى أول سفينة. . فى بلاد بعيدة يبدأ حياة جديدة، حياة الثراء والحب والتوبة. . ودافع عن نفسه أمام نفسه فقال إنه لم يكن شريرا ولكنه فعل ما فعل بدافع الحرمان والعجز. . أعطاه الله حظ الفقراء وشهوات الأغنياء فما ذنبه؟ وذهب عند المساء إلى مقهى الأمراء فمضى من توه ـ بأقدام ثابتة ـ إلى مجلس حسن العطار وجليل البزاز وفاضل صنعان. . أوسعوا له مرغمين. . قال لنفسه: «كنت أمس محتقرا وأنا اليوم بغيض حتى الموت». . لكنه سيحسم أمره مع العطار فى نهاية السهرة وينطلق من الغد إلى دنيا الأحلام الجميلة. . ورأى فاضل يحملق فى مدخل المقهى بذهول داعيا صاحبيه للنظر . . اتجه نظره نحو المدخل فرأى شملول الأحدب يرميهم بنظرة حمراء ملتهبة وهو ينتفض من شدة الانفعال. .

١٧

تخطف اليأس والرعب روحه. . اقترب منهم بخطى سريعة متقاربة حتى وقف أمامهم متحديا. . صرخ بصوته الرفيع كالصفير:

ـ الويل لكم يا غجر!

ركز أولا على عجر وقال:

ـ تحبسنى فى دارك مدعيا ضيافة لم أطلبها؟!

لم ينبس عجر، فواصل الأحدب:

ـ أطلقتنى امرأتك عقب ما نما إليها من نبإ زواجك، فانتظر الرعد فى بيتك. .

ثم راجعا إلى الثلاثة:

ـ تضربون رجل السلطان يا أوغاد! لكل قوى من هو أقوى منه وأفتك. وسوف تنالون الجزاء الحق. .

وغادر المقهى مصفر الوجه من الغضب، فى خطى متقاربة سريعة، مخلفا وراءه

عاصفة من الضحك . . ولكن تجمدت أوجه الرجال الثلاثة ثم اجتاحهم الخوف والغضب . . ألهبوا عجر بنظرات حاقدة وهمس حسن العطار :

ـ وغد محتال ، أرجع النقود وافسخ العقد . .

وقال جليل البزاز :

ـ أرجع النقود وإلا هشمنا عظامك . .

قال عجر :

ـ حسبته أول الأمر ميتا والله شهيد . .

قال حسن :

ـ ثم انقلبت مجرما محتالا ، النقود والفسخ . .

قال باستقتال :

ـ احذروا الفضيحة ، سيذاع سر السكر والعربدة والعدوان ، خير من ذلك أن تسترضوا الأحدب قبل أن يرفع شكواه إلى مولاه . أما ما أعطيتم من مال فاعتبروه تكفيرا عن آثام حياتكم . .

ـ الويل لك ، لن تفلت بدرهم يا محتال . .

نهض الرجل بغتة وغادر المكان وكأنما يفر فرارا . .

١٨

تلاشى الأمان من دنياه . . وانطفأ سراج الأمل . . إنه زوج قمر ولكنها أبعد عنه من النجوم ، وهو غنى ولكن الموت يتهدده ، وهو أدرى الناس بالتعاون الخفى بين العطار والبزاز من ناحية ويوسف الطاهر الحاكم وحسام الفقى كاتم السر من ناحية أخرى . . وفتوحة رابضة فى الدار متلهفة على عودته لتغرز أنيابها فى عنقه . . ما أضيق الدنيا! وهام على وجهه . . غفا ساعات فوق سلم السبيل . . انزوى فى أقصى الحى النهار كله . . لا شك فى أن أعداءه استرضوا الأحدب وهم عاكفون الآن على تدبير الانتقام منه . . وفى المساء وجد نفسه الهائمة فى ميدان الرماية ، وفجأة جذب بصره ضوء مشاعل وضوضاء غير مألوفة . .

١٩

ماذا يجرى فى الميدان؟ قوة من رجال الشرطة تحيط بعدد عديد من الصعاليك وتسوقهم بعنف نحو مكان مجهول . . وصادف رجلا قريبا يقول بصوت مسموع :

ـ يا له من قرار عجيب!

لم يكن الرجل فى حقيقته إلا العفريت سخربوط متنكرا فى صورة إنسانية رافلا فى جلباب ينطق بحسن المكانة . . سأله عجر :

ـ أى قرار يا سيدى؟

ففرح سخربوط لاستدراج عجر وقال :

ـ فليكرم الله مولانا السلطان ، فقد تنبأ له فلكى القصر بأن حال المملكة لن يصلح إلا إذا تولى شئونها الصعاليك ، فأمر مولانا بالقبض على الصعاليك ليختار منهم شتى القيادات . .

فذهل عجر وتساءل :

ـ أموقن أنت مما تقول؟

فقال سخربوط بدهشة :

ـ ألم تسمع المنادين؟

وثب قلبه من الجذل . . أى موجة من البشر تكتسح الأحزان كلها بانطلاقة واحدة؟ إنها المنقذ من العذاب واليأس ، والمبشر بالنجاة والسيادة . . ماذا فى وسع أعدائه أن يفعلوا إذا أطل عليهم غدا من شرفة الحكام؟ ولم يتردد دقيقة واحدة فاندس فى زمرة المقبوض عليهم مستسلما لتيارهم .

٢٠

مضى التيار نحو دار الحاكم يوسف الطاهر . . حشد المقبوض عليهم فى الفناء تحت حراسة قوية وعلى ضوء المشاعل . . جاء يوسف الطاهر يتبعه حسام الفقى فحياهما كبير الشرطة بيومى الأرمل ، ثم قال :

ـ هؤلاء من أمكن القبض عليهم هذا المساء وسيجىء الآخرون تباعا . .

فتساءل يوسف الطاهر:

ـ أتضمن بذلك حقّاً أن تنمحى الجرائم والسرقات وقطع الطرق؟

فقال بيومى الأرمل:

ـ هو المأمول يا مولاى . .

وبإشارة من الحاكم راح الجنود يجردون المقبوض عليهم من ملابسهم الرثة . . وذهل عجر طيلة الوقت وأيقن من أنه ساق نفسه إلى مصيبة تخف بالقياس إليها مصائبه . . وانهالت السياط عليهم فمزق صراخه الجو من قبل أن يأتى دوره . . ولكنه نال نصيبه . . ولما أخذوا يمضون بهم إلى السجن صاح عجر مخاطبا الحاكم:

ـ يا نائب السلطان، انظر بحق الله المتعال فإنى لست منهم، أنا عجر الحلاق، كبير الشرطة يعرفنى، ويعرفنى كاتم السر، إنى صديق نور الدين عديل السلطان!

انتبه إليه بيومى الأرمل فدهش وسأله:

ـ لكنى لم أقبض عليك يا عجر . .

فصاح عجر:

ـ اختلاط الأمر وفعل الشيطان . .

وأمر يوسف الطاهر بإطلاق سراحه ورد ملابسه إليه غير أنه انتبه إليه باهتمام فجأة، نحو اللفة حول وسطه فارتعد عجر وأخفاها بذراعيه . . وداخل الحاكم شىء من الريبة فأمر بنزعها وفحص ما بذراعه . . ولما رأى العقد ذا الجواهر صاح:

ـ عقد زهريار! . . ما أنت إلا لص قاتل، اقبضوا عليه . .

٢١

بدأ اليوم التالى بالتحقيق مع عجر . . حكى الرجل حكايته وأقسم بأغلظ الأيمان على صدقها . . تطوع حسن العطار وجليل البزاز فشهدا عليه بالكذب والاحتيال . . قضى يوسف الطاهر بضرب عنقه . . واحتشد الحى ليشهد ضرب عنقه فى الميدان، وقبيل الشروع فى التنفيذ جاء الوزير دندان فى موكب مهيب . .

٢٢

سرعان ما جمعت حجرة القضاء بدار الحاكم بين دندان ويوسف الطاهر وحسام الفقى وبيومى الأرمل وعجر الحلاق . . قال دندان :

ـ أمرنى مولاى بإعادة المحاكمة . .

فقال يوسف الطاهر :

ـ سمعا وطاعة أيها الوزير . .

فقال دندان :

ـ وافاه «المجنون» بأخبار أراد أن يتحقق منها . .

فدهش يوسف الطاهر وقال :

ـ ذلك المجنون المصر على أنه جمصة البلطى؟!

ـ هو بعينه . .

ـ وهل صدقه مولانا السلطان؟

فقال دندان بخشونة :

ـ إنى هنا لأحقق معكم لا لتحققوا معى . .

وساد صمت مجلل بالرهبة ، فسأل دندان يوسف الطاهر :

ـ ألك شقيقتان ، إحداهما حية والأخرى مختفية؟

فقال يوسف الطاهر :

ـ أجل يا سيدى الوزير . .

ـ وهل مارسا حياة داعرة فاجرة؟

قال يوسف الطاهر بصوت متهدج :

ـ لو عرفت ذلك ما سكت عنه . .

فقال دندان :

ـ بل إنهما أسكتاك من قبل أن تتولى الإمارة بالإغداق عليك من المال الحرام!

فقال الحاكم :

ـ ما هى إلا خيالات رجل مجنون . .

فالتفت دندان نحو حسام الفقى كاتم السر ، وقال :

ـ يقال إنك تعرف كل شىء عن هذه القضية فبأمر السلطان أدل بما عندك واحذر الكذب فقد يتسبب فى ضرب عنقك . .

انهار حسام الفقى تماما فقال لائذا بالنجاة ما وسعه ذلك :

ـ جميع ما قيل حق لا ريب فيه . .

فسأله دندان متجهما :

ـ ماذا تعرف عن اختفاء زهريار؟

ـ حققت فى ذلك بنفسى فتبين لى أن أختها جلنار هى التى قتلتها بدافع الغيرة .

ودعى عجر للكلام فحكى حكايته من ساعة عشقه لجلنار حتى دس نفسه بين الصعاليك المقبوض عليهم . .

٢٣

رفعت القضية بحذافيرها إلى السلطان شهريار فأمر بعزل يوسف الطاهر لفقدان الأهلية، وعزل حسام الفقى؛ لتستره على رئيسه، وجلد حسن العطار وجليل البزاز وفاضل صنعان للسكر والعربدة، ومصادرة أموال عجر الحلاق وإطلاق سراحه . .

وخلا دندان إلى ابنته شهرزاد فقال لها :

ـ لقد تغير السلطان وتخلق منه شخص جديد ملىء بالتقوى والعدل . .

ولكن شهرزاد قالت :

ـ ما زال جانب منه غير مأمون، وما زالت يداه ملوثتين بدماء الأبرياء . .

أما عجر فقد تناسى خسارته فى فرحة النجاة . . وسرعان ما فسخ العقد بينه وبين قمر ومضى إلى النخلة غير بعيد من اللسان الأخضر فانحنى أمام المجنون المتربع تحتها وقال بامتنان :

ـ إنى مدين لك بحياتى أيها الولى الطيب . .

أنيس الجليس

١

شهريار ودندان يغوصان فى الليل، يتبعهما شبيب رامة، وقد تلاشت حركة الإنسان.. على ضوء المصابيح المتباعدة لاحت الدور والحوانيت والجوامع نائمة، وخفت حرارة الصيف، وومضت النجوم فى الأعالى.. تساءل شهريار:

ـ ما رأيك فيما كان؟

فقال دندان:

ـ سليمان الزينى رجل مأمول كحاكم.. كذلك كاتم سره الفضل بن خاقان..

ـ إذا نامت الرعية نام الخير والشر، الجميع شغوفون بالسعادة ولكنها كالقمر المحجوب وراء سحب الشتاء، فإذا وفق حاكم الحى الجديد سليمان الزينى تساقطت قطرات من السماء مطهرة الجو من بعض ما ينتشر فيه من الغبار..

ـ سيكون ذلك بفضل الله المتعال وبيد مولانا السلطان وحكمته.

فقال شهريار بعد تفكير:

ـ ولكن القسوة يجب أن تبقى ضمن وسائل السلطان!

فتفكر دندان بدوره، ثم قال بحذر:

ـ الحكمة ـ لا القسوة ـ هى ما يقصد مولاى..

فضحك السلطان ضحكة مزقت صمت الليل، وقال:

ـ ما أنت إلا منافق يا دندان، ماذا قال المجنون؟ قال إن الرأس إذا صلح صلح الجسم كله.. فالصلاح والفساد يهبطان من أعلى، غمزنى بجرأة لا تكون إلا للمجانين، ولكنه عرف سر القضية.. كيف تهيأ له ذلك؟

ـ من أدرانى يا مولاى بما يدور فى رءوس المجانين؟

ـ زعم أنه أحاط بالأسرار مذ كان كبيرا للشرطة..

ـ ما زال يصر على أنه جمصة البلطى، وهو ادعاء يكذبه رأس جمصة البلطى المعلق على باب داره.. لعله حقًا من رجال الغيب..

فقال شهريار وكأنما يناجى نفسه:

ـ علمتنى شهرزاد أن أصدق ما يكذبه منطق الإنسان، وأن أخوض بحرا من المتناقضات، وكلما جاء الليل تبين لى أنى رجل فقير!

٢

قالت زرمباحة لسخربوط:

ـ أخشى أن يركبنا الضجر..

فقال سخربوط مشجعا:

ـ بل ستُتاح فرص وتُخلق فرص يا تاج الذكاء..

وترامى صوت قمقام من أعلى الشجرة وهو يقول:

ـ إذا تردد التذمر بينكما فهو البشرى بالرضا..

فقالت له زرمباحة ساخرة:

ـ ما أنت إلا عجوز عاجز..

فقال سنجام من مجلسه لصق قمقام:

ـ الأرض تشرق بنور ربها، ونحو النور يتطلع ليل ونهار جمصة البلطى ونور الدين العاشق، حتى عجر استقر فى دكانه وتاب عن تطلعاته، أما شهريار السفاح فثمة نبضة هدى تقتحم عليه هيكله الملىء بالدم المسفوك..

فقال سخربوط هازئا:

ـ ما ترى من الأشياء إلا ظلها الأخرس، وما تحت الرماد إلا جمرات نار وسيوقظك الغد من غفوة العمى..

٣

بدأت الحركة بصوت ناعم كالحرير ثم انفجرت بهزيم الرعد.. فى ذات ليلة بمقهى الأمراء خرج عم إبراهيم السقاء عن أدبه المعهود، وقال بصوت مرتفع دل على شدة تأثره وانفعاله:

ـ حملت فى صدر النهار الماء إلى الدار الحمراء..

فسأله شملول الأحدب بصوته الرفيع:

ـ وأى جديد فى هذا يا أحمق؟

فقال السقاء وهو سكران بالانفعال :

ـ لمحت صاحبة الدار ، تبارك الخلاق العظيم . .

ضحك الجالسون على الأرض والمتربعون على الأرائك ، وقال معروف الإسكافى :

ـ انظروا إلى جنون الشيخوخة . .

فقال عم إبراهيم بأسى :

ـ نظرة منها تملأ الجوف بعشرة دنان من خمر الجنون . .

فقال الطبيب عبد القادر المهينى :

ـ صفها لنا يا عم إبراهيم . .

فهتف الرجل :

ـ إنها لا توصف يا سيدى ولكنى أسأل الله الرحمة والغفران . .

وبعد ليلتين قال عم رجب الحمال :

ـ دعيت اليوم لحمل نقل إلى الدار الحمراء . .

شد الانتباه من فوره وبدا فريسة لعاطفة قهارة فقال :

ـ لمحت ست الدار ، أعوذ بالله من عنف الجمال إذا طغى . .

لنا الله . . ليس الأمر بالهزل . . انطلق أصحاب الأشواق يستطلعون . . انطلقوا إلى سوق السلاح حيث تقوم الدار الحمراء . . دار كبيرة هجرت زمنا لهلاك أصحابها فى وباء . . تركت عارية وماتت حديقتها . . حتى اكترتها امرأة غريبة من بلد مجهول مصحوبة بعبد واحد . . وفى الليل العميق يترامى من وراء أسوارها غناء عذب ونغم ساحر . . قالوا لعلها غانية!

وإذا بعجر الحلاق يتحدث عنها بجنون لكل زبون يقصده . . يقول :

ـ عصفتْ بتوبتى وأصابتنى بسهم العذاب الأبدى . .

ويقول :

ـ دعتنى لتهذيب خصلات شعرها وتقليم أظافرها ، لو كانت سيدة محتشمة لدعت بلاّنة ولكنها نار الله الموقدة!

وعرف أن اسمها «أنيس الجليس» وتضاربت الأقوال فى وصفها حتى أثارت الشك فى عقول الواصفين ، فمن قائل إنها بيضاء شقراء ، ومن قائل إنها سمراء خمرية صافية ، ومن منوه ببدانتها إلى متغزل فى رشاقتها . . هيج ذلك مكامن الأشواق فتوثب الأعيان والموسرون لاقتحام المجهول . .

٤

يوسف الطاهر أول من قام بالمبادرة . . منذ عزله وهو ثرى يعانى البطالة والضجر فجاءه الفرج . . مع الليل ذهب إلى الدار الحمراء وطرق الباب . . فتح له العبد وسأله :

ـ ماذا تريد؟

فأجابه بجرأة رجل حكم الحى زمنا :

ـ غريب ينشد مأوى عند أهل الكرم . .

غاب العبد وقتا ثم رجع موسعا للقادم وهو يقول :

ـ أهلا بالغريب فى دار الغرباء . .

أدخل إلى بهو مزين الجدران بالأرابيسك، مفروش بالأبسطة الفارسية، والدواوين الأنطاكية، محلى بتحف الهند والصين والأندلس، أبهة لا ترى إلا فى دور الأمراء . .

وهلت امرأة محجبة، تشى قامتها المتوارية فى طيلسانها الدمشقى بالجلال، فجلست متسائلة :

ـ من أى البلاد يا غريب؟

فقال وهو يتلقى من الحيوية زادا كالخمر :

ـ الحق أنى من عشاق الحياة . .

ـ خدعتنا وحق السلطان . .

فقال بحماس :

ـ عذرى أن قارئ الكف تنبأ لى بأنى أعيش للجمال وأموت فى سبيله . .

فقالت بنبرة جادة :

ـ إنى امرأة متزوجة . .

فتساءل بقلق :

ـ حقّا؟

فاستدركت :

ـ ولكنى لا أدرى متى يلحق بى زوجى؟

ـ يا له من قول غريب!

فتمتمت متهكمة :

ـ ليس دون قولك غرابة .

وبدلال أزاحت النقاب عن وجهها فسطع جمال قد خلق على هواه وحقق شوارد أحلامه . . تلاشى العقل فركع على ركبتيه . . أخرج من جيبه حقا عاجيا ففتحه ووضعه بين قدميها كاشفا عن جوهرة ناطقة بمثل ضوء الشمس . . همس بصوت متهدج :

ـ حتى جوهرة التاج لا تليق بقدميك . .

انتظر الحكم المقرر للمصير فقالت بنعومة :

ـ مقبولة تحيتك !

فانتفض بفرحة الأمل ، أحاط ساقيها بذراعيه ، وهوى رأسه فلثم قدميها .

٥

كانت مبادرة يوسف الطاهر بمثابة فتح الباب لأمواج الجنون الهادرة الصاخبة التى تدفقت لتغمر الحى كالطوفان وتصيبه فى أغنى أبنائه ، أما الفقراء فكانت لهم الحسرة . . باتت الدار الحمراء بسوق السلاح قبلة لحسام الفقى وحسن العطار وجليل البزاز وغيرهم . . حملت الهدايا فى أثر الهدايا ، وسلبت القلوب والجوانح ، وتاهت العقول وشردت ، وسيطر الإسراف والسفه ، ونحيت العواقب وتلاشى الزمن فلم تبق إلا الساعة الراهنة ، ومضت الدنيا تضيع فى أثر الدين . . وأنيس الجليس ساحرة فاتنة ، تحب الحب ، تحب المال . . تحب الرجال . . لا يرتوى لها طمع ولا تكف عن طلب . . الرجال يستبقون بجنون بحكم الحب والغيرة ، لا يستأثر بها أحد ، ولا يزهد فيها أحد ، منحدرين بقوة واحدة نحو الضياع . .

٦

لم يعرف المعلم سحلول النشاط كما عرفه فى تلك الأيام . . إنه رجل المزادات وأول من يحضر عند حلول الإفلاس . . سقط أول من سقط حسام الفقى . . لم يهمه ضياع المال بقدر ما أهمه ضياع أنيس الجليس . . لم يكربه مصير النساء والأولاد كما أكربه الحرمان . . قال للمعلم سحلول :

ـ لا يستطيع أن يدمر الإنسان مثل نفسه . .

فقال الرجل بغموض :

ـ ولا يستطيع أن ينجيه مثل نفسه . .

فقال الفقى ساخرا :

ـ أفلست المواعظ من قديم .

ولحق به فى السقوط جليل البزاز، ثم حسن العطار، أما يوسف الطاهر فترنح على حافة الهاوية . . وقال عجر الحلاق لسحلول معلقا على نشاطه المتصاعد :

ـ مصائب قوم!

فقال سحلول دون مبالاة :

ـ هم الجناة وهم الضحايا . .

فتنهد عجر قائلا بأسى :

ـ لو رأيتها يا معلم لهفت نفسك إلى الجنون . .

ـ ما هى إلا بسمة شيطان . .

ـ إنى أعجب كيف لم تقع فى هواها!

فقال سحلول باسما :

ـ جرت المقادير بأن يوجد عاقل واحد فى كل مدينة مجنونة . .

وذات ليلة وسحلول يخوض الظلام متمهلا اعترضه قمقام وسنجام فتبادلوا تحية مقدسة، وقال قمقام :

ـ انظر إلى العبث يعصف بالمدينة . .

فقال سحلول :

ـ لقد عشت ملايين من السنين فما يدهشنى شىء . .

فقال سنجام :

ـ ستقبض أرواحهم ذات يوم وهى تنز إثما . .

ـ وقد تسبق التوبة حلول الأجل . .

ـ لماذا لا يسمح لنا بمساندة الضعفاء؟

فقال سحلول بوضوح :

ـ وهبهم الله ما هو خير منكم، العقل والروح!

٧

مضى حسام الفقى ثملا مترنحا إلى الدار الحمراء وطرق الباب الكبير . . فاضت كأس جنونه فساقته إلى باب النجاة ولكن لم يفتح له أحد فصاح فى الليل غاضبا :

ـ افتح يا مفتح الأبواب . .

ولكن لم يكترث بندائه أحد فانزوى تحت السور فى قهر وعناد . . وما لبث أن رأى شبحا قادما حتى رأى وجهه تحت ضوء المصباح المعلق فعرف فيه رئيسه القديم يوسف الطاهر فاشتعل بيقظة غاضبة . . طرق الرجل الباب فسرعان ما فتح له . . اندفع حسام الفقى فى أثره ولكن العبد اعترض سبيله قائلا :

ـ معذرة يا معلم حسام . .

فلطمه على وجهه بحنق ، فقال له يوسف الطاهر برقة :

ـ أفق واسلك كما يليق بك . .

فتساءل بغلظة :

ـ ضاع المال والدين فماذا يبقى لى؟

تحول عنه ليمضى فى سبيله ، ولكن الآخر وثب عليه كنمر وطعنه فى قلبه بخنجر مسموم . . عند ذاك صرخ العبد صرخة أفزعت النيام . .

٨

قبض على حسام الفقى الذى لم يحاول الهرب . . نظر إليه بيومى الأرمل برثاء وقال :

ـ أسفى عليك أيها الصديق القديم . .

فقال حسام بهدوء :

ـ لا تأسف يا بيومى ، ما هى إلا قصة قديمة يستدفئ بها العجائز . . قصة الحب والجنون والدم . .

٩

وقال العبد لأنيس الجليس :

ـ حبيبتى زرمباحة عما قليل سيشرف دارنا بيومى الأرمل كبير الشرطة . .

فقالت المرأة :

ـ كما رسمنا يا سخربوط . . ونحن فى الانتظار . .

ـ دعينى أقبل الرأس الحاوى للعبقرية . .

١٠

لم تستغرق محاكمة حسام الفقى إلا ساعات ثم ضرب عنقه . . واجتمع الحاكم سليمان الزينى بكبير الشرطة وحضور كاتم السر الفضل ابن خاقان والحاجب المعين بن ساوى . . قال الزينى مخاطبا بيومى الأرمل :

ـ ما هذا الذى قال الشهود؟ عشرات الرجال يفلسون . . رجلان يفقدان حياتهما بسبب امرأة غريبة داعرة . . أين كنت يا كبير الشرطة؟

فقال بيومى الأرمل :

ـ الدعارة إثم سرى ونحن منهمكون فى مطاردة الشيعة والخوارج!

ـ لا . . لا . . إنك عين الشريعة . . حقق مع المرأة . . صادر مالها الحرام، استدرك ما فاتك قبل أن تسأل أمام السلطان . .

١١

وقف بيومى الأرمل بين نخبة من رجاله فى بهو الاستقبال بالدار الحمراء ينظر فيما حوله ويتعجب . . ترى هل تفوق سراى السلطان هذه الدار فى شىء؟! وجاءت المرأة مقنعة الوجه، محتشمة الجسد . .

ـ أهلا بكبير الشرطة فى دارنا المتواضعة . .

فقال بخشونة :

ـ لا شك فى أنك علمت بالجريمة التى ارتكبت عند مدخل دارك؟

فقالت بتأثر :

ـ لا تذكرنى بها فلم يغمض لى جفن منذ ارتكابها . .

فقال بحدة :

ـ لا أصدق كلمة مما تزورين ، أجيبى عن أسئلتى بالصدق ، ما اسمك؟

ـ أنيس الجليس . .

ـ اسم مريب ، من أى البلاد جئت؟

ـ أمى من الهند وأبى من فارس وزوجى من الأندلس !

ـ متزوجة؟

ـ نعم ، وقد تلقيت من زوجى رسالة ينبئنى فيها بقرب قدومه . .

ـ أتمارسين الدعارة بعلمه؟

ـ أعوذ بالله ، إنى امرأة شريفة . .

فهز رأسه ساخرا :

ـ وما شأن الرجال الذين يترددون عليك؟

ـ أصدقاء من سادة البلد ممن يطيب لهم الحديث فى الشريعة والأدب . .

ـ عليك اللعنة ، ألذلك أفلسوا وتقاتلوا؟

ـ إنهم كرماء ولا ذنب لى ، وما كان يصح فى آدابنا أن أرفض هداياهم ، ولا أدرى كيف اندس الشيطان بينهم . .

فقال بنفاد صبر :

ـ لدى أمر بمصادرة مالك الحرام . .

أشار إلى رجاله فانتشروا فى الدار ينقبون عن الحلى والجواهر والنقود . . فى أثناء ذلك لبثا وحيدين صامتين . . خطف من نقابها نظرات مستطلعة بلا ثمرة . أما هى فلم تجزع . . استسلمت للقدر أو هكذا بدت ، ثم تساءلت فى عتاب :

ـ هل أعيش بعد اليوم من بيع أثاث دارى؟

رفع منكبيه استهانة فأزاحت النقاب عن وجهها قائلة :

ـ معذرة ، حر الصيف لا يطاق . .

نظر بيومى فصعق . . لم يصدق عينيه ولكنه صعق . . التصق بصره بوجهها فلم

يستطع أن يسترده . . سبح فى بحر الجنون المتلاطم . . فقد القوة والوظيفة والأمل . . دفن كبير الشرطة بيديه فانبعث من قبره مائة عفريت وعفريت . . دفعته آلاف الأيدى فكاد يتهاوى لولا سماعه عربدة أعوانه فى الحجرات . . الرقباء والعيون قادمون، أما بيومى الأرمل فقد ضاع إلى الأبد . . وعادت تقول متوسلة :

ـ أسألك المروءة يا كبير الشرطة . .

أراد أن يجيب إجابة خشنة تناسب المقام . . أراد أن يجيب إجابة ناعمة تناسب المقام . . لكنه غرق فى الصمت . .

١٢

عند منتصف الليل فقد صبره فطار مستخفيا إلى الدار الحمراء . . مثل بين يديها مستسلما وهو يقول لنفسه : «إنها القدر الذى لا ينفع معه حذر ولا يتفع لديه بمثال» . . تجاهلت حاله وقالت بأسى :

ـ لم يبق لدى ما تصادره يا كبير الشرطة . .

فقال بذل :

ـ لقد قمت بواجبى ولكن ثمة جانبا للرحمة . .

ورمى عند قدميها بدرة مكتنزة . . ابتسمت بعذوبة، وتمتمت :

ـ يا لك من رجل شهم!

ركع على ركبتيه فى خشوع، أحاط ساقيها بذراعيه، ثم سجد لاثما قدميها . .

١٣

تصاعدت أنات شكوى من مستحقى بيت المال، وتهامس كتاب البيت بأن المال لا يصرف فى وجوهه الشرعية كما أمر الزينى . . وبلغت الأنباء الحاكم فبث العيون وشدد المراقبة . . وكلف كاتم سره الفضل بن خاقان وحاجبه المعين بن ساوى بالتحقيق السرى . . وقرر أخيرا استدعاء كبير الشرطة بيومى الأرمل وقذف فى وجهه بالبيانات الصادقة . . بدا الرجل مستسلما وغير مبال فعجب لشأنه وسأله :

ـ أرى فيك شخصا آخر لم أعهده من قبل؟

فقال الرجل بأسى :

ـ تقوض البناء القديم يا مولاى . .

ـ ما تصورت أن تغتال أموال المسلمين . .

فقال بالنبرة نفسها :

ـ اغتاله المجنون الذى حل فى . .

وحوكم بيومى الأرمل فضرب عنقه . . حل محله المعين بن ساوى . . صودرت أموال أنيس الجليس مرة أخرى . . ولزم حارس بابها ليمنع أى رجل من الدخول . .

١٤

ورفع أمرها إلى المفتى ، ولكنه أفتى بأنه لم تقم بينة شرعية على فسقها ، وكان المعين بن ساوى يمارس عمله فى مقر الشرطة عندما استأذنت امرأة فى مقابلته . . نظر إلى نقابها الكثيف بلا مبالاة وسألها :

ـ من أنت وماذا تريدين؟

فأجابت بعصبية :

ـ أنا أنيس الجليس المظلومة . .

فانتبه الرجل إليها باهتمام وسألها بخشونة :

ـ ماذا تريدين؟

فأزاحت النقاب عن وجهها وقالت :

ـ صادرتم مالى ، أصبحت مستحقة للصدقة والزكاة فاكتبنى عندك ضمن المستحقات . .

لم يفقه معنى كلمة مما قالت . . نسى أشياء لا تحصى كما نسى نفسه . . عبثا حاول أن يستمد من ضميره قوة . . زلت قدمه فتردى فى الهاوية . . سمع صوتها يتردد مرة أخرى دون أن يفقه له معنى . . أخيراً سألها وهو يلهث :

ـ ماذا قلت؟

فقالت متجاهلة حاله :

ـ اكتبنى عندك فى المستحقات للزكاة والصدقة . .

تساءل وهو يلقى بتاريخه من النافذة :

ـ متى أبعث لك بحاجتك؟

فقالت بدلال :

ـ سأنتظرك عقب صلاة العصر . .

١٥

اشتعلت نشاطا ومقدرة . . قالت إنه يوم الفصل والنصر . . ضحكت طويلا كما ضحك سخربوط . . وفى الحال قصدت كاتم السر الفضل بن خاقان . . تكررت اللعبة والمأساة . . ضربت له موعدا عقب صلاة المغرب . . أما سليمان الزينى فكان موعده عقب صلاة العشاء . . نور الدين عاشق الروح وعديل السلطان وافق على الذهاب بعد العشاء بساعتين وقد حرر لها رقعة لمقابلة الوزير دندان وأخرى للقاء السلطان شهريار بحجة أن تظفر بالعدل والإنصاف عند أى منهما . . هوى الرجال جميعا وتطلع كل إلى موعده وقد فقد رشده . . حتى دندان وشهريار!

١٦

فى موعده جاء المعين بن ساوى بدقة فلكية تعكس عيناه معاناة عاشق قديم . . رمى بالبدرة فى خفة طفل سعيد ، لم ير من الوجود الفخم إلا كوكبه الساطع ، وثمل بالنشوة حتى استقر عند قدميها . . ليس فى الجلسة إلا بروق الوعود السعيدة المحتدمة ولا مكان بها للعواقب . . شرب من يد العبد تارة ومن يدها أخرى وتمادى فى أفانين الهوى حتى تجرد من ثيابه فارتد للعصر البدائى . . وهو يندفع بها نحو الفراش اندفع العبد داخلا مهرولا وانكب على أذنيها فأسر إليها بسر خطير كما بدا . . وثبت واقفة ، أسدلت على جسدها البض طيلسانها وهمست محمومة :

ـ زوجى وصل . .

أفاق الرجل من سكرته بضربة قاضية فشدته من يده إلى حجرة جانبية ، ثم أدخلته فى صوان ، أغلقته بإحكام ، وهى تقول من خلال رجفة الاضطراب والذعر :

ـ ستذهب بأمان فى الوقت المناسب . .

فهتف الرجل :

ـ إلىَّ بثيابى . .

فقالت وهى تبتعد :

ـ إنها فى الحفظ والصون، اصمت، لا صوت ولا حركة وإلا هلكنا!

١٧

تتابعت الرجال . . الفضل بن خاقان . . سليمان الزينى . . نور الدين . . دندان، شهريار . . استسلموا للنداء الآسر، ثملوا بالنشوات المعربدة، ثم سيقوا عرايا إلى الأصونة، وترامى إليهم صوت أنيس الجليس وهى تضحك ساخرة فأدركوا أنهم وقعوا فى شرك محكم . . قالت :

ـ غدا فى السوق سأعرض الأصونة للمزاد بما فيها . .

وضحكت مرة أخرى وواصلت :

ـ سوف يشاهد شعب السوق سلطانه ورجال دولته وهم يباعون عرايا . . !

١٨

ولما رجعت إلى البهو رأت أمامها «المجنون» واقفا فى هدوء . . انزعجت مرتجفة . . ماذا جاء به؟ كيف اقتحم دارها؟ هل سمع حديثها للرجال؟

سألته :

ـ كيف دخلت دارى بلا دعوة ولا استئذان؟

فقال بهدوئه :

ـ رأيت الرجال يتتابعون فثار شوقى للمعرفة . .

صفقت بيديها منادية العبد فأدرك ما تريد، فقال :

ـ لقد ذهب!

فسألته غاضبة :

ـ إلى أين؟

ـ دعينا منه وأكرمى ضيفك . .

بدا مفروق الشعر مسترسله، غزير اللحية، حافى القدمين فى جلباب أبيض فضفاض ينبعث من طوقه شعر صدره. . أتوقعه فى شراكها؟ أقبلت ولكن فى فتور. . لأول مرة لا يحدث وجهها أثره. . إنه فتنة ولكن للعقلاء لا المجانين. . اقتربت من المائدة متثنية وقالت:

ـ إن كنت تريد طعاما فكل. .

فقال بازدراء:

ـ لست متسولا.

فتساءلت مدافعة اليأس:

ـ إليك الشراب. .

ـ رأسى ملىء بالدنان!

ـ لا يبدو عليك سكر. .

ـ ما أنت إلا عمياء. .

فقطبت مستوحشة، وسألته:

ـ ماذا تريد؟

فسألها بدوره:

ـ كيف تعيشين فى قصر مهجور خال من وسائل الحياة كافة ؟

فنظرت فيما حولها بقلب منقبض وتساءلت:

ـ ألا يعجبك هذا الجمال كله؟

ـ لا أرى إلا جدرانا تتردد بينها أنفاس الوباء القديم. .

جاء دورها لتتعرى كالآخرين. . استسلمت ضعيفة أمام جنونه المقتحم. . انهزم الإغراء كما انهزم التمويه. . ولته ظهرها لتفكر. . تحركت شفتاه بتلاوة خفيفة. . لم تسعفها المقاومة اليائسة. . وزحف عليها ما يشبه النوم الثقيل. . تراخت أعصابها. . تركت تيار التغير يتدفق. . مضت قسمات وجهها تذوب وتنداح فصارت عجينة متورمة. . تقوضت القامة الفارهة وطارت منها الملاحة والرشاقة. . بسرعة عجيبة لم يبق منها إلا نقاط منفصلة. . استحالت دخانا ثم تلاشت غير تاركة أى أثر. . فى أعقابها اندثرت الأرائك والوسائد والأبسطة والتحف. . انطفأت القناديل. . فنيت، فساد الظلام. . حمل ركام ثياب الرجال فقذف بها من نافذة ومضى نحو حجرة الأصونة. .

١٩

قال المجنون يخاطب من فى الأصونة :

ـ لن أعفيكم من العقاب ، ولكنى اخترت لكم عقابا ينفعكم ولا يضر العباد . .

فتح الأقفال بسرعة ثم غادر المكان . .

٢٠

تسلل الرجال من الأصونة فى حذر وإعياء يترنحون من الإرهاق . . لم يفتح أحد منهم فاه من القهر والخجل . . عراة الأجساد عراة الكرامة يتخبطون فى الظلام . . يفتشون عن ملابسهم ، عن أى ملابس عن أى شىء يستر العورة . . الوقت يمضى لا يرحم والنور يقترب والفضيحة تومض فى الظلام . . جالوا فى الظلام يستكشفون المكان بأذرعهم الممدودة . . لا أثر لشىء . . لا أثر لحياة . . وهْم أو كابوس . أما الفضيحة فحقيقة . . إنه الذل واليأس . . واسترشدوا بالجدران نحو الباب الخارجى ودبيب الزمن يتلاحق خلفهم . . وما إن تنفسوا هواء الطريق حتى تشهدوا وبعضهم بكى . . المدينة خالية . . فرصة وأى فرصة . . انطلقوا حفاة عرايا فى ظلمة الليل . . بصقهم المجد وعلاهم الخزى ، وكسا الإثم وجوههم بطبقة من القصدير المذاب . .

قوت القلوب

١

كان المجنون يترنم بأوراد الفجر فى مطلع الخريف عندما تناهى إليه تحت النخلة صوت ساكن الماء مناديا . . هرع إلى حافة النهر وهو يقول :

ـ أهلا بأخى عبد الله البحرى . .

فقال الصوت :

ـ إنى أعجب لشأنك . .

ـ لماذا؟

ـ طالما قتلت المنحرف لانحرافه، فما بالك تجنب الآثمين الفضيحة؟

فقال المجنون بأسى :

ـ أشفقت أن يصبح الصباح فلا تجد الرعية سلطانا ولا وزيرا ولا حاكما ولا كاتم سر ولا رجل الأمن فيأخذها أقوى الأشرار . .

ـ وهل أجْدَتْ حكمتك؟

ـ أراهم يعملون وقد ملأ الحياء قلوبهم وقد خبروا ضعف الإنسان . .

فهمس عبد الله البحرى :

ـ فى مملكتنا المائية نجعل الحياء شرطا ضمن شروط عشرة يجب أن تتوافر فى حكامنا . .

فقال المجنون متنهدا :

ـ ويل للناس من حاكم لا حياء له . .

٢

تأخر الوقت برجب الحمال خارج البوابة . . ولدى عودته فى الظلام رأى أشباحا تفتح مدفنا وتدخله . . وعجب لما يدعوهم لذلك قبيل الفجر فأغراه قلبه باقتحام لغز غير يسير . . وما لبث أن تسلق السور فانبطح على بطنه وراح ينظر نحو الفناء على ضوء شمعة خافت أمسك بها شبح . . رأى نفرا من العبيد تفتح قبرا منعزلا كأنما أعد للخدم، ثم رآهم يحملون صندوقا فيودعونه القبر ويهيلون عليه التراب . . انتظر حتى فارقوا المكان . . فكر أيضا فى الذهاب ولكن الصندوق ألح عليه . . ماذا يحوى؟ ولماذا دفنوه فى هذه الساعة المتأخرة؟ ولم تعفه نفسه من المتاعب فوثب إلى الفناء . . وبهمة وإصرار فتح القبر واستخرج الصندوق . . ولولا قوته وتمرسه بحمل الأحمال ما استطاع أن يفعل . . وعالج الصندوق حتى فتحه وأشعل شمعة يحتفظ بها فى رحلاته، وألقى نظرة فارتعد إشفاقا ورعبا . . ثمة جارية كالبدر فى تمامه مكشوفة الوجه، فى ثوب لا كفن، ميتة ولا شك ولكنها تبدو كنائمة . . أدرك أن ملابسات الدفن تومئ إلى جريمة ما . . كما أدرك أنه ورط نفسه فى مأزق ما كان أغناه عنه . . وفى الحال توثب للفرار دون أن يفكر فى إعادة الصندوق إلى قبره أو إغلاقه . .

٣

وعندما وثب إلى الخلاء وجد أمامه شبحا فتقلص قلبه، ولكنه سمع صوت المعلم سحلول تاجر المزادات يتساءل:

ـ من هنا؟

فأجاب مخفيا ارتباكه ما استطاع:

ـ رجب الحمال يا معلم سحلول . .

فسأله ضاحكا:

ـ ماذا كنت تفعل فى الداخل؟

فأجابه على البداهة:

ـ ربنا أمر بالستر يا معلم . .

أراد أن يوحى إليه بأن وراء السور امرأة فضحك سحلول وتساءل متهكما:

ـ ألا يوجد فى هذه المدينة رجل فاضل؟!

٤

استعبده الخوف . . لم يعرف من قبل المآزق الخطيرة . . لاح له النطع كمصير مظلم . . صلى الفجر بجسده، أما عقله فاستأثرت به الوساوس . . سوف تكتشف الجثة . . يشهد سحلول برؤيته وهو يثب من فوق سور المدفن . . وهو الحمال المرشح لحمل الصندوق . . فإما الهروب وإما الاعتراف بالحقيقة قبل أن تكتشف . . وهو مرتبط بالأهل والأرض . . ليس كقرينه السندباد الغائب فى البحر . . وهو أيضا ممن يعطف عليهم الساوى بن معين كبير الشرطة . . فليقصده وليعترف بين يديه بكل شىء . .

٥

عقب الصلاة عزم على لقاء المعين بن ساوى ولكنه رآه مسرعا فوق بغلته وبين حرسه . . تبعه على الأثر فوجده ماضيا نحو دار الزينى ينتظر منصرفه . وكان سليمان كبير الشرطة ثائرا، وكانت داره تعانى اضطرابا شاملا . . لقى الحاكم كبير الشرطة ساخطا وقال له بغضب :

ـ ما هذا الذى جرى فى دار الإمارة؟ هل رجعنا إلى أيام الفوضى؟

فوجم المعين وسأل عما جرى، فقال الحاكم :

ـ جاريتى قوت القلوب لا أثر لها كأن الأرض ابتلعتها . .

فذهل المعين وتساءل :

ـ متى حدث ذلك؟

ـ رأيتها أمس والآن لا وجود لها . .

ـ ماذا قال أهل الدار؟

ـ يتساءلون مثلى وقد ركبهم الخوف . .

تفكر المعين قليلا ، ثم قال :

ـ لعلها هربت!

فاحتقن وجه سليمان الزينى بدم أسود وصاح :

ـ كانت أسعد الجوارى ، عليك بالعثور عليها . .

نطق بها بثورة وعيد واضحة . .

٦

أمام باب الدار وجد رجب الحمال فى انتظاره . . تقدم منه حانى الرأس وقال :

ـ مولاى . . لدى ما أقوله . .

فقاطعه بحدة :

ـ اغرب عن وجهى . . أهذا وقت كلام يا غبى؟

فقال الحمال بإلحاح :

ـ حلمك يا سيدى . . إنها جريمة قتل . . الجثة خارج البوابة . والتأجيل حرام . .

انتبه الرجل إلى قوله متسائلا :

ـ أى جريمة؟ . . وما دخلك فيها؟

فقص عليه القصة بسرعة ولهوجة والآخر يتابعه باهتمام متزايد . .

٧

مع أول شعاع للنور حمل الصندوق إلى بهو دار الإمارة . . أحدق به سليمان الزينى والمعين بن ساوى ورجب الحمال . . قال كبير الشرطة بحزن :

ـ اهتديت إلى مكان قوت القلوب وجئت بها ولكنها للأسف جثة هامدة!

ارتجف سليمان الزينى رغم رزانته تحت ضغط عواطفه . . فتح المعين ابن ساوى الصندوق . . انحنى فوقه الزينى بوجه يطفح بالحزن مغمغما : «إنا لله وإنا إليه راجعون» . . أغلق المعين الصندوق وهو يتمتم :

ـ أطال الله بقاءك وهوَّن من أحزانك . .

صاح سليمان :

ـ الويل للمجرم . . اكشف لى الأسرار التى أطاحت بسعادتى . .

ـ مولاى . . ما زال اللغز لغزا . . كيف غادرت الدار؟ أين قتلت؟ من قتلها؟ إليك يا مولاى شهادة تطوع بها هذا الحمال . .

وروى له الشهادة ، فرمى الزينى رجب بنظرات من نار ، وقال له :

ـ أيها القذر ، أنت أنت القاتل أو عنده خبره!

فهتف الحمال مرتعدا :

ـ ورب السماوات والأرض ما أخفيت عنكم كلمة واحدة .

ـ اخترعت أسطورة تتستر بها على فعلتك . .

ـ لولا صدقى ما ذهبت بنفسى إلى كبير الشرطة معترفا بما شاهدت . .

غير أن المعين بن ساوى فاجأه بما لا يتوقع قائلا :

ـ فى هذا كذبت يا رجل . . (ثم متلفتا إلى الحاكم) . . لقد قبض عليه فى مكان الجريمة . .

فذهل رجب . . لم يصدق أذنيه . . سأله :

ـ ماذا قلت؟

فكرر الرجل :

ـ لقد قبض عليك ولم تجئ بنفسك . .

ـ أنت تقول ذلك؟

فقال بازدراء مصطنع :

ـ الواجب فوق الرحمة .

فصرخ فى وجهه :

ـ لن تفلت من الله يا مفترى .

فقال له الزينى :

ـ اعترف وجنب نفسك أهوال التعذيب . .

فقال رجب بيأس :

ـ كبير الشرطة كذاب . . لا علم لى بشىء سوى ما قلت .

وتذكر الواقعة الوحيدة التى أخفاها فواصل :

ـ أحضروا المعلم سحلول تاجر المزادات فقد رأيته قريبا من المدفن .

٨

جىء بالمعلم سحلول . . لم يتغير شىء من هدوئه المألوف . . سئل عما دعاه للوجود قرب المدفن فى تلك الساعة من الليل فقال :

ـ تستوى جميع الأمكنة والأزمنة عندى بحكم عملى . .

وقص عليهم حكاية ضبطه مصادفة لرجب وهو يثب من فوق السور . . فسأله المعين :

ـ أتعتقد أنه القاتل؟

فقال بهدوء :

ـ لا بينة لدى ، ثم إنه لا يوجد قاتل بلا قتيل فأين القتيل؟

ـ فى هذا الصندوق . .

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ دعوني أره . .

فتح المعين الصندوق ونظر سحلول إلى الجثة مليا، ثم قال :

ـ الجارية مازالت تنبض بالحياة . .

ترقرق الأمل في عيني الزيني ورجب على حين صاح به المعين :

ـ أتسخر منا يا مجرم؟!

فقال مخاطبا الزيني :

ـ أسرع بإحضار طبيب وإلا ضاعت الفرصة . .

٩

جاء الطبيب عبد القادر المهيني وفي الحال عكف على فحص «الجثة» . . رفع رأسه وقال :

ـ ما زالت حية!

ندت عن الزيني آهة سرور على حين اصفر وجه المعين بن ساوي حتى حاكى وجوه الموتى . . وواصل عبد القادر :

ـ دس لها قدر من البنج يكفي لقتل فيل!

وراح يعالجها حتى لفظت ما في بطنها وحركت رأسها . . صاح الحمال :

ـ الحمد لله رب المظلومين . .

وقال سحلول وهو يختلس من كبير الشرطة نظرة خفية :

ـ سوف تكشف لنا سر الحكاية . .

١٠

مدة مشحونة بالصمت والانفعالات حتى عادت قوت القلوب إلى وعيها . . رأت وجه الزيني أول ما رأت فمدت له يدها مستغيثة، فقال برقة :

ـ لا تخشى شيئا يا قوت . .

فهمست :

ـ إنى خائفة . .

ـ إنك بين أحضان الأمان فابتسمى . .

لمحت المعين بن ساوى فاضطربت هاتفة :

ـ هذا الوحش . .

ساد صمت مذهل . . قالت :

ـ لا أدرى كيف أخذنى إلى دار خالية ، هددنى بالقتل إذا لم أذعن لرغباته الدنيئة ، ثم لم أعد أدرى شيئا حتى الساعة . .

تركزت الأعين فوق كبير الشرطة . . صاح الزينى :

ـ أيها الكلب الخائن . .

جرده من سيفه وخنجره وهو يقول :

ـ ما أسرع أن يدب الفساد من جديد!

وأمر بسجنه حتى يحقق معه بنفسه ، على حين أعلن براءة الحمال وتاجر المزادات ، واستبقى المعلم سحلول قليلا ، فقال له :

ـ إنى مدين لك بالكثير يا معلم سحلول ، ولكن خبرنى ألك خبرة بالطب؟

فأجاب باسما :

ـ كلا يا مولاى ، ولكن لى خبرة بالموت!

١١

قال سليمان الزينى للمعين بن ساوى :

ـ ما تصورتك خائنا قط ، وظننت أن المحنة التى وقعنا فيها جميعا قد طهرتنا وأن حياتنا ستقوم على العدل والنقاء ، وإذا بك تخون الأمانة وتستهين بالكرامة وتتمادى فى الفسق والجريمة . .

فقال المعين :

ـ لا أنكر شيئا مما تقول . لقد أعلنا توبة ، ولكن الشيطان لم يتب بعد . .

ـ لا عذر لك ولأجعلن منك عبرة لكل معتبر . .

ـ مهلا . . لست صيدا سهلا ، والشر انبثق من دارك .

ـ عليك اللعنة . .

فقال بهدوء :

ـ لى شريك هى الست جميلة زوجتك .

ارتجف الرجل غاضبا وصاح :

ـ ماذا قلت؟

ـ دعتنى بدافع الغيرة وأغرتنى بالتخلص من جاريتك المفضلة قوت القلوب . .

ـ خائن ومفتر . .

ـ يجدر بك أن تحقق مع زوجتك أولا . .

ـ زعم باطل لن ينجيك من النطع . .

فقال الرجل بتحد :

ـ سأطالب بتحقيق عادل ، وسيجرى على ما يجرى عليها . . فالشريعة فوق الجميع .

١٢

ما بين يوم وليلة شاخ سليمان الزينى وتهدم . . ولم يتوان فقرر ست جميلة حتى أقرت بتدبيرها . . تصدى للحقيقة بحيرة بالغة . . إعلان الحقيقة يعنى القضاء على أم أولاده كما يعنى القضاء على مركزه . . والحق واضح ولكن تبين له أنه أضعف من أن يتخذ القرار الحق . . وجد نفسه منحدرا إلى العفو عن الاثنين ؛ كى تبقى جميلة فى داره كما يبقى المعين فى وظيفته . . واتخذ القرار المتهالك وفقد شرفه . .

غير أن قوت القلوب صارحته بأنه لا بقاء لها فى داره بعد اليوم ، ولا أمان لها فيها . . فاضطر إلى عتقها وتزويدها بالمال ، وتركها تذهب آخذة معها قلبه .

١٣

خفقت قلوب بالأسى . . تناجى قمقام وسنجام ، المجنون وعبد الله البحرى . . حزنوا لسقوط التائبين . . أما قوت القلوب فعاشت وحيدة فى دار جميلة عاشت فى أمان من الحاجة ولكن فى غشاء من الوحشة . . ومع أن سيدها استجاب لطلبها وأكرمها ولكنها لم تعفه من الملامة لتفريطه فيها ، ومرارة الوحدة تشتعل جحيما بالحب الخائب . . وسعى إليها طلاب الزواج حبا وطمعا فرفضتهم جميعا . . رفضت حسن العطار كما

رفضت جليل البزاز . . ورغب فيها آخرون عن بعد كالمعين بن ساوى ، وتساءل رجب الحمال أليس من حق من أحيا ميتا أن يملكه؟

١٤

ووقعت أحداث بسيطة لم ترمش لها أعين المدينة ولكنها هزت أفئدة أصحابها . . تزوج إبراهيم السقاء من ست رسمية أرملة جمصة البلطى . . وعرض بيت المال دار جمصة البلطى للبيع فأمر سليمان الزينى بدفن رأس جمصة فى مقابر الصدقة . . ولم يفت المجنون أن يشهد دفن رأسه ، وقال لنفسه : «إنه أول إنسان يشيع نفسه إلى دار البقاء» ، وسعد بزواج أرملته من إبراهيم السقاء ؛ لأن وحدتها أمست تنغص عليه صفوه . . وثقل على المعين بن ساوى الشعور بالنبذ فبدأ صفحة جديدة فى التعاون المريب مع التجار والأغنياء . . وأمطرت السماء فى ذلك الخريف على غير عادة . .

١٥

وكان ثلاثة أشباح يخترقون الظلمة صامتين . . وتحت دار قوت القلوب نادتهم أوتار عود وصوت شجى تهادى إليهم يناجى رطوبة الخريف :

من عادة الدهر إدبار وإقبال . .

فما يدوم له بين الورى حال

كم أحمل الضيم والأهوال يا أسفى

من عيشة كلها ضيم وأهوال

ثقلت خطاهم حتى توقفت ، وهمس أحدهم :

ـ هذا مطلبنا يا دندان!

طرق شبيب رامة السياف الباب ففتحت جارية تسأل عن الطارق .

فقال شهريار :

ـ دراويش من رجال الله ينشدون مؤانسة شريفة . .

غابت الجارية قليلا ، ثم رجعت فقادتهم إلى حجرة استقبال ناعمة الوسائد والمفارش قد أسدل على ديوانها الرئيسى ستار يحجب صاحبة الدار . . تساءلت قوت القلوب :

ـ تريدون طعاما؟

فقال شهريار :

ـ بل نريد مزيدا من غناء . .

فكررت الصوت على مقام جديد حتى سبح الرجال فى طرب رائق . . وقال شهريار :

ـ أأنت مغنية يا هذه؟

فهمست :

ـ كلا يا رجال الله .

فقال السلطان :

ـ صوتك ينطق بحزن دفين .

ـ وأى حى يخلو من حزن؟

فتساءل برقة :

ـ ماذا يحزنك ودارك ناطقة بالنعيم؟

فلاذت بالصمت ، فعاد شهريار يقول :

ـ احكى لنا حكاياتك فصاعتنا فى الحياة مداواة القلوب الكليمة .

فشكرته ثم قالت :

ـ سرى لا يباح يا رجال الله .

وأصرت على الصمت فاستأذنوا فى الانصراف والسلطان ضيق الصدر بصمتها . . ومال على أذن دندان قائلا :

ـ آتنى بسر هذه المرأة الصامتة .

١٦

مطالب السلطان جبال ثقال لا تنزاح عن كاهله حتى يحققها ، وهو أعلم بغضبه إذا خاب له مطلب ، وما زال السلطان متأرجحا بين الهدى والضلال فلا تؤمن غضبته . . لذلك استدعى حاكم الحى سليمان الزينى . . وصف له موقع دار قوت القلوب وقال :

ـ فى الدار امرأة غامضة ذات صوت عذب وهم خفى ، يريد مولانا السلطان فؤادها صفحة مبسوطة لا خفاء فيها . .

زلزلت نفس الزينى وأدرك أنه مسوق إلى الاعتراف . . سيتحرى دندان عن الحقيقة

لدى كل من يأنس عنده قدرة على كشف الأسرار من الرجال وعلى رأسهم الفضل بن خاقان . . ستهدى إليه الحقيقة عاجلا أو آجلا فليكن على الأقل صاحب الفضل فى الاعتراف تقربا من السلطان . . وهو ذو خلق فلم يطمئن قلبه لحظة بتصرفه ويفضل التكفير عنه بأى سبيل . .

وأفضى إلى الوزير دندان بمكنون سره . .

١٧

ولما تلقى شهريار الحقيقة من وزيره غضب وهتف :

ـ لا بد من ضرب عنقى المعين وجميلة زوجة الزينى . .

غير أن غضبه فتر فجأة . . لعله تذكر هروبه ليلا عاريا والإثم يطارده . ولعله تذكر أن الزينى والمعين كانا من خيرة الرجال . على أنه فصل الرجلين من عملهما ، وصادر أموالهما ، كما أمر بجلد جميلة والمعين . . ووهب قوت القلوب عشرة آلاف دينار ، وسألها بعطف :

ـ ماذا تطلبين أيضا يا جارية؟

فقالت قوت القلوب :

ـ أسألك يا مولاى العفو عن سبيل الزينى . .

فتبسم السلطان وسألها :

ـ يبدو أنك ما زلت تحبينه . .

فغضت بصرها حياء ، ولكنه قال بحزم :

ـ لقد صدر أمرنا بتولية الرجال الجدد ولا رجوع فيه ، بذلك يصبح الفضل بن خاقان حاكما ، وهيكل الزعفرانى كاتم سر ودرويش عمران كبيرا للشرطة . .

فشفت عيناها عن دمع يود أن ينطلق ، فقال شهريار :

ـ بيدك أنت أن تعفى عنه ولعلك خير له من الإمارة!

فلثمت موطئ قدميه وهمت بالانصراف فسألها :

ـ ماذا نويت يا جارية؟

فأجابت ببساطة وبعينين مغرورقتين :

ـ العفو يا مولاى . .

علاء الدين أبو الشامات

١

هتف جمصة البلطى فى هدأة الليل تحت النخلة: «اللهم حررنى من أمس.. اللهم حررنى من غد»..

وإذا بصوت سنجام يقول له:

ـ نحن نحب ما تحب ولكن بيننا وبين الناس حاجز من المقادير.

ولعلعت ضحكة زرمباحة، ثم قالت:

ـ لماذا خلق الشهد والخمر؟

وكان شهريار ماضيا فى جولاته الليلية مع رجليه، فقال لدندان:

ـ تمر بى هواتف متلاحقة، ولكنى دائر الرأس فى مقام الحيرة.

٢

نحيل القوام، مشرق الوجه، ناعس الطرف، فوق كل خد شامة يهم بولوج المراهقة فى حياء.. رمقه عجر الحلاق وقال:

ـ تعلمت ما أنت فى حاجة إليه، فخذ العدة وأسرح والله يرزقك.

وتمتمت فتوحة:

ـ ربنا يكفيك شر أولاد الحرام..

وذهب الفتى نشطيا مستبشرا فقال عجر وكأنما يخاطب نفسه:

ـ له جمال نور الدين فاللهم أسبغ عليه حظه..

فقالت فتوحة:

ـ حجابى فوق صدره يصده عن طريق أبيه..

فرماها عجر بنظرة سامة ولكنه لم ينبس..

٣

مضى يعمل فى الطريق والدكاكين وكل من تقع عليه عيناه يقول :

ـ تبارك الخلاق العظيم . .

واختار سلم السبيل ساعة الراحة فنشأت مودة سريعة بينه وبين فاضل صنعان بياع الحلاوة . . ومرة دعاه إلى مسكنه بالربع فرأى زوجته أكرمان وأمه أم السعد وأخته حسنية . . تحركت مراهقته خفية فارتطمت بورعه وتربيته الدينية التى تلقاها فى الكُتَّاب فجعل يعتل بالعلل كلما دعاه فاضل إلى مسكنه . . ولمس فاضل ورعه فقال له :

ـ إنك فتى جدير بكلمات الله المستكنة فى قلبك . .

فغمغم علاء الدين :

ـ إنه من فضل ربى . .

فسأله بحذر :

ـ ما شعورك عندما ترى المعاصى تجتاح الناس؟

فتمتم :

ـ الحزن والأسف . .

ـ وما جدوى ذلك؟

فتبدت الحيرة فى عينيه وتساءل :

ـ ماذا تريد أيضا؟

ـ الغضب!

وكررها ثم قال :

ـ المرعى الطيب جدير بالأسد . .

٤

أشرق الحى بمولد سيد الوراق . . زحفت المواكب، وتلاطمت الأعلام، وتجاوبت الدفوف والمزامير . . اجتمع أهل الخير وأهل النفاق حول جفان الثريد . . ولاح فى

مجالس الخاصة سحلول وحسن العطار وجليل البزاز وسليمان الزينى والمعين بن ساوى وشملول الأحدب، وتواجد أيضا فاضل صنعان وعجر الحلاق ومعروف الإسكافى وإبراهيم السقاء ورجب الحمال. . جاء أيضا ـ بمفرده لأول مرة ـ علاء الدين أبو الشامات. . أجلسه فاضل إلى جانبه وهو يقول:

ـ لو بعث الوراق لامتشق السيف!

ابتسم علاء الدين ابتسامة من يزداد خبرة بمعرفة صاحبه. . فقال فاضل بنبرة ذات مغزى:

ـ مادام الطيبون لا يمتشقون السيوف!

قال علاء الدين ببراءة:

ـ يتحدثون كثيرا عن توبة مولانا السلطان. .

فقال فاضل بسخرية:

ـ أحيانا يتوب عن توبته، ويقينا أنه ليس أحق المسلمين بالولاية!

انجذبت عينا علاء الدين نحو الركن الأيمن فهجر حديث صاحبه ولو إلى حين. . ثمة شيخ نحيل بهيج الوجه ذو نظرة آسرة. . خُيِّل إليه أنه لم ينظر نحوه مصادفة. . وجد عينى الشيخ فى انتظاره. . ثمة دعوة خفية من هناك واستجابة من هنا. . ارتاح إليه كما يرتاح السليم إلى بهجة الوردة المتفتحة. . ولاحظ فاضل انصرافه عن حديثه إلى الشيخ، فقال له:

ـ الشيخ عبد الله البلخى رأس الولاية. .

فتساءل علاء الدين بأريحية:

ـ لماذا ينظر إلىَّ؟

فقال فاضل بغموض:

ـ ولماذا تنظر إليه؟

فهمس:

ـ الحق أنى أحببته. .

فقطب فاضل ولم يجد ما يقوله.

٥

غادر علاء الدين المولد وحده مترع الصدر بأصداء الأناشيد . . سبح فى الظلام تحت ضوء النجوم الخافت ونسمة الخريف تلاطفه . . إذا بصوت عميق مؤثر يدركه مناديا :

ـ يا علاء الدين . .

فتوقف وقلبه يناجيه أن هذا الصوت من ذاك الشيخ يصدر، لحق به الشيخ وقال له :

ـ أنت مدعو لصداقتى . .

فقال بحياء :

ـ نعم الدعوة يا مولاى، ولكن كيف عرفت اسمى؟

فلم يجبه وواصل :

ـ دارى معروفة لمن يريد . .

فقال كالمعتذر :

ـ عملى يستغرق نهارى كله . .

ـ إنك لا تدرى ما عملك . .

ـ لكنى حلاق يا سيدى . .

فلم يحفل بإجابته وسأله :

ـ لماذا حضرت مولد الوراق؟

ـ أحب الموالد من صغرى . .

ـ ماذا تعرف عن الوراق؟

ـ إنه ولى من الصالحين . .

ـ إليك قصة رويت عن لسانه، قال : «أعطانى شيخى بعض وريقات بقصد أن أرميها فى النهر فلم يطاوعنى قلبى على هذا العمل ووضعتها فى بيتى وذهبت إليه وقلت له قد أديت أمرك. فسألنى وماذا رأيت؟ فقلت : لم أر شيئا فقال : لم تعمل بأمرى . . ارجع فارمها فى النهر فرجعت متشككا فى العلامة التى وعدنى بها، ورميتها فى النهر فانشق الماء وظهر صندوق وفتح غطاؤه حتى سقطت الوريقات فيه فقفل والتقت المياه. فرجعت إليه وأخبرته بما حصل فقال لى : الآن رميتها فسألته أن يبين

لى سر ذلك فقال: قد كتبت كتابا فى التصوف لا يمكن أن يناله إلا الكمل فطلبه منى أخى الخضر وقد أمر الله المياه أن تأتيه به».

فذهل علاء الدين ولاذ بالصمت، فمضيا معا على مهل والشيخ يقول:

ـ ومن أقواله المأثورة «فساد العلماء من الغفلة، وفساد الأمراء من الظلم، وفساد الفقراء من النفاق»..

فتمتم علاء الدين منتشيا:

ـ ما أعذب حديثه!

فقال بصوت ارتفع درجة فى هدأة الليل:

ـ فلا تكن من قرناء الشياطين..

فتساءل مدفوعا بشوق ساخن:

ـ من هم قرناء الشياطين؟

فأجابه الشيخ:

ـ أمير بلا علم، وعالم بلا عفة، وفقير بلا توكل، وفساد العالم فى فسادهم..

فقال علاء الدين بحماس:

ـ أريد أن أفهم..

ـ الصبر يا علاء الدين، ماهى إلا بداية تعارف على مشهد من النجوم، ودارى معروفة لمن يريد..

٦

حلم علاء الدين تلك الليلة بأن «المجنون» جاءه بجلبابه المسدول على اللحم، وقال له:

ـ أرسل لحيتك..

فعجب لطلبه، فقال المجنون:

ـ ما هى إلا شبكة للصيد..

فقال علاء الدين:

ـ ولكنى حلاق لا صياد..

فصاح المجنون:

ـ خلق الإنسان ليكون صيادا..

٧

على طبلية الفطور حكى لوالديه حكاية الشيخ عبد الله البلخى ففرحت فتوحة وقالت:

ـ بركة من ربنا..

أما عجر فاستمع إليه بفتور، وقال:

ـ ما أنت إلا حلاق، وإنك لمتدين بما فيه الكفاية فاحذر المغالاة.

وبسبب هذا الاختلاف تشاجر الزوجان وتقاذفا بكلمات قارصة.

٨

وفوق سلم السبيل راح يصغى لحديث فاضل بدهشة، ثم سأله:

ـ إنك حانق على رجالنا الأجلاء..

فسأله فاضل:

ـ هل عرفتهم عن قرب؟

ـ أحيانا يصحبنى أبى معه إلى دورهم كمساعد له، فرأيت عن قرب الفضل بن خاقان حاكم حينا وهيكل الزعفرانى كاتم السر ودرويش عمران كبير الشرطة..

ـ لا يعنى هذا أنك عرفتهم..

ـ رجال عظام، واحد فقط انقبض قلبى لمرآه هو حبظلم بظاظة بن درويش عمران، خُيِّل إلىَّ أن به شبها بالشيطان!

ـ هل رأيت الشيطان؟

ـ لا تسخر منى، ما هو إلا شعور..

تنهد فاضل صنعان قائلا محادثا نفسه:

ـ الأوغاد!

ـ كيف أسأت الظن بهم؟

ـ لا دخان بلا نار!

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ الله موجود . .

فهتف فاضل :

ـ لكننا ضمن أدواته التى يصنع بها الخير أو يمحق الشر !

فنظر إليه فى عينيه متسائلا :

ـ ماذا تريد يا فاضل؟

فقال بغموض :

ـ أطمع أن أجعلك صديقا وزميلا !

٩

جلس فى حجرة الاستقبال البسيطة بدار البلخى ينتظر دخوله . . إنها أول زيارة يقوم بها فى أول الليل . . وكان سمع أباه عجر يروى حكاية عن الشيخ أكربته وأحزنته . . قال إن درويش عمران كبير الشرطة خطب الابنة الوحيدة للشيخ لابنه حبظلم بظاظة . . إنها ابنة تقية نقية أخذت العهد عن أبيها ، وفائقة الجمال . . وتذكر صورة حبظلم بظاظة الشيطانية وما يقال عن سيرته فاستاء وتضاعف حزنه . . ومضى أبوه فى روايته فقال إن الشيخ شكر واعتذر ، ولكن لا شك فى أن كبير الشرطة قد غضب ، وإذا غضب كبير الشرطة فلا أمان للمغضوب عليه . . وقد سأل أباه :

ـ ألا يدرك الشيخ البلخى هذه الحقيقة؟

فأجاب عجر :

ـ معروف عن الشيخ أنه لا يخشى إلا الله ، ولكن هل يخشى كبير الشرطة الله؟ !

وجاء لزيارته بقلب ثقيل بالحزن له . . ولكنه ما كاد يراه مقبلا مشرقا حتى نسى حزنه وأدرك أنه حقّا لا يخشى إلا الله . تربع الرجل على شلتة فى الصدر وسأله :

ـ ما شعورك وأنت تزورنى لأول مرة؟

فقال علاء الدين صادقا :

ـ أشعر كما لو كنت أعرفك منذ ولدت . .

فقال باسما :

ـ لكل منا أب آخر والسعيد منا من يكتشفه . .

ـ وحديثك فى ليلة المولد أسر قلبى . .

ـ نحن نشد إلى الطريق الأكفاء الضالين ، ماذا قال أبوك؟

اضطرب علاء الدين وقال :

ـ إنه يريدنى على أن أكرس قلبى لعملى . .

فقال جادا :

ـ إنه نائم ويأبى أن يصحو ، ولكن كيف تقيم نفسك يا علاء الدين؟

لم يدر بماذا يجيب ، فسأله متبسطا :

ـ أى مسلم أنت؟

ـ إنى مسلم صادق . .

فتساءل :

ـ هل تصلى؟

ـ الحمد لله . .

ـ أرى أنك لم تصل قط . .

فنظر إليه بدهشة ، فقال الشيخ :

ـ الصلاة عندنا تؤدى بعمق فلا يشعر صاحبها بمس النار إذا أحرقته .

فصمت علاء الدين مغلوبا على أمره ، فقال الشيخ :

ـ فعليك أن تقبل الإسلام من جديد لتصير مؤمنا حقّا ، وعندما يتم لك الإيمان تبدأ الطريق من أوله إذا شئت . .

ظل علاء الدين صامتا ، فقال الشيخ :

ـ لا أهون من مشقة الطريق بمعسول الكلام فنور الخلاص ثمرة مضنون بها على غير أهلها ، والله يتقبل منك ما دون ذلك ، ولكل على قدر همته . .

وخيم الصمت حتى شقه علاء الدين متسائلا :

ـ أيقتضى ذلك أن أتخلى عن عملى؟

فأجاب بقوة :

ـ لكل شيخ طريقة ، أما أنا فلا أقبل إلا العاملين . .

فقال علاء الدين :

ـ سوف أجىء بقلبى وقدمى . .

فقال :

ـ لا تجئ إلا إذا دفعتك رغبة لا تقاوم!

١٠

أقبل على فاضل صنعان فى ملتقى السبيل شخصا جديدا . . توجس فاضل ريبة فهمس بنفاد صبر :

ـ حتى متى تتركنى فى مقام الأمل؟

فقال علاء الدين :

ـ إنى فى مقام الحيرة . .

ـ اهتديت إلى دار الشيخ؟

ـ أجل، كيف عرفت ذلك؟

ـ أعرف أثره . .

ثم مستدركا :

ـ وقد طفت به طويلا !

ـ أنت؟!

ـ نعم . .

ـ إنه شيخ طاهر . .

فحنى رأسه مسلما وهو يقول :

ـ هو ذلك وأكثر . .

ـ لعل الصبر خانك فانقطعت؟

ـ تلقيت على يديه تربية لا تزول آثارها، ولكنى آثرت البقاء على الفناء .

ـ لا أفهم يا صديقى . .

ـ اصبر، الفهم لا يتيسر إلا مع الزمن، أود أن أراك من جنود الله لا من دراويشه!

ـ حقّا إنى لفى حيرة . .

فقال فاضل :

ـ المنطق من الإيمان دائما وأبدا، الطريق واحد فى الأول ثم ينقسم بلا مفر إلى اتجاهين . . أحدهما يؤدى إلى الحب والفناء، والآخر إلى الجهاد، أما أهل الفناء فيخلصون أنفسهم، وأما أهل الجهاد فيخلصون العباد . .

وغرق علاء الدين فى تفكير عميق نسى به الوقت . .

١١

كان درويش عمران كبير الشرطة وابنه حبظلم بظاظة يمضيان على بغلتين من مقر الشرطة إلى دارهما والشمس تؤذن بالمغيب . . وعند منعطف ميدان الرماية طالعهما فجأة المجنون ، فاعترض سبيلهما صائحا فى وجه درويش عمران :

ـ زر صاحبك المعين بن ساوى وبلغه السلام!

وذهب الرجل إلى حال سبيله فتساءل حبظلم :

ـ ماذا يريد المجنون؟

فقال كبير الشرطة :

ـ لا يحاسب مجنون على قول أو فعل . .

لكنه أدرك أنه يذكره بمصير كبير الشرطة وأنه يشير إلى انحرافاته . . ابنه أيضا أدرك ذلك رغم تساؤله وبخاصة أنه يقوم بالوساطة عادة بين التجار وأبيه . . وقال حانقا :

ـ للمجانين مكان لا يبرحونه .

فقال درويش عمران :

ـ إنه يحظى بعطف مولانا السلطان .

فقال حبظلم بازدراء :

ـ إنه يخافه فيما أرى .

ـ احذر لسانك يا حبظلم!

فهتف الشاب :

ـ أى هوان يا أبى ، ألم يكفنا أن الشيخ المنحرف رفض يدى؟

فقطب درويش عمران دون أن ينبس . .

١٢

«من كان سروره بغير الحق فسروره يورث الهموم ، ومن لم يكن أنسه فى خدمة ربه فأنسه يورث الوحشة» .

بين دروس الدين يلقيها الشيخ على علاء الدين تفيض كأسه بنثار الكلم المضيئة كأنما يناجى بها ذاته ولكن الفتى يتلقاها مبهورا . .

ـ كل من عليها فان إلا وجهه ، ومن يفرح بالفانى فسوف ينتابه الحزن عندما يزول عنه ما يفرحه ، كل شيء عبث سوى عبادته ، الحزن والوحشة فى العالم كله ناجم عن النظر إلى كل ما سوى الله . .

وتذكر علاء الدين أحلامه وأحاديثه وأفعاله فتبدت له الدنيا غشاء من الألغاز ، وتذكر أباه وأمه فهيمن عليه الأسى . .

ـ من رزق ثلاثة أشياء مع ثلاثة أشياء فقد نجا من الآفات ، بطن خال على قلب قانع ، وفقر دائم مع زهد حاضر ، وصبر كامل مع ذكر دائم . .

وقال علاء الدين لنفسه إننا نصلى للرحمن الرحيم باسم الرحمن الرحيم . . وإذا بالشيخ يسأله :

ـ فيم تفكر يا بنى؟

فخرج من غفوته مورد الخدين وقال :

ـ لن يخرجنى من حيرتى إلا لطف الرحمن . .

ـ عليك قبل أن تتلقى الخمر أن تطهر الوعاء وتنقيه من الشوائب . .

فقال برجاء :

ـ نعم المرشد أنت . .

ـ ولكن «الآخر» يقحم نفسه علينا وهو غائب!

فأدرك أنه يشير إلى فاضل صنعان ، فتساءل :

ـ كيف تراه يا مولاى؟

ـ شاب نبيل عرف ما يناسبه وقنع به . .

ـ أهو على ضلال؟

ـ إنه يجاهد الضلال على قدر همته!

فقال علاء الدين بسرور :

ـ الآن اطمأن قلبى . .

ـ ولكن عليك أن تعرف نفسك . .

ـ إنه فقير ولكنه غنى بحمل هموم البشر . .

ـ مذهب للسيف ومذهب للحب . .

فصمت علاء الدين فقال الشيخ :

ـ طوبى لمن تم له تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء، ليس يخطر الكون ببالى، وكيف يخطر الكون ببال من عرف الكون؟

واصل الشيخ بعد ذلك درسه . .

١٣

وذات ليلة استقبله الشيخ فى الحجرة نفسها ولكنه رأى ستارة مسدولة فى ركنها الأيمن فغزته خواطر الشباب . . وقال الشيخ :

ـ اسمع يا علاء الدين . .

تحركت أوتار عود من وراء الستار وأنشد صوت عذب :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى

والناس فى سدف الظلام ونحن فى ضوء النهار

سكن الصوت ولكن صداه واصل نفاذه إلى الأعماق . . قال الشيخ :

ـ هذه زبيدة ابنتى وإنها لمريدة صادقة . .

غمغم علاء الدين منتشيا :

ـ أنعم وأكرم . .

ـ لقد رفضت أن أعطيها لابن كبير الشرطة . .

ثم مواصلا بعد صمت :

ـ ولكنى وهبتها لك يا علاء الدين . .

فقال بنبرة مرتعشة من التأثر :

ـ ما أنا إلا حلاق متجول . .

فأنشد الشيخ :

زائر نم عليه حسنه كيف يخفى الليل بدرا طلعا

ثم قال :

ـ من ذل فى نفسه رفع الله قدره، ومن عز فى نفسه أذله الله فى أعين عباده . .

١٤

عقد لعلاء الدين على زبيدة . . انتقل الفتى إلى دار الشيخ الكبير . . شهد الوليمة البسيطة عجر وفتوحة وفاضل صنعان والمعلم سحلول وعبد القادر المهينى . . ووفد المجنون بلا دعوة فجلس إلى يمين العريس . . وعقب الوليمة مضى عجر إلى داره بصحبة نفر من خاصته فدارت أرطال النبيذ، وراح يرقص ويغنى حتى مطلع الفجر . .

١٥

ولم تمض على ليلة الزفاف أيام حتى تكدر صفو الحى بأحداث أليمة، فزحف عليه وباء الشر بوجهه الكالح . . فقدت جوهرة نادرة من دار الإمارة جزعت لفقدها حرم الحاكم الفضل بن خاقان، وتذكر بها الحاكم أحداث الفوضى التى تنتاب الحى بين الحين والحين من اغتيالات وسرقات تنكشف عن أبشع المؤامرات وتنتهى بقتل الحاكم أو عزله . . وصب الرجل غضبه على درويش عمران كبير الشرطة ولكن الرجل نفى عن جهازه الغفلة ووعد بالقبض على الفاعل والعثور على الجوهرة . .

وأطلق كبير الشرطة مخبريه فى كل مكان من الحى . . وبناء على ما تلقى من معلومات اقتحم دار الشيخ عبد الله البلخى غير مبال بتذمر الأهالى، وفتشها تفتيشا دقيقا، وإذا به يعثر على الجوهرة فى صوان علاء الدين، كما عثر به على رسائل تقطع بتعاونه مع الخوارج . هكذا قبض على علاء الدين وألقى به فى السجن فتقررت محاكمته بصفة عاجلة . .

١٦

فى تلك الأثناء شاع الحزن فى قلوب الناس . . لم يحرق الحزن زبيدة وحدها، ولا فتوحة وعجر وحدهما، ولكن القلوب تألمت لمصير الفتى الجميل، وأصرت على تبرئته مما رمى به، وأشارت إلى كبير الشرطة وابنه حبظلم بظاظة باعتبارهما المدبرين للجريمة . .

وزاد من شك الناس ظهور نعمة مفاجئة على المعين بن ساوى فآمنوا بأن المدبرين استعانا بخبرته السابقة كرئيس للشرطة فى تنفيذ ما بيتا . . والتمس عجر الرأفة عند الفضل بن خاقان وهيكل الزعفرانى ولكنه وجد منهما الزجر والرفض . . وحث الشيخ عبد الله البلخى على السعى مستعينا بمهابته، ولكن لم تند عن الشيخ كلمة أو حركة . . وتلاحقت الإجراءات بسرعة مذهلة فحُوكم علاء الدين وقُضى عليه بالنطع . .

١٧

وفى صباح يوم بارد من أيام الخريف سيق علاء الدين إلى النطع فى حراسة مشددة، وسط جمهور غفير من أهل الحى جمع بين الرسميين والكادحين . . لم يصدق علاء الدين ما يحدث . . وكان يصيح :

ـ إنى برىء والله شهيد . .

زاغ بصره بين الوجوه المحملقة، المشفقة والشامتة، ورفع وجهه إلى السماء المتوارية وراء السحب مسلما أمره إلى خالقه . . تناهى إليه صراخ أمه وزوجته فارتجف قلبه . . تذكر رغم ذهوله أنه كان يأمل أن يخرج من حيرته إلى سيف الجهاد أو الحب الإلهى، ولم يخطر بباله قط سيف الجلاد . . وتطلع كثيرون إلى معجزة تقع فى اللحظة الأخيرة كما حدث لعجر وغيره ولكن السيف ارتفع أمام أعينهم فى جو قاتم ثم هوى مبددا الآمال فانفصل الرأس النبيل الجميل عن الجسد . .

١٨

فى دار الشيخ تأوه عجر هاتفا :

ـ ابنى برىء . .

وولولت زبيدة :

ـ برىء طاهر وحسبى الله . .

وتربع الشيخ صامتا وهادئا . . لم يفعل شيئا وحتى الحزن لم يعلنه . . وقالت له ابنته :

ـ إنى معذبة يا أبى . .

وقال له عجر بعنف :

ـ لم تحرك ساكنا كأن الأمر لا يعنيك . .

نظر إلى ابنته دون مبالاة بعجر، وقال :

ـ الصبر يا زبيدة . .

ثم استطرد بعد صمت :

ـ إليك حكاية شيخ جليل قال : «سقطت فى حفرة وبعد مضى ثلاثة أيام مرت علىَّ قافلة من المسافرين فقلت أناديهم، ثم انثنيت عن عزمتى قائلا لا، إنه ليس من الصالح أن أطلب المساعدة إلا من الله تعالى. ولما اقتربوا من الحفرة وجدوها فى وسط الطريق فقالوا لنسد هذه الحفرة حتى لا يقع فيها أحد، فقلقت قلقا شديدا حتى فقدت كل رجاء، فبعد أن سدوها وسافروا دعوت الله تعالى وسلمت نفسى للموت وتركت كل رجاء فى بنى الإنسان. فلما جن الليل سمعت حركة على ظاهر الحفرة فأنصت لها فانفتح فم الحفرة ورأيت حيوانا كبيرا كالتنين أرسل إلىَّ ذيله فعلمت أن الله قد أرسله لنجاتى فأمسكت بذيله وسحبنى فنادانى صوت من السماء : «إنا قد نجيناك من الموت بالموت» . .

السلطان

١

مضى الرجال الثلاثة يخوضون الظلماء فى ثياب تجار غرباء، شهريار ودندان وشبيب رامة . . اقتربت منهم أشباح ثلاثة ولما حاذتهم سألهم أحدهم :

ـ ماذا تفعلون فى هذه الساعة من الليل؟

فأجاب شهريار :

ـ تجار غرباء يتداوون من الضجر بأنسام الربيع . .

فقال صاحب الصوت :

ـ أنتم ضيوفى يا غرباء . .

فدعوا له بالبركات ومضوا جماعة واحدة وشهريار يتساءل :

ـ ترى من يكون مضيفنا الكريم؟

فقال صاحب الصوت :

ـ صبرا يا سادة يا كرام !

٢

ساروا حتى شاطئ النهر . . اتجهوا نحو سفينة تنتظر تشع منها أضواء المصابيح كالكواكب . . تساءل شهريار :

ـ نحن مرتبطون بالسوق فهل ترومون سفرا؟

فأجاب صوت آخر :

ـ أيها الغرباء إنكم بحضرة مولانا السلطان شهريار فأدوا له تحية الملك واحمدوا الله على حظكم السعيد . .

عقدت الدهشة ألسنة الرجال الثلاثة . . أى سلطان؟ وأى شهريار؟ وتجمدوا فى ذهولهم فلم تند عنهم حركة . . عند ذاك صاح صاحب الصوت الثانى :

ـ التحية يا غرباء . .

أفاق شهريار من ذهوله . . صمم على خوض التجربة حتى نهايتها . . سرعان ما انحنى أمام السلطان المزعوم فتبعه فى الحال دندان وشبيب رامة . . قال :

ـ نضر الله وجه أمير المؤمنين وأطال عمره وأدام عهده . .

تبعوه ضمن الحاشية حتى جلس على عرش تحت مظلة فى أعلى السفينة فاتخذوا مجالسهم فوق وسائد مطروحة على فسحة منبسطة فيما أمام العرش . .

وأقلعت السفينة فى جو ربيعى تحت بسمات النجوم الساهرة . .

٣

رست السفينة إلى شاطئ جزيرة . . استقبلها الحرس بالمشاعل . . همس شهريار الحقيقى فى أذن دندان :

ـ إنها لمملكة جديدة ونحن نيام!

ـ لعله الحشيش يا مولاى؟

ـ ولكن مم ينفقون على هذه المظاهر الباذخة؟

فقال الوزير بقلق :

ـ عما قليل تنطق الحقيقة بلسانها الخفى . .

دخلوا سرادقا مثيرا فوجدوا سماطا حافلا بالأطعمة والأشربة فى انتظارهم . . تحلقه جمع غفير من رجال المملكة فأصابوا من الطعام حتى شبعوا، ومن الشراب حتى توهجت أرواحهم بالنشوة والبهجة . . وأنشدت جارية من وراء ستار :

لسان الهوى فى مهجتى لك ناطق

يخبر عنى أننى لك عاشق

فهمس شهريار فى أذن دندان :

ـ يا لها من مأدبة ملكية وما نحن إلا رعية!

وعند لحظة معينة صاح السلطان الآخر :

ـ آن لنا أن نعقد المحكمة الإلهية . .

فسأل دندان مولاه :

ـ ألا نستأذن فى الانصراف حتى نرسل الجند لمحاصرتهم قبل أن يتفرقوا؟

فقال شهريار :

ـ بل نبقى لأشهد بعينى ما يجرى مما لم يجر لى فى خاطر . .

وسرعان ما رفع قوم السماط . . وجىء بمنصة محكمة فنصبت فى صدر السرادق . . جلس عليها السلطان الآخر، وقف إلى يمينه وزيره، وإلى يساره السياف . . وانبعث فى الأركان الحراس شاهرى السيوف . . وجلس شهريار الحقيقى وتابعاه ضمن قلة من الصفوة أذن لها بمتابعة محكمة العدل الإلهى . .

٤

قال السلطان الآخر من فوق المنصة مخاطبا الصفوة الحاضرة :

ـ أحمد الله الذى يسر لى التوبة بعد انغماسى فى سفك الدماء البريئة ونهب أموال المسلمين، إنه سبحانه واسع الرحمة والمغفرة .

فامتقع وجه شهريار الحقيقى ولكن لم تند عنه حركة واحدة . . وواصل السلطان الآخر حديثه قائلا :

ـ هذه المحكمة تنعقد للتحقيق فى شكوى مرفوعة من رجل بسيط، لو صح ما جاء بها لكشف عن جريمة بشعة، اغتيلت فيها البراءة لحساب الخسة والدناءة والظلم، والله المستعان أولا وأخيرا . فليدخل صاحب الشكوى عجر الحلاق . .

ودخل الرجل فوقف أمام المنصة فى حذر وخشوع، فقال له السلطان :

ـ ما شكواك يا عجر؟

فقال الرجل بصوت متهدج :

ـ ابنى الوحيد علاء الدين راح ضحية مؤامرة وحشية غادرة . .

ـ ما التهمة التى ضرب عنقه من أجلها؟

ـ التآمر ضد السلطان وسرقة جوهرة الست قمر الزمان زوجة الحاكم الفضل بن خاقان . .

ـ من المدبر للمؤامرة فى رأيك؟

ـ حبظلم بظاظة وأبوه كبير الشرطة درويش عمران وقد استعانا بالمعين بن ساوى المنبوذ لانحرافاته فنجح فى سرقة الجوهرة كما نجح فى دسها فى صوان علاء الدين مع رسائل مزورة تنطق بخيانته لمولانا السلطان . .

ـ وما الدافع وراء المؤامرة؟

ـ الانتقام من علاء الدين لأنه تزوج زبيدة كريمة ولى الله البلخى الذى رفض أن يزوجها من حبظلم بظاظة لسوء خلقه وخَلقه . .

ـ هل لديك دليل على ما تقول؟

ـ براءة علاء الدين فوق أى دليل، سل عنه أهل الحى جميعا والمؤامرة حقيقية يؤمن بها الجميع، ولو كان عندى دليل واضح لأنقذت عنق البرىء الطاهر، ولكنى أضع أملى على عدل السلطان وتأثيره الذى لا يقاوم . .

وفى الحال نحى السلطان عجر واستدعى حاكم الحى الفضل بن خاقان فمثل الرجل بين يديه تنطق قسمات وجهه بالرهبة والانكسار . . قال له السلطان :

ـ أيها الحاكم، لا شك عندى فى أنك من الصالحين، لقد اخترتك بعد تربية وتجربة، أستحلفك بالله العظيم أن تفضى إلىَّ بسر هذه القضية فلا شك عندى فى أنك عليها مطلع . .

بسط الحاكم راحتيه مغمغما :

ـ اللهم فاشهد . .

ثم قال مخاطبا مولاه :

ـ عقب مصرع علاء الدين نما إلىَّ ما يتهامس به الناس من براءته وإجرام الآخرين، فانزعجت انزعاج رجل نشأ متشبعا بمبادئ الدين الحنيف، وبثثت عيونى بين الرجال والأحياء فظفروا بالحقيقة من فم المعين بن ساوى وهو سكران، فما كان منى إلا أن هممت بالإيقاع بالمجرمين، غير أنى . .

صمت الحاكم مليا، ثم قال بذل:

ـ غير أنى ضعفت يا مولاى، فأنا الذى حاكم علاء الدين وقضى بضرب عنقه. خفت عواقب الكشف عن الحقيقة وإعلانها فمن قتل نفسا فقد قتل الناس جميعا..

فقال السلطان:

ـ وخفت العواقب على سمعتك ومركزك كحاكم!

فنكس الرجل رأسه ولاذ بالصمت.. فسأله السلطان:

ـ هل علم كاتم سرك بالحقيقة؟

فقال الرجل بأسى:

ـ نعم يا مولاى..

قال السلطان مخاطبا الجميع:

ـ لله حكمته فى خلقه، أما نحن فلنا الشريعة.. لذلك قضينا بضرب أعناق المعين بن ساوى ودرويش عمران وحبظلم بظاظة، كما قضينا بعزل الفضل بن خاقان وهيكل الزعفرانى مع مصادرة أملاكهما!

٥

وجىء بالنطع والمجرمين فتحرك السياف.. عند ذاك لم يتمالك شهريار الحقيقى من أن يقف قائلا بصوت جهورى:

ـ كفوا عن هذه المهزلة!

توثب الحراس، وهتف السلطان من فوق المنصة:

ـ من أذن لك بالكلام أيها الغريب المجنون؟

فنهره السلطان قائلا بحزم:

ـ أفق من جنونك أنت، إنك تخاطب السلطان شهريار..

ألجمت المفاجأة الألسنة، ووقف إلى جانبى السلطان دندان وشبيب رامة شاهرى سيفيهما.. أما السلطان فأخرج من جيبه خاتم الملك ولوح به فى وجه الآخر.. أفاق السلطان الزائف من ذهوله فوثب من فوق المنصة، ثم سجد بين يدى السلطان، وقال بنبرة مرتعشة:

ـ عبدك إبراهيم السقاء..

ـ ما معنى هذه المهزلة؟

فقال الرجل وهو ينتفض من الرعب :

ـ عفوا يا مولاى . . إيذن لى برواية حكايتى واغفر لى حماقتى . .

٦

قص إبراهيم السقاء قصته على السلطان بمجلسه الصيفى بالقصر . . قال :

ـ منذ صباى يا مولاى وأنا من المتوكلين على الله ، أكدح من الفجر حتى المغيب ، رزقى محدود وقلبى قنوع وسلوتى فى الجوزة . . ويسر الله لى نعمة كبيرة فتزوجت من أرملة جمصة البلطى ولم أكن أحلم بأكل اللحمة إلا فى عيد الأضحى . . ولما قتل ابن صديقى عجر الحلاق انقلبت موازينى ، وسمعت ما يتهامس به الناس فهيمن علىَّ حزن لم أعرفه من قبل وقلت إننا نحن الفقراء ليس لنا إلا الله . . وكان القدر يخبئ لى مفاجأة لا تخطر بالبال فعثرت على كنز خارج البوابة وصرت من أغنى الأغنياء . . فكرت ـ وهو المألوف ـ أن أستأثر بالمال وحدى ، ولكن حبى للفقراء دفعنى إلى سبيل آخر فصممت على إنشاء مملكة وهمية نهيم فيها جميعا يدا واحدة . .

تبسم شهريار وقال مقاطعا :

ـ الحشيش استهلك عقلك . .

ـ لا أنكر ذلك ، فالفكرة لا تخطر إلا ببال حشاش . . وتحمس الصعاليك لها أيما تحمس . . وقع اختيارنا على تلك الجزيرة المهجورة توجت نفسى سلطانا واخترت من الحفاة الجياع الوزراء والقادة ورجال المملكة ، ولم نكن نتلاقى لتمثيل لعبتنا إلا فى الليل فننقلب من صعاليك متشردين إلى رجال مملكة عظام ، نأكل ما نشتهى ونشرب ما نحب ، ونتبادل الأحاديث فى شئون المملكة كل بحسب موقعه ودرجته . . ولما كانت المؤامرة التى أهلكت علاء الدين تلح علينا فنعقد كل ليلة محكمة يأخذ فيها العدل مجراه بعد أن عز عليه ذلك فى الدنيا . .

فتساءل السلطان ساخرا :

ـ وأضعت الكنز يا حشاش؟

ـ لم يبق منه إلا القليل ولكنا اشترينا به سعادة لا تقدر بمال!

٧

سُرَّ شهريار بحكاية إبراهيم السقاء سرورا لا مزيد عليه ولكنه قال لدندان :
ـ وافنى بما يشاع عن مصرع علاء الدين بن عجر الحلاق . .
فقال الوزير :
ـ ستجد المفتاح يا مولاى عند الفضل بن خاقان فاستدعه ولك عليه التأثير الأكبر . .
فتساءل السلطان :
ـ أترى أن نسترشد بما فعل السلطان إبراهيم السقاء؟
فقال دندان :
ـ الحق يا مولاى أنها كانت محاكمة عجيبة تقطع بأن الحشيش لم يستهلك كل عقله . .
فقال شهريار :
ـ لا أخفى عنك أنى أعجبت بالحكم أيضا!
هكذا جرت الأمور فوقع الظالمون فضربت أعناق المعين بن ساوى ودرويش عمران وحبظلم بظاظة وعزل الفضل بن خاقان وهيكل الزعفرانى وصودرت أملاكهما . .

طاقية الإخفاء

١

قال سخربوط بفتور :
ـ عباس الخليجى حاكم الحى ، سامى شكرى كاتم السر ، خليل فارس كبير الشرطة ، لا يتوقع منهم انحراف قريب . .
فتساءلت زرمباحة بسخرية :
ـ لماذا؟
ـ جاءوا فى إثر تجربة مريرة أطاحت بالمنحرفين . .
ـ دعنا من الحكام حتى يفسدهم الحكم ، وانظر إلى ذلك الفتى الهمام فاضل صنعان!

فقال سخربوط ساخطا :

ـ إنه مثال حى للعمل المفسد لنوايانا وخططنا . .

ـ يا له من هدف جدير حقّا بمهارتنا وحيلنا !

فتسرب المرح إلى صوته وهو يقول :

ـ إنك كنز لا يفنى يا زرمباحة . .

ـ فلنفكر معا فى لعبة طريفة جديرة بنا . .

٢

وكان فاضل صنعان يخلد إلى الراحة فوق سلم السبيل فى أعقاب نهار حار من فصل الصيف . . إنه يفتقد دائما علاء الدين ويترحم عليه من قلب مكلوم . . ويتساءل فى غضب متى يجىء الفرج؟ وانتبه إلى رجل مشرق الصورة، بسام الثغر يقبل نحوه فيجلس إلى جانبه . . تبادلا تحية ولكن الرجل أولاه اهتمامًا كأنما جاء من أجله . . انتظر فاضل أن يفصح الرجل المشرق عن خواطره، ولما لم يفعل قال :

ـ لست من حينا فيما أعتقد؟

فقال الرجل بمودة :

ـ صدقت فراستك ولكننى اخترتك . .

فحدجه بحذر تلقنه من مطاردة المخبرين وسأله :

ـ من أنت؟

ـ لا أهمية لذلك، المهم حقّا أننى من رجال الأقدار، ومعى لك هدية . .

فقطب فاضل فى حذر أشد وهو يتساءل :

ـ من مرسلك؟ أفصح فإننى لا أحب الألغاز !

فقال باسما :

ـ وإنى مثلك تماما، إليك الهدية ففيها الغناء عما عداها . .

أخرج من جيب جلبابه طاقية مزخرفة بتهاويل ملونة لم ير مثلها من قبل، وأحكم لبسها على رأسه فسرعان ما اختفى عن الأنظار فى غمضة عين . ذهل فاضل وقلقت عيناه فيما حوله بخوف . . وتساءل :

ـ أحلما أرى؟

فسمع صوت الرجل يتساءل ضاحكا :

ـ ألم تسمع عن طاقية الإخفاء؟ هذه هى بين يديك . .

ونزع الرجل الطاقية فعاد متجسدا كما كان فى مجلسه . . تتابعت ضربات قلب فاضل فى عنف وانفعال ، وسأله بلهفة :

ـ من أنت؟

ـ الهدية حقيقة ملموسة ولا أهمية لسؤال بعد ذلك . .

ـ هل تنوى إهداءها لى حقّا؟

ـ من أجل هذا قصدتك دون العالمين . .

ـ ولماذا أنا بالذات؟

ـ ولماذا يعثر إبراهيم السقاء على الكنز؟ ولكن لا تبدد كنزك كما بدد كنزه!

قال لنفسه : إن الدنيا تخلق من جديد ، وإن العناية تخصه بهذه الهدية لإنقاذ البشر . . وسرعان ما أفعم قلبه بإلهام نبيل . . وإذا بالرجل يسأله :

ـ فيم تفكر؟

ـ فى أشياء جميلة تسرك . .

فتساءل بحذر :

ـ خبرنى عما ستفعل بها؟

فقال بتألق :

ـ سأفعل ما يمليه علىّ ضميرى . .

فقال الرجل :

ـ افعل أى شىء إلا ما يمليه عليك ضميرك!

فبردت نظرة عينيه وغشيتها الخيبة والانزعاج وسأله :

ـ ماذا قلت؟

ـ افعل أى شىء إلا ما يمليه عليك ضميرك ، هذا هو الشرط ، وأنت حر فيما تقبل أو ترفض . ولكن احذر الخداع فعنده تفقد الطاقية وقد تفقد حياتك أيضا . .

ـ إذن فأنت تدفعنى للشر يا هذا؟

ـ شرطى واضح ، لا تفعل ما يمليه عليك ضميرك ، ولك ألا ترتكب شرا أيضا . .

ـ فماذا أصنع بها؟

ـ بين هذا وذاك أشياء كثيرة لا تنفع ولا تضر وأنت حر . .

ـ لقد عشت حياة كريمة . .

ـ واصلها كما تشاء ولكن بعمامتك لا بالطاقية، ثم ماذا جنيت منها؟ الفقر والسجن بين الحين والحين . .

ـ هذا شأنى . .

قام الرجل قائلا :

ـ آن لى أن أذهب، فماذا تقول؟

وجب قلبه بلهفة . . إنها فرصة لا تلوح مرتين . . لم يستطع رفضها . . قال بثقة :

ـ هدية مقبولة ولا خوف علىَّ منها . .

٣

بدءا من صباح اليوم التالى انطلق فاضل صنعان مثل الهواء يحل فى أى مكان ولا يرى . . هيمنت عليه التجربة السحرية الجديدة . . جرب أن يكون روحا خفية متنقلة فأنساه السرور كل شىء حتى سعيه اليومى فى سبيل رزقه . . شعر بالاختفاء أنه يعلو ويسود، ويتساوى مع القوى الخفية، وأنه يملك زمام الأمور، وأن مجال الفعل يترامى أمامه بلا حدود . . إنها عطلة فريدة يستريح بها من جسمه وأعين الناس وقوانين البشر . . وتصور ما كان يمكن أن تيسره لوغد من الأوغاد فشكر الحظ الذى خصه بالرعاية . . ومن فرط سروره لم ينتبه لنفسه إلا حين حلول المساء . . هناك تذكر أن أكرمان وأم السعد ينتظران دراهمه المعدودة لإعداد العشاء وشراء المواد اللازمة لصنع الحلوى . . جزع وأدرك أنه لا يستطيع أن يرجع إلى مسكنه بالربع فارغ اليدين . . ومر بدكان قصاب وكان يحصى ربح يومه على حين تنحى صبيه جانبا . . قرر أن يستولى على ثلاثة دراهم هى مقدار ربحه اليومى متعهدا بردها عند الميسرة . . ولم يجد بدّا من دخول الدكان وأخذ الدراهم . . وخرج إلى الطريق منقبض الصدر لتورطه لأول مرة فى حياته فى السرقة . . ونظر نحو الدكان فرأى القصاب ينهال بالضرب على الصبى ثم يطرده متهما إياه بالسرقة!

٤

بعد العشاء فكر فى التخفيف عن نفسه بزيارة مقهى الأمراء تحت الطاقية . . ثمة فرص للمداعبة البريئة مع أخذ الحيطة فى ألا يتورط فى فعل شائن كما تورط فى دكان القصاب . . رأى الوجوه المألوفة لأول مرة دون أن تستطيع رؤيته . . جرى بصره بسخرية على حسن العطار وجليل البزاز وعجر الحلاق وشملول الأحدب والمعلم سحلول وإبراهيم السقاء وسليمان الزينى وعبد القادر المهينى ورجب الحمال ومعروف الإسكافى . . سمع عجر الحلاق يتساءل :

ـ ماذا أخر فاضل صنعان؟

فأجاب شملول الأحدب بصوته الرفيع ضاحكا :

ـ لعل مصيبة دهمته!

قرر أن يعاقب المهرج . . جاء النادل يحمل أقداح الكركديه ، وإذا بالصينية تندلق فوق رأس الأحدب وتغمره بسوائلها . . وثب الأحدب صارخا على حين وقف النادل مبهوتا . . أخفى الرجال ضحكات ساخرة . . لطم المعلم صبيه وراح يعتذر لمهرج السلطان . . ومبالغة فى الاسترضاء جاء المعلم بنفسه بالكركديه وإذا به ينصب فوق رأس سليمان الزينى! انتشر الذهول والسرور الخفى ، وأكثر من صوت صاح :

ـ إنه الحشيش والمنزول . .

وأفلت الزمام من عجر فتناسى أحزانه وضحك ولكنه لم يهنأ بضحكة فتلقى على قفاه صفعة مدوية . . التفت مغضبا فرأى وراءه معروف الإسكافى فضربه بقبضته فى وجهه وسرعان ما اشتبكا فى معركة . . وساد الظلام إثر حجر أصاب الفانوس . . وفى الظلام انهالت الصفعات ، فثار الغضب والتحما فى صراع فى الظلام وعلا الصراخ حتى تناثرا فى الطريق على حال قبيحة من الجنون والخوف . .

٥

مارس حياته المألوفة مخفيا الطاقية فى جيبه لحين الحاجة إليها . . قال إنه لم يجن منها حتى الآن إلا أن سرق ، وارتكب سخافات لا معنى لها . . ساوره قلق وضيق . . قال إنه

ما كان بوسعه أن يتجاهل فرصة نادرة مثلها . . ولم يكن لديه مجال للتأمل، ولكن ما جدوى ذلك كله؟ وإذا تعذر عليه صنع خير بالطاقية فما عسى أن يفعل بها؟ وكان يستريح على سلم السبيل بعد الغروب على مبعدة يسيرة من بياع بطيخ متجول فرأى شاور مقبلا نحو الرجل لابتياع بطيخة . . ارتعدت مفاصله لرؤيته فهو سجان اشتهر بتعذيب إخوانه . . رآه يمضى بالبطيخة نحو زقاق قريب حيث يقيم فيما بدا له فتبعه . . ولما أمن المارة لبس الطاقية فتلاشى . . وكأنما نسى تعهده فاستل السكين التى يقطع بها الحلوى . . فليجرب على الأقل كيف يحول «الآخر» بينه وبين ما يود أن يفعل . . لحق بالسجان وهو عنه لاه . . وجه إلى عنقه طعنة قاتلة فسقط غارقا فى دمه . .

أثمله شعور بالنصر . . يستطيع أن يفعل ما يشاء . . ولم يبرح المكان ليتابع الحدث . . شاهد التجمهر على ضوء المشاعل . . جاء الشرطة . . سمع أن السجان لفظ اسم بياع البطيخ قبل أن يلفظ أنفاسه . . رأى الشرطة وهى تقبض على البياع البرىء . . تعجب فاضل من ذلك وانزعج له . . ماذا كان بين السجان والبياع مما جعله يوقع به؟ استفحل انزعاجه وقال لنفسه :

ـ لا مفر من إنقاذ الرجل البرىء . .

عند ذاك رأى صاحب الطاقية أمامه وهو يقول له :

ـ حذار أن تخون العهد . .

فذعر فاضل متسائلا :

ـ ألم تتركنى أقتل المجرم؟

فقال الآخر :

ـ كلا . . لم تقتل المجرم ولكنك قتلت توءمه وهو رجل طيب لا غبار عليه!

٦

من السرقة للسخف ثم الجريمة . . سقط فى الهاوية . . ولما ضرب عنق بياع البطيخ فى اليوم التالى هيمن عليه يأس مطلق . . هام فى الطرقات على وجهه كالمجنون . . كره نفسه لدرجة كره معها الدنيا وأحلامه الخالدة . . همس لنفسه :

ـ الاعتراف والجزاء الحق، هذا ما بقى لى . .

فرأى أمامه الآخر وهو يقول :

ـ حذار!

فصاح به غاضبا:

ـ عليك اللعنة..

فتلاشى وهو يقول:

ـ أهذا جزاء من سلمك مفتاح القوة واللذة؟

وتمطى السخط فى ذاته مشعشعا بالجنون الأحمر فراح يسكر مناديا الشياطين من مكامنها.. وتذكر خواطر مثقلة بالشهوة كانت تداعبه فيطردها بالإعراض والتقوى.. تجسدت فى إشعاعات جنونه الأحمر فى صورتين، قمر أخت حسن العطار، وقوت القلوب زوجة سليمان الزينى.. قال لنفسه ما دامت الخمر قد ألقيت فى جوفى فما خوفى من السكر؟ لم يبق لى إلا حسن الامتثال للعنة.. فلأرفع نفسى إلى السماء ولتنطلق الشياطين من قماقمها.. وليقدم العذاب مكللا بالضحايا..

٧

وتساءلت قمر العطار:

ـ لماذا فاضل صنعان؟ يا له من حلم!

ولكنها لمست للحلم آثارا لا تنكر فذهلت وقالت كأنه الشيطان. استحوذ عليها الرعب وتخايل لعينيها الموت..

وقالت قوت القلوب:

ـ إنه كابوس.. ولكن لماذا فاضل صنعان وما خطر لى فى وجدان قط؟

ولكن عن الكابوس تولدت آثار حقيقية فانفجر فيها الفزع.. واكتشف سليمان الزينى سرقة نقوده.. وجاء خليل فارس كبير الشرطة.. وكتمت قوت القلوب خبر الكابوس.. وأطبقت عليها فكرة الموت..

٨

حافظ على حياته اليومية نهارا ولم يتخلف عن مقهى الأمراء.. وردد كثيرا فى نفسه:

ـ رحمك الله يا فاضل صنعان . . كنت فتى طيبا مثل علاء الدين وأفضل . .

وصادفه المجنون فى تجواله فقدم له بعض الحلوى كعادته معه ، ولكن المجنون لم يمد يده هذه المرة ومضى لسبيله وكأنه لم يره . .

ارتعب وحامت حوله المخاوف كالذباب . . المجنون لم يتغير لغير ما سبب . . لعله شعر بالشيطان وراء جلده . . غمغم :

ـ علىّ أن أخشى المجنون . .

فرأى الآخر صاحب الطاقية يبتسم إليه مشجعا ويقول :

ـ صدقت ، وليس هو الوحيد الجدير بالخشية . .

فقطب صنعان وشعر بذل ، ثم قال بحدة :

ـ دعنى وشأنى . .

فقال بهدوء :

ـ اقتل المجنون ، لن يشق عليك ذلك . .

ـ لا تقترح علىَّ فلا يدخل ذلك فى الاتفاق . .

ـ يجب أن نصير أصدقاء ، لذلك أنصحك أيضا بأن تقتل البلخى ذلك الشيخ المخرف . .

ـ لسنا أصدقاء ولن أفعل شيئا إلا بمحض حريتى . .

ـ أسلم بهذا تماما ، ولن تندم ، إنك تتعذب بحكم تغيير العادة ، ولكنك ستبلغ الحكمة الباهرة وتفهم الحياة كما ينبغى لك . .

فصاح فاضل :

ـ إنك تسخر منى . .

ـ أبدا . . إنى أحرضك على قتل أعدائك قبل أن يقتلوك . .

فقال بقرف :

ـ دعنى وشأنى . .

٩

وقعت أحداث مثيرة للشجن . . فقد افترس مرض غامض فى وقت واحد وتقريبا امرأتين جميلتين فاضلتين ـ قمر العطار ، وقوت القلوب امرأة سليمان الزينى ـ ولم ينفع

فى إنقاذهما إخلاص عبد القادر المهينى وخبرته . . وبموتهما حمل الطبيب هما خفيا احتار كيف يتعامل معه . . هل يصمت صونا لسمعة أصدقائه؟ هل يخشى أن يغطى صمته على مجرم وجريمة؟ تفكر الرجل طويلا ، ثم مضى إلى مقابلة خليل فارس كبير الشرطة . . قال له :

ـ سأطرح عليك همى لعل الله يهدينا إلى سواء السبيل . .

وتنفس الرجل بعمق ثم استطرد :

ـ ليس مرضا ما أصاب قمر شقيقة حسن العطار وقوت القلوب امرأة سليمان الزينى ، فقد تبين لى أنهما تناولتا سما قتلهما ببطء . .

تمتم كبير الشرطة باهتمام :

ـ انتحار؟ ! لماذا؟ جريمة قتل كيف؟

ـ قبيل احتضار كل منهما لفظت باسم فاضل صنعان بتقرز ورعب . .

فهز الرجل رأسه باهتمام متصاعد ، فقال الطبيب :

ـ خلاصة ما فهمته أنهما حلمتا ذات ليلة بأنه اعتدى عليهما ، ثم وضح لهما أن ثمة آثارا تقطع بأن الحلم كان حقيقة واقعة . .

ـ هذا مذهل . . هل خدرهما؟

ـ لا أدرى . .

ـ أين وقع الحلم؟

ـ فى فراشهما بداريهما . .

ـ هذا مذهل حقّا . . وكيف تسلل إلى الدار؟ وكيف خدرهما حتى يقضى وطره؟ أله شركاء فى الدارين؟

ـ لا أدرى . .

ـ هل فاتحت حسن والزينى فى الموضوع؟

ـ لم أجد الشجاعة الكافية . .

ـ ماذا تعرف عن فاضل صنعان؟

ـ شاب لا غبار عليه وهو من خيرة الشبان . .

ـ ثمة شبهة لم يقم دليل عليها بعد أنه من الخوارج . .

ـ لا علم لى بذلك!

فقال كبير الشرطة بحزم :

ـ سألقى القبض عليه فى الحال وأجرى معه تحقيقا دقيقا . .

فقام عبد القادر قائلا :

ـ لعلك تجرى تحقيقك فى كتمان رحمة بسمعة المرأتين . .

فقال خليل فارس دون مبالاة :

ـ كشف الحقيقة هو ما يهمنى فى المقام الأول!

١٠

ألقى القبض على فاضل وسيق من فوره إلى السجن . اهتم حاكم الحى عباس الخليجى بالقضية واستدعى للقائه حسن العطار وسليمان الزينى وباغتهما بالسر الذى أشفق الطبيب من قذفهما به . . كأن ضربة عنيفة أطاحت برأسيهما وهان بالقياس إليها الموت نفسه . . أمر الرجل باستدعاء فاضل صنعان من السجن ليحقق معه بنفسه فجاءه خليل فارس وحده وهو يقول بخزى عظيم :

ـ هرب المجرم ولا أثر له فى السجن!!

فثار الحاكم ثورة جائحة وانهال على كبير الشرطة بالتقريع والاتهام فقال الرجل بحيرة ممزقة :

ـ هروبه لغز لا حل له كأنه عمل من أعمال السحر الأسود . .

فصرخ الحاكم :

ـ بل إنه فضيحة ستزعزع أركان الثقة . .

وانطلق المخبرون فى كل مكان كالجراد . . وجىء بأكرمان زوجة فاضل وحسنية أخته وأم السعد والدته ، ولكن التحقيق معهن لم يسفر عن شىء ، وقالت أكرمان وهى تبكى :

ـ زوجى أشرف الرجال ولا أصدق عنه كلمة سوء واحدة!

١١

أدرك فاضل صنعان أنه أصبح فى عداد الأموات . . لا حياة له بعد اليوم إلا تحت الطاقية كروح ملعونة هائمة فى الظلام . . روح ملعونة ، لا حركة لها إلا فى مجال العبث أو الشر ، محرومة من التوبة أو فعل الخير ، صار شيطانا رجيما ، تأوه من الحزن فتجسد أمامه صاحب الطاقية متسائلا :

ـ لعلك فى حاجة إلىّ؟

فحدجه بنظرة محنقة فقال له ملاطفا :

ـ لا حد لسلطانك ولن يعوزك شىء . .

فهتف :

ـ إنه العدم . .

فقال ساخرا :

ـ اسحق الأفكار القديمة وانتبه إلى حظك الكبير !

ـ الوحدة . . الوحدة . . والظلام . . ضاعت الزوجة والأخت والأم وضاع الأصحاب . .

فقال بهدوء :

ـ أصغ إلى نصيحة مجرب ، بوسعك أن تتسلى كل يوم بحدث يزلزل البشر . .

١٢

واجتاحت الحى حوادث غامضة فأنستهم القضية والمجرم الهارب . . يدفع وجيه من فوق بغلته فيقع على الأرض . . يصيب حجر رأس سامى شكرى كاتم السر فيشجه وهو بين حراسه . . تختفى جواهر ثمينة من دار الحاكم . . تشتعل النار فى وكالة الأخشاب . . ينتشر العبث بالنساء فى الأسواق . . يركب الرعب الخاصة والعامة . . يندفع فاضل صنعان فى طريقه الوعر مخمورا باليأس والجنون . .

واجتمع الحاكم عباس الخليجى بالشيخ عبد الله البلخى والطبيب عبد القادر المهينى والمفتى ، وقال لهم :

ـ إنكم صفوة حينا ، وأريد أن أسترشد بآرائكم فيما يقع لنا ، فما تشخيصكم له وما العلاج الذى تقترحونه؟

وقال الطبيب :

ـ ما هى إلا عصابة من الأشرار تعمل بحرص ودهاء ، فنحن فى حاجة إلى مزيد من السهر على الأمن . .

وتفكر قليلا ثم واصل :

ـ ونحن فى حاجة أيضا إلى إعادة النظر فى توزيع الزكاة والصدقات . .

فقال الحاكم :

ـ أعتقد أن المسألة أخطر مما تفترض ، ما رأيك يا شيخ عبد الله؟

فأجاب الرجل باقتضاب :

ـ ينقصنا الإيمان الصادق!

ـ ولكن الناس مؤمنون . .

فقال بأسى :

ـ كلا . . الإيمان الصادق أندر من العنقاء . .

عند ذاك قال المفتى بصوت خشن :

ـ ثمة من يمارس علينا السحر الأسود ، ولا أتهم إلا الشيعة والخوارج!

١٣

وسيق إلى السجون جميع من حامت حولهم الشبهات . . ضجت دور كثيرة بالشكوى . . ولأول مرة يفيق فاضل صنعان من يأسه . . عجب لنفسه وتساءل أما زال فى قلبه متسع للتأمل والندم؟ ! عاودته ذكريات قديمة كما تهفو نسائم على نار متأججة . . ومضى يفكر فى توجيه عبثه إلى متجه جديد . . غير أن صاحب الطاقية تمثل له بنظرته المحذرة وهو يتساءل :

ـ ألم تشف بعد من دائك القديم؟

فاجتاحه الغيظ ولكنه كظم نفسه بذل وقال :

ـ إن تهريب هؤلاء سيكون قمة العبث!

ـ تذكر اتفاقنا . .

فتساءل بحدة :

ـ أى خير ثمة وراء تهريب أعداء الدين؟

ـ إنهم فى رأيك الهداة ، وما أنت إلا أحدهم ، فلا تحاول العبث بى . .

فقال بتصميم ورجاء :

ـ دعنى أفعل ما أشاء ، ثم افعل بعد ذلك ما بدا لك!

وإذا بالطاقية تنتزع من فوق رأسه فيتجسد فى زحمة السابلة بميدان الرماية . . فزع من وقع المفاجأة . . وقبل أن يفيق من فزعه أعاد الآخر الطاقية إلى رأسه وهو يقول :

ـ التزم بما تعاهدنا عليه لأعاملك بالمثل . .

١٤

لكنه لم يسعد بالنجاة . . شاعت فى مذاقه مرارة راسخة . . تساءل كيف يمكنه أن ينقذ أقرانه وإخوانه . . اختنق بالقبضة الحديدية التى تطوقه . . إنه عبد الطاقية وصاحبها كما أنه أسير الظلام والعدم . . كلا . إنه لا يسعد بالنجاة ويخجل منها . . وحتى اليأس مهما ارتكب من حماقات لم تستطع أن تقتلع من قلبه أنغامه القديمة . . وحن إلى بعث فاضل القديم بأى ثمن . . أجل . إن فاضل القديم مضى وانقضى ولكن مازال فى الطريق متسع لعمل . . ومن أعماق الظلمات ومض شعاع . . انتعشت روحه لأول مرة منذ دهر . . وبث حياة فى إرادته . . تفجرت شجاعته فى صورة إلهام صاعد . . ورفعته موجة استهانة وتحد فوق الحياة والموت فتطلع من فوق ذروتها إلى أفق واعد . . واعد بالموت النبيل . . بذلك يسترد فاضل صنعان ولو جثة هامدة . . ولم يتردد فمضى بعزم جديد نحو دار الحاكم . . ومر به المجنون وهو يردد : «لا إله إلا الله ، يحيى ويميت ، وهوعلى كل شىء قدير» .

فتمادى فى النشوة والاقتحام . . وما ارتعب عندما تراءى له «الآخر» ، فقال له :

ـ إليك عنى . .

ونزع الطاقية من فوق رأسه ورمى بها فى وجهه قائلا :

ـ افعل ما بدا لك . .

قال له :

ـ سوف يمزقونك ويمثلون بك . .

فهتف :

ـ إنى أعرف مصيرى خيرا منك . .

ـ سوف تندم حيث لاينفع ندم . .

فصاح :

ـ إنى أقوى منك . .

توقع مشفقا أن يبطش به ولكنه تلاشى وكأنما غلب على أمره . .

١٥

أثارت محاكمة فاضل صنعان الخواطر كما لم تثرها محاكمة من قبل . . وانفجرت اعترافاته فى المدينة مثل إعصار . . ولأن الصفوة ما زالت تعتبره أحد أبنائها ، ولأن العامة اعتبروه أحدهم ، فقد تبلبلت الأفكار أيما تبلبل ، وتضاربت العواطف كالدوامات الصاخبة . . واستقبل ميدان «العقاب» سيلا لا ينقطع من النساء والرجال من الطبقات كافة . . واختلطت همسات الإشفاق بصرخات الشماتة كما يختلط أنين الرباب بعربدة السكارى . . ولما تراءى الشاب من بعيد استبقت إليه الأبصار . . تقدم بين حراسه بخطوات ثابتة ووجه هادئ وامتثال خاشع . أمام النطع انهمرت عليه الذكريات فى موجة واحدة متفجرة بالشهب . . . تماوجت وجوه أكرمان والبلخى وجمصة البلطى وعبد الله الحمال والمجنون . . . التحم الحب والمغامرة ودفاتر الدعوة وآلاف اللقاءات المدثرة بالظلام فى الأقبية والخلوات . . وتبددت الطاقية وصاحبها كعثرة بلا قرار يفوح من أعماقها الإغراء محطما قمقمه عن شهواته المكبوتة . . وتجلى أخيرا نصره المأساوى جاذبا معه شبيب رامة السياف . . تلقى ذلك فى ثوان بقوة خارقة وسرعة مذهلة فرفض الأسى بإباء وواجه مصيره ببرود واستعلاء ، فرأى فيما وراء الموت إشراقة تبهر الأعين . . ولكنه رأى أيضا معلما من معالم الآخرة متمثلا فى صورة المعلم سحلول تاجر المزادات والتحف . . دهش لمرآه فأفاق من رؤيته وسأله :

ـ ماذا جاء بك يا معلم؟

فأجاب وهو يتغير من النقيض إلى النقيض :

ـ جاء بى ما جاء بك . .

فهتف بدهشة أكبر :

ـ أنت ملاك الموت!

ولكنه لم يرد . فقال فى بشاعة :

ـ أريد العدل!

فقال بهدوء :

ـ الله يفعل ما يشاء . .

معروف الإسكافى

١

لا يفوق مرحه الظاهر إلا أشجانه الباطنة . . رزقه محدود وامرأته فردوس العرة نهمة جشعة شرسة مليئة بالقوة والعنف . . حياته جحيم بين الكدح والزوجية . . لا يمر يوم دون أن تنهال عليه ضربا وسبا وهو يرتعد بين يديها خوفا وذلا . . يتمنى شجاعة يطلقها بها، يحلم بموتها، يود الهرب ولكن كيف؟ وإلى أين؟ قال إنه أسير كما كان فاضل صنعان أسيرا لشيطان . . ولعله لا خلاص له ـ مثله ـ إلا بالموت . .

وذات ليلة التهم من المنزول فوق طاقته ومضى إلى قهوة الأمراء والدنيا لا تسعه من السلطنة . . ونظر فى وجوه أصحابه وقال بصوت سمعه جميع الرواد :

ـ أقول لكم سرا لا يصح أن يخفى عنكم . .

همَّ عجر الحلاق أن يهزأ به ولكنه تذكر حزنه فعدل عنه .

أما معروف فقال :

ـ أقول لكم الحق إنى عثرت على خاتم سليمان!

فهتف به شملول الأحدب :

ـ تأدب أمام أسيادك يا تيس . .

وسأله إبراهيم السقاء :

ـ ويبدو أنك انتفعت به، أين القصور؟ أين الخدم؟ أين الجاه والسيادة؟!

فقال :

ـ لولا تقوى الله لفعلت ما لا يخطر ببال بشر . .

فقال له رجب الحمال :

ـ أعطنا آية واحدة لنصدقك . .

ـ ما أيسر ذلك عليَّ!

ـ عظيم . . ارتفع نحو السماء ثم اهبط سالما . .

فقال معروف فى مناجاة :

ـ يا خاتم سليمان ارفعنى إلى السماء . .

عند ذاك صاح به سليمان الزينى :

ـ كف عن هذرك عليك . .

ولكنه انقطع فجأة عن الكلام . . معروف نفسه اجتاحه رعب غريب . . شعر بقوة تقتلعه من مجلسه، ومضى يعلو ببطء وثبات حتى وقف جميع الرواد فزعين ذهلين . . واتجه نحو باب المقهى وخرج منه وهو يصرخ «أغيثونى» . ثم ارتفع حتى اختفى فى ظلمة ليل الشتاء . . تجمهر الرواد فى الطريق أمام المقهى، تصايح الناس بالواقعة، انتشر الخبر كأنه أشعة الشمس فى نهار الصيف . . وإذا به يهبط رويدا رويدا حتى يتجلى شبحه فى الظلمة ويرجع إلى مجلسه الأول، ولكن على حال لا توصف من الإعياء والفزع . . وأحدق به الجميع من الخاصة والعامة وانهالت عليه الأسئلة :

ـ أين وجدت الخاتم؟

ـ متى وجدته؟

ـ ماذا أنت فاعل به؟

ـ صف لنا العفريت؟

ـ متى تحقق أمانيك؟

وقال له عجر :

ـ لا تنس أصدقاءك . .

وصاح به إبراهيم السقاء :

ـ إخوانك الفقراء . .

وقال له رجب الحمال :

ـ اجعلها كما ينبغى لها أن تكون . .

وقال سليمان الزينى :

ـ لا تنس الله فهو صاحب الملك . .

لم يفقه مما قيل شيئا . . ولم يدر كيف وقع ما وقع . . أى سر امتلكه؟ أى معجزة تحققت على يديه؟ هل يعترف لهم بالحقيقة؟ حذر فطرى أسكته . . إنه يريد أن يخلو إلى نفسه . . أن يسترد أنفاسه، أن يتأمل . . ونهض من مجلسه دون أن ينبس فأكثر من صوت هتف به :

ـ لا تتركنا حيارى، بل ريقنا بكلمة طيبة . .

ولكنه غادر المقهى دون أن يلقى نظرة على أحد . .

٢

مضى نحو داره فى مظاهرة من الرجال والنساء اكتظ بهم الطريق . . تنافسوا فى الاقتراب منه فسقط منهم قوم وداس بعضهم البعض . . وصاح بهم :

ـ اذهبوا وإلا أرسلتكم إلى الآخرة . .

وفى أقل من دقيقة تفرقوا فى فزع واضطراب حتى تلاشت أصواتهم فلم يجد أمامه إلا فردوس العرة زوجته تنتظره أمام الدار وبيدها مصباح وهى تقول :

ـ يعطى الملك لمن يشاء . .

لأول مرة منذ دهر تبتسم فى وجهه فحدجها بنظرة غليظة ولطمها لطمة فرقعت فى سكون الليل وصاح بها :

ـ أنت طالق فاذهبى إلى الجحيم . .

صرخت فردوس :

ـ تستعبدنى بفقرك وتطردنى حال إقبال الحظ؟!

ـ إن لم تذهبى فى الحال حملك العفريت إلى وادى الجن . .

فصرخت المرأة من الفزع وهرولت لا تلوى على شىء . . ابتسم أيضا أول ابتسامة صافية منذ دهر طويل ودخل مأواه المكون من حجرة ودهليز . .

٣

ما معنى ذلك يا معروف؟ أهو حلم أم حقيقة؟ هل حل بك سر حقًا؟ ونظر فيما حوله، فى الحجرة شبه العارية وتمتم بحذر :

ـ يا خاتم سليمان ارفعنى ذراعا واحدة فوق الأرض!!

انتظر فى لهفة وإشفاق، ولكن لم يحدث شىء . . انقبض قلبه وغاص فى صدره غريقا فى خيبته مرة . . ألم أحلق فى الجو؟ ألا يشهد على ذلك أهل الحى؟ ألم تنهزم العرة لأول مرة؟ وقال من قلب جريح :

ـ يا خاتم سليمان إيتنى بصينية فريك بالحمام!

لم ير إلا خنفساء تزحف فوق طرف الحصيرة المتهرئة . . نظر إلى الخنفساء طويلا ثم أجهش فى البكاء . .

٤

طمر خيبته المرة فى أعماقه . . جعلها سره الدفين وأقام سدا بينه وبين لسانه . . قال : ليكن من الأمر ما تجرى به مشيئة الله . . ولكن أليس عليه أن يذهب إلى دكانه ليصلح الأحذية والمراكيب والصنادل؟ وهل يهضم الناس سلوكه هو المالك لخاتم سليمان؟ وإن لم يفعل فهل يهب ذاته التعيسة للموت جوعا؟ غير أنه صادف خليل فارس كبير الشرطة عند باب عطفته وكأنما كان فى انتظاره . . تلقاه بابتسامة متوددة غير معهودة فأدرك بذكائه أن القوم ينظرون إليه باعتباره مالك خاتم سليمان . . خفق قلبه بأمل جديد وصمم على تمثيل دوره بمهارة تناسبه حتى يقضى الله أمره . . قال له الرجل برقة :

ـ صبحك الله بالسعادة يا معروف . .

فقال بتحفظ دهش له هو نفسه :

ـ وصبحك بمثلها يا كبير الشرطة . .

تكلم بثقة من يملك القوة التى لا يطمح إليها بشر . .

قال الرجل :

ـ حاكم الحى يود مقابلتك .

فقال دون مبالاة :

ـ على الرحب والسعة ، أين؟

ـ فى المكان الذى يروقك!

يا أولاد الخنفساء يا جبناء . . قال :

ـ فى داره كما يقضى بذلك الأدب . .

فقال بيقين :

ـ ستلقى العناية والأمان . .

فقال ضاحكا فى استهانة :

ـ لا خوف علىّ من أى قوة فى الأرض!

فقال خليل فارس وهو يدارى امتعاضا ، وربما خوفه :

ـ سنكون فى انتظارك فى الضحى . .

٥

رأى من اهتمام الناس ما ينذر بتجمهر جديد فرجع إلى مسكنه الحقير . . ورأى عجر الحلاق فأخبره بأنه أصبح أحدوثة المدينة لا الحى وحده . . وأن معجزته هزت أركان القصر السلطانى . . ولما علم بالمقابلة الوشيكة بينه وبين الحاكم ، قال عجر :

ـ لا تبال بأحد فإنك أقوى رجل فى الدنيا ، والناس الآن بين اثنين ، من يخشى قوتك حرصا على جبروته ومن يرجوها رحمة بضعفه . .

فقال مداريا حزنه الخفى بابتسامة :

ـ تذكر يا عجر أننى من عباد الله المطيعين . .

فدعا له بالفوز والنجاح . .

٦

وجد فى انتظاره فى بهو الاستقبال عباس الخليجى الحاكم وسامى شكرى كاتم السر وخليل فارس كبير الشرطة والمفتى ونفرا من الأعيان . . تأملوا رثاثة ملابسه بدهشة ، ولكن الحاكم دعاه إلى الجلوس إلى جانبه على سريره مرحبا به غاية الترحيب فجلس بثقة ، هدفا للنظرات المستطلعة المحترقة المذعورة . . قال الحاكم :

ـ علمت أنك ملكت خاتم سليمان؟

فقال بثقة ونبرة لم تخل من نذير :

ـ إنى على استعداد لإقناع من فى قلبه شك . .

فقال الحاكم :

ـ بل أردت أن أعرف ـ فى نطاق مسئوليتى ـ كيف ملكته؟

ـ لم يسمح لى بإفشاء السر . .

ـ كما ترى ، إن تشريفك دارى يقطع بثقتك بى وهو ما أحمد الله عليه . .

فقال بدهاء :

ـ الحق أنه لا شأن لذلك بثقتى بك ، فلا أنت ولا غيرك بمستطيع أن يمسنى بسوء . .

فأحنى الحاكم رأسه موافقا ومداريا تأثره فى آن وقال :

ـ رأيت وإخوانى أن من واجبنا أن نتبادل الرأى معك ، الله يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ، ولكننا مطالبون بعبادته فى جميع الأحوال . .

فقال بجرأة :

ـ ما أجدر أن توجه خطابك لنفسك ولإخوانك !

فامتقع وجه الحاكم ، وهو يقول :

ـ حقّا لقد تولينا السلطة فى أعقاب تجارب مرة ولكننا ملتزمون بالشريعة منذ ولينا . .

فقال بنفس الجرأة :

ـ العبرة بالخواتيم . .

ـ لنَ يرى منا أحد إلا ما يسر ولتكن لنا قدوة فى مولانا السلطان شهريار . .

ـ غير منكور أنه فتح صفحة جديدة وإن لم يبلغ الكمال المنشود بعد . .

ـ الكمال لله وحده . .

ونظر الحاكم نحو المفتى ، فقال المفتى :

ـ لى كلمة يا معروف ، تقبلها من رجل لا يخشى إلا الله وحده ، الله يمتحن عباده فى السراء والضراء وهو الأقوى دائما وأبدا ، وهو سبحانه يحاكم القوى من خلال قوته كما يحاكم الضعيف من خلال ضعفه ، وقد ملك قبلك آحاد خاتم سليمان فكان وبالا عليهم فلتكن فى امتلاكك له آية للمؤمنين وموعظة للمشركين . .

ابتسم معروف منتفخا بقوة من ساد الموقف وقال :

ـ اسمعوا أيها الرجال الكبار ، إنه لمن يمن الطالع أن خاتم سليمان قدر أن يكون من نصيب رجل مؤمن يذكر الله بكرة وعشيا ، إنه قوة لا قبل لقوتكم بها ولكنى أدخرها للضرورة ، كان بوسعى أن آمر الخاتم بتشييد القصور وتجييش الجيوش والاستيلاء على السلطنة ، ولكننى قررت أن أتبع طريقا آخر . .

تنفس الحاضرون بارتياح لأول مرة فانهال عليه الثناء من كل جانب . . عند ذاك قال وقلبه يخفق :

ـ ولكن لا يجوز أن أهمل نعمة أتاحها الله لى . .

فتطلعوا إليه باهتمام فقال :

ـ يلزمنى فى الحال ألف دينار لأصلح به شأنى . .

فقال الحاكم بارتياح :

ـ سأراجع حساب ما تحت يدى من مال ، فإن لم يكف طلبت معونة من مولاى السلطان . .

٧

ونال معروف ما تمنى من مال وأغدق عليه الأعيان الهدايا بغير حساب . . ابتاع قصرا وكلف المعلم سحلول بتأثيثه فخلق له منه متحفا . . وتزوج من حسنية صنعان أخت فاضل . . وقرب إليه صحبه عجر الحلاق وإبراهيم السقاء ورجب الحمال، وأمطر الفقراء بجوده وحمل الحاكم على توفير أرزاقهم ورعايتهم واحترامهم فحلت بشاشة الأنس فى وجوههم محل تجاعيد الشقاء، وأحبوا الحياة كما يحبون الجنة . .

٨

وذات يوم دعى إلى مقابلة السلطان شهريار فمضى إليه وهو يبسمل ويحوقل ويتمنى السلامة . . استقبله السلطان فى مثواه الشتوى والمعروف ببهو المرجان، تفرس فيه بهدوء وقال :

ـ أهلا بك يا معروف، لقد سمعت بأذنى فى جولاتى الليلية ثناء العباد عليك فشاقنى ذلك إلى رؤيتك . .

فقال معروف وهو يغالب خفقان قلبه :

ـ نعمة هذا اللقاء عندى أغلى من خاتم سليمان نفسه يا مولاى .

ـ شعور كريم لرجل كريم . .

فحنى معروف رأسه وهو طيلة الوقت يتساءل عما يفعل لو طالبه السلطان بمعجزة . . أتنصرف يا معروف من القصر إلى النطع؟ قال السلطان متسائلا :

ـ كيف عثرت على الخاتم يا معروف؟

فأجاب وقلبه ينقبض :

ـ تعهدت بحفظ السر يا مولاى . .

ـ لك العذر يا معروف، ولكن ألا أستطيع أن أراه من بعيد دون أن أمسه؟

ـ ولا هذا أيضا يا مولاى، ما أتعسنى لعجزى عن تحقيق رغبتك!

ـ لا عليك من ذلك . .

ـ شكرا لرحمتك يا مولاى . .

فقال بعد تفكير :

ـ إنى أعجب لشأنك ، فلو شئت الجلوس على عرشى ما منعتك قوة فى الأرض !

فهتف معروف مستنكرا :

ـ معاذ الله يا مولاى ، ما أنا إلا عبد مؤمن ، لا تغريه قوة بالتعرض لمشيئة الله . .

ـ إنك مؤمن حقّا ، والخاتم فى يد المؤمن عبادة !

ـ الحمد لله رب العالمين . .

فسأل السلطان باهتمام :

ـ هل حظيت بالسعادة يا معروف ؟

ـ سعادة بلا حدود يا مولاى . .

ـ ألا يفسد الماضى عليك سعادتك أحيانا ؟

ـ ما مضى سلسلة من تعاسات تلقيتها من الآخرين ، ولكنى لم أرتكب ما أندم عليه !

ـ هل تنعم بالحب يا معروف ؟

ـ الحمد لله ، لى زوجة تهب السعادة مع أنفاسها . .

ـ جميع ذلك بفضل الخاتم ؟

ـ بفضل الله يا مولاى !

فصمت السلطان مليا ، ثم سأله :

ـ أتستطيع أن تهب السعادة للآخرين ؟

ـ لا حدود لقوة الخاتم ، ولكنه لا يستطيع اقتحام القلوب . .

تجلى فى أعماق عينى شهريار فتور يوحى بخيبة الرجاء ، ولكنه ابتسم قائلا :

ـ دعنى أراك وأنت ترتفع فى الفراغ حتى تمس عمامتك نقوش قبة البهو !

انقض الطلب عليه كقمة جبل قذف بها زلزال ، تطايرت آماله هباء وأيقن بالهلاك . . قال بحرارة :

ـ لا يليق فى حضرة السلطان إلا الأدب . .

ـ إنما تطير بناء على طلبى . .

ـ مولاى ، إنى عبدك معروف الإسكافى . .

ـ أتدين لى بالطاعة يا معروف ؟

أجاب من حلق جاف :

ـ الله شهيد على ذلك . .

ـ إنى آمرك يا معروف!

نهض من مجلسه فتربع فى وسط البهو . . ناجى ربه فى سره «ربى لتكن مشيئتك . . لا تدع كل شيء يتلاشى كحلم» . . ومن قلب مكلوم يائس همس :

ـ ارتفع يا جسدى حتى تمس عمامتى السقف . .

وأغمض عينيه مستسلما لمصيره الأسود . ولما لم يحدث شيء هتف من قلب معذب «الرحمة يا مولاى!» . . وقبل أن ينبس بكلمة أخرى دبت فى قلبه حيوية ملهمة فخف وزنه وتلاشى خوفه . . وإذا بالقوة المجهولة ترتفع به فى هدوء ووقار وهو متربع على لا شيء . . والسلطان يتابعه مذهولا متخليا عن رصانته . . مغلوبا على أمره . . حتى مست عمامته القبة المرجانية ، ثم مضى يهبط رويدا حتى استقر فى مجلسه . . هتف السلطان :

ـ ما أتفه السلطنة! ما أتفه الغرور!

ولم يستطع أن يعقب بكلمة فقد فاق ذهوله ذهول السلطان نفسه!

٩

عجز عجزا تاما عن إدراك ما يقع له . . وقد حاول أن يستغل قوته الخفية فى داره فلم تستجب له ولكنه حمد الله على النجاة . . ليكن من أمر قوته ما يكون . . ولتختف ما شاءت ما دامت تبادره بالنجاة فى المواقف الحاسمة . . وطرد وساوسه وتوكل على الله . . وكان جالسا فى حديقة داره يتشمس عندما طلب مقابلته رجل غريب . . حسبه ذا حاجة فأمر بإحضاره . . قدم عليه يرفل فى عباءة فارسية فاخرة . . طويل العمامة ، مهذب اللحية ، مترفع النظر ، فلم يداخله شك فى علو منزلته . . أجلسه بترحاب متسائلا :

ـ من الضيف الكريم؟

فأجاب باقتضاب وبنبرة مثل طرقة المطرقة فوق معدن صلب :

ـ أنا صاحب هذا القصر!

فأخذ معروف وقال بحدة :

ـ أى هذيان!

فأعاد الرجل قوله بقوة أشد :

ـ إنى صاحب هذا القصر . .

فصاح به :

ـ إنى صاحبه دون شريك . .

تحداه بنظرة وقحة وقال :

ـ ما أنت إلا دجال محتال!

فصاح معروف غاضبا :

ـ مجنون وقح!

ـ لقد خدعت الجميع ، حتى السلطان الأحمق ، ولكننى أعرفك أكثر مما تعرف نفسك . .

فقال منذرا :

ـ فى وسعى أن أحولك إلى هشيم تذروه الرياح!

فقال ساخرا :

ـ إنك لا تحسن إلا رتق النعال أو إصلاحها ، أتحداك أن تصنع بى ما يضر!

غاص قلبه متراجعا ساحبا معه ثقته بنفسه ، ولكنه تساءل بصوت خانته نبرته رغم تماسكه :

ـ لعلك لم تسمع عن المعجزة فى مقهى الأمراء؟

ـ نعم ، لم أسمع عنها ؛ لأننى أنا الذى صنعتها فلا تحاول خداعى ، وأنا الذى أنقذتك من العجز فى حضرة السلطان .

توسل فى سره إلى خاتم سليمان أن يمحق الرجل محقا . . ولما لم يحدث شىء انثنى جذعه تحت ثقل اليأس فتساءل فى خوف :

ـ من أنت؟

ـ إنى سيدك وولى نعمتك . .

تأوه ولاذ بالصمت ، فقال الآخر :

ـ بيدك أن تحفظ النعمة إذا شئت!

فسأله بصوت لا يكاد يسمع :

ـ ماذا تريد؟

فقال بهدوء :

ـ اقتل عبد الله البلخى والمجنون!

فاجتاحه الرعب وقال بانكسار :

ـ إنى أعجز من أن أقتل نملة!

ـ أدبر لك الوسيلة!

ـ لم تستعين بى وأنت القوى؟

ـ لا شأن لك بذلك . .

تذكر الشرك الذى سقط فيه فاضل . . تذكر مآسى صنعان الجمالى وجمصة البلطى . . قال بضراعة :

ـ أستحلفك بالله أن تعفينى من مطالبك . .

فقال الآخر ساخرا :

ـ ليس أسهل علىَّ من أن أقنع الحاكم باحتيالك ، إنهم لا يأمنون جانبك ، ويتمنون هلاكك ليتحرروا من استعبادك المهذب لهم . ستدعى سريعا لصنع معجزة أمامهم ، وإذا أخفقت ولا بد أن تخفق انقضوا عليك كالنمور . .

تجلت فى عينيه نظرة يائسة حزينة عمياء ، ولكن الآخر لم يرحمه فقال :

ـ إنى منتظر رأيك . .

فهتف بحدة :

ـ اغرب عن وجهى ، لا أستطيع تركيز فكرى فى حضورك . .

فقام قائلا :

ـ سأغيب عنك ساعة ، وإذا لم تدعنى جاء كبير الشرطة بديلا عنى!

قال ذلك وذهب . .

١٠

تركه فى جحيم مستعر . . هو يقتل عبد الله البلخى والمجنون؟! أجل . إنه حريص على النعمة ولكنه طيب وضعيف ومؤمن . . وتجاذبته التخيلات ، ولكنه كان يتشبث دائما بالأرض عند حافة الهاوية . . وفى ظلمات العذاب أشرق عليه خاطر سعيد . . لم لا يهرب بحسنية والمال؟ واندفع نحو الدار فأمر زوجته بارتداء عباءتها ، وعبأ نقوده فى بقجة . . سألته زوجته عما يعنيه ذلك فأخبرها بأنها ستعرف السر عندما يصلان إلى بر الأمان . . وامتطيا بغلتين وانطلقا وفى نيته أن يذهبا إلى مرفأ النهر . . لكنه رأى وهو يقترب من نهاية الشارع خليل فارس كبير الشرطة قادما على رأس قوة من الجند . .

١١

انفجرت الفضيحة فدوت طبولها فى أركان المدينة . . ومشى الرواة باعترافات معروف الإسكافى فى كل مكان . . اطمأنت قلوب وتدحرجت قلوب إلى الهاوية . . عرف أن النطع سيستقبل معروف عما قليل وأنه سيلحق بفاضل صنعان وعلاء الدين . . خرج الفقراء والمساكين من أكواخهم إلى الميادين بلا تدبير . . اندفعوا وراء مشاعرهم القلقة الدفينة . . و فى تجمع لا مثل له وجدوا أنفسهم جسما عملاقا لا حدود له يجأر بالاحتجاج والخوف من المستقبل . . سيتلاشى معروف فيتلاشى الرزق وتكفهر لهم الوجوه من جديد، تبودلت أنات الشكوى فى هيئة همسات مبحوحة، ثم غلظت واحتدمت بالمرارة، ثم تلاطمت كالصخور وبسبب من القوة المتجسدة المخلوقة من عدم تأجج الغضب . . شعروا بأنهم سد منيع بتكتلهم، وأنهم طوفان إذا اندفع :

ـ معروف برىء . .

ـ معروف رجيم . .

ـ معروف لن يموت . .

ـ الويل لمن يمسه بسوء . .

وما إن نادى صوت بالذهاب إلى دار الحاكم حتى اندفعت الجموع كأنها سيل ينصب من فوق قمة جبل تبعث فى الجو هديرا . . وعند أول شارع دار الإمارة اعترضهم الجنود المدججون بالسلاح . . سرعان ما نشبت معركة بين السهام والزلط، تواصلت فى عنف تحت غيم ينذر بالمطر . . وقبيل الغروب دوت طبول وصاح مناد:

ـ كفوا عن الشغب . . مولانا السلطان قادم بنفسه . .

تحاجز الفريقان وساد الصمت . . جاء الموكب السلطانى فى قوة كبيرة من الفرسان، ودخل شهريار دار الإمارة محوطا برجال دولته . . استغرق التحقيق طيلة الليل . . وخرج المنادى قبيل الفجر ورذاذ يتساقط فى نعومة يغسل الوجوه المشتعلة بالقلق . . توقع العباد توقعات كثيرة ولكن لم يبلغ بهم الخيال ما حصل . . صاح المنادى :

ـ جرت مشيئة السلطان بنقل الحاكم إلى رياسة حى آخر على أن يقلد ولاية الحى معروف الإسكافى . . !

تعالت الهتافات مدوية، وثمل العباد بالفوز المبين .

السندباد

١

رفع معروف حاكم الحى ـ بكل خشوع ـ اقتراحا للسلطان بنقل سامى شكرى كاتم السر، وخليل فارس كبير الشرطة إلى حى آخر، على أن يتفضل السلطان بتعيين نور الدين كاتما للسر والمجنون كبيرا للشرطة باسم جديد هو «عبد الله العاقل» . . ومن عجب أن السلطان استجاب له، ولو أنه سأله :

ـ أتطمئن حقّا إلى المجنون كبيرا لشرطتك؟

فقال معروف بثقة :

ـ كل الاطمئنان يا مولاى . .

فدعا له بالتوفيق، ثم سأله :

ـ ماذا عن سياستك يا معروف؟

فقال الرجل بتواضع :

ـ عشت عمرى يا مولاى أصلح النعال حتى استقر الإصلاح فى دمى . .

وقد قلق الوزير دندان فقال للسلطان عقب انصراف معروف :

ـ ألا ترى يا مولاى أن حكم الحى أصبح بيد نفر لا خبرة لهم؟

فقال السلطان بهدوء :

ـ دعنا نقدم على تجربة جديدة . .

٢

وكان رواد مقهى الأمراء يتسامرون فى مرح يوافق ما طرأ على حيهم عندما ظهر فى مدخل المقهى رجل غريب نحيل القامة مع ميل للطول، أسود اللحية رشيقها، يستقر فى عباءة بغدادية وعمامة دمشقية ومركوب مغربى، وبيده مسبحة فارسية حباتها من اللؤلؤ النفيس . . انعقدت الألسنة وانجذبت نحوه الأبصار . . وعلى الرغم من أنه غريب فإنه

أجال بينهم عينين باسمتين مشبعتين بألفة أهل الدار . . وعلى حين فجأة وثب رجب الحمال قائما وهو يصيح :

ـ سبحانك ربى ، ما أنت إلا السندباد!

قهقه القادم بحبور ، تلقى بين ذراعيه رفيقه القديم فتعانقا بحرارة . . وسرعان ما تلاقت الأيدى فى مصافحة صادقة ، ثم مضى إلى موضع خال جنب المعلم سحلول ساحبا معه صديقه وهذا يقاوم فى حياء هامسا :

ـ هذا مكان السادة!

فقال السندباد :

ـ أنت وكيل أعمالى منذ الساعة!

وسأله شملول الأحدب :

ـ كم عاما مضت فى غيابك يا سندباد؟

فقال بحيرة :

ـ الحق أننى نسيت الزمن!

فقال عجر الحلاق :

ـ كأنها عشرة قرون!

فقال الطبيب عبد القادر المهينى :

ـ رأيت عوالم وعوالم ، ماذا رأيت يا سندباد؟

فنعم الرجل بالاهتمام كثيرا ، ثم قال :

ـ لدى ما يسر ويفيد وكل شىء بأوانه . . صبركم حتى أستقر . .

فقال عجر :

ـ نحدثك نحن عما وقع لنا!

ـ ماذا فعل الله بكم؟

فأجابه حسن العطار :

ـ مات كثيرون فشبعوا موتا ، وولد كثيرون لا يشبعون من الحياة . هبط من الأعالى قوم وارتفع من القعر قوم ، أثرى أناس بعد جوع وتسول آخرون بعد عز ، وفد على مدينتنا عدد من أخيار الجن وأشرارهم ، وآخر أخبارنا أن وَلِىَ حكم حينا معروف الإسكافى . .

فهتف السندباد :

ـ حسبت الأعاجيب قاصرة على رحلاتى ، الآن يحق لى العجب . .

وقال إبراهيم السقاء :

ـ لا شك فى أنك أصبحت من الأغنياء يا سندباد!

فقال بامتنان :

ـ الله يهب الرزق لمن يشاء بغير حساب . .

فسأله جليل البزاز :

ـ هلا حدثتنا عن أعجب ما صادفك؟

فلوح بالمسبحة الفارسية قائلا :

ـ كل شيء مرهون بوقته، عليَّ أن أبتاع قصرا، وأفتح وكالة لعرض النوادر من نفائس الجبال وأعماق البحار ومجهول الجزر، وسأدعوكم قريبا لعشاء أقدم فيه غرائب الأطعمة والأشربة ثم أروى لكم رحلاتى العجيبة . .

٣

فى الحال وقع اختياره على قصر بميدان الفرسان فعهد إلى سحلول مهمة تأثيثه وتزيينه، وفتح وكالة جديدة فى السوق أشرف عليها من اليوم الأول رجب الحمال، وفى أثناء ذلك زار الحاكم وما إن خلا إليه حتى تعانقا عناق الرفاق القدامى . . وحكى له معروف حكايته بنفسه، فحكى له ما شاهد وما وقع به فى رحلاته السبع، وقال له السندباد بعذوبة :

ـ إنك أهل لمنصبك . .

فقال بإيمان :

ـ إنى خادم الفقراء برعاية الله . .

وزار معلم صباه الشيخ عبد الله البلخى فقبّل يديه وقال له :

ـ لم أمكث فى رحابك إلا ما اقتضته التربية الأولية، ولكنى ربحت منه كلمات أضاءت لى الظلام فى الملمات . .

فقال الشيخ ملاطفا :

ـ لا جدوى من بذرة صالحة إلا فى أرض طيبة . .

فقال بحماس :

ـ لعلك راغب فى سماع مغامراتى يا مولاى؟

فقال الشيخ باسما :

ـ ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم من اتبع العلم واستعمله . .

ـ ستجد فيها يا مولاى ما يسرك . .

فقال بفتور :

ـ طوبى لمن كان همه هما واحدا ، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه ، ومن عرف الله فإنه يزهد فى كل شىء يشغله عنه . .

وتم له الاستقرار ، ودعا أصحابه إلى الوليمة ، وهناك روى لهم ما حدث له فى رحلاته السبع ، ومنهم انتشر فى الحى ثم فى المدينة فهزت الأفئدة وأشعلت الأخيلة . .

٤

وذات يوم استدعاه حاكم الحى معروف وقال له :

ـ أبشر يا سندباد مولانا السلطان شهريار يرغب فى رؤيتك . .

فسُرَّ بذلك أيما سرور ومضى من فوره إلى القصر بصحبة كبير الشرطة عبد الله العاقل . . غير أنه لم يتشرف بالمثول بين يدى السلطان إلا أول الليل فذهبوا به إلى الحديقة . . جلس حيث أجلس فى ظلمة شاملة ، وأنفاس الربيع تنفذ فى أعماقه أخلاطا من روائح الزهور وتحت سقف يومض بالنجوم . . كان السلطان يتحدث بهدوء ولطف فاطمأن قلبه وزايلته الرهبة وحل الأنس والحب . . سأله عن عمله الأول وعن حظه من العلوم وعما جعله يعزم على الرحلة . . فأجاب بإيجاز يناسب المقام ، وبصراحة وصدق . . قال شهريار :

ـ حدثنى قوم عن رحلاتك فرغبت أن أسمع منك ما تعلمته منها إن كنت حظيت منها بعلم نافع فلا تكرر إلا ما تقتضيه الضرورة . .

فتفكر سندباد مليا ، ثم قال :

ـ الله المستعان يا مولاى . .

ـ إنى مصغ إليك يا سندباد . .

ملأ الرجل صدره بالأريج الطيب ، ثم قال :

ـ تعلمت يا مولاى أول ما تعلمت أن الإنسان قد ينخدع بالوهم فيظنه حقيقة وأنه لا نجاة لنا إلا إذا أقمنا فوق أرض صلبة ، فإنه لما غرقت سفينتنا فى رحلتنا الأولى

سبحت متعلقا بلوح من ألواحها حتى اهتديت إلى جزيرة سوداء، شكرنا الله ـ أنا ومن معى ـ وجلنا فى أنحائها نفتش عن ثمرة ولما لم نجد تجمعنا على الشاطئ متعلقة آمالنا بأى سفينة تعبر. . وما ندرى إلا وأحدنا يصيح:

ـ الأرض تتحرك!

نظرنا فوجدناها تميد بنا فركبنا الفزع، وإذا بآخر يصيح:

ـ الأرض تغرق. .

أجل. كانت تغوص فى الماء! ورميت بنفسى فى الماء. . وضح لنا أن ما ظنناه أرضا لم يكن إلا ظهر حوت كبير أزعجته حركتنا فوقه فمضى إلى عالمه يحف به الجلال. . وسبحت مسلما أمرى للمقادر حتى ارتطمت يداى بصخور، ومنها زحفت إلى جزيرة حقيقية يجرى فيها الماء وتكثر الفاكهة، عشت بها زمنا حتى مرت بى سفينة فنجوت بها. .

فتساءل السلطان:

ـ وكيف تفرق بين الوهم والحقيقة؟

فقال بعد تردد:

ـ علينا أن نستعمل ما وهبنا الله من حواس وعقل. .

فهز السلطان رأسه وقال:

ـ استمر يا سندباد. .

فقال السندباد:

ـ تعلمت أيضا يا مولاى أن النوم لا يجوز إذا وجبت اليقظة وأنه لا يأس مع الحياة، فقد ارتطمت السفينة بصخور ناتئة فتحطمت وانتقل من عليها إلى جزيرة، جزيرة جرداء لا ماء فيها ولا شجر ولكننا حملنا معنا أغذية وقرب مياه، ورأيت صخرة كبيرة على مبعدة يسيرة فقلت أنام فى ظلها ساعة. . ونمت، وصحوت فلم أجد لإخوانى أثرا، ناديت فلم أسمع مجيبا، عدوت نحو الشاطئ فرأيت سفينة تنحدر وراء الأفق، ورأيت الأمواج تهدر منشدة نشيد اليأس والموت، أدركت أنها انتشلت أصحابى وأنهم فى نشوة النجاة نسوا صاحبهم النائم وراء الصخرة، لا نأمة تصدر عن حى، ولا شىء يعلو عن سطح الأرض الجرداء إلا الصخرة، ولكن أى صخرة؟! نظرت بعينى اللتين أحدهما الفزع فتبين لى أنها بيضة لا صخرة كما بدت لعينى المرهقتين، بيضة فى حجم بيت كبير، بيضة أى طائر؟! ودهمنى الفزع من ذاك العدو المجهول وأنا أغوص فى خلاء الموت البطىء. . وإذا بنور الشمس ينطفئ وينتشر جو أسمر كالمغيب فرفعت بصرى فرأيت كائنا كالنسر ولكنه يفوقه فى الحجم

مئات المرات، رأيته يهبط وئيدا حتى يرقد فوقها، أدركت أنه يحتويها ليطير بها فخطرت لى فكرة جنونية فربطت نفسى فى طرف ساقه الشبيه بالصارى، وحلق بى طائرا فوق الأرض فبدا لعينى كل شىء صغيرا تافها كأنما لا ينبض به أمل أو ألم، حتى حط فوق قمة جبل، ففككت رباطى وزحفت إلى ما وراء شجرة فارعة لم أر مثلها من قبل، واستراح الطائر ساعة ثم واصل رحلته نحو المجهول فقهرنى النوم، ولما استيقظت كانت الشمس تشتعل فى الضحى، التهمت من حشائش الأرض ما أسكت جوعى ورويت عطشى من نقرة مترعة بماء صاف، عند ذاك انتبهت إلى أن الأرض تعكس إشعاعا يبهر البصر فتفحصته فتكشف لى سطح الأرض عن ماس حر، وتحرك طموحى رغم تعاستى فقلعت منه ما استطعت وصررته فى سروالى، وانحدرت فوق السطح حتى انتهيت إلى شاطئ حيث أنقذتنى سفينة عابرة . .

قال شهريار بهدوء :

ـ إنه الرخ الذى نسمع عنه ولا نراه، إنك أول إنسان يسخره لأغراضه يا سندباد فاعلم ذلك أيضا . .

فقال سندباد بحياء :

ـ إنها مشيئة الله المتعال .

ثم واصل حديثه قائلا :

ـ تعلمت أيضا يا مولاى أن الطعام غذاء عند الاعتدال ومهلكة عند النهم، ويصدق على الشهوات ما يصدق عليه، فقد تحطمت السفينة كسابقتها فوجدنا أنفسنا فى جزيرة يحكمها ملك عملاق لكنه كريم مضياف، رحب بنا ترحيبا فاق جميع آمالنا، ولم يكن لنا فى كنفه إلا الاسترخاء والسمر، وقد قدم لنا من صنوف الطعام وألوانه ما لا يخطر ببال فأقبلنا على الطعام كالمجانين، غير أن كلمات قديمة تلقيتها فى صباى عن مولاى الشيخ عبد الله البلخى صدتنى عن الإفراط ويسرت لى وقتا طويلا للعبادة على حين أنفق أصحابى وقتهم فى التهام الطعام والنوم الثقيل فى أعقاب الامتلاء، فازداد وزنهم زيادة فظيعة واكتظوا باللحم والدهن فانقلبوا كالبراميل . . وجاء الملك ذات يوم فتأملنا رجلا رجلا، ثم دعا أصحابى إلى قصره والتفت إلىّ قائلا فى ازدراء :

ـ إنك كالأرض الصخرية لا تثمر . .

فحزنت لذلك . . وخطر لى أن أتسلل بليل لأرى ما يفعل أصحابى، فرأيت رجال الملك وهم يذبحون الربان ويقدمونه للملك فالتهمه بوحشية وتلذذ، فطنت فى الحال إلى سر كرمه، وهربت إلى الشاطئ حتى أنقذتنى سفينة . .

تمتم السلطان :

ـ أبقاك تورعك يا سندباد . .

ثم قال وكأنما يحادث نفسه :

ـ ولكن الملك أيضا فى حاجة إلى الورع !

استبقى السندباد صدى تعليق السلطان دقيقة ، ثم واصل حديثه قائلا :

ـ تعلمت أيضا يا مولاى أن الإبقاء على التقاليد البالية سخف ومهلكة ، فقد غرقت السفينة وهى فى طريقها إلى الصين فلذت ومعى نفر من المسافرين إلى جزيرة غنية معتدلة الجو يسودها السلام ويحكمها ملك طيب ، وقال لنا :

ـ سأعتبركم ضمن رعاياى . لكم ما لهم وعليكم ما عليهم . .

فسررنا بذلك ودعونا له . . ومبالغة فى إكرامنا وهبنا من جواريه زوجات جميلات . . فطابت لنا الحياة وتيسرت المعيشة . . وحدث أن تُوفيت إحدى الزوجات فجهزها الملك للدفن ، وقال لصاحبنا الأرمل :

ـ يؤسفنى فراقك فإن تقاليدنا تقضى بدفن الزوج حيا مع زوجته الميتة ، وهو يجرى على الزوجة إذا سبقها الزوج إلى النهاية . .

فارتعب صاحبنا ، وقال للملك :

ـ ولكن ديننا لا يكلفنا بذلك . .

ولكن الملك قال له :

ـ لا شأن لنا بدينكم ، وتقاليدنا مقدسة . .

ودفن الرجل حيا مع جثمان زوجته فتكدر صفونا وتجهم لنا المستقبل . . وجعلت أراقب زوجتى مشفقا ، وكلما اشتكت توعكا خفيفا زلزل كيانى كله . . وعندما جاءها المخاض ساءت حالتها فما كان منى إلا أن هربت إلى الغابة حتى عبرت سفينة ذات يوم قريبا من الشاطئ فألقيت بنفسى فى الماء وسبحت نحوها وأنا أستغيث حتى انتشلتنى وأنا على وشك الغرق . .

فغمغم السلطان وكأنما يخاطب نفسه :

ـ التقاليد هى الماضى ، ومن الماضى ما يجب أن يصبح فى خبر كان !

خُيِّل إليه أن لحديث السلطان بقية فآوى إلى الصمت غير أن شهريار قال :

ـ استمر يا سندباد . .

قال السندباد :

ـ تعلمت أيضا يا مولاى أن الحرية حياة الروح وأن الجنة نفسها لا تغنى عن الإنسان

شيئا إذا خسر حريته، فقد لقيت سفينتنا عاصفة أودت بها فلم ينج من رجالها أحد سواى. . قذف بى الموج إلى جزيرة فيحاء، معتدلة الجو غنية بالثمار والجداول، فشبعت وارتويت واغتسلت ومضيت فى جنباتها مستطلعا فصادفنى عجوز ملقى تحت شجرة لا حول له ولا قوة فتوسل إلىَّ قائلا :

ـ إنى عاجز كما ترى، فهلا حملتنى إلى كوخى؟

وأشار بذقنه ناحية فما ترددت عن حمله. . ورفعته فوق منكبى وسرت به إلى حيث أشار. . لم أعثر لكوخه على أثر فسألته :

ـ أين مأواك يا عم؟

فقال بصوت قوى غير الذى خاطبنى به أول مرة :

ـ الجزيرة مأواى، وهى جزيرتى، ولكنى فى حاجة إلى من يحملنى!

فأردت إنزاله عن كاهلى ولكنى عجزت عن زحزحة رجليه عن عنقى وضلوعى كأنما هو بناء مثبت بالحديد فتوسلت إليه بدورى :

ـ اتركنى وستجدنى عند الحاجة فى خدمتك. .

ولكنه ضحك ساخرا منى متجاهلا لتوسلاتى. . هكذا قضى علىَّ أن أعيش عبدا له فلم يطب لى صحو ولا نوم، ولم أهنأ بلذيذ المأكل والمشرب، حتى خطرت لى فكرة فجعلت أعصر عنبا فى نقرة، وتركته حتى تخمر، ثم أسقيته منه حتى سكر وتراخت عضلاته الفولاذية فرميته عن كاهلى، وتناولت حجرا فحطمت به رأسه وأنقذت العالم من شره. . وسكنت فى الجزيرة زمنا سعيدا لم أدره حتى أنقذتنى سفينة. .

فتنهد شهريار قائلا :

ـ ما أكثر ما يستعبدنا فى هذه الدنيا! ماذا تعلمت أيضا يا سندباد؟

فقال السندباد :

ـ أيضا تعلمت يا مولاى أن الإنسان قد تتاح له معجزة من المعجزات ولكن لا يكتفى أن يمارسها ويستعلى بها، وإنما عليه أن يقبل عليها مستهديا بنور من الله يضىء قلبه، فقد غرقت السفينة كسابقاتها ولذت أنا بجزيرة تستحق أن أدعوها بجزيرة الأحلام. . جزيرة غنية بالحسان من كل لون وشكل. . مال قلبى إلى إحداهن فتزوجت منها وسعدت بها. . ولما اطمأن القوم إلىَّ ركبوا تحت إبطى ريشا وأخبرونى بأننى أستطيع أن أطير وقتما أشاء. . وسررت بذلك جدّا وتوثبت لاقتحام التجربة التى لم يجربها إنسان قبلى. . غير أن زوجتى قالت لى سرا :

ـ احذر أن تذكر اسم الله وأنت فى الجو وإلا احترقت!

وفى الحال أدركت أن دم الشيطان يجرى فى دمائهم فنفرت منهم وطرت مصمما على الهرب، وسبحت فى الجو طويلا ولا هدف لى إلا مدينتى حتى بلغتها بعد أن آيست من ذلك، فالحمد لله رب العالمين . .

صمت الملك مليا، ثم قال :

ـ لقد رأيت من عجائب الدنيا ما لم تره عين بشر، وتعلمت دروسا عن معاناة وخبرة فاهنأ بما رزقك الله من مال وحكمة . .

٥

قام شهريار وصدره يجيش بانفعالات طاغية . . غاص فى الحديقة فوق الممشى الملكى شبحا ضئيلا وسط أشباح عمالقة تحت نجوم لاحصر لها ولا عد . . أطبقت على أذنيه أصوات الماضى فمحت ألحان الحديقة، هتاف النصر، زمجرة الغضب، أنات العذارى، هدير المؤمنين، غناء المنافقين . . نداءات اسمه من فوق المنابر . . تجلى له زيف المجد الكاذب كقناع من ورق متهرئ لا يخفى ما وراءه من ثعابين القسوة والظلم والنهب والدماء . . لعن أباه وأمه، وأصحاب الفتاوى المهلكة، والشعراء، وفرسان الباطل، ولصوص بيت المال، وعاهرات الأسر الكريمة والذهب المنهوب المهدر فى الأقداح والعمائم والجدران والمقاعد والقلوب الخاوية والنفس المنتحرة وضحكات الكون الساخرة . .

ورجع من رحلته عند منتصف الليل فاستدعى شهرزاد فأجلسها إلى جانبه وهو يقول :

ـ ما أشبه حكايات سندباد بحكاياتك يا شهرزاد!

فقالت شهرزاد :

ـ جميعها تصدر عن منبع واحد يا مولاى . .

صمت كأنما لينصت إلى همس الغصون وزقزقة العصافير فتساءلت شهرزاد :

ـ هل ينوى مولاى الخروج إلى إحدى جولاته الليلة؟

فقال بفتور :

ـ كلا . .

ثم بصوت منخفض :

ـ أوشكت أن أضجر من كل شىء . .

فقالت بإشفاق :

ـ الحكيم لا يضجر يا مولاى . .

فتساءل بامتعاض :

ـ أنا؟! . . الحكمة مطلب عسير، إنها لا تورث كما يورث العرش . .

ـ المدينة اليوم تنعم بحكمك الصالح . .

ـ والماضى يا شهرزاد؟

ـ التوبة الصادقة تمحق الماضى . .

ـ وإن حفل بقتل الفتيات البريئات والأفذاذ من أهل الرأى؟

فقال بصوت متهدج :

ـ التوبة الصادقة . .

ولكنه قاطعها :

ـ لا تحاولى خداعى يا شهرزاد . .

ـ ولكنى يا مولاى أقول الحق . .

فقال بخشونة وحزم :

ـ الحق أن جسمك مقبل وقلبك نافر . .

فزعت . . كأنما تعرت فى الظلام، هتفت محتجة :

ـ مولاى . .

ـ لست حكيما ولكننى لست أحمق أيضا، طالما لمست احتقارك ونفورك . .

تمزقت نبراتها وهى تقول :

ـ علم الله . .

لكنه قاطعها :

ـ لا تكذبى، ولا تخافى، لقد عاشرت رجلا غارقا فى دماء الشهداء . .

ـ كلنا نلهج بحسناتك . .

فقال دون مبالاة بقولها :

ـ أتدرين لم أبقيت عليك قريبا منى؟ لأنى وجدت فى نفورك عذابا متواصلا أستحقه . أما ما يحزننى فهو أننى أؤمن بأننى أستحق جزاء أشد . .

فلم تتمالك أن بكت، فقال برقة :

ـ ابكى يا شهرزاد فالبكاء أفضل من الكذب . .

هتفت :

ـ لا أستطيع أن أتقلب فى نعمتك بعد الليلة . .

فقال محتجا :

ـ القصر قصرك ، وقصر ابنك الذى سيحكم المدينة غدا ، أنا الذى يجب أن أذهب حاملا ماضىَّ الدامى . .

ـ مولاى !

ـ على مدى عشر سنوات عشت ممزقا بين الإغراء والواجب ، أتذكر وأتناسى ، أتأدب وأفجر ، أمضى وأندم ، أتقدم وأتأخر ، أتعذب فى جميع الأحوال ، آن لى أن أصغى إلى نداء الخلاص نداء الحكمة . .

قالت بنبرة اعترافية :

ـ إنك تنبذنى وقلبى يتفتح لك . .

فقال بصرامة :

ـ لم أعد أبحث عن قلوب البشر . .

ـ إنه قضاء معاكس يعبث بنا . .

ـ علينا أن نرضى بما قدر لنا . .

فقالت بمرارة :

ـ مكانى الطبيعى هو ظلك . .

فقال بهدوء لا يتأثر بالانفعالات :

ـ السلطان يجب أن يذهب بما فقد من أهلية ، أما الإنسان فعليه أن يجد خلاصه . .

ـ إنك تعرض المدينة لأهوال . .

ـ بل إنى أفتح لها باب النقاء وأهيم على وجهى باحثا عن خلاصى . .

مدت راحتها إلى راحته فى الظلام ، لكنه سحب يده قائلا :

ـ انهضى لمهمتك ، لقد أدبت الأب ، وعليك أن تعدى الابن لمصير أفضل . .

٦

ظن السندباد أنه سينعم بمسرات العمل والسمر حتى نهاية العمر ولكنه رأى حلما . . ولما استيقظ لم ينس الحلم ولم يتلاش أثره . . ما هذا الحنين؟ هل قدر له أن يمضى العمر

تتقاذفه أمواج البحار؟ منذا الذى يناديه من وراء الأفق؟ أيريد من الدنيا أكثر مما أعطته؟ أغلق وكالته مساء ومضى إلى دار عبد الله البلخى وهو يقول عنده الرأى . . ولمح فى طريقه إلى حجرة الشيخ زبيدة ابنته فمادت به الأرض واجتاحه هدف جديد للزيارة لم يخطر بباله من قبل . . وجد الشيخ ووجد معه الطبيب عبد القادر المهينى . . جلس حائرا مترددا، ثم قال :

ـ جئت يا مولاى طالبا يد كريمتكم . .

فثقبه الشيخ بنظرة باسمة وقال :

ـ كلا ، دفعك للمجىء دافع آخر!

فبهت السندباد ولم ينبس . . فقال الشيخ :

ـ ابنتى مذ قتل زوجها علاء الدين قد كرست نفسها للطريق . .

فتمتم السندباد :

ـ الزواج لا يصد عن الطريق . .

ـ قالت كلمتها النهائية فى ذلك!

تنهد السندباد آسفا ، فسأله الشيخ :

ـ ماذا دفعك إلىَّ يا سندباد؟

فأطال الصمت كفاصل بين الادعاء والحقيقة ، ثم همس :

ـ القلق يا مولاى . .

فتساءل عبد القادر المهينى :

ـ هل أصاب تجارتك الكساد؟

فقال السندباد :

ـ إنه قلق من لا يجد سببا ملموسا للقلق . .

فقال الشيخ :

ـ أفصح يا سندباد .

ـ كأنما تلقيت دعوة من وراء البحار!

فقال عبد القادر المهينى ببساطة :

ـ سافر ففى الأسفار سبع فوائد . .

فقال السندباد :

ـ رأيت فى الحلم الرخ يرفرف بجناحيه . .

فقال الشيخ :

ـ لعلها دعوة إلى السماء . .

فقال فى تسليم :

ـ إنى من رجال البحر والجزر . .

فقال الشيخ :

ـ اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات ، أولاها : أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، والثانية : أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل ، والثالثة : أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، والرابعة : أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر ، والخامسة : أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر ، والسادسة : أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت . .

فقال بأدب :

ـ لست من هؤلاء الصفوة ، ولكن باب الصلاح يتسع لآخرين . .

فقال الطبيب عبد القادر المهينى :

ـ نطقت بالصدق . .

فقال الشيخ للسندباد :

ـ إذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وارض بما قضى الله عليك . .

فقال السندباد :

ـ حسبى أنى أعبد الله يا مولاى . .

فقال الشيخ :

ـ اطلع الله على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة حرفا فشغلهم بالعبادة . .

فقال الطبيب مخاطبا الشيخ :

ـ لقد رأى وسمع ، إنى أغبطه . .

فقال الشيخ :

ـ طوبى لمن كان همه هما واحدا ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه . .

ـ انهمرت النداءات من ألف عجيبة وعجيبة . .

فردد الشيخ :

أنـا فى الغـربة أبـكى ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجى من بــلادى بمصيب
عجبـا لــى ولتركـى وطنـا فيـه حبيـــبى

فنظر المهينى إلى الشيخ مليا، ثم قال:
ـ إنه راحل يا مولاى فودعه بكلمة طيبة!
فابتسم الشيخ برقة، وقال للسندباد:
ـ إذا سلمت منك نفسك فقد أديت حقها، وإذا سلم منك الخلق فقد أديت حقوقهم..
فهوى السندباد على يده فقبّلها، ثم نظر إلى الطبيب ممتنا وهمَّ بالقيام غير أن الطبيب وضع يده على منكبه وقال:
ـ اذهب مصحوبا بالسلامة ثم عد محملا بالماس والحكم ولكن لا تكرر الخطأ..
فتجلت فى عينى السندباد نظرة حيرى، فقال المهينى:
ـ لم يطر الرخ بإنسان قبلك فماذا فعلت؟ وتركته عند أول فرصة منجذبا ببريق الماس..
ـ بل لم أكد أصدق بالنجاة..
فقال المهينى بحماس:
ـ الرخ يطير من عالم مجهول إلى عالم مجهول، ويثب من قمة الواق إلى قمة قاف فلا تقنع بشىء فهى مشيئة ذى الجلال!
وكأن السندباد قد شرب عشرة أرطال من الخمر..

البكـــــاءون

١

هجر العرش والجاه والمرأة والولد.. عزل نفسه مقهورا أمام ثورة قلبه فى وقت تناسى فيه شعبه آثامه القديمة الماضية.. اقتضت تربيته زمنا غير قصير.. لم يقدم على الخطوة الحاسمة حتى استفحل فى باطنه الخوف وهيمنت رغبته فى الخلاص.. غادر قصره بليل، عليه عباءة وبيده عصا مستسلما للمقادير.. أمامه سبيل للسياحة كما فعل

السندباد، وسبيل إلى دار البلخى، وثمة مهلة للتدبر . . قادته قدماه إلى الخلاء قريبا من اللسان الأخضر فترامى إلى أذنيه صوت غريب . . أنصت تحت هلال فى السماء الصافية فأيقن من أنه يسمع نحيبا جماعيا! قوم يبكون فى هذا الخلاء؟ مضى نحو مصدر الصوت فى حذر حتى استقر وراء نخلة . . رأى صخرة كالقبة ورجالا يتربعون حيالها فى خط مستقيم . . لا يكفون عن البكاء . . ثار فضوله وتناوبته الأفكار . . وإذا برجل منهم ينهض فيمضى إلى الصخرة وينهال عليها ضربا بقبضته، ثم يرجع إلى مجلسه ويواصل البكاء مع الباكين . . أحد شهريار بصره فعرف فى الرجال جملة من رعاياه السابقين : سليمان الزينى والفضل بن خاقان وسامى شكرى وخليل فارس وحسن العطار وجليل البزاز . . فكر أن يقتحم مجلسهم ليكشف سرهم ولكن الحذر شده إلى موقفه . . وقبيل الفجر قام أحدهم وقال :

ـ آن لنا أن نرجع إلى دار العذاب!

فكفوا عن البكاء وقاموا وهم يتواعدون على اللقاء غدا ثم مضوا نحو المدينة كالأشباح . .

٢

ما معنى هذا؟

اقترب من الصخرة . . دار حولها دورة كاملة . . ما هى إلا صخرة فى صورة قبة غير مستوية يمر بها العابر فلا تثير اهتمامه . . دنا منها فتحسس سطحها فوجده خشنا . . هوى عليه بقبضته مرات ثم همَّ بالتحول عنها عندما صدر منها إليه صوت قوى متحرك . . تكشف أسفلها عن مدخل مقوس الهامة فتراجع مرتعدا من الخوف لكنه رأى نورا هادئا عذبا، ونسمت رائحة زكية مخدرة . . زايله الخوف إن هذا الباب هو ما تاق الرجال إلى فتحه وما أحرقوا الدموع من أجله . . اقترب منه أدخل رأسه متطلعا فجذبته فتنة طاغية . . ما كاد يدخل حتى أغلق الباب وراءه ولكن فتنة المكان استحوذت عليه كله . . منير بلا ضوء . . عذب المناخ بلا نافذة، متضوع بشذا طيب بلا حديقة . . أرضه بيضاء ناصعة قدت من معدن مجهول، جدرانه زمردية، سقفه مزركش بمهرجان من الألوان المتناغمة، فى نهايته بوابة متلألئة كأنما طعمت بالماس، مضى بلا تردد متناسيا ما وراءه، ظن أنه سيبلغ البوابة فى دقيقة أو دقيقتين ولكنه مشى طويلا والممر باق على حاله لا يقصر والفتنة من الجوانب تتدفق . . أشفق من أن يكون طريقا بلا نهاية، لكنه لم يفكر فى الرجوع ولا فى التوقف وطاب له المشى العقيم إلى الأبد . . ولما أوشك أن ينسى أن لمشيه

غاية وجد نفسه يقترب من بركة صافية تقوم فيما وراءها مرآة مصقولة، وسمع صوتا يقول :

ـ افعل ما بدا لك . .

سرعان ما لبى رغائبه الطارئة فخلع ملابسه وغاص فى الماء . . دلكته نبضات الماء بأنامل ملائكية وتسللت إلى باطنه أيضا . . خرج من الماء فوقف أمام المرآة فرأى نفسه جديدا فى إهاب فتى أمرد، قوى الجسم متناسقه، بوجه مليح ينضح فتوة وشبابا، وشعر أسود مفروق وقد طرَّ بالكاد شاربه . . همس :

ـ سبحان القادر على كل شىء . .

والتفت إلى ملابسه فوجد بديلها سروالا من الحرير الدمشقى وعباءة بغدادية وعمامة خراسانية ونعلا مصريا، فارتداها فصار آية تسر الناظرين . .

وواصل السير فوجد نفسه أمام البوابة، ووجد أمامها صبية ملائكية لم يرها من قبل، سألته باسمة :

ـ من أنت؟

فأجاب بحيرة :

ـ شهريار . .

ـ ما صناعتك؟

ـ هارب من ماضيه . .

ـ متى تركت بلدتك؟

ـ منذ ساعة على الأكثر . .

فما تمالكت أن ضحكت قائلة :

ـ ما أضعفك فى الحساب!

وتبادلا نظرة طويلة، ثم قالت الصبية :

ـ انتظرناك طويلا، المدينة كلها تنتظرك . .

فتساءل فى دهشة :

ـ أنا؟!

ـ تنتظر العريس الموعود لملكتها المعظمة . .

وأشارت بيدها ففتحت البوابة مرسلة صوتا كأنين الرباب . .

٣

وجد شهريار نفسه فى مدينة ليست من صنع بشر، كأنها الفردوس جمالا وبهاء وأناقة ونظافة ورائحة ومناخا، تترامى بها فى جميع الجهات العمائر والحدائق، والشوارع والميادين المكللة بشتى الأزهار وتنتشر فوق أديمها الزعفرانى البرك والجداول، سكانها نساء، لا رجل بينهن، ونساؤها شباب، وشبابها جمال ملائكى . . وانتبهن إلى القادم فهرعن إلى الطريق الملكى المؤدى إلى القصر . .

٤

انبهر للقصر كأنه أحد صعاليك شعبه . . آمن بأن قصره القديم لم يكن سوى كوخ قذر . . قادته الصبية إلى قاعة العرش . . الملكة تضىء على عرشها بين جناحين من صبايا كاللآلئ . .

سجدت الصبية بين يدى الملكة وقالت :

ـ عريسك الموعود يا صاحبة الجلالة . .

ابتسمت الملكة ابتسامة أفقدته لبه . . سجد بدوره وهو يقول :

ـ ما أنا إلا عبد مولاتى . .

فقالت الملكة بصوت عذب كأجمل الألحان :

ـ بل أنت شريكى فى الحب والعرش . .

فقال بصدق وأمانة :

ـ يقتضى الواجب أن أصارحك بأننى عشت فى الماضى حياة طويلة حتى شارفت الشيخوخة . .

فقالت الملكة بعذوبة :

ـ لا أدرى عم تتحدث . .

ـ إنى أتحدث عن قبضة الزمن يا مولاتى . .

فقالت بسرور :

ـ ما عهدنا الزمن إلا صديقا وفيا لا يطغى ولا يغدر . .

فغمغم شهريار :

ـ سبحان الله القادر على كل شىء . .

واحتفلت المدينة بالزواج أربعين يوما . .

٥

ومضى الوقت فى حب وتأمل ، وللعبادة أيضا وقتها وهى تمارس فى الشراب والغناء والرقص . .

وتبين لشهريار أنه بحاجة إلى ألف عام لاكتشاف خبايا الحديقة وإلى ألف عام أو أكثر لمعرفة أبهاء القصر وأجنحته . . ويوما ـ وكان بصحبته الملكة ـ مر بباب صغير من الذهب الخالص فى قفله مفتاح من الذهب المحلى بالماس ، التصقت به بطاقة كتب عليها بخط أسود «لا تقرب هذا الباب» فسأل الملكة :

ـ لم هذا التحذير يا حبيبتى؟

قالت بعذوبتها المألوفة :

ـ نحن نعيش ها هنا فى حرية مطلقة فمجرد النصيحة يعتبر فى عرفنا إهانة لا تغتفر . .

ـ ألم يصدر منك كأمر ملكى؟

فقالت بهدوء :

ـ صيغة الأمر غير مستعملة عندنا إلا فى الحب ، وقد وجد كما تراه منذ ملايين السنين!

٦

وسأل زوجته مرة وهو يداعبها :

ـ متى يكون لنا وليد؟

فتساءلت فى ذهول :

ـ أتفكر فى ذلك ولما يمض على زواجنا إلا مائة عام؟!

ـ مائة عام فقط؟

ـ بلا زيادة يا حبيبى . .

فتمتم :

ـ حسبتها أياما معدودة . .

قالت بأسف :

ـ لم يمح الماضى من رأسك بعد . .

قال كالمعتذر :

ـ إنى سعيد على أى حال سعادة لم يعرفها آدمى من قبل . .

فقبّلته قائلة :

ـ ستعرف السعادة الحقيقية عندما تنسى الماضى تماما . .

٧

وكلما مر بالباب المحرم نظر نحوه باهتمام وكلما غاب عن الجناح القائم به رجع إليه . . ألح على فكره ووجدانه وجعل يقول لنفسه :

ـ كل شىء واضح إلا هذا الباب!

٨

وضعفت مقاومته ذات يوم فاستسلم لنداء خفى . . انتهز غفلة من الخادمات فأدار المفتاح . . انفتح الباب بيسر عن نغم ساحر، وشذا طيب ودخل مضطرب القلب، كبير الأمل، انغلق الباب فتجلى له مارد لم ير أقبح منه . . انقض عليه فرفعه بين يديه كعصفور . . هتف شهريار نادما :

ـ دعنى بربك!

وكأنما قد استجاب له فأرجعه إلى الأرض . .

٩

نظر فيما حوله بجنون وتساءل :

ـ أين أنا؟!

الصحراء والليل والهلال والصخرة والرجال والنحيب المتواصل . شهريار وعصاه وهواء المدينة الفاسد . . صرخ من قلب مكلوم :

ـ هوى بقبضته على الصخرة مرات حتى بض الدم منها ، ثم هتف :

ـ الرحمة . . الرحمة . .

ولكن دهمته الحقيقة واجتاحه اليأس . . تقوس ظهره وطعن فى السن . . ودون اختيار مضى نحو الرجال بخطى متعثرة وارتمى فى آخر الصف . . وسرعان ما انخرط فى البكاء مثلهم تحت الهلال . .

١٠

قبيل الفجر ذهب الرجال كالعادة ولكنه لم يذهب ولم يكف أيضا عن البكاء . . وإذا برجل يمضى فى الليل وحيدا فاقترب منه وسأله :

ـ ماذا يبكيك يا رجل؟

فقال شهريار بضيق :

ـ لا شأن لك بذلك . .

فقال الآخر وهو يتفرس فى وجهه بإمعان :

ـ إنى كبير الشرطة وما جاوزت حدودى . .

قال شهريار :

ـ لن تعكر دموعى صفو الأمن!

فقال عبد الله العاقل وهو يتمادى فى تفرس وجهه :

ـ دع هذا لتقديرى وأجبنى . .

صمت شهريار مليا ، ثم قال وكأنما غفل عن الموقف كله :

ـ جميع الكائنات تبكى من ألم الفراق!

فسأله وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

ـ أليس لك مأوى؟

ـ كلا..

ـ هل يطيب لك أن تقيم تحت النخلة قريبا من اللسان الأخضر؟

فقال دون مبالاة:

ـ ربما..

قال الرجل برقة:

ـ إليك قول رجل مجرب قال: «من غيرة الحق أن لم يجعل لأحد إليه طريقا، ولم يؤيس أحدا من الوصول إليه، وترك الخلق فى مفاوز التحير يركضون، وفى بحار الظن يغرقون، فمن ظن أنه واصل فاصله، ومن ظن أنه فاصل منّاه، فلا وصول إليه ولا مهرب عنه، ولا بد منه».

قال عبد الله العاقل ذلك ثم ذهب صوب المدينة..




https://telegram.me/maktabatbaghdad

نجيب محفوظ

١ - مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ - همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ - عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ - رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ - كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ - القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ - خان الخليلى	رواية	١٩٤٦
٨ - زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ - السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ - بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ - بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ - قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ - السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ - اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ - السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ - دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ - الطريق	رواية	١٩٦٤
١٨ - بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ - الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ - ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ - ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ - أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧

٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨

٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القـــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صـــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتـــوة العطـــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤



رقم الإيداع ١٧٥١٢/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 9 - 1786 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227